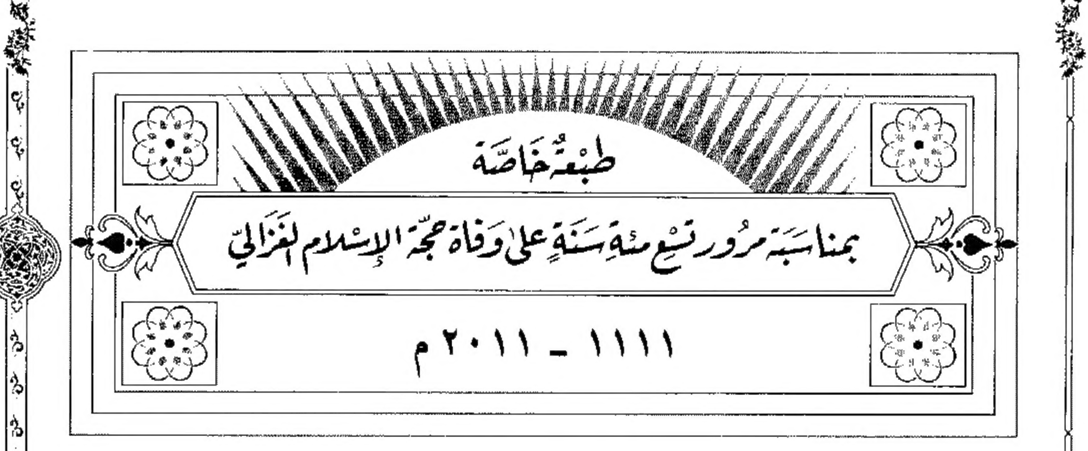
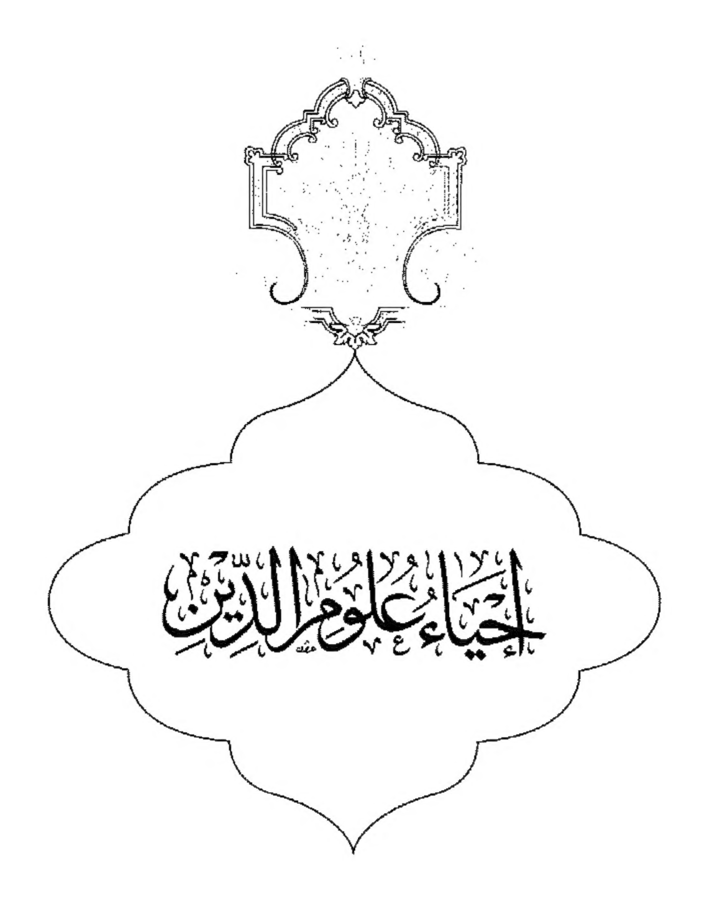
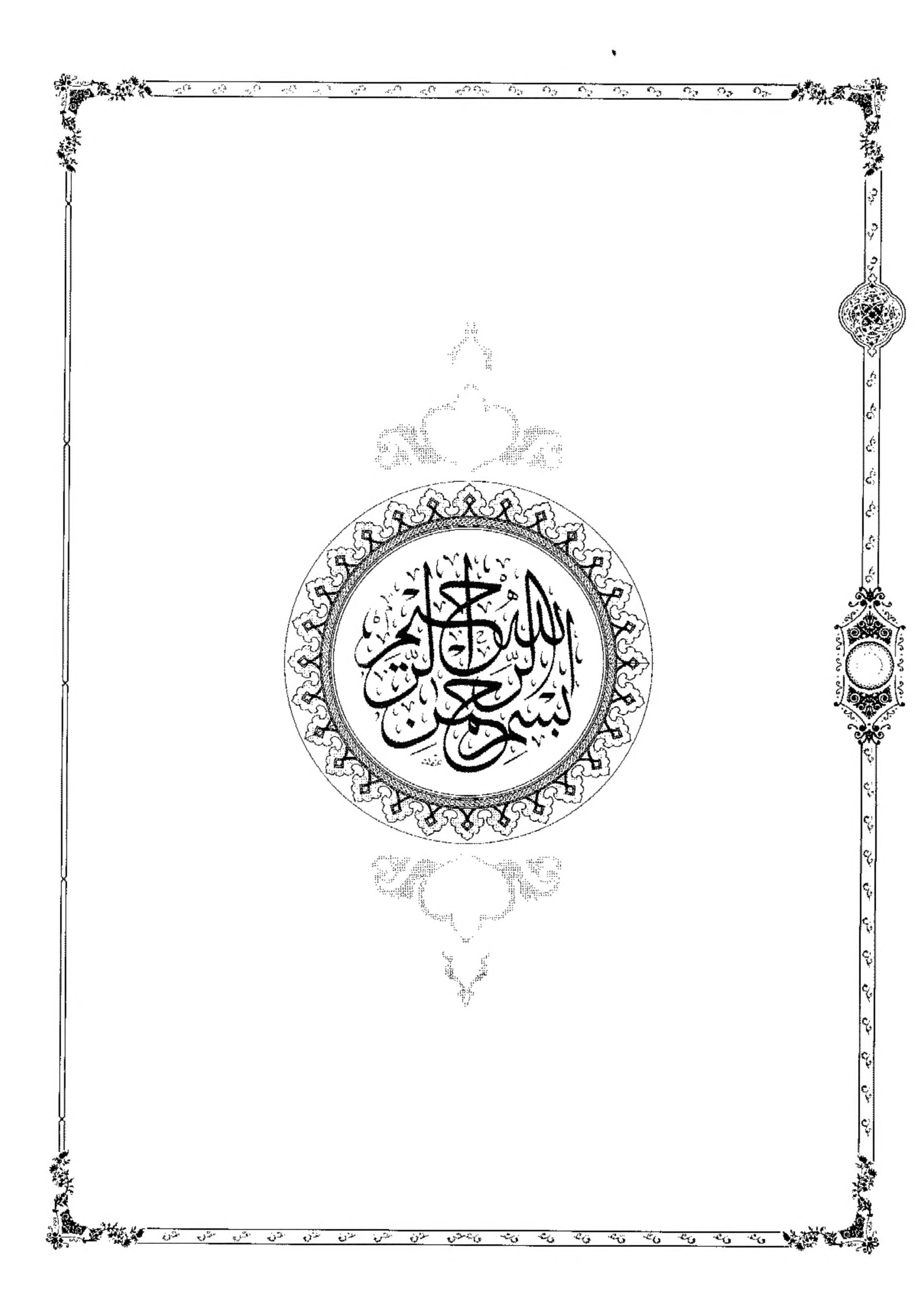


طبعة خاصة
بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي
١١١١ - ٢٠١١م



إحياء علوم الدين


بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

ربع العبادات / القسم الثاني

كتاب

أسرار الزكاة ـ أسرار الصوم ومهماته ـ أسرار الحج ومهماته

آداب تلاوة القرآن ـ الأذكار والدعوات

ترتيب الأوراد في الأوقات وتفصيل إحياء الليل



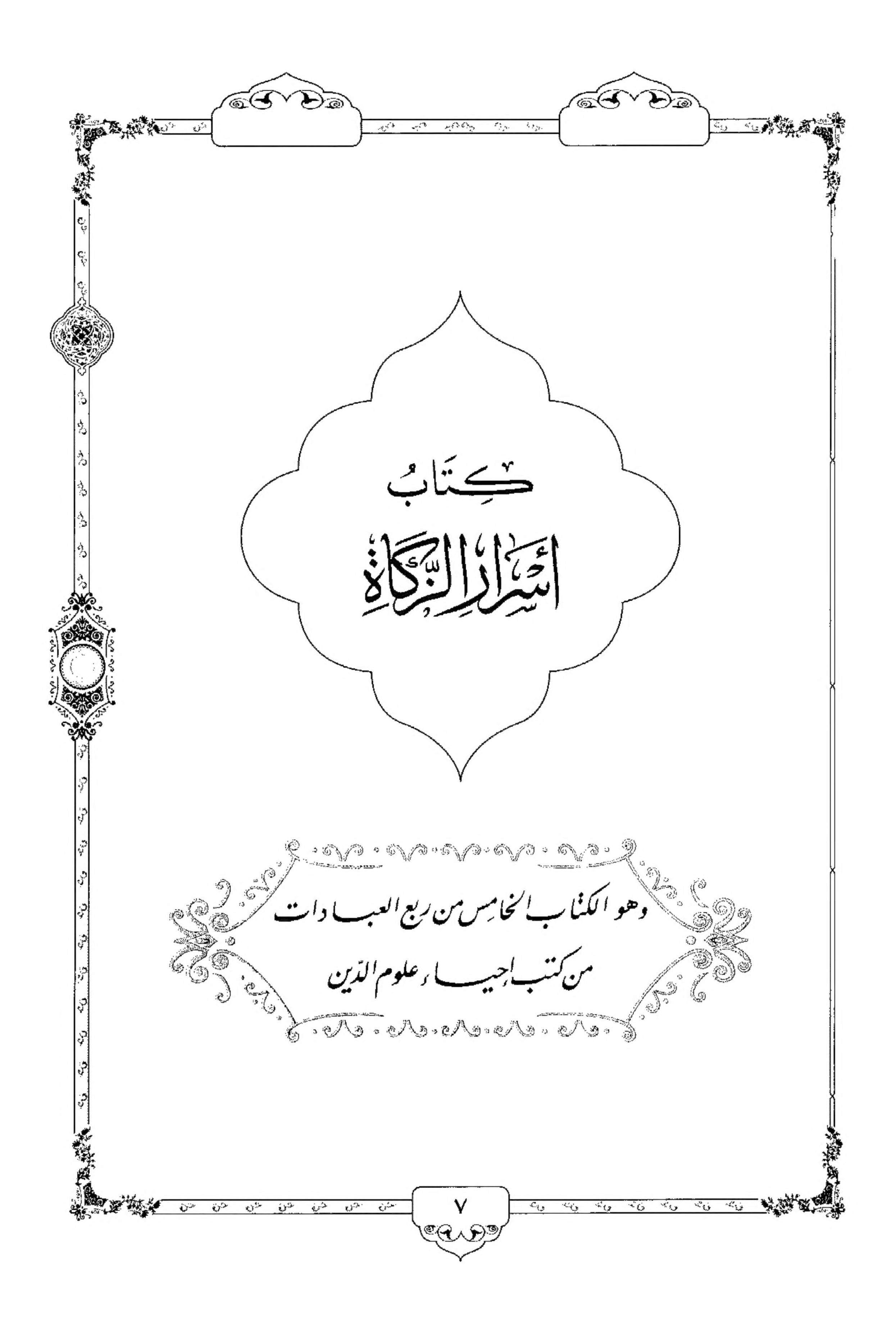
دار المنهاج

الطّبعَة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1


بسم الله الرحمن الرحيم
أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ



كِتَابُ
أَسْرَارِ الزَّكَاةِ

وهو الكتاب الخامس من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب أسرار الزكاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أسعدَ وأشقىٰ ، وأماتَ وأحيا ، وأضحكَ وأبكىٰ ، وأوجدَ وأفنىٰ ، وأفقرَ وأغنىٰ ، وأضرَّ وأقنىٰ[1] ، الذي خلقَ الحيوانَ مِنْ نطفةٍ تُمنىٰ ، ثمَّ تفرَّدَ عنِ الخلقِ بوصْفِ الغنىٰ ، ثمَّ خصَّصَ بعضَ عبادِهِ بالحسنىٰ ، فأفاضَ عليهِ مِنْ نعمِهِ ما أيسرَ بِهِ منْ شاءَ واستغنىٰ ، وأحوجَ إليهِ مَنْ أخفقَ في رزقِهِ وأكدىٰ[2] ؛ إظهاراً للامتحانِ والابتلا ، ثمَّ جعلَ الزكاةَ للدينِ أساساً ومبنى ، وبيَّنَ أنْ بفضلِهِ تزكَّىٰ مِنْ عبادِهِ مَنْ تزكَّىٰ ، ومِنْ غناهُ زكَّىٰ مالَهُ مَنْ زكَّىٰ[3] .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ المصطفىٰ سيِّدِ الورىٰ وشمسِ الهدىٰ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ المخصوصينَ بالعلمِ والتقىٰ ، وسلَّمَ كثيراً .

---

(١) أقنىٰ : أعطىٰ وأرضىٰ ، فيكون المعطوف عليه (أضرَّ) بمعنىٰ حَرَم ومنع .

(٢) الضمير في (إليه) عائد إلىٰ بعض العباد المفاض عليه ، وأكدىٰ : تعب . « إتحاف » (٦/٤) .

(٣) والضمير في (غناه) عائد إليه سبحانه ، وذلك لأن ذلك القدر المعين من مال المزكّي المسمىٰ زكاة ليس من ماله ، بل هو أمانة عنده لتوجه الأمر عليه بالإخراج ، فمن يزكّي إنما يزكي بغناه جلَّ وعزَّ . « إتحاف » (٦/٤) .

أما بعد :

فإنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ الزكاةَ إحدىٰ مباني الإسلامِ ، وأردفَ بذكرِها الصلاةَ التي هيَ أعلى الأعلامِ ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ .

وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الإسلامُ علىٰ خمسٍ : شهادةِ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، وإقامِ الصلاةِ ، وإيتاءِ الزكاةِ . . . »[١] .

وشدَّدَ الوعيدَ على المقصِّرينَ فيها فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٢] .

ومعنى الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ : إخراجُ حقِّ الزكاةِ ، قالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ : كنتُ في نفرٍ مِنْ قريشٍ ، فمرَّ أبو ذرٍّ فقالَ : (بشِّرِ الكانزينَ بكيٍّ في ظهورِهِمْ يخرجُ مِنْ جنوبِهِمْ ، وبكيٍّ مِنْ قِبَلِ أقفائِهِمْ يخرجُ مِنْ جباهِهِمْ)[٣] ، وفي روايةٍ أخرىٰ : أنَّهُ يُوضَع علىٰ حَلَمَةِ ثديِ أحدِهِمْ فيخرجُ

---

(١) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .

(٢) **الكنز في الشرع** : كل مال لم يخرج منه الواجب وإن لم يكن مدفوناً . « إتحاف » (٤/٧) .

(٣) رواه مسلم (٩٩٢) ، وزاد : (ثم تنحَّىٰ فقعد ، قال : قلتُ : من هـٰذا ؟ قالوا : هـٰذا أبو ذر ، قال : فقمتُ إليه ، فقلت : ما شيء سمعتك تقولُ قُبيلُ ؟! قال : ما قلت إلا شيئاً قد سمعته من نبيِّهم صلى الله عليه وسلم ، قال : قلت : ما تقول في هـٰذا العطاء ؟ قال : خذه ؛ فإن فيه اليوم معونةً ، فإذا كان ثمناً لدينك . . فدعْهُ) .

مِنْ نُغْضِ كتفِهِ ، ويُوضع علىٰ نُغْضِ كتفِهِ حتَّىٰ يخرجَ مِنْ حَلَمَةِ ثديهِ يتزلزلُ(١) .

وقالَ أبو ذرٍّ : انتهيتُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ جالسٌ في ظلِّ الكعبةِ ، فلمَّا رآني . . قالَ : « همُ الأخسرونَ وربِّ الكعبةِ » ، فقلتُ : ومَنْ هُم ؟ قالَ : « الأكثرونَ أموالاً إلا مَنْ قالَ : هٰكذا وهٰكذا وهٰكذا ـ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفِهِ وعنْ يمينِهِ وعنْ شمالِهِ ـ وقليلٌ ما هُمْ ، ما مِنْ صاحبِ إبلٍ ولا بقرٍ ولا غنمٍ لا يؤدِّي زكاتَها إلا جاءتْ يومَ القيامةِ أعظمَ ما كانتْ وأسمنَهُ ، تنطحُهُ بقرونِها وتطؤُهُ بأظلافِها ، كلَّما نفدتْ أُخراها . . عادتْ عليْهِ أُولاها ، حتَّىٰ يُقضىٰ بينَ الناسِ »(٢) .

وإذا كانَ هٰذا التشديدُ مخرَّجاً في « الصحيحينِ » . . فقدْ صارَ مِنْ مهمَّاتِ الدينِ الكشفُ عنْ أسرارِ الزكاةِ ، وشروطِها الجليَّةِ والخفيَّةِ ، ومعانيها الظاهرةِ والباطنةِ ، معَ الاقتصارِ علىٰ ما لا يستغني عنْ معرفتِهِ مؤدِّي الزكاةِ وقابضُها .

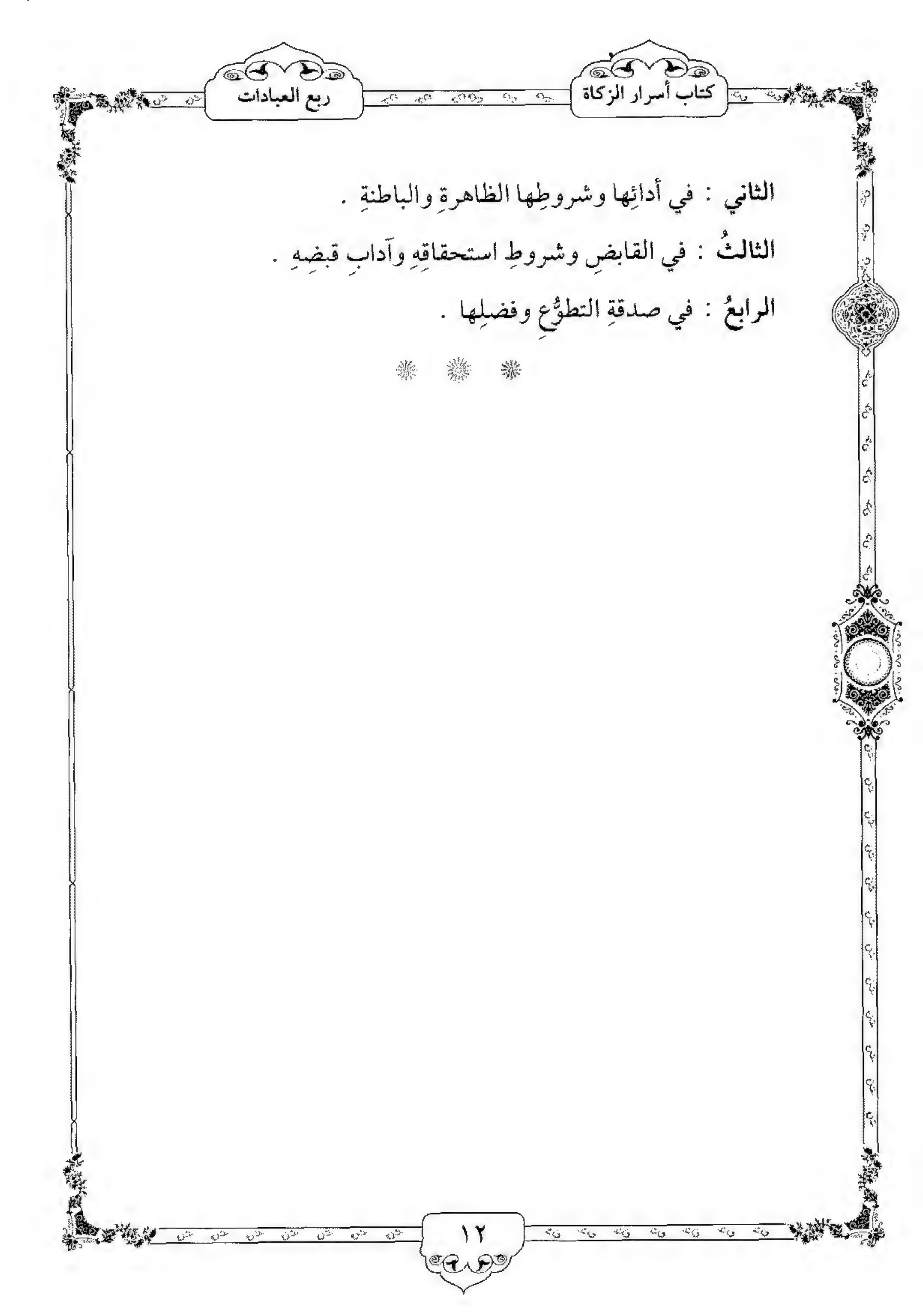
وينكشفُ ذلكَ في أربعةِ فصولٍ :

الأوَّلُ : في أنواعِ الزكاةِ وأسبابِ وجوبِها .

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٧) ، والنُّغْض : العظم الرقيق علىٰ طرف الكتف ، وقيل : أعلى الكتف .

(٢) رواه البخاري (١٤٦٠ ، ٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) ، والجملة المعترضة بيان لجهة الإشارة إلى الجوانب التي هي كناية عن صرف المال في وجوه الخير .



الثاني : في أدائِها وشروطِها الظاهرةِ والباطنةِ .

الثالثُ : في القابضِ وشروطِ استحقاقِهِ وآدابِ قبضِهِ .

الرابعُ : في صدقةِ التطوُّعِ وفضلِها .

* * *

الفَصلُ الأوَّلُ
في أنواعِ الزّكواتِ وأسبابِ وجوبها

والزكاةُ باعتبارِ متعلَّقاتِها ستَّةُ أنواعٍ : زكاةُ النَّعَمِ ، والنقدينِ ، والتجارةِ ، وزكاةُ الرِّكازِ والمعادِنِ ، وزكاةُ المُعَشَّراتِ ، وزكاةُ الفطرِ .

النّوع الأوّل : زكاة النَّعَم

ولا تجبُ هٰذهِ الزكاةُ وغيرُها إلا علىٰ حرٍّ مسلمٍ ، ولا يشترطُ البلوغُ والعقلُ ، بلْ تجبُ في مالِ الصبيِّ والمجنونِ ، هٰذا شرطُ مَنْ تجبُ عليهِ الزكاةُ .

* * *

فأما المالُ . . فشروطُهُ خمسةٌ : أنْ يكونَ نَعَماً ، سائمةً ، باقياً حولاً ، نصاباً كاملاً ، مملوكاً على الكمالِ :

الشرطُ الأوَّلُ : كونُهُ نَعَماً :

فلا زكاةَ إلا في الإبلِ والبقرِ والغنمِ ، أمَّا الخيلُ والبغالُ والحميرُ والمتولِّدُ مِنْ بينِ الظباءِ والغَنَمِ . . فلا زكاةَ فيها .

* * *

الثاني : السومُ :

فلا زكاةَ في معلوفةٍ ، وإذا أسيمتْ في وقتٍ وعَلَفَتْ في وقتٍ ، فظهرتْ بذلكَ مؤنتُها . . فلا زكاةَ فيها .

***

الثالثُ : الحولُ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا زكاةَ في مالٍ حتَّىٰ يَحولَ عليهِ الحولُ »[1] ، ويستثنىٰ مِنْ هـٰذا نتاجُ المالِ ؛ فإنَّهُ ينسحبُ عليهِ حكمُ المالِ ، وتجبُ الزكاةُ فيهِ بحولِ الأصولِ ، ومهما باعَ المالَ في أثناءِ الحولِ ، أوِ استُحقَّ ، أوْ وهبَ . . انقطعَ الحولُ .

***

الرابعُ : كمالُ المِلْكِ والتصرُّفِ :

فتجبُ الزكاةُ في الماشيةِ المرهونةِ ؛ لأنَّهُ هوَ الذي حَجَرَ علىٰ نفسِهِ فيها ، ولا تجبُ في الضالِّ والمغصُوبِ إلا إذا عادَ بجميعِ نَمائِهِ ، فتجبُ فيهِ زكاةُ ما مضىٰ عندَ عَوْدِهِ ، ولوْ كانَ عليهِ دينٌ مستغرقٌ لمالِهِ . . فلا زكاةَ عليهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ غنيّاً بِهِ ، إذِ الغنىٰ ما يفضُلُ عنِ الحاجةِ[2] .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥٧٢) ، وابن ماجه (١٧٩٢) .

(٢) وقال المصنف في « الخلاصة » (ص١٨٤) : (إذا ملك نصاباً وعليه مثل ما له دينٌ . . فأظهر القولين أنه يلزمه الزكاة ، خلافاً لأبي حنيفة) ، وقوله هنا هو قول الشافعي القديم ، وبه قال أبو حنيفة . « إتحاف » (٤/ ١٩) .

الخامسُ : كمالُ النصابِ :

أمَّا الإبلُ : فلا شيءَ فيها حتَّىٰ تبلغَ خمساً ، فإذا بلغتْ خمساً . . ففيها جذعةٌ منَ الضأْنِ ، والجَذَعَةُ : هيَ التي تكونُ في السنةِ الثانيةِ ، أو ثنيَّةٌ مِنَ المعزِ ؛ وهيَ التي تكونُ في السنةِ الثالثةِ ، وفي عشْرٍ . . شاتانِ ، وفي خمسَ عشرةَ . . ثلاثُ شياهٍ ، وفي عشرينَ . . أربعُ شياهٍ .

وفي خمسٍ وعشرينَ . . بنتُ مخاضٍ[1] ؛ وهيَ التي في السنةِ الثانيةِ ، فإنْ لمْ يكنْ في مالِهِ بنتُ مخاضٍ . . فابنُ لبونٍ ذكرٌ ؛ وهوَ الذي في السنةِ الثالثةِ ، يؤخذُ وإنْ كانَ قادراً علىٰ شرائِها[2] ، وفي ستٍ وثلاثينَ . . بنتُ لبونٍ ، ثمَّ إذا بلغتْ ستّاً وأربعينَ . . ففيها حِقَّةٌ ؛ وهيَ التي في السنةِ الرابعةِ ، فإذا صارتْ إحدىٰ وستينَ . . ففيها جَذَعةٌ ؛ وهيَ التي في السنةِ الخامسةِ ، فإذا صارتْ ستّاً وسبعينَ . . ففيها بنتا لبونٍ ، فإذا صارتْ إحدىٰ وتسعينَ . . ففيها حِقَّتانِ ، فإذا صارتْ إحدىٰ وعشرينَ ومئةً . . ففيها ثلاثُ بناتِ لبونٍ ، فإذا صارتْ مئةً وثلاثينَ . . فقدِ استقرَّ الحسابُ ؛ ففي كلِّ خمسينَ . . حِقَّةٌ ، وفي كلِّ أربعينَ . . بنتُ لبونٍ .

---

(١) **المخاض** : اسم للنوق الحوامل ، واحدتها : خَلِفَة ، لا واحد لها من لفظها ، وبنت مخاض وابن مخاض : ما دخل في السنة الثانية ؛ لأن أمه لحقت بالمخاض ، وهي الحوامل وإن لم تكن حاملاً . « إتحاف » (٤/ ٢٣) .

(٢) أي : لا يكلف شراء بنت مخاض ، بل يجزىء ابن لبون عنها وإن كان أقلَّ قيمة منها . انظر « العزيز » (٢/ ٤٧٨) ، و« مغني المحتاج » (١/ ٥٥٠) .

وأمَّا البقرُ : فلا شيءَ فيها حتَّىٰ تبلغَ ثلاثينَ ، فإذا بلغتْ ثلاثينَ . . ففيها تَبيعٌ ؛ وهوَ الذي في السنةِ الثانيةِ ، ثمَّ في أربعينَ . . مُسنَّةٌ ؛ وهيَ التي في السنةِ الثالثةِ ، ثمَّ في الستينَ . . تبيعانِ ، واستقرَّ الحسابُ بعدَ ذلكَ ؛ ففي كلِّ أربعينَ . . مُسنَّةٌ ، وفي كلِّ ثلاثينَ . . تبيعٌ[١] .

وأمَّا الغنمُ : فلا زكاةَ فيها حتَّىٰ تبلغَ أربعينَ ، فإذا بلغتْ أربعينَ . . ففيها شاةٌ جَذَعَةٌ مِنَ الضأْنِ أوْ ثنيَّةٌ مِنَ المعزِ ، ثمَّ لا شيءَ فيها حتَّىٰ تبلغَ مئةً وعشرينَ وواحدةً . . ففيها شاتانِ ، إلىٰ مئتَي شاةٍ وواحدةٍ . . ففيها ثلاثُ شياهٍ ، إلىٰ أربعِ مئةٍ . . ففيها أربعُ شياهٍ ، ثمَّ استقرَّ الحسابُ ، ففي كلِّ مئةٍ . . شاةٌ .

وصدقةُ الخَلِيطَينِ كصدقةِ المالكِ الواحدِ في النُّصبِ ، فإذا كانَ بينَ رجلينِ أربعونَ مِنَ الغنمِ . . ففيها شاةٌ ، وإنْ كانَ بينَ ثلاثةِ نفرٍ مئةُ شاةٍ وعشرونَ . . ففيها شاةٌ واحدةٌ علىٰ جميعِهِمْ .

وخُلطةُ الجوارِ كخُلطةِ الشيوعِ[٢] ، ولكنْ يُشترطُ : أنْ يريحا معاً ،

---

(١) ويتغيَّر الفرض بعشرٍ عشرٍ ؛ ففي سبعينَ . . تبيع ومسنَّة ، وفي ثمانين . . مسنتان ، وفي تسعينَ . . ثلاثة أتبعة ، وفي مئة . . مسنة وتبيعان ، وهٰكذا أبداً . « إتحاف » (٤ / ٢٧) .

(٢) **الخلطة علىٰ نوعين** : خلطة اشتراك ، وخلطة جوار ، وقد يعبَّر عن الأول بخلطة الأعيان وبخلطة الشيوع ، وعن الثاني بخلطة الأوصاف ، **والمراد بالأول** : ألا يتميز نصيب أحد الرجلين أو الرجال عن نصيب غيره ؛ كماشية ورثها قوم أو ابتاعوها معاً ، فهي شائعة بينهم ، **وبالثاني** : أن يكون مال كل واحد معيناً متميِّزاً عن مال غيره ، ولكن يجاوره مجاورة المال ـ وسيذكر شروط هٰذه المجاورة ـ ولكل واحدة من الخلطتين أثر في =

ويسقيا معاً ، ويحلبا معاً ، ويسرحا معاً ، ويكونَ المرعىٰ معاً ، ويكونَ إنزاءُ الفحلِ معاً ، وأنْ يكونا جميعاً مِنْ أهلِ الزكاةِ ؛ فلا حكمَ للخُلطةِ معَ الذمِّي والمكاتبِ .

ومهما نزلَ في واجبِ الإبلِ عنْ سنٍّ إلىٰ سنٍّ . . فهوَ جائزٌ ما لمْ يجاوزْ بنتَ المخاضِ في النزولِ ، ولكنْ يضمُّ إليهِ جبرانَ السنِّ ؛ لسنةٍ واحدةٍ شاتينِ أو عشرينَ درهماً ، ولستتينِ أربعَ شياهٍ أو أربعينَ درهماً ، ولهُ أنْ يصعدَ في السنِّ ما لمْ يجاوزِ الجَذَعَةَ في الصعودِ ، ويأخذُ الجبرانَ مِنَ الساعي مِنْ بيتِ المالِ(١) .

ولا تؤخذُ في الزكاةِ مريضةٌ إذا كانَ بعضُ المالِ صحيحاً ولو واحدةً ، ويُؤخذُ مِنَ الكرائمِ كريمةٌ ومِنَ اللئامِ لئيمةٌ(٢) ، ولا يُؤخذُ مِنَ المالِ الأكولةُ ولا الماخضُ ولا الرُّبَّىٰ ، ولا الفحْلُ ، ولا حَزَراتُ المالِ(٣) .

* * *

= الزكاة ، فتجعلان مال الشخصين أو الأشخاص بمنزلة الواحد ، ثم قد توجب الزكاة أو تكثرها . « إتحاف » (٤/ ٢٩) .

(١) فمن وجب عليه بنت مخاض وليست عنده . . جاز أن يخرج بنت لبون ويأخذ من الساعي الجبران . « إتحاف » (٤/ ٣١) .

(٢) فيتخيَّرُ الوسط من أمواله ، فلو وجب عليه بنت لبون . . فلا يؤخذ خيار بنات لبون ، بل أوسطها . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٢) .

(٣) **الرُّبَّىٰ** : الشاة التي وضعت حديثاً ، **وحزرات المال** : خياره التي تحزرها العين لحسنها . انظر « المهذب » (١/ ٢٠٤) ، وفي بعض النسخ : (غرّاء) بدل (حزرات) وهما بمعنىً ، والمثبت لفظ المصنف في « الخلاصة » (ص١٧٩) .

النوع الثاني : زكاة المعشَّرات

فيجبُ العشْرُ في كلِّ مستنبَتٍ مقتاتٍ بلغَ ثمانَ مئةِ مَنٍّ ، ولا شيءَ فيما دونَها ، ولا في الفواكهِ والقطْنِ ، ولكنْ في الحبوبِ التي تُقتاتُ ، وفي التمرِ والزبيبِ ، ويعتبرُ أنْ تكونَ ثمانَ مئةِ مَنٍّ تمراً أوْ زبيباً ، لا رطباً وعنباً ، ويُخرجُ ذلكَ بعدَ التجفيفِ ، ويكمَّلُ مالُ أحدِ الخليطينِ بمالِ الآخرِ في خُلطةِ الشيوعِ ؛ كالبستانِ المشتركِ بينَ ورثةٍ لجميعِهِمْ ثمانُ مئةِ مَنٍّ مِنْ زبيبٍ ، فيجبُ علىٰ جميعِهِمْ ثمانونَ مناً مِنْ زبيبٍ بقدْرِ حصصِهِمْ ، ولا يعتبرُ خُلطةُ الجوارِ فيهِ ، ولا يكمَّلُ نصابُ الحنطةِ بالشعيرِ ، ويكمَّلُ نصابُ الشعيرِ بالسُّلْتِ ؛ فإنَّهُ نوعٌ منهُ[1] .

هـٰذا قدْرُ الواجبِ إنْ كانَ يُسقىٰ بسَيْحٍ أوْ قناةٍ[2] .

فإنْ كانَ يُسقىٰ بنضْحٍ أوْ داليةٍ[3] . . فيجبُ نصفُ العشْرِ ؛ فإنِ اجتمعا . . فالأغلبُ يُعتبرُ .

وأمَّا صفةُ الواجبِ : فالتمرُ والزبيبُ اليابسُ ، والحبُّ اليابسُ بعدَ التنقيةِ ، ولا يُؤخذُ عنبٌ ولا رطبٌ إلا إذا حلَّتْ بالأشجارِ آفةٌ وكانتِ

---

(١) **السُّلت** : هو الشعير الحامض ، أو الذي لا قشر له ، أو نوع من أنواعه كما ذكر .
(٢) **السيح** : الماء الجاري علىٰ وجه الأرض .
(٣) **الدالية** : شيء يتخذ من خوص وخشب يُسقىٰ به بحبال تشدُّ في رأس جذع طويل ، وتطلق الدالية على الأرض التي تسقىٰ بالدلو كذلك .

المصلحةُ في قطعِها قبلَ تمامِ الإدراكِ ، فيؤخذُ الرطبُ فيكالُ ؛ تسعةٌ للمالكِ وواحدٌ للفقيرِ ، ولا يمنعُ مِنْ هـٰذهِ القسمةِ قولُنا : (إنَّ القسمةَ بيعٌ) ، بلْ يرخَّصُ في مثلِ هـٰذا للحاجةِ[1] .

ووقتُ الوجوبِ : أنْ يبدوَ الصلاحُ في الثمارِ ، وأنْ يشتدَّ الحبُّ .

ووقتُ الأداءِ : بعدَ الجفافِ .

* * *

(١) فلا يراعىٰ فيها تعبدات الربا . « إتحاف » (٤/ ٣٧) .

النّوع الثّالث : زكاة النّقدين

فإذا تمَّ الحولُ علىٰ وزنِ مئتي درهمٍ بوزْنِ مكَّةَ نُقْرةً خالصةً[١] . . ففيها خمسةُ دراهمَ ، وهوَ ربعُ العُشرِ ، وما زادَ . . فبحسابِهِ ولوْ درهماً .

ونصابُ الذهبِ : عشرونَ مثقالاً خالصاً بوزنِ مكَّةَ ، ففيها ربعُ العشرِ ، وما زادَ . . فبحسابِهِ .

وإنْ نقصَ مِنَ النصابِ حبةٌ . . فلا زكاةَ .

وتجبُ علىٰ مَنْ معَهُ دراهمُ مغشوشةٌ إذا كانَ فيها هـٰذا المقدارُ مِنَ النُّقرةِ الخالصةِ .

وتجبُ الزكاةُ في التبرِ وفي الحُليِّ المحظورِ[٢] ؛ كأواني الذهبِ والفضةِ ، ومراكبِ الذهبِ للرجالِ ، ولا تجبُ في الحُليِّ المباحِ .

وتجبُ في الدينِ الذي هوَ علىٰ مليءٍ ، ولكنَّها تجبُ عندَ الاستيفاءِ ، وإنْ كانَ الدينُ مؤجَّلاً . . فلا تجبُ إلا بعدَ حلولِ الأجلِ .

***

(١) النقرة : القطعة المذابة من الفضة ، وتطلق على المسبوكة منها .
(٢) التبر : ما كان من الذهب والفضة غير مضروب .

النوع الرابع : زكاة التجارة

وهيَ كزكاةِ النقدينِ ، وإنَّما ينعقدُ الحولُ مِنْ وقتِ مِلكِ النقْدِ الذي بهِ اشترى البضاعةَ إنْ كانَ النقدُ نصاباً ، وإنْ كانَ ناقصاً ، أوِ اشترىٰ بعَرَضٍ علىٰ نيَّةِ التجارةِ . . فالحولُ مِنْ وقتِ الشراءِ .

ويؤدِّي الزكاةَ مِنْ نقدِ البلدِ ، وبهِ يقوَّمُ ، فإنْ كانَ ما بهِ الشراءُ نقداً وكانَ نصاباً كاملاً . . كانَ التقويمُ بهِ أولىٰ مِنْ نقدِ البلدِ[1] .

ومَنْ نوى التجارةَ في مالِ قُنيةٍ . . فلا ينعقدُ الحولُ بمجرَّدِ نيتِهِ حتَّىٰ يشتريَ بهِ شيئاً ، ومهما قطعَ نيَّةَ التجارةِ قبلَ تمامِ الحولِ . . سقطتِ الزكاةُ ، والأولىٰ أنْ يؤدِّيَ زكاةَ تلكَ السنةِ .

وما كانَ مِنْ ربحٍ في السلعةِ في آخرِ الحولِ . . وجبتِ الزكاةُ فيهِ لحولِ رأْسِ المالِ ، ولمْ يُستأنفْ لهُ حولٌ كما في النتاجِ .

وأموالُ الصيارفةِ لا ينقطعُ حولُها بالمبادلةِ الجاريةِ بينَهُمْ كسائرِ التجاراتِ ، وزكاةُ ربحِ مالِ القراضِ على العاملِ ـ أعني : حصتَهُ ـ وإنْ كانَ قبلَ القسمةِ ، هـٰذا هوَ الأقيسُ .

* * *

(١) بأن اشترىٰ عرضاً بمئتي درهم أو عشرين ديناراً ، فيقوم آخر الحول به . « إتحاف » (٤/ ٤٤) .

النوع الخامس : زكاة الرِّكاز والمعدن

والرِّكازُ : مالٌ دُفِنَ في الجاهليةِ ووجدَ في أرضٍ لمْ يجرِ عليها في الإسلامِ ملكٌ .

فعلىٰ واجدِهِ في الذهبِ والفضةِ منهُ الخمسُ ، والحولُ غيرُ معتبرٍ ، والأولىٰ ألا يُعتبرَ النصابُ أيضاً ؛ لأنَّ إيجابَ الخمسِ يؤكِّدُ شبهَهُ بالغنيمةِ ، واعتبارُهُ أيضاً ليسَ بعيداً ؛ لأنَّ مصرفَهُ مصرفُ الزكاةِ ، ولذلكَ يخصَّصُ على الصحيحِ بالنقدينِ .

وأمَّا المعادنُ : فلا زكاةَ فيما استخرجَ منها سوى الذهبِ والفضَّةِ ، ففيهما بعدَ الطحنِ والتخليصِ ربعُ العشرِ علىٰ أصحِّ القولينِ ، وعلىٰ هـٰذا : يعتبرُ النصابُ ، وفي الحولِ قولانِ .

وفي قولٍ يجبُ الخمسُ، فعلىٰ هـٰذا: لا يعتبرُ الحولُ، وفي النصابِ قولانِ .

والأشبهُ ـ والعلمُ عندَ اللهِ تعالىٰ ـ أنْ يلحقَ في قَدْرِ الواجبِ بزكاةِ التجارةِ ؛ فإنَّهُ نوعُ اكتسابٍ ، وفي الحولِ بالمُعَشَّراتِ ، فلا يعتبرُ الحولُ ؛ لأنَّهُ عينُ الرفقِ ، ويعتبرُ النصابُ كالمعشَّراتِ .

والاحتياطُ : أنْ يُخرجَ الخمسَ مِنَ القليلِ والكثيرِ ، ومِنْ غيرِ النقدينِ أيضاً ؛ خروجاً عنْ شبهةِ هـٰذهِ الاختلافاتِ ، فإنَّها ظنونٌ قريبةٌ مِنَ التعارضِ ، وجزْمُ الفتوىٰ فيها مخطرٌ لتعارضِ الاشتباهِ .

* * *

النوع السادس : صدقة الفطر

وهيَ واجبةٌ علىٰ لسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، علىٰ كلِّ مسلمٍ فضَلَ عنْ قوتِهِ وقوتِ مَنْ يقوتُهُ يومَ الفطرِ وليْلَتَهُ صاعٌ ممَّا يقتاتُ بصاعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ منوانِ وثلثا مَنٍّ ، يخرجُهُ مِنْ جنسِ قوتِهِ أو مِنْ أفضلَ منهُ ، فإنِ اقتاتَ الحنطةَ . . لمْ يجزِ الشعيرُ ، وإنِ اقتاتَ حبوباً مختلفةً . . اختارَ خيرَها ، ومِنْ أيِّها أخرجَ أجزأَهُ .

وقسمتُها كقسمةِ زكاةِ الأموالِ ، فيجبُ فيها استيعابُ الأصنافِ ، ولا يجوزُ إخراجُ الدقيقِ والمسوّسِ .

ويجبُ على الرجلِ المسلمِ فطرةُ زوجتِهِ المسلمةِ ، ومماليكِهِ وأولادِهِ ، وكلِّ قريبٍ هوَ في نفقتِهِ ؛ أعني : مَنْ تجبُ عليهِ نفقتُهُ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ والأولادِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أدُّوا صدقةَ الفطرِ عَمَّنْ تَمُونُونَ »[2] .

---

(١) كما في « البخاري » (١٥٠٣) ، و« مسلم » (٩٨٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ، على العبد والحر ، والذكر والأنثىٰ ، والصغير والكبير من المسلمين ، وأمر بها أن تؤدىٰ قبل خروج الناس إلى الصلاة) .

(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (٢/١٤١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/١٦١) .

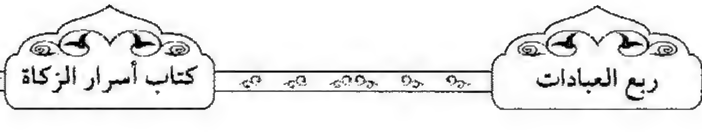
وتجبُ صدقةُ العبدِ المشتركِ على الشريكينِ ، ولا تجبُ صدقةُ العبدِ الكافرِ .

وإنْ تبرعتِ الزوجةُ بالإخراجِ عنْ نفسِها . . أجزأتْهُ ، وللزوجِ الإخراجُ عنها دونَ إذنِها ، وإنْ فضلَ عنهُ ما يؤدِّي عَنْ بعضِهِمْ . . أدَّىٰ عنْ بعضِهِمْ ، وأولاهم بالتقديمِ مَنْ كانتْ نفقتُهُ آكدَ ، وقدْ قدَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نفقةَ الولدِ علىٰ نفقةِ الزوجةِ ، ونفقتَها علىٰ نفقةِ الخادمِ (١) .

فهٰذهِ أحكامٌ فقهيةٌ لا بدَّ للغنيِّ مِنْ معرفتِها ، وقدْ تعرضُ لهُ وقائعُ نادرةٌ خارجةٌ عنْ هٰذا ، فلهُ أنْ يتَّكِلَ فيها على الاستفتاءِ عندَ نزولِ الواقعةِ بعدَ إحاطتِهِ بهٰذا المقدارِ .

* * *

(١) فقد روىٰ أبو داوود (١٦٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصدقة فقال رجل : يا رسول الله ، عندي دينار ، فقال : « تصدق به علىٰ نفسك » ، قال : عندي آخر ، قال : « تصدق به علىٰ ولدك » قال : عندي آخر ، قال : « تصدق به علىٰ زوجتك ـ أو قال : زوجك ـ » ، قال : عندي آخر ، قال : « تصدق به علىٰ خادمك » قال : عندي آخر ، قال : « أنت أبصر » ، وفي « النسائي » (٥/ ٦٢) : تقديم الزوجة على الولد ، وأطبق الشافعية على ذلك . انظر «الإتحاف» (٤/ ٧٢ـ٧٣) .



الفَصلُ الثَّاني
في الأداء وشروطه الباطنة والظّاهرة

بيان الشّروط الظّاهرة

اعلمْ : أنَّهُ يجبُ علىٰ مؤدّي الزكاةِ مراعاةُ خمسةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : النيةُ : وهوَ أنْ ينويَ بقلبِهِ زكاةَ الفرضِ ، وليسَ عليهِ تعيينُ الأموالِ ، فإنْ كانَ لهُ مالٌ غائبٌ فقالَ : (هـٰذا عَنْ مالي الغائبِ إنْ كانَ سالماً ، وإلا . . فهوَ نافلةٌ) . . جازَ ؛ لأنَّهُ لوْ لمْ يصرِّحْ بهِ . . فكذلكَ يكونُ عندَ إطلاقِهِ .

ونيَّةُ الوليِّ تقومُ مقامَ نيَّةِ المجنونِ والصبيِّ ، ونيَّةُ السلطانِ تقومُ مقامَ نيَّةِ المالكِ الممتنعِ عنِ الزكاةِ ولكنْ في ظاهرِ حكمِ الدنيا ؛ أعني : في قطعِ المطالبةِ عنهُ ، أمَّا في الآخرةِ . . فلا ، بلْ تبقىٰ ذمَّتُهُ مشغولةً إلىٰ أنْ يستأنفَ الزكاةَ .

وإذا وكَّلَ بأداءِ الزكاةِ ونوىٰ عندَ التوكيلِ أوْ وكَّلَ الوكيلَ بالنيَّةِ . . كفاهُ ؛ لأنَّ توكيلَهُ بالنيَّةِ نيةٌ .

❊ ❊ ❊

الثاني : **البدارُ عَقيبَ الحولِ** : وفي زكاةِ الفطرِ لا يؤخِّرُها عنْ يومِ

الفطرِ ، ويدخلُ وقتُ وجوبِها بغروبِ الشمسِ مِنْ آخرِ يومٍ مِنْ شهرِ رمضانَ ، ووقتُ تعجيلِها شهرُ رمضانَ كلُّهُ .

ومَنْ أخَّرَ زكاةَ مالِهِ معَ التمكُّنِ . . عصىٰ ، ولمْ يسقطْ عنهُ بتلفِ مالِهِ ، وتمكُّنُهُ بمصادفةِ المستحقِّ ، وإنْ أخَّرَها لعدمِ المستحقِّ ، فتلفَ مالُهُ . . سقطتِ الزكاةُ عنهُ .

وتعجيلُ الزكاةِ جائزٌ بشرطِ أنْ يقعَ بعدَ كمالِ النصابِ وانعقادِ الحولِ ، ويجوزُ تعجيلُ زكاةِ حولينِ ، ومهما عجَّلَ فماتَ المسكينُ قبلَ الحولِ ، أوِ ارتدَّ ، أو صارَ غنياً بغيرِ ما عجَّلَ إليهِ ، أوْ تلفَ مالُ المالكِ ، أوْ ماتَ . . فالمدفوعُ ليسَ بزكاةٍ ، واسترجاعُهُ غيرُ ممكنٍ إلا إذا قيَّدَ الدفعَ بالاسترجاعِ ، فليكنِ المعجِّلُ مُراقباً آخرَ الأمرِ وسلامةَ العاقبةِ .

* * *

الثالثُ : ألا يخرجَ بدلاً باعتبارِ القيمةِ : بلْ يُخرجُ المنصوصَ عليهِ ، فلا يجزىءُ وَرِقٌ عن ذهبٍ ، ولا ذهبٌ عن وَرِقٍ وإنْ زادَ عليهِ في القيمةِ .

ولعلَّ بعضَ مَنْ لا يدركُ غرضَ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ يتساهلُ في ذلكَ ، ويلاحظُ المقصودَ مِنْ سدِّ الخَلَّةِ ، وما أبعدَهُ عنِ التحصيلِ ! فإنَّ سَدَّ الخَلَّةِ مقصودٌ ، وليسَ هوَ كلَّ المقصودِ ، **بلْ واجباتُ الشرعِ ثلاثةُ أقسامٍ** :

ـ قسمٌ هوَ تعبُّدٌ محضٌ لا مدخلَ للحظوظِ والأغراضِ فيهِ : وذلكَ كرمي الجمراتِ مثلاً ؛ إذْ لا حظَّ للجمرةِ في وصولِ الحصىٰ إليها ، فمقصودُ

الشرعِ فيهِ الابتلاءُ بالعملِ ؛ ليُظهرَ العبدُ رقَّهُ وعبوديتَهُ بفعلِ ما لا يعقلُ لهُ معنىً[١] ؛ لأنَّ ما يعقلُ معناهُ فقدْ يساعدُهُ الطبعُ عليهِ ويدعوهُ إليهِ ، فلا يظهرُ بهِ خلوصُ الرقِّ والعبوديةِ ؛ إذِ العبوديةُ تظهرُ بأنْ تكونَ الحركةُ لحقِّ أمرِ المعبودِ فقطْ ، لا لمعنىً آخرَ ، وأكثرُ أعمالِ الحجِّ كذلكَ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في إحرامِهِ : « لبيكَ بحجَّةٍ حقّاً ، تعبُّداً ورقّاً »[٢] تنبيهاً علىٰ أنَّ ذلكَ إظهارٌ للعبوديةِ بالانقيادِ لمجرَّدِ الأمرِ وامتثالِهِ كما أمرَ مِنْ غيرِ استئناسِ العقلِ منهُ بما يميلُ إليهِ ويحثُّ عليهِ .

ـ **القسمُ الثاني مِنْ واجباتِ الشرعِ : ما المقصودُ منهُ حظٌّ معقولٌ وليسَ يقصدُ منهُ التعبُّدُ** : كقضاءِ دينِ الآدميينَ ، وردِّ المغصوبِ ، فلا جرمَ لا يعتبرُ فيهِ فعلُهُ ونيَّتُهُ ، ومهما وصلَ الحقُّ إلىٰ مستحقِّهِ بأخذِ المستحَقِّ أوْ ببدلٍ عنهُ عندَ رضاهُ . تأدَّى الوجوبُ وسقطَ خطابُ الشرعِ ، فهـٰذانِ قسمانِ لا تركيبَ فيهما ، يشتركُ في دركِهما جميعُ الناسِ .

ـ **والقسمُ الثالثُ : هوَ المركَّبُ الذي يقصدُ منهُ الأمرانِ جميعاً** : وهوَ حظُّ العبادِ وامتحانُ المكلَّفِ بالاستعبادِ ، فيجتمعُ فيهِ تعبُّدُ رمي الجمارِ وحظُّ

---

(١) هـٰذا بالنسبة إلىٰ قاصر النظر علىٰ ظواهر الأحكام ، ولكن مَنْ تعدىٰ هـٰذا الطور ، وأعطي منحاً إلـٰهية . . فإنه يعقل لرمي الجمار معنىً غريباً غير ما يعرفه القاصرون ، وكذا سائر المتعبدات الشرعية . « إتحاف » (٤/ ٩٥) .

(٢) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٦٢٤) وهو آخر كتابه ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢١٨) .

ردِّ الحقوقِ ، فهٰذا قسمٌ في نفسِهِ معقولٌ ، فإنْ وردَ الشرعُ بهِ . . وجبَ الجمعُ بينَ المعنيينِ ، ولا ينبغي أنْ ينسىٰ أدقَّ المعنيينِ ؛ وهوَ التعبُّدُ والاسترقاقُ بسببِ أجلاهما[1] ، ولعلَّ الأدقَّ هوَ الأهمُّ .

والزكاةُ مِنْ هٰذا القبيلِ ، ولمْ يتنبَّهْ لهُ غيرُ الشافعيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ؛ فحظُّ الفقيرِ مقصودٌ في سدِّ الخَلَّةِ وهو جليٌّ سابقٌ إلى الأفهامِ ، وحقُّ التعبُّدِ في اتباعِ التفاصيلِ مقصودٌ للشرعِ ، وباعتبارِهِ صارتِ الزكاةُ قرينةَ الصلاةِ والحجِّ في كونِها مِنْ مباني الإسلامِ ، ولا شكَّ في أنَّ على المكلَّفِ تعباً في تمييزِ أجناسِ مالِهِ وإخراجِ حِصَّةِ كلِّ مالٍ منْ نوعِهِ وجنسِهِ وصفتِهِ ، ثمَّ توزيعِهِ على الأصنافِ الثمانيةِ كما سيأتي .

والتساهلُ فيهِ غيرُ قادحٍ في حظِّ الفقيرِ ، ولكنَّهُ قادحٌ في التعبُّدِ ، ويدلُّ علىٰ أنَّ التعبُّدَ مقصودٌ بتعيينِ الأنواعِ أمورٌ ذكرناها في كتبِ الخلافِ مِنَ الفقهياتِ ، ومِنْ أوضحِها أنَّ الشرعَ أوجبَ في خمسٍ مِنَ الإبلِ شاةً ، فعدلَ عنِ الإبلِ إلى الشاةِ ، ولمْ يعدِلْ إلى النقدينِ والتقويمِ ، وإنْ قُدِّرَ أنَّ ذلكَ لقلَّةِ النقودِ في أيدي العربِ . . بطلَ بذكرِهِ عشرينَ درهماً في الجبرانِ معَ الشاتينِ ، فلِمَ لمْ يُذكرْ في الجبرانِ قدْرُ النقصانِ مِنَ القيمةِ ؟ ولِمَ قُدِّرَ بعشرينَ درهماً وشاتينِ إنْ كانتِ الثيابُ والأمتعةُ كلُّها في معناها ؟

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ التخصيصاتِ يدلُّ علىٰ أنَّ الزكاةَ لمْ تتركْ خاليةً عنِ

---

(١) أي : أجلى المعنيين . « إتحاف » (٤/ ٩٦) .

التعبداتِ ؛ كما في الحجِّ ، ولكنْ جمعَ بينَ المعنيينِ ، والأذهانُ الضعيفةُ تقصرُ عنْ دركِ المركَّباتِ ، فهـٰذا مثارُ الغلطِ فيهِ .

***

الرابعُ : ألا ينقلَ الصدقةَ إلىٰ بلدٍ آخرَ : فإنَّ أعيُنَ المساكينِ في كلِّ بلدةٍ تمتدُّ إلىٰ أموالِها ، وفي النقلِ تخييبٌ للظنونِ ، فإنْ فعلَ ذلكَ . . أجزأَهُ في قولٍ ، ولكنِ الخروجُ عنْ شبهةِ الخلافِ أولىٰ ، فليخرجْ زكاةَ كلِّ مالٍ في تلكَ البلدةِ ، ثمَّ لا بأسَ أنْ يصرفَ إلى الغرباءِ في تلكَ البلدةِ .

***

الخامسُ : أنْ يقسمَ مالهُ بعددِ الأصنافِ الموجودينَ في بلدِهِ : فإنَّ استيعابَ الأصنافِ واجبٌ ، وعليهِ يدلُّ ظاهرُ قولهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ الآيةَ ، فإنَّهُ شبيهٌ بقولِ المريضِ : (إنما ثلثُ مالي للفقراءِ والمساكينِ) ، وذلكَ يقتضي التشريكَ في التمليكِ ، والعباداتُ ينبغي أنْ يُتوقَّىٰ عنِ الهجومِ فيها على الظواهرِ .

وقدْ عُدِمَ مِنَ الثمانيةِ صنفانِ في أكثرِ البلادِ ، وهُمُ المُؤلَّفةُ قلوبُهُمْ ، والعاملونَ على الزكاةِ ، ويوجدُ في جميعِ البلادِ أربعةُ أصنافٍ : الفقراءُ ، والمساكينُ ، والغارمونَ ، والمسافرونَ ؛ أعني : أبناءَ السبيلِ ، وصنفانِ يوجدانِ في بعضِ البلادِ دونَ بعضٍ ، وهمُ الغزاةُ ، والمكاتبونَ ، فإنْ وجدَ خمسةَ أصنافٍ مثلاً . . قسمَ بينهم زكاةَ مالِهِ بخمسةِ أقسامٍ متساويةٍ ، وعيَّنَ

لكلِّ صنفٍ قسماً ، ثمَّ قسمَ كلَّ قسمٍ ثلاثةَ أسهمٍ فما فوقَها ، إمَّا متساويةً أو متفاوتةً ، وليسَ عليهِ التسويةُ بينَ آحادِ الصنفِ ، فإنَّ لهُ أنْ يقسمَهُ علىٰ عشرةٍ وعشرينَ ، فينقصَ نصيبَ كلِّ واحدٍ ، وأمَّا الأصنافُ . . فلا تقبلُ الزيادةَ والنقصانَ ، ولا ينبغي أنْ ينقصَ في كلِّ صنفٍ عَنْ ثلاثةٍ إنْ وجدَ .

ثمَّ لوْ لمْ يجبْ إلا صاعٌ للفطرةِ ووجدَ خمسةَ أصنافٍ . . فعليهِ أنْ يوصلَهُ إلىٰ خمسةَ عشرَ نفراً ، ولو نقصَ منهمْ واحدٌ معَ الإمكانِ . . غرمَ نصيبَ ذلكَ الواحدِ ، وإنْ عسرَ عليهِ ذلكَ لقلَّةِ الواجبِ . . فليشاركْ جماعةً ممَّنْ عليهمُ الزكاةُ ، وليخلطْ مالَ نفسِهِ بمالِهِمْ ، وليجمعِ المستحقينَ ، وليسلِّمْ إليهم حتَّىٰ يتساهموا فيهِ ؛ فإنَّ ذلكَ لا بدَّ منهُ .

* * *

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلمْ : أنَّ علىٰ مريدِ طريقِ الآخرةِ بزكاتِهِ وظائفَ :

الوظيفةُ الأولىٰ : فهمُ وجوبِ الزكاةِ ومعناها ووجهِ الامتحانِ فيها ، وأنَّها لِمَ جُعلتْ مِنْ مباني الإسلامِ معَ أنَّها تصرُّفٌ ماليٌّ وليسَتْ مِنْ عباداتِ الأبدانِ : وفيها ثلاثةُ معانٍ :

ـ الأوَّلُ : أنَّ التلفظَ بكلمتيِ الشهادةِ التزامٌ للتوحيدِ ، وشهادةٌ بإفرادِ المعبودِ ، وشرطُ تمامِ الوفاءِ بهِ ألا يبقىٰ للموحِّدِ محبوبٌ سوى الواحدِ الفردِ ؛ فإنَّ المحبَّةَ لا تقبلُ الشِّرْكةَ[١] ، والتوحيدُ باللسانِ قليلُ الجدوىٰ ، وإنَّما تُمتحنُ درجةُ الحبِّ بمفارقةِ المحبوباتِ ، والأموالُ محبوبةٌ عندَ الخلقِ ؛ لأنَّها آلةُ تمتعِهِمْ بالدنيا ، وبسببِها يأنسونَ بهـٰذا العالمِ ، وينفِرُونَ عنِ الموتِ معَ أنَّ فيهِ لقاءَ المحبوبِ ، فامتحنوا بتصديقِ دعواهُمْ في المحبوبِ ، واستُنْزِلوا عنِ المالِ الذي هوَ مرموقُهُمْ ومعشوقُهُمْ[٢] ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ،

---

(١) أي : الاشتراك ، والمراد بها الاختيارية ، وأما الاضطرارية . . فالإنسان مجبول فيها إلىٰ ما يستلذه طبعاً ، ولا تكون المحبة كاملة حتىٰ تكون مع المحبوب اضطراراً واختياراً ، فحينئذ لا يخطر بباله شيء سواه ، وإن خطر ما عداه . . فيعده من جملة مظاهره وتعيناته . « إتحاف » (٤/ ١٠١) .

(٢) **مرموقهم** : منظورهم الذي لا يفتؤون النظر فيه .

وذلكَ بالجهادِ ، وهوَ مسامحةٌ بالمهجةِ شوقاً إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والمسامحةُ بالمالِ أهونُ ، **ولما فهمَ هـٰذا المعنىٰ في بذلِ الأموالِ . . انقسمَ الناسُ ثلاثةَ أقسامٍ** :

ـ قسمٌ صدقوا التوحيدَ ووفَّوا بعهدِهِ ، ونزلوا عنْ جميعِ أموالِهِمْ ، فلمْ يدَّخِرُوا ديناراً ولا درهماً ، وأبَوا أنْ يتعرَّضوا لوجوبِ الزكاةِ عليهِمْ ، حتَّىٰ قيلَ لبعضِهِمْ : كمْ يجبُ مِنَ الزكاةِ في مئتي درهمٍ ، فقالَ : أمَّا على العوامِّ بحكمِ الشرعِ . . فخمسةُ دراهمَ ، وأمَّا نحنُ . . فيجبُ علينا بذلُ الجميعِ(١) .

ولهـٰذا تصدَّقَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بجميعِ مالِهِ ، وعُمَرُ رضيَ اللهُ عنهُ بشطرِ مالِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أبقيتَ لأهلِكَ ؟ » فقالَ : مثلَهُ ، وقالَ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « ما أبقيتَ لأهلِكَ ؟ » قالَ : اللهَ ورسولَهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينَكُمَا ما بينَ كلمتيكُما »(٢) ، فالصِّديقُ وفَّىٰ بتمامِ الصدْقِ ، فلمْ يمسكْ سوى المحبوبِ عندَهُ ، وهوَ اللهُ ورسولُهُ .

ـ القسمُ الثاني : درجتُهُمْ دونَ درجةِ هؤلاءِ ، وهمُ الممسكونَ أموالَهُمْ ، المراقبونَ لمواقيتِ الحاجاتِ ومواسمِ الخيراتِ ، فيكونُ قصدُهُمْ في

---

(١) حُكي ذلك عن الشبلي رحمه الله تعالىٰ . انظر « كشف المحجوب » (ص٣٤٧) .

(٢) رواه أبو داوود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥) ، وقوله : « بينكما ما بين كلمتيكما » عند أبي نعيم في « الحلية » (١/ ٣٢) بنحوه مرسلاً عن الحسن .

الادخارِ الإنفاقَ علىٰ قدْرِ الحاجةِ دونَ التنعُّمِ ، وصرفَ الفاضلِ عنِ الحاجةِ إلىٰ وجوهِ البرِّ مهما ظهرتْ وجوهُهُ ، وهؤلاءِ لا يقتصرونَ علىٰ مقدارِ الزكاةِ .

وقدْ ذهبَ جماعةٌ مِنَ التابعينَ إلىٰ أنَّ في المالِ حقوقاً سوى الزكاةِ ؛ كالنخعيِّ والشعبيِّ وعطاءٍ ومجاهدٍ ، قالَ الشعبيُّ بعدَ أنْ قيلَ لهُ : هلْ في المالِ حقٌّ سوى الزكاةِ ؟ قالَ : نعمْ ، أما سمعْتَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ الآية ؟[1] .

واستدلوا بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ ، وزعموا أنَّ ذلكَ غيرُ منسوخٍ بآيةِ الزكاةِ ، بلْ هوَ داخلٌ في حقِّ المسلمِ على المسلمِ ، ومعناه : أنَّهُ يجبُ على الموسرِ مهما وجدَ محتاجاً أنْ يزيلَ حاجتَهُ فضلاً عنْ مالِ الزكاةِ[2] .

والذي يصحُّ في الفقهِ مِنْ هـٰذا البابِ أنَّهُ مهما أرهقتِ الحاجةُ . . كانتْ إزالتُها فرضاً على الكفايةِ ؛ إذْ لا يجوزُ تضييعُ مسلمٍ ، ولكنْ يحتملُ أنْ يقالَ : ليسَ على الموسرِ إلا تسليمُ ما يزيلُ الحاجةَ قرضاً ، ولا يلزمُهُ بذلُهُ بعدَ أنْ أسقطَ الزكاةَ عنْ نفسِهِ ، ويحتملُ أنْ يقالَ : يلزمُهُ بذلُهُ في الحالِ ،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٦٢٧) ، وهو عن النخعي (١٠٦٢٥) ، وعن عطاء (١٠٦٢٩) ، وعن مجاهد (١٠٦٢٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/١٠٦) .

ولا يجوزُ لهُ الإقراضُ ؛ أي : لا يجوزُ لهُ تكليفُ الفقيرِ قبولَ القرضِ ، وهٰذا مختلفٌ فيهِ .

والإقراضُ نزولٌ إلى الدرجةِ الأخيرةِ مِنْ درجاتِ العوامِّ ، وهيَ درجةُ **القسمِ الثالثِ** الذينَ يقتصرونَ علىٰ أداءِ الواجبِ ، فلا يزيدونَ عليهِ ولا ينقصونَ منهُ ، وهيَ أقلُّ الرتبِ ، وقدِ اقتصرَ جميعُ العوامِّ علىٰ ذلكَ ؛ لبخلِهِمْ بالمالِ ، وميلِهِمْ إليهِ ، وضعفِ حبِّهِمْ للآخرةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾ يحفِكُمْ : أي يستقصي عليكُمْ ، فكمْ بينَ عبدٍ اشترىٰ منهُ مالَهُ ونفسَهُ بأنَّ لهُ الجنةَ وبينَ عبدٍ لا يستقصي عليهِ لبخلِهِ .

فهٰذا أحدُ معاني أمرِ اللهِ سبحانَهُ عبادَهُ ببذلِ الأموالِ .

ـ **المعنى الثاني** : **التطهيرُ مِنْ صفةِ البخلِ** : فإنَّهُ مِنَ المهلكاتِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ »[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وسيأتي في ربعِ المهلكاتِ وجهُ كونِهِ مهلكاً ، وكيفيةُ التفصي منهُ .

وإنَّما تزولُ صفةُ البخلِ بأنْ يتعوَّدَ بذلَ المالِ ، فحبُّ الشيءِ لا ينقطعُ إلا بقهرِ النفسِ علىٰ مفارقتِهِ حتَّىٰ يصيرَ ذلكَ اعتياداً ، فالزكاةُ بهٰذا المعنىٰ

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

طهْرةٌ ؛ أي : تطهِّرُ صاحبَها عن خبْثِ البخلِ المهلِكِ ، وإنَّما طهارتُهُ بقدْرِ بذلِهِ وبقدْرِ فرحِهِ بإخراجِهِ واستبشارِهِ بصرفِهِ إلى اللهِ تعالىٰ .

ـ **المعنى الثالثُ : شكرُ النعمةِ** : فإنَّ للهِ عزَّ وجلَّ علىٰ عبدِهِ نعمةً في نفسِهِ وفي مالِهِ ، فالعباداتُ البدنيةُ شكرٌ لنعمةِ البدنِ ، والماليةُ شكرٌ لنعمةِ المالِ ، وما أخسَّ مَنْ ينظرُ إلى الفقيرِ وقدْ ضُيِّقَ عليهِ الرزقُ وأُحوجَ إليهِ ثمَّ لا تسمحُ نفسُهُ بأنْ يؤدِّيَ شكرَ اللهِ تعالىٰ علىٰ إغنائِهِ عنِ السؤالِ وإحواجِ غيرِهِ إليهِ بربعِ العشْرِ أوِ العشرِ مِنْ مالِهِ !

* * *

الوظيفةُ الثانيةُ : في وقتِ الأداءِ :

ومِنْ آدابِ ذوي الدينِ التعجيلُ عنْ وقتِ الوجوبِ ؛ إظهاراً للرغبةِ في الامتثالِ بإيصالِ السرورِ إلىٰ قلوبِ الفقراءِ ، ومبادرةً لعوائقِ الزمانِ أنْ تعوِّقَ عنِ الخيراتِ ، وعلماً بأنَّ في التأخيرِ آفاتٍ معَ ما يتعرَّضُ العبدُ لهُ مِنَ العصيانِ لوْ أخَّرَ عنْ وقتِ الوجوبِ ، ومهما ظهرتْ داعيةُ الخيرِ مِنَ الباطنِ . . فينبغي أنْ يغتنمَ ؛ فإنَّ ذلكَ لَمَّةُ الملكِ ، وقلبُ المؤمنِ بينَ إصبعينِ مِنْ أصابعِ الرحمـٰنِ ، فما أسرعَ تقلُّبَهُ !

والشيطانُ يعدُ الفقرَ ويأمرُ بالفحشاءِ والمنكرِ ، وله لَمَّةٌ عَقيبَ كلِّ لَمَّةٍ للملكِ ، فليغتنمِ الفرصةَ في ذلكَ .

وليعيِّنْ لزكاتِهِ إنْ كانَ يؤدِّيها جميعاً شهراً معلوماً ، وليجتهدْ أنْ يكونَ مِنَ

أفضلِ الأوقاتِ ؛ ليكونَ ذلكَ سبباً لنماءِ قربتِهِ وتضاعفِ زكاتِهِ ، وذلكَ كشهرِ المحرَّمِ ؛ فإنَّهُ أوَّلُ السنةِ ، وهوَ مِنَ الأشهرِ الحرمِ ، أوْ رمضانَ ؛ فقدْ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أجودَ الخلقِ ، وكانَ في رمضانَ كالريحِ المرسلةِ ، لا يمسكُ فيهِ شيئاً[(١)] ، ولرمضانَ فضيلةُ ليلةِ القدرِ ، وأنَّهُ أُنزلَ فيهِ القرآنُ ، وكانَ مجاهدٌ يقولُ : (لا تقولوا : رمضانَ ؛ فإنَّهُ اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ قولوا : شهرَ رمضانَ)[(٢)] .

وذو الحِجَّةِ أيضاً مِنَ الشهورِ الكثيرةِ الفضلِ ؛ فإنَّهُ شهرٌ حرامٌ ، وفيهِ الحجُّ الأكبرُ ، وفيهِ الأيامُ المعلوماتُ ؛ وهيَ العشرُ الأُوَلُ ، والأيامُ المعدوداتُ ؛ وهيَ أيامُ التشريقِ ، وأفضلُ أيامِ شهرِ رمضانَ العشرُ الأواخرُ ، وأفضلُ أيامِ ذي الحجةِ العشرُ الأُوَلُ .

* * *

الوظيفةُ الثالثةُ : الإسرارُ :

فإنَّ ذلكَ أبعدُ عنِ الرياءِ والسمعةِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصدقةِ جهْدُ المقلِّ إلىٰ فقيرٍ في سرٍّ »[(٣)] .

---

(١) رواه البخاري (٦) ، ومسلم (٢٣٠٨) .

(٢) رواه عن مجاهد ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣٩/٢٦) ، وقد جاء مرفوعاً عند البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢٠١/٤)، وسياق المصنف هنا في «القوت» (١٠٧/٢).

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١٧٨/٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) من حديث طويل عنده بنحوه ، ولفظ المصنف من « القوت » (١٠٧/٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ثلاثٌ مِنْ كنوزِ البرِّ ، منها : إخفاءُ الصدقةِ) ، وقدْ رُوِيَ أيضاً مسنداً[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعملُ عملاً في السرِّ فيكتبُهُ اللهُ لهُ سرّاً ، فإنْ أظهرَهُ . . نقلَ مِنَ السرِّ وكتبَ في العلانيةِ ، فإنْ تحدَّثَ بهِ . . نقلَ مِنَ السِّرِّ والعلانيةِ وكتبَ رياءً »[2] .

وفي الحديثِ المشهورِ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » ، أحدُهُمْ : « رجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فلمْ تعلمْ شمالُهُ بما أعطتْ يمينُهُ »[3] .

وفي الخبرِ : « صدقةُ السرِّ تطفىءُ غضبَ الربِّ »[4] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

وفائدةُ الإخفاءِ : الخلاصُ مِنْ آفاتِ الرياءِ والسمعةِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقبلُ اللهُ مِنْ مُسَمِّعٍ ولا مراءٍ ولا منَّانٍ »[5] ، والمتحدِّثُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٧) مرفوعاً ، وانظر « قوت القلوب » (٢/ ١٠٧) .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٦١) ، وقال أبو طالب في « القوت » (٢/ ١٠٧) عقبه : (فلو لم يكن في إظهار الصدقة مع الإخلاص إلا فوت ثواب السر . . لكان فيه نقص عظيم) .

(٣) رواه البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٦١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٦٨) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٣) من زيادات نعيم بن حماد ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٦٠٦) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ : =

بصدقتِهِ يطلبُ السمعةَ ، والمعطي في ملأٍ مِنَ الناسِ يبغي الرياءَ ، والإخفاءُ والسكوتُ هوَ المخلِّصُ منْ ذلكَ .

وقدْ بالغَ في قصْدِ الإخفاءِ جماعةٌ ، حتَّى اجتهدوا ألا يعرفَ القابضُ المعطيَ ، فكانَ بعضُهُمْ يلقيهِ في يدِ أعمىٰ ، وبعضُهُمْ يلقيهِ في طريقِ الفقيرِ وفي موضعِ جلوسِهِ حيثُ يراهُ ولا يرى المعطيَ ، وبعضُهُمْ كانَ يصُرُّهُ في ثوبِ الفقيرِ وهوَ نائمٌ ، وبعضُهُمْ كانَ يُوصلُ إلىٰ يدِ الفقيرِ علىٰ يدِ غيرِهِ بحيثُ لا يعرفُ المعطيَ ، وكانَ يستكتمُ المتوسِّطَ شأنَهُ ، ويوصيهِ بألا يفشيَهُ ، كلُّ ذلكَ توصُّلاً إلىٰ إطفاءِ غضبِ الربِّ عزَّ وجلَّ ، واحترازاً مِنَ الرياءِ والسمعةِ(١) .

ومهما لمْ يتمكَّنْ مِنَ الإعطاءِ إلا بأنْ يعرفَهُ شخصٌ واحدٌ . . فتسليمُهُ إلىٰ وكيلٍ ليسلِّمَ إلى المسكينِ والمسكينُ لا يعرفُ أولىٰ ؛ إذْ في معرفةِ المسكينِ الرياءُ والمنَّةُ جميعاً ، وليسَ في معرفةِ المتوسِّطِ إلا الرياءُ ، ومهما كانتِ الشهرةُ مقصودةً لهُ . . حبطَ عملُهُ ؛ لأنَّ الزكاةَ إزالةٌ للبخلِ ، وتضعيفٌ لحبِّ المالِ ، وحبُّ الجاهِ أشدُّ استيلاءً على النفسِ مِنْ حبِّ المالِ ، وكلُّ واحدٍ منهما مهلِكٌ في الآخرةِ ، ولكنَّ صفةَ البخلِ تنقلبُ في القبرِ في حكمِ المثالِ عقرباً لدَّاغةً ، وصفةُ الرياءِ تنقلبُ في القبرِ أفعىً مِنَ الأفاعي ، وهوَ مأمورٌ

= (لا يسمع الله من مُسَمِّع ، ولا من مراء ، ولا لاعب ، إلا داعٍ دعا يثبت من قلبه) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (٢/ ١٠٧) .

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٨) .

بتضعيفِهما أوْ قتلِهما ؛ لدفعِ أذاهُما أوْ تخفيفِ أذاهُما ، فمهما قصدَ الرياءَ والسمعةَ . . فكأنَّهُ جعلَ بعضَ أطرافِ العقربِ قوتاً للحيَّةِ ، فبقدْرِ ما ضعفَ مِنَ العقربِ زادَ في قوَّةِ الحيَّةِ ، ولوْ تركَ الأمرَ كما كانَ . . لكانَ الأمرُ أهونَ عليهِ .

وقوَّةُ هٰذهِ الصفاتِ التي بها قوَّتُها العملُ بمقتضاها ، وضعفُ هٰذهِ الصفاتِ بمجاهدتِها ومخالفتِها ، والعملِ بخلافِ مقتضاها ، فأيُّ فائدةٍ في أنْ يخالفَ دواعيَ البخلِ ويجيبَ دواعيَ الرياءِ ، فيضعفَ الأدنىٰ ويقوِّيَ الأقوى ؟!

وستأتي أسرارُ هٰذهِ المعاني في ربعِ المهلكاتِ .

* * *

الوظيفةُ الرابعةُ : أنْ يظهرَ حيثُ يعلمُ أنَّ في إظهارِهِ ترغيباً للناسِ في الاقتداءِ :

ويحرسَ سرَّهُ عنْ داعيةِ الرياءِ بالطريقِ الذي سنذكرُهُ في معالجةِ الرياءِ في كتابِ الرياءِ ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾ ، وذلكَ حيثُ يقتضي الحالُ الإبداءَ ؛ إمَّا للاقتداءِ ، وإمَّا لأنَّ السائلَ إنَّما سألَ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، فلا ينبغي أنْ يتركَ التصدُّقَ خيفةً مِنَ الرياءِ في الإظهارِ ، بلْ ينبغي أنْ يتصدَّقَ ويحفظَ سرَّهُ عنِ الرياءِ بقدْرِ الإمكانِ .

وهٰذا لأنَّ في الإظهارِ محذوراً ثالثاً سوى المنِّ والرياءِ ، وهوَ هتْكُ سترِ

الفقيرِ ، فإنَّهُ ربَّما يتأذَّىٰ بأنْ يُرىٰ في صورةِ المحتاجِ ، فمَنْ أظهرَ السؤالَ . . فهوَ الذي هتكَ سترَ نفسِهِ ، فلا يحذرُ هـٰذا المعنىٰ في إظهارِهِ ، وهوَ كإظهارِ الفسقِ علىٰ مَنْ يتستَّرُ بهِ ؛ فإنَّهُ محظورٌ ، والتجسسُ فيهِ والاغتيابُ بذكرِهِ منهيٌّ عنهُ ، فأمَّا مَنْ أظهرَهُ . . فإقامةُ الحدِّ عليهِ إشاعةٌ ، ولكنْ هوَ السببُ فيها ، وبمثلِ هـٰذا المعنىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ألقىٰ جلبابَ الحياءِ . . فلا غيبةَ لهُ »(١) .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ندبَ إلى العلانيةِ أيضاً لما فيها مِنْ فائدةِ الترغيبِ ، فليكنِ العبدُ دقيقَ التأمُّلِ في وزْنِ هـٰذهِ الفائدةِ بالمحذورِ الذي فيها ؛ فإنَّ ذلكَ يختلفُ بالأحوالِ والأشخاصِ ، فقدْ يكونُ الإعلانُ في بعضِ الأحوالِ لبعضِ الأشخاصِ أفضلَ ، ومَنْ عرفَ الفوائدَ والغوائلَ ولمْ ينظرْ بعينِ الشهوةِ . . اتضحَ لهُ الأولىٰ والأليقُ بكلِّ حالٍ .

* * *

الوظيفةُ الخامسةُ : ألا يفسدَ صدقتَهُ بالمنِّ والأذىٰ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ ، واختلفوا في حقيقةِ المنِّ والأذىٰ :

فقيلَ : المنُّ : أنْ يذكرَها ، والأذىٰ : أنْ يظهرَها .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (١/ ٣٨٦)، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢١٠).

فليتحققْ أنَّهُ مسلِّمٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حقَّهُ ، والفقيرُ آخذٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ رزقَهُ بعدَ صيرورتِهِ مسلَّماً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولو كانَ عليهِ دينٌ لإنسانٍ ، فأحالَ صاحبُ الدينِ بهِ عبدَهُ أو خادمَهُ الذي هوَ متكفِّلٌ برزقِهِ . . لكانَ اعتقادُ مؤدِّي الدينِ كونَ القابضِ تحتَ منَّتِهِ سفهاً وجهلاً ؛ فإنَّ المنَّةَ للمحسنِ إليهِ المتكفِّلِ برزقِهِ ، أمَّا هوَ . . فإنَّما يقضي الذي لزمَهُ بشراءِ ما أحبَّهُ ، فهوَ ساعٍ في حقِّ نفسِهِ ، فلمْ يمنَّ بهِ علىٰ غيرِهِ .

ومهما عرفَ المعانيَ الثلاثةَ التي ذكرناها في فهمِ وجوبِ الزكاةِ أوْ أحدَها . . لمْ يرَ نفسَهُ محسناً إلا إلىٰ نفسِهِ ؛ إمَّا ببذلِ مالِهِ إظهاراً لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، أوْ تطهيراً لنفسِهِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، أوْ شكراً علىٰ نعمةِ المالِ طلباً للمزيدِ ، وكيفَما كانَ . . فلا معاملةَ بينَهُ وبينَ الفقيرِ حتَّىٰ يرىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ ، ومهما جهلَ هـٰذا الجهلَ بأنْ رأىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ . . تفرَّعَ منهُ علىٰ ظاهرِهِ ما ذُكِرَ في معنى المنِّ ؛ وهوَ التحدُّثُ بهِ ، وإظهارُهُ ، وطلبُ المكافأةِ منهُ ؛ بالشكرِ والدعاءِ ، والخدمةِ والتوقيرِ ، والتعظيمِ والقيامِ بالحقوقِ ، والتقديمِ في المجالسِ ، والمتابعةِ في الأمورِ ، فهـٰذهِ كلُّها ثمراتُ المنَّةِ ، ومعنى المنَّةِ في الباطنِ ما ذكرناهُ .

وأما الأذىٰ : فظاهرُهُ : التوبيخُ والتعييرُ ، وتخشينُ الكلامِ وتقطيبُ الوجهِ ، وهتْكُ السترِ بالإظهارِ وفنونِ الاستخفافِ ، وباطنُهُ ـ وهوَ منبعُهُ ـ : أمرانِ :

فليتحققْ أنَّهُ مسلِّمٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حقَّهُ ، والفقيرُ آخذٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ رزقَهُ بعدَ صيرورتِهِ مسلَّماً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولو كانَ عليهِ دينٌ لإنسانٍ ، فأحالَ صاحبُ الدينِ بهِ عبدَهُ أو خادمَهُ الذي هوَ متكفِّلٌ برزقِهِ . . لكانَ اعتقادُ مؤدِّي الدينِ كونَ القابضِ تحتَ منَّتِهِ سفهاً وجهلاً ؛ فإنَّ المنَّةَ للمحسنِ إليهِ المتكفِّلِ برزقِهِ ، أمَّا هوَ . . فإنَّما يقضي الذي لزمَهُ بشراءِ ما أحبَّهُ ، فهوَ ساعٍ في حقِّ نفسِهِ ، فلمْ يمنَّ بهِ علىٰ غيرِهِ .

ومهما عرفَ المعانيَ الثلاثةَ التي ذكرناها في فهمِ وجوبِ الزكاةِ أوْ أحدَها . . لمْ يرَ نفسَهُ محسناً إلا إلىٰ نفسِهِ ؛ إمَّا ببذلِ مالِهِ إظهاراً لحبِّ اللهِ تعالىٰ ، أوْ تطهيراً لنفسِهِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، أوْ شكراً علىٰ نعمةِ المالِ طلباً للمزيدِ ، وكيفَما كانَ . . فلا معاملةَ بينَهُ وبينَ الفقيرِ حتَّىٰ يرىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ ، ومهما جهلَ هـٰذا الجهلَ بأنْ رأىٰ نفسَهُ محسناً إليهِ . . تفرَّعَ منهُ علىٰ ظاهرِهِ ما ذُكِرَ في معنى المنِّ ؛ وهوَ التحدُّثُ بهِ ، وإظهارُهُ ، وطلبُ المكافأةِ منهُ ؛ بالشكرِ والدعاءِ ، والخدمةِ والتوقيرِ ، والتعظيمِ والقيامِ بالحقوقِ ، والتقديمِ في المجالسِ ، والمتابعةِ في الأمورِ ، فهـٰذهِ كلُّها ثمراتُ المنَّةِ ، ومعنى المنَّةِ في الباطنِ ما ذكرناهُ .

وأما الأذىٰ : فظاهرُهُ : التوبيخُ والتعييرُ ، وتخشينُ الكلامِ وتقطيبُ الوجهِ ، وهتْكُ السترِ بالإظهارِ وفنونِ الاستخفافِ ، وباطنُهُ ـ وهوَ منبعُهُ ـ : أمرانِ :

أحدُهُما : كراهيتُهُ لرفعِ اليدِ عنِ المالِ وشدَّةُ ذلكَ علىٰ نفسِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ يضيِّقُ الخُلُقَ لا محالةَ .

والثاني : رؤيتُهُ أنَّهُ خيرٌ منَ الفقيرِ ، وأنَّ الفقيرَ بسببِ حاجتِهِ أخسُّ رتبةً منهُ .

وكلاهُما منشؤُهُ الجهلُ :

أمَّا كراهةُ تسليمِ المالِ : فهوَ حمْقٌ ؛ لأنَّ مَنْ كرِهَ بذْلَ دِرْهَمٍ في مقابلةِ ما يساوي ألفاً . . فهوَ شديدُ الحماقةِ ، ومعلومٌ أنَّهُ يبذلُ المالَ لطلبِ رضا اللهِ عزَّ وجلَّ ، والثوابِ في الدارِ الآخرةِ ، وذلكَ أشرفُ ممَّا بذلَهُ أوْ يبذلُهُ لتطهيرِ نفسِهِ عنْ رذيلةِ البخلِ ، أوْ شكراً لطلبِ المزيدِ ، وكيفَما فرضَ . . فالكراهةُ لا وجهَ لها .

وأما الثاني : فهوَ أيضاً جهلٌ ؛ لأنَّهُ لوْ عرفَ فضْلَ الفقرِ على الغنىٰ ، وعرفَ خطرَ الأغنياءِ . . لما استحقرَ الفقيرَ ، بلْ تبرَّكَ بهِ وتمنَّىٰ درجتَهُ ، فصلحاءُ الأغنياءِ يدخلونَ الجنَّةَ بعدَ الفقراءِ بخمسِ مئةِ عامٍ(١) ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « همُ الأخسرونَ وربِّ الكعبةِ » ، فقالَ أبو ذرٍّ : مَنْ همْ ؟ قالَ : « همُ الأكثرونَ أمْوالاً . . . » الحديثَ(٢) .

ثمَّ كيفَ يستحقرُ الفقيرَ وقدْ جعلَهُ اللهُ تعالىٰ سُخرةً لهُ ؟! إذْ يكتسبُ

---

(١) كما روىٰ ذلك الترمذي (٢٣٥٤) ، وابن ماجه (٤١٢٢) .
(٢) رواه البخاري (١٤٦٠ ، ٦٦٣٨) ، ومسلم (٩٩٠) .

المالَ بجُهدِهِ ، ويستكثرُ منهُ ، ويجتهدُ في حفظِهِ لمقدارِ الحاجةِ ، وقدْ أُلزِمَ أنْ يسلِّمَ إلى الفقيرِ قدْرَ حاجتِهِ ، ويكفَّ عنهُ الفاضلَ الذي يضرُّهُ لوْ سُلِّمَ إليهِ ، فالغنيُّ مستخدَمٌ للسعيِ في رزْقِ الفقيرِ ، ويتميَّزُ عليهِ بتقلُّدِ المظالمِ ، والتزامِ المشاقِّ ، وحراسةِ الفضلاتِ إلىٰ أنْ يموتَ ، فيأكلُهُ أعداؤُهُ .

فإذاً ؛ مهما انتفتِ الكراهةُ ، وتبدَّلتْ بالسرورِ والفرحِ بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ لهُ في أداءِ الواجبِ وتقبيضِهِ للفقيرِ حتَّىٰ يخلِّصَهُ عنْ عهدتِهِ بقبولِهِ منهُ . . انتفى الأذىٰ والتوبيخُ وتقطيبُ الوجهِ ، وتبدَّلَ بالاستبشارِ والثناءِ وقبولِ المنَّةِ ، فهـٰذا منشأُ المنِّ والأذىٰ .

* * *

فإنْ قلتَ : فرؤيتُهُ نفسَهُ في درجةِ المحسنِ أمرٌ غامضٌ ، فهلْ مِنْ علامةٍ يمتحنُ بها قلبَهُ ، فيعرفَ بها أنَّهُ لمْ يرَ نفسَهُ محسناً ؟

فاعلمْ : أنَّ لهُ علامةً دقيقةً واضحةً ؛ وهيَ أنْ يقدِّرَ أنَّ الفقيرَ لوْ جنىٰ عليهِ جنايةً أوْ مالأَ عدواً لهُ عليهِ مثلاً . . هلْ كانَ يزيدُ استنكارُهُ واستبعادُهُ لهُ على استنكارِهِ قبلَ التصدُّقِ ؟ فإنْ زادَ . . لمْ تخلُ صدقتُهُ عنْ شائبةِ المنَّةِ ؛ لأنَّهُ توقَّعَ بسببِ صدقتِهِ ما لمْ يكنْ يتوقَّعُهُ قبلَ ذلكَ .

* * *

فإنْ قلتَ : فهـٰذا أمرٌ غامضٌ ، ولا ينفكُّ قلبُ أحدٍ عنهُ ، فما دواؤُهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ لهُ دواءً باطناً ودواءً ظاهراً :

أمَّا الباطنُ : فالمعرفةُ بالحقائقِ التي ذكرناها في فهمِ الوجوبِ ، وأنَّ الفقيرَ هوَ المحسنُ إلى الغنيِّ في تطهيرِهِ بالقبولِ .

وأمَّا الظاهرُ : فالأعمالُ التي يتعاطاها متقلِّدُ المنَّةِ ؛ فإنَّ الأفعالَ التي تصدرُ عنِ الأخلاقِ تصبغُ القلوبَ بالأخلاقِ كما سيأتي أسرارُهُ في الشطرِ الأخيرِ منَ الكتابِ .

ولذلكَ ؛ كانَ بعضُهُمْ يضعُ الصدقةَ بينَ يدي الفقيرِ ويمثلُ قائماً بينَ يديهِ يسألُهُ قبولَها ، حتَّىٰ يكونَ هوَ في صورةِ السائلينَ ، وهوَ يستشعرُ معَ ذلكَ كراهيةَ الردِّ لوْ ردَّ عليهِ[1] .

وكانَ بعضُهُمْ يبسطُ كفَّهُ ليأخذَ الفقيرُ منْ كفِّهِ ؛ لتكونَ يدُ الفقيرِ هيَ العليا[2] .

وكانتْ عائشةُ وأمُّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنهما إذا أرسلَتا معروفاً إلىٰ فقيرٍ . . قالَتا للرسولِ : احفظْ ما يدعو بهِ ، ثمَّ كانتا تردَّانِ عليهِ مثلَ قولِهِ ، وتقولانِ : هٰذا بذاكَ ، حتَّىٰ تخلصَ لنا صدقتُنا[3] .

فكانوا لا يتوقَّعونَ الدعاءَ ؛ لأنَّهُ شبهُ المكافأةِ ، وكانوا يقابلونَ الدعاءَ بمثلِهِ ، وهٰكذا فعلَ عمرُ بنُ الخطابِ وابنُهُ عبدُ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما[4] ،

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .

فهكذا كانَ أربابُ القلوبِ يداوونَ قلوبَهُمْ ، ولا دواءَ مِنْ حيثُ الظاهرُ إلا هـٰذهِ الأعمالُ الدالَّةُ على التذلُّلِ والتواضعِ وقبولِ المنَّةِ ، ومِنْ حيثُ الباطنُ المعارفُ التي ذكرناها ، هـٰذا مِنْ حيثُ العملُ ، وذلكَ مِنْ حيثُ العلمُ ، ولا يعالجُ القلبُ إلا بمعجونِ العلمِ والعملِ .

وهـٰذهِ الشريطةُ في الزكواتِ تجري مَجرى الخشوعِ مِنَ الصلاةِ ، وثبتَ ذلكَ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ للمرءِ مِنْ صلاتِهِ إلا ما عقلَ منها »(١) ، وثبتَ هـٰذا بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يتقبَّلُ اللهُ صدقةَ منَّانٍ »(٢) ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ .

وأمَّا فتوى الفقيهِ بوقوعِها موقعَها ، وبراءةِ ذمتِهِ منها دونَ هـٰذا الشرطِ . . فحديثٌ آخرُ ، وقدْ أشرنا إلىٰ معناهُ في كتابِ الصلاةِ .

* * *

(١) في « الحلية » (٧/ ٦١) عن سفيان الثوري قال : (يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها) ، وعند أبي داوود (٧٩٦) مرفوعاً : « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » ، فكما أن الخشوع فرض في الصلاة لا بد منه ، فكذلك الإخلاص في الزكاة .

(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجده هـٰكذا) . « إتحاف » (٤/ ١١٩) ، ولكن روىٰ مسلم (١٠٦) مرفوعاً : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة : المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا منَّهُ ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره » ، ولعل المصنف يشير إلى الحديث المتقدم : « لا يقبل الله من مُسَمِّع . . . » .

الوظيفةُ السادسةُ : أنْ يستصغرَ العطيةَ :

فإنَّهُ إنِ استعظمَها . . أعجبَ بها ، والعجْبُ مِنَ المهلكاتِ ، وهوَ محبطٌ للأعمالِ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾[1] .

ويقالُ : (إنَّ الطاعةَ كلَّما استُصْغِرَتْ . . كبُرَتْ عندَ اللهِ تعالىٰ ، والمعصيةَ كلَّما استعظمَتْ . . صغرَتْ عندَ اللهِ تعالىٰ)[2] .

وقيلَ : (لا يتمُّ المعروفُ إلا بثلاثٍ : تصغيرُهُ ، وتعجيلُهُ وسترُهُ)[3] .

وليسَ الاستعظامُ هوَ المنَّ والأذىٰ ؛ فإنَّهُ لوْ صرفَ مالَهُ إلىٰ عمارةِ مسجدٍ أوْ رباطٍ . . أمكنَ فيهِ الاستعظامُ ، ولا يمكنُ فيهِ المنُّ والأذىٰ ، بلِ العجبُ والاستعظامُ يجري في جميعِ العباداتِ ، ودواؤُهُ علْمٌ وعملٌ :

أمَّا العلمُ : فهوَ أنْ يعلمَ أنَّ العُشْرَ أوْ ربعَ العشرِ قليلٌ مِنْ كثيرٍ ، وأنَّهُ قدْ قنعَ لنفسِهِ بأخسِّ درجاتِ البذلِ كما ذكرنا في فهمِ الوجوبِ ، فهوَ جديرٌ بأنْ يستحييَ منهُ ، فكيفَ يستعظمُهُ ؟!

وإنِ ارتقىٰ إلى الدرجةِ العليا ، فبذلَ كلَّ مالِهِ أوْ أكثرَه . . فليتأملْ أنَّهُ مِنْ أينَ لهُ المالُ ؟ وإلىٰ ماذا يصرفُهُ ؟ فالمالُ للهِ عزَّ وجلَّ ، ولهُ المنَّةُ عليهِ إذْ

---

(١) إذ قال المسلمون يومها : لن نغلب اليوم من قلّة ، فانكشفوا ، ثم أمدهم الله بنصره . انظر « الإتحاف » (٤/ ١٢٣) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١١١) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١١١) .

أعطاهُ ، ثمَّ وفَّقَهُ لبذلِهِ ، فلِمَ يستعظمُ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ما هوَ عينُ حقِّ اللهِ سبحانَهُ ؟!

وإنْ كانَ مقامُهُ يقتضي أنْ ينظرَ إلى الآخرةِ وأنَّهُ يبذلُهُ للثوابِ . . فلِمَ يستعظمُ بذلَ ما ينتظرُ عليهِ أضعافَهُ ؟!

وأمَّا العملُ : فهوَ أنْ يعطيَهُ عطاءَ الخَجِلِ مِنْ بخلِهِ بإمساكِهِ بقيَّةَ مالِهِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، فتكونُ هيئتُهُ الانكسارَ والحياءَ ؛ كهيئةِ مَنْ يطالَبُ بردِّ وديعةٍ فيمسكُ بعضَها ويردُّ البعضَ ؛ لأنَّ المالَ كلَّهُ للهِ تعالىٰ ، وبذلُ جميعِهِ هوَ الأحبُّ عندَ اللهِ سبحانَهُ ، وإنَّما لمْ يأمرْ بهِ عبدَهُ لأنَّهُ يشقُّ عليهِ بسببِ بخلِهِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾ .

* * *

الوظيفةُ السابعةُ : أنْ ينتقيَ مِنْ مالِهِ أجودَهُ وأحبَّهُ إليهِ وأحلَّهُ وأطيبَهُ :

فإنَّ اللهَ تعالىٰ طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّباً[1] ، وإذا كانَ المُخرَجُ مِنْ شبهةٍ . . فربما لا يكونُ ملكاً لهُ طِلقاً ، فلا يقعُ الموقعَ ، وفي حديثِ أبانَ عنْ أنسِ ابنِ مالكٍ : « طوبىٰ لعبدٍ أنفقَ مِنْ مالٍ اكتسبَهُ مِنْ غيرِ معصيةٍ »[2] .

---

(١) كما في « مسلم » (١٠١٥) ، ومعنىٰ « طيب » : منزه عن النقائص مقدس عن الآفات والعيوب . « إتحاف » (٤/ ١٢٦) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٥/ ٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ١٨٢) من حديث طويل ، ومن طريق أبان عن أنس رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٤٠) واللفظ له .

وإذا لمْ يكنِ المُخَرجُ مِنْ جيِّدِ المالِ . . فهوَ مِنْ سوءِ الأدبِ ، إذْ قدْ يمسكُ الجيِّدَ لنفسِهِ أوْ لعبدِهِ أوْ أهلِهِ ، فيكونُ قدْ آثرَ على اللهِ عزَّ وجلَّ غيرَهُ ، ولوْ فعلَ هـٰذا بضيفِهِ وقدَّمَ إليهِ أردأَ طعامٍ في بيتِهِ . . لأوغرَ بذلكَ صدرَهُ ، هـٰذا إنْ كانَ نظرُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ .

وإنْ كانَ نظرُهُ إلىٰ نفسِهِ وثوابِهِ في الآخرةِ . . فليسَ بعاقلٍ مَنْ يؤثرُ غيرَهُ علىٰ نفسِهِ ، وليسَ لهُ مِنْ مالِهِ إلا ما تصدَّقَ بهِ فأمضىٰ ، أوْ أكلَ فأفنىٰ[1] ، والذي يأكلُهُ قضاءُ وطرٍ في الحالِ ، فليسَ منَ العقلِ قصرُ النظرِ على العاجلةِ وتركُ الادخارِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ أيْ : لا تأخذونَهُ إلا معَ كراهيةٍ وحياءٍ ، وهوَ معنى الإغماضِ ، فلا تؤثروا بهِ ربَّكُم[2] .

وفي الخبرِ : « سبقَ درهمٌ مئةَ ألفِ درهمٍ »[3] ، وذلكَ بأنْ يخرجَهُ

---

(١) كما في « مسلم » (٢٩٥٨) وفيه : « وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ، **وأمضىٰ** : أبقىٰ .

(٢) وعند الترمذي (٢٩٨٧) ، وابن ماجه (١٨٢٢) واللفظ له عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، في الأصحاب الذين كانوا لا ينتخبون الجيد من الصدقة وقد نزلت فيهم هـٰذه الآية ، قال : (يقول : لو أهدي لكم . . ما قبلتموه إلا على استحياء من صاحبه غيظاً أنه بعث إليكم ما لم يكن لكم فيه حاجة ، واعلموا أن الله غني عن صدقاتكم) .

(٣) رواه النسائي (٥ / ٥٩) وتمامه : قالوا : وكيف ؟ قال : « كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما ، وانطلق رجل إلىٰ عُرْض ماله فأخذ منه مئة ألف درهم فتصدق بها » ، وفي =

الإنسانُ وهوَ مِنْ أحلِّ مالِهِ وأجودِهِ ، فيصدرُ ذلكَ عنِ الرضا والفرحِ بالبذلِ ، وقدْ يخرجُ مئةَ ألفِ درهمٍ مما يكرَهُ مِنْ مالِهِ ، فيدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّهُ ليسَ يؤثرُ اللهَ عزَّ وجلَّ بشيءٍ ممَّا يحبُّهُ ، ولذلكَ ذمَّ اللهُ تعالىٰ قوماً جعلوا للهِ ما يكرهونَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا ﴾ وقفَ بعضُ القرَّاءِ على النفيِ تكذيباً لهُمْ ، ثمَّ ابتدأَ وقالَ : ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي : كَسَبَ لهُمْ جعلُهُمْ للهِ ما يكرهونَ النارَ(١) .

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يطلبَ لصدقتِهِ مَنْ تزكو بِهِ الصدقةُ :

ولا يكتفي بأنْ يكونَ مِنْ عمومِ الأصنافِ الثمانيةِ ؛ فإنَّ في عمومِهِمْ خصوصَ صفاتٍ ، فليراعِ خصوصَ تلكَ الصفاتِ ، وهيَ ستٌّ :

الصفةُ الأولىٰ : أنْ يطلبَ الأتقياءَ المعرضينَ عنِ الدنيا ، المتجرِّدينَ

= « الدر المنثور » (٢/ ٦٢) : (وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي هريرة قال : (لدرهم طيب أحب إلي من مئة ألف ، اقرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ... ﴾ الآيةَ) .

(١) فلم تعد (جرم) اسماً ، بل هي هنا فعل بمعنىٰ : (كسب) أو (وجب) ، وجعْلُ (لا) ردّاً لما قبلها هو قول قُطرب ، فعنده علىٰ هـٰذا الوقفُ علىٰ (لا) . انظر « مغني اللبيب » (١/ ٣١٤) ، و« تاج العروس » (ج ر م) ، وسياق المصنف عند صاحب « القوت » (٢/ ١٠٨) ، حيث قال : (وفي الآية وقف غريب لا يعلمه إلا الحذاق من أهل العربية ، تقف علىٰ « لا » فيكون نفياً لوصفهم أن لهم الحسنىٰ ، ثم تستأنف بـ ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي : كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار ؛ أي : بجرمهم واكتسابهم) .

لتجارةِ الآخرةِ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تأكلْ إلا طعامَ تقيٍّ ، ولا يأكلْ طعامَكَ إلا تقيٌّ »[1] ، وهـٰذا لأنَّ التقيَّ يستعينُ بهِ على التقوىٰ ، فتكونُ شريكاً لهُ في طاعتِهِ بإعانتِكَ إيَّاهُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أطعموا طعامَكُمْ الأتقياءَ ، وأَوْلُوا معروفَكُمُ المؤمنينَ »[2] ، وفي خبرٍ آخرَ : « أضفْ بطعامِكَ مَنْ تحبُّهُ في اللهِ تعالىٰ »[3] .

وكانَ بعضُ العلماءِ يؤثرُ بالعطاءِ فقراءَ الصوفيةِ دونَ غيرِهِمْ ، فقيلَ لهُ : لوْ عمَّمْتَ بمعروفِكَ جميعَ الفقراءِ . . لكانَ أفضلَ ؛ فقالَ : لا ، هؤلاءِ قومٌ همُّهُمْ اللهُ سبحانَهُ ، فإذا طرقَتْهُمْ فاقةٌ تشتتَ هَمُّ أحدِهِمْ ، فلأَنْ أردَّ همَّةَ واحدٍ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعطيَ ألفاً ممَّنْ همَّتُهُ الدنيا ، فذُكِرَ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٣٢) ، والترمذي (٢٣٩٥) بلفظ : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » ، وإنما نهىٰ عن مؤاكلة غير تقي لأن المطاعمة توجب الألفة ، وتؤدي إلى المخالطة ، بل هي أوثق عرى المداخلة ، ومخالطة غير التقي تخلُّ بالدين ، وتوقع في الشبهة والمحظورات ، فكأنه نهىٰ عن مخالطة الفجار ؛ إذ لا تخلو عن فساد : إما بمتابعة فعل ، أو مسامحة في إغضاء عن منكر ، فإن سلم من ذلك . . فلا يخطئه فتنته الغيرية . « إتحاف » (٤/١٢٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٥٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١١٠٦) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦١٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٦٦) عن الضحاك مرسلاً ، وابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٩٧) ، وفي بعض النسخ : (وفي لفظ) بدل (وفي خبر) ، وهو موافق للفظ « القوت » (٢/ ١١٢) .

هـٰذا الكلامُ للجنيدِ ، فاستحسنَهُ وقالَ : هـٰذا وليٌّ مِنْ أولياءِ اللهِ تعالىٰ ، وقالَ : ما سمعتُ منذُ زمانٍ كلاماً أحسنَ مِنْ هـٰذا .

ثمَّ حُكِيَ أنَّ هـٰذا الرجلَ اختلَّ حالُهُ وهمَّ بتركِ الحانوتِ ، فبعثَ إليهِ الجنيدُ مالاً وقالَ : اجعلْهُ بضاعتَكَ ولا تتركِ الحانوتَ ، فإنَّ التجارةَ لا تضرُّ مثلَكَ ، وكانَ هـٰذا الرجلُ بقّالاً لا يأخذُ مِنَ الفقراءِ ثمنَ ما يبتاعونَ منهُ(١) .

الصفةُ الثانيةُ : أَنْ يكونَ مِنْ أهلِ العلمِ خاصةً : فإنَّ ذلكَ إعانةٌ لهُ على العلمِ ، والعلمُ أشرفُ العباداتِ مهما صحَّتْ فيهِ النيَّةُ .

وكانَ ابنُ المباركِ يخصِّصُ بمعروفِهِ أهلَ العلمِ ، فقيلَ لهُ : لوْ عمَّمْتَ ؛ فقالَ : إنِّي لا أعرفُ بعدَ مقامِ النبوَّةِ أفضلَ مِنْ مقامِ العلماءِ ، فإذا اشتغلَ قلبُ أحدِهِمْ بحاجتِهِ . . لمْ يتفرَّغْ للعلمِ ، ولمْ يقبلْ على التعليمِ ، فتفريغُهُمْ للعلمِ أفضلُ(٢) .

الصفةُ الثالثةُ : أنْ يكونَ صادقاً في تقواهُ وعلمِهِ بالتوحيدِ : وتوحيدُهُ أنَّهُ إذا أخذَ العطاءَ . . حمدَ اللهَ عزَّ وجلَّ وشكرَهُ ، ورأىٰ أنَّ النعمةَ منهُ ، ولمْ ينظرْ إلىٰ واسطةٍ ، فهـٰذا هوَ أشكرُ العبادِ للهِ سبحانَهُ ، وهوَ أنْ يرىٰ أنَّ النعمةَ كلَّها منهُ .

وفي وصيةِ لقمانَ لابنِهِ : (لا تجعلْ بينَكَ وبينَ اللهِ منعماً ، واعددْ نعمةَ غيرِهِ عليكَ مغرماً)(٣) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٣) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٣) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٢٢٣٩) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » =

ومَنْ شكرَ غيرَ اللهِ سبحانَهُ . . فكأنَّهُ لمْ يعرفِ المنعمَ ، ولمْ يتيقَّنْ أنَّ الواسطةَ مقهورٌ مسخَّرٌ بتسخيرِ اللهِ تعالىٰ ؛ إذْ سلَّطَ اللهُ تعالىٰ عليهِ دواعيَ الفعلِ ، ويسَّرَ لهُ الأسبابَ ، فأعطىٰ وهوَ مقهورٌ ، ولوْ أرادَ تركَهُ . . لمْ يقدرْ عليهِ بعدَ أنْ ألقى اللهُ تعالىٰ في قلبِهِ أنَّ صلاحَ دينِهِ ودنياهُ في فعلِهِ ، فمهما قَوِيَ الباعثُ . . أوجبَ ذلكَ جزمَ الإرادةِ وانتهاضَ القدرةِ ، ولمْ يستطعِ العبدُ مخالفةَ الباعثِ القويِّ الذي لا تردُّدَ فيهِ ، واللهُ هوَ سبحانَهُ خالقُ البواعثِ ومهيِّجُها ، ومزيلُ الضعفِ والتردُّدِ عنها ، ومسخِّرُ القدرةِ للانتهاضِ بمقتضى البواعثِ ، فمَنْ تيقَّنَ هٰذا . . لمْ يكنْ لهُ نظرٌ إلا إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ ، وتيقُّنُ مثلِ هٰذا العبدِ أنفعُ للمعطي مِنْ ثناءِ غيرِهِ وشكرِهِ ، فذلكَ حركةُ لسانٍ يقلُّ في الأكثرِ جدواهُ ، وإعانةُ مثلِ هٰذا العبدِ الموحِّدِ لا تضيعُ .

فأمَّا الذي يمدحُ بالعطاءِ ويدعو بالخيرِ . . فسيذمُّ بالمنعِ ويدعو بالشرِّ عندَ اليأسِ مِنَ العطاءِ وأحوالُهُ متفاوتةٌ .

وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعثَ معروفاً إلىٰ بعضِ الفقراءِ وقالَ للرسولِ : « احفظْ ما يقولُ » ، فلمَّا وصلَ إليهِ وأعطاهُ . . قالَ : الحمدُ للهِ الذي لا ينسىٰ مَنْ ذكرَهُ ، ولا يضيعُ مَنْ شكرَهُ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ لمْ تنسَ فلاناً ـ يعني نفسَهُ ـ فاجعلْ فلاناً لا ينساكَ ، فأُخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

= (١٣١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٤) من كلام إبراهيم بن أدهم ، وهو في « القوت » (٢/ ١١٠) من وصية علي كرم الله وجهه ، قال الحافظ الزبيدي : (ويحتمل أن يكون هـٰذا قول لقمان من رواية علي رضي الله عنه) . « إتحاف » (٤/ ١٣٠) .

عليهِ وسلَّمَ بذلكَ ؛ فسُرَّ وقالَ : « علمتُ أنَّهُ يقولُ ذلكَ » ، فانظرْ كيفَ قصرَ التفاتَهُ على اللهِ وحدَهُ(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ : « تُبْ » ، فقالَ : أتوبُ إلى اللهِ ولا أتوبُ إلىٰ محمدٍ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « عرفَ الحقَّ لأهلِهِ »(٢) .

ولمَّا نزلتْ براءةُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها في قصَّةِ الإفكِ . . قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قُومي فقبِّلي رأسَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فقالتْ : واللهِ ؛ لا أفعلُ ، ولا أَحْمدُ إلا اللهَ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دعْها يا أبا بكرٍ » ؛ وفي لفظٍ آخرَ : أنَّها رضيَ اللهُ عنها قالتْ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (بحمدِ اللهِ ، لا بحمدِكَ ولا بحمدِ صاحبِكَ) ، فلمْ ينكرْ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عليها ذلكَ ، معَ أنَّ الوحيَ وصلَ إليها علىٰ لسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٣) .

---

(١) كذا في « قوت القلوب » (٢/ ١١٠) وقال : (وقد روي هـٰذا عن عمر وعن أبي الدرداء مع حُدَيْر) ، وخبر حدير رواه مرفوعاً عن ابن عمر بقصة طويلة أبو بكر الخلال في « الحث علىٰ التجارة والصناعة والعمل » (١٠٥) ، واسم هـٰذا الرجل : حُدَير ، ورواه عن أبي الدرداء موقوفاً عليه علىٰ أنه هو المرسل لحُدَير البيهقيُّ في « الشعب » (٤١١٢) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٢٢/ ٨١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/ ٢٤٢) ، وكنية حُدَير أبو فوزة .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٣٥) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٢٨٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١١١) عن الأسود بن سريع رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم أُتي بأسير ، فقاله .

(٣) خبر السيدة عائشة رضي الله عنها رواه أبو داوود (٥٢١٩)، والقصة بطولها عند البخاري =

ورؤيةُ الأشياءِ مِنْ غيرِ اللهِ سبحانَهُ وصفُ الكافرينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ، ومَنْ لمْ يصفُ باطنُهُ عنْ رؤيةِ الوسائطِ إلا مِنْ حيثُ إنَّهُمْ وسائطُ . . فكأنَّهُ لمْ ينفكَّ عنِ الشركِ الخفيِّ سرُّهُ ، فليتقِ اللهَ سبحانَهُ في تصفيةِ توحيدِهِ عنْ كدوراتِ الشركِ وشوائبِهِ .

الصفةُ الرابعةُ : أنْ يكونَ مستتراً مخفياً حاجتَهُ ، لا يكثرُ البثَّ والشكوىٰ : أوْ يكونَ مِنْ أهلِ المروءةِ ممَّنْ ذهبتْ نعمتُهُ وبقيتْ عادتُهُ ، فهوَ يتعيَّشُ في جلبابِ التجمُّلِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أيْ : لا يلحُّونَ في السؤالِ ؛ لأنَّهُمْ أغنياءُ بيقينِهِمْ ، أعزَّةٌ بصبرِهِمْ ، وهٰذا ينبغي أنْ يُطلبَ بالتفحُّصِ عنْ أهلِ الدينِ في كلِّ محلَّةٍ ، ويستكشفَ عنْ بواطنِ أحوالِ أهلِ الخيرِ والتجمُّلِ ، فثوابُ صرْفِ المعروفِ إليهِمْ أضعافُ ما يصرفُ إلى المجاهرينَ بالسؤالِ .

الصفةُ الخامسةُ : أنْ يكونَ مُعْيِلاً أوْ محبوساً بمرضٍ أوْ بسببٍ مِنَ الأسبابِ : فيوجدَ فيهِ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(1) أيْ : حُبسوا في طريقِ الآخرةِ لعَيْلَةٍ أوْ ضيقِ معيشةٍ ، أوْ

= (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠)، والرواية الثانية عند الطبراني في « الكبير » (٢٣/١٢٣).

(١) قوله : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ متعلق بمحذوف ؛ أي : اجعلوا صدقاتكم لهٰؤلاء . « إتحاف » (٤/١٣٢).

إصلاحِ قلبٍ ، ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لأنَّهُمْ مقصوصو الجناحِ ، مقيدو الأطرافِ ، بهٰذهِ الأسبابِ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يعطي أهلَ البيتِ القطيعَ مِنَ الغنمِ العشرةَ فما فوقَها[١] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُعطي العطاءَ علىٰ قَدْرِ العَيْلَةِ[٢] ، وسئل عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ جهْدِ البلاءِ فقالَ : (كثرةُ العيالِ وقلَّةُ المالِ)[٣] .

الصفةُ السادسةُ : أنْ يكونَ مِنَ الأقاربِ وذوي الأرحامِ : فتكونُ صدقةً وصلةَ رحمٍ ، وفي صلةِ الرحمِ مِنَ الثوابِ ما لا يخفىٰ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أصلَ أخاً مِنْ إخواني بدرهمٍ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بعشرينَ درهماً ، ولأنْ أصلَهُ بعشرينَ درهماً . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتصدَّقَ بمئةِ درهمٍ ، ولأنْ أصلَهُ بمئةِ درهمٍ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتقَ رقبةً)[٤] .

والأصدقاءُ وإخوانُ الخيرِ أيضاً يتقدمونَ على المعارفِ كما يتقدَّمُ الأقاربُ على الأجانبِ ، فليراعِ هٰذهِ الدقائقَ .

فهٰذهِ هيَ الصفاتُ المطلوبةُ ، وفي كلِّ صفةٍ درجاتٌ ، فينبغي أنْ يطلبَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٢) .

(٢) كما هو عند أبي داوود (٢٩٥٣) عن عوف بن مالك قال : (كان إذا أتاه صلى الله عليه وسلم الفيء . . قسمه في يومه ، فأعطى الآهل حظين ، وأعطى العَزَب حظّاً) ، والآهل : الذي له زوجة وعيال ، والعَزَب : مَنْ لا زوجة له .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « العيال » (٤٤٣) عن ابن عمر ، وهو كذلك في « القوت » (٢/ ١١٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .

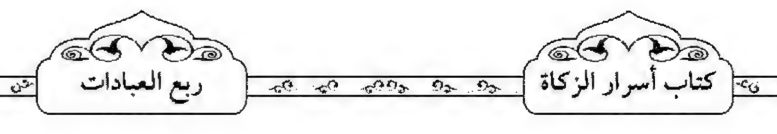
أعلاها ، فإنْ وجدَ مَنْ جمعَ جملةً مِنْ هـٰذهِ الصفاتِ . . فهيَ الذخيرةُ الكبرىٰ والغنيمةُ العظمىٰ ، ومهما اجتهدَ في ذلكَ وأصابَ . . فلهُ أجرانِ ، وإنْ أخطأَ . . فلهُ أجرٌ واحدٌ .

فإنَّ أحدَ أجريهِ في الحالِ : تطهيرُهُ نفسَهُ عنْ صفةِ البخلِ ، وتأكيدُ حبِّ اللهِ عزَّ وجلَّ في قلبِهِ ، واجتهادُهُ في طاعتِهِ ، وهـٰذهِ الصفاتُ هيَ التي تقوىٰ في قلبِهِ ، فتشوقُهُ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ واليومِ الآخرِ .

والأجرُ الثاني : ما يعودُ إليهِ مِنْ فائدةِ دعوةِ الآخذِ وهمَّتِهِ ؛ فإنَّ قلوبَ الأبرارِ لها آثارٌ في الحالِ والمآلِ ، فإنْ أصابَ . . حصلَ الأجرانِ ، وإنْ أخطأَ . . حصلَ الأوَّلُ دونَ الثاني .

فهـٰذا معنىٰ تضاعفِ أجرِ المصيبِ في الاجتهادِ هـٰهنا وفي سائرِ المواضعِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *



الفَصلُ الثَّالِثُ
في القابض، وأسباب استحقاقه، ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلمْ : أنَّهُ لا يستحقُّ الزكاةَ إلا حرٌّ ، مسلمٌ ، ليسَ بهاشميٍّ ولا مطَّلبيٍّ ، اتصفَ بصفةٍ مِنْ صفاتِ الأَصنافِ الثمانيةِ المذكورينَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١) ، فلا تصرفُ زكاةٌ إلىٰ كافرٍ ، ولا إلىٰ عبدٍ ، ولا إلىٰ هاشميٍّ ولا مطلبيٍّ ، أمَّا الصبيُّ والمجنونُ . . فيجوزُ الصرفُ إليهما إذا قبضَ عنهما وليُّهُما .

فلنذكرْ صفاتِ الأصنافِ الثمانيةِ :

الصنفُ الأوَّلُ : الفقراءُ :

والفقيرُ : هوَ الذي ليسَ لهُ مالٌ ولا قدرةٌ على الكسبِ ، فإنْ كانَ معهُ قوتُ يومِهِ وكُسوةُ حالِهِ . . فليسَ بفقيرٍ ، ولكنَّهُ مسكينٌ ، وإنْ كانَ معهُ نصفُ قوتِ يومِهِ . . فهوَ فقيرٌ ، وإنْ كانَ معهُ قميصٌ وليسَ معهُ منديلٌ ولا خفٌّ

---

(١) في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ولا سراويلُ ولمْ تكنْ قيمةُ القميصِ بحيثُ تفي بجميعِ ذلكَ كما يليقُ بالفقراءِ . . فهوَ فقيرٌ ؛ لأنَّهُ في الحالِ قدْ عدمَ ما هوَ محتاجٌ إليهِ ، وما هوَ عاجزٌ عنهُ ، فلا ينبغي أنْ يُشترطَ في الفقيرِ ألا يكونَ لهُ كسوةٌ سوىٰ ساترِ العورةِ ، فإنَّ هـٰذا غلوٌّ ، والغالبُ أنَّهُ لا يوجدُ مثلُهُ .

ولا يخرجُهُ عنِ الفقرِ كونُهُ معتاداً للسؤالِ ، فلا يجعلُ السؤالُ كسباً ، بخلافِ ما لوْ قدرَ علىٰ كسبٍ ؛ فإنَّ ذلكَ يخرجُهُ عنِ الفقرِ ، فإنْ قدرَ على الكسبِ بآلةٍ وليسَ لهُ آلةٌ . . فهوَ فقيرٌ ، ويجوزُ أنْ يُشترىٰ لهُ آلةٌ .

وإنْ قدرَ علىٰ كسبٍ لا يليقُ بمروءتِهِ وبحالِ مثلِهِ . . فهوَ فقيرٌ ، وإنْ كانَ متفقِّهاً ويمنعُهُ الاشتغالُ بالكسبِ عنِ التفقهِ . . فهوَ فقيرٌ ، ولا تعتبرُ قدرتُهُ[1] .

وإنْ كانَ متعبِّداً يمنعُهُ الكسبُ مِنْ وظائفِ العباداتِ وأورادِ الأوقاتِ . . فليكتسبْ ؛ لأنَّ الكسبَ أولىٰ منْ ذلكَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ الحلالِ فريضةٌ بعدَ الفريضةِ »[2] ، وأرادَ بهِ السعيَ في الاكتسابِ .

وقالَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : (كسبٌ في شبهةٍ خيرٌ مِنْ مسألةٍ)[3] .

---

(١) ومفهومه : أنه لو كان مشتغلاً بغير العلوم الشرعية ؛ كالمنطق والكلام والفلسفة والرياضة . . لا يدخل في هـٰذا . « إتحاف » (٤/ ١٣٨) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٧٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ١٢٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٢٣) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (١٨/ ٣٢٩) بلفظ : (مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس) .

وإنْ كانَ مكفياً بنفقةِ أبيهِ أوْ مَنْ تجبُ عليهِ نفقتُهُ . . فهٰذا أهونُ مِنَ الكسبِ ، فليسَ بفقيرٍ .

* * *

الصنفُ الثاني : المساكينُ :

والمسكينُ : هوَ الذي لا يفي دخلُهُ بخَرْجِهِ ، فقدْ يملكُ ألفَ درهمٍ وهوَ مسكينٌ ، وقدْ لا يملكُ إلا فأساً وحبلاً وهوَ غنيٌّ ، والدويرةُ التي يسكنُها والثوبُ الذي يسترُهُ علىٰ قدْرِ حالِهِ لا يسلبُهُ اسمَ المسكينِ ، وكذا أثاثُ البيتِ ؛ أعني : ما يحتاجُ إليهِ ، وذلكَ ممَّا يليقُ بهِ ، وكذا كتبُ الفقهِ لا تخرجُهُ عنِ المسكنةِ ، وإذا لمْ يملكْ سوى الكتبِ . . فلا تلزمُهُ صدقةُ الفطرِ ، وحكْمُ الكتابِ حكمُ الثوبِ وأثاثِ البيتِ ؛ فإنَّهُ محتاجٌ إليهِ ، ولكنْ ينبغي أنْ يحتاطَ في فهمِ الحاجةِ بالكتابِ ، فالكتابُ محتاجٌ إليهِ لثلاثةِ أغراضٍ : التعليمُ ، والاستفادةُ ، والتفرُّجُ بالمطالعةِ .

أمَّا حاجةُ التفرُّجِ . . فلا تعتبرُ ؛ كاقتناءِ كتبِ الأشعارِ وتواريخِ الأخبارِ وأمثالِ ذلكَ ، ممَّا لا ينفعُ في الآخرةِ ولا يجدي في الدنيا إلا مجرَّدَ التفرُّجِ والاستئناسِ ، فهٰذا يباعُ في الكفارةِ وزكاةِ الفطرِ ، ويمنعُ اسمَ المسكنةِ .

وأمَّا حاجةُ التعليمِ إنْ كانَ لأجلِ الكسبِ ؛ كالمؤدِّبِ والمعلِّمِ والمدرِّسِ بأجرةٍ . . فهٰذهِ آلتُهُ ، فلا تباعُ في الفطرةِ ؛ كأدواتِ الخيَّاطِ وسائرِ المحترفينَ ، وإنْ كانَ يدرِّسُ للقيامِ بفرضِ الكفايةِ . . فلا تباعُ أيضاً ،

ولا يسلبُهُ ذلكَ اسمَ المسكينِ ؛ لأنَّها حاجةٌ مهمةٌ .

وأمَّا حاجةُ **الاستفادةِ** والتعلُّمِ مِنَ الكتابِ ؛ كادخارِهِ كتابَ طبٍّ ليعالجَ بهِ نفسَهُ ، أوْ كتابَ وعْظٍ ليطالعَ فيهِ ويتعظَ بهِ . . فإنْ كانَ في البلدِ طبيبٌ وواعظٌ . . فهـٰذا مستغنىً عنهُ ، وإنْ لمْ يكنْ . . فهو محتاجٌ إليهِ ، ثمَّ ربَّما لا يحتاجُ إلىٰ مطالعةِ الكتابِ إلا بعدَ مدَّةٍ ، فينبغي أنْ يضبطَ مدَّةَ الحاجةِ ، والأقربُ أنْ يقالَ : ما لا يحتاجُ إليهِ في السنةِ فهوَ مستغنىً عنهُ ، فإنَّ مَنْ فضلَ عنْ قوتِ يومِهِ شيءٌ . . لزمتْهُ الفطرةُ ، فإذا قدَّرْنا حاجةَ القوتِ باليومِ . . فحاجةُ أثاثِ البيتِ وثيابِ البدنِ ينبغي أنْ تقدَّرَ بالسنةِ ، فلا تباعُ ثيابُ الصيفِ في الشتاءِ ولا ثيابُ الشتاءِ في الصيفِ ، والكتبُ بالثيابِ والأثاثِ أشبهُ .

وقدْ يكونُ لهُ مِنْ كتابٍ نسختانِ ، فلا حاجةَ إلا إلىٰ إحداهُما ، فإنْ قالَ : إحداهُما أصحُّ ، والأخرىٰ أحسنُ ، فأنا محتاجٌ إليهما . . قلنا : اكتفِ بالأصحِّ وبعِ الأحسنَ ، ودعِ التفرُّجَ والترفُّهَ .

وإنْ كانَ نسختانِ مِنْ علمٍ واحدٍ ، إحداهُما بسيطةٌ والأخرىٰ وجيزةٌ ؛ فإنْ كانَ مقصودُهُ الاستفادةَ . . فليكتفِ بالبسيطِ ، وإنْ كانَ قصدُهُ التدريسَ . . فيحتاجُ إليهما ؛ إذْ في كلِّ واحدةٍ فائدةٌ ليستْ في الأخرىٰ .

وأمثالُ هـٰذهِ الصورِ لا تنحصرُ ، ولمْ يُتعرَّضْ لهُ في فنِّ الفقهِ ، وإنَّما أوردناهُ لعمومِ البلوىٰ ، والتنبيهِ بجنسِ هـٰذا النظرِ علىٰ غيرِه ، فإنَّ استقصاءَ

هـٰذهِ الصورِ غيرُ ممكنٍ ؛ إذْ يتعدَّىٰ مثلُ هـٰذا النظرِ في أثاثِ البيتِ في مقدارِهِ وعددِهِ ونوعِهِ ، وفي ثيابِ البدنِ ، وفي الدارِ وسعتِها وضيقِها ، وليسَ لهـٰذهِ الأمورِ حدودٌ محدودةٌ ، ولكنَّ الفقيهَ يجتهدُ فيها برأيِهِ ، ويقربُ في التحديداتِ بما يراهُ ، ويقتحمُ فيهِ خطرَ الشبهاتِ ، والمتورِّعُ يأخذُ فيهِ بالأحوطِ ويدعُ ما يريبُهُ إلىٰ ما لا يريبُهُ ، والدرجاتُ المتوسطةُ المشكلةُ بينَ الأطرافِ المتقابلةِ الجليَّةِ كثيرةٌ ، ولا ينجي منها إلا الاحتياطُ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

الصنفُ الثالثُ : العاملونَ :

وهمُ السعاةُ الذينَ يجمعونَ الزكواتِ سوى الخليفةِ والقاضي ، ويدخلُ فيهِ العريفُ والكاتبُ والمستوفي والحافظُ والنقَّالُ ، ولا يزادُ واحدٌ منهُمْ علىٰ أجرِ المثلِ ، فإنْ فضلَ شيءٌ مِنَ الثمنِ عنْ أجرِ مثلِهِمْ . . ردَّ علىٰ بقيةِ الأصنافِ ، وإنْ نقصَ . . كُمِّلَ مِنْ مالِ المصالحِ .

* * *

الصنفُ الرابعُ : المؤلفةُ قلوبُهُمْ :

وهمُ الأشرافُ الذينَ قدْ أسلموا وهمْ مطاعونَ في قومِهِمْ ، وفي إعطائِهِمْ تقريرُهُمْ على الإسلامِ ، وترغيبُ نظرائِهِمْ وأتباعِهِمْ .

* * *

الصنفُ الخامسُ : المكاتبونَ :

ويدفعُ إلى السيِّدِ سهمُ المكاتبِ ، وإنْ دفعَ إلى المكاتبِ . . جازَ ، ولا يدفعُ السيِّدُ زكاتَهُ إلىٰ مكاتبِ نفسِهِ ؛ لأنَّهُ بعدُ عبدٌ لهُ .

الصنفُ السادسُ : الغارمونَ :

والغارمُ : هوَ الذي استقرضَ في طاعةٍ أوْ مباحٍ وهوَ فقيرٌ ، فإنِ استقرضَ في معصيةٍ . . فلا يعطىٰ إلا إذا تابَ ، وإنْ كانَ غنياً . . لمْ يقضَ دينُهُ إلا إذا كانَ قدِ استقرضَ لمصلحةٍ أوْ إطفاءِ فتنةٍ .

الصنفُ السابعُ : الغزاةُ الذينَ ليسَ لهُمْ مرسومٌ في ديوانِ المرتزقةِ :

فيصرفُ إليهم سهمٌ وإنْ كانوا أغنياءَ ؛ إعانةً لهمْ على الغزوِ .

الصنفُ الثامنُ : ابنُ السبيلِ :

وهوَ الذي شَخَصَ مِنْ بلدِهِ ليسافرَ في غيرِ معصيةٍ أوِ اجتازَ بها ، فيعطىٰ إنْ كانَ فقيراً ، وإنْ كانَ لهُ مالٌ ببلدٍ آخرَ . . أعطيَ بقدْرِ بُلغتِهِ .

فإنْ قلتَ : فبمَ تُعرفُ هـٰذهِ الصفاتُ ؟

قلنا : أمَّا الفقرُ والمسكنةُ . . فبقولِ الآخذِ ، ولا يطالبُ ببينةٍ

ولا يحلَّفُ ، بلْ يجوزُ اعتمادُ قولِهِ إذا لمْ يُعلمْ كذبُهُ .

وأمَّا الغزوُ والسفرُ . . فهوَ أمرٌ مستقبلٌ ، فيعطىٰ بقولِهِ : (إنِّي عازمٌ)[1] ، فإنْ لمْ يفِ بهِ . . استردَّ .

وأمَّا بقيةُ الأصنافِ . . فلا بدَّ فيها مِنَ البينةِ ، فهـٰذهِ شروطُ الاستحقاقِ ، وأمَّا مقدارُ ما يصرفُ إلىٰ كلِّ واحدٍ . . فسيأتي .

* * *

(١) أي : على الغزو ، أو السفر لمحلتي ، وفي بعض النسخ : (إني غاز) ، وعليه مشى الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٤/ ١٥٣) .

بيان وظائف القابض
وهي خمسة

الأولىٰ : أن يعلمَ أنَّ اللهَ تبارك وتعالىٰ أوجبَ صرفَ الزكاةِ إليهِ ليُكفىٰ مُهمَّهُ ، ويجعلَ همومَهُ همّاً واحداً :

فقدْ تعبَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الخلقَ بأنْ يكونَ همُّهُمْ واحداً ، وهوَ اللهُ سبحانَهُ واليومُ الآخرُ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] .

ولكنْ لمَّا اقتضتِ الحكمةُ أنْ تسلَّطَ على العبدِ الشهواتُ والحاجاتُ وهيَ تفرِّقُ همَّهُ . . اقتضى الكرمُ إفاضةَ نعمةٍ تكفي الحاجاتِ ، فأكثرَ الأموالَ وصبَّها في أيدي عبادِهِ لتكونَ آلةً لهُم في دفْعِ حاجاتِهِمْ ، ووسيلةً لتفرُّغِهُمْ لطاعاتِهِمْ ، فمنهُمْ مَنْ أكثرَ مالَهُ ، فجعلَهُ عليهِ فتنةً وبليةً ، فأقحمَهُ في الخطرِ ، ومنهُمْ مَنْ أحبَّهُ ، فحماهُ الدنيا كما يحمي المشفقُ مريضَهُ ، فزوىٰ عنهُ فُضُولَها ، وساقَ إليه قدْرَ حاجتِهِ علىٰ أيدي الأغنياءِ ليكونَ شغلُ الكسبِ والتعبِ في الجمعِ والحفظِ عليهِمْ ، وفائدتُهُ تنصبُّ إلى الفقراءِ ، فيتجرَّدونَ

---

(١) أي : يقصدوني بعبادتهم وتذللهم ، فأكفيهم مؤنتهم وهمومهم ، وروى ابن ماجه (٢٥٧) مرفوعاً : « من جعل الهموم همّاً واحداً ؛ همَّ آخرته . . كفاه الله همَّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا . . لم يبالِ الله في أيِّ أوديتها هلك » . انظر « الإتحاف » (٤/ ١٥٤) .

لعبادةِ اللهِ والاستعدادِ لما بعدَ الموتِ ، فلا تصرفُهُمْ عنْ ذلكَ فضولُ الدنيا ، ولا تشغلُهُمْ عنِ التأهُّبِ الفاقةُ ، وهـٰذا منتهى النعمةِ ، فحقُّ الفقيرِ أنْ يعرفَ قدْرَ نعمةِ الفقرِ ، ويتحقَّقَ أنَّ فضلَ اللهِ عليهِ فيما زواهُ عنهُ أكثرُ مِنْ فضلِهِ فيما أعطاهُ ؛ كما سيأتي في كتابِ الفقرِ تحقيقُهُ وبيانُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

فليأخذْ ما يأخذُهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ رزقاً وعوناً لهُ على الطاعةِ ، ولتكنْ نيَّتُهُ فيهِ أنْ يتقوَّىٰ بهِ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ لمْ يقدرْ عليهِ . . فليصرفْهُ إلىٰ ما أباحَهُ اللهُ تعالىٰ ، فإنِ استعانَ بهِ علىٰ معصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . كانَ كافراً لأنعمِ اللهِ ، مستحقّاً للبعدِ والمقتِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

* * *

الثانيةُ : أنْ يشكرَ المعطيَ ويدعوَ لهُ ويثنيَ عليهِ :

ويكونُ شكرُهُ ودعاؤُهُ بحيثُ لا يخرجُهُ عنْ كونِهِ واسطةً ، ولكنَّهُ طريقُ وصولِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وللطريقِ حقٌّ مِنْ حيثُ جعلَهُ اللهُ طريقاً وواسطةً ، وذلكَ لا ينافي رؤيةَ النعمةِ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لَمْ يشكرِ الناسَ . . لمْ يشكرِ اللهَ »(١) ، وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ في مواضعَ علىٰ أعمالِهِمْ وهوَ خالقُها وخالقُ القدرةِ عليها ؛ نحوَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ .

وليقلِ القابضُ في دعائِهِ : (طهَّرَ اللهُ قلبَكَ في قلوبِ الأبرارِ ، وزكَّىٰ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .

عملَكَ في عملِ الأخيارِ ، وصلَّىٰ علىٰ روحِكَ في أرواحِ الشهداءِ)[1] ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أسدىٰ إليكُمْ معروفاً . . فكافئوهُ ، فإنْ لمْ تستطيعوا . . فادعوا لهُ حتَّىٰ تعلموا أنَّكُمْ قدْ كافأتموهُ »[2] .

ومِنْ تمامِ الشكرِ أنْ يسترَ عيوبَ العطاءِ إنْ كانَ فيهِ عيبٌ ، ولا يحقرَهُ ولا يذمَّهُ ولا يُعيِّرَهُ بالمنعِ إذا منعَ ، ويفخِّمَ عندَ نفسِهِ وعندَ الناسِ صنيعَهُ ، فوظيفةُ المعطي الاستصغارُ ، ووظيفةُ القابضِ تقلُّدُ المنَّةِ والاستعظامُ ، وعلىٰ كلِّ عبدٍ القيامُ بحقِّهِ ، وذلكَ لا تناقضَ فيهِ ؛ إذْ موجباتُ التصغيرِ والتعظيمِ لا تتعارضُ ، والنافعُ للمعطي ملاحظةُ أسبابِ التصغيرِ ، ويضرُّهُ خلافُهُ ، والآخذُ بالعكسِ منهُ[3] ، وكلُّ ذلكَ لا يناقضُ رؤيةَ النعمةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ مَنْ لا يرى الواسطةَ واسطةً . . فقدْ جهلَ ، وإنَّما المنكرُ أنْ يرى الواسطةَ أصلاً .

* * *

الثالثةُ : أنْ ينظرَ فيما يأخذُهُ :

فإنْ لمْ يكنْ مِنْ حلِّهِ . . تورَّعَ عنهُ ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، ولنْ يعدمَ المتورِّعُ عنِ الحرامِ فتوحاً مِنَ الحلالِ ، فلا

(١) قوت القلوب (٢/ ١٠٩) .
(٢) رواه أبو داوود (١٦٧٢) ، والنسائي (٥/ ٨٢) .
(٣) فإنه ينفعه ملاحظة أسباب التعظيم ، ويضرُّهُ التحقير . « إتحاف » (٤/ ١٥٧) .

يأخذنَ مِنْ أموالِ الأتراكِ والجنودِ وعمَّالِ السلاطينِ[1] ومَنْ أكثرُ كسبهِ مِنَ الحرامِ . . إلا إذا ضاقَ عليهِ الأمرُ وكانَ ما يسلَّمُ إليهِ لا يعرفُ لهُ مالكاً معيَّناً ، فلهُ أنْ يأخذَ بقدْرِ الحاجةِ ، فإنَّ فتوى الشرعِ في مثلِ هـٰذا أنْ يتصدَّقَ بهِ علىٰ ما سيأتي بيانُهُ في كتابِ الحلالِ والحرامِ ، وذلكَ إذا عجزَ عنِ الحلالِ ، فإذا أخذَ . . لمْ يكنْ أخذُهُ أخذَ زكاةٍ ؛ إذْ لا يقعُ زكاةً عنْ مؤدِّيهِ وهوَ حرامٌ .

* * *

الرابعةُ : أنْ يتوقَّىٰ مواقعَ الريبةِ والاشتباهِ في مقدارِ ما يأخذُهُ :

فلا يأخذُ إلا القدْرَ المباحَ ، ولا يأخذُ إلا إذا تحقَّقَ أنَّهُ موصوفٌ بصفةِ الاستحقاقِ .

فإنْ كانَ يأخذُ بالكتابةِ أوِ الغرامةِ . . فلا يزيدُ علىٰ مقدارِ الدينِ ، وإنْ كانَ يأخذُ بالعملِ . . فلا يزيدُ علىٰ أجرةِ المثْلِ ، وإنْ أعطيَ زيادةً . . أبىٰ وامتنعَ ؛ إذْ ليسَ المالُ للمعطي حتَّىٰ يتبرَّعَ بهِ ، وإنْ كانَ مسافراً . . لمْ يزدْ على الزادِ وكراءِ الدابَّةِ إلىٰ مقصدِهِ ، وإنْ كانَ غازياً . . لمْ يأخذْ إلا ما يحتاجُ إليه للغزوِ خاصَّةً ؛ مِنْ خيلٍ وسلاحٍ ونفقةٍ ، وتقديرُ ذلكَ بالاجتهادِ ، وليسَ لهُ حدٌّ ، وكذا زادُ السفرِ ، والورعُ تركُ ما يَريبُهُ إلىٰ ما لا يَريبُهُ .

وإنْ أخذَ بالمسكنةِ . . فلينظرْ أوَّلاً إلىٰ أثاثِ بيتِهِ وثيابِهِ وكتبِهِ : هلْ فيها

---

(١) ممن عهد عنه الظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإلا . . فلا منع .

ما يُستغنىٰ عنهُ بعينِه أو يُستغنىٰ عنْ نفاستِهِ فيمكنُ أنْ يبدَّلَ بما يكفي ويفضلَ بعضُ قيمتِهِ ؟ وكلُّ ذلكَ إلى اجتهادِهِ ، وفيهِ طرفٌ ظاهرٌ يتحقَّقُ معَهُ أنَّهُ مستحقٌّ ، وطرفٌ آخرُ مقابلٌ يتحقَّقُ معَهُ أنَّهُ غيرُ مستحقٍّ ، وبينَهُما أوساطٌ مشتبهةٌ ، ومَنْ حامَ حولَ الحمىٰ . . يوشكُ أنْ يقعَ فيهِ ، والاعتمادُ في هـٰذا علىٰ قولِ الآخذِ ظاهراً .

وللمحتاجِ في تقديرِ الحاجاتِ مقاماتٌ في التضييقِ والتوسيعِ ، ولا تنحصرُ مراتبُهُ ، وميلُ الوَرِعِ إلى التضييقِ ، وميلُ المتساهلِ إلى التوسيعِ ، حتَّىٰ يرىٰ نفسَهُ محتاجاً إلىٰ فنونٍ مِنَ التوسيعِ هيَ ممقوتةٌ في الشرعِ .

ثمَّ إذا تحقَّقَتْ حاجتُهُ . . فلا يأخذنْ مالاً كثيراً ، بلْ ما يتمِّمُ كفايتَهُ مِنْ وقتِ أخذِهِ إلىٰ سنةٍ ، فهـٰذا أقصىٰ ما يرخَّصُ فيهِ مِنْ حيثُ إنَّ السنةَ إذا تكرَّرَتْ . . تكرَّرَتْ أسبابُ الدَّخْلِ ، ومِنْ حيثُ إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ادَّخَرَ لعيالِهِ قوتَ سنةٍ[1] ، فهـٰذا أقربُ ما يحدُّ بهِ حدُّ الفقيرِ والمسكينِ ، ولوِ اقتصرَ علىٰ حاجةِ شهرِهِ أوْ حاجةِ يومِهِ . . فهوَ أقربُ للتقوىٰ .

---

(١) كما في « البخاري » (٢٩٠٤)، و« مسلم » (١٧٥٧) بلفظ : (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله علىٰ رسوله مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان ينفق علىٰ أهله نفقة سنة ، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله) ، ولفظ الترمذي (١٧١٩) : (كان يعزل نفقة أهله سنة) .

ومذاهبُ العلماءِ في قدْرِ المأخوذِ بحكْمِ الزكاةِ والصدقةِ مختلفةٌ ؛ فمِنْ مبالغٍ في التقليلِ إلىٰ حدٍّ أوجبَ الاقتصارَ علىٰ قدرِ قوتِ يومِهِ وليلتِهِ ، وتمسكَ بما روىٰ سهلُ بنُ الحنظليةِ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنِ السؤالِ معَ الغنىٰ ، فسئلَ عن غناهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « غداؤُهُ وعشاؤُهُ »(١) .

وقالَ آخرونَ : يأخذُ إلىٰ حدِّ الغنىٰ ، وحدُّ الغنىٰ نصابُ الزكاةِ ؛ إذْ لمْ يوجبِ اللهُ تعالى الزكاةَ إلا على الأغنياءِ ، فقالوا : لهُ أنْ يأخذَ لنفسِهِ ولكلِّ واحدٍ مِنْ عيالِهِ نصابَ زكاةٍ .

وقالَ قائلونَ : حدُّ الغنيِّ خمسونَ درهماً أوْ قيمتُها مِنَ الذهبِ ؛ لما روى ابنُ مسعودٍ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ سألَ ولهُ مالٌ يغنيهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ وفي وجهِهِ خُمُوشٌ » ، قيلَ : وما غناهُ ؟ قالَ : « خمسونَ درهماً أوْ قيمتُها مِنَ الذهبِ » ، وقيلَ : راويهِ ليسَ بقويٍّ(٢) .

وقالَ قومٌ : أربعونَ ؛ لما رواهُ عطاءُ بنُ يسارٍ منقطعاً أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ

(١) رواه أبو داوود (١٦٢٩) بلفظ : « من سأل وعنده ما يغنيه . . فإنما يستكثر من النار » فقالوا : وما يغنيه ؟ قال : « قدر ما يغديه ويعشيه » .
(٢) رواه أبو داوود (١٦٢٦) ، والترمذي (٦٥٠) ، والنسائي (٥/ ٩٧) ، وابن ماجه (١٨٤٠) ، وقوله : (قيل : راويه ليس بقوي) : عنىٰ به حكيم بن جبير ، فقد ضعفوه ، متهم بالرفض ، ولذا ضعَّف الحديث النسائي والخطابي ، ولذا طلبوا من سفيان الرواية عن غيره ، فحدَّثهم عن زبيد ، فصار الحديث بهٰذا الطريق قوياً ، والله أعلم . « إتحاف » (٤/ ١٦٠) .

وسلَّمَ قالَ : « مَنْ سألَ ولهُ أوقيةٌ . . فقدْ ألحفَ في السؤالِ »(١) .

وبالغَ آخرونَ في التوسيعِ فقالوا : لهُ أنْ يأخذَ مقدارَ ما يشتري بهِ ضيعةً ، فيستغنيَ بها طولَ عمرِهِ ، أوْ يهيِّىءَ بضاعةً ليتجرَ فيها ويستغنيَ بها طولَ عمرِهِ ؛ لأنَّ هـٰذا هوَ الغنىٰ ، وقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا أعطيتُمْ . . فأغنوا)(٢) ، حتَّىٰ ذهبَ قومٌ إلىٰ أنَّ مَنِ افتقرَ . . فلهُ أنْ يأخذَ بقدْرِ ما يعودُ بهِ إلىٰ مثلِ حالِهِ ولوْ عشرةَ آلافِ درهمٍ ، إلا إذا خرجَ عنْ حدِّ الاعتدالِ .

ولما شغلَ أبا طلحةَ بستانُهُ عنِ الصلاةِ . . قالَ : جعلتُهُ صدقةً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اجعلْهُ في قرابتِكَ ، فهوَ خيرٌ لكَ »(٣) ، فأعطاهُ حسَّانَ وأبا قتادةَ ، فحائطٌ مِنْ نخلٍ لرجلينِ كثيرٌ مغنٍ . وأعطىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ أعرابياً ناقةً معَها ظئراها(٤) ، فهـٰذا ما يُحكىٰ فيهِ .

فأمَّا التقليلُ إلىٰ قوتِ اليومِ أوِ الأوقيةِ . . فذلكَ وردَ في كراهيةِ السؤالِ والتردُّدِ على الأبوابِ ، وذلكَ مستنكرٌ ، ولهُ حكمٌ آخرُ ، بلِ التجويزُ إلىٰ أنْ يشتريَ ضيعةً فيستغنيَ بها أقربُ إلى الاحتمالِ ، وهوَ أيضاً مائلٌ إلى الإسرافِ .

---

(١) رواه أبو داوود (١٦٢٧ ، ١٦٢٨) ، والنسائي (٥/٩٨) ، زاد هشام في حديثه عند أبي داوود : (وكانت الأوقية علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين درهماً) ، وبالأربعين صرَّح النسائي في حديث آخر (٥/٩٨) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٠٥٢٦) .

(٣) روى الجزء الأول منه مالك في « الموطأ » (١/٩٨) ، والباقي عند البخاري (١٤٦١) ، ومسلم (٩٩٨) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/٣١٦) ، **وظئراها هنا** : أبوها وأمُّها .

والأقربُ إلى الاعتدالِ : كفايةُ سنةٍ ، فما وراءَهُ فيهِ خطرٌ ، وفيما دونَهُ تضييقٌ ، وهـٰذهِ الأمورُ إذا لمْ يكنْ فيها تقديرٌ . جُزِمَ بالتوقيفِ ، فليسَ للمجتهدِ إلا الحكمُ بما يقعُ لهُ ، ثمَّ يقالُ للورعِ : « استفتِ قلبَكَ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ » كما قالَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ؛ إذِ الإثْمُ حَوَازُّ القلوبِ ، فإذا وجدَ القابضُ في نفسِهِ شيئاً ممَّا يأخذُهُ . فليتقِ اللهَ فيهِ ، ولا يترخصْ تعلُّلاً بالفتوىٰ منْ علماءِ الظاهرِ ؛ فإنَّ لفتاويهِمْ قيوداً ومطلقاتٍ مِنَ الضروراتِ ، وفيها تخميناتٌ واقتحامُ شبهاتٍ ، والتوقي مِنَ الشبهاتِ مِنْ شيَمِ ذوي الدينِ وعاداتِ السالكينَ لطريقِ الآخرةِ .

* * *

الخامسةُ : أنْ يسألَ صاحبَ المالِ عنْ قدْرِ الواجبِ عليهِ :

فإنْ كانَ ما يعطيهِ فوقَ الثُّمُنِ . . فلا يأخذْ منهُ ؛ لأنَّهُ لا يستحقُّ معَ شريكَيهِ إلا الثُّمُنَ ، فلينقصْ مِنَ الثُّمُنِ مقدارَ ما يصرفُ إلى اثنينِ مِنْ صنفِهِ ، وهـٰذا السؤالُ واجبٌ علىٰ أكثرِ الخلقِ ، فإنَّهُمْ لا يراعونَ هـٰذهِ القسمةَ ؛ إمَّا لجهلٍ ، وإمَّا لتساهلٍ ، وإنَّما يجوزُ تركُ السؤالِ عنْ مثلِ هـٰذهِ الأمورِ إذا لمْ يغلبْ على الظنِّ احتمالُ التحريمِ ، وسيأتي ذكْرُ مظانِّ السؤالِ ودرجةِ الاحتمالِ في كتابِ الحلالِ والحرامِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (٤/٢٢٨) .

الفَصْلُ الرَّابِعُ
في صدقة التّطوّع ، وفضلها ، وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصّدقة

الأخبارُ :

قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تصدَّقوا ولوْ بتمرةٍ ، فإنَّها تسدُّ مِنَ الجائعِ ، وتطفىءُ الخطيئةَ كما يطفىءُ الماءُ النارَ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ تجدوا . . فبكلمةٍ طيبةٍ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا منْ عبدٍ مسلمٍ يتصدَّقُ بصدقةٍ مِنْ كسبٍ طيِّبٍ ـ ولا يقبلُ اللهُ إلا طيّباً ـ إلا كانَ اللهُ يأخذُها بيمينِهِ ، فيربِّيها لهُ كما يربِّي أحدُكُمْ فَصِيلَهُ أوْ فَلُوَّهُ حتَّىٰ تبلغَ التمرةُ مثلَ أُحُدٍ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي الدرداءِ : « إذا طبختَ مرقةً . . فأكثرْ ماءَها ، ثمَّ انظرْ أهلَ بيتٍ مِنْ جيرانِكَ ، فأصبْهُمْ منهُ بمعروفٍ »[٤] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٥١) .
(٢) رواه البخاري (١٤١٣) ، ومسلم (١٠١٦) .
(٣) رواه مسلم (١٠١٤) .
(٤) رواه مسلم (٢٦٢٥) والخطاب فيه لأبي ذر رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحسنَ عبدٌ الصدقةَ إلا أحسنَ اللهُ عزَّ وجلَّ الخلافةَ علىٰ تركتِهِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقتِهِ يومَ القيامةِ حتَّىٰ يُقضىٰ بينَ الناسِ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصدقةُ تسدُّ سبعينَ باباً مِنَ الشرِّ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صدقةُ السرِّ تطفىءُ غضبَ الربِّ عزَّ وجلَّ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الذي أعطىٰ مِنْ سَعةٍ بأفضلَ أجراً مِنَ الذي يقبلُ مِنْ حاجةٍ »(٥) ، ولعلَّ المرادَ بهِ : الذي يقصدُ مِنْ دفْعِ حاجتِهِ التفرُّغَ للدينِ ، فيكونُ مساوياً للمعطي الذي يقصدُ بإعطائِهِ عمارةَ دينِهِ .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الصدقةِ أفضلُ ؟ قالَ : « أنْ تَصدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ ، تأملُ الغنىٰ وتخشى الفاقةَ ، ولا تمهلُ حتَّىٰ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤٦) عن ابن شهاب مرسلاً .
(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٨١) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٤/ ٢٧٤) .
(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٦١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٦٨) .
(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٢٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٤٥) .

إذا بلغتِ الحلقومَ . . قلتَ : لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا ، ألا وقدْ كانَ لفلانٍ »[1] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يوماً لأصحابهِ : « تصدَّقوا » ، فقالَ رجلٌ : إنَّ عندي ديناراً ، فقالَ : « أنفقْهُ علىٰ نفسِكَ » ، فقالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ : « أنفقْهُ علىٰ زوجتِكَ » ، قالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ : « أنفقْهُ علىٰ ولدِكَ » ، قالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ : « أنفقْهُ علىٰ خادمِكَ » ، قالَ : إنَّ عندي آخرَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنتَ أبصرُ بهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تحلُّ الصدقةُ لآلِ محمدٍ ، إنَّما هيَ أوساخُ الناسِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ردُّوا مذمَّةَ السائلِ ولوْ بمثلِ رأسِ الطائرِ منَ الطعامِ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « لوْ صدقَ السائلُ . . ما أفلحَ مَنْ ردَّهُ »[5] .

---

(١) رواه البخاري (١٤١٩) ، ومسلم (١٠٣٢) .

(٢) رواه أبو داوود في « سننه » (١٦٩١) ، والنسائي (٥/ ٦٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٣٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤١٥) .

(٣) رواه مسلم (١٠٧٢) .

(٤) رواه العقيلي في « الضعفاء » (١/ ١٢١) وفيه : (رأس الذباب) بدل (رأس الطائر) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٩١٥) عن حميد بن عبد الرحمٰن قال : (كان يقال : ردوا السائل ولو بمثل رأس القطاة) .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٤٦) بلفظ : « لولا أن المساكين يكذبون . . ما أفلح من ردَّهم » ، وكذلك هو عند البيهقي في « الشعب » (٣١٢٦) ، وهو بلفظ المصنف رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (٥/ ٢٩٧) ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ١٧١) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ ردَّ سائلاً خائباً مِنْ بيتِهِ .. لمْ تغشَ الملائكةُ ذلكَ البيتَ سبعةَ أيامٍ) .

وكانَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يكلُ خَصلتينِ إلىٰ غيرِه ؛ كانَ يضعُ طَهورَهُ بالليلِ ويخمِّرُهُ ، وكانَ يناولُ المسكينَ بيدِهِ(1) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ المسكينُ الذي تردُّهُ التمرةُ والتمرتانِ واللقمةُ واللقمتانِ ، إنَّما المسكينُ المتعفِّفُ ، اقرؤوا إنْ شئتُمْ : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ »(2) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ مسلمٍ يكسو مسلماً .. إلا كانَ في حفظِ اللهِ عزَّ وجلَّ ما دامتْ عليهِ منهُ رقعةٌ »(3) .

* * *

الآثارُ :

قالَ عروةُ بنُ الزبيرِ : (لقدْ تصدَّقَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا بخمسينَ ألفاً ، وإنَّ درعَها لمرقَّعٌ)(4) .

---

(1) رواه ابن ماجه (٣٦٢) عن ابن عباس قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكل طهوره إلىٰ أحد ، ولا صدقته التي يتصدق بها ، يكون هو الذي يتولاها بنفسه) .

(2) رواه البخاري (٤٥٣٩) ، ومسلم (١٠٣٩) .

(3) رواه الترمذي (٢٤٨٤) بنحوه ، وهو بمعناه عند أبي داوود (١٦٨٢) .

(4) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٥٤) .

وقالَ مجاهدٌ في قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ فقالَ : (وهمْ يشتهونَهُ)(١) .

وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلِ الفضلَ عندَ خيارِنا ، لعلَّهُمْ يعودونَ بهِ علىٰ أولي الحاجةِ منَّا) .

وقالَ عبدُ العزيزِ بن عميرٍ : (الصلاةُ تبلِّغُكَ نصفَ الطريقِ ، والصومُ يبلِّغُكَ بابَ المَلِكِ ، والصدقةُ تدخلُكَ عليهِ)(٢) .

وقالَ ابنُ أبي الجعدِ : (إنَّ الصدقةَ لتدفعُ سبعينَ باباً مِنَ السوءِ ، وفضلُ سرِّها علىٰ علانيتِها بسبعينَ ضعفاً ، وإنَّها لتفكُّ لَحْيَي سبعينَ شيطاناً)(٣) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إنَّ رجلاً عبدَ اللهَ سبعينَ سنةً ، ثم أصابَ فاحشةً فأحبطَ عملَهُ ، ثمَّ مرَّ بمسكينٍ ، فتصدَّقَ عليهِ برغيفٍ ، فغفرَ اللهُ لهُ ذنبَهُ ، وردَّ عليهِ عملَ السبعينَ سنةً)(٤) .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٤/ ٢٩/ ٢٥٤) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٤٤٠) عن ابن أبي الحواري ، عن عبد العزيز بن محمد ، وعبد العزيز بن عمير روىٰ عنه أحمد بن أبي الحواري كما في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ٣٣٣) .

(٣) روىٰ أوله الطبراني في « الكبير » (٤/ ٢٧٤) ، وآخره رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤٩) .

(٤) رواه الحسين بن حرب في « البر والصلة » (٢٧٩) بلفظ المصنف ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٥٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٦٣) عن أبي بردة قال : (لما حضر أبا موسى الوفاةُ ـ وأبو بردة ابنه ـ قال : يا بُنَيَّ ؛ اذكروا صاحبَ الرغيفِ ، =

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (إذا اخطأتَ خطيئةً . . فأعطِ صدقةً)[1] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (ما أعرفُ حبَّةً تزنُ جبالَ الدنيا إلا الحبةَ مِنَ الصدقةِ)[2] .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ : (كانَ يقالُ : ثلاثةٌ مِنْ كنوزِ الجنةِ أوْ مِنْ كنوزِ البرِّ : كتمانُ المرضِ ، وكتمانُ الصدقةِ ، وكتمانُ المصائبِ) ، ورُوِيَ مسنداً[3] .

= قال : كان رجل يتعبد في صومعة ـ أُراه قال : سبعينَ سنة ـ لا ينزل إلا في يوم أحد ، قال : فنزل في يوم أحد ، قال : فشُبِّهَ أو شبَّ الشيطان في عينه امرأة ، فكان معها سبعة أيام وسبع ليال ، قال : ثم كُشف عن الرجل غطاؤه ، فخرج تائباً ، فكان كلما خطا خطوة . . صلىٰ وسجد ، قال : فآواه الليل إلىٰ دكان عليه اثنا عشر مسكيناً ، فأدركه الإعياء ، فرمىٰ بنفسه بين رجلين منهم .

وكان ثمَّ راهب يبعث إليهم كل ليلة بأرغفة ، فيعطي كل إنسانٍ رغيفاً ، فجاء صاحب الرغيف فأعطىٰ كل إنسان رغيفاً ، فقال المتروك لصاحب الرغيف : ما لك لم تعطني رغيفي ؟ ما كان إليَّ عنه غنىً ، قال : تُراني أُمسكه عنك ؟! والله لا أعطيك شيئاً الليلة ، قال : فعمد التائب إلى الرغيف الذي دفعه إليه ، فدفعه إلى الرجل الذي ترك ، فأصبح التائب ميتاً ، قال : فوزنت السبعون سنة بالسبع الليالي . . فلم تزن ! قال : فوزن الرغيف بالسبع الليالي ، قال : فرجح الرغيف ، فقال أبو موسىٰ : يا بني ؛ اذكروا صاحب الرغيف) .

(١) رواه الحسين بن حرب في « البر والصلة » (٢٨١) .

(٢) حكاه الثعلبي في « تفسيره » (٢/ ٢٨٤) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١١٧) مرفوعاً ، وانظر « قوت القلوب » (٢/ ١٠٧) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الأعمالَ تباهتْ ؛ فقالتِ الصدقةُ : أنا أفضلُكُنَّ) .

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ يتصدَّقُ بالسُّكَّرِ ويقولُ : (سمعتُ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، واللهُ يعلمُ أنِّي أحبُّ السُّكَّرَ)[1] .

وقالَ النخعيُّ : (إذا كانَ الشيءُ للهِ عزَّ وجلَّ . . لا يسرُّني أنْ يكونَ فيهِ عيبٌ) .

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ : (يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ أجوعَ ما كانوا قطُّ ، وأعطشَ ما كانوا قطُّ ، وأعرىٰ ما كانوا قطُّ ، فمنْ أطعمَ للهِ عزَّ وجلَّ . . أشبعَهُ اللهُ ، ومَنْ سقىٰ للهِ عزَّ وجلَّ . . سقاهُ اللهُ ، ومنْ كسا للهِ عزَّ وجلَّ . . كساهُ اللهُ)[2] .

وقالَ الحسنُ : (لو شاءَ اللهُ لجعلَكُمْ أغنياءَ لا فقيرَ فيكُمْ ، ولكنَّهُ ابتلىٰ بعضَكُمْ ببعضٍ)[3] .

وقالَ الشعبيُّ : (مَنْ لمْ يرَ نفسَهُ إلىٰ ثوابِ الصدقةِ أحوجَ مِنَ الفقيرِ إلىٰ صدقتِهِ . . فقدْ أبطلَ صدقتَهُ ، وضربَ بها وجهَهُ) .

---

(١) عزا السيوطي في « الدر المنثور » (٢/ ٢٦٢) روايته لابن المنذر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، والسُّكَّر : نوع من الرطب شديد الحلاوة .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٠٩٢) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٧١) ، وفيه قبل الاستدراك : (ولو شاء لجعلكم فقراء لا غني فيكم) عن الحسن مرسلاً .

وقالَ مالكٌ : (لا نرىٰ بشربِ الموسرِ مِنَ الماءِ الذي يُتصدَّقُ بهِ ويُسقىٰ في المسجدِ بأساً ؛ لأنَّهُ إنَّما جُعِلَ للعطشانِ مَنْ كانَ ، ولمْ يُردْ بهِ أهلُ الحاجةِ والمسكنةِ على الخصوصِ) .

ويقالُ : إنَّ الحسنَ مرَّ بهِ نخَّاسٌ ومعهُ جاريةٌ ، فقالَ للنخَّاسِ : أترضىٰ ثمنَها الدرهمَ والدرهمينِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فاذهبْ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رضيَ في الحورِ العينِ بالفَلْسِ واللقمةِ[1] .

* * *

(١) نثر الدر (٥/١٨٣ ، ١٨٤) .

بيان إخفاء أخذ الصّدقة وإظهارها

قدِ اختلفَ الناسُ في طُرقِ طلاَّبِ الإخلاصِ في ذلكَ ؛ فمالَ قومٌ إلىٰ أنَّ الإخفاءَ أفضلُ ، ومالَ قومٌ إلى الإظهارِ ، ونحنُ نشيرُ إلىٰ ما في كلِّ واحدٍ مِنَ المعاني والآفاتِ ، ثمَّ نكشفُ الغطاءَ عنِ الحقِّ فيهِ :

أمَّا الإخفاءُ . . ففيهِ خمسةُ معانٍ :

الأوّلُ : أنَّهُ أبقىٰ للسَّتْرِ على الآخذِ ؛ فإنَّ أخْذَهُ ظاهراً هتكٌ لسترِ المروءةِ ، وكشفٌ عنِ الحاجةِ ، وخروجٌ عنْ هيئةِ التعفُّفِ والتصوُّنِ المحبوبِ الذي يحسبهُمُ الجاهلُ بهِ أغنياءَ مِنَ التعفُّفِ .

* * *

الثاني : أنَّهُ أسلمُ لقلوبِ الناسِ ولألسنتِهِمْ ؛ فإنَّهُمْ ربما يحسدونَ أوْ ينكرونَ عليهِ أخْذَهُ ، ويظنُّونَ أنَّهُ آخذٌ معَ الاستغناءِ ، أوْ ينسبونَهُ إلىٰ أخْذِ زيادةٍ ، والحسدُ وسوءُ الظنِّ والغيبةُ مِنَ الذنوبِ الكبائرِ ، وصيانتُهُمْ عنْ هٰذهِ الجرائمِ أولىٰ .

وقالَ أبو أيوبَ السَّخْتيانيُّ : (إنِّي لأتركُ لُبْسَ الثوبِ الجديدِ خشيةَ أنْ يحدِثَ في جيراني حسداً)(١) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠١) .

وقالَ بعضُ الزهَّادِ : (ربما تركتُ استعمالَ الشيءِ لأجلِ إخواني ، يقولونَ : مِنْ أينَ لهُ هـٰذا ؟!)[١] .

وعنْ إبراهيمَ التيميِّ : أنَّهُ رُئِيَ عليهِ قميصٌ جديدٌ ، فقالَ بعضُ إخوانِهِ : مِنْ أينَ لكَ هـٰذا ؟ فقالَ : كسانيهِ أخي خيثمةُ ، ولوْ علمتُ أنَّ أهلَهُ علموا بهِ . . ما قبلتُهُ[٢] .

* * *

الثالثُ : إعانةُ المعطي علىٰ إسرارِ العملِ ؛ فإنَّ فضلَ السرِّ على الجهرِ في الإعطاءِ أكثرُ ، والإعانةُ علىٰ إتمامِ المعروفِ معروفٌ ، والكتمانُ لا يتمُّ إلا باثنينِ ؛ فمهما أظهرَ هـٰذا . . انكشفَ أمرُ المعطي .

ودفعَ رجلٌ إلىٰ بعضِ العلماءِ شيئاً ظاهراً فردَّهُ إليهِ ، ودفعَ إليه آخرُ شيئاً في السرِّ فقبلَهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ؟ فقالَ : إنَّ هـٰذا عملَ بالأدبِ في إخفاءِ معروفِهِ فقبلتُهُ ، وذاكَ أساءَ أدبَهُ في عملِهِ فرددتُ عليهِ عملَهُ[٣] .

وأعطىٰ رجلٌ بعضَ الصوفيةِ شيئاً في الملأِ فردَّهُ ، فقالَ لهُ : لِمَ تردُّ

---

(١) رواه وكيع في « أخبار القضاة » (٣/٣٥) ، وفيه معنى الخبر الذي قبله ، عن محارب بن دثار القاضي .
(٢) رواه هناد في « الزهد » (٦٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/١١٣) ، والخبر عن إبراهيم النخعي لا التيمي كما في « تهذيب الكمال » (٨/٣٧٢) ، والمصنف تبع صاحب « القوت » (٢/٢٠٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/٢٠٢) .

على اللهِ عزَّ وجلَّ ما أعطاكَ ؟ فقالَ : إنَّكَ أشركتَ غيرَ اللهِ سبحانَهُ فيما للهِ تعالىٰ ولمْ تقنعْ بعينِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فرددتُ عليكَ شرْكَكَ[1] .

وقبلَ بعضُ العارفينَ في السرِّ شيئاً كانَ ردَّهُ في العلانيةِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ؟ فقالَ : عصيتَ اللهَ بالجهرِ ، فلمْ أكُ عوناً لكَ على المعصيةِ ، وأطعتَهُ بالإخفاءِ ، فأعنتُكَ علىٰ برِّكَ[2] .

وقالَ الثوريُّ : (لو علمتُ أنَّ أحدَهُمْ لا يذكرُ صلتَهُ ولا يتحدَّثُ بها . . لقبلتُ صلتَهُ)[3] .

* * *

الرابعُ : أنَّ في إظهارِ الأخذِ ذلاًّ وامتهاناً ، وليسَ للمؤمنِ أنْ يذلَّ نفسَهُ[4] .

كانَ بعضُ العلماءِ يأخذُ في السرِّ ولا يأخذُ في العلانيةِ ، ويقولُ : إنَّ في إظهارِهِ إذلالاً للعلمِ وامتهاناً لأهلِهِ ، فما كنتُ بالذي أرفعُ شيئاً مِنَ الدنيا بوضعِ العلمِ وإذلالِ أهلِهِ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .
(٤) حديث : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » رواه الترمذي (٢٢٥٤) ، وابن ماجه (٤٠١٦) ، والخبر في « القوت » (٢/ ٢٠٢) .

الخامسُ : الاحترازُ عنْ شبهةِ الشِّرْكَةِ ، قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أُهدِيَ لهُ هديةٌ وعندَهُ قومٌ . . فهُمْ شركاؤُهُ فيها »(١) ، وبأنْ يكونَ وَرِقاً أوْ ذهباً لا يخرجُ عَنْ كونِهِ هديةً ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ ما أهدى الرجلُ إلىٰ أخيهِ وَرِقاً ، أوْ يطعمُهُ خبزاً »(٢) ، فجعلَ الوَرِقَ هديةً ، فانفرادُهُ بما يُعطىٰ في الملأِ مكروهٌ إلا برضا جميعِهِمْ ، ولا يخلو عنْ شبهةٍ ، فإذا انفردَ . . سلمَ منْ هٰذهِ الشبهةِ .

* * *

وأمَّا الإظهارُ والتحدُّثُ بهِ . . ففيهِ معانٍ أربعةٌ :

الأوَّلُ : الإخلاصُ والصدقُ والسلامةُ عن تلبيسِ الحالِ والمراءاةِ .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٤٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٥١) ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ١٧٨) .

(٢) لفظ المصنف لهٰذا الحديث تبع فيه صاحب « القوت » (٢/ ٢٠٢) ، وحق كلمة (ورقاً) الرفع على الخبرية ، كذا وجد مصوَّباً في نسخة « المغني » للحافظ العراقي بخطه كما رآها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٤/ ١٧٨) ، وروى ابن عدي في « الكامل » (٣/ ٤٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٢٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ قال : « أن تدخل علىٰ أخيك المسلم سروراً ، أو تقضي عنه ديناً ، أو تطعمه خبزاً » ، وروى الترمذي (١٩٥٧) مرفوعاً : « من منح منيحة لبن أو وَرِقٍ ، أو هدىٰ زقاقاً . . كان له مثل عتق رقبة » ، والحديثان يوفيان شاهد المصنف ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ١٧٨) .

والثاني : إسقاطُ الجاهِ والمنزلةِ ، وإظهارُ العبوديةِ والمسكنةِ ، والتبرّي عنِ الكبرياءِ ودعوى الاستغناءِ ، وإسقاطُ النفسِ مِنْ أعينِ الخلقِ .

قالَ بعضُ العارفينَ لتلميذِهِ : أظهرِ الأخذَ علىٰ كلِّ حالٍ إنْ كنتَ آخذاً ؛ فإنَّكَ لا تخلو مِنْ أحدِ رجلينِ : رجلٌ تسقطُ مِنْ قلبِهِ إذا فعلتَ ذلكَ ، فذلكَ هوَ المرادُ ؛ لأنَّهُ أسلمُ لدينِكَ ، وأقلُّ لآفاتِ نفسِكَ ، أوْ رجلٌ تزدادُ في قلبِهِ بإظهارِكَ الصدْقَ ، فذلكَ الذي يريدُهُ أخوكَ ؛ لأنَّهُ يزدادُ ثواباً بزيادةِ حبِّهِ لكَ وتعظيمِهِ إيَّاكَ ، فتؤجرُ أنتَ إذْ كنتَ سببَ مزيدِ ثوابِهِ(١) .

* * *

الثالثُ : هوَ أنَّ العارفَ لا نظرَ لهُ إلا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، والسرُّ والعلانيةُ في حقِّهِ واحدٌ ، فاختلافُ الحالِ شرْكٌ في التوحيدِ ، قالَ بعضُهُمْ : (كنَّا لا نعبأُ بدعاءِ مَنْ يأخذُ في السرِّ ويردُّ في العلانيةِ)(٢) .

والالتفاتُ إلى الخلقِ حضروا أمْ غابوا نقصانٌ في الحالِ ، بلْ ينبغي أنْ يكونَ النظرُ مقصوراً على الواحدِ الفرْدِ ، حُكِيَ أنَّ بعضَ الشيوخِ كانَ كثيرَ الميلِ إلىٰ واحدٍ مِنْ جملةِ المريدينَ ، فشقَّ على الآخرينَ ذلكَ ، فأرادَ أنْ يظهرَ لهم فضيلةَ ذلكَ المريدِ ، فأعطىٰ كلَّ واحدٍ منهُمْ طائراً وقالَ لَهُ : اذبحْ هـٰذا حيثُ لا يراكَ أحدٌ ، فذهبوا ثمَّ جاؤوا وقدْ ذبحَ كلُّ واحدٍ طائرَهُ إلا ذلكَ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) عن بعض العارفين .

المريدَ ، فإنَّهُ ردَّ طائرَهُ ، فسألَهُمْ ، فقالوا : فعلنا ما أمرَنا بهِ الشيخُ ، فقالَ الشيخُ للمريدِ : ما لكَ لمْ تذبحْ كما ذبحَ أصحابُكَ ؟ فقالَ ذلكَ المريدُ : لمْ أقدرْ علىٰ مكانٍ لا يراني فيهِ أحدٌ ؛ فإنَّ اللهَ يراني في كلِّ موضعٍ ، فقالَ الشيخُ : لهٰذا أميلُ إليهِ ؛ لأنَّهُ لا يلتفتُ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ(١) .

* * *

الرابعُ : أنَّ الإظهارَ إقامةٌ لسنةِ الشكرِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، والكتمانُ كفرانُ النعمةِ ، وقدْ ذمَّ اللهُ تعالىٰ مَنْ كتمَ ما آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وقرنَهُ بالبخْلِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أنعمَ اللهُ علىٰ عبدٍ نعمةً أحبَّ أنْ تُرىٰ عليهِ »(٢) .

وأعطىٰ رجلٌ بعضَ العارفينَ شيئاً في السرِّ ، فرفعَ بهِ يدَهُ وقالَ : (هٰذا مِنَ الدنيا ، والعلانيةُ فيها أفضلُ ، والسرُّ في أمورِ الآخرةِ أفضلُ)(٣) ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (إذا أُعطيتَ في الملأِ . . فخذْ ثمَّ ارددْ في السرِّ)(٤) .

والشكرُ محثوثٌ عليهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ لمْ يشكرِ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣٣٤) .
(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٣/ ٤٧٣) ، وهو عند الترمذي (٢٠٠٦) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٠٢) بنحوه .

الناسَ . . لمْ يشكرِ اللهَ عزَّ وجلَّ »[١] ، والشكرُ قائمٌ مقامَ المكافأةِ ، حتَّىٰ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أسدىٰ إليكُمْ معروفاً . . فكافئُوهُ ، فإنْ لمْ تستطيعوا . . فأثنوا عليهِ بهِ خيراً ، وادعوا لهُ حتَّىٰ تعلموا أنَّكُمْ قدْ كافأتموهُ »[٢] .

ولمَّا قالتِ المهاجرونَ في الشكرِ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما رأينا خيراً مِنْ قومٍ نزلْنا عندَهُمْ ، قاسمونا الأموالَ حتَّىٰ خفْنا أنْ يذهبوا بالأجرِ كلِّهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلاَّ ؛ ما شكرْتُمْ لهمْ وأثنيْتُمْ بهِ عليهِمْ » أي : هوَ مكافأةٌ[٣] .

* * *

فالآنَ : إذا عرفتَ هـٰذهِ المعانيَ . . فاعلمْ أنَّ ما نقلَ مِنِ اختلافِ الناسِ فيهِ ليسَ اختلافاً في المسألةِ ، بلْ هوَ اختلافُ حالٍ .

فكشفُ الغطاءِ في هـٰذا : أنَّا لا نحكمُ حكماً بتّاً بأنَّ الإخفاءَ أفضلُ في كلِّ حالٍ أوِ الإظهارُ أفضلُ ، بلْ يختلفُ ذلكَ باختلافِ النيَّاتِ ، وتختلفُ النيَّاتُ باختلافِ الأحوالِ والأشخاصِ ، فينبغي أنْ يكونَ المخلصُ مراقباً لنفسِهِ ؛ حتَّىٰ لا يتدلَّىٰ بحبلِ الغرورِ ، ولا ينخدعَ بتلبيسِ الطبْعِ ومكرِ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .
(٢) رواه أبو داوود (١٦٧٢) ، والنسائي (٥/ ٨٢) .
(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٧) ولفظ النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « لا ، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم » .

الشيطانِ ، والمكرُ والخداعُ أغلبُ في معاني الإخفاءِ منهُ في الإظهارِ ، مع أنَّ له دخلاً في كلِّ واحدٍ منهما :

فأمَّا مدخلُ الخداعِ في الإسرارِ : فمنْ ميلِ الطبعِ إليهِ ؛ لمَا فيهِ مِنْ خفضِ الجاهِ والمنزلةِ ، وسقوطِ القدْرِ مِنْ أعينِ الناسِ ، ونظرِ الخلقِ إليهِ بعينِ الازدراءِ ، وإلى المعطي بعينِ المنعمِ المحسنِ إليهِ ، فهـٰذا هوَ الداءُ الدفينُ ، ويستكنُّ في النفسِ ، والشيطانُ بواسطتِهِ يظهرُ معانيَ الخيرِ حتَّىٰ يتعلَّلَ بالمعاني الخمسةِ التي ذكرناها .

ومعيارُ كلِّ ذلكَ ومحكُّهُ أمرٌ واحدٌ : وهوَ أنْ يكونَ تألُّمُهُ بانكشافِ أخذِهِ للصدقةِ كتألُّمِهِ بانكشافِ صدقةٍ أخذَها بعضُ نظرائِهِ وأمثالِهِ ، فإنَّهُ إنْ كانَ يبغي صيانةَ الناسِ عنِ الغيبةِ والحسدِ وسوءِ الظنِّ ، أوْ يتقي انهتاكَ السترِ ، أوْ إعانةَ المعطي على الإسرارِ ، أوْ صيانةَ العلمِ عنِ الابتذالِ . . فكلُّ ذلكَ ممَّا يحصلُ بانكشافِ صدقةِ أخيهِ ، فإنْ كانَ انكشافُ أمرِهِ أثقلَ عليهِ مِنِ انكشافِ أمرِ غيرِهِ . . فتقديرُهُ الحذرَ منْ هـٰذهِ المعاني أغاليطُ وأباطيلُ مِنْ مكرِ الشيطانِ وخِدَعِهِ ؛ فإنَّ إذلالَ العلمِ محذورٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ علمٌ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ علمُ زيدٍ أوْ علمُ عمرٍو ، والغيبةُ محذورةٌ مِنْ حيثُ إنَّها تعرضُ لعِرْضٍ مصونٍ ، لا مِنْ حيثُ إنَّها تعرضُ لعرْضِ زيدٍ على الخصوصِ ، ومَنْ أحسنَ ملاحظةَ مثلِ هـٰذا . . ربما يعجزُ الشيطانُ عنهُ ، وإلا . . فلا يزالُ كثيرَ العملِ قليلَ الحظِّ .

وأمَّا جانبُ الإظهارِ : فميلُ الطبعِ إليهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ تطييبٌ لقلبِ

المعطي ، واستحثاثٌ لهُ على مثلِهِ ، وإظهارُهُ عندَ غيرِهِ أنَّهُ مِنَ المبالغينَ في الشكرِ حتَّىٰ يرغبوا في إكرامِهِ وتفقُّدِهِ ، وهٰذا داءٌ دفينٌ في الباطنِ ، والشيطانُ لا يقدِرُ على المتديِّنِ إلا بأنْ يروِّجَ عليهِ هٰذا الخبْثَ في معرضِ السنَّةِ ، ويقولَ لهُ : الشكرُ مِنَ السنةِ ، والإخفاءُ مِنَ الرياءِ ، ويوردَ عليهِ المعانيَ التي ذكرناها ؛ ليحملَهُ على الإظهارِ ، وقصدُهُ الباطنُ ما ذكرناهُ !

ومعيارُ ذلكَ ومحكُّهُ : أنْ ينظرَ إلىٰ ميلِ نفسِهِ إلى الشكرِ حيثُ لا ينتهي الخبرُ إلى المعطي ولا إلىٰ مَنْ يرغبُ في عطائِهِ ، وبينَ يدي جماعةٍ يكرهونَ إظهارَ العطيَّةِ ويرغبونَ في إخفائِها ، وعادتُهُمْ أنَّهُمْ لا يعطونَ إلا مَنْ يُخفي ولا يشكرُ ؛ فإنِ استوتْ هٰذهِ الأحوالُ عندَهُ . . فليعلمْ أنَّ باعثَهُ هوَ إقامةُ السنَّةِ في الشكرِ والتحدُّثُ بالنعمةِ ، وإلا . . فهوَ مغرورٌ .

ثمَّ إذا علمَ أنَّ باعثَهُ السنَّةُ في الشكرِ . . فلا ينبغي أنْ يغفُلَ عنْ قضاءِ حقِّ المعطي ، فلينظرْ :

فإنْ كانَ هوَ ممَّنْ يحبُّ الشكرَ والنشرَ . . فينبغي أنْ يخفيَ ولا يشكرَ ؛ لأنَّ قضاءَ حقِّهِ ألا ينصرَهُ على الظلمِ ، وطلبُهُ الشكرَ ظلمٌ .

وإذا علمَ مِنْ حالِهِ أنَّهُ لا يحبُّ الشكرَ ولا يقصدُهُ . . فعندَ ذلكَ يشكرُهُ ويظهرُ صدقتَهُ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للرجلِ الذي مُدِحَ بينَ يديهِ : « ضربتُمْ عنقَهُ ، لوْ سمعَها . . ما أفلحَ »[1] ، معَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) دون زيادة : « لو سمعها . . ما أفلح » ، =

وسلَّمَ كانَ يثني علىٰ قومٍ في وجوهِهِمْ ؛ لثقتِهِ بيقينِهِمْ ، وعلمِهِ بأنَّ ذلكَ لا يضرُّهُمْ ، بلْ يزيدُ في رغبتِهِمْ في الخيرِ ، فقالَ لواحدٍ : « إنَّهُ سيِّدُ أهلِ الوبرِ »[1] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في آخرَ : « إذا جاءَكُمْ كريمُ قومٍ . . فأكرموهُ »[2] ، وسمعَ كلامَ رجلٍ ، فأعجبَهُ ، فقالَ : « إنَّ مِنَ البيانِ لسحراً »[3] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا علمَ أحدُكُمْ مِنْ أخيهِ خيراً . . فليخبرْهُ ؛ فإنَّهُ يزدادُ رغبةً في الخيرِ »[4] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا مدحَ المؤمنُ . . ربا الإيمانُ في قلبِهِ »[5] .

وقالَ الثوريُّ : (مَنْ عرفَ نفسَهُ . . لمْ يضرُّهُ مدحُ الناسِ)[6] .

= وتمامه : « إذا كان أحدكم مادحاً لا محالة . . فليقل : أحسبُ فلاناً والله حسيبُهُ ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك منه » ، والزيادة رواها أحمد في « المسند » (٥/ ٥١) ، وذكر الحافظ في « فتح الباري » (٥/ ٢٧٦) احتمال أن يكون المثني هو محجن بن الأدرع الأسلمي ، والمثنىٰ عليه هو عبد الله ذو البجادين رضي الله عنهم أجمعين .

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٦١١) ، قاله صلى الله عليه وسلم في حقِّ الحليم الكريم قيس بن عاصم المنقري .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧١٢) ، قاله صلى الله عليه وسلم في حقِّ جرير بن عبد الله رضي الله عنهما ، كما في « المستدرك » (٤/ ٢٩١) .

(٣) رواه البخاري (٥١٤٦) في رجلين خطبا أمامه صلى الله عليه وسلم ، حُكي أنهما الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، كما في « فتح الباري » (١٠/ ٢٣٧) .

(٤) رواه الدارقطني في « العلل » (٧/ ٣٠٤) بنحوه .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (١/ ١٧٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٩٧) .

(٦) قوت القلوب (٢/ ٢٠٣) .

وقالَ أيضاً ليوسفَ بنِ أسباطٍ : (إذا أوليتُكَ معروفاً ، فكنتُ أنا أَسَرَّ بهِ منكَ ، ورأيتُ ذلكَ نعمةً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ عليَّ . . فاشكرْ ، وإلا . . فلا تشكرْ)[1] .

فدقائقُ هـٰذهِ المعاني ينبغي أنْ يلحظَها مَنْ يراعي قلبَهُ ، فإنَّ أعمالَ الجوارحِ معَ إهمالِ هـٰذهِ الدقائقِ ضُحْكَةٌ للشيطانِ وشماتةٌ لهُ[2] ؛ لكثرةِ التعبِ وقلَّةِ النفعِ .

ومثلُ هـٰذا العلمِ هوَ الذي يقالُ فيهِ : إنَّ تعلُّمَ مسألةٍ واحدةٍ منهُ أفضلُ مِنْ عبادةِ سنةٍ ؛ إذْ بهـٰذا العلمِ تحيا عبادةُ العمرِ ، وبالجهلِ بهِ تموتُ عبادةُ العمرِ كلِّهِ وتتعطَّلُ .

وعلى الجملةِ : فالأخذُ في الملأِ والردُّ في السرِّ أحسنُ المسالكِ وأسلمُها ، فلا ينبغي أنْ يُدفعَ بالتزويقاتِ إلا أنْ تكملَ المعرفةُ بحيثُ يستوي السرُّ والعلانيةُ ، وذلكَ هوَ الكبريتُ الأحمرُ الذي يُتحدَّثُ بهِ ولا يُرىٰ ، نسألُ اللهَ الكريمَ حسنَ العونِ والتوفيقِ .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٥٤) .
(٢) الضُّحْكة ـ بضم فسكون ـ : الشيء الذي يضحك منه ، رجلاً كان أو غيره .

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كانَ إبراهيمُ الخوَّاصُ والجنيدُ وجماعةٌ يرونَ أنَّ الأخذَ مِنَ الصدقةِ أفضلُ ؛ فإنَّ في أخذِ الزكاةِ مزاحمةً للمساكينِ وتضييقاً عليهمْ ، ولأنَّهُ ربما لا تكملُ في أخذِهِ صفةُ الاستحقاقِ كما وُصِفَ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ، وأمَّا الصدقةُ . . فالأمرُ فيها أوسعُ .

وقالَ قائلونَ[(١)] : يأخذُ الزكاةَ دونَ الصدقةِ ؛ لأنَّهُ إعانةٌ علىٰ واجبٍ ، ولوْ تركَ المساكينُ كلُّهُمْ أخذَ الزكاةِ . . لأثموا ، ولأنَّ الزكاةَ لا منَّةَ فيها ، وإنَّما هوَ حقٌّ واجبٌ للهِ تعالىٰ رزقاً لعبادِهِ المحتاجينَ ، ولأنَّهُ أخذٌ بالحاجةِ ، والإنسانُ يعلمُ حاجةَ نفسِهِ قطعاً ، وأخذُ الصدقةِ أخذٌ بالدِّينِ ؛ فإنَّ الغالبَ أنَّ المتصدِّقَ يعطي مَنْ يعتقدُ فيهِ خيراً ، ولأنَّ موافقةَ المساكينِ أدخلُ في الذلِّ والمسكنةِ ، وأبعدُ عنِ التكبُّرِ ؛ إذْ قدْ يأخذُ الإنسانُ الصدقةَ في معرضِ الهديةِ فلا تتميَّزُ عنها ، وهـٰذا تنصيصٌ علىٰ ذلِّ الآخذِ وحاجتِهِ .

والقولُ الحقُّ في هـٰذا : أنَّ هـٰذا يختلفُ بأحوالِ الشخصِ وما يغلبُ عليهِ وما يحضرُهُ مِنَ النيَّةِ ؛ فإنْ كانَ في شبهةٍ مِنِ اتصافِهِ بصفةِ الاستحقاقِ . . فلا ينبغي أنْ يأخذَ الزكاةَ ، فإذا علمَ أنَّهُ مستحقٌّ قطعاً ؛ كما إذا حصلَ عليهِ دينٌ صرفَهُ إلىٰ خيرٍ وليسَ لهُ وجهٌ في قضائِهِ . . فهوَ مستحقٌّ قطعاً .

---

(١) وهم القرّاء من العابدين ، كما في « القوت » (٢/ ٢٠٤) .

فإذا خيِّرَ هـٰذا بينَ الزكاةِ وبينَ الصدقةِ ؛ فإنْ كانَ صاحبُ الصدقةِ لا يتصدَّقُ بذلكَ المالِ لوْ لمْ يأخذْهُ هوَ . . فليأخذِ الصدقةَ ؛ فإنَّ الزكاةَ الواجبةَ يصرفُها صاحبُها إلىٰ مستحقِّها ، ففي ذلكَ تكثيرٌ للخيرِ وتوسيعٌ على المساكينِ ، وإنْ كانَ المالُ معرَّضاً للصدقةِ ولمْ يكنْ في أخذِ الزكاةِ تضييقٌ على المساكينِ . . فهوَ مخيَّرٌ ، والأمرُ فيهما متفاوتٌ ، وأخذُ الزكاةِ أشدُّ في كسرِ النفسِ وإذلالِها في أغلبِ الأحوالِ ، واللهُ أعلمُ .

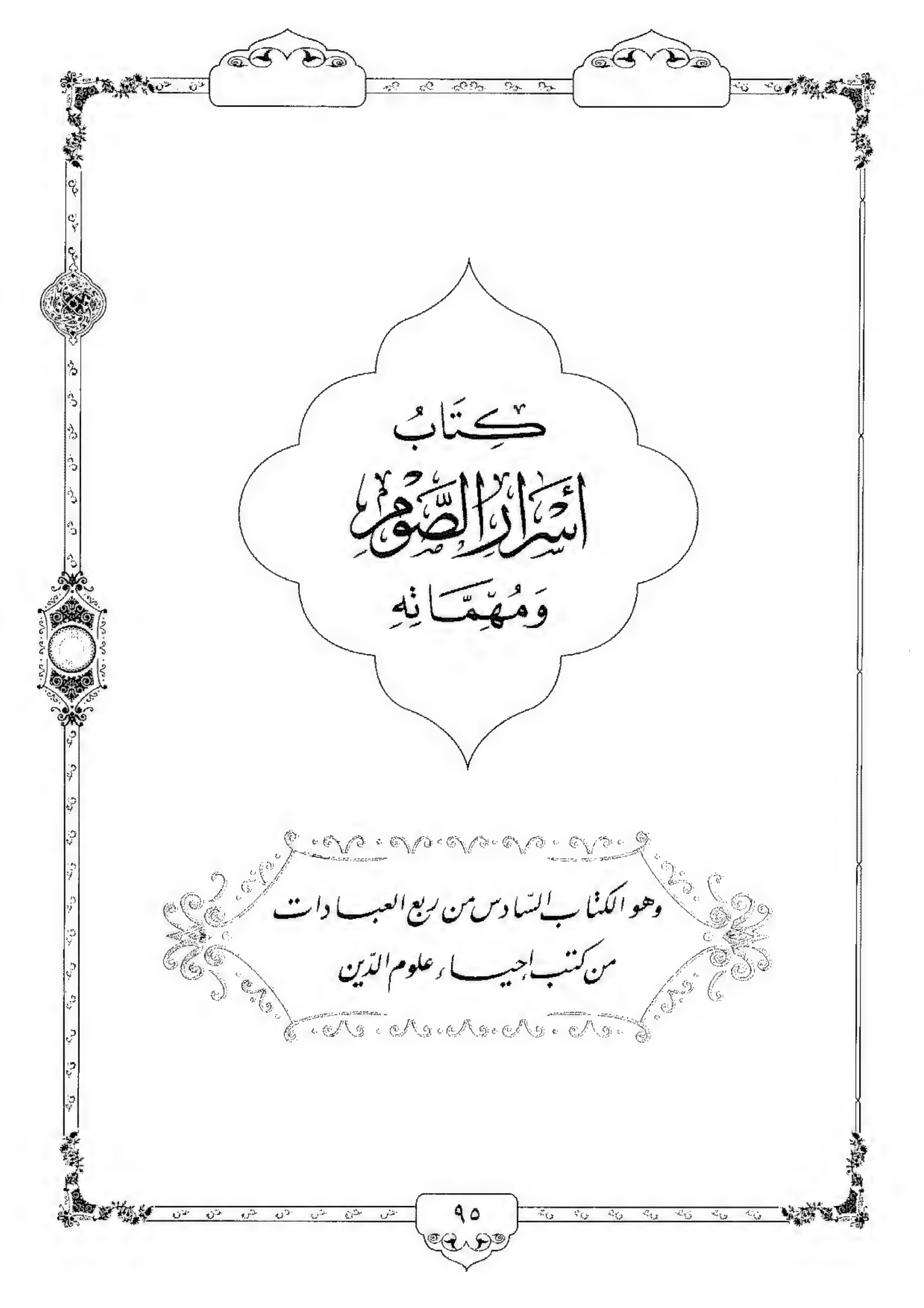
* * *

تمّ كتاب أسرار الزّكاة

وهو الكتاب الخامس من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله حقّ حمده ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وآله وسلّم

يتلوه كتاب أسرار الصّوم ومهمّاته



كتاب أسرار الصوم ومهماته

وهو الكتاب السادس من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب أسرار الصّوم ومهمّاته

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أعظمَ علىٰ عبادِه المِنَّةَ ، لمَّا دفعَ عنهُمْ كيدَ الشيطانِ وفنَّهُ ، وردَّ أملَهُ وخيَّبَ ظنَّهُ ، إذْ جعلَ الصومَ حصناً لأوليائِهِ وجُنَّةً ، وفتحَ لهمْ بهِ أبوابَ الجَنَّةِ ، وعرَّفَهُمْ أنَّ وسيلةَ الشيطانِ إلىٰ قلوبِهِمُ الشهواتُ المستكنَّةُ ، وأنَّ بقمعِها تصبحُ النفسُ المطمئنَّةُ ، ظاهرةَ الشوكةِ في قصْمِ خصمِها قويَّةَ المُنَّةِ[1] .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ قائدِ الخلقِ وممهِّدِ السنَّةِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ ذوي الآراءِ الثاقبةِ والعقولِ المُرْجَحِنَّةِ[2] ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أمّا بعد :

فإنَّ الصومَ ربعُ الإيمانِ بمقتضىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصومُ نصفُ الصبرِ »[3] ، وبمقتضىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصبرُ نصفُ الإيمانِ »[4] .

---

(١) المُنَّة ـ بالضم ـ : القوة ، أو قوة القلب خاصة ، وهو ضدٌّ يطلق على الضعف كذلك ، والمتأمل يرىٰ تضمين هـٰذه المقدمة جملة من أحاديث الكتاب وغيره .

(٢) المرجحنة : وافرة فياضة ، دائمة السحِّ ، يقال : ارجحنَّ المطرُ ؛ أي : دام .

(٣) رواه الترمذي (٣٥١٩) ، وابن ماجه (١٧٤٥) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٢٢٧) ، =

ثمَّ هوَ متميِّزٌ بخاصيَّةِ النسبةِ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ بينِ سائرِ الأركانِ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالىٰ فيما حكاهُ عنهُ نبيُّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ حسنةٍ بعشرِ أمثالِها إلىٰ سبعِ مئةِ ضعفٍ إلا الصيامَ ؛ فإنَّهُ لي وأنا أجزي بهِ »[1] .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، والصومُ نصفُ الصبرِ ، فقدْ جاوزَ ثوابُهُ قانونَ التقديرِ والحسابِ .

وناهيكَ في معرفةِ فضلِهِ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لَخُلُوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِنْ ريحِ المسكِ ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّما يذرُ شهوتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ مِنْ أجلي ، فالصومُ لي وأنا أجزي بهِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للجنَّةِ بابٌ يقالُ لهُ : الريانُ ، لا يدخلُهُ إلا الصائمونَ »[3] .

وهوَ موعودٌ بلقاءِ اللهِ تعالىٰ في جزاءِ صومِهِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للصائمِ فرحتانِ : فرحةٌ عندَ إفطارِهِ ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّهِ »[4] .

= وأوقفه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٤) علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(١) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

(٢) هو بعض الحديث المتقدم آنفاً ، و**الخُلُوفُ** : تغير رائحة الفم .

(٣) رواه البخاري (١٨٩٦) ، ومسلم (١١٥٢) .

(٤) رواه البخاري (٧٤٩٢) ، ومسلم (١١٥١) ، وقد تقدم بعضه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكلِّ شيءٍ بابٌ ، وبابُ العبادةِ الصومُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نومُ الصائمِ عبادةٌ »(٢) .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا دخلَ شهرُ رمضانَ . . فُتِّحتْ أبوابُ الجنَّةِ ، وغُلِّقتْ أبوابُ النارِ ، وصفِّدتِ الشياطينُ ، ونادىٰ منادٍ : يا باغيَ الخيرِ ؛ هلمَّ ، ويا باغيَ الشرِّ ؛ اقصُرْ »(٣) .

وقالَ وكيعٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ : (هيَ أيامُ الصيامِ ؛ إذْ تركوا فيها الأكلَ والشربَ)(٤) .

وقدْ جمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في رتبةِ المباهاةِ بينَ الزهدِ في الدنيا وبينَ الصومِ فقالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يباهي ملائكتَهُ بالشابِّ العابدِ فيقولُ : أيُّها الشابُّ التاركُ شهوتَهُ لأجلي ، المُبَذِّلُ شبابَهُ لي ؛ أنتَ عندي كبعضِ ملائكتي »(٥) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٣٢) من طريقه .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٦٥٢) .
(٣) رواه بتمامه الترمذي (٦٨٢) ، وأصله عند البخاري (١٨٩٩) ، ومسلم (١٠٧٩) .
(٤) رواه عنه بنحوه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨٩) .
(٥) رواه ابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٣٩) ، وهو عند ابن المبارك في « الزهد » (٣٤٦) وغيره من كلام يزيد بن ميسرة ، وجاء في =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الصائمِ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : يا ملائكتي ؛ انظروا إلىٰ عبدي ! تركَ شهوتَهُ ولذَّتَهُ وطعامَهُ وشرابَهُ مِنْ أجلي »(١) .

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قيلَ : كانَ عملُهُمُ الصيامَ ؛ لأنَّهُ قالَ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فيُفرَغُ للصائمِ أجرُهُ إفراغاً ، ويجازَفُ جزافاً ، فلا يدخلُ تحتَ وهمٍ وتقديرٍ(٢) .

وجديرٌ بأنْ يكونَ كذلكَ ؛ لأنَّ الصومَ إنَّما كانَ لهُ ومشرَّفاً بالنسبةِ إليهِ وإنْ كانتِ العباداتُ كلُّها لهُ ؛ كما شَرُفَ البيتُ بالنسبةِ إلىٰ نفسِهِ والأرضُ كلُّها لهُ . . لمعنيينِ :

= (ب) : (المتبذِّل) وفي هامشها : (الباذل) بدل (المبذل) ، والمبذل كمُحْسِن ومحدِّث . انظر « الإتحاف » (٤/ ١٩٣) .

(١) قوله : « ترك شهوته . . . » تقدم أنه في « الصحيحين » ، وهو بذكر المباهاة معه رواه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٣٩) موقوفاً على الحسن قال : (تقول الحوراء لولي الله وهو متكئٌ معها علىٰ نهر العسل تعاطيه الكأس : يا نعم عيشة ! أتدري يا حبيبَ الله متىٰ زوجنيك مولاي ؟ فيقول : لا أدري ، فتقول : نظر إليك في يوم صائف بعيدِ الطرفين وأنت في ظمأٍ هاجرة من جهد العطش ، فباهىٰ بك الملائكة وقال : انظروا إلىٰ عبدي ! ترك زوجته ، وشهوته ولذته ، وطعامه وشرابه من أجلي ، رغبةً فيما عندي ، أشهدكم أني قد غفرت له ، فغفرَ لك يومئذٍ وزوجنيك) . وهو بلفظ المصنف في « القوت » (١/ ٧٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٧٣) .

أحدُهما : أنَّ الصومَ كفٌّ وتركٌ ، وهوَ في نفسِهِ سرٌّ ، ليسَ فيهِ عملٌ يشاهدُ ، فجميعُ أعمالِ الطاعاتِ بمشهدٍ مِنَ الخلقِ ومرأىً ، والصومُ لا يراهُ إلا اللهُ تعالىٰ ؛ فإنَّهُ عملٌ في الباطنِ بالصبرِ المجرَّدِ .

والثاني : أنَّهُ قهرٌ لعدوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّ وسيلةَ الشيطانِ لعنَهُ اللهُ الشهواتُ ، وإنما تقوى الشهواتُ بالأكلِ والشربِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ ليجري مِنِ ابنِ آدمَ مَجرى الدمِ ، فضيِّقوا مجاريَهُ بالجوعِ »[1] ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « داومي قرْعَ بابِ الجنَّةِ » ، قالت : بماذا ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بالجوعِ »[2] .

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٤) دون زيادة : « فضيقوا مجاريه بالجوع » ، قال الحافظ الزبيدي : (وأنا أظن أن هاذه الزيادة وقعت تفسيراً للحديث من بعض رواته ، فألحقها به من روىٰ عنه) . « إتحاف » (٤/ ١٩٤) ، ومعنى الزيادة صحيح كما لا يخفىٰ ؛ إذ الشبع مسلك ومدخل من مداخل الشيطان ، روىٰ أحمد في « الزهد » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٩) عن ثابت البناني قال : (بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرأىٰ عليه معاليق من كل شيء ، فقال له : ما هاذه المعاليق التي أراها عليك ؟ قال : هاذه الشهوات التي أُصيب بها بني آدم ، فقال له يحيىٰ عليه السلام : هل لي فيها شيء ؟ قال : لا ، قال : فهل تصيب مني شيئاً ؟ قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة والذكر ، قال : هل غير ذا ؟ قال : لا ، قال : لا جرم ! والله لا أشبع أبداً) ، وأول خطيئة وسوس بها الشيطان لبني آدم لقمة .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٧١) بقوله : (وقد روينا عن عائشة رضي الله عنها . . .) وذكره وزاد : (بالجوع والظمأ) ، ونقل الحافظ الزبيدي عن الحافظ العراقي أنه لم يجد له أصلاً . انظر « الإتحاف » (٤/ ١٩٤) .

وستأتي فضائلُ الجوعِ في بابِ شرهِ الطعامِ وعلاجِهِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ .

فلمَّا كانَ الصومُ على الخصوصِ قمعاً للشيطانِ وسدّاً لمسالكِهِ وتضييقاً لمجاريهِ . . استحقَّ التخصيصَ بالنسبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ففي قمْعِ عدوِّ اللهِ نصرةُ اللهِ سبحانَهُ ، ونصرةُ اللهِ تعالىٰ موقوفةٌ على النصرةِ لهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ ، فالبدايةُ بالجهدِ مِنَ العبدِ ، والجزاءُ بالهدايةِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ ، وإنَّما التغييرُ بكسرِ الشهواتِ ، فهيَ مرتعُ الشياطينِ ومرعاهُمْ ، فما دامتْ مخصِبةً . . لمْ ينقطعْ تردُّدُهُمْ وما داموا يتردَّدونَ . . لمْ ينكشفْ للعبدِ جلالُ اللهِ سبحانَهُ ، وكانَ محجوباً عنْ لقائِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلىٰ ملكوتِ السماواتِ »[1] ، فمِنْ هٰذا الوجهِ صارَ الصومُ بابَ العبادةِ ، وصارَ جُنَّةً .

وإذا عظمتْ فضيلتُهُ إلىٰ هٰذا الحدِّ . . فلا بدَّ مِنْ بيانِ شروطِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، بذكرِ أركانِهِ ، وسننِهِ ، وشروطِهِ الباطنةِ ، **ونبيِّنُ ذلكَ بثلاثةِ فصولٍ** .

* * *

---

(١) هو عند أحمد في « المسند » (٢/٣٥٣) في قصة الإسراء مرفوعاً ، ومنه : « فلما نزلت إلى السماء الدنيا . . نظرت أسفلَ مني ، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات ، فقلت : ما هٰذا يا جبريل ؟ قال : هٰذه الشياطين يحومون علىٰ أعين بني آدم ألا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ، ولولا ذلك . . لرأَوُا العجائب » .

الفَصلُ الأَوّلُ
في الواجبات والسّنن الظّاهرة واللّوازم بإفساده

أمَّا الواجباتُ الظاهرةُ . . فستةٌ :

الأوَّلُ : مراقبةُ أوَّلِ شهرِ رمضانَ :

وذلكَ برؤيةِ الهلالِ ، فإنْ غُمَّ . . فباستكمالِ ثلاثينَ يوماً مِنْ شعبانَ ، ونعني بالرؤيةِ : العلمَ ، ويحصلُ ذلكَ بقولِ عدْلٍ واحدٍ ، ولا يثبتُ هلالُ شوالٍ إلا بقولِ عدلينِ ؛ احتياطاً للعبادةِ ، ومَنْ سمعَ عدلاً ووثقَ بقولِهِ ، وغلبَ علىٰ ظنِّهِ صدقُهُ . . لزمَهُ الصومُ وإنْ لمْ يقضِ القاضي بهِ ، فليتبعْ كلُّ عبدٍ في عبادتِهِ موجَبَ ظنِّهِ .

وإذا رُئِيَ الهلالُ ببلدةٍ ولمْ يُرَ بأخرىٰ وكانَ بينَهُما أقلُّ مِنْ مرحلتينِ . . وجبَ الصومُ على الكلِّ ، وإنْ كانَ أكثرَ . . كانَ لكلِّ بلدةٍ حكمُها ، ولا يتعدَّى الوجوبُ .

***

الثاني : النيَّةُ :

ولا بدَّ لكلِّ ليلةٍ مِنْ نيّةٍ مبيَّتَةٍ معيَّنَةٍ جازمةٍ ، فلو نوىٰ أنْ يصومَ شهرَ رمضانَ دفعةً واحدةً . . لم يكفِهِ ، وهوَ الذي عنينا بقولِنا : (كلَّ ليلةٍ) .

ولوْ نوىٰ بالنهارِ . . لم يجزِهِ صومُ رمضانَ ولا صومُ الفرضِ إلا التطوعُ ، وهوَ الذي عنينا بقولِنا : (مبيتةٍ) .

ولوْ نوى الصومَ مطلقاً ، أوِ الفرضَ مطلقاً . . لمْ يجزِهِ حتَّىٰ ينويَ فريضةَ اللهِ عزَّ وجلَّ صومَ رمضانَ .

ولوْ نوىٰ ليلةَ الشكِّ أنْ يصومَ غداً إنْ كانَ مِنْ رمضانَ . . لمْ يجزِهِ ؛ فإنَّها ليستْ جازمةً ، إلا أنْ تستندَ نيتُهُ إلىٰ قولِ شاهدٍ عدلٍ ، واحتمالُ غلطِ العدلِ أوْ كذبِهِ لا يبطلُ الجزْمَ ، أوْ يستندَ إلى استصحابٍ ؛ كالشكِّ في الليلةِ الأخيرةِ مِنْ رمضانَ ، فذلكَ لا يمنعُ جزْمَ النيةِ ، أوْ يستندَ إلى اجتهادٍ ؛ كالمحبوسِ في المطمورةِ إذا غلبَ علىٰ ظنِّهِ دخولُ رمضانَ باجتهادِهِ ، فشكُّهُ لا يمنعُهُ مِنَ النيةِ[1] .

ومهما كانَ شاكّاً ليلةَ الشكِّ . . لمْ ينفعْهُ جزمُهُ النيةَ باللسانِ ؛ فإنَّ النيةَ محلُّها القلبُ ، ولا يُتصوَّرُ فيها جزْمُ القصدِ معَ الشكِّ ؛ كما لوْ قالَ في وسْطِ رمضانَ : (أصومُ غداً إنْ كانَ مِنْ رمضانَ) ، فإنَّ ذلكَ لا يضرُّهُ ؛ لأنَّهُ ترديدُ لفظٍ ، ومحلُّ النيَّةِ لا يتصوَّرُ فيهِ تردُّدٌ ، بلْ هوَ قاطعٌ بأنَّهُ مِنْ رمضانَ .

ومَنْ نوىٰ ليلاً ثمَّ أكلَ . . لم تفسدْ نيَّتُهُ ، ولو نوتِ آمرأةٌ في الحيضِ ثمَّ طهرتْ قبلَ الفجرِ . . صحَّ صومُها .

* * *

---

(١) المطمورة : حفرة تحفر تحت الأرض ، أو مكان تحت الأرض ، لا يُرىٰ فيها الشمس .

الثالثُ : الإمساكُ عنْ إيصالِ شيءٍ إلى الجوفِ عمداً معَ ذكرِ الصومِ :

فيفسُدُ صومُهُ بالأكلِ ، والشربِ ، والسُّعُوطِ[1] ، والحقنةِ ، ولا يفسدُ بالفصدِ ، والحجامةِ ، والاكتحالِ ، وإدخالِ الميلِ في الأذنِ والإحليلِ ، إلا أنْ يقطرَ فيهِ ما يبلغُ المثانةَ .

وما يصلُ بغيرِ قصْدٍ مِنْ غبارِ الطريقِ أو ذبابةٍ تسبقُ إلىٰ جوفِهِ ، أوْ ما يسبقُ إلىٰ جوفِهِ في المضمضةِ . . فلا يفطرُ ، إلا إذا بالغَ في المضمضةِ فيفطرُ ؛ لأنَّهُ مقصِّرٌ ، وهوَ الذي أردنا بقولِنا : (عمداً) .

فأمَّا (ذكرُ الصومِ) . . فأردْنا بهِ الاحترازَ عنِ الناسي ؛ فإنَّهُ لا يفطرُ ، أمَّا مَنْ أكلَ عامداً في طرفيِ النهارِ ثمَّ ظهرَ لهُ أنَّهُ أكلَ نهاراً بالتحقيقِ . . فعليهِ القضاءُ ، وإنْ بقيَ علىٰ حكمِ ظنِّهِ واجتهادِهِ . . فلا قضاءَ عليهِ ، ولا ينبغي أنْ يأكلَ في طرفيِ النهارِ إلا بنظرٍ واجتهادٍ .

* * *

الرابعُ : الإمساكُ عنِ الجماعِ :

وحدُّهُ : تغييبُ الحشفةِ ، فإنْ جامعَ ناسياً . . لمْ يفطرْ ، وإنْ جامعَ ليلاً أوِ احتلمَ ، فأصبحَ جنباً . . لمْ يفطرْ ، وإنْ طلعَ الفجرُ وهوَ مخالطٌ أهلَهُ ، فنزعَ في الحالِ . . صحَّ صومُهُ ، فإنْ صبرَ . . فسدَ ولزمتْهُ الكفارةُ .

---

(١) **السعوط** : هو بضم السين مصدر من سعط ، إذا أوصل شيئاً إلىٰ دماغه من أنفه ، وبفتحها اسم لما يصب فيه .

الخامسُ : الإمساكُ عنِ الاستمناءِ :

وهوَ إخراجُ المنيِّ قصداً ، بجماعٍ أو بغيرِ جماعٍ ؛ فإنَّ ذلكَ يفطرُهُ ، ولا يفطُرُ بقبلةِ زوجتِهِ ولا بمضاجعتِها ما لمْ ينزلْ ، لكنْ يكرَهُ ذلكَ إلا أنْ يكونَ شيخاً أوْ مالكاً لإرْبِهِ ، فلا بأسَ بالتقبيلِ ، وتركهُ أولىٰ ، وإذا كانَ يخافُ مِنَ التقبيلِ أنْ ينزلَ ، فقبَّلَ وسبقَ المنيُّ . . أفطرَ لتقصيرِهِ .

* * *

السادسُ : الإمساكُ عنْ إخراجِ القيءِ :

فالاستقاءةُ تفسدُ الصومَ ، وإنْ ذرعَهُ القيءُ . . لمْ يفسدْ صومُهُ ، وإنِ اقتلعَ نُخامةً مِنْ حلقِهِ أوْ صدرِهِ . . لمْ يفسدْ صومُهُ ؛ رخصةً لعمومِ البلوىٰ بهِ ، إلا أنْ يبتلعَهُ بعدَ وصولِهِ إلىٰ فيهِ ، فإنَّهُ يفطرُ عندَ ذلكَ .

* * *

وأمَّا لوازمُ الإفطارِ . . فأربعةٌ :

القضاءُ ، والكفارةُ ، والفديةُ ، وإمساكُ بقيَّةِ النهارِ تشبيهاً بالصائمينَ .

* * *

أمَّا القضاءُ :

فوجوبُهُ عامٌّ علىٰ كلِّ مسلمٍ مكلَّفٍ تركَ الصومَ بعذرٍ أوْ بغيرِ عذرٍ ، فالحائضُ تقضي الصومَ ، وكذا المرتدُّ ، أمَّا الكافرُ ، والصبيُّ ، والمجنونُ . . فلا قضاءَ عليهِمْ .

ولا يشترطُ التتابعُ في قضاءِ رمضانَ ، ولكنْ يقضي كيفَ شاءَ مفرَّقاً ومجموعاً .

* * *

وأمَّا الكفارةُ :

فلا تجبُ إلا بالجماعِ ، أمَّا الاستمناءُ والأكلُ والشربُ وما عدا الجماعَ . . فلا تجبُ بهِ كفارةٌ .

والكفارةُ : عتقُ رقبةٍ ، فإنْ أعسرَ . . فصومُ شهرينِ متتابعينِ ، فإنْ عجزَ . . فإطعامُ ستينَ مسكيناً مُداً مُداً .

* * *

وأمَّا الإمساكُ بقيةَ النهارِ :

فيجبُ علىٰ مَنْ عصىٰ بالفطرِ أوْ قصَّرَ فيهِ ، ولا يجبُ على الحائضِ إذا طهرتْ إمساكُ بقيَّةِ النهارِ ، ولا على المسافرِ إذا قدمَ مفطراً مِنْ سفرٍ بلغَ مرحلتينِ .

ويجبُ الإمساكُ إذا شهدَ بالهلالِ عدْلٌ واحدٌ يومَ الشكِّ .

والصومُ في السفرِ أفضلُ مِنَ الفطرِ إلا إذا لمْ يطقْ ، ولا يفطرُ يومَ يخرجُ وكانَ مقيماً في أوَّلِهِ ، ولا يومَ يقدَمُ إذا قَدِمَ صائماً .

* * *

وأمَّا الفديةُ :

فتجبُ على الحاملِ والمرضعِ إذا أفطرَتا خوفاً علىٰ ولديهِما ، لكلِّ يومٍ مدٌّ حنطةٍ لمسكينٍ واحدٍ معَ القضاءِ ، والشيخُ الهرمُ إذا لمْ يصمْ . . تصدَّقَ عنْ كلِّ يومٍ بمدٍّ .

* * *

وأمَّا السننُ . . فستٌّ :

تأخيرُ السحورِ ، وتعجيلُ الفطرِ بالتمرِ أوِ الماءِ قبلَ الصلاةِ ، وتركُ السواكِ بعدَ الزوالِ ، والجودُ في شهرِ رمضانَ لما سبقَ مِنْ فضائلِهِ في الزكاةِ ، ومدارسةُ القرآنِ ، والاعتكافُ في المسجدِ لا سيما في العشْرِ الأخيرِ ، فهوَ عادةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كانَ إذا دخلَ العشرُ الأواخرُ . . طوى الفراشَ ، وشدَّ المئزرَ ودأبَ ودأبَ معهُ أهلُهُ[1] ؛ أي : أداموا النصبَ في العبادةِ ؛ إذْ فيها ليلةُ القدْرِ ، والأغلبُ أنَّها في أوتارِها ، وأشبهُ الأوتارِ ليلةُ إحدىٰ وثلاثٍ وخمسٍ وسبعٍ ، والتتابعُ في هـٰذا الاعتكافِ أولىٰ ، فإنْ نذرَ اعتكافاً متتابعاً أوْ نواهُ . . انقطعَ تتابعُهُ بالخروجِ مِنْ غيرِ ضرورةٍ ؛ كما لوْ خرجَ لعيادةِ مريضٍ ، أوْ شهادةٍ أوْ جنازةٍ أوْ زيارةٍ أوْ تجديدِ طهارةٍ ، وإنْ خرجَ لقضاءِ الحاجةِ . . لمْ ينقطعِ اعتكافُهُ ، ولهُ أنْ يتوضَّأَ في البيتِ ، ولا ينبغي أنْ يعرِّجَ علىٰ شغلٍ آخرَ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

(١) كما في « البخاري » (٢٠٢٤) ، و« مسلم » (١١٧٤) .

وسلَّمَ لا يخرجُ إلا لحاجةِ الإنسانِ[1] ، ولا يسألُ عنِ المريضِ إلا مارّاً[2] .

وينقطعُ التتابعُ بالجماعِ ، ولا ينقطعُ بالتقبيلِ ، ولا بأسَ في المسجدِ بالتطيُّبِ وعقدِ النكاحِ ، وبالأكلِ والنومِ وغسلِ اليدينِ في الطَّسْتِ ، وكلُّ ذلكَ قدْ يحتاجُ إليهِ في التتابعِ ، ولا ينقطعُ التتابعُ بخروجِ بعضِ بدنِهِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدني رأسَهُ فترجلُهُ عائشةُ أمُّ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنها وهيَ في الحجرةِ[3] .

ومهما خرجَ المعتكفُ لقضاءِ حاجتِهِ ؛ فإذا عادَ . . ينبغي أنْ يستأنفَ النيَّةَ إلا إذا كانَ قدْ نوىٰ أوّلاً عشرةَ أيامٍ مثلاً ، والأفضلُ معَ ذلكَ التجديدُ .

❋ ❋ ❋

---

(1) كما في « البخاري » (٢٠٢٩) ، و« مسلم » (٢٩٧) .

(2) رواه مسلم (٢٩٧) من فعل السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعند أبي داوود (٢٤٧٢) عنها قالت : (وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بالمريض وهو معتكف ، فيمرُّ كما هو ولا يعرج يسألُ عنه) .

(3) كما في « البخاري » (٢٩٦) ، و« مسلم » (٢٩٧) .

الفَصلُ الثَّاني
في أسرار الصّوم وشروطه الباطنة

اعلمْ : أنَّ للصومِ ثلاثَ درجاتٍ : صومُ العمومِ ، وصومُ الخصوصِ ، وصومُ خصوصِ الخصوصِ .

ـ **أمَّا صومُ العمومِ** : فهوَ كفُّ البطنِ والفرجِ عنْ قضاءِ الشهوةِ كما سبقَ تفصيلُهُ .

ـ **وأمَّا صومُ الخصوصِ** : فهوَ كفُّ السمعِ والبصرِ واللسانِ واليدِ والرجْلِ وسائرِ الجوارحِ عنِ الآثامِ .

ـ **وأمَّا صومُ خصوصِ الخصوصِ** : فصومُ القلبِ عنِ الهممِ الدنيَّةِ والأفكارِ الدنيويةِ ، وكفُّهُ عمَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ بالكليَّةِ ، ويحصلُ الفطرُ في هـٰذا الصومِ بالفكرِ فيما سوى اللهِ عزَّ وجلَّ واليومِ الآخرِ ، وبالفكرِ في الدنيا إلا دنيا ترادُ للدينِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ زادِ الآخرةِ وليسَ مِنَ الدنيا ، حتَّىٰ قالَ أربابُ القلوبِ : (مَنْ تحرَّكتْ همَّتُهُ بالتصرُّفِ في نهارِهِ لتدبيرِ ما يفطرُ عليهِ . . كتبتْ عليهِ خطيئةٌ)(١) ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ قلَّةِ الوثوقِ بفضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقلَّةِ اليقينِ برزقِهِ الموعودِ .

وهـٰذهِ رتبةُ الأنبياءِ والصديقينَ والمقربينَ ، ولا نطوِّلُ النظرَ في تفصيلِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٤) بنحوه .

ذلكَ قولاً ، ولكنْ في تحقيقِهِ عملاً ، فإنَّهُ إقبالٌ بكنْهِ الهمَّةِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، وانصرافٌ عنْ غيرِ اللهِ سبحانَهُ ، وتلبسٌ بمعنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

* * *

وأمَّا صومُ الخصوصِ ـ وهوَ صومُ الصالحينَ ـ فهوَ كفُّ الجوارحِ عنِ الآثامِ ، وتمامُهُ بستةِ أمورٍ :

الأولُ : غضُّ البصرِ وكفُّهُ عنِ الاتساعِ في النظرِ إلىٰ كلِّ ما يذمُّ ويكرَهُ ، وإلىٰ كلِّ ما يشغلُ القلبَ ويلهي عنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « النظرةُ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليسَ ، فمنْ تركَها خوفاً مِنَ اللهِ . . آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إيماناً يجدُ حلاوتَهُ في قلبِهِ »(١) .

وروىٰ جابرٌ عنْ أنسٍ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « خمسٌ يفطرْنَ الصائمَ : الكذبُ ، والغيبةُ ، والنميمةُ ، واليمينُ الكاذبةُ ، والنظرُ بشهوةٍ »(٢) .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٧٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٠١) .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه الأزدي في « الضعفاء » من رواية جابان عن أنس ، وقوله : « جابر » تصحيف ، قال أبو حاتم : هـٰذا كذب) ، وهو عند الديلمي في « الفردوس » (٢/ ١٩٧) ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ٢٤٥) حيث قال : (أما طريق داوود بن رشيد عن بقية . . فإسناده متقارب ، وليس فيه من رمي بالكذب ، إلا أنه ضعيف لضعف محمد بن حجاج ، والله أعلم) ، وهو كما أورده المصنف عند صاحب =

الثاني : حفظُ اللسانِ عنِ الهذيانِ والكذبِ والغيبةِ والنميمةِ والفحشِ والجفاءِ والخصومةِ والمراءِ ، وإلزامُهُ السكوتَ ، وشغلُهُ بذكرِ اللهِ سبحانَهُ وتلاوةِ القرآنِ ، فهٰذا صومُ اللسانِ .

وقدْ قالَ سفيانُ : (الغيبةُ تفسدُ الصومَ) رواهُ بشرُ بنُ الحارثِ عنهُ[1] .

وروىٰ ليثٌ عنْ مجاهدٍ : (خصلتانِ تفسدانِ الصيامَ : الغيبةُ والكذبُ)[2] .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصومُ جُنَّةٌ ، فإذا كانَ أحدُكُمْ صائماً . . فلا يرفُثْ ولا يجهلْ ، وإنِ امرؤٌ قاتلَهُ أوْ شاتمَهُ . . فليقلْ : إنِّي صائمٌ إنِّي صائمٌ »[3] .

وجاءَ في الخبرِ : أنَّ امرأتينِ صامتا علىٰ عهْدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأجهدَهُما الجوعُ والعطشُ مِنْ آخرِ النهارِ حتَّىٰ كادتا أنْ تتلَفا ، فبعثتا إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تستأذنانِهِ في الإفطارِ ، فأرسلَ إليهما قدحاً وقالَ للرسولِ : « قلْ لهما قِيئَا فيهِ ما أكلْتُما »، فقاءَتْ إحداهُما

= « القوت » (٢/ ١١٤) . وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٩٧٥) عن عمر رضي الله عنه : (ليس الصيام من الطعام والشراب وحده ، ولكنه من الكذب والباطل واللغو والحلف) .

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١١٤) ، وقال سفيان والأوزاعي بالفساد حقيقة . انظر « الإتحاف » (٤/ ٢٤٥) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٩٨٠) ، وهو في « القوت » (٢/ ١١٤) .

(٣) رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١١٥٠) .

نصفَهُ دماً عَبيطاً ولحماً غريضاً ، وقاءَتِ الأخرىٰ مثلَ ذلكَ حتَّىٰ ملأَتاهُ ، فعجبَ الناسُ مِنْ ذلكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هاتانِ صامتا عمَّا أحلَّ اللهُ لهما ، وأفطرتا علىٰ ما حرَّمَ اللهُ تعالىٰ عليهما ؛ قعدَتْ إحداهُما إلى الأخرىٰ ، فجعلتا تغتابانِ الناسَ ، فهـٰذا ما أكلتا مِنْ لحومِهِمْ »[1] .

* * *

الثالثُ : كفُّ السمعِ عنِ الإصغاءِ إلىٰ كلِّ مكروهٍ ؛ لأنَّ كلَّ ما حَرَّمَ اللهُ قولَهُ .. حرَّمَ الإصغاءَ إليهِ ، ولذلكَ سوَّى اللهُ تعالىٰ بينَ المستمعِ وآكلِ السحْتِ فقالَ : ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ فالسكوتُ على الغيبةِ حرامٌ .

وقالَ أيضاً : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المغتابُ والمستمعُ شريكانِ في الإثمِ »[2] .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٤٣١) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (١/ ٧٥) ، **والعبيط** : هو من الدم الخالصُ الطري ، **والغريض** : الطري كذلك .

(٢) في معناه روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٩٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٢٢١) عن ابن عمر رضي الله عنهما : (نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغناء والاستماع إلى الغناء ، ونهىٰ عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة ، وعن النميمة والاستماع إلى النميمة) .

الرابعُ : كفُّ بقيةِ الجوارحِ عنِ الآثامِ مِنَ اليدِ والرجلِ وعنِ المكارهِ ، وكفُّ البطْنِ عنِ الشبهاتِ وقتَ الإفطارِ ، فلا معنىٰ للصومِ وهوَ الكفُّ عنِ الطعامِ الحلالِ ثمَّ الإفطارُ على الحرامِ ؛ فمثالُ هـٰذا الصائمِ مثالُ منْ يبني قصراً ويهدمُ مِصراً ؛ فإنَّ الطعامَ الحلالَ إنَّما يضرُّ بكثرتِهِ لا بنوعِهِ ، فالصومُ لتقليلِهِ ، وتاركُ الاستكثارِ مِنَ الدواءِ خوفاً مِنْ ضررِهِ إذا عدلَ إلىٰ تناولِ السُّمِّ . . كانَ سفيهاً ، والحرامُ سمٌّ يهلكُ الدينَ ، والحلالُ دواءٌ ينفعُ قليلُهُ ويضرُّ كثيرُهُ ، وقصدُ الصومِ تقليلُهُ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ مِنْ صائمٍ ليسَ لهُ مِنْ صومِهِ إلا الجوعُ والعطشُ »(١) ، فقيلَ : هوَ الذي يفطرُ على الحرامِ ، وقيلَ : هوَ الذي يمسكُ عنِ الطعامِ الحلالِ ويفطرُ علىٰ لحومِ الناسِ بالغيبةِ وهيَ حرامٌ ، وقيلَ : هوَ الذي لا يحفظُ جوارحَهُ عنِ الآثامِ(٢) .

***

الخامسُ : ألا يستكثرَ مِنَ الطعامِ الحلالِ وقتَ الإفطارِ بحيثُ يمتلىءُ جوفُهُ ، فما مِنْ وعاءٍ أبغضُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ بطنٍ مليءٍ مِنْ حلالٍ(٣) .

وكيفَ يُستفادُ مِنَ الصومِ قهرُ عدوِّ اللهِ وكسرُ الشهوةِ إذا تداركَ الصائمُ عندَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٧٣) ، وبنحوه عند ابن ماجه (١٦٩٠) .
(٢) حكى الأقوال الثلاثة صاحب « القوت » (٢/ ١١٤) .
(٣) كما في « الترمذي » (٢٣٨٠) ، و« ابن ماجه » (٣٣٤٩) .

فطرِهِ ما فاتَهُ ضحوةَ نهارِهِ ؟! وربما يزيدُ عليهِ في ألوانِ الطعامِ ، حتَّى استمرتِ العاداتُ بأنْ تدَّخَرَ جميعُ الأطعمةِ لرمضانَ ، فيؤكلُ مِنَ الأطعمةِ فيهِ ما لا يؤكلُ في عدَّةِ أشهرٍ ، ومعلومٌ أنَّ مقصودَ الصوم الخَواءُ وكسرُ الهوىٰ ؛ لتقوى النفسُ على التقوىٰ ، وإذا دفعتِ المعدةُ ضحوةَ النهارِ إلى العشاءِ حتَّىٰ هاجتْ شهوتُها وقويتْ رغبتُها ، ثمَّ أطعمتْ مِنَ اللذاتِ وأشبعتْ . . زادتْ لذتُها وتضاعفتْ قوَّتُها ، وانبعثَ مِنَ الشهواتِ ما عساهُ كانَ راكداً لوْ تركَتْ علىٰ عادتِها !

فروحُ الصومِ وسرُّهُ تضعيفُ القُوى التي هيَ وسائلُ الشيطانِ في القوْدِ إلى الشرورِ ، ولنْ يحصلَ ذلكَ إلا بالتقليلِ ؛ وهوَ أنْ يأكلَ أكلتَهُ التي كانَ يأكلُها كلَّ ليلةٍ لوْ لمْ يصمْ ، فأمَّا إذا جمعَ ما كانَ يأكلُ ضحوةً إلىٰ ما كانَ يأكلُ ليلاً . . فلنْ ينتفعَ بصومِهِ .

بلْ مِنَ الآدابِ ألا يكثرَ النومَ بالنهارِ حتَّىٰ يحسَّ بالجوعِ والعطشِ ، ويستشعرَ ضعْفَ القُوىٰ ، فيصفوَ عندَ ذلكَ قلبُهُ ، ويستديمَ في ليلِهِ قدْراً مِنَ الضعفِ حتَّىٰ يخفَّ عليهِ تهجُّدُه وأورادُهُ ، فعسى الشيطانُ ألا يحومَ علىٰ قلبِهِ ؛ فينظرَ إلىٰ ملكوتِ السماءِ .

وليلةُ القدْرِ عبارةٌ عنِ الليلةِ التي ينكشفُ فيها شيءٌ مِنَ الملكوتِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ ، ومَنْ جعلَ بينَ قلبِهِ وبينَ صدرِهِ مِخلاةً مِنَ الطعامِ . . فهوَ عنهُ محجوبٌ ، ومَنْ أخلىٰ معدتَهُ . . فلا يكفيهِ ذلكَ لرفعِ الحجابِ ما لمْ يخلِ همَّتَهُ عنْ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وذلكَ هوَ

الأمرُ كلُّهُ ، ومبدأُ جميعِ ذلكَ تقليلُ الطعامِ ، وسيأتي لهُ مزيدُ بيانٍ في كتابِ الأطعمةِ إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ .

* * *

السادسُ : أنْ يكونَ قلبُهُ بعدَ الإفطارِ معلَّقاً مضطرباً بينَ الخوفِ والرجاءِ ؛ إذْ ليسَ يدري : أتُقُبِّلَ صومُهُ فهوَ مِنَ المقرَّبينَ ، أوْ رُدَّ عليهِ فهوَ مِنَ الممقوتينَ ؟

وليكنْ كذلكَ في آخرِ كلِّ عبادةٍ يفرُغُ منها ، فقدْ رُوِيَ عنِ الحسنِ بنِ أبي الحسنِ البصريِّ أنَّهُ مرَّ بقومٍ يومَ العيدِ وهمْ يضحكونَ ، فقالَ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ شهرَ رمضانَ مضماراً لخلقِهِ يستبقونَ فيهِ لطاعتِهِ ، فسبقَ أقوامٌ ففازوا ، وتخلَّفَ أقوامٌ فخابوا ، فالعجَبُ كلُّ العجبِ للضاحكِ اللاعبِ في اليومِ الذي فازَ فيهِ السابقونَ المسارعونَ ، وخابَ فيهِ المبطلونَ ! أمَا واللهِ ؛ لوْ كُشِفَ الغطاءُ . . لاشتغلَ المحسنُ بإحسانِهِ والمسيءُ بإساءتِهِ) أيْ : كانَ سرورُ المقبولِ يشغلُهُ عنِ اللعبِ ، وحسرةُ المردودِ تسدُّ عليهِ بابَ الضحكِ .

وعنِ الأحنفِ بنِ قيسٍ أنَّهُ قيلَ لهُ : إنَّكَ شيخٌ كبيرٌ ، وإنَّ الصيامَ يضعفُكَ ، فقالَ : إنِّي أعدُّهُ لشرٍّ طويلٍ ، والصبرُ علىٰ طاعةِ اللهِ سبحانَهُ أهونُ مِنَ الصبرِ علىٰ عذابِهِ(١) .

فهٰذهِ هيَ المعاني الباطنةُ في الصومِ .

* * *

(١) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٩/ ٩٥) إلىٰ قوله : (لشرٍّ طويل) .

فإنْ قلتَ : فمنِ اقتصرَ علىٰ كفِّ شهوةِ البطنِ والفرجِ وتركِ هٰذهِ المعاني فقدْ قالَ الفقهاءُ : صومُهُ صحيحٌ ، فما معناهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ فقهاءَ الظاهرِ يثبتونَ شروطَ الظاهرِ بأدلَّةٍ هي أضعفُ مِنْ هٰذهِ الأدلَّةِ التي أوردناها في هٰذهِ الشروطِ الباطنةِ ، لا سيما الغيبةُ وأمثالُها ، ولكنْ ليسَ إلىٰ فقهاءِ الظاهرِ مِنَ التكليفاتِ إلا ما يتيسَّرُ علىٰ عمومِ الغافلينَ المقبلينَ على الدنيا الدخولُ تحتَهُ .

فأمَّا علماءُ الآخرةِ . . فيعنونَ بالصحَّةِ القَبولَ ، وبالقبولِ الوصولَ إلى المقصودِ ، ويفهمونَ أنَّ المقصودَ مِنَ الصومِ التخلُّقُ بخلقٍ مِنْ أخلاقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهوَ الصمديَّةُ[1] ، والاقتداءُ بالملائكةِ في الكفِّ عنِ الشهواتِ بحسَبِ الإمكانِ ؛ فإنَّهُمْ منزَّهونَ عنِ الشهواتِ ، والإنسانُ رتبتُهُ فوقَ رتبةِ البهائمِ ؛ لقدرتِهِ بنورِ العقلِ علىٰ كسْرِ شهوتِهِ ، ودونَ رتبةِ الملائكةِ ؛ لاستيلاءِ الشهواتِ عليهِ وكونِهِ مبتلىً بمجاهدتِها ، فكلَّما انهمكَ في الشهواتِ . . انحطَّ إلىٰ أسفلِ السافلينَ ، والتحقَ بغمارِ البهائمِ ، وكلَّما قمعَ الشهواتِ . . ارتفعَ إلىٰ أعلىٰ علِّيينَ ، والتحقَ بأفقِ الملائكةِ ، والملائكةُ مقرَّبونَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والذي يقتدي بهمْ ويتشبَّهُ بأخلاقِهِمْ . . يقربُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كقربِهِمْ ؛ فإنَّ الشبيهَ مِنَ القريبِ قريبٌ ، وليسَ القربُ ثَمَّ بالمكانِ ، بلْ بالصفاتِ .

(١) إذ إن من معاني الصمد : الذي لا جوف له ، والذي لا يطعم .

وإذا كانَ هـٰذا سرَّ الصومِ عندَ أربابِ الألبابِ وأصحابِ القلوبِ . . فأيُّ جدوىٰ لتأخيرِ أكلةٍ وجمعِ أكلتينِ عندَ العشاءِ معَ الانهماكِ في الشهواتِ الأُخَرِ طولَ النهارِ ؟!

ولوْ كانَ لمثلِهِ جدوىٰ . . فأيُّ معنىً لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كمْ مِنْ صائمٍ ليسَ لهُ مِنْ صومِهِ إلا الجوعُ والعطشُ » ؟![1] .

ولهـٰذا قالَ أبو الدرداءِ : (يا حبذا نومُ الأكياسِ وفطرُهُمْ ، كيفَ يغبنونَ صومَ الحمقىٰ وسهرَهم ؟! ولذرةٌ مِنْ ذوي يقينٍ وتقوىٰ أفضلُ وأرجحُ مِنْ أمثالِ الجبالِ عبادةً مِنَ المغترِّينَ)[2] .

ولذلكَ قالَ بعضُ العلماءِ : (كمْ مِنْ صائمٍ مفطرٌ ، وكمْ مِنْ مفطرٍ صائمٌ) ، والمفطرُ الصائمُ : هوَ الذي يحفظُ جوارحَهُ عنِ الآثامِ ويأكلُ ويشربُ ، والصائمُ المفطرُ : هوَ الذي يجوعُ ويعطشُ ويطلقُ جوارحَهُ .

ومَنْ فهمَ معنى الصومِ وسرَّهُ . . علمَ أنَّ مثَلَ مَنْ كفَّ عنِ الأكلِ والجماعِ وأفطرَ بمخالطةِ الآثامِ . . كمَنْ مسحَ علىٰ عضوٍ مِنْ أعضائِهِ في الوضوءِ ثلاثَ مراتٍ، فقدْ وافقَ في الظاهرِ العددَ ، إلا أنَّهُ تركَ المهمَّ وهوَ الغسلُ ، فصلاتُهُ مردودةٌ عليهِ لجهلِهِ ، ومثلُ مَن أفطرَ بالأكلِ وصامَ بجوارحِهِ عنِ المكارهِ . . كمَنْ غسلَ أعضاءَهُ مرَّةً مرَّةً ، فصلاتُهُ متقبَّلةٌ إنْ شاءَ اللهُ ؛ لإحكامِهِ الأصلَ

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٧٣) ، وبنحوه عند ابن ماجه (١٦٩٠) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٧٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١١) ، وهو في « القوت » (١/ ٧٥) .

وإنْ تركَ الفضْلَ ، ومثلُ مَنْ جمعَ بينَهُما . . كمَنْ غسلَ كلَّ عضوٍ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فجمعَ بينَ الأصلِ والفضْلِ ، وهوَ الكمالُ[1] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الصومُ أمانةٌ ، فليحفظْ أحدُكُمْ أمانتَهُ »[2] .

ولمَّا تلا قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ . . وضعَ يدَهُ علىٰ سمعِهِ وبصرِهِ فقال : « السمعُ أمانةٌ ، والبصرُ أمانةٌ »[3] ، ولولا أنَّهُ مِنْ أماناتِ الصومِ . . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فليقلْ : إنِّي صائمٌ »[4] أي : إنِّي أُودعتُ لساني لأحفظَهُ ، فكيفَ أطلقُهُ بجوابِكَ ؟!

فإذاً ؛ قدْ ظهرَ أنَّ لكلِّ عبادةٍ ظاهراً وباطناً ، وقشراً ولبّاً ، ولقشورِها درجاتٍ ، ولكلِّ درجةٍ طبقاتٍ . . فإليكَ الخيرةُ الآنَ في أنْ تقنعَ بالقشرِ عنِ اللبابِ ، أوْ تتحيَّزَ إلىٰ غمارِ أربابِ الألبابِ .

* * *

---

(١) هـٰذه المُثُل ذكرها الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١/ ٧٥) .

(٢) روى الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢١٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٠١) مرفوعاً : « القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها ـ أو قال : كلَّ شيء ـ إلا الأمانة ، والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الحديث ، فأشد ذلك الودائع » .

(٣) روى ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧٥) عن عبد الله بن عمرو نحوه .

(٤) رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١١٥٠) .

الفَصْلُ الثَّالِثُ
في التّطوّع بالصّيام وترتيب الأوراد فيه

اعلمْ : أنَّ استحبابَ الصومِ يتأكَّدُ في الأيامِ الفاضلةِ ، وفواضلُ الأيامِ بعضُها يوجدُ في كلِّ سنةٍ ، وبعضُها في كلِّ شهرٍ ، وبعضُها في كلِّ أسبوعٍ .

* * *

أمَّا في السَّنَةِ بعدَ أيامِ رمضانَ :

فيومُ عرفةَ ، ويومُ عاشوراءَ ، والعشرُ الأُوَلُ مِنْ ذي الحجةِ ، والعشرُ الأُوَلُ مِنَ المحرَّمِ ، وجميعُ الأشهرِ الحرُمِ مظانُّ الصومِ ، وهيَ أوقاتٌ فاضلةٌ ، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ صومَ شعبانَ حتَّىٰ كانَ يُظنُّ أنَّهُ في رمضانَ[1] ، وفي الخبر : « أفضلُ الصيامِ بعدَ شهرِ رمضانَ شهرُ اللهِ المحرَّمُ »[2] ، ولأنَّهُ ابتداءُ السنةِ فبناؤُهُ على الخيرِ أحبُّ وأرجىٰ لدوامِ بركتِهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صومُ يومٍ مِنْ شهرٍ حرامٍ أفضلُ مِنْ ثلاثينَ مِنْ غيرِهِ ، وصومُ يومٍ مِنْ رمضانَ أفضلُ مِنْ ثلاثينَ مِنْ شهرٍ حرامٍ »[3] .

---

(١) فقد روى البخاري (١٩٧٠) ، ومسلم (١١٥٦) عن عائشة رضي الله عنها : (كان يصوم شعبان كله) .

(٢) رواه مسلم (١١٦٣) .

(٣) روى الطبراني في « الصغير » (٢/ ٧١) مرفوعاً : « من صام يوم عرفة . . كان له كفارة =

وفي الحديث : « مَنْ صامَ ثلاثةَ أيامٍ مِنْ شهرٍ حرامٍ ؛ الخميسُ والجمعةُ والسبتُ . . كتبَ اللهُ لهُ عبادةَ تسعِ مئةِ عامٍ »[(١)] .

وفي الخبرِ : « إذا كانَ النصفُ مِنْ شعبانَ . . فلا صومَ حتَّىٰ رمضانَ »[(٢)] ، ولهٰذا يستحبُّ أن يفطرَ قبلَ رمضانَ أياماً ، فإنْ وصلَ شعبانَ برمضانَ . . فجائزٌ ، فعلَ ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّةً[(٣)] ، وفصَلَ مراراً كثيرةً[(٤)] .

ولا يجوزُ أنْ يقصدَ استقبالَ رمضانَ بيومينِ أَوْ ثلاثةٍ ، إلا أنْ يوافقَ وِرداً لهُ ، وكرهَ بعضُ الصحابةِ أنْ يُصامَ رجبٌ كلُّهُ ؛ حتَّىٰ لا يضاهيَ بشهرِ رمضانَ[(٥)] .

= سنتين ، ومن صام يوماً من المحرَّم . . فله بكل يوم ثلاثون يوماً » .

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٣٣٧) ، وفي (هـ ، ز ، و) : (سبع) بدل (تسع) ، وهي عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/١١٦) ، وعند الطبراني في « الأوسط » (١٨١٠) بلفظ : (سنتين) .

(٢) رواه أبو داوود (٢٣٣٧) ، والترمذي (٧٣٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٢٩٢٣) ، وابن ماجه (١٦٥١) .

(٣) سبق تخريج حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم شعبان كله ، ووصل شعبان برمضان رواه أبو داوود (٢٣٣٦) ، والترمذي (٧٣٦) ، والنسائي (٢٣٥٣) ، وابن ماجه (١٦٤٨) .

(٤) ففي « أبي داوود » (٢٣٢٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من شعبان ما لا يتحفظ من غيره ، ثم يصوم لرؤية رمضان ، فإن غمَّ عليه . . عدَّ ثلاثين يوماً ثم صام) .

(٥) روى ابن ماجه (١٧٤٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن صيام رجب) .

فالأشهرُ الفاضلةُ : ذو الحِجَّةِ والمحرَّمُ ورجبٌ وشعبانُ ، والأشهرُ الحُرُمُ : ذو القعدةِ وذو الحِجَّةِ والمحرَّمُ ورجبٌ ، واحدٌ فردٌ وثلاثةٌ سردٌ ، وأفضلُها ذو الحجَّةِ ؛ لأنَّ فيهِ الحجَّ والأيامَ المعلوماتِ والمعدوداتِ ، وذو القعدةِ مِنَ الأشهرِ الحُرُمِ وهوَ مِنْ أشهرِ الحجِّ ، وشوَّالٌ مِنْ أشهرِ الحجِّ وليسَ مِنَ الحُرُمِ ، والمحرَّمُ ورجبٌ ليسا مِنْ أشهرِ الحجِّ .

وفي الخبرِ : « ما مِنْ أيامِ العملُ فيهنَّ أفضلُ وأحبُّ إلى اللهِ تعالىٰ مِنْ أيامِ عشْرِ ذي الحِجَّةِ ، إنَّ صومَ يومٍ منهُ يعدِلُ صيامَ سنةٍ ، وقيامَ ليلةٍ منهُ تعدلُ قيامَ ليلةِ القدْرِ » ، قيلَ : ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ؟ قالَ : « ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، إلا مَنْ عُقِرَ جوادُهُ وأُهْرِيقَ دمُهُ »[1] .

* * *

وأمَّا ما يتكرَّرُ في الشهرِ :

فأوَّلُ الشهرِ ، وأوسطُهُ ، وآخرُهُ ، ووسَطُهُ الأيامُ البيضُ ؛ وهيَ الثالثَ عشرَ ، والرابعَ عشرَ ، والخامسَ عشرَ .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٧٥٨) ، وابن ماجه (١٧٢٨) دون زيادة : « ولا الجهاد في سبيل الله . . . » ، وهي عند البخاري (٩٦٩) بغير ذكر الصوم في الحديث ، وروى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٢٨٥) : أن رجلاً سأل أبا هريرة فقال : إن علي رمضان وأنا أريد أن أتطوع في العشر ؟ قال : لا ، بل ابدأ بحق الله فاقضه ، ثم تطوع بعد ما شئت .

وأمَّا في الأسبوعِ :

فالاثنينُ والخميسُ والجمعةُ[1] ، فهـٰذهِ هيَ الأيامُ الفاضلةُ ، فيستحبُّ فيها الصيامُ ، وتكثيرُ الخيراتِ ؛ لتضاعفِ أجورِها ببركةِ هـٰذهِ الأوقاتِ .

* * *

وأمَّا صومُ الدهرِ :

فإنَّهُ شاملٌ للكلِّ وزيادةٌ ، وللسالكينَ فيهِ طرقٌ : فمنهُمْ مَنْ كرهَ ذلكَ ؛ إذْ وردتْ أخبارٌ تدلُّ علىٰ كراهتِهِ[2] ، **والصحيحُ** : أنَّهُ إنَّما يكرهُ لشيئينِ :

أحدُهما : ألا يفطرَ في العيدينِ وأيامِ التشريقِ ، فهوَ الدهرُ كلُّهُ .

والآخرُ : أنْ يرغبَ عنِ السنَّةِ في الإفطارِ ويجعلَ الصومَ حجْراً علىٰ نفسِهِ ، معَ أنَّ اللهَ يحبُّ أنْ تُؤتىٰ رخصُهُ كما يُحبُّ أنْ تؤتىٰ عزائمُهُ[3] .

فإذا لمْ يكنْ شيءٌ مِنْ ذلكَ ، ورأىٰ صلاحَ نفسِهِ في صومِ الدهرِ .. فليفعلْ ذلكَ ؛ فقدْ فعلَهُ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ والتابعينَ لهُم بإحسانٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رواهُ أبو موسى الأشعريُّ : «مَنْ صامَ الدهرَ

---

(١) إن صام يوماً قبله أو بعده ، أو وافق يوماً يصومه ؛ إذ إفراده بالصوم مكروه .
(٢) كما روى البخاري (١٩٧٧) ، ومسلم (١١٥٩) مرفوعاً « لا صام من صام الأبد » .
(٣) كما روىٰ ذلك أحمد في « المسند » (٢/ ١٠٨) .
(٤) كعبد الله بن الزبير ، وعروة وسعيد بن المسيب ووكيع وغيرهم ، وذكر الحافظ الزبيدي عن شيخه العالم الورع الزاهد محمد بن شاهين الدمياطي أنه كان كذلك ، يصوم الدهر ولا يفطر ، انظر « الإتحاف » (٤/ ٢٦١) .

كلَّهُ . . ضُيِّقَتْ عليهِ جهنَّمُ » وعقدَ تسعينَ[١] ، معناه : لمْ يكنْ لهُ فيها موضعٌ .

ودونَهُ درجةٌ أخرىٰ ، وهيَ صومُ نصْفِ الدهرِ ؛ بأنْ يصومَ يوماً ويفطرَ يوماً ، وذلكَ أشدُّ على النفسِ وأقوىٰ في قهرِها ، وقدْ وردَ في فضلِهِ أخبارٌ كثيرةٌ؛ لأنَّ العبدَ فيهِ بينَ صبْرِ يومٍ وشكْرِ يومٍ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرضتْ عليَّ مفاتيحُ خزائنِ الدنيا وكنوزُ الأرضِ ، فرددتُها وقلتُ : أجوعُ يوماً وأشبعُ يوماً ، أحمدُكَ إذا شبعتُ ، وأتضرَّعُ إليكَ إذا جعتُ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصيامِ صومُ أخي داوودَ ، كانَ يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً »[٣] .

ومِنْ ذلكَ : منازلتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما في الصومِ وهوَ يقولُ : إنِّي أطيقُ أفضلَ مِنْ ذلكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صُمْ يوماً وأفطرْ يوماً » ، فقالَ : إنِّي أطيقُ أفضلَ مِنْ ذلكَ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا أفضلَ مِنْ ذلكَ »[٤] .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٥٨٤) ، ثم نقل عن أبي حاتم : (القصد في هـٰذا الخبر صوم الدهر الذي فيه أيام التشريق والعيدين) ، وقال ابن الملقن في « البدر المنير » (٥/ ٧٦٥) : (أي : ضيقت عنه فلم يدخلها ، أو ضيقت عليه ؛ أي : لا يكون له فيها موضع) ، وهـٰذا ما سيفسره به المصنف رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٧) بنحوه .

(٣) رواه الترمذي (٧٧٠) بلفظه ، وهو عند الشيخين من حديث عبد الله بن عمرو الآتي .

(٤) رواه البخاري (١٩٧٦) ، ومسلم (١١٥٩) .

وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما صامَ شهراً كاملاً قطُّ إلا رمضانَ[1] ، بلْ كانَ يفطرُ مِنْ غيرِهِ .

ومَنْ لا يقدرُ علىٰ صومِ نصفِ الدهرِ . . فلا بأسَ بثلثِهِ ، وهوَ أنْ يصومَ يوماً ويفطرَ يومينِ[2] ، وإذا صامَ ثلاثةً مِنَ أوَّلِ الشهرِ وثلاثةً مِنَ الوسطِ وثلاثةً مِنَ الآخرِ . . فهوَ ثلثٌ وواقعٌ في الأوقاتِ الفاضلةِ ، وإنْ صامَ الاثنينَ والخميسَ والجمعةَ . . فهوَ قريبٌ مِنَ الثلثِ .

* * *

وإذا ظهرتْ أوقاتُ الفضيلةِ . . فالكمالُ في أنْ يفهمَ الإنسانُ معنى الصومِ ، وأنَّ مقصودَهُ تصفيةُ القلبِ وتفريغُ الهمِّ للهِ عزَّ وجلَّ .

والفقيهُ بدقائقِ الباطنِ ينظرُ إلىٰ أحوالِهِ ، فقدْ يقتضي حالُهُ دوامَ الصومِ ، وقدْ يقتضي دوامَ الفطرِ ، وقدْ يقتضي مزجَ الإفطارِ بالصومِ ، فإذا فهمَ المعنىٰ وتحقَّقَ حدَّهُ في سلوكِ طريقِ الآخرةِ بمراقبةِ القلبِ . . لمْ يخفَ عليهِ صلاحُ قلبِهِ ، وذلكَ لا يوجبُ ترتيباً مستمرّاً ، ولذلكَ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يصومُ حتَّىٰ يقالَ : لا يفطرُ ، ويفطرُ حتَّىٰ يقالَ : لا يصومُ ، وينامُ حتَّىٰ يقالَ : لا يقومُ ، ويقومُ حتَّىٰ يقالَ : لا ينامُ[3] ، وكانَ ذلكَ بحسَبِ

(١) كما في « البخاري » (١٩٧١) ، و« مسلم » (١١٥٦) .
(٢) كما في « مسلم » (١١٦٢) حيث قال صلى الله عليه وسلم فيه : « وددت أني طوقت ذلك » .
(٣) كما في « البخاري » (١١٤١) ، و« مسلم » (١١٥٨) ، واللفظ للبخاري عن أنس =

ما ينكشفُ لهُ بنورِ النبوَّةِ مِنَ القيامِ بحقوقِ الأوقاتِ .

وقدْ كرهَ بعضُ العلماءِ أنْ يواليَ بينَ الإفطارِ أكثرَ مِنْ أربعةِ أيامٍ ، تقديراً بيومِ العيدِ وأيامِ التشريقِ ، وذكروا أنَّ ذلكَ يقسِّي القلبَ ، ويولِّدُ رديءَ العاداتِ ، ويفتحُ أبوابَ الشهواتِ .

ولعمري ؛ هوَ كذلكَ في حقِّ أكثرِ الخلقِ ، لا سيما مَنْ يأكلُ في اليومِ والليلةِ مرتينِ .

فهٰذا ما أردنا ذكرَهُ مِنْ ترتيبِ الصومِ المتطوَّعِ بهِ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

* * *

تمّ كتاب أسرار الصّوم ومهمّاته

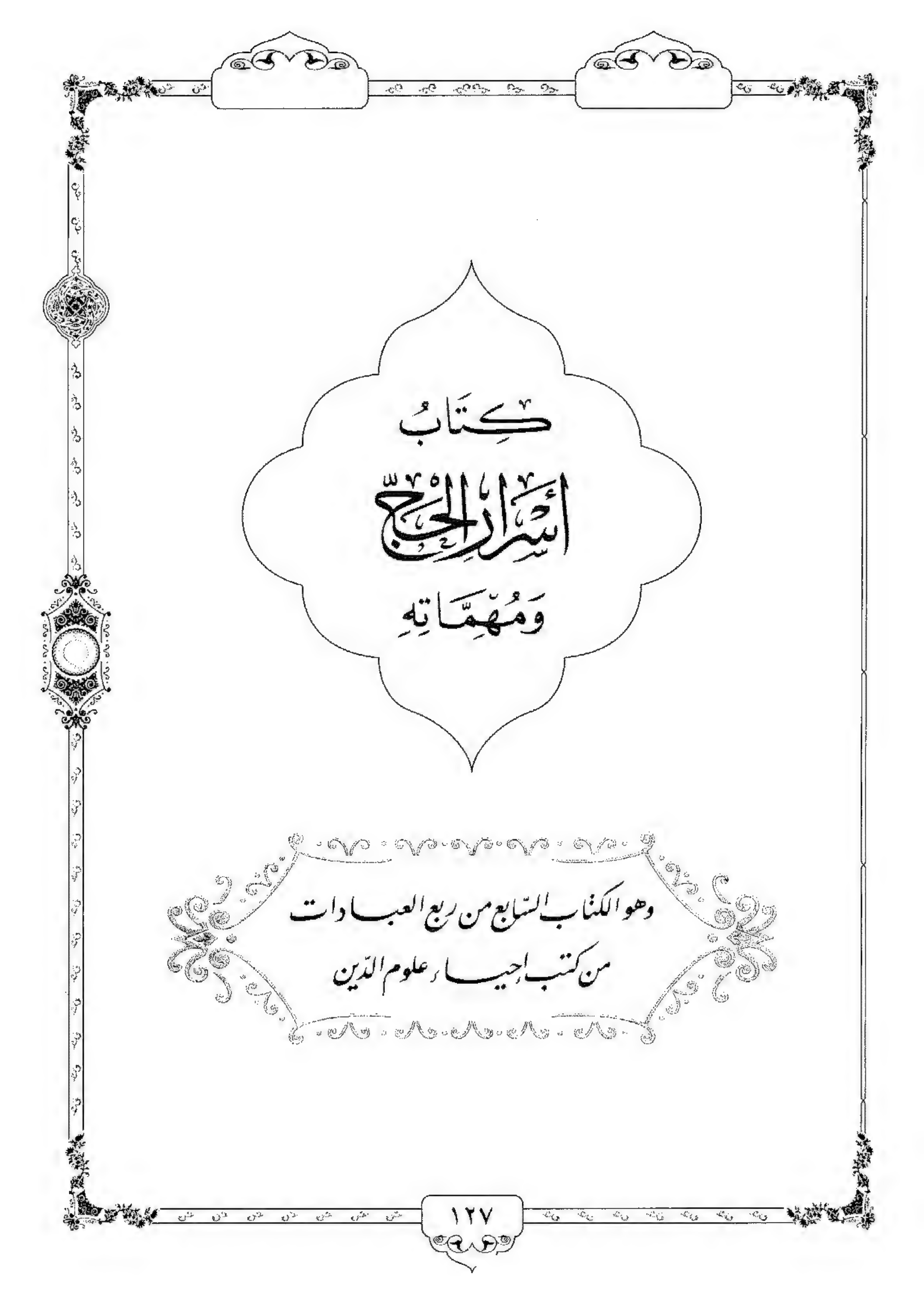
وهو الكتاب السّادس من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والله تعالى محمودٌ مشكور

وصلّى الله على خير خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين وصحبه أجمعين

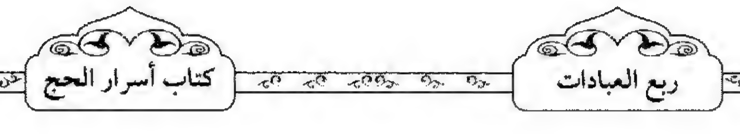
يتلوه كتاب أسرار الحجّ ومهمّاته

= رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر من الشهر حتىٰ نظن أن لا يصومُ ، ويصوم حتىٰ نظن أن لا يفطرُ منه شيئاً ، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ، ولا نائماً إلا رأيته) .



كِتَابُ أَسْرَارِ الحَجِّ وَمُهِمَّاتِهِ

وهو الكتاب السّابع من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدّين



كتاب أسرار الحجّ ومهمّاته

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ كلمةَ التوحيدِ لعبادِهِ حرزاً وحصناً ، وجعلَ البيتَ العتيقَ مثابةً للناسِ وأمناً ، وأكرمَهُ بالنسبةِ إلىٰ نفسِهِ تشريفاً وتخصيصاً ومنّاً ، وجعلَ زيارتَهُ والطوافَ بهِ حجاباً بينَ العبدِ وبينَ العذابِ ومِجَنّاً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ نبيِّ الرحمةِ وسيِّدِ الأمَّةِ ، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ قادةِ الحقِّ وسادةِ الخلْقِ ، وسلَّم تسليماً كثيراً .

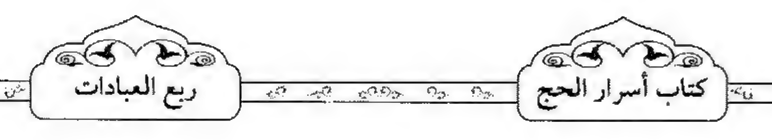
أما بعد :

فإنَّ الحجَّ مِنْ بينِ أركانِ الإسلامِ ومبانيهِ عبادةُ العمرِ ، وختامُ الأمرِ ، وتمامُ الإسلامِ ، وكمالُ الدينِ ، فيهِ أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قولَهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ ﴾ .

وفيهِ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ ولمْ يحجَّ . . فليمتْ إنْ شاءَ يهودياً وإنْ شاءَ نصرانياً »[1] .

---

(١) رواه الترمذي (٨١٢) ، والدارمي في « سننه » (١٨٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٥١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٣٣٤) ، وقال : (وهـٰذا وإن كان إسناده غير قوي . . فله شاهد من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه) وذكره .



فأعظِمْ بعبادةٍ يعدمُ الدين بفقدِها الكمالَ ، ويساوي تاركُها اليهودَ والنصارىٰ في الضلالِ ، وأجدرْ بها أنْ تُصرفَ العنايةُ إلىٰ شرحِها وتفصيلِ أركانِها وسننِها وآدابِها وفضائِلها وأسرارِها .

وجملةُ ذلكَ ينكشفُ بتوفيقِ اللهِ عزَّ وجلَّ في ثلاثةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضائِلها وفضائلِ مكَّةَ والبيتِ العتيقِ ، وجملِ أركانِها وشرائطِ وجوبِها .

البابُ الثاني : في أعمالِها الظاهرةِ على الترتيبِ مِنْ مبدأِ السفرِ إلى الرجوعِ .

البابُ الثالثُ : في آدابِها الدقيقةِ وأسرارِها الخفيَّةِ وأعمالِها الباطنةِ .

* * *

فلنبدأْ بالبابِ الأوَّلِ :

الباب الأول
في فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرائط وجوبها
وفيه فصلان[1]

الفصل الأول
في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله وشد الرحال إلى المشاهد العظام

فضيلة الحج

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

قالَ قتادةُ : (لمَّا أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ أنْ يؤذِّنَ في الناسِ بالحجِّ . نادىٰ : يا أيُّها الناسُ ؛ إنَّ للهِ بيتاً فحجُّوهُ)[2] .

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) رواه قتادة عن عكرمة بن خالد كما في « مناسك ابن أبي عروبة » (٢٢) ، و« تاريخ دمشق » (٦/ ٢٠٧) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ ، قيلَ : (التجارةُ في الموسمِ ، والأجرُ في الآخرةِ)[1] .

ولمَّا سمعَ بعضُ السلفِ هٰذَا . . قالَ : (غفرَ لهُمْ وربِّ الكعبةِ)[2] .

وقيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ : إنَّهُ طريقُ مكَّةَ ، يقعدُ الشيطانُ عليها ليمنعَ الناسَ منها[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ حجَّ البيتَ فلمْ يرفثْ ولمْ يفسقْ . . خرجَ مِنْ ذنوبِهِ كيومَ ولدتْهُ أُمُّهُ »[4] .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما رُئِيَ الشيطانُ في يومٍ هُوَ أصغرَ ولا أدحرَ ولا أحقرَ ولا أغيظَ منهُ يومَ عرفةَ ، وما ذلكَ إلا لما يرىٰ مِنْ تنزُّلِ الرحمةِ ، وتجاوزِ اللهِ عنِ الذنوبِ العظامِ »[5] ، إذْ يقالُ : « إنَّ مِنَ الذنوبِ ذنوباً لا يكفِّرُها إلا الوقوفُ بعرفةَ » ، وقدْ أسندَهُ جعفرُ بنُ محمدٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[6] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٠/١٧/١٨٦) عن مجاهد .
(٢) قوت القلوب (٢/١٢٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٢٥٣) عن عون بن عبد الله ، وروي موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من رواية الفاكهي في « أخبار مكة » (٤/١٣٢) .
(٤) رواه البخاري (١٥٢١) ، ومسلم (١٣٥٠) .
(٥) رواه مالك في « الموطأ » (١/٤٢٢) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً ، **والدحر** : الدفع بعنف علىٰ سبيل المهانة والإذلال .
(٦) كذا قال صاحب « القوت » (٢/١٢٠) ولفظه : (وقد رفعه جعفر بن محمد فأسنده) .

وذكرَ بعضُ المكاشفينَ مِنَ المقرَّبينَ : أنَّ إبليسَ ظهرَ لهُ في صورةِ شخصٍ بعرفةَ ، فإذا هوَ ناحلُ الجسمِ ، مصفرُّ اللونِ باكي العينِ ، مقصوفُ الظهرِ ، فقالَ لهُ : ما الذي أبكىٰ عينَكَ ؟ قالَ : خروجُ الحاجِّ إليهِ بلا تجارةٍ ، أقولُ : قدْ قصدوهُ ، أخافُ ألا يخيبَهُمْ ، فيحْزُنُني ذلكَ ، قالَ : فما الذي أنحلَ جسمَكَ ؟ قالَ : صهيلُ الخيلِ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولوْ كانتْ في سبيلي كانَ أحبَّ إليَّ ، قالَ : فما الذي غيَّرَ لونَكَ ؟ قالَ : تعاونُ الجماعةِ على الطاعةِ ، ولوْ تعاونوا على المعصيةِ كانَ أحبَّ إليَّ ، قالَ : فما الذي قصفَ ظهرَكَ ؟ قالَ : قولُ العبدِ : أسألُكَ حسنَ الخاتمةِ ، أقولُ : يا ويلتي ! متىٰ يعجبُ هـٰذا بعملِهِ ، أخافُ أنْ يكونَ قدْ فطنَ(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خرجَ مِنْ بيتِهِ حاجّاً أَوْ معتمراً ، فماتَ . . أُجريَ لهُ أجرُ الحاجِّ المعتمرِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، ومَنْ ماتَ في أحدِ الحرمينِ . . لمْ يُعْرَضْ ولمْ يحاسبْ ، وقيلَ لهُ : ادخلِ الجنَّةَ »(٢) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) ، وروى ابن ماجه (٣٠١٣) حديث دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في عرفة ، وفيه : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أو قال : تبسم ـ فقال له أبو بكر وعمر : بأبي أنت وأمي ؛ إن هـٰذه لساعة ما كنت تضحك فيها ، فما الذي أضحكك أضحك الله سنَّك ؟ قال : « إن عدو الله إبليس لما علم أن الله عز وجل قد استجاب دعائي وغفر لأمتي . . أخذ التراب ، فجعل يحثوه علىٰ رأسه ويدعو بالويل والثبور ، فأضحكني ما رأيت من جزعه » .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٣٨٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٨٠٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حجَّةٌ مبرورةٌ خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ، وحجةٌ مبرورةٌ ليسَ لها جزاءٌ إلا الجنةُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجَّاجُ والعمَّارُ وفدُ اللهِ عزَّ وجلَّ وزوَّارُهُ ، إنْ سألوهُ . . أعطاهُمْ ، وإنِ استغفروهُ . . غفرَ لهُمْ ، وإنْ دعَوا . . استجيبَ لهُمْ ، وإنْ تشفَّعُوا . . شُفِّعُوا »(٢) .

وفي حديثٍ مسندٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ عليهمُ السلامُ : « أعظمُ الناسِ ذنباً مَنْ وقفَ بعرفةَ فظنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يغفرْ لهُ »(٣) .

وروى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ينزلُ علىٰ هـٰذا البيتِ في كلِّ يومٍ مئةٌ وعشرونَ رحمةً ، ستونَ للطائفينَ ، وأربعونَ للمصلِّينَ ، وعشرونَ للناظرينَ »(٤) .

---

(١) روى البخاري (١٧٧٣) ، ومسلم (١٣٤٩) مرفوعاً : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ، ومعنى الشطر الأول مستفاد من حديثين ؛ ما رواه البخاري (٢٧٩٢) ، ومسلم (١٨٨٠) مرفوعاً : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » ، وما رواه البخاري (١٥٢٠) عن عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله ؛ نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : « لا ، لكنَّ أفضل الجهاد حج مبرور » .

(٢) الحديث أورده المصنف بلفظ صاحب «القوت» (٢/ ١٢٠)، وأوله عند ابن ماجه (٢٨٩٢) بلفظ : « الحجاج والعمار وفد الله ، إن دعوه . . أجابهم ، وإن استغفروه . . غفر لهم » .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٢٠) ، حيث قال : (وقد روينا حديثاً مسنداً من طريق أهل البيت . . .) وذكره ، وقد رواه الخطيب في « المتفق والمفترق » (٢١٩) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ١٩٥) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » =

وفي الخبرِ : (استكثروا منَ الطوافِ بالبيتِ ؛ فإنَّهُ مِنْ أقلِّ شيءٍ تجدونَهُ في صحفِكُمْ يومَ القيامةِ ، وأغبطِ عملٍ تجدونَهُ)(١) ، ولهـٰذا يستحبُّ الطوافُ ابتداءً مِنْ غيرِ حجٍّ ولا عمرةٍ .

وفي الخبرِ : « مَنْ طافَ أسبوعاً حافياً حاسراً . . كانَ لهُ كعتقِ رقبةٍ ، ومَنْ طافَ أسبوعاً في المطرِ . . غُفِرَ له ما سلفَ مِنْ ذنوبِهِ »(٢) .

ويقالُ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا غفرَ لعبدٍ ذنباً في الموقفِ . . غفرَهُ لكلِّ مَنْ أصابَهُ في ذلكَ الموقفِ)(٣) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (إذا وافقَ يومُ عرفةَ يومَ جمعةٍ . . غُفِرَ لكلِّ أهلِ عرفةَ)(٤) ، وهوَ أفضلُ يومٍ في الدنيا ، وفيهِ حجَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حجَّةَ الوداعِ ، وكانَ واقفاً إذْ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

= (١/ ١٥١) ، ورواه مسلسلاً بالمكيين الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٤/ ٢٧٢) ، ورواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ٨) من كلام حسان بن عطية .

(١) لفظ المصنف لهـٰذا الحديث عند صاحب « القوت » (٢/ ١١٩) ، وهو موقوف علىٰ سيدنا علي رضي الله عنه كما رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٢١٨) بلفظ : (استكثروا من الطواف بهـٰذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه ، فكأني أنظر إليه حبشياً أصيلع أصيمع قائماً عليها يهدمها بمسحاته) ، فالرواية للقطعة الأولىٰ منه .

(٢) كذا هو لفظ الحديث عند صاحب « القوت » (٢/ ١١٩) ، وقال : (روي ذلك عن الحسن بن علي ، قاله لأصحابه ، ورفعه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وأوله عند الترمذي (٩٥٩) ، وحديث الطواف في المطر عند ابن ماجه (٣١١٨) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .

وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ ، قالَ أهلُ الكتابِ : لوْ أنزلتْ هٰذهِ الآيةُ علينا . . لجعلناها يومَ عيدٍ ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : أشهدُ لقدْ أنزلتْ هذهِ الآيةُ في يومِ عيدينِ اثنينِ ؛ يومَ عرفةَ ويومَ جمعةٍ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ واقفٌ بعرفةَ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ للحاجِّ ولمَنِ استغفرَ لهُ الحاجُّ »[2] .

ورُوِيَ أنَّ عليَّ بنَ الموفقِ حجَّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حججاً ، قالَ : فرأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ لي : يا بنَ الموفقِ ؛ حججتَ عنِّي ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : ولبَّيتَ عنِّي ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : فإنِّي أكافئُكَ بها يومَ القيامةِ ؛ آخذُ بيدِكَ في الموقفِ ، فأدخلُكَ الجنَّةَ والخلائقُ في كرْبِ الحسابِ[3] .

وقالَ مجاهدٌ وغيرُهُ مِنَ العلماءِ : (إنَّ الحاجَّ إذا قدموا مكَّةَ . . تلقتْهُمُ الملائكةُ ، فسلَّموا علىٰ ركبانِ الإبلِ ، وصافحوا ركبانَ الحُمُرِ ، واعتنقوا المشاةَ اعتناقاً)[4] .

---

(١) كما في « البخاري » (٤٥) ، ومسلم (٣٠١٧) .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٥٨٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٤١) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢١) .
(٤) روىٰ نحوه البيهقي مرفوعاً في « الشعب » (٣٨٠٥) ، ورواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٢/ ٢٧٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وعن مجاهد ذكره أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (٢/ ١٢٠) ، وأما استعمال لفظ (الحاجّ) مع إرادة الجمع . . =

وقالَ الحسنُ : (مَنْ ماتَ عَقيبَ رمضانَ أَوْ عَقيبَ غزوٍ أوْ عقيبَ حجٍّ . . ماتَ شهيداً)(١) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (الحاجُّ مغفورٌ لهُ ولمَنِ استغفرَ لهُ في شهرِ ذي الحجَّةِ والمحرَّمِ وصفرٍ وعشرٍ مِنْ ربيعِ الأوَّلِ)(٢) .

وقدْ كانَ مِنْ سنَّةِ السلفِ أنْ يشيِّعُوا الغزاةَ ، وأنْ يستقبلوا الحاجَّ ، ويقبِّلُوا بينَ أعينِهِمْ ، ويسألوهُمُ الدعاءَ لهُمْ ، ويبادرونَ ذلكَ قبلَ أنْ يتدنَّسوا بالآثامِ(٣) .

ويُروَىٰ عنْ عليِّ بنِ الموفقِ قالَ : (حججتُ سنةً ، فلمَّا كانَ ليلةُ عرفةَ . . نمتُ بمنىً في مسجدِ الخَيْفِ ، فرأيتُ في المنامِ كأنَّ ملكينِ قدْ نزلا مِنَ السماءِ عليهما ثيابٌ خضْرٌ ، فنادىٰ أحدُهُما صاحبَهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ فقالَ الآخرُ : لبيكَ يا عبدَ اللهِ ؛ قالَ : تدري كمْ حجَّ بيتَ ربِّنا عزَّ وجلَّ في هٰذهِ

= فإما أن يكون كالجامل والباقر ، وهو يطلق علىٰ جماعة الجمال والبقر مع رعاتها ، فهو اسم جمع ، وإما أن يراد به الجنس ، وعليه يجري قولهم : أقبل الحاجُّ والداجُّ ؛ فالحاجُّ : الذين يحجون ، والداجُّ : أعوانهم .

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤/ ٢٧٥) : (ويوجد في بعض نسخ الكتاب : « وعشرين من ربيع الأول » واغترَّ به المناوي فنقله في « شرح الجامع » [١/ ٤٣٧] هٰكذا نقلاً عن الكتاب ، وهو وهم ، والصواب ما تقدم) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .

السنةِ ؟ قالَ : لا أدري ، قالَ : حجَّ بيتَ ربِّنا ستُّ مئةِ ألفٍ ، فتدري كمْ قُبِلَ منهم ؟ قالَ : لا ، قالَ : قُبِلَ منهُمْ ستَّةُ أنفسٍ .

قال : ثمَّ ارتفعا في الهواءِ ، فغابا عنِّي ، فانتبهتُ فزعاً ، واغتممْتُ غمّاً شديداً ، وأهمَّني أمري ، فقلتُ : إذا قُبِلَ حجُّ ستَّةِ أنفسٍ . . فأينَ أكونُ أنا في ستَّةِ أنفسٍ ؟

فلما أفضتُ مِنْ عرفةَ . . قمتُ عندَ المشعرِ الحرامِ ، فجعلتُ أفكِّرُ في كثرةِ الخلْقِ وفي قلَّةِ مَنْ قُبِلَ منهُمْ ، فحملني النومُ ، فإذا الشخصانِ قدْ نزلا علىٰ هيئتِهما ، فنادىٰ أحدُهما صاحبَهُ ، وأعادَ ذلكَ الكلامَ بعينِهِ ثمَّ قالَ : أتدري ماذا حَكَمَ ربُّنا عزَّ وجلَّ في هـٰذهِ الليلةِ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإنَّهُ وَهَبَ لكلِّ واحدٍ مِنَ الستةِ مئةَ ألفٍ . قالَ : فانتبهتُ وبي مِنَ السرورِ ما يجلُّ عنِ الوصفِ)[1] .

وعنهُ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً أنَّهُ قالَ : (حججتُ سنةً ، فلمَّا قضيتُ مناسكي . . تفكرْتُ فيمَنْ لا يُتقبَّلُ حجُّهُ ، فقلتُ : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ وهبتُ حجتي وجعلتُ ثوابَها لمنْ لا يُتقبَّلُ حجُّهُ ، قالَ : فرأيتُ ربَّ العزَّةِ جلَّ جلالُهُ في النومِ ، فقالَ لي : يا عليُّ ؛ تتسخَّىٰ عليَّ وأنا خلقتُ السخاءَ والأسخياءَ ، وأنا أجودُ الأجودينَ ، وأكرمُ الأكرمينَ ، وأحقُّ بالجودِ والكرمِ مِنَ العالمينَ ؟! قدْ وهبتُ كلَّ مَن لمْ أقبلْ حجَّهُ لمَنْ قبلتُهُ)[2] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢١) .

فضيلة البيت ومكة حرسها الله

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ قدْ وعدَ هٰذا البيتَ أنْ يحجَّهُ في كلِّ سنةٍ ستُّ مئةِ ألفٍ ، فإنْ نقصوا .. أكملَهُمُ اللهُ تعالىٰ بالملائكةِ ، وإنَّ الكعبةَ تحشرُ كالعروسِ المزفوفةِ ، وكلُّ مَنْ حجَّها يتعلَّقُ بأستارِها يسعونَ حولَها حتىٰ تدخلَ الجنَّةَ ، فيدخلونَ معَها »[1] .

وفي الخبرِ : « إنَّ الحجرَ الأسودَ ياقوتةٌ مِنْ يواقيتِ الجنَّةِ ، وإنَّهُ يبعثُ يومَ القيامةِ لهُ عينانِ ولسانٌ ينطقُ بهِ ، يشهدُ لمَنِ استلمَهُ بحقٍّ وصدْقٍ »[2] .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبِّلُهُ كثيراً[3] ، ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ

---

(1) كذا في « القوت » (٢/١٢١) ، وقد رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (١/٤٣٦) عن أبي بكر ـ شك في رفعه ـ بلفظ : « تحشر الكعبة إلىٰ بيت المقدس متعلقاً بأستارها كل من حج واعتمر » ، وفي رواية : (إن الكعبة تحشر يوم القيامة إلىٰ بيت المقدس تزف زف العروس ، متعلق بها من حج إليها ، فتقول الصخرة : مرحباً بالزائر والمزور) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (١/٣٢٩) : (وأخرج الواسطي عن كعب قال : لا تقوم الساعة حتىٰ يزف البيت الحرام إلىٰ بيت المقدس ، فينقادان إلى الجنة وفيهما أهلهما ، والعرض والحساب ببيت المقدس) .

(2) رواه الترمذي (٩٦١) بلفظ : « والله ؛ ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به ، يشهد علىٰ من استلمه بحق » ، وله (٨٧٨) أيضاً : « إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ، ولو لم يطمس نورهما .. لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب » .

(3) تقبيله صلى الله عليه وسلم للحجر عند البخاري (١٥٩٧) ، ومسلم (١٢٧٠) .

عليهِ وسلَّمَ سجدَ عليهِ[1] ، وكانَ يطوفُ على الراحلةِ ، فيضعُ المحجَنَ عليهِ ثمَّ يقبِّلُ طرفَ المحجَنِ[2] .

وقبَّلَهُ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ثمَّ قالَ : (إنِّي لأعلَمُ أنَّكَ حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ ، ولولا أنِّي رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقبلُكَ . . ما قبلتُكَ)[3] ، ثمَّ بكىٰ حتَّىٰ علا نشيجُهُ ، فالتفتَ إلىٰ ورائِهِ فرأىٰ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : يا أبا الحسنِ ؛ هٰهنا تسكبُ العبراتُ ، فقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ بلْ هوَ يضرُّ وينفعُ ، قالَ : وكيفَ ؟ قالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا أخذَ الميثاقَ على الذريَّةِ . . كتبَ عليهِمْ كتاباً ثمَّ ألقمَهُ هٰذا الحجرَ ، فهوَ يشهدُ للمؤمنِ بالوفاءِ ، ويشهدُ على الكافرِ بالجحودِ[4] .

قيلَ : فذلكَ هوَ معنىٰ قولِ الناسِ عندَ الاستلامِ : اللهمَّ ؛

---

(١) كما روىٰ ذلك الدارقطني في « سننه » (٢/ ٢٨٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٧٣) .

(٢) كما روىٰ ذلك مسلم (١٢٧٥) .

(٣) رواه البخاري (١٥٩٧) ، ومسلم (١٢٧٠) وسبق .

(٤) روىٰ هٰذه الزيادة الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٢٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٥٧) وزادا : (فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا با الحسن) بحذف الهمزة من الأب تخفيفاً وهو مستعمل ، وقوله : (تسكب العبرات) جاء رواية لابن ماجه (٢٩٤٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر ، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً ، ثم التفت فإذا هو بعمر بن الخطاب ، فقال : « يا عمر ؛ هٰهنا تسكب العبرات » ، ولفظ المصنف وسياقه من « القوت » (٢/ ١٢١) .

إيماناً بكَ ، وتصديقاً بكتابِكَ ، ووفاءً بعهدِكَ[١] .

ورُوِيَ عنِ الحسنِ البصريِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ صومَ يومٍ فيها بمئةِ ألفِ يومٍ ، وصدقةَ درهمٍ بمئةِ ألفِ درهمٍ ، وكذلكَ كلُّ حسنةٍ بمئةِ ألفٍ[٢] .

ويقالُ : طوافُ سبعةِ أسابيعَ يعدلُ عمرةً ، وثلاثُ عُمَرٍ تعدلُ حجَّةً[٣] .

وفي الخبرِ الصحيحِ عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عمرةٌ في رمضانَ كحجَّةٍ معي »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا أوَّلُ مَنْ تنشقُ عنهُ الأرضُ ، ثمَّ آتي أهلَ البقيعِ ، فيحشرونَ معي ، ثمَّ آتي أهلَ مكَّةَ فأُحْشَرُ بينَ الحرمينِ »[٥] .

وفي الخبرِ : (إنَّ آدمَ عليهِ السلامُ لمَّا قضىٰ مناسكَهُ . لقيتْهُ الملائكةُ ، فقالوا : بُرَّ حجُّكَ يا آدمُ ؛ لقدْ حججْنا هـٰذا البيتَ قبلَكَ بألفي عامٍ)[٦] .

وجاءَ في الأثرِ : إنَّ اللهَ تعالىٰ ينظرُ في كلِّ ليلةٍ إلىٰ أهلِ الأرضِ ، فأوَّلُ مَنْ ينظرُ إليهِ أهلُ الحرمِ ، وأوَّلُ مَنْ ينظرُ إليهِ مِنْ أهلِ الحرمِ أهلُ المسجدِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢١) ، والدعاء مروي عن جمع من السلف . انظر « خلاصة البدر المنير » (٢/ ٨) .
(٢) ذكره في « قوت القلوب » (٢/ ١٢١) عن ابن عباس وأنس والحسن متفرقاً .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٠) .
(٤) رواه البخاري (١٧٨٢) ، ومسلم (١٢٥٦) .
(٥) رواه الترمذي (٣٦٩٢) وفيه : « ثم أنتظر أهل مكة حتىٰ أُحشرَ بين الحرمين » .
(٦) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ١٦) عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق بلاغاً ، والبيهقي في « الشعب » (٣٧٠٣) عن وهب بن منبه بنحوه .

الحرامِ ، فمنْ رآهُ طائفاً . . غفرَ لهُ ، ومَنْ رآهُ مصلِّياً . . غفرَ لهُ ، ومَنْ رآهُ نائماً مستقبلَ القبلةَ . . غفرَ لهُ(١) .

وكُوشفَ بعضُ الأولياءِ رضيَ اللهُ عنهمْ ، قالَ : (إنِّي رأيتُ الثغورَ كلَّها تسجدُ لعَبَّادانِ ، ورأيتُ عبَّادانَ ساجدةً لجُدَّةَ)(٢) .

ويقالُ : (لا تغربُ الشمسُ مِنْ يومٍ إلا ويطوفُ بهـٰذا البيتِ رجلٌ مِنَ الأبدالِ ، ولا يطلعُ الفجرُ مِنْ ليلةٍ إلا طافَ بهِ واحدٌ مِنَ الأوتادِ ، وإذا انقطعَ ذلكَ . . كانَ سببَ رفعِهِ مِنَ الأرضِ ، فيصبحُ الناسُ وقدْ رفعتِ الكعبةُ لا يُرىٰ لها أثرٌ وهـٰذا إذا أتىٰ عليها سبعُ سنينَ . . لمْ يحجَّها أحدٌ ، ثمَّ يرفعُ القرآنُ مِنَ المصاحفِ ، فيصبحُ الناسُ فإذا الورقُ أبيضُ يلوحُ ليسَ فيهِ حرفٌ ، ثم ينسخُ القرآنُ مِنَ القلوبِ ، فلا يذكرُ منهُ كلمةٌ ، ثمَّ يرجعُ الناسُ إلى الأشعارِ والأغاني وأخبارِ الجاهليةِ ، ثمَّ يخرجُ الدجالُ ، وينزلُ عيسىٰ عليهِ السلامُ فيقتلُهُ ، والساعةُ عندَ ذلكَ بمنزلةِ الحاملِ المقربِ يتوقعُ ولادُها)(٣) .

وفي الخبرِ : « استكثروا مِنَ الطوافِ بهـٰذا البيتِ قبلَ أنْ يرفعَ ، فقدْ هدمَ مرتينِ ويرفعُ في الثالثةِ »(٤) .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢١) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢١) ، وعبَّادان ـ بالتشديد والتثنية ـ : اسم بلد هو اليوم في جنوب العراق في شط العرب ، وقال أبو طالب معللاً ذلك عقب الخبر : (لأنها ـ أي : جُدة ـ خزانة الحرم ، وفرضة أهل المسجد الحرام) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٧٥٣) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٤١) ، =

ورُوِيَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : إذا أردتُ أنْ أخربَ الدنيا . . بدأتُ ببيتي فخرَّبتُهُ ، ثمَّ أخربُ الدنيا علىٰ أثرِهِ »(١) .

* * *

= والبزار في « مسنده » (٦١٥٧) .

(١) قال صاحب « القوت » (٢/ ١٢٢) : (وروينا في حديث أبي رافع عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، وخراب البيت آخرَ الزمان علىٰ يد ذي السويقتين من الحبشة ثابت كما في « البخاري » (١٥٩١) ، و« مسلم » (٢٩٠٩) ، وهو نذير خراب الدنيا أجمع .

فضيلة المقام بمكة المكرمة حرسها الله تعالى وكراهته

كرهَ الخائفونَ المحتاطونَ مِنَ العلماءِ المُقامَ بمكةَ لمعانٍ ثلاثةٍ :

أحدُها : خوفُ التبرُّمِ والأُنْسِ بالبيتِ ؛ فإنَّ ذلكَ ربما يؤثِّرُ في تسكينِ حرقةِ القلبِ في الاحترامِ ، ولهٰذا كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يضربُ الحجَّاجَ إذا حجُّوا ويقولُ : (يا أهلَ اليمنِ يمنكُمْ ، ويا أهلَ الشامِ شامَكُمْ ، ويا أهلَ العراقِ عراقَكُمْ)[١] ، ولذلكَ همَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بمنعِ الناسِ مِنْ كثرةِ الطوافِ وقالَ : (خشيتُ أنْ يأنسَ الناسُ بهٰذا البيتِ) .

الثاني : تهييجُ الشوقِ بالمفارقةِ لتنبعثَ داعيةُ العوْدِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ البيتَ مثابةً للناسِ وأمناً ؛ أي : يثوبونَ ويعودونَ إليهِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، ولا يقضونَ منهُ وطراً .

وقالَ بعضُهُمْ : (لأَنْ تكونَ في بلدٍ وقلبُكَ مشتاقٌ إلىٰ مكَّةَ متعلِّقٌ بهٰذا البيتِ . خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تكونَ فيهِ وأنتَ متبرِّمٌ بالمُقامِ وقلبُكَ في بلدٍ آخرَ)[٢] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (كمْ مِنْ رجلٍ بخراسانَ وهوَ أقربُ إلىٰ هٰذا البيتِ ممَّنْ يطوفُ بهِ)[٣] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٣٤٧٠) عنه قال : (لا تقيموا بعد النفر إلا ثلاثاً) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) .

ويُقالُ : إنَّ للهِ تعالىٰ عباداً تطوفُ بهمُ الكعبةُ تقرُّباً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[(١)] .

الثالثُ : الخوفُ مِنْ ركوبِ الخطايا والذنوبِ بها ؛ فإنَّ ذلكَ مخطرٌ ، وبالحريِّ أنْ يورثَ مقتَ اللهِ عزَّ وجلَّ لشرفِ الموضعِ[(٢)] .

ورُوِيَ عنْ وهيبِ بنِ الوردِ المكِّيِّ قالَ : كنتُ ذاتَ ليلةٍ في الحِجْرِ أُصلِّي ، فسمعتُ كلاماً بينَ الكعبةِ والأستارِ يقولُ : إلى اللهِ أشكو ثمَّ إليكَ يا جبريلُ ما ألقىٰ مِنَ الطائفينَ حولي ؛ مِنْ تفكُّهِهِمْ في الحديثِ ولغوِهِمْ ولهوِهِمْ ، لئنْ لمْ ينتهوا عنْ ذلكَ . . لأنتفضنَّ انتفاضةً يرجعُ كلُّ حجرٍ منِّي إلى الجبلِ الذي قطعَ منهُ[(٣)] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : ما مِنْ بلدٍ يؤاخذُ العبدُ فيه بالهمَّةِ قبلَ العملِ إلا مكةَ ، وتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي : إنَّهُ علىٰ مجرَّدِ الإرادةِ[(٤)] .

ويقالُ : (إنَّ السيئاتِ تضاعفُ بها كما تضاعفُ الحسناتُ)[(٥)] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) ، وانظر « تفسير الآلوسي » (٢٣/ ١٤ـ ١٥) .

(٢) وقد روى الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول لقريش : (يا معشر قريش ؛ الحقوا بالأرياف ، فهو أعظم لأخطاركم ، وأقل لأوزاركم) .

(٣) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٣) .

(٤) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٧) .

(٥) وفي ذلك أخبار ، منها ما رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٨) عن ابن جريج قال : (بلغني أن الخطيئة بمكة بمئة خطيئة ، والحسنة علىٰ نحو ذلك) .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (الاحتكارُ بمكَّةَ مِنَ الإلحادِ في الحرمِ)[١] .

وقيلَ : (الكذبُ أيضاً)[٢] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (لأنْ أذنبَ سبعينَ ذنباً برُكْبَةَ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أذنبَ ذنباً واحداً بمكَّةَ)[٣] ، ورُكْبَةُ : منزلٌ بينَ مكَّةَ والطائفِ[٤] .

ولخوفِ ذلكَ انتهىٰ بعضُ المقيمينَ إلىٰ أنْ لمْ يقضِ حاجتَهُ في الحرمِ ، بلْ كانَ يخرجُ إلى الحلِّ عندَ قضاءِ الحاجةِ[٥] ، وبعضُهُمْ أقامَ شهراً وما وضَعَ جنبَهُ على الأرضِ[٦] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١١٩) ، وروىٰ نحوه الأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٦) عن عمر وابنه رضي الله عنهما .

(٢) أي : من الإلحاد في مكة الكذب كذلك ، والقول في « القوت » (٢/ ١١٩) ، والسياق له .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٥/ ٢٨) ، والأزرقي في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٥ ، ١٢٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكذا هو عن عمر في «القوت» (٢/ ١١٩).

(٤) معجم البلدان (٣/ ٦٣) ، بضم الراء وسكون الكاف .

(٥) روي ذلك عن جمعٍ ، منهم كما ذكر صاحب « القوت » (٢/ ١١٩) : عبد الله بن عمر ، وعمر بن عبد العزيز ، ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص كما في « أخبار مكة » (٢/ ١٢٣) للأزرقي ، ونقل البيهقي في « الشعب » (٣٧٢٩) عن محمد بن إبراهيم الزجاجي أنه بقي أربعين عاماً في الحرم لا يبول ولا يتغوط ، بل يخرج إلى الحل .

(٦) ومرجع هـٰذا كله لحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه ابن ماجه (٣١١٠) : « لا تزال هـٰذه الأمة بخير ما عظموا هـٰذه الحرمة ـ أي : الكعبة ـ حق تعظيمها ، فإذا ضيعوا ذلك . . هلكوا » .

وللمنعِ مِنَ الإقامةِ كرهَ بعضُ العلماءِ أجورَ دورِ مكَّةَ[١] .

ولا تظنَّنَّ أَنَّ كراهةَ المُقامِ يناقضُ فضْلَ البقعةِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ كراهةٌ علَّتُها ضعْفُ الخلْقِ وقصورُهُمْ عنِ القيامِ بحقِّ الموضِعِ ، فمعنىٰ قولِنا : (إنَّ تركَ المُقامِ بها أفضلُ) أي : بالإضافةِ إلىٰ مُقامٍ معَ التقصيرِ والتبرُّمِ ، أمَّا أنْ يكونَ أفضلَ مِنَ المُقامِ معَ الوفاءِ بحقِّهِ . . فهيهاتَ ، وكيفَ لا ولمّا عادَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ مكَّةَ . . استقبلَ الكعبةَ وقالَ : « إنَّكِ لخيرُ أرضِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأحبُّ بلادِ اللهِ تعالىٰ إليَّ ، ولولا أنِّي أُخرجتُ منْكِ . . ما خرجتُ » ؟![٢] ، وكيفَ لا والنظرُ إلى البيتِ عبادةٌ ، والحسناتُ فيها مضاعفةٌ كما ذكرناهُ ؟!

* * *

(١) وقد روى الفاكهي في « أخبار مكة » (٣/ ٢٤٧) عن مجاهد حديثاً مرسلاً : « إن مكة حرام ، حرمها الله تعالىٰ ، لا يحل بيع رباعها ـ جمع رَبْع ؛ مكان القوم ـ ولا أجور بيوتها » .

(٢) رواه الترمذي (٣٩٢٥) ، وابن ماجه (٣١٠٨) .

فضيلة مدينة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على سائر البلاد

ما بعدَ مكَّةَ بقعةٌ أفضلَ مِنْ مدينةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فالأعمالُ فيها أيضاً مضاعفةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةٌ في مسجدي هـٰذا خيرٌ مِنْ ألفِ صلاةٍ فيما سواهُ إلا المسجدَ الحرامَ »(١) .

وكذلكَ كلُّ عملٍ بالمدينةِ بألفٍ ، وبعدَ المدينةِ الأرضُ المقدسةُ ؛ فإنَّ الصلاةَ فيها بخمسِ مئةِ صلاةٍ فيما سواها ، وكذلكَ سائرُ الأعمالِ ، وروى ابنُ عباسٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « صلاةٌ في مسجدِ المدينةِ بعشرةِ آلافِ صلاةٍ ، وصلاةٌ في المسجدِ الأقصىٰ بألفِ صلاةٍ ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ بمئةِ ألفِ صلاةٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يصبرُ علىٰ شدَّتِها ولأوائِها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامةِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استطاعَ أنْ يموتَ بالمدينةِ . .

---

(١) رواه البخاري (١١٩٠) ، ومسلم (١٣٩٤) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/١٢٣) وقال : (روينا عن عطاء عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم. . .) وذكره بلفظه هنا ، وكون الصلاة بألف في بيت المقدس هو عند ابن ماجه (١٤٠٧) ، ولفظه مرفوعاً وقد سئل عن بيت المقدس : « أرض المحشر والمنشر ، ائتوه فصلوا فيه ، فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره » .

(٣) رواه مسلم (١٣٦٣) .

فليمتْ ؛ فإنَّهُ لنْ يموتَ بها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامةِ »[1] .

وما بعدَ هـٰذهِ البقاعِ الثلاثةِ فالمواضعُ فيها متساويةٌ إلا الثغورَ ؛ فإنَّ المُقامَ بها للمرابطةِ فيها فيهِ فضلٌ عظيمٌ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تشدُّ الرحالُ إلا إلىٰ ثلاثةِ مساجدَ ؛ المسجدِ الحرامِ ، ومسجدي هـٰذا ، والمسجدِ الأقصىٰ »[2] .

وقدْ ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى الاستدلالِ بهـٰذا الحديثِ في المنعِ مِنَ الرحلةِ لزيارةِ المشاهدِ وقبورِ العلماءِ والصلحاءِ ، وما تبيَّنَ لي أنَّ الأمرَ كذلكَ ، بلِ الزيارةُ مأمورٌ بها ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كنتُ نهيتُكُمْ عنْ زيارةِ القبورِ ، فزورُوها ولا تقولوا هُجْراً »[3] .

والحديثُ إنَّما وردَ في المساجدِ ، وليسَ في معناها المشاهدُ ؛ لأنَّ المساجدَ بعدَ المساجدِ الثلاثةِ متماثلةٌ ، ولا بلدَ إلا وفيهِ مسجدٌ ، فلا معنىٰ للرحلةِ إلىٰ مسجدٍ آخرَ ، وأمَّا المشاهدُ . . فلا تتساوىٰ ، بلْ بركةُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٩١٧) ، وابن ماجه (٣١١٢) .

(٢) رواه البخاري (١١٨٩) ، ومسلم (١٣٩٧) ، والاستثناء مفرغ ـ ولمسلم من طريق الزهري : « تشدُّ الرحال إلىٰ ثلاثة مساجد » دون نفي واستثناء ـ **والمراد** : لا يسافر لمسجد للصلاة فيه إلا لهـٰذه الثلاثة ، لا أنه لا يسافر أصلاً إلا لها ، والنهي للتنزيه عند الجمهور . « إتحاف » (٤/ ٢٨٥) .

(٣) رواه مسلم (٩٧٧) ، وأورده المصنف هنا بزيادة : « ولا تقولوا هُجْراً » ، ورواها النسائي (٤/ ٨٩) ، **والهُجْر** : القول الفاحش الذي ينافي مقام التذكُّر والعبرة عند الزيارة .

زيارتِها علىٰ قدْرِ درجاتِهِمْ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

نعم ؛ لوْ كانَ في موضعٍ لا مسجدَ فيهِ . . فلهُ أنْ يشدَّ الرحالَ إلىٰ موضعٍ فيهِ مسجدٌ ، وينتقلُ إليهِ بالكليَّةِ إنْ شاءَ .

ثمَّ ليتَ شعري ؛ هلْ يمنعُ هٰذا القائلُ مِنْ شدِّ الرحالِ إلىٰ قبورِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ مثلِ إبراهيمَ وموسىٰ ويحيىٰ وغيرِهِمْ عليهمُ السلامُ ؟!

فالمنعُ مِنْ ذلكَ في غايةِ الإحالةِ ، وإذا جوَّزَ هٰذا . . فقبورُ الأولياءِ والعلماءِ والصلحاءِ في معناها ، فلا يبعدُ أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ أغراضِ الرحلةِ ، كما أنَّ زيارةَ العلماءِ في الحياةِ مِنَ المقاصدِ . **هٰذا في الرحلةِ** .

* * *

أمَّا المُقامُ : فالأولىٰ بالمريدِ أنْ يلازمَ مكانَهُ إذا لمْ يكنْ قصدُهُ مِنَ السفرِ استفادةَ العلمِ مهما سَلِمَ لهُ حالُهُ في وطنِهِ ، فإنْ لمْ يسلمْ . . فليطلبْ مِنَ المواضعِ ما هوَ أقربُ إلى الخمولِ ، وأسلمُ للدينِ ، وأفرغُ للقلبِ ، وأيسرُ للعبادةِ ، فهوَ أفضلُ المواضعِ لهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « البلادُ بلادُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والخلقُ عبادُهُ ، فأيُّ موضعٍ رأيتَ فيهِ رِفْقاً . . فأقمْ واحمدِ اللهَ تعالىٰ »(١) .

وفي الخبرِ : « مَنْ رزقَ مِنْ شيءٍ . . فليلزمْهُ ، ومَنْ جعلتْ معيشتُهُ في

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » (١/١٦٦) بنحوه .

شيءٍ . . فلا ينتقلْ عنهُ حتَّىٰ يتغيَّرَ عليهِ »(١) .

وقالَ أبو نعيمٍ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ وقدْ جعلَ جرابَهُ علىٰ كتفِهِ وأخذَ قُلَّتَهُ بيدِهِ ، فقلتُ : إلىٰ أينَ يا أبا عبدِ اللهِ ؟ قالَ : إلىٰ بلدٍ أملأُ فيهِ جرابي بدرْهمٍ .

وفي حكايةٍ أخرىٰ : بلغني أنَّ قريةً فيها رخصٌ أقيمُ بها ، قالَ : فقلتُ : وتفعلُ هـٰذا يا أبا عبدِ اللهِ ؟! فقالَ : نعمْ ، إذا سمعتَ في بلدٍ برخصٍ . . فاقصدْهُ ؛ فإنَّهُ أسلمُ لدينِكَ وأقلُّ لهمِّكَ(٢) .

وكانَ يقولُ : (هـٰذا زمانُ سوءٍ ، لا يؤمنُ فيهِ على الخاملينَ ، فكيفَ بالمشهورينَ ؟! هـٰذا زمانُ تنقُّلٍ يتنقلُ الرجلُ مِنْ قريةٍ إلىٰ قريةٍ يفرُّ بدينِهِ مِنَ الفتنِ)(٣) .

---

(١) أوله عند ابن ماجه (٢١٤٧) بلفظ : « من أصاب من شيء . . فليلزمه » ، وتمامه عنده كذلك (٢١٤٨) عن نافع بن عطاء قال : كنت أجهز إلى الشام وإلىٰ مصر ، فجهزت إلى العراق ، فأتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : يا أم المؤمنين ؛ كنت أجهز إلى الشام ، فجهزت إلى العراق ، فقالت : لا تفعل ، ما لك ولمتجرك ؟! فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سبَّبَ الله لأحدكم رزقاً من وجه . . فلا يدعه حتىٰ يتغيَّرَ له أو يتنكَّرَ له » .

(٢) أبو نعيم هو الفضل بن دكين ، والخبر في « القوت » (٢/ ١٢٣) ، **والمراد ببلد يُملأ فيها الجراب بدرهم** : انتشار الرخص فيها حتىٰ لا يحتاج إلىٰ إشغال قلبه بكثرة التسبب وطلب القوت ، ولم يترجم المصنف لسفيان رحمه الله تعالىٰ عندما ترجم للمجتهدين الأربعة ، وكان قد وعد بذكر شيء من أخباره هناك ، وهنا سيذكر طرفاً من ذلك .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٢٣) .

ويُحكىٰ عنهُ أنَّهُ قالَ : واللهِ ؛ ما أدري أيَّ البلادِ أسكنُ ؟! فقيلَ لهُ : خُراسانَ ، فقالَ : مذاهبُ مختلفةٌ وآراءٌ فاسدةٌ ، قيلَ : فالشامَ ، قالَ : يشارُ إليكَ بالأصابعِ ـ أرادَ الشهرةَ ـ قيلَ : فالعراقَ ، قالَ : بلدُ الجبابرةِ ، قيلَ : مكةَ ، قالَ : مكةُ تذيبُ الكِيسَ والبدنَ(١) .

وقالَ لهُ رجلٌ غريبٌ : عزمتُ على المجاورةِ بمكَّةَ فأوصني ، قالَ : أوصيكَ بثلاثٍ : لا تصلينْ في الصفِّ الأوَّلِ ، ولا تصحبنْ قرشيّاً ، ولا تُظْهِرَنْ صدقةً(٢) .

وإنما كرهَ الصفَّ الأوَّلَ لأنَّهُ يُشتهرُ ، فيفتقدُ إذا غابَ ، فيختلطُ بعملِهِ التزيُّنُ والتصنُّعُ .

* * *

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) ، ومعنىٰ (**تذيب الكيس والبدن**) : لما فيها من الغلاء في أكثر الأوقات ؛ لأنها بواد غير ذي زرع ، وذوبان البدن يكون بالمجاهدة في الطاعة والقيام بواجبها . انظر « الإتحاف » (٤/ ٢٨٧) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٢٢) ، ونسب الحافظ الزبيدي هـٰذه الروايات لصاحب « الحلية » كذلك . انظر « الإتحاف » (٤/ ٢٨٧ـ ٢٨٨) .

الفَصْلُ الثَّاني
في شروط وجوب الحجّ وصحّته وأركانه وواجباته ومحظوراته

في شروط الحجّ

أمَّا الشرائطُ : فشرطُ صحَّةِ الحجِّ اثنانِ : **الوقتُ** ، **والإسلامُ** .

فيصحُّ حجُّ الصبيِّ ، ويُحرِمُ بنفسِهِ إنْ كانَ مميِّزاً ويُحرِمُ عنهُ وليُّهُ إنْ كانَ صغيراً ، ويفعلُ بهِ ما يفعلُ في الحجِّ ؛ مِنَ الطوافِ والسعيِ وغيرِهِ .

وأمَّا الوقتُ : فهوَ شوالٌ وذو القعدةِ وتسعٌ مِنْ ذي الحجَّةِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ مِنْ يومِ النحرِ ، فمَنْ أحرمَ بالحجِّ في غيرِ هـٰذهِ المدَّةِ . . فهيَ عمرةٌ .

وجميعُ السنةِ وقتُ العمرةِ ، ولكنْ مَنْ كانَ معكوفاً على النسكِ أيامَ منىً . . فلا ينبغي أنْ يحرمَ بالعمرةِ ، لأنَّهُ لا يتمكَّنُ مِنَ الاشتغالِ عَقيبَه لاشتغالِهِ بأعمالِ منىً .

وأمَّا شروطُ وقوعِهِ عنْ حجةِ الإسلامِ . . فخمسةٌ :

الإسلامُ ، والحريةُ ، والبلوغُ ، والعقلُ ، والوقتُ .

فإنْ أحرمَ الصبيُّ أَوِ العبدُ ولكنْ عَتَقَ العبدُ وبلغَ الصبيُّ بعرفةَ أَوْ بمزدلفةَ وعادَ إلىٰ عرفةَ قبلَ طلوعِ الفجرِ . . أجزأَهُما عنْ حجَّةِ الإسلامِ ؛ لأنَّ الحجَّ عرفةُ ، وليسَ عليهما دمُ الإساءةِ .

وتُشترَطُ هـٰذهِ الشرائطُ في وقوعِ العمرةِ عنْ فرضِ الإسلامِ إلا الوقتَ .

وأمّا شرطُ وقوعِ الحجِّ نفلاً عنِ الحرِّ البالغِ :

فهوَ براءةُ ذمتِهِ عنْ حجَّةِ الإسلامِ ، فحجُّ الإسلامِ متقدمٌ ، ثمَّ القضاءُ لمَنْ أفسدَهُ في حالةِ الرقِّ ، ثمَّ النذرُ ، ثمَّ النيابةُ ، ثمَّ النفلُ ، وهـٰذا الترتيبُ مستحقٌّ ، وكذلكَ يقعُ وإنْ نوىٰ خلافَهُ .

وأمّا شرائطُ لزومِ الحجِّ . . فخمسةٌ :

الإسلامُ ، والبلوغُ ، والعقلُ ، والحريةُ ، والاستطاعةُ .

ومَنْ لزمَهُ فرضُ الحجِّ . . لزمَهُ فرضُ العمرةِ ، ومَنْ أرادَ دخولَ مكَّةَ لزيارةٍ أَوْ تجارةٍ ولمْ يكنْ حطَّاباً . . لزمَهُ الإحرامُ علىٰ قولٍ ، ثمَّ يتحلَّلُ بعملِ عمرةٍ أَوْ حجٍّ .

وأمّا الاستطاعةُ . . فنوعانِ :

أحدُهُما : المباشرةُ : وذلكَ لهُ أسبابٌ :

أمّا في نفسِهِ . . فبالصحةِ .

وأمّا في الطريقِ . . فبأنْ تكونَ خصبةً آمنةً ، بلا بحرٍ مخطرٍ ، ولا عدوٍّ قاهرٍ .

وأمّا في المالِ . . فبأنْ يجدَ نفقةَ ذهابِهِ وإيابِهِ إلىٰ وطنِهِ ، كانَ لهُ أهلٌ أَوْ لمْ يكنْ ؛ لأنَّ مفارقةَ الوطنِ شديدةٌ ، وأنْ يملكَ نفقةَ مَنْ تلزمُهُ نفقتُهُ في هـٰذهِ المدَّةِ ، وأنْ يملكَ ما يقضي بهِ ديونَهُ ، وأنْ يقدرَ علىٰ راحلةٍ ،

أَوْ كرائِها بمَحْمِلٍ ، أَوْ زاملةٍ إنِ استمسكَ على الزاملةِ[1] .

وأمَّا النوعُ الثاني : فاستطاعةُ المعضوبِ بمالِهِ[2] ، وهوَ أنْ يستأجرَ مَنْ يحجُّ عنهُ بعدَ فراغِ الأجيرِ عنْ حجَّةِ الإسلامِ لنفسِهِ ، ويكفي نفقةُ الذهابِ بزاملةٍ في هـٰذا النوعِ .

والابنُ إذا عرضَ طاعتَهُ على الأبِ الزَّمِنِ . . صارَ بهِ مستطيعاً ، ولوْ عرضَ مالَهُ . . لمْ يصرْ بهِ مستطيعاً ؛ لأنَّ الخدمةَ بالبدنِ فيها شرفٌ للولدِ ، وبذلُ المالِ فيهِ منَّةٌ على الوالدِ .

ومَنِ استطاعَ . . لزمَهُ الحجُّ ، ولهُ التأخيرُ ، ولكنَّهُ فيهِ علىٰ خطرٍ ، فإنْ تيسَّرَ لهُ ولوْ في آخرِ عمرِهِ . . سقطَ عنهُ ، وإنْ ماتَ قبلَ الحجِّ . . لقيَ اللهَ عاصياً بترْكِ الحجِّ ، وكانَ الحجُّ في تركتِهِ يُحجُّ عنهُ وإنْ لمْ يوصِ كسائرِ ديونِهِ ، وإنِ استطاعَ في سنةٍ فلمْ يخرجْ معَ الناسِ وهلكَ مالُهُ في تلكَ السنةِ قبلَ حجِّ الناسِ ، ثمَّ ماتَ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ ولا حجَّ عليهِ .

ومَنْ ماتَ ولمْ يحجَّ معَ اليسارِ . . فأمرُهُ شديدٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لقدْ هممتُ أنْ أكتُبَ في الأمصارِ بضربِ الجزيةِ علىٰ

---

(١) أي : إن لم يقدر علىٰ شراء الراحلة . . فقدرته علىٰ أجرتها كافية للوجوب ، **والزاملة** : البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع ولا مَحْمِل له ، **والمحمل** ـ كمنبر ومجلس ـ : الهودج المركّب على البعير .

(٢) **المعضوب** : الضعيف ، **والمراد** : العاجز عن أداء الحج لعلّة وزمانة فيه .

مَنْ لمْ يحجَّ ممَّنْ يستطيعُ إليه سبيلاً)[١] .

وعنْ سعيدِ بنِ جبيرٍ وإبراهيمَ النخعيِّ ومجاهدٍ وطاووسٍ : (لوْ علمتُ رجلاً غنياً وجبَ عليهِ الحجُّ ثمَّ ماتَ قبلَ أنْ يحجَّ . . ما صليتُ عليهِ)[٢] .

وبعضُهُمْ كانَ لهُ جارٌ موسرٌ ، فماتَ ولمْ يحجَّ ؛ فلمْ يصلِّ عليهِ[٣] .

وكانَ ابنُ عباسٍ يقولُ : (مَنْ ماتَ ولمْ يزكِّ ولمْ يحجَّ . . سألَ الرجعةَ إلى الدنيا) وقرأَ قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قالَ : أحجُّ[٤] .

* * *

وأمَّا الأركانُ التي لا يصحُّ الحجُّ دونَها . . فخمسةٌ :

الإحرامُ ، والطوافُ ، والسعيُ بعدَهُ ، والوقوفُ بعرفةَ ، والحلْقُ بعدَهُ علىٰ قولٍ ، وأركانُ العمرةِ كذلكَ إلا الوقوفَ .

* * *

والواجباتُ المجبورةُ بالدمِ ستةٌ : الإحرامُ مِنَ الميقاتِ ، فمَنْ تركَهُ وجاوزَ الميقاتَ محلاً . . فعليهِ شاةٌ ، وأمَّا الرميُ . . ففيهِ الدمُ قولاً واحداً ،

---

(١) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٢/ ٩٢٤) .
(٢) رواها ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٤٦٦٦ ، ١٤٦٦٨) ، وحكاها في « القوت » (٢/ ١١٤) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١١٤) .
(٤) رواه الترمذي (٣٣١٦) .

وأمَّا الصبْرُ بعرفةَ إلىٰ غروبِ الشمسِ ، والمبيتُ بمزدلفةَ ، والمبيتُ بمنىً ، وطوافُ الوداعِ . . فهـٰذهِ الأربعةُ يجبرُ تركُها بالدمِ علىٰ أحدِ القولينِ ، وفي القولِ الثاني : فيها دمٌ علىٰ وجهِ الاستحبابِ .

وأمَّا وجوهُ أداءِ الحجِّ والعمرةِ . . فثلاثةٌ :

الأوَّلُ : **الإفرادُ** : وهوَ الأفضلُ ، وذلكَ أنْ يقدِّمَ الحجَّ وحدَهُ ، فإذا فرغَ . . خرجَ إلى الحلِّ ، فأحرمَ واعتمرَ ، وأفضلُ الحلِّ لإحرامِ العمرةِ الجِعْرَانَةُ ، ثمَّ التنعيمُ ، ثمَّ الحُدَيْبِيَةُ ، وليسَ على المفردِ دمٌ إلا أنْ يتطوَّعَ .

الثاني : **القِرانُ** : وهوَ أنْ يجمعَ فيقولَ : (لبيكَ بحجَّةٍ وعمرةٍ معاً) ، فيصيرُ مُحْرِماً بهما ، ويكفيهِ أعمالُ الحجِّ ، وتندرجُ العمرةُ تحتَ الحجِّ كما يندرجُ الوضوءُ تحتَ الغسلِ ، إلا أنَّهُ إذا طافَ وسعىٰ قبلَ الوقوفِ . . فسعيُهُ محسوبٌ مِنَ النسكينِ ، وأمَّا طوافُهُ . . فغيرُ محسوبٍ ؛ لأنَّ شرطَ طوافِ الفرضِ في الحجِّ أنْ يقعَ بعدَ الوقوفِ ، وعلى القارنِ دمُ شاةٍ ، إلا أنْ يكونَ مكيّاً فلا شيءَ عليهِ ؛ لأنَّهُ لمْ يتركْ ميقاتَهُ ؛ إذْ ميقاتُهُ مكَّةُ .

الثالثُ : **التمتُّعُ** : وهوَ أنْ يجاوزَ الميقاتَ محرماً بعمرةٍ ويتحلَّلَ بمكَّةَ ، ويتمتَّعَ بالمحظوراتِ إلىٰ وقتِ الحجِّ ، ثمَّ يحرمَ بالحجِّ ، ولا يكونُ متمتِّعاً إلا بخمسِ شرائطَ :

أحدُها : ألا يكونَ مِنْ حاضري المسجدِ الحرامِ ، **وحاضرُهُ** : مَنْ كانَ منهُ علىٰ مسافةٍ لا تُقصَرُ فيها الصلاةُ .

الثاني : أنْ يقدِّمَ العمرةَ على الحجِّ .

الثالثُ : أنْ تكونَ عمرتُهُ في أشهرِ الحجِّ .

الرابعُ : ألا يرجعَ إلىٰ ميقاتِ الحجِّ ، ولا إلىٰ مثلِ مسافتِهِ لإحرامِ الحجِّ .

الخامسُ : أنْ يكونَ حجُّهُ وعمرتُهُ عنْ شخصٍ واحدٍ .

فإذا وجدتْ هٰذهِ الأوصافُ . . كانَ متمتِّعاً ، ولزمَهُ دمُ شاةٍ ، فإنْ لمْ يجدْ . . فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ في الحجِّ قبلَ يومِ النحرِ متفرِّقَةٍ أَوْ متتابعةٍ ، وسبعةٍ إذا رجعَ إلى الوطنِ ، وإنْ لمْ يصمِ الثلاثةَ حتَّىٰ رجعَ إلى الوطنِ . . صامَ العشرةَ متتابعةً أَوْ متفرقةً ، وبدلُ دمِ القِرانِ والتمتُّعِ سواءٌ .

والأفضلُ : الإفرادُ ، ثمَّ التمتُّعُ ، ثم القِرانُ .

* * *

وأمَّا محظوراتُ الحجِّ والعمرةِ . . فستةٌ :

الأوَّلُ : **اللبسُ للقميصِ والسراويلِ والخفِّ والعِمامةِ** : بلْ ينبغي أنْ يلبَسَ إزاراً ورداءً ونعلينِ ، فإنْ لمْ يجدْ نعلينِ . . فمِكْعبينِ [1] ، فإنْ لمْ يجدْ

(١) المكعب : هو بوزان مِقْوَد أو مُعَظَّم ، غير عربي ، مداسٌ يستر ظاهر القدمين ولا يبلغ الكعبين .

إزاراً . . فسراويلَ ، ولا بأسَ بالمِنْطَقةِ[1] ، والاستظلالِ بالمَحْمِلِ ، ولكنْ لا ينبغي أنْ يغطيَ رأسَهُ ؛ فإنَّ إحرامَهُ في الرأسِ .

وللمرأةِ أنْ تلبسَ كلَّ مخيطٍ بعدَ ألا تسترَ وجهَها بما يماسُّهُ ؛ فإنَّ إحرامَها في وجهِها .

الثاني : **الطِّيْبُ** : فليجتنبْ كلَّ ما يعدُّهُ العقلاءُ طِيباً ، فإنْ تطيَّبَ أَوْ لبسَ . . فعليهِ دمُ شاةٍ .

الثالثُ : **الحلْقُ والقلْمُ** : وفيهما الفديةُ ؛ أعني : دمَ شاةٍ ، ولا بأسَ بالكحْلِ ، ودخولِ الحمَّامِ ، والفصدِ ، والحجامةِ ، وترجيلِ الشعرِ .

الرابعُ : **الجماعُ** : وهوَ مفسدٌ قبلَ التحلُّلِ الأوَّلِ ، وفيهِ بدنةٌ أَوْ بقرةٌ أَوْ سَبْعُ شياهٍ ، وإنْ كانَ بعدَ التحلُّلِ الأولِ . . لزمَهُ البدنةُ ولمْ يفسدْ حجُّهُ .

الخامسُ : **مقدماتُ الجماعِ** : كالقبلةِ والملامسةِ التي تنقضُ الطهْرَ معَ النساءِ ، فهوَ محرَّمٌ ، وفيهِ شاةٌ ، وكذا في الاستمناءِ ، ويحرمُ النكاحُ والإنكاحُ ولا دمَ فيهِ ؛ لأنَّهُ لا ينعقدُ .

السادسُ : **قتلُ صيدِ البرِّ** : أعني : ما يؤكلُ أَوْ ما هوَ متولِّدٌ مِنَ الحلالِ والحرامِ ، فإنْ قتلَ صيداً . . فعليهِ مثلُهُ مِنَ النَّعَمِ ، يُراعىٰ فيهِ التقاربُ في الخلْقَةِ ، وصيدُ البحرِ حلالٌ ولا جزاءَ فيهِ .

---

(١) المِنْطَقة : ما يشدُّه في وسطه ؛ كالحزام ونحوه .

البَابُ الثَّاني
في ترتيب الأعمال الظاهرة من أوّل السفر إلى الرجوع
وهي عشر جمل

الجملة الأولى : في السنن من أوّل الخروج إلى الإحرام
وهي ثمان

الأولىٰ : في المالِ : فينبغي أن يبدأَ بالتوبةِ ، وردِّ المظالمِ ، وقضاءِ الديونِ ، وإعدادِ النفقةِ لكلِّ مَنْ تلزمُهُ نفقتُهُ إلىٰ وقتِ الرجوعِ ، ويردُّ ما عندَهُ مِنَ الودائعِ ، ويستصحبُ مِنَ المالِ الطيِّبِ الحلالِ ما يكفيهِ لذهابِهِ وإيابِهِ مِنْ غيرِ تقتيرٍ ، بلْ علىٰ وجهٍ يمكنُهُ معهُ التوسُّعُ في الزادِ ، والرفقُ بالضعفاءِ والفقراءِ ، ويتصدَّقُ بشيءٍ قبلَ خروجِهِ ، ويشتري لنفسِهِ دابةً قويَّةً على الحملِ ، لا تضعفُ ، أوْ يكتريها ؛ فإنِ اكترىٰ . . فليظهرْ للمكاري كلَّ ما يريدُ أنْ يحملَهُ مِنْ قليلٍ وكثيرٍ ، ويحصِّلُ رضاهُ فيهِ[1] .

---

(1) ولو بإعطاء شيء زائد على الأجرة تطييباً لخاطره ورفعاً للشبهة . « إتحاف » (٤/ ٣٢٤) .

الثانيةُ : **في الرفيقِ** : ينبغي أنْ يلتمسَ رفيقاً صالحاً ، محبّاً للخيرِ معيناً عليه ، إنْ نسيَ . . ذكَّرَهُ ، وإنْ ذكرَ . . أعانَهُ ، وإنْ جبنَ . . شجَّعَهُ ، وإنْ عجزَ . . قوَّاهُ ، وإنْ ضاقَ صدرُهُ . . صبَّرَهُ .

وأمَّا رفقاؤُهُ المقيمونَ وإخوانُهُ وجيرانُهُ . . فيودِّعُهُمْ ويلتمسُ أدعيتَهُمْ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ جاعلٌ في أدعيتِهِمُ البركةَ ، والسنَّةُ في الوداعِ أنْ يقولَ : (أستودعُ اللهَ دينَكَ ، وأمانتَكَ ، وخواتيمَ عملِكَ)[1] ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ لمَنْ أرادَ السفرَ : « في حفْظِ اللهِ وفي كنفِهِ ، زوَّدَكَ اللهُ التقوىٰ ، وغفرَ ذنبَكَ ، ووجَّهَكَ للخيرِ أينما توجَّهْتَ »[2] .

* * *

الثالثةُ : **في الخروجِ مِنَ الدارِ** : ينبغي إذا همَّ بالخروجِ أنْ يصلِّيَ أوَّلاً ركعتينِ ؛ يقرأُ في الأولىٰ بعدَ الفاتحةِ : (قل يا أيها الكافرون) ، وفي الثانيةِ (الإخلاصَ) ، فإذا فرغَ . . رفعَ يديهِ ودعا اللهَ سبحانَهُ عنْ إخلاصٍ

---

(١) كما روىٰ ذلك أبو داوود (٢٦٠٠) ، والترمذي (٣٤٤٣) ، وابن ماجه (٢٨٢٦) ، ومعناه : أسأل الله تعالىٰ أن يحفظ عليك دينك ، وأهلك ومالك ، وعملك الصالح الذي جعلته آخر أيام إقامتك ؛ إذ يسنُّ للمسافر أن يختم إقامته بالأدعية المأثورة التي سيذكرها المصنف ، وبقراءة آية الكرسي ، وصلاة ركعتين ، وهاذا الدعاء يدعو به كل من المتوادعين ، لا المودِّعُ فقط ، ويزيد المقيم ما سيأتي . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٢٥) .

(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٢٧١٣) ، وهو عند الترمذي (٣٤٤٤) بغير : « في حفظ الله وفي كنفه » .

صافٍ ونيَّةٍ صادقةٍ وقالَ : (اللهمَّ ؛ أنتَ الصاحبُ في السفرِ ، وأنتَ الخليفةُ في الأهلِ والمالِ والولدِ والأصحابِ ، احفظنا وإيَّاهُمْ مِنْ كلِّ آفةٍ وعاهةٍ ، اللهمَّ ، إنَّا نسألُكَ في مسيرِنا هـٰذا البرَّ والتقوىٰ ، ومِنَ العملِ ما ترضىٰ ، اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ أنْ تطويَ لنا الأرضَ ، وتهوِّنَ علينا السفرَ ، وأنْ ترزقَنا في سفرِنا هـٰذا سلامةَ البدنِ والدينِ والمالِ ، وتبلغَنا حجَّ بيتِكَ وزيارةَ قبرِ نبيِّكَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، اللهمَّ ؛ إنَّا نعوذُ بكَ مِنْ وعثاءِ السفرِ ، وكآبةِ المنقلبِ ، وسوءِ المنظرِ في الأهلِ والمالِ والولدِ والأصحابِ ، اللهمَّ ؛ اجعلْنا وإيَّاهُمْ في جوارِكَ ، ولا تسلبْنا وإيَّاهُمْ نعمتَكَ ، ولا تغيِّرْ ما بنا وبهِمْ مِنْ عافيتِكَ)[1] .

* * *

الرابعةُ : إذا حصلَ علىٰ بابِ الدارِ .. قالَ : (باسمِ اللهِ ، توكَّلْتُ على اللهِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، ربِّ أعوذُ بكَ أنْ أَضلَّ أوْ أُضلَّ ، أوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ ، أوْ أَذِلَّ أوْ أُذَلَّ ، أوْ أَظلمَ أوْ أُظلَمَ ، أوْ أَجهلَ أوْ يُجْهَلَ عليَّ ، اللهمَّ ؛ إنِّي لمْ أخرجْ أشراً ولا بطراً ، ولا رياءً ولا سمعةً ، بلْ خرجتُ اتقاءَ سخطِكَ ، وابتغاءَ مرضاتِكَ ، وقضاءَ فرضِكَ ، واتباعَ سنَّةِ نبيِّكَ ، وشوقاً إلىٰ لقائِكَ) .

---

(١) كان بعض هـٰذا من دعاء للنبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً واستوىٰ علىٰ مركوبه ، كما في « مسلم » (١٣٤٢) .

فإذا مشىٰ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ بكَ انتشرتُ وعليكَ توكَّلْتُ ، وبكَ اعتصمتُ ، وإليكَ توجَّهْتُ ، اللهمَّ ؛ أنتَ ثقتي ، وأنتَ رجائي ، فاكفني ما أهمَّنِي ، وما لا أهتمُّ بهِ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، عزَّ جارُكَ ، وجلَّ ثناؤُكَ ، ولا إلـٰهَ غيرُكَ ، اللهمَّ زودني التقوىٰ ، واغفرْ لي ذنبي ، ووجهني للخيرِ أينما توجهتُ)[1] .

ويدعو بهـٰذا الدعاءِ في كلِّ منزلٍ يرحلُ عنهُ .

* * *

الخامسةُ : **في الركوبِ** : فإذا ركبَ الراحلةَ . . يقولُ : (باسمِ اللهِ وباللهِ واللهُ أكبرُ ، توكلتُ على اللهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لمْ يشأْ لمْ يكنْ ، سبحانَ الذي سخَّرَ لنا هـٰذا وما كنَّا لهُ مقرنينَ ، وإنَّا إلىٰ ربِّنا لمنقلبونَ ، اللهمَّ ؛ إنِّي وجَّهْتُ وجهي إليكَ ، وفوضتُ أمري كلَّهُ إليكَ ، وتوكَّلْتُ في جميعِ أموري عليكَ ، أنتَ حسبي ونعمَ الوكيلُ) .

فإذا استوىٰ على الراحلةِ واستوتْ تحتَهُ . . قالَ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) سبعَ مراتٍ ، وقالَ : (الحمدُ للهِ الذي هدانا لهـٰذا وما كنَّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا اللهُ ، اللهمَّ ؛ أنتَ الحاملُ على الظهْرِ ، وأنتَ المستعانُ على الأمورِ) .

* * *

(١) هـٰذا الدعاء والذي قبله من المأثور المتوازع في دواوين السنة ، **والأَشَرُ والبَطَرُ** : كفر النعمة .

السادسةُ : في النزولِ : والسنةُ ألا ينزلَ حتَّىٰ يحمى النهارُ ، ويكونُ أكثرُ سيرِهِ بالليلِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالدُّلْجَةِ ؛ فإنَّ الأَرضَ تُطوىٰ بالليلِ ما لا تُطوىٰ بالنهارِ »[1] .

وليقللْ نومَهُ بالليلِ حتَّىٰ يكونَ عوناً على السيرِ ، ومهما أشرفَ علىٰ منزلٍ . . فليقلْ : (اللهمَّ ، ربَّ السماواتِ السبعِ وما أظللنَ ، وربَّ الأرضينَ السبعِ وما أقللنَ ، وربَّ الشياطينِ وما أضللنَ ، وربَّ الرياحِ وما ذَرينَ ، وربَّ البحارِ وما جرينَ ؛ أسأَلُكَ خيرَ هـٰذا المنزلِ وخيرَ أهلِهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ هـٰذا المنزلِ وشرِّ أهلِهِ وشرِّ ما فيهِ ، اصرفْ عنِّي شرَّ شرارِهِمْ) .

فإذا نزلَ المنزلَ . . صلَّىٰ فيهِ ركعتينِ ثمَّ قالَ : (أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ التي لا يجوزُهُنَّ برٌّ ولا فاجرٌ مِنْ شرِّ ما خلقَ) .

فإذا جَنَّ عليهِ الليلُ . . يقولُ : (يا أرضُ ؛ ربِّي وربُّكِ اللهُ ، أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكِ وشرِّ ما فيكِ ، وشرِّ ما دبَّ عليكِ ، أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ كلِّ أسدٍ وأسودَ ، وحيَّةٍ وعقربٍ ، ومِنْ شرِّ ساكنِ البلدِ ، ووالدٍ وما ولدَ ، ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾) .

* * *

---

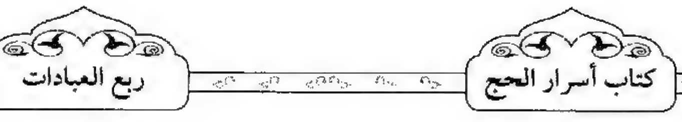
(١) رواه أبو داوود (٢٥٧١) دون : « ما لا تطوىٰ بالنهار » ، وهي عند مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٧٩) مرسلةً .

السابعةُ : في الحراسةِ : فينبغي أنْ يحتاطَ بالنهارِ ، فلا يمشي منفرداً خارجَ القافلةِ ؛ لأنَّهُ ربما يُغتالُ أوْ ينقطعُ ، ويكونُ بالليلِ متحفِّظاً عندَ النومِ ، فإنْ نامَ في ابتداءِ الليلِ . . افترشَ ذراعَهُ ، وإنْ نامَ في آخرِ الليلِ . . نصبَ ذراعَهُ نصباً وجعلَ رأسَهُ في كفِّهِ ، هـٰكذا كانَ ينامُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أسفارِهِ[1] ؛ لأنَّهُ ربَّما استثقلَ النومُ ، فتطلعُ الشمسُ وهوَ لا يدري ، فيكونُ ما يفوتُهُ مِنَ الصلاةِ أفضلَ ممَّا ينالُهُ مِنَ الحجِّ .

والأحبُّ في الليلِ أنْ يتناوبَ الرفيقانِ في الحراسةِ ، فإذا نامَ أحدُهُما . . حرسَ الآخرُ ، فهوَ السنَّةُ ، فإنْ قصدَهُ عدوٌّ أَوْ سبُعٌ في ليلٍ أَوْ نهارٍ . . فليقرأْ آيةَ الكرسيِّ ، و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، و(الإخلاصَ) و(المعوذتينِ) ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ ما شاءَ اللهُ ، لا قوةَ إلا باللهِ ، حسبيَ اللهُ ، توكَّلتُ على اللهِ ، ما شاءَ اللهُ لا يأتي بالخيرِ إلا اللهُ ، ما شاءَ اللهُ لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ ، حسبيَ اللهُ وكفىٰ ، سمعَ اللهُ لمنْ دعا ، ليسَ وراءَ اللهِ منتهىً ، ولا دونَ اللهِ ملجا ، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، تحصنتُ باللهِ العظيمِ ، واستغثتُ بالحيِّ الذي لا يموتُ ، اللهمَّ ؛ احرسنا بعينِكَ التي لا تنامُ ، واكنفْنا بركْنِكَ الذي لا يُرامُ ، اللهمَّ ؛ ارحمْنا بقدرتِكَ علينا ، فلا نهلِكُ وأنت ثقتُنا ورجاؤُنا ،

---

(١) كما في « مسلم » (٦٨٣) عن أبي قتادة قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر ، فعرَّس بليل . . اضطجع علىٰ يمينه ، وإذا عرَّس قبيل الصبح . . نصب ذراعه ، ووضع رأسه علىٰ كفه) .



اللهمَّ ؛ أعطفْ علينا قلوبَ عبادِكَ وإمائِكَ برأفةٍ ورحمةٍ إنَّكَ أنتَ أرحمُ الراحمينَ) .

* * *

الثامنةُ : مهما علا نَشَزاً مِنَ الأرضِ في الطريقِ . . فيستحبُّ أنْ يكبِّرَ ثلاثاً ، ثمَّ يقولُ : اللهمَّ ؛ لكَ الشرفُ علىٰ كلِّ شرفٍ ، ولكَ الحمدُ علىٰ كلِّ حالٍ .

ومهما هبطَ . . سبَّحَ ، ومهما خافَ الوحشةَ في سفرِهِ . . قالَ : سبحانَ الملكِ القدوسِ ، ربِّ الملائكةِ والروحِ ، جلَّلتَ السماواتِ بالعزَّةِ والجبروتِ[1] .

* * *

(١) حديث ذهاب الوحشة بهـٰذا الدعاء رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٤) .

الجملة الثانية : في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة

الأَوَّلُ : أنْ يغتسلَ وينويَ بهِ غسْلَ الإحرامِ ؛ أعني : إذا انتهىٰ إلى الميقاتِ المشهورِ الذي يُحْرِمُ الناسُ منهُ ، ويتمِّمُ غسلَهُ بالتنظيفِ ، فيسرِّحُ رأسَهُ ولحيتَهُ[1] ، ويقلِّمُ أظفارَهُ ، ويقصُّ شاربَهُ ، ويستكملُ النظافةَ التي ذكرناها في الطهارةِ .

* * *

الثاني : أنْ يفارقَ الثيابَ المخيطةَ ، ويلبسَ ثوبَ الإحرامِ ، فيرتدي ويتَّزِرُ بثوبينِ أبيضينِ والأبيضُ هوَ أحبُّ الثيابِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويتطيَّبُ في بدنِهِ وثيابِهِ ، ولا بأسَ بطيبٍ يبقىٰ جرمُهُ بعدَ الإحرامِ ، فقد رُئِيَ وبيصُ المسْكِ علىٰ مَفْرِقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ الإحرامِ ممَّا كانَ استعملَهُ قبلَ الإحرامِ[2] .

* * *

الثالثُ : أنْ يصبرَ بعدَ لبسِ الثيابِ حتَّىٰ تنبعثَ بهِ راحلتُهُ إنْ كانَ راكباً ، أَوْ يبتدئَ بالسيرِ إنْ كانَ راجلاً ، فعندَ ذلكَ ينوي الإحرامَ بالحجِّ أوْ بالعمرةِ

---

(١) في (أ ، و ، ز ، هـ) : (يحسِّر) بدل (يسرح) أي : يكشف عن رأسه ولا يغطيه .
(٢) رواه البخاري (٢٧١) ، ومسلم (١١٩٠) ، **والوبيص** : البريق .

قِراناً أَوْ إفراداً كما أرادَ(١) ، ويكفي مجرَّدُ النيَّةِ لانعقادِ الإحرامِ ، ولكنَّ السنَّةَ أَنْ يقرِنَ بالنيَّةِ لفظَ التلبيةِ فيقولَ : (لبيكَ اللهمَّ لبيكَ ، لبيكَ لا شريكَ لكَ لبيكَ ، إنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ والمُلْكُ لا شريكَ لكَ)(٢) ، وإنْ زادَ.. قالَ : (لبيكَ وسعديكَ ، والخيرُ كلُّهُ بيديكَ ، والرغباءُ إليكَ ، لبيكَ بحجَّةٍ حقّاً ، تعبُّداً ورقّاً ، اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ)(٣) .

* * *

الرابعُ : إذا انعقدَ إحرامُهُ بالتلبيةِ المذكورةِ.. فيستحبُّ أنْ يقولَ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أريدُ الحجَّ ، فيسِّرْهُ لي وأعنِّي علىٰ أداءِ فرضِهِ وتقبَّلْهُ منِّي ، اللهمَّ ؛ إنِّي نويتُ أداءَ فريضتِكَ في الحجِّ ، فاجعلني مِنَ الذينَ استجابوا لكَ وآمنوا بوعدِكَ واتبعوا أمرَكَ ، واجعلني مِنْ وفدِكَ الذينَ رضيتَ عنهُمْ

---

(١) وقد زاد المصنف في « الوجيز » سنة صلاة ركعتي الإحرام ، وعبارته فيه كما في « العزيز » (٣/ ٣٨٠) : (الرابعة : أن يصلي ركعتي الإحرام ، ثم يلبي حيث تنبعث دابته ، وفي القديم : بحيث يتحلل عن الصلاة) .

(٢) كذا كانت تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في « البخاري » (١٥٤٩) ، ومسلم (١١٨٤) .

(٣) بنحوها عند مسلم (١١٨٤) ، وأما إتباع التلبية الصلاةَ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فقد رواه الدارقطني في « سننه » (٢/ ٢٣٨) عن القاسم بن محمد عند الفراغ منها ، كما يتبعها سؤال المغفرة والرضوان منه سبحانه ، وعبارة المصنف في «الخلاصة» (ص٢٣١) : (ويكرر هـٰذه التلبية لا يزيد عليها ، إلا أن يصلي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسأله الجنة ويستعيذ من النار) ، وقد استحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التلبية الإمام الشافعي كما في « الأم » (٣/ ٣٩٥) .

وارتضيتَ وقبلْتَ منهُمْ ، اللهمَّ ، فيسِّرْ لي أداءَ ما نويتُ مِنَ الحجِّ ، اللهمَّ ؛ قدْ أحرمَ لكَ شعري ولحمي ، ودمي وعصبي ، ومخِّي وعظامي ، وحرَّمْتُ علىٰ نفسي النساءَ والطيبَ ولبسَ المخيطِ ابتغاءَ وجهِكَ والدارِ الآخرةِ) .

ومِنْ وقتِ الإحرامِ حَرُمَ عليهِ المحظوراتُ الستَّةُ التي ذكرناها مِن قبلُ فليجتنبْها .

❊ ❊ ❊

الخامسُ : يستحبُّ تجديدُ التلبيةِ في دوامِ الإحرامِ ، خصوصاً عندَ ازدحامِ الركابِ ، وتلقي الرفاقِ ، وعندَ اجتماعِ الناسِ ، وعندَ كلِّ صعودٍ وهبوطٍ ، وعندَ كلِّ ركوبٍ ونزولٍ ، رافعاً بها صوتَهُ بحيثُ لا يبحُّ حلقُهُ ولا ينبهرُ[١] ، فإنَّهُ لا ينادي أصمَّ ولا غائباً كما وردَ في الحديثِ[٢] .

ولا بأسَ برفْعِ الصوتِ بالتلبيةِ في المساجدِ الثلاثةِ ؛ فإنَّها مَظِنَّةُ المناسكِ ؛ أعني : المسجدَ الحرامَ ، ومسجدَ الخَيْفِ ، ومسجدَ الميقاتِ[٣] ، وأمَّا سائرُ المساجدِ . . فلا بأسَ فيها بالتلبيةِ مِنْ غيرِ رفْعِ صوتٍ ، وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أعجبَهُ شيءٌ . . قالَ : « لبيكَ إنَّ العيشَ عيشُ الآخرةِ »[٤] .

❊ ❊ ❊

(١) وإنما يستحب رفع الصوت في حق الرجال ، والنساء يقتصرن علىٰ أنفسهن ولا يجهرن كما في الصلاة . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٣٨) ، والانبهار : الانقطاع .

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢) ، ومسلم (٢٧٠٤) .

(٣) وفي (ب) : (ومسجد عرفات) .

(٤) رواه الشافعي كما في « الأم » (٣/ ٣٩١) عن مجاهد مرسلاً .

الجملة الثالثة : في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة

الأوَّلُ : أنْ يغتسلَ بذي طُوىً لدخولِ مكَّةَ[1] .

والأغسالُ المستحبَّةُ المسنونةُ في الحجِّ تسعةٌ : الأوَّلُ للإحرامِ مِنَ الميقاتِ ، ثمَّ لدخولِ مكَّةَ[2] ، ثمَّ للوقوفِ بعرفةَ ، ثمَّ للوقوفِ بمزدلفةَ ، ثمَّ ثلاثةُ أغسالٍ لرمي الجمراتِ الثلاثِ ، ولا غسلَ لرمي جمرةِ العقبةِ ، ثمَّ لطوافِ الإفاضةِ ، ثمَّ لطوافِ الوداعِ ، ولمْ يرَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ في الجديدِ الغسْلَ لطوافِ الزيارةِ ولطوافِ الوداعِ ، **فتعودُ إلىٰ سبعةٍ** .

***

الثاني : أنْ يقولَ عندَ الدخولِ في أوَّلِ الحرمِ وهوَ خارجَ مكَّةَ : (اللهمَّ ؛ هـٰذا حرمُكَ وأمنُكَ ، فحرِّمْ لحمي ودمي وشعري وبشري على

---

(١) ذو طوىٰ : قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٣/ ١٣٩) : (بكسر الطاء : اسم بئر ـ مطوية ـ أو موضع بقرب مكة ، ولأبي ذر ـ أحد رواة الصحيح ـ طُوىٰ بضمها ، ويجوز فتحها ـ وصوبه القاضي في « مشارق الأنوار » [١/ ٢٧٦] ـ والتنوينُ وعدمه ؛ كما في « القاموس » ، فمن صرفه . . جعله اسم وادٍ ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه . . جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة) ، وقد روى البخاري (١٥٧٣) ، ومسلم (١٢٥٩) حكاية فعله صلى الله عليه وسلم لذلك .

(٢) وهو الغسل الذي ذكره حين قال : (يغتسل بذي طوىً لدخول مكة) .

النارِ ، وآمنّي مِنْ عذابِكَ يومَ تبعثُ عبادَكَ ، واجعلني مِنْ أوليائِكَ وأهلِ طاعتِكَ) .

* * *

الثالثُ : أنْ يدخلَ مكَّةَ مِنْ جانبِ الأبطحِ ، وهوَ مِنْ ثَنِيَّةِ كَداءٍ بفتحِ الكافِ والمدِّ ، عَدَلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ جادَّةِ الطريقِ إليها[1] ، فالتأسِّي بهِ أولىٰ .

وإذا خرجَ . . خرجَ مِنْ ثنيَّةِ كُدىً بضمِّ الكافِ ؛ وهيَ الثنيَّةُ السفلىٰ ، والأُولىٰ هيَ العليا[2] .

* * *

الرابعُ : إذا دخلَ مكَّةَ وانتهىٰ إلىٰ رأسِ الردْمِ ، فعندَهُ يقعُ بصرُهُ على البيتِ . . فليقلْ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ، أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، ودارُكَ دارُ السلامِ ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ ، اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا بيتُكَ ، عظَّمْتَهُ وكرَّمْتَهُ وشرَّفْتَهُ ، اللهمَّ ؛ فزِدْهُ تعظيماً وزِدْهُ تشريفاً

---

(١) رواه البخاري (١٥٧٨) ، ومسلم (١٢٥٨) ، وكَداء : موضع جبل بمكة ، ويناسب الدخول منه لعلو مقدار البيت . وروى الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ٢٨٧) عن ابن عباس : أن إبراهيم عليه السلام كان علىٰ ثنية كَداء حين دعا ، ولذلك قال : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ ﴾ . وانظر « الإتحاف » (٤/ ٢٤٣) .

(٢) يجوز في كَداء وكُدى الصرف وعدمه ، نص علىٰ ذلك القسطلاني في « إرشاد الساري » (٣/ ١٤٢) ، والضم والقصر في الثاني لازم ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤/ ٣٤٢) : (ويكتب بالياء ويجوز بالألف) ، ويقال للأول : كُدَي .

وتكريماً ، وزدْه مهابةً ، وزدْ مَنْ حجَّهُ بِرّاً وكرامةً ، اللهمَّ ؛ افتحْ لي أبوابَ رحمتِكَ ، وأدخلني جنَّتَكَ ، وأعذني مِنَ الشيطانِ الرجيمِ) .

* * *

الخامسُ : إذا دخلَ المسجدَ الحرامَ . . فليدخلْ مِنْ بابِ بني شيبةَ ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ ، وباللهِ ، ومِنَ اللهِ ، وإلى اللهِ ، وفي سبيلِ اللهِ ، وعلىٰ ملَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) .

فإذا قَرُبَ منَ البيتِ . . قالَ : (الحمدُ للهِ وسلامٌ علىٰ عبادِهِ الذينَ اصطفىٰ ، اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ ، وعلىٰ إبراهيمَ خليلِكَ ، وعلىٰ جميعِ أنبيائِكَ ورسلِكَ) ، وليرفعْ يديهِ وليقلْ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ في مَقامي هـٰذا في أوَّلِ مناسكي أنْ تتقبَّلَ توبتي ، وأنْ تتجاوزَ عَنْ خطيئتي ، وتضعَ عنِّي وزري ، الحمدُ للهِ الذي بلَّغني بيتَهُ الحرامَ الذي جعلَهُ مثابةً للناسِ وأمناً ، وجعلَهُ مباركاً وهدىً للعالمينَ ، اللهمَّ ؛ إنِّي عبدُكَ ، والبلدُ بلدُكَ ، والحَرَمُ حرمُكَ ، والبيتُ بيتُكَ ، جئتُكَ أطلبُ رحمتَكَ ، وأسألُكَ مسألةَ المضطرِّ الخائفِ مِنْ عقوبتِكَ ، والراجي رحمتَكَ ، الطالبِ مرضاتَكَ) .

* * *

السادسُ : أنْ يقصدَ الحجرَ الأسودَ بعدَ ذلكَ ويمسَّهُ بيدِهِ اليمنىٰ ، ويقبِّلَهُ ويقولَ : (اللهمَّ ؛ أمانتي أديتُها ، وميثاقي وفيتُهُ ، اشهدْ لي

بالموافاةِ)[1] ، فإنْ لمْ يستطعِ التقبيلَ . وقفَ في مقابلتِهِ ويقولُ ذلكَ .

ثم لا يعرِّجُ علىٰ شيءٍ دونَ الطوافِ ، وهوَ طوافُ القدومِ ، إلا أنْ يجدَ الناسَ في المكتوبةِ ، فيصليَ معهُمْ ثمَّ يطوفَ .

* * *

(١) في هٰذا الدعاء إشارة للحديث الذي رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٢٥٩) عن مجاهد قال : (يأتي يوم القيامة الركن والمقام كل واحد منهما مثل أبي قبيس ـ اسم جبل ـ يشهدان لمن وافاهما بالموافاة) .

الجملة الرابعة : في الطواف

فإذا أرادَ افتتاحَ الطوافِ ، إمَّا للقدومِ أوْ لغيرِهِ . . فينبغي أنْ يراعيَ أموراً ستةً :

الأوّلُ : أنْ يراعيَ شروطَ الصلاةِ ؛ مِنْ طهارةِ الحدثِ والخبثِ ، في الثوبِ والبدنِ والمطافِ ، وسترِ العورةِ ؛ فالطوافُ بالبيتِ صلاةٌ ، ولكنَّ اللهَ سبحانَهُ أباحَ فيهِ الكلامَ .

وليضطبعْ قبلَ ابتداءِ الطوافِ؛ وهوَ أنْ يجعلَ وسَطَ ردائِهِ تحتَ إبْطِهِ الأيمنِ، ويجمعَ طرفيهِ علىٰ مَنْكِبِهِ الأيسرِ ، فيرخيَ طرفاً وراءَ ظهرِهِ وطرفاً علىٰ صدرِهِ .

ويقطعُ التلبيةَ عندَ ابتداءِ الطوافِ ، ويشتغلُ بالأدعيةِ التي سنذكرُها .

* * *

الثاني : إذا فرغَ مِنَ الاضطباعِ . . فليجعلِ البيتَ علىٰ يسارِهِ ، وليقفْ عندَ الحجرِ الأسودِ ، وليتنحَّ عنهُ قليلاً ليكونَ الحجرُ قدَّامَهُ ، فيمرَّ بجميعِ الحجرِ بجميعِ بدنِهِ في ابتداءِ طوافِهِ ، وليجعلْ بينَهُ وبينَ البيتِ قدْرَ ثلاثِ خطواتٍ ؛ ليكونَ قريباً منَ البيتِ ، فإنَّهُ أفضلُ ، ولكيلا يكونَ طائفاً على الشاذَرْوانِ ؛ فإنَّهُ مِنَ البيتِ ، وعندَ الحجرِ الأسودِ قدْ يتصلُ الشاذَرْوانُ بالأرضِ ويلتبس بها ، والطائفُ عليهِ لا يصحُّ طوافُهُ ؛ لأنَّهُ طائفٌ في

البيتِ ، **والشاذَرْوانُ** : هوَ الذي فضَلَ مِنْ عرْضِ جدارِ البيتِ بعدَ أنْ ضيِّق أعلى الجدارِ ، ثمَّ مِنْ هـٰذا الموقفِ يبتدىءُ الطوافَ .

* * *

الثالثُ : أنْ يقولَ قبلَ مجاوزةِ الحجرِ ، بلْ في ابتداءِ الطوافِ : (باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ؛ إيماناً بكَ وتصديقاً بكتابِكَ ووفاءً بعهدِكَ ، واتباعاً لسنَّةِ نبيِّكَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) .

ويطوفُ ، فأوَّلَ ما يجاوزُ الحجرَ ينتهي إلىٰ بابِ البيتِ فيقولُ : (اللهمَّ ، هـٰذا البيتُ بيتُكَ ، وهـٰذا الحرَمُ حرمُكَ ، وهـٰذا الأمنُ أمنُكَ ، وهـٰذا مَقامُ العائذِ بكَ مِنَ النارِ) .

وعندَ ذكْرِ المقامِ يشيرُ بعينِهِ إلىٰ مَقامِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ويقولُ : (اللهمَّ ؛ إنَّ بيتكَ عظيمٌ ، ووجهَكَ كريمٌ ، وأنتَ أرحمُ الراحمينَ ؛ فأعذني مِنَ النارِ ومِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، وحرِّمْ لحمي ودمي على النارِ ، وأمِّنِّي مِنْ أهوالِ يومِ القيامةِ ، واكفني مؤنةَ الدنيا والآخرةِ) .

ثمَّ يسبِّحُ اللهَ ويحمدُهُ حتَّىٰ يبلغَ الركنَ العراقيَّ ، فعندَهُ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ الشركِ والشكِّ ، والكفْرِ والنفاقِ ، والشقاقِ وسوءِ الأخلاقِ ، وسوءِ المنظرِ في الأهلِ والمالِ والولدِ) .

فإذا بلغَ الميزابَ . قالَ : (اللهمَّ ؛ أظلَّني تحتَ ظلِّ عرشِكَ يومَ لا ظلَّ

إلا ظلُّ عرشِكَ ، اللهمَّ ؛ اسقني بكأسِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شربةً لا أظمأُ بعدَها أبداً) .

فإذا بلغَ الركنَ الشاميَّ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ اجعلْهُ حجّاً مبروراً ، وسعياً مشكوراً ، وذنباً مغفوراً ، وتجارةً لنْ تبورَ ، يا عزيزُ يا غفورُ ، ربِّ اغفرْ وارحمْ ، وتجاوزْ عمَّا تعلمُ ، إنَّكَ أنتَ الأعزُّ الأكرمُ) .

فإذا بلغَ الركنَ اليمانيَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنَ الكفرِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الفقرِ ، ومِنْ عذابِ القبرِ ، ومِنْ فتنةِ المحيا والمماتِ ، وأعوذُ بِكَ مِنَ الخزيِ في الدنيا والآخرةِ) .

ويقولُ بينَ الركنِ اليماني والحجرِ الأسودِ : (اللهمَّ ؛ ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرةِ حسنةً ، وقنا برحمتِكَ عذابَ القبرِ وعذابَ النارِ) .

فإذا بلغَ الحجرَ الأسودَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ اغفرْ لي برحمتِكَ ، أعوذُ بربِّ هـٰذا الحجرِ مِنَ الدَّيْنِ والفقرِ ، وضيقِ الصدْرِ ، وعذابِ القبرِ) .

وعندَ ذلكَ قدْ تمَّ لهُ شوطٌ واحدٌ ، فيطوفُ كذلكَ سبعةَ أشواطٍ ويدعو بهـٰذِهِ الأدعيةِ في كلِّ شوطٍ .

* * *

الرابعُ : أنْ يرمُلَ في ثلاثةِ أشواطٍ ، ويمشيَ في الأربعةِ الأُخَرِ على الهيئةِ المعتادةِ ، ومعنى الرَّمَلِ : الإسراعُ في المشيِ معَ تقاربِ الخُطا وهوَ دونَ العدْوِ وفوقَ المشيِ المعتادِ ، والمقصودُ منهُ ومِنَ الاضطباعِ : إظهارُ

الشطارةِ والجلادةِ والقوَّةِ ، هٰكذا كانَ القصدُ أوَّلاً ؛ قطعاً لطمعِ الكفَّارِ ، وبقيتْ تلكَ السنَّةُ[1] .

والأفضلُ الرَّمَلُ معَ الدنوِّ مِنَ البيتِ ، فإنْ لمْ يمكنْهُ للزحمةِ . . فالرَّمَلُ معَ البعدِ أفضلُ ، فليخرجْ إلىٰ حاشيةِ المطافِ ، وليرملْ ثلاثاً ، ثمَّ ليقرُبْ إلى البيتِ في المزدحمِ وليمشِ أربعاً .

وإنْ أمكنَهُ استلامُ الحجرِ في كلِّ شوطٍ . . فهوَ الأحبُّ ، وإنْ منعتْهُ الزحمةُ . . أشارَ باليدِ وقبَّلَ يدَهُ ، وكذلكَ استلامُ الركنِ اليماني مستحبٌّ مِنْ سائرِ الأركانِ ، ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يستلمُ الركنَ اليمانيَ ويقبِّلُهُ ، ويضعُ خدَّهُ عليهِ[2] .

---

(١) كون الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار عند أبي داوود (١٨٨٧) ، وابن ماجه (٢٩٥٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (فيمَ الرملانُ اليوم والكشفُ عن المناكب وقد أطَّأَ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله ؟ مع ذلك لا ندع شيئاً كنَّا نفعله علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وأما الرمل وحدَه . . فقد روىٰ حديثه البخاري (١٦٠٢) ، ومسلم (١٢٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وقد وهنهم حمَّىٰ يثرب ؛ فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرمُلُوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرمُلُوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم) .

(٢) أما استلام الركن اليماني . . ففي « البخاري » (١٦٦) ، و« مسلم » (١٢٦٧) ، وأما تقبيله . . فهو عند البخاري في « التاريخ الكبير » (١/ ٢٨١) ، وأما تقبيله مع وضع الخد عليه . . فهو عند ابن خزيمة في « صحيحه » (٢٧٢٧) ، والدارقطني في « سننه » (٢/ ٢٩٠) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٥٦) .

ومَنْ أرادَ تخصيصَ الحجرِ بالتقبيلِ ، واقتصرَ في الركنِ اليماني على الاستلامِ ؛ أعني : المسَّ باليدِ . . فهو الأولىٰ ؛ إذْ هو أشهرُ في الروايةِ(١) .

* * *

الخامسُ : إذا تمَّ الطوافُ سبعاً . . فليأتِ الملتزمَ ـ وهوَ بينَ الحجَرِ والبابِ ، وهوَ موضعُ استجابةِ الدعوةِ(٢) ـ وليلتزقْ بالبيتِ ، وليتعلَّقْ بالأستارِ ، وليلصقْ بطنَهُ بالبيتِ ، وليضعْ عليهِ خدَّهُ الأيمنَ ، وليبسطْ عليهِ ذراعيهِ وكفَّيْهِ ، وليقلْ : (اللهمَّ ، يا ربَّ البيتِ العتيقِ ؛ أعتقْ رقبتي مِنَ النارِ ، وأعذني منَ الشيطانِ الرجيمِ ، وأعذني مِنْ كلِّ سوءٍ ، وقنِّعْني بما رزقتني ، وباركْ لي فيما آتيتني ، اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا البيتَ بيتُكَ والعبدَ عبدُكَ ، وهـٰذا مَقامُ العائذِ بكَ مِنَ النارِ ، اللهمَّ ؛ اجعلني مِنْ أكرمِ وفدِكَ عليكَ)(٣) .

ثمَّ ليحمدِ اللهَ كثيراً في هـٰذا الموضعِ ، وليصلِّ علىٰ رسولِهِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ جميعِ الرسلِ كثيراً ، وليدعُ بحوائجِهِ الخاصَّةِ ،

---

(١) الأم (٣/ ٤٣٠) .
(٢) كما روىٰ ذلك الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٢٧٧) .
(٣) الهيئة التي ذكرها المصنف في هـٰذا الدعاء ؛ من الإلزاق والتعلق بالأستار ووضع الخد . . إلخ رواها أبو داوود (١٨٩٩) ، والنسائي (٥/ ٢٢٠) ، وابن ماجه (٢٩٦٢) .

وليستغفرِ اللهَ مِنْ ذنوبِهِ ، كانَ بعضُ السلفِ في هٰذا الموضعِ يقولُ لمواليهِ : (تنحَّوْا عنِّي حتَّىٰ أُقِرَّ لربِّي بذنوبي) .

* * *

السادسُ : إذا فرغَ مِنْ ذلكَ . . ينبغي أنْ يصلِّيَ خلْفَ المقامِ ركعتينِ ، يقرأُ في الأولىٰ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وفي الثانيةِ (الإخلاصَ) ، وهما ركعتا الطوافِ ، قالَ الزهريُّ : (مضتِ السنَّةُ أنْ يُصلَّىٰ لكلِّ أسبوعٍ ركعتانِ)(١) .

وإنْ قرنَ بين أسابيعَ وصلَّىٰ ركعتينِ . . جازَ ، فعلَ ذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٢) .

وكلُّ أسبوعٍ طوافٌ ، وليدعُ بعدَ ركعتيِ الطوافِ وليقلْ : (اللهمَّ ؛ يسِّرْ ليَ اليسرىٰ ، وجنبنيَ العسرىٰ ، واغفرْ لي في الآخرةِ والأُولىٰ ، اللهمَّ ؛

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٥٠٢٨) ، الأسبوع : سبع طوفات ، ويقال : سُبُوع .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرن ثلاثة أطواف ليس بينها صلاة ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » ، وابن شاهين في « أماليه » من حديث أبي هريرة وزاد : « ثم صلىٰ لكل أسبوع ركعتين » ، وفي إسنادهما عبد السلام بن أبي الجنوب ، منكر الحديث) . « إتحاف » (٤/ ٣٥٧) .
وعقد ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ٥٥٠) باباً في القران بين الأسباع ومن رخص في ذلك ، ولم يرو فيه حديثاً مرفوعاً ، بل نقل فعل ذلك عن عائشة ومجاهد والمسور بن مخرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبير وعلي بن الحسين .

اعصمْني بألطافِكَ حتَّىٰ لا أعصيَكَ ، وأعنِّي علىٰ طاعتِكَ بتوفيقِكَ ، وجنبني معاصيَكَ ، واجعلني ممَّنْ يحبُّكَ ويحبُّ ملائكتَكَ ورسلَكَ ، ويحبُّ عبادَكَ الصالحينَ ، اللهمَّ ؛ حبِّبْني إلىٰ ملائكتِكَ ورسلِكَ ، وإلىٰ عبادِكَ الصالحينَ ، اللهمَّ ؛ فكما هديتني للإسلامِ فثبتني عليهِ بألطافِكَ وولايتِكَ ، واستعملني لطاعتِكَ وطاعةِ رسولِكَ ، وأجِرْني مِنْ مضلاَّتِ الفتنِ) .

ثمَّ ليعدْ إلى الحجَرِ وليستلمْهُ ، وليختمْ بهِ الطوافَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَن طافَ بالبيتِ أسبوعاً ، وصلىٰ ركعتينِ . . فلهُ مِنَ الأجرِ كعتقِ رقبةٍ »[1] . هـٰذهِ كيفيةُ الطوافِ .

والواجبُ مِنْ جملتِهِ بعد وجوبِ شروطِ الصلاةِ : أنْ يستكملَ عددَ الطوافِ سبعاً بجميعِ البيتِ ، وأنْ يبتدىءَ بالحجَرِ الأسودِ ويجعلَ البيتَ علىٰ يسارِهِ ، وأنْ يطوفَ داخلَ المسجدِ وخارجَ البيتِ ، لا على الشاذَرْوانِ ، ولا في الحجْرِ ، وأنْ يواليَ بينَ الأشواطِ ولا يفرِّقَها تفريقاً خارجاً عنِ المعتادِ ، وما عدا هـٰذا فهوَ سننٌ وهيئاتٌ .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الترمذي (٩٥٩) ، والنسائي (٥/ ٢٢١) ، وابن ماجه (٢٩٥٦) .

الجملة الخامسة : في السعي

فإذا فرغَ مِنَ الطوافِ[1] . . فليخرجْ مِنْ بابِ الصفا ، وهوَ في محاذاةِ الضلعِ الذي بينَ الركنِ اليماني والحجرِ ، فإذا خرجَ مِنْ ذلكَ البابِ ، وانتهىٰ إلى الصفا وهوَ جبلٌ . . فيرقىٰ فيهِ دَرَجاً في حضيضِ الجبلِ بقدْرِ قامةِ الرجلِ ، رَقِيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ حتَّىٰ بدتْ لهُ الكعبةُ[2] ، وابتداءُ السعيِ مِنْ أصلِ الجبلِ كافٍ ، وهٰذهِ الزيادةُ مستحبةٌ ، ولكنْ بعضُ تلكَ الدَّرَجِ مستحدثةٌ ، فينبغي ألا يخلِّفَها وراءَ ظهرِهِ ، فلا يكونُ متمِّماً للسعيِ ، وإذا ابتدأَ مِنْ هٰهنا . . سعىٰ بينَهُ وبينَ المروةِ سبعَ مرَّاتٍ .

وعندَ رقيِّهِ في الصفا ينبغي أنْ يُقْبلَ على البيتِ ويقولَ : (اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، الحمدُ للهِ علىٰ ما هدانا ، الحمدُ للهِ بمحامدِهِ كلِّها علىٰ جميعِ نعمهِ كلِّها ، لا إلٰهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، بيدِهِ الخيرُ وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، لاإلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وأعزَّ جندَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ ، لا إلٰهَ إلا اللهُ مُخلصينَ لهُ الدِّينَ ولوْ كرِهَ الكافرونَ ، لا إلٰهَ إلا اللهُ مخلصينَ لهُ الدينَ ،

---

(١) أي : بعد صلاته ركعتين ، واستلامه الحجر والركن ، وشربه ماء زمزم . « إتحاف » (٤/ ٣٦٠) .

(٢) كما في « مسلم » (١٢١٨) ضمن حديث طويل .

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً دائماً ، ويقيناً صادقاً ، وعلماً نافعاً ، وقلباً خاشعاً ، ولساناً ذاكراً ، وأسألُكَ العفوَ والعافيةَ ، والمعافاةَ الدائمةَ في الدنيا والآخرةِ) ، ويصلِّي علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويدعو اللهَ بما شاءَ مِنْ حاجتِهِ عقيبَ هٰذا الدعاءِ .

ثمَّ ينزلُ ويبتدئُ السعيَ وهوَ يقولُ : (ربِّ اغفرْ وارحمْ ، وتجاوزْ عمَّا تعلمُ ، إنَّكَ أنتَ الأعزُّ الأكرمُ ، ربَّنا ؛ آتنا في الدنيا حسنةً ، وفي الآخرةِ حسنةً ، وقنا عذابَ النارِ) .

ويمشي علىٰ هِينةٍ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الميلِ الأخضرِ ، وهوَ أوَّلُ ما يلقاهُ إذا نزلَ مِنَ الصفا وهوَ علىٰ زاويةِ المسجدِ الحرامِ، فإذا بقيَ بينَهُ وبينَ محاذاةِ الميلِ ستةُ أذرعٍ . . أخذَ في السيرِ السريعِ ـ وهوَ الرَّمَلُ ـ حتَّىٰ ينتهيَ إلى الميلينِ الأخضرينِ، ثمَّ يعودُ إلى الهِينةِ.

فإذا انتهىٰ إلى المروةِ . . صعدَها كما صعدَ الصفا، وأقبلَ بوجهِهِ على الصفا، ودعا بمثلِ ذلكَ الدعاءِ ، وقدْ حصلَ السعيُ مرَّةً واحدةً ، فإذا عادَ إلى الصفا . . حصلتْ مرَّتانِ، يفعلُ ذلكَ سبعاً، ويرمُلُ في موضعِ الرَّمَلِ في كلِّ مرَّةٍ، ويسكُنُ في موضعِ السكونِ كما سبقَ ، وفي كلِّ نوبةٍ يصعدُ الصفا والمروةَ .

فإذا فعلَ ذلكَ . . فقدْ فرغَ مِنْ طوافِ القدومِ والسعيِ ، وهما سنَّتانِ ، والطهارةُ مستحبَّةٌ للسعيِ وليستْ بواجبةٍ ، بخلافِ الطوافِ .

وإذا سعىٰ . . فينبغي ألا يعيدَ السعيَ بعدَ الوقوفِ ، ويكتفي بهـٰذا ركناً ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْ شرطِ السعيِ أنْ يتأخرَ عنِ الوقوفِ ، وإنَّما ذلكَ شرطٌ في طوافِ الركنِ .

نعمْ ؛ شرطُ كلِّ سعيٍ أنْ يقعَ بعدَ طوافٍ أيَّ طوافٍ كانَ .

الجملة السادسة : في الوقوف وما قبله

الحاجُّ إذا انتهىٰ يومَ عرفةَ إلىٰ عرفاتٍ . . فلا يتفرَّغُ لطوافِ القدومِ ودخولِ مكَّةَ قبلَ الوقوفِ ، وإذا وصلَ قبلَ ذلكَ بأيامٍ . . طافَ طوافَ القدومِ ، فيمكثُ محرماً إلى اليومِ السابعِ مِنْ ذي الحجَّةِ[1] ، فيخطبُ الإمامُ بمكَّةَ خطبةً بعدَ الظهرِ عندَ الكعبةِ ، ويأمرُ الناسَ بالاستعدادِ للخروجِ إلىٰ منىً يومَ الترويةِ ، والمبيتِ بها ، وبالغدوِّ منها إلىٰ عرفةَ لإقامةِ فرْضِ الوقوفِ بعدَ زوالِ الشمسِ ؛ إذْ وقتُ الوقوفِ مِنَ الزوالِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ الصادقِ مِنْ يومِ النحرِ ، فينبغي أنْ يخرجَ إلىٰ منىً ملبِّياً ، ويُستحبُّ لهُ المشيُ مِنْ مكَّةَ في المناسكِ إلى انقضاءِ حجِّهِ إنْ قدرَ عليهِ ، والمشيُ مِنْ مسجدِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ إلى الموقفِ أفضلُ وآكدُ .

فإذا انتهىٰ إلىٰ منىً . . قالَ : (اللهمَّ ؛ هٰذهِ منىً ، فامننْ عليَّ بما مننْتَ بهِ علىٰ أوليائِكَ وأهلِ طاعتِكَ) ، وليمكثْ هٰذهِ الليلةَ بمنىً ، وهوَ مبيتُ منزلٍ لا يتعلَّقُ بهِ نسكٌ .

فإذا أصبحَ يومَ عرفةَ . . صلَّى الصبحَ ، فإذا طلعتِ الشمسُ علىٰ ثَبِيرٍ[2] . . سارَ إلىٰ عرفاتٍ ، ويقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْها خيرَ غَدوةٍ غدوتُها

---

(١) أي : إن لم يكن متمتعاً .

(٢) ثَبِير : اسم جبل بين مكة ومنىً ، ويرىٰ من منىً ، وهو علىٰ يمين الداخل منها إلىٰ مكة . « إتحاف » (٤/٣٦٦) .

قطُّ ، وأقربَها مِنْ رضوانِكَ ، وأبعدَها مِن سخطِكَ ، اللهمَّ ؛ إليكَ غدوتُ ، وإيَّاكَ رجوتُ ، وعليكَ اعتمدتُ ، ووجهَكَ أردتُ ؛ فاجعلني ممَّنْ تُباهي بهِ اليومَ مَنْ هوَ خيرٌ منِّي وأفضلُ[١] .

فإذا أتىٰ عرفاتٍ . . فليضربْ خباءَهُ بنَمِرَةَ قريباً مِنَ المسجدِ ، فثمَّ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قُبَّتَهُ[٢] ، ونَمِرَةُ : هي بطنُ عُرَنَةَ[٣] ، دونَ الموقفِ ودونَ عرفةَ .

وليغتسلْ للوقوفِ ، فإذا زالتِ الشمسُ . . خطبَ الإمامُ خطبةً وجيزةً وقعدَ[٤] ، وأخذَ المؤذِّنُ في الأذانِ والإمامُ في الخطبةِ الثانيةِ[٥] ، ووصلَ الإقامةَ بالأذانِ ، وفرغَ الإمامُ معَ تمامِ إقامةِ المؤذِّنِ ، ثمَّ جمعَ بينَ الظهرِ والعصرِ بأذانٍ وإقامتينِ ، وقصرَ الصلاةَ ، وراحَ إلى الموقفِ ، فليقفْ بعرفةَ ، ولا يقفنْ في وادي عُرَنَةَ .

وأمَّا مسجدُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ . . فصدرُهُ في الوادي وأخرياتُهُ مِنْ

---

(١) أراد الملائكة ؛ ففي « مسلم » (١٣٤٨) مرفوعاً : « ما من يوم أكثرَ من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفةَ ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هـٰؤلاء » .

(٢) كما في حديث مسلم (١٢١٨) الذي مرَّ بعضه .

(٣) عُرَنَة : واد بحذاء عرفات ، فهي ليست من الموقف .

(٤) وهي الخطبة الأولىٰ .

(٥) هـٰذه الثانية تكون مع الأذان ، وتنتهي بانتهاء إقامة المؤذن للصلاة . انظر « الخلاصة » (ص٢٣٤) .

عرفةَ ، فمَنْ وقفَ في صدْرِ المسجدِ . لمْ يحصلْ لهُ الوقوفُ بعرفةَ ، ويتميَّزُ مكانُ عرفةَ مِنَ المسجدِ بصخَراتٍ كبارٍ فرشتْ ثَمَّ ، والأفضلُ أنْ يقفَ عندَ الصخَراتِ بقربِ الإمامِ مستقبلاً للقبلةِ راكباً .

وليكثرْ مِنْ أنواعِ التحميدِ والتسبيحِ والتهليلِ والثناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، والدعاءِ والتوبةِ[(١)] ، ولا يصومُ في هٰذا اليومِ ؛ ليقوىٰ على المواظبةِ على الدعاءِ ، ولا يقطعُ التلبيةَ يومَ عرفةَ ، بلِ الأحبُّ أنْ يلبِّيَ تارةً ، ويكبَّ على الدعاءِ أخرىٰ .

وينبغي ألا ينفصلَ مِنْ طرفِ عرفةَ إلا بعدَ الغروبِ ؛ ليجمعَ في عرفةَ بينَ الليلِ والنهارِ ، وإنْ أمكنَهُ الوقوفُ يومَ الثامنِ ساعةً عندَ إمكانِ الغلطِ في الهلالِ . فهوَ الحزمُ ، وبهِ الأمنُ مِنَ الفواتِ . ومَنْ فاتَهُ الوقوفُ حتَّىٰ طلعَ الفجرُ يومَ النحرِ . فقدْ فاتَهُ الحجُّ ، فعليهِ أنْ يتحلَّلَ عنْ إحرامِهِ بأعمالِ العمرةِ ، ثمَّ يريقَ دماً لأجلِ الفواتِ ، ثمَّ يقضيَ العامَ الآتيَ .

وليكنْ أهمَّ أشغالِهِ في هٰذا اليومِ الدعاءُ ؛ ففي مثلِ تلكَ البقعةِ ومثلِ ذلكَ الجمعِ ترُجىٰ إجابةُ الدعواتِ[(٢)] .

---

(١) والتضرع والابتهال والبكاء ، وهنالك تسكب العبرات ، وتستقال العثرات ، وتنجح الطلبات ، فقد ثبت ـ كما روى الطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٩١٣) ـ عن ابن عباس قال : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بعرفة بالموقف ويداه إلىٰ صدره كاستطعام المسكين) . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٧١) .

(٢) حيث يجتمع في هٰذا المكان المبارك خيارُ عباد الله ، ومن لا يشقىٰ بهم جليسهم من أولياء الله ، وببركاتهم وأسرارهم ترجىٰ إجابة الدعوات . انظر «الإتحاف» (٤/ ٣٧٣).

والدعاءُ المأثورُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعنِ السلفِ في يومِ عرفةَ أولىٰ ما يدعو بهِ ، فليقلْ :

لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ يُحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ(١) .

اللهمَّ ؛ اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي لسانِي نوراً ، اللهمَّ ؛ اشرحْ لي صدري ، ويسِّرْ لي أمرِي(٢) .

وليقلْ : اللهمَّ ، ربَّ الحمدِ ؛ لكَ الحمدُ كما نقولُ ، وخيراً ممَّا نقولُ ، لكَ صلاتي ونسكي ، ومحيايَ ومماتي ، وإليكَ مآبي ، وإليكَ ثوابي ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ وساوسِ الصدرِ ، وشتاتِ الأمرِ ، وعذابِ القبرِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما يلجُ في الليلِ ، ومِنْ شرِّ ما يلجُ في النهارِ ، ومِنْ شرِّ ما تهبُّ بهِ الرياحُ ، ومِنْ شرِّ بوائقِ الدهرِ(٣) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥) مرفوعاً بلفظ : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير » ، وإلىٰ قوله : « لا شريك له » عند مالك في « الموطأ » (١/ ٤٢٢) مرسلاً ، وهو بتمامه من رواية ابن بكار البصري كما في « جمهرة الأجزاء الحديثية » (ص ١٦٨) من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ١١٧) موصولاً ببعض الدعاء السابق ، من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٣٠) بنحوه ، وبعضه بعض حديث البيهقي المتقدم ، من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ، وقوله : (ثوابي) من الثَّوْب ؛ أي : رجوعي ، أو هو علىٰ ظاهره .

اللهمَّ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ تحوُّلِ عافيتِكَ، وفجأةِ نقمتِكَ، وجميعِ سخطِكَ[1].

اللهمَّ ؛ اهدني بالهدىٰ ، واغفرْ لي في الآخرةِ والأولىٰ[2] ، يا خيرَ مقصودٍ ، وأيسرَ منزولٍ عليهِ ، وأكرمَ مسؤولٍ ما لديهِ ؛ أعطني العشيَّةَ أفضلَ ما تعطي أحداً مِنْ خلقِكَ وحجَّاجِ بيتِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ ، اللهمَّ ؛ يا رفيعَ الدرجاتِ ، ومنزِّلَ البركاتِ ، ويا فاطرَ الأرضينَ والسماواتِ ؛ ضجَّتْ إليكَ الأصواتُ بصنوفِ اللغاتِ يسألونَكَ الحاجاتِ ، وحاجتي إليكَ ألا تنساني في دارِ البِلىٰ إذا نسيني أهلُ الدنيا[3] .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ تسمعُ كلامي ، وترىٰ مكاني ، وتعلمُ سرِّي وعلانيتي ، ولا يخفىٰ عليكَ شيءٌ مِنْ أمري ، أنا البائسُ الفقيرُ ، المستغيثُ المستجيرُ ، الوجِلُ المشفقُ المعترفُ بذنبِهِ ، أسأَلُكَ مسألةَ المسكينِ ، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ المذنبِ الذليلِ ، وأدعوكَ دعاءَ الخائفِ الضريرِ ، دعاءَ مَنْ خضعتْ لكَ رقبتُهُ ، وفاضتْ لكَ عبرتُهُ ، وذلَّ لكَ جسدُهُ ، ورغمَ لكَ أنفُهُ ، اللهمَّ ؛ لا تجعلني بدعائِكَ ربِّ شقياً ، وكنْ بي رؤوفاً رحيماً ، يا خيرَ المسؤولينَ ، وأكرمَ المعطينَ[4] .

---

(١) رواه مسلم (٣٧٣٩) من دعائه صلى الله عليه وسلم عموماً .

(٢) رواه بنحوه الطبراني في « الدعاء » (٨٧٨) ، من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٧٥) عن سفيان بن عيينة ، عن أعرابي سمعه يدعو به وهو متعلق بأستار الكعبة .

(٤) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٤٧) من دعائه صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ، =

إلـٰهي ؛ مَنْ مدحَ إليكَ نفسَهُ . . فإنِّي لائمٌ لنفسي .

إلـٰهي ؛ أخرستِ المعاصي لساني ، فما لي وسيلةٌ مِنْ عملٍ ، ولا شفيعٌ سوى الأملِ .

إلـٰهي ؛ إنِّي أعلمُ أنَّ ذنوبي لمْ تُبْقِ لي عندَكَ جاهاً ، ولا للاعتذارِ وجهاً ، ولكنَّكَ أكرمُ الأكرمينَ .

إلـٰهي ؛ إنْ لم أكُ أهلاً أنْ أبلغَ رحمتَكَ . . فإنَّ رحمتَكَ أهلٌ أنْ تبلغَني ، رحمتُكَ وسعَتْ كلَّ شيءٍ ، وأنا شيءٌ[1] .

إلـٰهي ؛ إنَّ ذنوبي وإنْ كانتْ عظاماً ، ولكنَّها صغارٌ في جنْبِ عفوِكَ ؛ فاغفرْها لي يا كريمُ[2] .

إلـٰهي ؛ أنتَ أنتَ ، وأنا أنا ، أنا العوَّادُ إلى الذنوبِ ، وأنتَ العوَّادُ إلى المغفرةِ[3] .

= وسيأتي المصنف فيما يلي بمناجاة قال فيها الحافظ العراقي : (وباقي الدعاء من قول بعض السلف ، وفي بعضه ما هو مرفوع ، ولكن ليس مقيداً بموقف عرفة) .

(١) روىٰ هـٰذا الدعاء أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٩٨) عن عمر بن عبد العزيز ، وزاد : (اللهم ؛ إنك خلقت قوماً فأطاعوك فيما أمرتهم ، وعملوا في الذي خلقتهم له ، فرحمتك إياهم كانت قبل طاعتهم لك يا أرحم الراحمين) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/١٥٦) من دعاء عبد الملك بن مروان ، وقال فيه الشعبي : (ما حسدت أحداً علىٰ كلام تكلم به ما حسدت عبد الملك بن مروان ، فإني سمعته يقول . . .) وذكره .

(٣) روىٰ تمام في « فوائده » (١٦٩٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/١٤٩) =

إلـهي ؛ إنْ كنتَ لا ترحمُ إلا أهلَ طاعتكَ . . فإلىٰ منْ يفزعُ المذنبونَ ؟!(١) .

إلـهي ؛ تجنبْتُ عنْ طاعتِكَ عمْداً ، وتوجهتُ إلىٰ معصيتِكَ قصداً ، فسبحانَكَ ما أعظمَ حُجَّتَكَ عليَّ ، وأكرمَ عفوَكَ عنِّي ، فبوجوبِ حجَّتِكَ عليَّ ، وانقطاعِ حجَّتي عنكَ ، وفقري إليكَ ، وغناكَ عنِّي . . إلا غفرتَ لي(٢) .

يا خيرَ مَنْ دعاهُ داعٍ ، وأفضلَ مَنْ رجاهُ راجٍ ؛ بحرمةِ الإسلامِ ، وبذمَّةِ محمدٍ عليهِ السلامُ أتوسَّلُ إليكَ ، فاغفرْ لي جميعَ ذنوبي ، واصرفني مِنْ موقفي هـٰذا مقضيَّ الحوائجِ ، وهبْ لي ما سألتُ ، وحقِّقْ رجائي فيما تمنيتُ .

إلـهي ؛ دعوتُكَ بالدعاءِ الذي علَّمتَنيهِ(٣) ، فلا تحرمني الرجاءَ الذي عرَّفتَنيهِ .

= مرفوعاً : « مر رجل ممن كان قبلكم بجمجمة ، فوقف عليها وجعل يفكر ، فقال : يا رب ؛ أنت أنت ، وأنا أنا ، أنت العواد بالمغفرة ، وأنا العواد بالذنوب ، فقيل له : ارفع رأسك ، فأنت العواد بالذنوب ، وأنا العواد بالمغفرة ، قال : فغفر له » .

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٨) ضمن مناجاة ليحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٠٤) عن سفيان بن عيينة أنه سمع أعرابياً يدعوه في المقام .

(٣) أي : ألهمتني إياه . « إتحاف » (٤/ ٣٧٧) .

إلـهي ؛ ما أنتَ صانعٌ العشيةَ بعبدٍ مقرٍّ لكَ بذنبهِ ، خاشعٍ لكَ بذلِّهِ ، مستكينٍ بجرْمِهِ ، متضرِّعٍ إليكَ مِنْ عملِهِ ، تائبٍ إليكَ مِنِ اقترافِهِ ، مستغفرٍ لكَ مِنْ ظلمِهِ ، مبتهلٍ إليكَ في العفوِ عنْهُ ، طالبٍ إليكَ في نجاحِ حوائجِهِ ، راجٍ إليكَ في موقفِهِ معَ كثرةِ ذنوبِهِ ؟!

فيا ملجأَ كلِّ حيٍّ ، ووليَّ كلِّ مؤمنٍ ؛ مَنْ أحسنَ . . فبرحمتِكَ يفوزُ ، ومَنْ أساءَ . . فبخطيئتِهِ يهلَكُ .

اللهمَّ ؛ إليكَ خرجْنا ، وبفِنائِكَ أنخْنا ، وإيَّاكَ أمَّلْنا ، وما عندَكَ طلبْنا ، ولإحسانِكَ تعرَّضْنا ، ورحمتَكَ رجونا ، ومِنْ عذابِكَ أشفقْنا ، وإليكَ بأثقالِ الذنوبِ هربْنا ، ولبيتِكَ الحرامِ حججْنا ، يا مَنْ يملكُ حوائجَ السائلينَ ، ويعلمُ ضمائرَ الصامتينَ ، يا مَنْ ليسَ معَهُ ربٌّ يُدعىٰ ، ويا مَنْ ليسَ فوقَهُ خالقٌ يُخشىٰ ، ويا مَنْ ليسَ لهُ وزيرٌ يُؤتىٰ ، ولا حاجبٌ يُرشىٰ ، يا مَنْ لا يزدادُ على كثرةِ السؤالِ إلا كرماً وجوداً ، وعلىٰ كثرةِ الحوائجِ إلا تفضُّلاً وإحساناً(١) .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ جعلتَ لكلِّ ضيفٍ قرىً ، ونحنُ أضيافُكَ ؛ فاجعلْ قِرانا منكَ الجنَّةَ(٢) .

اللهمَّ ؛ إنَّ لكلِّ وفدٍ جائزةً ، ولكلِّ زائرٍ كرامةً ، ولكلِّ سائلٍ عطيةً ، ولكلِّ راجٍ ثواباً ، ولكلِّ ملتمسٍ لما عندَكَ جزاءً ، ولكلِّ مسترحمٍ عندَكَ

---

(١) أورد نحوه ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٢/ ٢٧١) عن الأصمعي ، عن أعرابية تدعو.

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٢) عن الأصمعي كذلك ، عن أعرابي يدعو في الملتزم .

رحمةً ، ولكلِّ راغبٍ إليكَ زلفىٰ ، ولكلِّ متوسِّلٍ إليكَ عفواً ، وقدْ وفدنا إلىٰ بيتِكَ الحرامِ ، ووقفْنا بهـٰذهِ المشاعرِ العظامِ وشهدْنا هـٰذهِ المشاهدَ الكرامَ ؛ رجاءً لما عندَكَ ، فلا تخيِّبْ رجاءَنا .

إلـٰهَنا ؛ تابعتَ النعمَ حتَّى اطمأنتِ الأنفسُ بتتابعِ نعمِكَ ، وأظهرتَ العِبرَ حتَّىٰ نطقَتِ الصوامتُ بحجَّتِكَ ، وظاهرتَ المننَ حتَّى اعترفَ أولياؤُكَ بالتقصيرِ عنْ حقِّكَ ، وأظهرتَ الآياتِ حتَّىٰ أفصحتِ السماواتُ والأرضونَ بأدلَّتِكَ ، وقهرتَ بقدرتِكَ حتَّىٰ خضَعَ كلُّ شيءٍ لعزَّتِكَ ، وعنتِ الوجوهُ لعظمتِكَ ، إذا أساءَ عبادُكَ . . حلُمْتَ وأمهلْتَ ، وإذا أحسنوا . . تفضلْتَ وقبلْتَ ، وإذا عصوا . . سترْتَ ، وإذا أذنبوا . . عفوْتَ وغفرْتَ ، وإذا دعونا . . أجبتَ ، وإذا نادينا . . سمعتَ ، وإذا أقبلْنا إليكَ . . قرُبْتَ ، وإذا ولَّيْنا عنكَ . . دعوتَ !

إلـٰهَنا ؛ إنَّكَ قلتَ في كتابِكَ المبينِ ، لمحمدٍ خاتَمِ النبيينَ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، فأرضاكَ عنهُمُ الإقرارُ بكلمةِ التوحيدِ بعدَ الجحودِ ، وإنَّا نشهدُ لكَ بالتوحيدِ مُخْبتينَ ، ولمحمدٍ بالرسالةِ مخلصينَ ؛ فاغفرْ لنا بهـٰذهِ الشهادةِ سوالفَ الإجرامِ ، ولا تجعلْ حظَّنا فيهِ أنقصَ مِنْ حظِّ مَنْ دخلَ في الإسلامِ .

إلـٰهَنا ؛ إنَّكَ أحببتَ التقرُّبَ إليكَ بعتْقِ ما ملكَتْ أيمانُنا ، ونحنُ عبيدُكَ ، وأنتَ أولىٰ بالتفضُّلِ ؛ فأعتقْنا ، وإنَّكَ أمرتَنا أنْ نتصدَّقَ علىٰ

فقرائِنا ، ونحنُ فقراؤُكَ ، وأنتَ أحقُّ بالتطوُّلِ ؛ فتصدَّقْ علينا ، ووصَّيتَنا بالعفوِ عمَّنْ ظلمَنا ، وقدْ ظلمْنا أنفسَنا ، وأنتَ أحقُّ بالكرمِ ؛ فاعفُ عنَّا .

ربَّنا ؛ اغفرْ لنا وارحمنا أنتَ مولانا .

ربَّنا ، آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً ، وقنا برحمتِكَ عذابَ النارِ[1] .

وليكثرْ مِنْ دعاءِ الخَضِرِ عليهِ السلامُ ، وهوَ أنْ يقولَ : (يا مَنْ لا يشغلُهُ شأْنٌ عنْ شأنٍ ، يا مَنْ لا يشغلُهُ سمعٌ عنْ سمعٍ ، ولا تشتبهُ عليهِ الأصواتُ ، يا منْ لا تغلطُهُ المسائلُ ، ولا تختلفُ عليهِ اللغاتُ ، يا مَنْ لا يبرمُهُ إلحاحُ الملحِّينَ ، ولا تضجرُهُ مسألةُ السائلينَ ؛ أذقْنا بردَ عفوِكَ وحلاوةَ رحمتِكَ)[2] .

وليدعُ بما بدا لهُ ، وليستغفرْ لنفسِهِ ولوالديهِ ولجميعِ المؤمنينَ والمؤمناتِ ، وليلحَّ في الدعاءِ ، وليعظمِ المسألةَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ .

قالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ وهوَ بعرفةَ : (اللهمَّ ؛ لا تردَّ الجميعَ منْ أجلي)[3] .

---

(١) ختم بها المناجاة تبركاً ، ولكونه جامعاً شاملاً لسائر خيور الدنيا والآخرة . « إتحاف » (٤/ ٣٧٨) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ٣٤٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/ ٤٢٥) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣/ ١١٩) .

وقالَ بكرٌ المزنيُّ : (قالَ رجلٌ : لمَّا نظرتُ إلىٰ أهلِ عرفاتٍ . . ظننتُ أنَّهُمْ قدْ غُفِرَ لهمْ لولا أنِّي كنتُ فيهِمْ)[1] .

* * *

(١) وهو بكر بن عبد الله المزني ، رواه عنه البيهقي في « الشعب » (٧٩٠٢ ، ٧٩٠٣) .

الجملة السابعة : في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف

فإذا أفاضَ مِنْ عرفةَ بعدَ غروبِ الشمسِ . . فينبغي أنْ يكونَ على السكينةِ والوقارِ ، وليجتنبْ وجيفَ الخيلِ وإيضاعَ الرِّكابِ كما يعتادُهُ بعضُ الناسِ[١] ؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنْ وجيفِ الخيلِ وإيضاعِ الإبلِ[٢] ، وقالَ : « اتقوا اللهَ ، وسيروا سيراً جميلاً ، لا تطؤوا ضعيفاً ، ولا تُوجِلُوا مسلماً »[٣] .

فإذا بلغَ المزدلفةَ . . اغتسلَ لها ؛ لأنَّ المزدلفةَ مِنَ الحرمِ ، فليدخلْهُ بغسْلٍ ، وإنْ قدرَ علىٰ دخولهِ ماشياً . . فهوَ أفضلُ وأقربُ إلىٰ توقيرِ الحرمِ ، ويكونُ في الطريقِ رافعاً صوتَهُ بالتلبيةِ .

فإذا بلغَ المزدلفةَ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذهِ مزدلفةُ ، جمعتَ فيها ألسنةً مختلفةً ، تسألُكَ حوائجَ مؤتنفةً[٤] ، فاجعلني ممَّنْ دعاكَ فاستجبتَ لهُ ، وتوكَّلَ عليكَ فكفيتَهُ) .

---

(١) **الوجيف** : الإسراع في السير ، **والإيضاع** : سير مثل الخبب ، فيه سرعة كذلك ، وقيل : حمل الركاب على السير .
(٢) كما في « البخاري » (١٦٧١)، و« أبي داوود » (١٩٢٠) ، و« النسائي » (٥/ ٢٥٧).
(٣) هو في معناه ضمن الحديث السابق ، وهو بلفظه مع النهي من رواية ابن البختري كما في « مجموع فيه مصنفاته » (٢٠٨) ، ومعنىٰ(**توجلوا**) : تؤذوا .
(٤) **مؤتنفة** : متجددة مستأنفة .

ثمَّ يجمعُ بينَ المغربِ والعشاءِ بمزدلفةَ في وقتِ العشاءِ قاصراً لها بأذانٍ وإقامتينِ ، ليسَ بينَهُما نافلةٌ ، ولكنْ يجمعُ نافلةَ المغربِ والعشاءِ والوترِ بعدَ الفريضتينِ ، ويبدأُ بنافلةِ المغربِ ، ثمَّ بنافلةِ العشاءِ كما في الفريضتينِ ، وهٰكذا يفعلُ الجامعُ في السفرِ ، فإنَّ تركَ النوافلِ في السفرِ خسرانٌ ظاهرٌ ، وتكليفُ إيقاعِها في الأوقاتِ إضرارٌ وقطعٌ للتبعيةِ بينَها وبينَ الفرائضِ ، فإذا جازَ أنْ يؤديَ النوافلَ معَ الفرائضِ بتيممٍ واحدٍ بحكمِ التبعيةِ . . فبأنْ يجوز أداؤُهُما علىٰ حكْمِ الجمعِ بالتبعيةِ أولىٰ ، ولا يمنعُ مِنْ هٰذا مفارقةُ النفلِ للفرضِ في جوازِ أدائِهِ على الراحلةِ ؛ لما أومأنا إليهِ مِنَ التبعيةِ والحاجةِ .

ثمَّ يمكثُ تلكَ الليلةَ بمزدلفةَ ، وهوَ مبيتُ نُسُكٍ ، ومَنْ خرجَ منها في النصفِ الأوَّلِ مِنَ الليلِ ولمْ يبتْ . . فعليهِ دمٌ ، وإحياءُ هٰذهِ الليلةِ الشريفةِ مِنْ محاسنِ القُرُباتِ لمَنْ يقدرُ عليهِ .

ثمَّ مهما انتصفَ الليلُ . . يأخذُ في التأهُّبِ للرحيلِ ، ويتزوَّدُ الحصىٰ منها ، ففيها أحجارٌ رَخوةٌ ، فليأخذْ سبعينَ حصاةً ؛ فإنَّها قدْرُ الحاجةِ ، ولا بأسَ بأنْ يستظهرَ بزيادةٍ ، فربما يسقطُ منهُ بعضُهُ ، ولتكنِ الحصىٰ خِفافاً ؛ بحيثُ يحتوي عليهِ أطرافُ البراجمِ .

ثمَّ ليغلسْ بصلاةِ الصبحِ ، وليأخذْ في المسيرِ ، حتَّىٰ إذا انتهىٰ إلى المشعرِ الحرامِ وهوَ آخرُ المزدلفةِ . . فيقفُ[1] ، ويدعو إلى الإسفارِ

(١) أي : علىٰ جبل قُزَح ، وعبارة المصنف في « الخلاصة » (ص٢٣٥) : (غلس =

ويقولُ : (اللهمَّ ؛ بحقِّ المشعرِ الحرامِ ، والبيتِ الحرامِ ، والشهرِ الحرامِ ، والركنِ والمقامِ . . بلِّغْ روحَ محمدٍ منَّا التحيَّةَ والسلامَ ، وأدخلْنا دارَ السلامِ ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ)(١) .

ثمَّ يدفعُ منها قبلَ طلوعِ الشمسِ حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ موضعٍ يقالُ لهُ : وادي مُحَسِّرٍ ، فيستحبُّ لهُ أنْ يحرِّكَ دابتَهُ حتَّىٰ يقطعَ عرْضَ الوادي ، وإنْ كانَ راجلاً . . أسرعَ في المشيِ .

ثمَّ إذا أصبحَ يومَ النحرِ . . خلطَ التلبيةَ بالتكبيرِ ، فيلبِّي تارةً ويكبِّرُ أخرىٰ ، فينتهي إلىٰ منىً ومواضعِ الجمراتِ ، وهيَ ثلاثةٌ ، فيجاوزُ الأولىٰ والثانيةَ . . فلا شغلَ لهُ معَهُما يومَ النحرِ ، حتَّىٰ ينتهيَ إلىٰ جمرةِ العقبةِ ، وهيَ علىٰ يمينِ مستقبلِ القبلةِ في الجادَّةِ ، والمرمىٰ مرتفعٌ قليلاً في سفحِ الجبلِ ، وهوَ ظاهرٌ بمواقعِ الجمراتِ ، ويرمي جمرةَ العقبةِ بعدَ طلوعِ الشمسِ بقِيْدِ رمْحٍ ، وكيفيتُهُ : أنْ يقفَ مستقبلاً للقبلةِ ـ وإنِ استقبلَ الجمرةَ . . فلا بأسَ ـ ويرمي سبعَ حصياتٍ رافعاً يدَهُ ، ويبدِّلُ التلبيةَ بالتكبيرِ ، ويقولُ معَ كلِّ حصاةٍ : (اللهُ أكبرُ ، علىٰ طاعةِ الرحمـٰنِ ورغمِ الشيطانِ ، اللهمَّ ؛ تصديقاً بكتابِكَ واتباعاً لسنَّةِ نبيِّكَ)(٢) .

= بالصبح ، ووقف علىٰ قزح للدعاء إلىٰ مقاربة شروق الشمس) .

(١) رواه أبو الشيخ في « طبقات المحدثين » (٤٤١) بنحوه غير مخصوص بمزدلفة .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٦٠٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٧٩) عن علي رضي الله تعالىٰ عنه .

فإذا رمىٰ . . قطعَ التلبيةَ والتكبيرَ ، إلا التكبيرَ عَقيبَ فرائضِ الصلواتِ مِنْ ظهرِ يومِ النحرِ إلىٰ عَقيبِ الصبحِ آخرَ أيامِ التشريقِ ، ولا يقفُ في هـٰذا اليومِ للدعاءِ ، بلْ يدعو في منزلِهِ .

وصفةُ التكبيرِ : أنْ يقولَ : (اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، مخلصينَ لهُ الدينَ ولوْ كرهَ الكافرونَ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ) .

ثمَّ ليذبحِ الهدْيَ إنْ كانَ معهُ ، والأولىٰ أنْ يذبحَ بنفسِهِ ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ ، اللهمَّ ، منكَ وبكَ ولكَ تقبَّلْ منِّي كما تقبَّلْتَ مِنْ خليلِكَ إبراهيمَ)(١) .

والتضحيةُ بالبُدْنِ أفضلُ ، ثمَّ بالبقرِ ، ثمَّ بالشاةِ ، والشاةُ أفضلُ مِنْ مشاركةِ ستةٍ في البَدَنَةِ أوِ البقرةِ ، والضأْنُ أفضلُ مِنَ المعزِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الأُضْحِيَةِ الكبشُ الأقرنُ »(٢) ، والبيضاءُ أفضلُ

---

(١) فقد ذبح رسول الله صلى الله عليه وسلم كبشين أقرنين أملحين مُوجَأين كما في « أبي داوود » (٢٧٩٥) . فلما وجههما قال : « إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض علىٰ ملة إبراهيم حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم ؛ منك ولك وعن محمد وأمته ، باسم الله والله أكبر » ثم ذبح .

(٢) رواه أبو داوود (٣١٥٦) ، والترمذي (١٥١٧) ، وابن ماجه (٣١٣٠) .

مِنَ الغبراءِ والسوداءِ ، وقالَ أبو هريرةَ : (البيضاءُ أفضلُ في الأضحىٰ مِنْ دمِ سوداوينِ)[1] .

وليأكلْ منهُ إنْ كانَ مِنْ هدْيِ التطوعِ ، ولا يضحينْ بالعرجاءِ والجدعاءِ والعضباءِ والجرباءِ والشرقاءِ والخرقاءِ والمقابلةِ والمدابرةِ والعجفاءِ ؛ والجَدَعُ في الأنفِ والأُذنِ : القطعُ منهما ، والعَضْبُ : في القرْنِ وفي نقصانِ القوائمِ ، والشرقاءُ : المشقوقةُ الأذنِ مِنْ فوقٍ ، والخرقاءُ : مِنْ أسفلَ ، والمقابلةُ : المخروقةُ الأذنِ مِنْ قدَّامٍ ، والمدابرةُ : مِنْ خلفٍ ، والعجفاءُ : المهزولةُ التي لا تُنْقِي ؛ أي : لا مخَّ لها مِنَ الهزالِ[2] .

ثمَّ ليحلقْ بعدَ ذلكَ ، والسنَّةُ أنْ يستقبلَ القبلةَ ، ويبتدىءَ بمقدَّمِ رأسِهِ ، فيحلقُ الشقَّ الأيمنَ إلى العظمينِ المشرفينِ على القفا ، ثمَّ يحلقُ الباقيَ ، ويقولُ : (اللهمَّ ؛ أثبتْ لي بكلِّ شعرةٍ حسنةً ، وامحُ عنِّي بها سيئةً ، وارفعْ لي بها عندَكَ درجةً)[3] .

والمرأةُ تقصِّرُ مِنْ شعرِها ، والأصلعُ يستحبُّ لهُ إمرارُ الموسىٰ علىٰ رأسِهِ ، ومهما حلقَ بعدَ رمي الجمرةِ . . فقدْ حصلَ لهُ التحلُّلُ الأوَّلُ ، وحلَّ

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤/ ٣٨٧) ، ورفعه أحمد في « المسند » (٢/ ٤١٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٢٧) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٨) .
(٣) فيه أثر رواه الفاكهي في « أخبار مكة » (١/ ١٩٠) ، ويكبر بعد الفراغ ، ويدفن شعره ، ويصلي بعده ركعتين ، وإن قصَّر . . فليقصر الجميع . انظر « الإتحاف » (٤/ ٣٩٩) .

لهُ كلُّ المحظوراتِ في الإحرامِ إلا النساءَ والصيدَ .

ثمَّ يفيضُ إلىٰ مكَّةَ ويطوفُ كما وصفناهُ ، وهـٰذا الطوافُ طوافُ ركنٍ في الحجِّ ، ويسمَّىٰ : طوافَ الزيارةِ ، وأوَّلُ وقتِهِ : بعدَ نصْفِ الليلِ مِنْ ليلةِ النحرِ ، وأفضلُ وقتِهِ : يومُ النحرِ ، ولا آخرَ لوقتِهِ ، بلْ لهُ أنْ يؤخِّرَ إلىٰ أيِّ وقتٍ شاءَ ، ولكنْ يبقىٰ متقيِّداً بعلقةِ الإحرامِ ، فلا تحلُّ لهُ النساءُ إلىٰ أنْ يطوفَ ، فإذا طافَ . . تمَّ التحلُّلُ ، وحلَّ الجماعُ ، وارتفعَ الإحرامُ بالكليَّةِ ، ولمْ يبقَ إلا رميُ أيامِ التشريقِ والمبيتُ بمنىً ، وهيَ واجباتٌ بعدَ زوالِ الإحرامِ علىٰ سبيلِ الإتباعِ للحجِّ .

وكيفيةُ هـٰذا الطوافِ معَ الركعتينِ كما سبقَ في طوافِ القدومِ ، فإذا فرغَ مِنَ الركعتينِ . . فليسعَ كما وصفنا إنْ لمْ يكنْ سعىٰ بعدَ طوافِ القدومِ ، وإنْ كانَ قدْ سعىٰ . . فقدْ وقعَ ذلكَ ركناً ، فلا ينبغي أنْ يعيدَ السعيَ .

وأسبابُ التحلُّلِ ثلاثةٌ : الرميُ ، والحلْقُ ، والطوافُ الذي هوَ ركنٌ ، ومهما أتىٰ باثنينِ مِنْ هـٰذهِ الثلاثةِ . . فقدْ تحلَّلَ أحدَ التحلُّلينِ ، ولا حرجَ عليهِ في التقديمِ والتأخيرِ في هـٰذهِ الثلاثِ معَ الذبحِ ، ولكنِ الأحسنُ أنْ يرميَ ، ثمَّ يذبحَ ، ثمَّ يحلقَ ، ثمَّ يطوفَ .

والسنةُ للإمامِ في هـٰذا اليومِ : أنْ يخطبَ بعدَ الزوالِ ، وهيَ خطبةُ وداعِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، **ففي الحجِّ أربعُ خطبٍ** : خطبةُ يومِ

---

(١) كما في « البخاري » (٩٦٨) ، ومسلم (١٦٧٩) ، وهي خطبة يوم النحر .

السابعِ ، وخطبةُ يومِ عرفةَ ، وخطبةُ يومِ النحرِ ، وخطبةُ يومِ النفْرِ الأوَّلِ ، وكلُّها عَقيبَ الزوالِ ، وكلُّها أَفرادٌ إلا خطبةَ يومِ عرفةَ وخطبةَ يومِ العيدِ ؛ فإنَّهُما خطبتانِ بينَهُما جلسةٌ .

ثمَّ إذا فرغَ مِنَ الطوافِ . . عادَ إلىٰ منىً للمبيتِ والرميِ ، فيبيتُ تلكَ الليلةَ بمنىً ، وتسمَّىٰ ليلةَ القَرِّ ؛ لأنَّ الناسَ في غدِها يقَرُّونَ بمنىً ولا ينفرونَ .

فإذا أصبحَ اليومُ الثاني مِنَ العيدِ وزالتِ الشمسُ . . اغتسلَ للرمي ، وقصدَ الجمرةَ الأولى التي تلي عرفةَ ، وهيَ علىٰ يمينِ الجادَّةِ ، ويرمي إليها بسبعِ حصياتٍ ، فإذا تعدَّاها . . انحرفَ قليلاً عنْ يمينِ الجادَّةِ ، ووقفَ مستقبلَ القبلةِ وحَمِد اللهَ تعالىٰ ، وهلَّلَ وَكبَّرَ ، ودعا معَ حضورِ القلبِ وخشوعِ الجوارحِ ، ووقفَ مستقبلَ القبلةِ قدْرَ قراءةِ (سورةِ البقرةِ) مقبلاً على الدعاءِ .

ثمَّ يتقدَّمُ إلى الجمرةِ الوسطىٰ ، ويرمي كما رمى الأُولىٰ ، ويقفُ كما وقفَ للأُولىٰ .

ثمَّ يتقدَّمُ إلىٰ جمرةِ العقبةِ ويرمي سبعاً ، ولا يعرِّجُ علىٰ شغلٍ ، ولا يقفُ لدعاءٍ ، بلْ يرجعُ إلىٰ منزلِهِ ، ويبيتُ تلكَ الليلةَ بمنىً ، وتسمَّىٰ هـٰذهِ الليلةُ ليلةَ النَّفرِ الأوَّلِ .

ويصبحُ ، فإذا صلَّى الظهرَ في اليومِ الثاني مِنْ أيامِ التشريقِ . . رمىٰ في

هـٰذا اليومِ إحدىٰ وعشرينَ حصاةً كاليومِ الذي قبلَهُ ، ثمَّ هوَ مخيَّرٌ بينَ المُقامِ بمنىً وبينَ العودِ إلىٰ مكَّةَ ، فإنْ خرجَ مِنْ منىً قبلَ غروبِ الشمسِ . . فلا شيءَ عليهِ ، وإنْ صبرَ إلى الليلِ . . فلا يجوزُ لهُ الخروجُ ، بلْ يلزمُهُ المبيتُ حتَّىٰ يرميَ في يومِ النَّفَرِ الثاني إحدىٰ وعشرينَ حصاةً كما سبقَ .

وفي تركِ المبيتِ والرمي إراقةُ دمٍ ، وليتصدَّقْ باللحمِ[1] ، ولهُ أنْ يزورَ البيتَ في ليالي منىً ، بشرطِ ألا يبيتَ إلا بمنىً ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يفعلُ ذلكَ[2] ، ولا يتركنْ حضورَ الفرائضِ معَ الإمامِ في مسجدِ الخَيْفِ ؛ فإنَّ فضلَهُ عظيمٌ ، فإذا أفاضَ مِنْ منىً . . فالأَوْلىٰ أنْ يقيمَ بالمُحَصَّبِ مِنْ منىً ، ويصليَ العصرَ والمغربَ والعشاءَ ، ويرقدَ رقدةً ، فهوَ السنَّةُ ، رواهُ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ[3] فإنْ لمْ يفعلْ ذلكَ . . فلا شيءَ عليهِ .

* * *

---

(١) فلا يجوز له الأكل منه ؛ لأنه دم واجب .

(٢) روىٰ ذلك ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٤٤٩٢) ، وأبو داوود في « المراسيل » (١٥١) .

(٣) رواه البخاري (١٧٦٩) وزاد صلاة الظهر ، وهو كذلك عند أبي داوود (٢٠١٣) ، وقول المصنف : (رُوِيَ ذلك عن جماعة من الصحابة) فالمراد بهم : أبو بكر وعمر وابن عمر كما في « صحيح مسلم » (١٣١١) ، وعثمان كما عند الترمذي (٩٢١) ، وابن ماجه (٣٠٦٩) ، وقد رُوي إنكاره عن عائشة وابن عباس وطاووس ومجاهد وسعيد بن جبير ، والله أعلم . « إتحاف » (٤/٤٠٦) .

الجملة الثامنة : في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

مَنْ أرادَ أنْ يعتمرَ بعدَ حجِّهِ أوْ قبلَهُ كيفما أرادَ . . فليغتسلْ ، وليلبسْ ثيابَ الإحرامِ كما سبقَ في الحجِّ ، ويحرمْ بالعمرةِ مِنْ ميقاتِها .

وأفضلُ مواقيتِها : الجِعْرَانةُ ، ثمَّ التنعيمُ ، ثمَّ الحديبيَةُ .

وينوي العمرةَ ويلبِّي ، ويقصدُ مسجدَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، ويصلِّي ركعتينِ ويدعو بما شاءَ ، ثمَّ يعودُ إلىٰ مكَّةَ وهوَ يلبِّي حتَّىٰ يدخلَ المسجدَ الحرامَ ، فإذا دخلَ المسجدَ . . تركَ التلبيةَ ، وطافَ سبعاً ، وسعىٰ سبعاً كما وصفناهُ ، فإذا فرغَ . . حلقَ رأسَهُ وقدْ تمَّتْ عمرتُهُ .

والمقيمُ بمكَّةَ ينبغي أنْ يكثرَ الاعتمارَ والطوافَ ، وليكثرِ النظرَ إلى البيتِ ، فإذا دخلَهُ . . فليصلِّ ركعتينِ بينَ العمودينِ ، فهوَ الأفضلُ ، وليدخلْهُ حافياً موقِّراً ، قيلَ لبعضِهِمْ : هلْ دخلتَ بيتَ ربِّكَ اليومَ ؟ فقالَ : واللهِ ؛ ما أرىٰ هاتينِ القدمينِ أهلاً للطوافِ حولَ بيتِ ربِّي ، فكيفَ أراهما أهلاً لأنْ أطأَ بهما بيتَ ربِّي وقدْ علمتُ حيثُ مشتا ، وإلىٰ أينَ مشتا ؟ ![1] .

وليكثرْ شربَ ماءِ زمزمَ ، وليستقِ بيدِهِ مِنْ غيرِ استنابةٍ إنْ أمكنَهُ ، وليرتوِ منهُ حتَّىٰ يتضلَّعَ ، وليقلْ : (اللهمَّ ؛ اجعلْهُ شفاءً مِنْ كلِّ داءٍ وسقمٍ ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥٠) عن وهيب بن الورد ، عن امرأة قالت ذلك .

وارزقني الإخلاصَ واليقينَ والمعافاةَ في الدنيا والآخرةِ)[١] .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ماءُ زمزمَ لما شربَ لهُ » أي : يشفي ما قصدَ بهِ[٢] .

* * *

---

(١) روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (١١٣) ، والدارقطني في « سننه » (٢/ ٢٨٨) عن عكرمة قال : (كان ابن عباس إذا شرب من زمزم . . قال : اللهم ؛ إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء) .
وروى ابن ماجه (٣٠٦١) عن عبد الرحمـٰن بن أبي بكر قال : (كنت عند ابن عباس جالساً ، فجاءه رجل ، فقال : من أين جئت ؟ قال : من زمزم ، قال : فشربت منها كما ينبغي ؟ قال : وكيف ؟ قال : إذا شربت منها . . فاستقبل القبلة ، واذكر اسم الله ، وتنفس ثلاثاً ، وتضلع منها ـ والتضلع : الامتلاء حتىٰ تمتد الأضلاع ـ فإذا فرغت . . فاحمد الله عز وجل ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم ») .
وفي « البخاري » (٥٦١٧) ، و« مسلم » (٢٠٢٧) : (أنه صلى الله عليه وسلم شرب من زمزم قائماً) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٠٦٢) ، وقول المصنف : (يشفي ما قصد به) ليس تخصيصاً ، فقد روى الدارقطني في « سننه » (٢/ ٣٨٩) مرفوعاً : « ماء زمزم لما شرب له ؛ إن شربته تستشفي به . . شفاك الله ، وإن شربته لشبعك . . أشبعك الله به ، وإن شربته ليقطع ظمأك . . قطعه الله ، وهي هزمة جبريل ، وسقيا الله إسماعيل » ، وروى الدينوري في « المجالسة » (ص٨٦) عن الحميدي قال : (كنا عند سفيان بن عيينة ، فحدثنا بحديث زمزم أنه لما شرب له ، فقام رجل من المجلس ثم عاد ، فقال له : يا أبا محمد ؛ أليس الحديث صحيحاً الذي حدثتنا به في زمزم أنه لما شرب له ؟ فقال سفيان : نعم ، فقال الرجل : فإني قد شربت الآن دلواً من زمزم علىٰ أنك تحدثني بمئة حديث ـ وعند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/ ٣٠٨) : بمئتي حديث ـ فقال سفيان : اقعد ، فحدثه بمئة حديث) .

الجملة التاسعة : في طواف الوداع

مهما عنَّ لهُ الرجوعُ إلى الوطنِ بعدَ الفراغِ مِنْ إتمامِ الحجِّ والعمرةِ.. فلينجزْ أوّلاً أشغالَهُ ، وليشدَّ رحالَهُ ، وليجعلْ آخرَ أشغالِهِ وداعَ البيتِ ، ووداعُهُ بأنْ يطوفَ بهِ سبعاً كما سبقَ ، ولكنْ مِنْ غيرِ رَمَلٍ واضطباعٍ .

فإذا فرغَ منهُ.. صلَّىٰ ركعتينِ خلفَ المقامِ ، وشربَ مِنْ ماءِ زمزمَ ، ثمَّ يأتي الملتزمَ ، ويدعو ويتضرَّعُ ، ويقولُ : (اللهمَّ ؛ البيتُ بيتُكَ ، والعبدُ عبدُكَ وابنُ عبدِكَ وابنُ أمتِكَ ، حملتَني علىٰ ما سخرتَ لي مِنْ خلقِكَ حتَّىٰ سيرتَني في بلادِكَ ، وبلغتَني بنعمتِكَ حتَّىٰ أعنتَني علىٰ قضاءِ مناسكِكَ ، فإنْ كنتَ رضيتَ عنّي.. فازددْ عنّي رضاً ، وإلا.. فمُنَّ الآنَ قبلَ تباعدي عنْ بيتِكَ[1] ، هٰذا أوانُ انصرافي إنْ أذنتَ لي غيرَ مستبدِلٍ بكَ ولا ببيتِكَ ، ولا راغبٍ عنْكَ ولا عنْ بيتِكَ ، اللهمَّ ؛ أصحبْني العافيةَ في بدني ، والعصمةَ في ديني ، وأحسنْ منقلبي ، وارزقني طاعتَكَ ما أبقيتَني ، واجمعْ لي خيرَ الدنيا والآخرةِ ؛ إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، اللهمَّ ؛ لا تجعلْ هٰذا آخرَ عهدي ببيتِكَ الحرامِ ، وإنْ جعلتَهُ آخرَ

---

(١) ذكر الإمام النووي رحمه الله في قوله : (فمن الآن) ثلاثة أوجه : فمُنَّ الآنَ ، فمَنَ الآنَ ، فمِنَ الآنَ ، ورجح الأول . انظر « المجموع » (٨/ ١٨٩) .

عهدي . . فعوضني عنهُ الجنَّةَ)[١] .

والأحبُّ : ألا يصرفَ بصرَهُ عنِ البيتِ حتَّىٰ يغيبَ عنهُ .

* * *

(١) رویٰ هـٰذا الدعاء البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ١٦٤) عن الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه وفيه : (أحب له إذا ودع البيت . . .) .

الجملة العاشرة : في زيارة المدينة وآدابها

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارني بعدَ وفاتي .. فكأنَّما زارني في حياتي »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ وجدَ سعةً ولمْ يفدْ إليَّ .. فقدْ جفاني »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جاءَني زائراً لا يهمُّهُ إلا زيارتي .. كانَ حقّاً على اللهِ سبحانَهُ أنْ أكونَ لهُ شفيعاً »(٣) .

فمنْ قصدَ زيارةَ المدينةِ .. فليصلِّ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في طريقِهِ كثيراً .

فإذا وقعَ بصرُهُ علىٰ حيطانِ المدينةِ وأشجارِها .. قالَ : (اللهمَّ ؛ هٰذا

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٨٩ ، ٣٤٠٠) ، والدارقطني في « سننه » (٢/ ٢٧٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٤٦) ، وانظر « شفاء السقام » (ص٣٢) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٤) ، والدارقطني في « غرائب مالك » ، وانظر « شفاء السقام » (ص٢٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢٩١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ١٩٠) ، وصححه سعيد بن السكن كما في « شفاء السقام » (ص١٦ ، ٢٠) ، والإمام تقي الدين السبكي جمع في « شفائه » من الأحاديث والأخبار في تأييد هٰذا المعنىٰ ما هو المغنَىٰ .

حرمُ رسولِكَ ، فاجعلْهُ لي وقايةً مِنَ النارِ ، وأماناً مِنَ العذابِ وسوءِ الحسابِ) .

وليغتسلْ قبلَ الدخولِ مِنْ بئرِ الحَرَّةِ ، وليتطيَّبْ ، وليلبسْ أفضلَ ثيابِهِ وأنظفَها ، فإذا دخلَها . . فليدخلْها متواضعاً معظِّماً ، وليقلْ : (باسمِ اللهِ وعلىٰ ملَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ربِّ ؛ أدخلني مُدْخَلَ صدْقٍ ، وأخرجني مُخْرَجَ صدقٍ ، واجعلْ لي مِنْ لدنْكَ سُلطاناً نصيراً) .

ثمَّ يقصدُ المسجدَ ويدخلُهُ[1] ، ويصلِّي بجنْبِ المنبرِ ركعتينِ ، ويجعلُ عمودَ المنبرِ حذاءَ مَنكبِهِ الأيمنِ ، ويستقبلُ الساريةَ التي إلىٰ جانبِها الصندوقُ ، وتكونُ الدائرةُ التي في قبلةِ المسجدِ بينَ عينيهِ ؛ فذلكَ موقفُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يغيَّرَ المسجدُ ، وليجتهدْ أنْ يصليَ في مسجدِهِ الأوَّلِ قبلَ أنْ يزادَ فيهِ .

ثمَّ يأتي قبرَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيقفُ عندَ وجهِهِ ، وذلكَ بأنْ يستدبرَ القبلةَ ويستقبلَ جدارَ القبرِ علىٰ نحوٍ مِنْ أربعةِ أذرعٍ مِنَ الساريةِ التي في زاويةِ جدارِ القبرِ ، ويجعلُ القنديلَ علىٰ رأسِهِ[2] ، وليسَ مِنَ السنَّةِ أنْ يمسَّ

---

(١) من باب جبريل عليه السلام ، مقدماً يمناه في الدخول ، قائلاً : باسم الله ، اللهم ، رب محمد ؛ صلِّ علىٰ محمد ، ربِّ ؛ اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك . « إتحاف » (٤١٧/٤) .

(٢) كذا رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٧١) عن ابن أبي مليكة ، واليوم ثَمَّ الشباك الذي هو في المواجهة الشريفة .

الجدارَ ، ولا أنْ يقبِّلَهُ[1] ، بلِ الوقوفُ مِنْ بعدٍ أقربُ إلى الاحترامِ ، فيقفُ ويقولُ : (السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا نبيَّ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا أمينَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا حبيبَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا صفوةَ اللهِ ،

---

(١) فقد روى ابن عاصم الأصبهاني في « جزئه » (٢٧) عن نافع : (أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يكره مس قبر النبي صلى الله عليه وسلم) .
قال الحافظ الذهبي في « معجم الشيوخ » (١/ ٧٣) معلقاً علىٰ هـٰذه الرواية بعدما رواها من طريق أحمد بن عبد المنعم القزويني : (قلت : كره ذلك لأنه رآه إساءة أدب ، وقد سئل أحمد ابن حنبل عن مس القبر النبوي وتقبيله . . فلم يرَ بذلك بأساً ، رواه عنه ولده عبد الله بن أحمد ، فإن قيل : فهلا فعل ذلك الصحابة ؟ قيل : لأنهم عاينوه حياً وتملَّوا به ، وقبَّلُوا يده ، وكادوا يقتتلون علىٰ وضوئه ، واقتسموا شعره المطهر يوم الحج الأكبر ، وكان إذا تنخم لا تكاد نخامته تقع إلا في يد رجل فيدلك بها وجهه ، ونحن فلمَّا لم يصح لنا مثل هـٰذا النصيب الأوفر . . ترامينا علىٰ قبره بالالتزام والتبجيل والاستلام والتقبيل ، ألا ترىٰ فعل ثابت البناني ؛ كان يقبِّل يد أنس بن مالك ويضعها علىٰ وجهه ويقول : يد مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهـٰذه الأمور لا يحركها من المسلم إلا فرط حبه للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ هو مأمور بأن يحب الله ورسوله أشد من حبه لنفسه وولده والناس أجمعين ، ومن أمواله ومن الجنة وحورها ، بل خلْقٌ من المؤمنين يحبون أبا بكر وعمر أكثر من حب أنفسهم ، حكىٰ لنا جندار أنه كان بجبل البقاع ، فسمع رجلاً سب أبا بكر ، فسلَّ سيفه وضرب عنقه ، ولو كان سمعه يسبه أو يسب أباه . . لما استباح دمه ، ألا ترى الصحابة في فرط حبهم للنبي صلى الله عليه وسلم قالوا : ألا نسجد لك ؟ فقال : « لا » ، فلو أذن لهم . . لسجدوا له سجود إجلال وتوقير ، لا سجود عبادة ؛ كما قد سجد إخوة يوسف عليه السلام ليوسف ، وكذلك القول في سجود المسلم لقبر النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ سبيل التعظيم والتبجيل لا يكفَّر به أصلاً بل يكون عاصياً ، فليعرف أن هـٰذا منهي عنه ، وكذلك الصلاة إلى القبر) ، وله كذلك نحو هـٰذا في « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٤٢) و(١١/ ٢١٢) .

السلامُ عليكَ يا خيرةَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا أحمدُ ، السلامُ عليكَ يا محمدُ ، السلامُ عليكَ يا أبا القاسمِ ، السلامُ عليكَ يا ماحي ، السلامُ عليكَ يا عاقبُ ، السلامُ عليكَ يا حاشرُ ، السلامُ عليكَ يا بشيرُ ، السلامُ عليكَ يا نذيرُ ، السلامُ عليكَ يا طُهْرُ ، السلامُ عليكَ يا طاهرُ ، السلامُ عليكَ يا أكرمَ ولدِ آدمَ ، السلامُ عليكَ يا سيِّدَ المرسلينَ ، السلامُ عليكَ يا خاتمَ النبيينَ ، السلامُ عليكَ يا رسولَ ربِّ العالمينَ ، السلامُ عليكَ يا قائدَ الخيرِ ، السلامُ عليكَ يا فاتحَ البرِّ[١] ، السلامُ عليكَ يا نبيَّ الرحمةِ ، السلامُ عليكَ يا هاديَ الأمَّةِ ، السلامُ عليكَ يا قائدَ الغرِّ المحجلينَ .

السلامُ عليكَ وعلىٰ أهلِ بيتِكَ الذينَ أذهبَ اللهُ عنهمُ الرجسَ وطَهَّرَهُم تطهيراً .

السلامُ عليكَ وعلىٰ أصحابِكَ الطيبينَ وعلىٰ أزواجِكَ الطاهراتِ أمهاتِ المؤمنينَ .

جزاكَ اللهُ عنَّا أفضلَ ما جزىٰ نبيّاً عنْ قومِهِ ، ورسولاً عنْ أمَّتِهِ ، وصلَّىٰ عليكَ كلَّما ذكرَكَ الذاكرونَ ، وكلَّما غفلَ عنكَ الغافلونَ وصلَّىٰ عليكَ في الأوَّلينَ والآخرينَ أفضلَ وأكملَ وأعلىٰ وأجلَّ وأطيبَ وأطهرَ ما صلَّىٰ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِهِ ، كما استنقذَنا بكَ مِنَ الضلالةِ ، وبصَّرَنا بكَ مِنَ العَمايةِ[٢] ، وهدانا بكَ مِنَ الجهالةِ .

---

(١) بالكسر ، وهو الخير والفضل ؛ أي : فاتح أبوابه ومقرب أسبابه . «إتحاف» (٤/ ٤١٨) .

(٢) **استنقذنا** : خلصنا ، **والعماية** : الغواية ، والحيرة ، والظلمة .

أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّكَ عبدُهُ ورسولُهُ ، وأمينُهُ وصفيُّهُ ، وخيرتُهُ مِنْ خلقِهِ ، وأشهدُ أنَّكَ قدْ بلغتَ الرسالةَ ، وأديتَ الأمانةَ ، ونصحتَ الأمَّةَ ، وجاهدْتَ عدوَّكَ ، وهديتَ أمَّتَكَ ، وعبدتَ ربَّكَ حتَّىٰ أتاكَ اليقينُ ، فصلَّى اللهُ عليكَ وعلىٰ أهلِ بيتِكَ الطيبينَ ، وسلَّمَ وكرَّمَ وشرَّفَ وعظَّمَ) .

وإنْ كانَ قدْ أوصيَ بتبليغِ سلامٍ[١] .. فيقولُ : (السلامُ عليكَ مِنْ فلانٍ ، السلامُ عليكَ مِنْ فلانٍ) .

ثمَّ يتأخَّرُ قدْرَ ذراعٍ ، ويسلِّمُ علىٰ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ لأنَّ رأسَهُ عندَ مَنْكِبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ورأسُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ عندَ منكبِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ[٢] . ثمَّ يتأخرُ قدْرَ ذراعٍ ، ويسلِّمُ على الفاروقِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، ويقولُ : (السلامُ عليكما يا وزيري رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، والمعاونينِ لهُ على القيامِ بالدِّينِ ما دامَ حيّاً ، والقائمينِ في أمَّتِهِ بعدَهُ بأمورِ الدينِ ، تتبعانِ في ذلكَ آثارَهُ ، وتعملانِ بسنَّتِهِ ، فجزاكُما اللهُ خيرَ ما جزىٰ وزراءَ نبيٍّ عنْ دينِهِ) .

ثمَّ يرجعُ ، فيقفُ عندَ رأسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ القبرِ

---

(١) وهـٰذه الوصاية بإبلاغه صلى الله عليه وسلم السلام من فعل السلف ، وقد روى البيهقي في « الشعب » (٣٨٦٩) عن حاتم بن وردان قال : (كان عمر بن عبد العزيز يوجه بالبريد قاصداً إلى المدينة ليقرىء عنه النبي صلى الله عليه وسلم السلام) .

(٢) نقل ذلك أبو زرعة كما في « الشعب » (٣٨٧٥) .

والأُسطوانَةِ اليومَ ، ويستقبلُ القبلةَ ، وليحمدِ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وليمجدْهُ ، وليكثرْ مِنَ الصلاةِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ يقولُ : (اللهمَّ ، إنَّكَ قدْ قلتَ وقولُكَ الحقُّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

اللهمَّ ؛ إنَّا قدْ سمعْنا قولَكَ ، وأطعْنا أمرَكَ ، وقصدنا نبيَّكَ ، مستشفعينَ بهِ إليكَ في ذنوبِنا وما أثقلَ ظهورَنا مِنْ أوزارِنا ، تائبينَ مِنْ زللِنا ، معترفينَ بخطايانا وتقصيرِنا ، فتبِ اللهمَّ علينا ، وشفِّعْ نبيَّكَ هٰذا فينا[1] ، وارفعْنا بمنزلتِهِ عندَكَ وحقِّهِ عليكَ .

اللهمَّ ؛ اغفرْ للمهاجرينَ والأنصارِ ، واغفرْ لنا ولإخوانِنا الذينَ سبقونا بالإيمانِ .

اللهمَّ ؛ لا تجعلْهُ آخرَ العهدِ مِنْ قبرِ نبيِّكَ ومِنْ حرمِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ)[2] .

ثمَّ يأتي الروضةَ ، فيصلِّي فيها ركعتينِ ، ويكثرُ مِنَ الدعاءِ ما استطاعَ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما بينَ قبري ومنبري روضةٌ

---

(١) ويشير بذلك إلىٰ حضرته صلى الله عليه وسلم بالتفات وجهه إليه . « إتحاف » (٤/ ٤٢٢) .

(٢) وإن لم يستحضر هٰذا الدعاء.. فليدع بما أحب وألهمه الله علىٰ لسانه وقلبه . « إتحاف » (٤/ ٤٢٢) .

مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، ومنبري علىٰ حوضي »[1] .

ويدعو عندَ المنبرِ ، ويستحبُّ أنْ يضعَ يدَهُ على الرمَّانَةِ السفلى التي كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يضعُ يدهُ عليها عندَ الخطبةِ[2] .

ويستحبُّ لهُ أنْ يأتيَ أُحُداً يومَ الخميسِ[3] ، ويزورَ قبورَ الشهداءِ ، فيصلِّي الغداةَ في مسجدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ يخرجُ ويعودُ إلى المسجدِ لصلاةِ الظهرِ ، فلا تفوتُهُ فريضةٌ في الجماعةِ في مسجدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ويستحبُّ أنْ يخرجَ كلَّ يومٍ إلى البقيعِ بعدَ السلامِ علىٰ رسولِ اللهِ

---

(١) رواه البخاري (١١٩٦) ، ومسلم (١٣٩١) ، وفيهما : (بيتي) بدل (قبري) ، وبيته صلى الله عليه وسلم هو قبره ، وجاء التصريح بلفظ : (قبري) عند أحمد في « المسند » (٣/ ٦٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٦١٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٤٦) .

(٢) تأسياً بفعل السلف الصالح رضي الله تعالىٰ عنهم ، روى ابن سعد في « طبقاته » (١/ ٢١٨) عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط قال : (رأيت ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا خلا المسجد . . أخذوا برمانة المنبر الصلعاء التي تلي القبر بميامنهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون) ، وروى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ١٩٢) عن محمد بن إبراهيم التيمي قال : (رأيت سعد بن أبي وقاص وابن عمر يأخذان برمانة المنبر ثم ينصرفان) .

(٣) لكون الوقعة كانت في يوم الخميس ، أو لكونه يوم فراغ أهل المدينة من أشغالهم ، أو للنظر إلىٰ قوله صلى الله عليه وسلم ـ كما روىٰ ذلك الطبراني في « الأوسط » (٤٨٢٦) ـ : « بورك لأمتي في غدوة الخميس » ، أو لغير ذلك ، وهـٰذا إن اتفق للحاج والزائر ، فإن لم يمكنه . . ففي أي يوم يتفق . « إتحاف » (٤/ ٤٢٣) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، ويزورَ قبرَ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وقبرَ الحسنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما ، وفيهِ أيضاً قبرُ عليِّ بنِ الحسينِ ، ومحمدِ بنِ عليٍّ ، وجعفرِ بنِ محمدٍ رضيَ اللهُ عنهُم أجمعينَ ، ويصليَ في مسجدِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، ويزورَ قبرَ إبراهيمَ بنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقبرَ صفيَّةَ عمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذلكَ كلُّهُ بالبقيعِ .

ويستحبُّ لهُ أنْ يأتيَ مسجدَ قُباءٍ في كلِّ سبتٍ ويصلِّيَ فيهِ ؛ لما رُوِيَ أَنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ خرجَ مِنْ بيتِهِ حتَّىٰ يأتيَ مسجدَ قباءَ ويصلِّي فيهِ . . كانَ لهُ عَدْلُ عمرةٍ »[2] .

ويأتي بئرَ أَرِيسَ ، ويقالُ : إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تفلَ فيها مِنْ ريقِهِ[3] ، وهيَ عندَ المسجدِ ، فيتوضَّأُ منها ، ويشربُ مِنْ مائِها ، ويأتي مسجدَ الفتحِ ، وهوَ على الخندقِ ، وكذا يأتي سائرَ المساجدِ والمشاهدِ .

---

(١) وقد جاء الأمر من الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم بزيارة أهل البقيع والاستغفار لهم ، كما في « مسلم » (٩٧٤) .

(٢) رواه النسائي (٢/ ٣٧) ، وابن ماجه (١٤١٢) .

(٣) كما روىٰ ذلك البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ١٣٦) عن يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك وقد سأل عن بئر بقباء فدُلَّ عليها فقال : (لقد كانت هـٰذه وإن الرجل لينضح علىٰ حماره ، فينزح ، فتستخرجها له ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بذنوب ـ دلوٍ ـ فسقي ، فإما أن يكون توضأ منه أو تفل فيه ، ثم أمر به فأعيد في البئر ، قال : فما نزحت بعدُ) ، وقد بين الحافظ الشامي أنها هي بئر أريس في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٧/ ٣٤٦) ، وأَرِيس : نسبة إلىٰ رجل من يهود ، وهو الفلاح بلغة أهل الشام ، ومنه حديث : « فإن عليك إثم الأريسيين » ، وهي من أعذب آبار المدينة المنورة .

ويقالُ : إنَّ جميعَ المشاهدِ والمساجدِ بالمدينةِ ثلاثونَ موضعاً ، يعرفُها أهلُ البلدِ ، فيقصدُ ما قَدَرَ عليهِ ، وكذلكَ يقصدُ الآبارَ التي كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتوضَّأُ منها ، ويغتسلُ ويشربُ منها ، وهي سبعُ آبارٍ[1] ؛ طلباً للشفاءِ ، وتبرُّكاً بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وإنْ أمكنَهُ الإقامةُ بالمدينةِ معَ مراعاةِ الحرمةِ . . فلها فضلٌ عظيمٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يصبر علىٰ لأْوائِها وشدَّتِها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامةِ »[2] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استطاعَ أنْ يموتَ

---

(١) قال الحافظ الشامي في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٣٤٦ـ٣٦٠) : (جملة الآبار التي ورد شربه صلى الله عليه وسلم منها وبصقه فيها ودعاؤه بالبركة لها هي إحدىٰ وعشرون بئراً ، الذي اشتهر معرفته منها سبع) ، قال الحافظ العراقي في « المغني » : (وهي بئر أريس ، وبَيرَحاء وقد تفصل لتصير : بير حاء ، وبئر رُومَة ، وبئر غَرْس ، وبئر بُضاعة ، وبئر البُصَة بتخفيف الصاد وتشديدها ، وبئر السُّقيا أو العهن أو بئر جمل ، تردد في السابعة بين هـٰذه الثلاثة) .

فجاء ذكر بئر أريس في « البخاري » (٣٦٧٤) ، و« مسلم » (٢٤٠٣) ، وبيرحاء في « البخاري » (٤٥٥٥) ، و« مسلم » (٩٩٨) وهي بئر أبي طلحة رضي الله عنه ، وبئر رومة في « الترمذي » (٣٦٩٩) ، وبئر غَرْس في « ابن ماجه » (١٤٦٨) إذ أوصىٰ صلى الله عليه وسلم أن يغسل إن مات بسبع قِرَب منها ، وبئر بضاعة في « أبي داوود » (٦٦) ، و« الترمذي » (٦٦) ، و« النسائي » (١/ ١٧٤) ، وبئر البصة فانظر « خلاصة الوفا » (٢/ ١٢٦) إذ نسبه لابن عدي ، وبئر السقيا في « أبي داوود » (٣٧٣٥) ، وبئر جمل في « البخاري » (٣٣٧) ، و« مسلم » (٣٦٩) ، وبئر العهن فقد ذهب السيد السمهودي إلىٰ أنها هي بئر اليسيرة كما في « خلاصة الوفا » (٢/ ١٣٨ ، ١٤٢) .

(٢) رواه مسلم (١٣٦٣) .

بالمدينةِ . . فليمتْ بها ؛ فإنَّهُ لنْ يموتَ بها أحدٌ إلا كنتُ لهُ شفيعاً أوْ شهيداً يومَ القيامةِ »[1] .

ثمَّ إذا فرغَ مِنْ أشغالِهِ ، وعزمَ على الخروجِ مِنَ المدينةِ . . فالمستحبُّ أنْ يأتيَ القبرَ الشريفَ ، ويعيدَ دعاءَ الزيارةِ كما سبقَ ، ويودِّعَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يرزقَهُ العَوْدَ إليهِ ، ويسألَ السلامةَ في سفرِهِ ، ثمَّ يصلِّيَ ركعتينِ في الروضةِ الصغيرةِ ، وهيَ موضعُ مقامِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ زيدتِ المقصورةُ في المسجدِ .

فإذا خرجَ . . فليُخْرِجْ رجلَهُ اليسرىٰ أوَّلاً ، ثمَّ اليمنىٰ ، وليقلْ : (اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، ولا تجعلْهُ آخرَ العهدِ بنبيِّكَ ، وحطَّ أوزاري بزيارتِهِ ، وأصحبْني في سفري السلامةَ ، ويسِّرْ رجوعي إلىٰ أهلي ووطني سالماً ، يا أرحمَ الراحمينَ) .

وليتصدَّقْ علىٰ جيرانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بما قَدَرَ عليهِ ، وليتتبَّعِ المساجدَ التي بينَ المدينةِ ومكَّةَ فيصلِّيَ فيها ، وهيَ عشرونَ موضعاً[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الترمذي (٣٩١٧) ، وابن ماجه (٣١١٢) .
(٢) روىٰ ذلك البخاري في « صحيحه » (٤٨٣ ، ٤٨٤) .

فصل
في سنن الرجوع من السفر

كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قفلَ مِنْ غزوٍ أوْ حجٍّ أوْ غيرِهِ.. يكبِّرُ علىٰ كلِّ شَرَفٍ مِنَ الأرضِ ثلاثَ تكبيراتٍ ، ويقولُ : « لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، آيبونَ تائبونَ عابدونَ ساجدونَ لربِّنا حامدونَ ، صدقَ اللهُ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ »(1) ، وفي بعضِ الرواياتِ : « وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ، لهُ الحكْمُ وإليهِ ترجعونَ »(2) ، فينبغي أنْ يستعملَ هـٰذهِ السنَّةَ في رجوعِهِ .

وإذا أشرفَ علىٰ مدينتِهِ.. يحرِّكُ الدابَّةَ ويقولُ : (اللهمَّ ؛ اجعلْ لنا بها قراراً ورزقاً حسناً)(3) ، ثمَّ ليرسلْ إلىٰ أهلِهِ مَنْ يخبرُهُمْ بقدومِهِ كي لا يقدمَ عليهم بغتةً(4) ، فذلكَ هوَ السنَّةُ ، ولا ينبغي أنْ يطرقَ أهلَهُ

(1) رواه البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤) .
(2) رواه المحاملي في « الدعاء » (٧٧) .
(3) روى المحاملي في « الدعاء » (٩٥) : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من أسفاره ، فأشرف على المدينة.. يسرع السير ويقول : « اللهم ؛ اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً » .
(4) كما في « البخاري » (٥٠٧٩) ، و« مسلم » (١٩٢٨/١٨١) إذ قال صلى الله عليه وسلم للركب : « أمهلوا حتىٰ ندخل ليلاً ؛ أي : عشاء ، كي تمتشط الشعثة وتستحد =

ليلاً[1] ، فإذا دخلَ البلدَ . . فليقصدِ المسجدَ أوّلاً ، وليصلِّ ركعتينِ ، فهوَ السنَّةُ ، كذلكَ كانَ يفعلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

فإذا دخلَ بيتَهُ . . قالَ : (توباً توباً ، لربنا أوباً ، لا يغادِرُ علينا حُوْباً)[3] .

فإذا استقرَّ في منزلِهِ . . فلا ينبغي أنْ ينسىٰ ما أنعمَ اللهُ بهِ عليهِ مِنْ زيارةِ بيتِهِ وحرمِهِ وقبرِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فيكفرَ تلكَ النعمةَ بأنْ يعودَ إلى الغفلةِ واللهوِ والخوضِ في المعاصي ، فما ذلكَ علامةَ الحجِّ المبرورِ ، بلْ علامتُهُ أنْ يعودَ زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرةِ ، متأهِّباً للقاءِ ربِّ البيتِ بعدَ لقاءِ البيتِ .

* * *

= المغيبة » ، فإعلام الأهل مفهوم من سياق الحديث .

(١) أي : بعد العشاء ، فلا يدخل حتىٰ يحصل الإخبار لأهله بقدومه ، والليل مانع منه .

(٢) كما في « البخاري » (٤٤١٨) ، و« مسلم » (٧١٦) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٢٥٥) ، ومعنىٰ (لا يغادر) : لا يترك ، والحوب : الإثم .

البَابُ الثَّالِثُ
في الآداب الدّقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب
وهي عشرة

الأوَّلُ : أنْ تكونَ النفقةُ حلالاً ، وتكونَ اليدُ خاليةً مِنْ تجارةٍ تشغَلُ القلبَ وتفرِّقُ الهمَّ ، حتَّىٰ يكونَ الهمُّ مجرَّداً للهِ تعالىٰ ، والقلبُ مطمئناً منصرفاً إلىٰ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ وتعظيمِ شعائرِهِ .

وقدْ رُوِيَ في خبرٍ مِنْ طريقِ أهلِ البيتِ : « إذا كانَ آخرُ الزمانِ . . خرجَ الناسُ إلى الحجِّ أربعةَ أصنافٍ : سلاطينُهُمْ للنزهةِ ، وأغنياؤُهُم للتجارةِ ، وفقراؤُهُمْ للمسألةِ ، وقراؤُهُمْ للسمعَةِ »(١) .

وفي الخبرِ إشارةٌ إلىٰ جملةِ أغراضِ الدنيا التي يتصوَّرُ أنْ تتصلَ بالحجِّ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يمنعُ فضيلةَ الحجِّ ، ويخرجُهُ عنْ حيِّزِ حجِّ الخصوصِ ، لا سيما إذا كانَ متَّجِراً بنفسِ الحجِّ ؛ بأنْ يحجَّ لغيرِهِ بأجرةٍ ، فيطلبُ الدنيا

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٢٩٥) بنحوه ، وأبو عثمان الصابوني في « المئتين » ، وساق سنده الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٤/ ٤٣٢) ، ولفظ المصنفِ من « القوت » (٢/ ١١٧) ، وكذا سياق المصنف هنا .

بعملِ الآخرةِ ، وقدْ كرهَ الورعونَ وأربابُ القلوبِ ذلكَ إلا أنْ يكونَ قصدُهُ المُقامَ بمكَّةَ ولمْ يكنْ لهُ ما يبلِّغُهُ ، فلا بأسَ أنْ يأخذَ ذلكَ علىٰ هـٰذا القصدِ ، لا ليتوصلَ بالدِّينِ إلى الدنيا ، بلْ بالدنيا إلى الدينِ ، وعندَ ذلكَ ينبغي أنْ يكونَ قصدُهُ زيارةَ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومعاونةَ أخيهِ المسلمِ بإسقاطِ الفرضِ عنهُ ، وفي مثلِه ينزَّلُ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُدْخِلُ اللهُ سبحانَهُ بالحجَّةِ الواحدةِ ثلاثةً الجنةَ : الموصِي بها ، والمنفِذُ لها ، ومَنْ حجَّ بها عنْ أخيهِ »(١) .

ولستُ أقولُ : لا تحلُّ الأجرةُ ، أوْ يحرمُ ذلكَ بعدَ أنْ أسقطَ فرضَ الإسلامِ عنْ نفسِهِ ، ولكنِ الأَوْلىٰ ألا يفعلَ ، ولا يتخذَ ذلكَ مكسبَهُ ومتجرَهُ ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يعطي الدنيا بالدينِ ، ولا يعطي الدينَ بالدنيا ، وفي الخبرِ : « مثلُ الذي يغزو في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ويأخذُ أجراً مثلُ أمِّ موسىٰ عليهِ السلامُ ، ترضعُ ولدَها وتأخذُ أجرَها »(٢) .

فمَنْ كانَ مثالُهُ في أخذِ الأجرةِ على الحجِّ مثالَ أمِّ موسىٰ . . فلا بأسَ بأخذِهِ ؛ فإنَّهُ يأخذُ ليتمكَّنَ مِنَ الحجِّ والزيارةِ فيهِ ، وليسَ يحجُّ ليأخذَ الأجرةَ ، بلْ يأخذُ الأجرةَ ليحجَّ ؛ كما كانتْ أمُّ موسىٰ تأخذُ ليتيسَّرَ لها الإرضاعُ بتلبيسِ حالِها عليهِمْ .

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ١٨٠) ، وفي « الشعب » (٣٨٢٨) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٩٨٨١)، وأبو داوود في « المراسيل » (٣١٨) .

الثاني : ألا يعاونَ أعداءَ اللهِ سبحانَهُ بتسليمِ المكْسِ[1] ، وهمُ الصادُّونَ عنِ المسجدِ الحرامِ مِنْ أمراءِ مكَّةَ والأعرابِ المترصِّدينَ في الطريقِ ؛ فإنَّ تسليمَ المالِ إليهِمْ إعانةٌ على الظلْمِ وتيسيرٌ لأسبابِهِ عليهِمْ ، فهوَ كالإعانةِ بالنفسِ .

فليتلطفْ في حيلةِ الخلاصِ ، فإنْ لمْ يقدرْ . . فقدْ قالَ بعضُ العلماءِ ـ ولا بأسَ بما قالَهُ ـ : (إنَّ تركَ التنفُّلِ بالحجِّ والرجوعَ عنِ الطريقِ أفضلُ مِنْ إعانةِ الظلمةِ)[2] ، فإنَّ هـٰذهِ بدعةٌ أحدثَتْ ، وفي الانقيادِ لها ما يجعلُها سنَّةً مطردةً ، وفيهِ ذلٌّ وصَغارٌ على المسلمينَ ببذْلِ جزيةٍ .

ولا معنىٰ لقولِ القائلِ : (إنَّ ذلكَ يؤخذُ منِّي وأنا مضطرٌّ) فإنَّهُ لوْ قعدَ في البيتِ ، أوْ رجعَ مِنَ الطريقِ . . لمْ يؤخذْ منهُ شيءٌ ، بلْ ربما يُظهِرُ أسبابَ الترفُّهِ ، فتكثرُ مطالبتُهُ ، ولوْ كانَ في زيِّ الفقراءِ . . لمْ يطالبْ ، فهوَ الذي ساقَ نفسَهُ إلىٰ حالةِ الاضطرارِ .

* * *

الثالثُ : التوسُّعُ في الزادِ ، وطيبُ النفسِ بالبذلِ ، والإنفاقُ مِنْ غيرِ تقتيرٍ ولا إسرافٍ ، بلْ على الاقتصادِ ، وأعني **بالإسرافِ** : التنعُّمَ بأطايبِ الأطعمةِ ، والترفُّهَ بأشرفِ أنواعِها علىٰ عادةِ المترفينَ ، فأمَّا كثرةُ البذْلِ . .

---

(١) **المكْس** : الجباية والظلم ، وغلب استعماله فيما يأخذه أعوان السلطان ظلماً عند البيع والشراء ، ونحو ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داوود (٢٩٣٧) : « لا يدخل الجنة صاحب مكس » .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٧) .

فلا سرفَ فيهِ ؛ إذْ لا خيرَ في السرفِ ولا سرفَ في الخيرِ كما قيلَ[١] ، وبذلُ الزادِ في طريقِ الحجِّ نفقةٌ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والدرهمُ بسبعِ مئةِ درهمٍ ، قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (مِنْ كرمِ الرجلِ طيبُ زادِهِ في سفرِهِ)[٢] ، وكانَ يقولُ : (أفضلُ الحجاجِ أخلصُهُمْ نيَّةً ، وأزكاهُمْ نفقةً ، وأحسنُهُمْ يقيناً)[٣] .

وقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحجُّ المبرورُ ليسَ لهُ جزاءٌ إلا الجنةَ » ، فقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما برُّ الحجِّ ؟ فقالَ : « طيبُ الكلامِ ، وإطعامُ الطعامِ »[٤] .

* * *

الرابعُ : تركُ الرفثِ والفسوقِ والجدالِ كما نطقَ بهِ القرآنُ .

والرفث : اسمٌ جامعٌ لكلِّ لغوٍ وخناً وفحشٍ مِنَ الكلامِ ، ويدخلُ فيهِ مغازلةُ النساءِ ومداعبتُهُنَّ ، والتحدثُ بشأنِ الجماعِ ومقدماتِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ يهيجُ داعيةَ الجماعِ المحظورِ ، والداعي إلى المحظورِ محظورٌ .

والفسوقُ : اسمٌ جامعٌ لكلِّ خروجٍ عنْ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

---

(١) نسبه ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٢/ ٦١٤) للحسن بن سهل .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٥) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١١٥) .
(٤) أوله في « الصحيحين » وقد تقدم ، وهو بهذا اللفظ رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٣٢٥) بنحوه .

والجدالُ : هوَ المبالغةُ في الخصومةِ ، والمماراةُ بما يورثُ الضغائنَ ، ويفرِّقُ في الحالِ الهمَّةَ ، ويناقضُ حسنَ الخلقِ .

وقدْ قالَ سفيانُ : (مَنْ رفثَ . . فسدَ حجُّهُ)[(١)] ، وقدْ جعلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ طيبَ الكلامِ معَ إطعامِ الطعامِ مِنْ برِّ الحجِّ[(٢)] ، والمماراةُ تناقضُ طيبَ الكلامِ ، فلا ينبغي أنْ يكونَ كثيرَ الاعتراضِ علىٰ رفيقِهِ وجمَّالِهِ ، وعلىٰ غيرِهما مِنْ أصحابِهِ ، بلْ يلينُ جانبَهُ ، ويخفضُ جناحَهُ للسائرينَ إلىٰ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

ويلزمُ حسنَ الخلقِ ، وليسَ حسنُ الخلقِ كفَّ الأذىٰ ، بلِ احتمالُ الأذىٰ ، وقيلَ : سمِّيَ السفرُ سفراً لأنَّهُ يُسْفِرُ عنْ أخلاقِ الرجالِ ، ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لمَنْ زعمَ أنَّهُ يعرفُ رجلاً : هلْ صحبتَهُ في السفرِ الذي يستدلُّ بهِ علىٰ مكارمِ الأخلاقِ ؟ قالَ : لا ، فقالَ : ما أراكَ تعرفُهُ[(٣)] .

* * *

الخامسُ : أنْ يحجَّ ماشياً إن قدَرَ عليهِ ، فذلكَ الأفضلُ ، أوصىٰ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما بنيهِ عندَ موتهِ فقالَ : يا بنيَّ ؛ حجوا

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٥) .

(٢) تقدم في الحديث السابق .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٦٠٧) ، وبلفظ المصنف هو في « القوت » (٢/ ١١٥) .

مشاةً ؛ فإنَّ للحاجِّ الماشي بكلِّ خطوةٍ يخطوها سبعَ مئةِ حسنةٍ مِنْ حسناتِ الحرمِ ، قيلَ : وما حسناتُ الحرمِ ؟ قال : الحسنةُ بمئةِ ألفٍ[1] .

والاستحبابُ في المشيِ في المناسكِ ، والتردُّدِ مِنْ مكَّةَ إلى الموقفِ وإلىٰ منىً آكدُ منهُ في الطريقِ .

وإنْ أضافَ إلى المشيِ الإحرامَ مِنْ دويرةِ أهلِهِ ؛ فقدْ قيلَ : إنَّ ذلكَ مِنْ إتمامِ الحجِّ ، قالَهُ عمرُ وعليٌّ وابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُم في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾[2] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : الركوبُ أفضلُ ؛ لما فيهِ مِنَ الإنفاقِ والمؤنةِ ولأنَّهُ أبعدُ عنْ ضجرِ النفسِ وأقلُّ لأذاهُ ، وأقربُ إلىٰ سلامتِهِ وتمامِ حجِّهِ[3] .

وهٰذا عندَ التحقيقِ ليسَ مخالفاً للأوَّلِ ، بلْ ينبغي أنْ يفصَّلَ ويقالَ : مَنْ سهلَ عليهِ المشيُ . . فهو أفضلُ ، فإنْ كانَ يضعفُ ويؤدِّي بهِ ذلكَ إلىٰ سوءِ الخلقِ وقصورٍ عنْ عملٍ . . فالركوبُ لهُ أفضلُ ، كما أنَّ الصومَ أفضلُ للمسافرِ والمريضِ ما لمْ يفضِ إلىٰ ضعْفٍ وسوءِ خلقٍ .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٦٩٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٦٠) ، وبلفظ المصنف رواه أبو ذر الهروي في « منسكه » كما في « الإتحاف » (٤/ ٤٣٥) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٧٦) عن علي رضي الله عنه ، وانظر « التلخيص الحبير » (٤/ ١٥٢٧) ، وهو ما ذهب إليه أبو طالب في « القوت » (٢/ ١١٧) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١١٦) .

وسئلَ بعضُ العلماءِ عن العمرةِ : المشيُ فيها أفضلُ أَوْ يكتري حماراً بدرهمٍ ؟ فقالَ : إنْ كانَ وزنُ الدرهمِ أشدَّ عليهِ . . فالكراءُ أفضلُ مِنَ المشيِ ، وإنْ كانَ المشيُ أشدَّ عليهِ ؛ كالأغنياءِ . . فالمشيُ لهُ أفضلُ[١] .

وكأنَّهُ ذهبَ فيهِ إلىٰ طريقِ مجاهدةِ النفسِ ، ولهُ وجهٌ ، ولكنِ الأفضلُ لهُ أنْ يمشيَ ويصرفَ ذلكَ الدرهمَ إلىٰ خيرٍ ، فهوَ أولىٰ مِنْ صرفِهِ إلى المكاري ، عوضاً عنْ إيذاءِ الدابةِ ، فإذا كانَ لا تتسعُ نفسُهُ للجمعِ بينِ مشقةِ النفسِ ونقصانِ المالِ . . فما ذكرهُ غيرُ بعيدٍ فيهِ .

* * *

السادسُ : ألا يركبَ إلا زاملةً ، أمَّا المحملُ . . فليجتنبْهُ ، إلا إذا كانَ يخافُ على الزاملةِ ، أوْ لا يستمسكُ عليها لعذرٍ ، **وفيهِ معنيانِ** :

أحدُهُما : التخفيفُ عنِ البعيرِ ؛ فإنَّ المحملَ يؤذيهِ .

والثاني : اجتنابُ زيِّ المترفينَ والمتكبرينَ .

حجَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ راحلةٍ وكانَ تحتهُ رحْلٌ رثٌّ وقطيفةٌ خلقةٌ قيمتُها أربعةُ دراهمَ[٢] ، وطافَ على الراحلةِ لينظرَ الناسُ إلىٰ هديهِ وشمائلِهِ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خذوا عنِّي مناسكَكُمْ »[٣] .

---

(١) قوت القلوب (٢/١١٧) .
(٢) كما روىٰ ذلك الترمذي في « الشمائل » (٣٣٤) ، وهو عند ابن ماجه (٢٨٩٠) كذلك ، ومع ذلك كان يقول : « اللهم ؛ اجعله حجّاً لا رياء فيه ولا سمعة » .
(٣) رواه مسلم (١٢٩٧) .

وقيلَ : إنَّ هٰذهِ المحاملَ أحدثَها الحَجَّاجُ ، وكانَ العلماءُ في وقتِه ينكرونَها(١) .

وروىٰ سفيانُ الثوريُّ عنْ أبيهِ أنَّهُ قالَ : (برزتُ مِنَ الكوفةِ إلى القادسيةِ للحجِّ ، ووافيت الرفاقَ مِنَ البلدانِ ، فرأيتُ الحاجَّ كلَّهم علىٰ زواملَ وجُوالِقاتٍ ورواحلَ ، وما رأيتُ في جميعِهِمْ إلا محملينِ)(٢) .

وكانَ ابنُ عمرَ إذا نظرَ إلىٰ ما أحدثَ الحُجَّاجُ مِنَ الزيِّ والمحاملِ . . يقولُ : الحاجُّ قليلٌ والركبُ كثيرٌ ، ثمَّ نظرَ إلىٰ رجلٍ مسكينٍ رثِّ الهيئةِ تحتَهُ جِوالِقُ فقالَ : هٰذا نعم مِنَ الحُجَّاجِ(٣) .

* * *

السابعُ : أنْ يكونَ رثَّ الهيئةِ ، أشعثَ ، أغبرَ ، غيرَ مستكثرٍ مِنَ الزينةِ ، ولا مائلٍ إلىٰ أسبابِ التفاخرِ والتكاثرِ ، فيكتبُ في ديوانِ المتكبرينَ والمترفهينَ ، ويخرجُ عنْ حزبِ الضعفاءِ والمساكينِ وخصوصِ الصالحينَ ،

---

(١) حكىٰ ذلك الجاحظ في « البيان والتبيين » (٢/٣٠٣) ، وقال : وقال بعض رجاز الأكرياء :

أولُ عبــدٍ عمــلَ المحــامــلا   أخـزاه ربـي عـاجـلاً وآجـلا

وسياق المصنف في « القوت » (٢/١١٦) .

(٢) قوت القلوب (٢/١١٦) ، **والجوالقات** : الأوعية الكبيرة ، مفرده : جِوالِق ، وهو معرَّب ، ويقال في الجمع : جَواليق وجَوالِق أيضاً .

(٣) قوت القلوب (٢/١١٦) .

فقدْ أمرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالشَّعَثِ والاحتفاء[1] ، ونهىٰ عنِ التنعُّمِ والرفاهيةِ في حديثِ فضالةَ بنِ عبيدٍ[2] .

وفي الحديثِ : « إنَّما الحاجُّ الشَّعِثُ التَّفِلُ »[3] ، « يقولُ اللهُ تعالىٰ : انظروا إلىٰ زوَّارِ بيتي ، قدْ جاؤوني شُعْثاً غُبْراً مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ »[4] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ ، **والتفثُ** : الشعَثُ والاغبرارُ ، وقضاؤُهُ بالحلْقِ وقصِّ الشاربِ والأظفارِ[5] .

وكتبَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ أمراءِ الأجنادِ : (اخلولقوا ،

---

(١) **الشعث** : انتشار الشعر وترك تعاهده ، **والاحتفاء** : المشي حافياً ، وقد روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٨٤٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٠٥٨) مرفوعاً : « تمعددوا واخشوشنوا وانتضلوا وامشوا حفاة » .

(٢) رواه أبو داوود (٤١٦٠) وهو قوله : (كان صلى الله عليه وسلم ينهانا عن كثير من الإرفاه) ، وقال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نحتفي أحياناً) ، وروىٰ أحمد في « المسند » (٥/ ٢٤٣) من وصيته صلى الله عليه وسلم معاذاً لما بعثه إلى اليمن : « إياك والتنعمَ ـ ولفظه : إياي ؛ لأن راويه هو معاذ نفسه ـ فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين » .

(٣) رواه الترمذي (٢٩٩٨) ، وابن ماجه (٢٨٩٦) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٢٥) بلفظ المصنف ضمن حديث طويل ، وكذا أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٠٥) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٦٥) بغير زيادة : « من كل فج عميق » ، وهو كذلك عند أحمد في « المسند » (٢/ ٢٢٤) ، وهـٰذا الخبر والذي قبله ساقهما صاحب « القوت » (٢/ ١١٦) خبراً واحداً ، والمصنف تبع له .

(٥) كذا في « القوت » (٢/ ١١٦) ، وقد روىٰ ذلك الطبري عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم في « تفسيره » (١٠/ ١٧/ ١٩٠) .

واخشوشنوا)[1] أي : البسوا الخُلْقانَ ، واستعملوا الخشونةَ في الأشياءِ .

وقدْ قيلَ : « زينُ الحجيجِ أهلُ اليمنِ »[2] ؛ لأنَّهُمْ علىٰ هيئةِ التواضعِ والضعفِ وسيرةِ السلفِ .

وينبغي أنْ يجتنبَ الحمرةَ في زيِّهِ على الخصوصِ ، والشهرةَ كيفما كانتْ على العمومِ ؛ فقدْ رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ في سفرٍ ، فنزلَ أصحابُهُ منزلاً ، فسرحتِ الإبلُ ، فنظرَ إلىٰ أكسيةٍ حمْرٍ على الأقتابِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرىٰ هٰذهِ الحُمْرةَ قدْ غلبتْ عليكُمْ ! » قالوا : فقمنا إليها ونزعناها عنْ ظهورِها حتَّىٰ شَرَدَ بعضُ الإبلِ[3] .

***

الثامنُ : أنْ يرفُقَ بالدابّةِ ، فلا يحمِّلُها ما لا تطيقُ ، والمَحْمِلُ خارجٌ عنْ حدِّ طاقتِها ، والنومُ عليها يؤذِيها ويثقلُ عليها ، كانَ أهلُ الورعِ لا ينامونَ على الدوابِّ إلا غفوةً عنْ قعودٍ ، وكانوا لا يقفونَ عليها الوقوفَ الطويلَ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتخذوا ظهورَ دوابِّكُمْ كراسيَّ »[4] .

ويستحبُّ أنْ ينزلَ عنْ دابتِهِ غدوةً وعشيةً يروِّحُها بذلكَ ، فهوَ سنةٌ[5] ،

---

(١) رواه الحربي في « غريب الحديث » (خ ش ب) وزاد فيه : (واخشوشبوا) .
(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٨٨٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .
(٣) رواه أبو داوود (٤٠٧٠) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٤١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٤٤) .
(٥) روى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٥٥) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان =

وفيهِ آثارٌ عنِ السلفِ[1] ، وكانَ بعضُ السلفِ يكتري بشرطِ ألا ينزلَ ، ويوفي الأجرةَ ، ثمَّ كانَ ينزلُ ؛ ليكونَ بذلكَ محسناً إلى الدابةِ ، فيكونَ في حسناتِهِ ، ويوضعَ في ميزانِهِ لا في ميزانِ المكاري[2] .

وكلُّ مَنْ آذىٰ بهيمةً ، وحمَّلَها ما لا تطيقُ . . طولبَ بهِ يومَ القيامةِ ، قالَ أبو الدرداءِ لبعيرٍ لهُ عندَ الموتِ : (يا أيُّها البعيرُ ؛ لا تخاصمني إلىٰ ربِّكَ ، فإنِّي لمْ أكنْ أحمِّلُكَ فوقَ طاقتِكَ)[3] .

وعلى الجملةِ : في كلِّ كبدٍ حرَّىٰ أجرٌ[4] ، فليراعِ حقَّ الدابَّةِ وحقَّ المكاري جميعاً ، وفي نزولِهِ ساعةً ترويحُ الدابةِ وسرورُ قلبِ المكاري ، قالَ رجلٌ لابنِ المباركِ : احملْ لي هـٰذا الكتابَ معكَ لتوصلَهُ ، فقالَ : حتَّىٰ أستأمرَ الجمَّالَ ، فإنِّي قدِ اكتريتُ[5] .

فانظرْ كيفَ تورَّعَ مِنِ استصحابِ كتابٍ لا وزنَ لهُ ، وهوَ طريقُ الحزْمِ في الورعِ ، فإنَّهُ إذا فُتِحَ بابُ القليلِ . . انجرَّ إلى الكثيرِ يسيراً يسيراً .

= رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر في السفر . . مشىٰ ـ زاد فيه غيره : قليلاً ـ وناقته تقاد) .

(١) روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٤٠٦) : (أن نافع بن جبير كان يحج ماشياً وناقته أو راحلته تقاد معه) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١١٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٣) ، وكان اسم هـٰذا البعير : دمون .

(٤) كما في « البخاري » (٢٣٦٣) ، و« مسلم » (٢٢٤٤) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١١٦) .

التاسعُ : أنْ يتقرَّبَ بإراقة دمٍ وإنْ لمْ يكنْ واجباً عليهِ ، ويجتهدُ أنْ يكونَ مِنْ سمينِ النَّعَمِ ونفيسِهِ ، وليأكلْ منهُ إنْ كانَ تطوُّعاً ، ولا يأكلُ إنْ كانَ واجباً .

قيلَ في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ : إنَّهُ تحسينُهُ وتسمينُهُ[1] .

وسوقُ الهدي مِنَ الميقاتِ أفضلُ إنْ كانَ لا يجهدُهُ ولا يكدُّهُ ، وليتركِ المكاسَ في شرائِهِ ، فقدْ كانوا يغالونَ في ثلاثٍ ويكرهونَ المكاسَ فيهنَّ : الهديُ والأضحيةُ والرقبةُ ، فإنَّ أفضلَ ذلكَ أغلاهُ ثمناً وأنفسُهُ عندَ أهلِهِ .

وروى ابنُ عمرَ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أهدىٰ نجيبةً ، فطُلِبتْ منهُ بثلاثِ مئةِ دينارٍ ، فسألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يبيعَها ويشتريَ بثمنِها بُدْناً ؛ فنهاهُ عنْ ذلكَ وقالَ : « بلْ أهدِها »[2] ، وذلكَ لأنَّ القليلَ الجيِّدَ خيرٌ مِنَ الكثيرِ الدُّونِ ، وفي ثلاثِ مئةِ دينارٍ قيمةُ ثلاثينَ بدنةً ، وفيها تكثيرُ اللحمِ ، ولكنْ ليسَ المقصودُ اللحمَ ، إنما المقصودُ تزكيةُ النفسِ وتطهيرُها عنْ صفةِ البخْلِ ، وتزيينُها بجمالِ التعظيمِ للهِ عزَّ وجلَّ ، فلنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ، ولكنْ ينالُهُ التقوىٰ منكُمْ ، وذلكَ يحصلُ بمراعاةِ النفاسةِ في القيمةِ ، كثُرَ العددُ أمْ قلَّ .

---

(١) روى الطبري ذلك في « تفسيره » (١٠/١٧/١٩٨) عن ابن عباس ومجاهد .
(٢) رواه أبو داوود (١٧٥٦) ، وفيه : (انحرها) بدل (أهدها) .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ما برُّ الحجِّ ؟ فقالَ : « العجُّ والثجُّ »[1] ، **والعجُّ** : هوَ رفعُ الصوتِ بالتلبيةِ ، **والثجُّ** : هوَ نحرُ البدْنِ .

وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما عملَ آدميٌّ يومَ النحرِ أحبَّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ إهراقِهِ دماً ، وإنَّها لتأتي يومَ القيامةِ بقرونِها وأظلافِها ، وإنَّ الدمَ يقعُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بمكانٍ قبلَ أنْ يقعَ بالأرضِ ، فطيبوا بها نفساً »[2] .

وفي الخبرِ : « لكمْ بكلِّ صوفةٍ مِنْ جلدِها حسنةٌ ، وكلِّ قطرةٍ مِنْ دمِها حسنةٌ ، وإنَّها لتوضعُ في الميزانِ ، فأبشروا »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « استنجدُوا هداياكُمْ ؛ فإنَّها مطاياكُمْ يومَ القيامةِ »[4] .

* * *

العاشرُ : أنْ يكونَ طيِّبَ النفسِ بما أنفقَهُ مِن نفقةٍ وهدْيٍ ، وبما أصابَهُ مِنْ خسرانٍ ومصيبةٍ في مالٍ أوْ بدنٍ إنْ أصابَهُ ذلكَ ، فإنَّ ذلكَ مِنْ دلائلِ

---

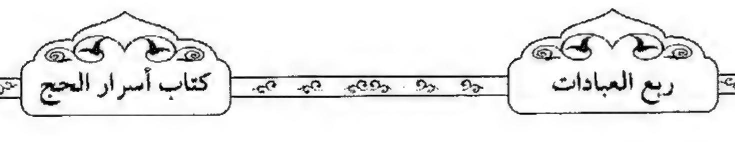
(١) رواه الترمذي (٨٢٧) ، وابن ماجه (٢٨٩٦) .
(٢) رواه الترمذي (١٤٩٣) ، وابن ماجه (٣١٢٦) .
(٣) كذا في « القوت » (٢/١١٨) ، وهو بنحوه عند ابن ماجه (٣١٢٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/٢٨٣) .
(٤) رواه الديلمي في « الفردوس » (٢٦٨) بلفظ : « استفرهوا ضحاياكم ؛ فإنها مطاياكم على الصراط » .

قَبولِ حجِّهِ ، فإنَّ المصيبةَ في طريقِ الحجِّ تعدلُ النفقةَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، الدرهمُ بسبعِ مئةِ درهمٍ ، وهوَ بمثابةِ الشدائدِ في طريقِ الجهادِ ، فلهُ بكلِّ أذىً احتملَهُ وخسرانٍ أصابَهُ ثوابٌ ، ولا يضيعُ منهُ شيءٌ عندَ اللهِ تعالىٰ .

ويقالُ : إنَّ مِنْ علامةِ قَبولِ الحجِّ أيضاً تركَ ما كانَ عليهِ مِنَ المعاصي ، وأنْ يستبدلَ بإخوانِهِ البطَّالينَ إخواناً صالحينَ ، وبمجالسِ اللهوِ والغفلةِ مجالسَ الذكرِ واليقظةِ[1] .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ١١٩) .



بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النّيّة وطريق الاعتبار بالمشاهد الشّريفة وكيفيّة الافتكار فيها والتّذكّر لأسرارها ومعانيها من أوّل الحجّ إلى آخره

اعلمْ : أنَّ أوَّلَ الحجِّ الفهْمُ ؛ أعني : فهمَ موقعِ الحجِّ في الدينِ ، ثمَّ الشوقُ إليهِ ، ثمَّ العزمُ عليهِ ، ثمَّ قطْعُ العلائقِ المانعةِ منهُ ، ثمَّ شراءُ ثوبي الإحرامِ ، ثمَّ شراءُ الزادِ ، ثمَّ اكتراءُ الراحلةِ ، ثمَّ الخروجُ ، ثمَّ السيرُ في الباديةِ ، ثمَّ الإحرامُ مِنَ الميقاتِ بالتلبيةِ ، ثمَّ دخولُ مكَّةَ ، ثمَّ استتمامُ الأفعالِ كما سبقَ .

وفي كلِّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأمورِ تذكرةٌ للمتذكِّرِ ، وعبرةٌ للمعتبرِ ، وتنبيهٌ للمريدِ الصادقِ ، وتعريفٌ وإشارةٌ للفَطِنِ ، فلنرمزْ إلىٰ مفاتحِها ، حتَّىٰ إذا انفتحَ بابُها ، وعرفتْ أسبابُها . انكشفَ لكلِّ حاجٍّ مِنْ أسرارِها ما يقتضيهِ صفاءُ قلبِهِ وطهارةُ باطنِهِ وغزارةُ علمِهِ .

❊ ❊ ❊

أمَّا الفهمُ : **فاعلمْ** : أنَّهُ لا وصولَ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ إلا بالتنزُّهِ عنِ الشهواتِ ، والكفِّ عنِ اللذاتِ ، والاقتصارِ على الضروراتِ فيها ، والتجرُّدِ للهِ سبحانَهُ في جميعِ الحركاتِ والسكناتِ ، ولأجلِ هٰذا انفردَ

الرهابينُ في الملل السالفةِ عنِ الخلْقِ[(١)] ، وانحازوا إلىٰ قُلَلِ الجبالِ ، وآثروا التوحُّشَ عنِ الخلْقِ ؛ لطلبِ الأُنْسِ باللهِ تعالىٰ ، فتركوا للهِ عزَّ وجلَّ اللذاتِ الحاضرةَ ، وألزموا أنفسَهُمُ المجاهداتِ الشاقَّةَ ؛ طمعاً في الآخرةِ ، وأثنى اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِمْ في كتابِهِ فقالَ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

فلمَّا اندرسَ ذلكَ ، وأقبلَ الخلقُ على اتباعِ الشهواتِ ، وهجروا التجرُّدَ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وفتروا عنهُ . . بعثَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ نبيَّهُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لإحياءِ طريقِ الآخرةِ ، وتجديدِ سنةِ المرسلينَ في سلوكِها ، فسألَهُ أهلُ الملَلِ عنِ الرهبانيةِ والسياحةِ في دينِهِ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبدلَنا اللهُ بها الجهادَ والتكْبيرَ علىٰ كلِّ شَرَفٍ »[(٢)] ؛ يعني : الحجَّ .

وسئلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ السائحينَ فقالَ : «همُ الصائمونَ»[(٣)] .

---

(١) **الرهابين** : جمع راهب ، والمشهور رهباني ، وقيل : الرهابين جمع الجمع ، وهم عبّاد النصارىٰ ، والاسم : الرهبانية ، من الرهبة ، وهو الخوف ، وقد ترهب الراهب : انقطع للعبادة . « إتحاف » (٤/ ٤٤٢) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الجهاد » (١٧) عن عمارة بن غزية مرسلاً ، وروىٰ أبو داوود (٢٤٨٦) عن أبي أمامة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ ائذن لي في السياحة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالىٰ » ، وحديث التكبير علىٰ كل شرف رواه البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٣٥)، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٣٠٥).

فأنعمَ اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ هـٰذهِ الأمةِ بأنْ جعلَ الحجَّ رهبانيةً لهُمْ ، فشرَّفَ البيتَ العتيقَ بالإضافةِ إلىٰ نفسِهِ ونصبَهُ مقصداً لعبادِهِ ، وجعلَ ما حواليهِ حرماً لبيتِهِ تفخيماً لأمرِهِ ، وجعلَ عرفاتٍ كالميدانِ علىٰ فِناءِ حرمِهِ ، وأكَّدَ حرمةَ الموضعِ بتحريمِ صيدِهِ وشجرِهِ ، ووضعَهُ علىٰ مثالِ حضرةِ الملوكِ ، يقصدُهُ الزوّارُ مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ ، ومِنْ كلِّ أوْبٍ سحيقٍ ، شعثاً غبراً ، متواضعينَ لربِّ البيتِ ومستكينينَ لهُ ؛ خضوعاً لجلالِهِ واستكانةً لعزَّتِهِ ، معَ الاعترافِ بتنزُّهِهِ عنْ أنْ يحويَهُ بيتٌ أوْ يكتنفَهُ بلدٌ ، ليكونَ ذلكَ أبلغَ في رقِّهِمْ وعبوديَّتِهِمْ ، وأتمَّ في إذعانِهِمْ وانقيادِهِمْ ، ولذلكَ وظَّفَ عليهِمْ فيها أعمالاً لا تأنسُ بها النفوسُ ، ولا تهتدي إلىٰ معانيها العقولُ ؛ كرميِ الجمارِ بالأحجارِ ، والتردُّدِ بينَ الصفا والمروةِ علىٰ سبيلِ التكرارِ .

وبمثلِ هـٰذهِ الأعمالِ يظهرُ كمالُ الرقِّ والعبوديَّةِ ؛ فإنَّ الزكاةَ إرفاقٌ[1] ، ووجهُهُ مفهومٌ ، وللعقلِ إليهِ ميلٌ ، والصومُ كسرٌ للشهوةِ التي هيَ آلةُ عدوِّ اللهِ ، وتفرُّغٌ للعبادةِ بالكفِّ عنِ الشواغلِ ، والركوعُ والسجودُ في الصلاةِ تواضعٌ للهِ عزَّ وجلَّ بأفعالٍ هيَ هيئةُ التواضعِ ، وللنفوسِ أنسٌ بتعظيمِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فأمَّا تردُّداتُ السعيِ ورميِ الجمارِ وأمثالِ هـٰذهِ الأعمالِ .. فلا حظَّ

---

(١) أي : إنفاق فيه رفق وإشفاق .

للنفوسِ فيها ، ولا أنسَ للطبعِ فيها ، ولا اهتداءَ للعقلِ إلىٰ معانيها ، فلا يكونُ في الإقدامِ عليها باعثٌ إلا الأمرُ المجرَّدُ ، وقصدُ الامتثالِ للأمرِ مِنْ حيثُ إنَّهُ أمرٌ واجبٌ . . الاتباعُ فقط ، وفيهِ عزْلُ العقلِ عنْ تصرُّفِهِ ، وصرفُ النفسِ والطبعِ عنْ محلِّ أنسِهِ ، فإنَّ كلَّ ما أدركَ العقلُ معناهُ . . مالَ الطبعُ إليهِ ميلاً ما ، فيكونُ ذلكَ الميلُ معيناً للأمرِ وباعثاً معهُ على الفعلِ ، فلا يكادُ يظهرُ بهِ كمالُ الرِّقِّ والانقيادِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الحجِّ على الخصوصِ : « لبيكَ بحجَّةٍ حقّاً ، تعبُّداً ورِقاً »(١) ، ولمْ يقلْ ذلكَ في صلاةٍ ولا غيرِها .

وإذا اقتضتْ حكمةُ اللهِ تعالىٰ ربطَ نجاةِ الخلْقِ بأنْ تكونَ أعمالُهُمْ علىٰ خلافِ هوىٰ طباعِهِمْ ، وأنْ يكونَ زمامُها بيدِ الشرعِ ، فيتردَّدونَ في أعمالِهِمْ علىٰ سننِ الانقيادِ ، وعلىٰ مقتضى الاستعبادِ . . كانَ ما لا يُهتدىٰ إلىٰ معانيهِ أبلغَ أنواعِ التعبداتِ في تزكيةِ النفوسِ ، وصرفِها عنْ مقتضى الطباعِ والأخلاقِ إلىٰ مقتضى الاسترقاقِ ، وإذا تفطنتَ لهـٰذا . . فهمتَ أنَّ تعجُّبَ النفوسِ مِنْ هـٰذهِ الأفعالِ العجيبةِ مصدرُهُ الذهولُ عنْ أسرارِ التعبُّداتِ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في تفهُّمِ أصلِ الحجِّ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

(١) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٦٢٤) وهو آخر كتابه ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/٢١٨) .

وأمَّا الشوقُ : فإنَّما ينبعثُ بعدَ الفهْمِ والتحقُّقِ بأنَّ البيتَ بيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنَّهُ وُضِعَ علىٰ مثالِ حضرةِ الملوكِ ، فقاصدُهُ قاصدٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وزائرٌ لهُ ، وإنَّ مَنْ قصدَ البيتَ في الدنيا جديرٌ بألا تضيعَ زيارتُهُ ، فيرزقُ مقصودَ الزيارةِ في ميعادِهِ المضروبِ لهُ ، وهوَ النظرُ إلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ في دارِ القرارِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ العينَ القاصرةَ الفانيةَ في دارِ الدنيا لا تتهيَّأُ لقَبولِ نورِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا تطيقُ احتمالَهُ ، ولا تستعدُّ للاكتحالِ بهِ لقصورِها ، وإنَّها إنْ أُمدَّتْ في الدارِ الآخرةِ بالبقاءِ ، ونُزِّهَتْ عنْ أسبابِ التغيرِ والفناءِ . . استعدَّتْ للنظرِ والإبصارِ ، ولكنَّها بقصدِ البيتِ والنظرِ إليهِ تستحقُّ لقاءَ ربِّ البيتِ بحكْمِ الوعدِ الكريمِ (١) .

فالشوقُ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ يشوِّقُهُ إلىٰ أسبابِ اللقاءِ لا محالةَ ، هـٰذا معَ أنَّ المحبَّ مشتاقٌ إلىٰ كلِّ ما لَهُ إلىٰ محبوبِهِ إضافةٌ ، والبيتُ مضافٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، فبالحريِّ أنْ يشتاقَ إليهِ لمجرَّدِ هـٰذهِ الإضافةِ ، فضلاً عنِ الطلبِ لنيلِ ما وعدَ عليهِ مِنَ الثوابِ الجزيلِ .

* * *

(١) فالحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، وفيها تقع المشاهدة ؛ إذ هي دار المشاهدة واللقاء ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٥/٤) : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ، فرأىٰ ركباً ، فقال : مَن الركْبُ ؟ فقال : قالوا : حاجِّين ، قال : ما أنهزكم غيره ثلاث مرات ؟ قالوا : لا ، قال : لو يعلم الركب بمن أناخوا . . لقرت أعينهم بالفضل بعد المغفرة . « إتحاف » (٤/٤٤٥) .

وأمَّا العزمُ : فليعلمْ أنَّهُ بعزمِهِ قاصدٌ إلىٰ مفارقةِ الأهلِ والوطنِ ، ومهاجرةِ الشهواتِ واللذاتِ ، متوجهاً إلىٰ زيارةِ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فليعظِّمْ في نفسِهِ قدْرَ البيتِ ، وقدْرَ ربِّ البيتِ ، وليعلمْ أنَّهُ عزمَ علىٰ أمرٍ رفيعٍ شأنُهُ خطيرٍ أمرُهُ ، وأنَّ مَنْ طلبَ عظيماً . . خاطرَ بعظيمٍ ، وليجعلْ عزمَهُ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، بعيداً عنْ شوائبِ الرياءِ والسمعةِ .

وليتحقَّقْ أنَّهُ لا يقبلُ مِنْ قصدِهِ وعملِهِ إلا الخالصُ ، وأنَّ مِنْ أفحشِ الفواحشِ أنْ يقصدَ بيتَ الملكِ وحرمَهُ والمقصودُ غيرُهُ ، فليصحِّحْ معَ نفسِهِ العزمَ ، وتصحيحُهُ بإخلاصِهِ ، وإخلاصُهُ باجتنابِ كلِّ ما فيهِ رياءٌ وسمعةٌ ، وليحذرْ أنْ يستبدلَ الذي هوَ أدنىٰ بالذي هوَ خيرٌ .

* * *

وأمَّا قطعُ العلائقِ : فمعناهُ : ردُّ المظالمِ ، والتوبةُ الخالصةُ للهِ تعالىٰ عن جملةِ المعاصي ، فكلُّ مظلمةٍ علاقةٌ ، وكلُّ علاقةٍ مثلُ غريمٍ حاضرٍ متعلِّقٍ بتلابيبِهِ ينادي عليهِ ويقولُ لهُ : إلىٰ أينَ تتوجَّهُ ؟ أتقصدُ بيتَ ملكِ الملوكِ وأنتَ مضيِّعٌ أمرَهُ في منزلِكَ هـٰذا ، ومستهينٌ بهِ ، ومهملٌ لهُ ؟ أوَلا تستحي مِنْ أنْ تقدمَ عليهِ قدومَ العبدِ العاصي فيردَّكَ ولا يقبلَكَ ؟!

فإنْ كنتَ راغباً في قبولِ زيارتِكَ . . فنفِّذْ أوامرَهُ ، وردَّ المظالمَ ، وتبْ إليهِ أوَّلاً مِنْ جميعِ المعاصي ، واقطعْ علاقةَ قلبِكَ عنِ الالتفاتِ إلىٰ ما وراءَكَ ؛ لتكونَ متوجِّهاً إليهِ بوجهِ قلبِكَ كما أنَّكَ متوجِّهٌ إلىٰ بيتِهِ بوجهِ

ظاهرِكَ ، فإنْ لمْ تفعلْ ذلكَ . . لمْ يكنْ لكَ مِنْ سفرِكَ أوّلاً إلا النصبُ والشقاءُ ، وآخراً إلا الطرْدُ والردُّ .

وليقطعِ العلائقَ عنْ وطنِهِ قطعَ مَنِ انقلعَ عنهُ وقدَّرَ ألا يعودَ إليهِ ، وليكتبْ وصيَّتَهُ لأهلِهِ وأولادِهِ ؛ فإنَّ المسافرَ ومالَهُ لعلىٰ قَلَتٍ إلا ما وقى اللهُ تعالىٰ(١) .

وليتذكَّرْ عندَ قطعِهِ العلائقَ لسفرِ الحجِّ قطعَ العلائقِ لسفرِ الآخرةِ ؛ فإنَّ ذلكَ بينَ يديهِ على القربِ ، وما يقدِّمُهُ مِنْ هـٰذا السفرِ طمعٌ في تيسيرِ ذلكَ السفرِ ، فهوَ المستقرُّ وإليهِ المصيرُ ؛ فلا ينبغي أنْ يغفُلَ عنْ ذلكَ السفرِ عندَ الاستعدادِ لهـٰذا السفرِ .

* * *

وأمّا الزادُ : فليطلبْهُ مِنْ موضعٍ حلالٍ ، وإذا أحسَّ مِنْ نفسِهِ بالحرْصِ على استكثارِهِ ، وطلبِ ما يبقىٰ منهُ علىٰ طولِ السفرِ ولا يتغيَّرُ ولا يفسُدُ قبلَ بلوغِ المقصِدِ . . فليتذكرْ أنَّ سفرَ الآخرةِ أطولُ مِنْ هـٰذا السفرِ ، وأنَّ زادَهُ التقوىٰ ، وأنَّ ما عداهُ ممَّا يظنُّ أنَّهُ زادُهُ يتخلَّفُ عنهُ عندَ الموتِ ويخونُهُ ، فلا يبقىٰ معهُ ؛ كالطعامِ الرطْبِ الذي يفسُدُ في أوَّلِ منازلِ السفرِ ، فيبقىٰ وقتَ الحاجةِ متحيِّراً محتاجاً لا حيلةَ لهُ .

---

(١) القلت : الهلاك ، قال الجاحظ في « البيان والتبيين » (٢/ ١٠٥) : (وقال أعرابي : إن المسافر ومتاعه لعلىٰ قَلَتٍ إلا ما وقى الله) ، فعبارة المصنف محكية كما ترىٰ .

فليحذرْ أنْ تكونَ أعمالُهُ التي هيَ زادُهُ إلى الآخرةِ لا تصحبُهُ بعدَ الموتِ ، بلْ يفسدُها شوائبُ الرياءِ وكدوراتُ التقصيرِ .

* * *

وأمَّا الراحلةُ : إذا أحضرَها . . فليشكرِ اللهَ تعالىٰ بقلبِهِ علىٰ تسخيرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ لهُ الدوابَّ لتحمِلَ عنهُ الأذىٰ ، وتخفِّفَ عنهُ المشقَّةَ ، وليتذكرْ عندَهُ المركبَ الذي يركبُهُ إلى الدارِ الآخرةِ ، وهيَ الجِنازةُ التي يحمَلُ عليها ؛ فإنَّ أمرَ الحجِّ مِنْ وجهٍ يوازي أمرَ السفرِ إلى الآخرةِ .

ولينظرْ : أيصلحُ سفرُهُ علىٰ هـٰذا المركبِ لأنْ يكونَ زاداً لذلكَ السفرِ علىٰ ذلكَ المركبِ ؟ فما أقربَ ذلكَ منهُ ، وما يدريهِ لعلَّ الموتَ قريبٌ ، ويكونُ ركوبُهُ للجنازةِ قبلَ ركوبِهِ للجَمَّازةِ(١) ، فركوبُ الجنازةِ مقطوعٌ بهِ ، وتيسُّرُ أسبابِ السفرِ مشكوكٌ فيهِ ، فكيفَ يحتاطُ في أسبابِ السفرِ المشكوكِ فيهِ ويستظهرُ في زادِهِ وراحلتِهِ ويهملُ أمرَ السفرِ المستيقنِ ؟!

* * *

وأمَّا شراءُ ثوبيِ الإحرامِ : فليتذكرْ عندَهُ الكفنَ ولفَّهُ فيهِ ؛ فإنَّهُ سيرتدي ويتَّزرُ بثوبيِ الإحرامِ عندَ القربِ مِنْ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، وربما لا يتمُّ سفرُهُ إليهِ ، وأنَّهُ سيلقى اللهَ تعالىٰ ملفوفاً في ثيابِ الكفنِ لا محالةَ(٢) .

---

(١) يقال : ناقة جَمَّازةٌ ؛ أي : تعدو **الجمزىٰ** ، وهو إسراعٌ في المشي ، **والجمز** : السير بالجنائز كذلك .

(٢) لما ورد : يحشر الميت في ثيابه ، ولذلك أمر بتحسين الأكفان . « إتحاف » (٤/ ٤٤٦) .

فكما لا يلقىٰ بيتَ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا مخالفاً عادتَهُ في الزيِّ والهيئةِ . . فلا يلقى اللهَ عزَّ وجلَّ بعدَ الموتِ إلا في زيٍّ مخالفٍ لزيِّ الدنيا ، وهٰذا الثوبُ قريبٌ مِنْ ذلكَ الثوبِ ؛ إذْ ليسَ فيهِ مخيطٌ ولا محيطٌ كما في الكفنِ .

* * *

وأمَّا الخروجُ مِنَ البلدِ : فليعلمْ عندَهُ أنَّهُ فارقَ الأهلَ والوطنَ متوجِّهاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في سفرٍ لا يضاهي أسفارَ الدنيا ، فليحضرْ في قلبِهِ أنَّهُ ماذا يريدُ ؟ وأينَ يتوجهُ ؟ وزيارةَ مَنْ يقصدُ ؟ وأنَّهُ متوجِّهٌ إلىٰ ملكِ الملوكِ في زمرةِ الزائرينَ لهُ ، الذينَ نُودوا فأجابوا ، وشُوِّقوا فاشتاقوا ، واستنهضوا فنهضوا ، وقطعوا العلائقَ ، وفارقوا الخلائقَ ، وأقبلوا علىٰ بيتِ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي فخَّمَ أمرَهُ وعظَّمَ شأنَهُ ورفعَ قدْرَهُ ؛ تسلِّياً بلقاءِ البيتِ عنْ لقاءِ ربِّ البيتِ ، إلىٰ أنْ يرزقوا منتهىٰ مُناهم ، ويسعَدُوا بالنظرِ إلىٰ مولاهُمْ .

وليحضرْ في قلبِهِ رجاءَ الوصولِ والقَبولِ ، لا إدلالاً بأعمالِهِ في الارتحالِ ومفارقةِ الأهلِ والمالِ ، ولكنْ ثقةً بفضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ورجاءً لتحقيقِهِ وعدَهُ لمَنْ زارَ بيتَهُ ، وليرجُ أنَّهُ إنْ لمْ يصلْ وأدركتْهُ المنيَّةُ في الطريقِ . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وافداً إليهِ ؛ إذْ قالَ جلَّ جلالُهُ : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾(١) .

* * *

---

(١) انظر ما رواه البخاري (١٢٦٥) ، ومسلم (١٢٠٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأمّا دخولُ الباديةِ إلى الميقاتِ ، ومشاهدةُ تلكَ العقباتِ : فليتذكرْ فيها ما بينَ الخروجِ مِنَ الدنيا بالموتِ إلىٰ ميقاتِ يومِ القيامةِ ، وما بينَهُما منَ الأهوالِ والمطالباتِ .

وليتذكرْ مِنْ هولِ قطّاعِ الطريقِ هولَ سؤالِ مُنْكرٍ ونَكيرٍ ، ومِنْ سباعِ البوادي عقاربَ القبرِ وديدانَهُ وما فيهِ مِنَ الأفاعي والحيّاتِ ، ومِن انفرادِهِ عنْ أهلِهِ وأقاربِهِ وحشةَ القبرِ وكربتَهُ ووحدتَهُ .

وليكنْ في هٰذهِ المخاوفِ في أعمالِهِ وأقوالِهِ متزوِّداً لمخاوفِ القبرِ .

***

وأمّا الإحرامُ والتلبيةُ مِنَ الميقاتِ : فليعلمْ أنَّ معناهُ إجابةُ نداءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فليرجُ أنْ يكونَ مقبولاً ، وليخشَ أنْ يقالَ لهُ : لا لبيكَ ولا سعديكَ ، وليكنْ بينَ الرجاءِ والخوفِ متردِّداً ، وعنْ حولِهِ وقوَّتِهِ متبرِّئاً ، وعلىٰ فضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وكرمِهِ متّكلاً ؛ فإنَّ وقتَ التلبيةِ هوَ بدايةُ الأمرِ ، وهوَ محلُّ الخطرِ .

قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : حجَّ عليُّ بنُ الحسينِ رضيَ اللهُ عنهُما ، فلمّا أحرمَ واستوتْ بهِ راحلتُهُ . اصفرَّ لونُهُ ، وانتفضَ ، ووقعتْ عليهِ الرِّعْدَةُ ، ولمْ يستطعْ أنْ يلبِّيَ ، فقيلَ لهُ : لِمَ لا تلبِّي ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ يقالَ لي : لا لبيكَ ولا سعديكَ ، فلمّا لبّىٰ . غشيَ عليهِ ووقعَ عنْ راحلتِهِ ،

فلمْ يزلْ يعتريهِ ذلكَ حتَّىٰ قضَىٰ حجَّهُ[1] .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري : كنتُ معَ أبي سليمانَ الدارانيِّ رضيَ اللهُ عنهُ حينَ أرادَ الإحرامَ ، فلمْ يلبِّ حتَّىٰ سرْنا ميلاً ، فأخذتْهُ كالغشيةِ ، ثمَّ أفاقَ وقالَ : يا أحمدُ ؛ إنَّ اللهَ سبحانَهُ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : مُرْ ظَلَمَةَ بني إسرائيلَ أنْ يُقِلُّوا مِنْ ذِكْري ؛ فإنِّي أذكرُ مَنْ ذكرني منهُمْ باللعنةِ ، ويحكَ يا أحمدُ ؛ بلغني أنَّ مَنْ حجَّ مِنْ غيرِ حِلِّهِ ثمَّ لبَّىٰ . . قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : لا لبيكَ ولا سعديكَ حتَّىٰ تردَّ ما في يديكَ ، فما نأمنُ أنْ يقالَ لنا ذلكَ[2] .

وليتذكرِ الملبِّي عندَ رفعِ الأصواتِ بالتلبيةِ في الميقاتِ ؛ إجابةً لنداءِ اللهِ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ نداءَ الخلْقِ بنفْخِ الصُّورِ ، وحشرَهُمْ مِنَ القبورِ ، وازدحامَهُمْ في عرصاتِ القيامةِ مجيبينَ لنداءِ اللهِ تعالىٰ ، ومنقسمينَ إلىٰ مقرَّبينَ وممقوتينَ ، ومقبولينَ ومردودينَ ، ومتردِّدينَ في أوَّلِ الأمرِ بينَ الخوفِ والرجاءِ تردُّدَ الحاجِّ في الميقاتِ ، حيثُ لا يدرونَ أيتيسَّرُ لهمْ إتمامُ الحجِّ وقبولُهُ أمْ لا ؟

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٣٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/ ٢٧٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٦٣) ، والحديث الذي بلغه ما رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٢٢٤) : « وإذا خرج بالنفقة الخبيثة ، فوضع رجله في الغرز ، فنادىٰ : لبيك . . ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك ، زادك حرام ، ونفقتك حرام ، وحجك غير مبرور » .

وأمَّا دخولُ مكَّةَ : فليتذكرْ عندَ ذلكَ أنَّهُ قدِ انتهىٰ إلىٰ حرمٍ آمنٍ ، وليرجُ عندَهُ أنْ يأمَنَ بدخولِهِ مِنْ عقابِ اللهِ تعالىٰ ، وليخشَ ألا يكونَ أهلاً للقربِ ، فيكونَ بدخولِهِ الحرَمَ خائباً مستحقّاً للمقْتِ ، وليكنْ رجاؤُهُ في جميعِ الأوقاتِ غالباً ، فالكرمُ عميمٌ ، والربُّ رحيمٌ ، وشرفُ البيتِ عظيمٌ ، وحقُّ الزائرِ مرعيٌّ ، وذمامُ المستجيرِ اللائذِ غيرُ مضيَّعٍ .

* * *

وأمَّا وقوعُ البصرِ على البيتِ : فينبغي أنْ تُحضرَ عندَهُ عظمةَ البيتِ في القلبِ ، وتقدِّرَ أنَّكَ مشاهدٌ لربِّ البيتِ لشدَّةِ تعظيمِكَ ، وارجُ أنْ يرزقَكَ اللهُ تعالى النظرَ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ كما رزقَكَ اللهُ النظرَ إلىٰ بيتِهِ العظيمِ ، واشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ تبليغِهِ إيَّاكَ هـٰذهِ الرتبةَ ، وإلحاقِهِ إيَّاكَ بزمرةِ الوافدينَ إليهِ .

واذكرْ عندَ ذلكَ انصبابَ الناسِ في القيامةِ إلىٰ جهةِ الجنَّةِ آملينَ لدخولِها كافةً ، ثمَّ انقسامَهُمْ إلىٰ مأذونينَ في الدخولِ ومصروفينَ ؛ انقسامَ الحاجِّ إلىٰ مقبولينَ ومردودينَ ، ولا تغفُلْ عنْ تذكُّرِ أمورِ الآخرةِ في شيءٍ ممَّا تراهُ ؛ فإنَّ كلَّ أحوالِ الحاجِّ دليلٌ علىٰ أحوالِ الآخرةِ .

* * *

وأمَّا الطوافُ بالبيتِ : فاعلمْ أنَّهُ صلاةٌ ، وأحضرْ قلبَكَ فيهِ مِنَ التعظيمِ والخوفِ والرجاءِ والمحبةِ ما فصَّلْناهُ في كتابِ الصلاةِ ، واعلمْ أنَّكَ بالطوافِ

متشبِّهٌ بالملائكةِ المقرَّبينَ ، الحافِّينَ حولَ العرشِ الطائفينَ حولَهُ .

ولا تظننَّ أَنَّ المقصودَ طوافُ جسمِكَ بالبيتِ ، بلِ المقصودُ طوافُ قلبِكَ بذكْرِ ربِّ البيتِ ، حتَّىٰ لا تبتدىءَ الذكرَ إلا منهُ ، ولا تختمَ إلا بهِ ؛ كما تبتدىءُ الطوافَ مِنَ البيتِ وتختمُ بالبيتِ .

واعلمْ : أَنَّ الطوافَ الشريفَ هوَ طوافُ القلبِ بحضرةِ الربوبيةِ ، وأَنَّ البيتَ مثالٌ ظاهرٌ في عالمِ الملكِ لتلكَ الحضرةِ التي لا تشاهدُ بالبصرِ وهي في عالمِ الملكوتِ ، كما أنَّ البدَنَ مثالٌ ظاهرٌ في عالمِ الشهادةِ للقلبِ الذي لا يشاهدُ بالبصرِ وهوَ في عالمِ الغيبِ ، وأنَّ عالمَ الملكِ والشهادةِ مَدْرَجَةٌ إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ لمَنْ فتحَ اللهُ لهُ البابَ ، وإلىٰ هـٰذهِ الموازنةِ وقعتِ الإشارةُ بأنَّ البيتَ المعمورَ في السماواتِ بإزاءِ الكعبةِ ، وأنَّ طوافَ الملائكةِ بهِ كطوافِ الإنسِ بهـٰذا البيتِ ، ولمَّا قصرتْ رتبةُ أكثرِ الخلْقِ عنْ مثلِ ذلكَ الطوافِ . . أُمروا بالتشبُّهِ بهم بحسَبِ الإمكانِ ، ووُعِدُوا بأنَّ مَنْ تشبَّهَ بقومٍ . . فهوَ منهُمْ[1] ، والذي يقدرُ علىٰ مثلِ ذلكَ الطوافِ هوَ الذي يقالُ : إنَّ الكعبةَ تزورُهُ وتطوفُ بهِ ، علىٰ ما رآهُ بعضُ المكاشفينَ لبعضِ أولياءِ اللهِ سبحانه وتعالىٰ .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الاستلامُ : فاعتقدْ عندَهُ أنَّكَ مبايعٌ للهِ عزَّ وجلَّ علىٰ طاعتِهِ ، فصمِّمْ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٠٣١) .

عزيمتكَ على الوفاءِ ببيعتِكَ ، فمَنْ غدرَ في المبايعةِ . استحقَّ المقْتَ ، وقدْ روى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أَنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ عزَّ وجلَّ في الأرضِ ، يصافحُ بها خلقَهُ كما يصافحُ الرجلُ أخاهُ »[(١)] .

***

وأمَّا التعلُّقُ بأستارِ الكعبةِ والالتصاقُ بالملتزمِ : فلتكنْ نيَّتُكَ في الالتزامِ طلبَ القرْبِ حبّاً وشوقاً للبيتِ ولربِّ البيتِ ، وتبرُّكاً بالمماسَّةِ ، ورجاءً للتحصُّنِ عنِ النارِ في كلِّ جزْءٍ مِنْ بدنِكَ لاقى البيتَ .

ولتكنْ نيَّتُكَ في التعلُّقِ بالسترِ الإلحاحَ في طلبِ المغفرةِ وسؤالَ الأمانِ ؛ كالمذنبِ المتعلِّقِ بثيابِ مَنْ أذنبَ إليهِ ، المتضرِّعِ إليهِ في عفوِهِ عنهُ ، المظهرِ لهُ أنَّهُ لا ملجأَ لهُ منهُ إلا إليهِ ، ولا مفزعَ لهُ إلا عفوُهُ وكرمُهُ ، وأنَّهُ لا يفارقُ ذيلَهُ إلا بالعفوِ وبذلِ الأمنِ في المستقبلِ .

***

وأمَّا السعيُ بينَ الصفا والمروةِ في فِناءِ البيتِ : فإنَّهُ يضاهي تردُّدَ العبدِ بفِناءِ دارِ الملكِ جائياً وذاهباً مرَّةً بعدَ أخرىٰ ؛ إظهاراً للخلوصِ في الخدمةِ

---

(١) هو بسياقه هنا رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٢٥٧) موقوفاً على ابن عباس وبلفظ : (الركن يمين الله في الأرض ، يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه) هو شطر من حديث رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٥٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، والركن هنا : هو الحجر المذكور في الحديث .

ورجاءً للملاحظةِ بعينِ الرحمةِ ؛ كالذي دخلَ على الملكِ وخرجَ وهوَ لا يدري ما الذي يقضي بهِ الملكُ في حقِّهِ مِنْ قَبولٍ أوْ ردٍّ ، فلا يزالُ يتردَّدُ علىٰ فِناءِ الدارِ مرَّةً بعدَ أخرىٰ يرجو أنْ يرحمَ في الثانيةِ إنْ لمْ يرحمْ في الأولىٰ .

وليتذكَّرْ عندَ تردُّدِهِ بينَ الصفا والمروةِ تردُّدَهُ بينَ كفَّتي الميزانِ في عرصاتِ القيامةِ ، وليمثِّلِ الصفا بكفَّةِ الحسناتِ ، والمروةَ بكفَّةِ السيئاتِ ، وليتذكَّرْ تردُّدَهُ بينَ الكفَّتينِ ناظراً إلى الرجحانِ والنقصانِ، متردِّداً بينَ العذابِ والغفرانِ .

* * *

وأمَّا الوقوفُ بعرفةَ : فاذكرْ بما ترىٰ مِنِ ازدحامِ الخلْقِ ، وارتفاعِ الأصواتِ ، واختلافِ اللغاتِ واتباعِ الفرقِ أئمَّتَهُمْ في التردُّداتِ على المشاعرِ ؛ اقتفاءً لهُمْ وسيراً بسيرِهم . . عرصاتِ القيامةِ ، واجتماعَ الأممِ معَ الأنبياءِ والأئمَّةِ ، واقتفاءَ كلِّ أمةٍ نبيَّها ، وطمعَهُمْ في شفاعتِهِمْ ، وتحيرَهُمْ في ذلكَ الصعيدِ الواحدِ بينَ الردِّ والقَبولِ .

وإذا تذكَّرْتَ ذلكَ . . فألزمْ قلبَكَ الضراعةَ والابتهالَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فتحشرَ في زمرةِ الفائزينَ المرحومينَ ، وحقِّقْ رجاءَكَ بالإجابةِ ؛ فالموقفُ شريفٌ ، والرحمةُ إنَّما تصلُ مِنْ حضرةِ الجلالِ إلىٰ كافَّةِ الخلقِ بواسطةِ القلوبِ العزيزةِ مِنْ أوتادِ الأرضِ ، ولا ينفكُّ الموقفُ عنْ طبقةٍ مِنَ الأبدالِ والأوتادِ ، وطبقاتٍ منَ الصالحينَ وأربابِ القلوبِ ، فإذا اجتمعتْ هممُهُمْ وتجرَّدَتْ للضراعةِ والابتهالِ قلوبُهُمْ ، وارتفعتْ إلى اللهِ تعالىٰ أيديهِمْ ،

وامتدَّتْ إليهِ أعناقُهُمْ ، وشخصتْ نحوَ السماءِ أبصارُهُمْ ، مجتمعينَ بهمَّةٍ واحدةٍ علىٰ طلبِ الرحمةِ . . فلا تظنَّنَّ أنَّهُ يخيِّبُ أملَهُمْ ، ويضيِّعُ سعيَهُمْ ، ويدخرُ عنهُمْ رحمةً تغمرُهُمْ ، ولذلكَ قيلَ : (إنَّ مِنْ أعظمِ الذنوبِ أنْ يحضرَ عرفاتٍ ويظنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يغفرْ لهُ) .

وكأنَّ اجتماعَ الهممِ والاستظهارَ بمجاورةِ الأبدالِ والأوتادِ المجتمعينَ مِنْ أقطارِ البلادِ . . هوَ سرُّ الحجِّ وغايةُ مقصودِهِ ، فلا طريقَ إلى استدرارِ رحمةِ اللهِ سبحانَهُ مثلُ اجتماعِ الهممِ ، وتعاونِ القلوبِ في وقتٍ واحدٍ علىٰ صعيدٍ واحدٍ[1] .

* * *

وأمَّا رميُ الجمارِ : فاقصدْ بهِ الانقيادَ للأمرِ ؛ إظهاراً للرقِّ والعبوديةِ ، وانتهاضاً لمجرَّدِ الامتثالِ ، مِنْ غيرِ حظٍّ للعقلِ والنفسِ .

ثمَّ اقصِدْ بهِ التشبُّهَ بإبراهيمَ عليهِ السلامُ ؛ حيثُ عرضَ لهُ إبليسُ لعنهُ اللهُ تعالىٰ في ذلكَ الموضعِ ليُدْخِلَ علىٰ حجِّهِ شبهةً أَوْ يفتنَهُ بمعصيةٍ ، فأمرَهُ اللهُ تعالىٰ أنْ يرميَهُ بالحجارةِ ؛ طرداً لهُ ، وقطعاً لأملِهِ[2] .

---

(١) ومن هنا قال العارفون : إذا قرئت سورة (يس) في جوف الليل الذي هو الثلث الأخير لأي حاجة . . قضيت مع الإخلاص ؛ لأنه اجتمعت فيه ثلاثة قلوب : قلب الداعي ، وقلب القرآن ، وقلب الليل ، فإذا كان هـٰذا في ثلاثة قلوب . . فما بال آلافٍ من القلوب مع شرف الموقف ؟ ! وهو سر جليل . « إتحاف » (٤/ ٤٥٣) .

(٢) روىٰ هـٰذا الخبر الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٤٣) .

فإنْ خطرَ لكَ أنَّ الشيطانَ عرضَ لهُ وشاهدَهُ ، فلذلكَ رماهُ ، وأمَّا أنا فليسَ يعرضُ ليَ الشيطانُ . . فاعلمْ أنَّ هـٰذا الخاطرَ مِنَ الشيطانِ ، وأنَّهُ الذي ألقاهُ في قلبِكَ ؛ ليفترَّ عزمَكَ في الرميِ ، ويخيِّلَ إليكَ أنَّهُ فعلٌ لا فائدةَ فيهِ ، وأنَّهُ يضاهي اللعبَ ، فلِمَ تشتغلُ بهِ ؟!

فاطردْهُ عنْ نفسِكَ بالجدِّ والتشميرِ في الرميِ فيهِ . . ترغمْ أنفَ الشيطانِ ، واعلمْ أنَّكَ في الظاهرِ ترمي الحصىٰ إلى العقبةِ ، وفي الحقيقةِ ترمي بهِ وجهَ الشيطانِ وتقصمُ بهِ ظهرَهُ ؛ إذْ لا يحصلُ إرغامُ أنفهِ إلا بامتثالِكَ أمرَ اللهِ سبحانه ؛ تعظيماً لمجرَّدِ الأمرِ مِنْ غيرِ حظٍّ للنفسِ والعقلِ فيهِ .

* * *

وأمَّا ذبحُ الهديِ : فاعلمْ أنَّهُ تقرُّبٌ إلى اللهِ تعالىٰ بحكْمِ الامتثالِ ، فأكملِ الهديَ وأجزاءَهُ ، وارجُ أنْ يعتقَ اللهُ بكلِّ جزءٍ منهُ جزءاً منكَ مِنَ النارِ ، فهكذا وردَ الوعدُ ، فكلَّما كانَ الهديُ أكبرَ وأجزاؤُهُ أوفرَ . . كانَ فداؤُكَ بهِ مِنَ النارِ أعمَّ .

* * *

وأمَّا زيارةُ المدينةِ : فإذا وقعَ بصرُكَ علىٰ حيطانِها . . فتذكَّرْ أنَّها البلدةُ التي اختارَها اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وجعلَ إليها هجرتَهُ ، وأنَّها دارُهُ التي شرعَ فيها فرائضَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وسننَهُ ، وجاهدَ عدوَّهُ وأظهرَ بها دينَهُ إلىٰ أنْ توفَّاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ .

ثمَّ جعلَ تربتَهُ فيها ، وتربةَ وزيريهِ القائمَينِ بالحقِّ مِنْ بعدِهِ .

ثمَّ مثِّلْ في نفسِكَ مواقعَ أقدامِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ تردادِهِ فيها ، وأنَّهُ ما مِنْ موضعِ قدمٍ تطؤُهُ إلا وهوَ موقعُ قدمِهِ العزيزةِ ، فلا تضعُ قدمَكَ عليهِ إلا على سكينةٍ ووَجَلٍ .

وتذكَّرْ مشيَهُ وتخطيَهُ في سككِها ، وتصوَّرْ خشوعَهُ وسكينتَهُ في المشيِ ، وما استودعَ اللهُ سبحانَهُ قلبَهُ مِنْ عظيمِ معرفتِهِ ، ورفعةِ ذكرِهِ معَ ذكرِهِ تعالىٰ ، حتَّىٰ قرنَهُ بذكرِ نفسِهِ ، وإحباطَهُ عملَ مَنْ هتكَ حرمتَهُ ولوْ برفعِ صوتِهِ فوقَ صوتِهِ .

ثمَّ تذكَّرْ ما منَّ اللهُ بهِ على الذينَ أدركوا صحبتَهُ وسعدوا بمشاهدتِهِ واستماعِ كلامِهِ ، وأعظمْ تأسُّفَكَ علىٰ ما فاتَكَ مِنْ صحبتِهِ وصحبةِ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُم .

ثمَّ اذكرْ أنَّكَ قدْ فاتَتْكَ رؤيتُهُ في الدنيا ، وأنَّكَ مِنْ رؤيتِهِ في الآخرةِ علىٰ خطرٍ ، وأنَّكَ ربما لا تراهُ إلا بحسرةٍ وقدْ حيلَ بينَكَ وبينَ قبولِهِ إيَّاكَ لسوءِ عملِكَ ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُرفَعُ إليَّ أقوامٌ ، فيقولونَ : يا محمدُ ، يا محمدُ ؛ فأقولُ : يا ربِّ ؛ أصحابي ، فيقولُ : إنَّكَ لا تدري ما أحدثوا بعدَكَ ، فأقولُ : بُعداً وسُحقاً »(١) ، فإنْ تركتَ حرمةَ شريعتِهِ ولوْ في دقيقةٍ مِنَ الدقائقِ . . فلا تأمنْ أنْ يحالَ بينَكَ وبينَهُ بعُدُولِكَ عنْ محجَّتِهِ .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٨٥) ، ومسلم (٢٤٩) دون لفظ النداء .

وليعْظُمْ معَ ذلكَ رجاؤُكَ ألا يحولَ اللهُ بينَكَ وبينَهُ بعدَ أنْ رزقَكَ الإيمانَ ، وأشخصَكَ مِنْ وطنِكَ لأجلِ زيارتِهِ مِنْ غيرِ تجارةٍ ولا حظٍّ في دنيا ، بل لمحضِ حبِّكَ لهُ وتشوُّقِكَ إلىٰ أنْ تنظرَ إلىٰ آثارِهِ ، وإلىٰ حائطِ قبرِهِ ، إذْ سمحَتْ نفسُكَ بالسفرِ لمجرَّدِ ذلكَ لمَّا فاتتْكَ رؤيتُهُ ، فما أجدرَكَ بأنْ ينظرَ اللهُ إليكَ بعينِ الرحمةِ .

فإذا بلغتَ المسجدَ . . فاذكرْ أنَّها العرصةُ التي اختارَها اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولأوَّلِ المسلمينَ وأفضلِهِمْ عصابةً ، وأنَّ فرائضَ اللهِ سبحانَهُ أوَّلُ ما أقيمتْ في تلكَ العرصةِ ، وأنَّها جمعَتْ أفضلَ خلْقِ اللهِ حيّاً وميِّتاً .

فليعظمْ أملُكَ في اللهِ سبحانَهُ أنْ يرحمَكَ بدخولِكَ إيَّاهُ ، فادخلْهُ خاشعاً معظِّماً ، وما أجدرَ هـٰذا المكانَ بأنْ يستدعيَ الخشوعَ مِنْ قلبِ كلِّ مؤمنٍ ؛ كما حُكِيَ عنْ أبي سليمانَ أنَّهُ قالَ : حجَّ أويسٌ القرنيُّ رحمَهُ اللهُ ، ودخلَ المدينةَ ، فلمَّا وقفَ علىٰ بابِ المسجدِ . . قيلَ لهُ : هـٰذا قبرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فغشيَ عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . قالَ : أخرجوني ، فليسَ يلذُّ لي بلدٌ فيهِ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مدفونٌ[1] .

❊ ❊ ❊

---

(١) روى الخبر أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٦٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/ ٤٥٠) ، وفي غالب النسخ : (بلدي) بدل (يلذ لي) ، والمثبت من (ج) ، والمعنىٰ متقارب .

وأمَّا زيارةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : فينبغي أنْ تقفَ بينَ يديهِ كما وصفناهُ ، وتزورُهُ ميتّاً كما تزورُهُ حيّاً .

ولا تقربُ مِنْ قبرِهِ إلا كما كنتَ تقرُبُ مِنْ شخصِهِ الكريمِ لوْ كانَ حيّاً ، وكما كنتَ ترى الحرمةَ في ألا تمسَّ شخصَهُ ولا تقبلَهُ .

بلْ تقفُ مِنْ بعدٍ ماثلاً بينَ يديهِ ، فكذلكَ فافعلْ ؛ فإنَّ المسَّ والتقبيلَ للمَشاهِدِ عادةُ النصارىٰ واليهودِ .

واعلمْ : أنَّهُ عالِمٌ بحضورِكَ وقيامِكَ وزيارتِكَ ، وأنَّهُ يبلغُهُ سلامُكَ وصلاتُكَ .

فمثِّلْ صورتَهُ الكريمةَ في خيالِكَ موضوعاً في اللحدِ بإزائِكَ ، وأحضرْ عظيمَ رتبتِهِ في قلبِكَ .

فقدْ رُوِيَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ وكَّلَ بقبرِهِ ملكاً يبلِّغُهُ سلامَ مَنْ سلَّمَ عليهِ مِنْ أُمَّتِهِ[1] ، هـٰذا في حقِّ مَنْ لمْ يحضرْ قبرَهُ ، فكيفَ بمَنْ فارقَ الوطنَ ، وقطعَ البواديَ شوقاً إلىٰ لقائِهِ ، واكتفاءً بمشاهدةِ مشهدِهِ الكريمِ إذْ فاتَهُ مشاهدةُ غرَّتِهِ الكريمةِ ؟!

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٧٧٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٣٠١) وفيه : « ثم يوكل الله بذلك ملكاً يدخله في قبري كما تدخل الهدايا ، يخبرني من صلىٰ علي باسمه ونسبه إلىٰ عشيرته ، فأثبته عندي في صحيفة بيضاء » ، وله ألفاظ أخرىٰ حكاها الحافظ السخاوي في « القول البديع » (ص٣١٣) وما بعدها ، وللنسائي (٣/ ٤٣) : « إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام » .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ مرَّةً واحدةً . . صلَّى اللهُ عليهِ عشراً »(١) .

فهٰذا جزاؤُهُ في الصلاةِ عليهِ بلسانِهِ ، فكيفَ بالحضورِ لزيارتِهِ ببدنِهِ ؟!

ثمَّ ائتِ منبرَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وتوهَّمْ صعودَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المنبرَ .

ومثِّلْ في قلبِكَ طلعتَهُ البهيَّةَ قائماً على المنبرِ وقدْ أحدقَ بهِ المهاجرونَ والأنصارُ رضيَ اللهُ عنهُم ، وهوَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يحثُّهُمْ علىٰ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بخطبتِهِ .

واسألِ اللهَ عزَّ وجلَّ ألاَّ يفرِّقَ في القيامةِ بينَكَ وبينَهُ .

فهٰذهِ وظيفةُ القلبِ في أعمالِ الحجِّ .

* * *

فإذا فرغَ منها كلِّها : فينبغي أنْ يُلزِمَ قلبَهُ الهمَّ والحزنَ والخوفَ ؛ فإنَّهُ ليسَ يدري : أَقُبِلَ منهُ حجُّهُ وأُثبتَ في زمرةِ المحبوبينَ ، أمْ ردَّ حجُّهُ وأُلحقَ بالمطرودينَ ؟

وليتعرَّفْ ذلكَ مِنْ قلبِهِ وأعمالِهِ .

فإنْ صادفَ قلبَهُ قدِ ازدادَ تجافياً عنْ دارِ الغرورِ ، وانصرافاً إلىٰ دارِ الأنسِ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ووجدَ أعمالَهُ قدِ اتزنتْ بميزانِ الشرعِ . . فليثقْ

(١) رواه مسلم (٤٠٨) .

بالقَبولِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يقبلُ إلا مَنْ أحبَّهُ .

ومَنْ أحبَّهُ . . تولاَّهُ وأظهرَ عليهِ آثارَ محبَّتِهِ ، وكفَّ عنهُ سطوةَ عدوِّهِ إبليسَ لعنَهُ اللهُ .

فإذا ظهرَ ذلكَ عليهِ . . دلَّ على القبولِ ، وإنْ كانَ الأمرُ بخلافِهِ . . فيوشكُ أنْ يكونَ حظُّهُ مِنْ سفرِهِ العناءَ والتعبَ ، نعوذُ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ مِنْ ذلكَ .

* * *

تمّ كتاب أسرار الحجّ ومهمّاته

وهو الكتاب السّابع من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

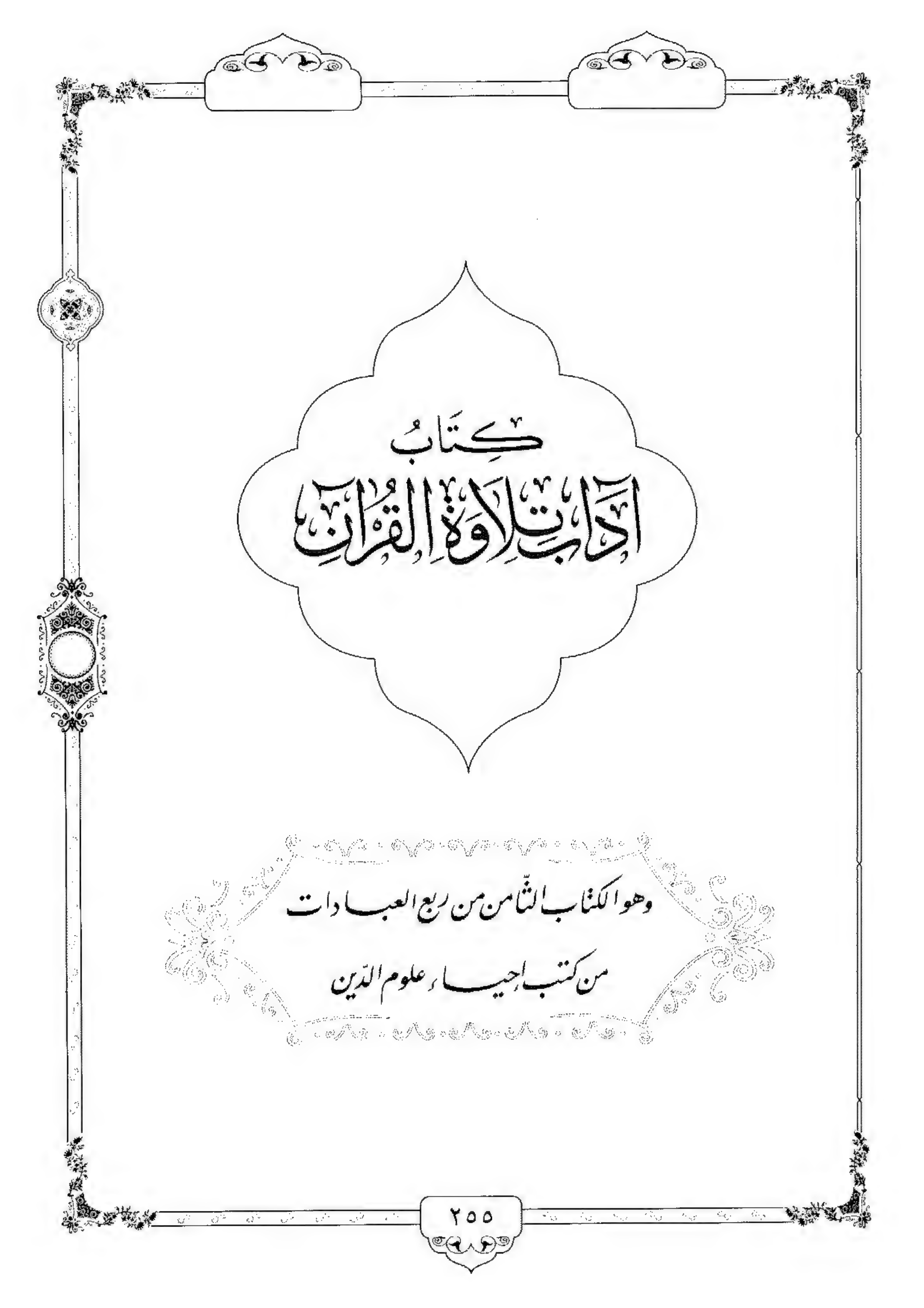
والحمد لله ربّ العالمين حمداً كثيراً طيّباً مباركاً كما هو أهله ومستحقّه

وهو حسبنا ونعم الوكيل

وصلواته وسلامه على خير خلقه سيّدنا محمّد النّبيّ الأمّيّ وعلى آله الطّاهرين

كلّما ذكره الذّاكرون وغفل عنه الغافلون

يتلوه كتاب آداب تلاوة القرآن



كتاب آداب تلاوة القرآن

وهو الكتاب الثامن من ربع العبادات

من كتب إحياء علوم الدين

كتاب آداب تلاوة القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي امتنَّ علىٰ عبادِهِ بنبيِّهِ المرسلِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكتابِهِ المنزلِ عليهِ ، الذي لا يأتيهِ الباطلُ منْ بينِ يديهِ ولا منْ خلفِهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ ، حتَّى اتسعتْ علىٰ أهلِ الافتكارِ طرقُ الاعتبارِ بما فيهِ مِنَ القصصِ والأخبارِ ، واتضحَ بهِ سلوكُ المنهجِ القويمِ والصراطِ المستقيمِ بما فصَّلَ فيهِ مِنَ الأحكامِ ، وفرَّقَ بينَ الحلالِ والحرامِ ، فهوَ الضياءُ والنورُ ، وبهِ النجاةُ مِنَ الغرورِ ، وفيهِ شفاءٌ لما في الصدورِ .

مَنْ خالفَهُ مِنَ الجبابرةِ . . قصمَهُ اللهُ ، ومَنِ ابتغى العلمَ في غيرِهِ . . أضلَّهُ اللهُ ، هوَ حبلُ اللهِ المتينُ ، ونورُهُ المبينُ ، والعروةُ الوثقىٰ ، والمعتصمُ الأوفىٰ ، وهوَ المحيطُ بالقليلِ والكثيرِ ، والصغيرِ والكبيرِ ، لا تنقضي عجائبُهُ ، ولا تتناهىٰ غرائبُهُ ، لا يحيطُ بفوائدِهِ عندَ أهلِ الفهمِ تحديدٌ ، ولا يخلقُهُ عندَ أهلِ التلاوة كثرةُ الترديدِ ، هوَ الذي أرشدَ الأوَّلينَ والآخرينَ ، ولمَّا سمعَهُ الجنُّ . . لمْ يلبثوا أنْ ولَّوا إلىٰ قومِهِمْ منذرينَ ، فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ .

فكلُّ مَنْ آمنَ بهِ . . فقدْ وفِّقَ ، ومنْ قالَ بهِ . . فقدْ صدقَ ، ومَنْ تمسَّكَ

بهِ . . فقد هُدِيَ ، ومَنْ عملَ بهِ . . فقدْ فازَ .

وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ ، ومِنْ أسبابِ حفظِهِ في القلوبِ والمصاحفِ استدامةُ تلاوتِهِ ، والمواظبةُ علىٰ دراستِهِ معَ القيامِ بآدابِهِ وشروطِهِ ، والمحافظةُ علىٰ ما فيهِ مِنَ الأعمالِ الباطنةِ والآدابِ الظاهرةِ ، وذلكَ لا بدَّ مِنْ بيانِهِ وتفصيلِهِ .

وتنكشفُ مقاصدُهُ في أربعةِ أبوابٍ :

البابُ الأوَّلُ : في فضلِ القرآنِ وأهلِهِ .

البابُ الثاني : في آدابِ التلاوةِ في الظاهرِ .

البابُ الثالثُ : في الأعمالِ الباطنةِ عندَ التلاوةِ .

البابُ الرابعُ : في فهمِ القرآنِ وتفسيرِهِ بالرأيِ وغيرِهِ .

* * *




البابُ الأوّلُ
في فضلِ القرآنِ وأهلهِ ، وذمّ المقصّرينَ في تلاوتهِ

فضيلةُ القرآنِ

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قرأَ القرآنَ ثمَّ رأىٰ أنَّ أحداً أُوتيَ أفضلَ ممَّا أُوتيَ . . فقدِ استصغرَ ما عظَّمَهُ اللهُ تعالىٰ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ شفيعٍ أفضلَ منزلةً عِندَ اللهِ تعالىٰ مِنَ القرآنِ ، لا نبيٌّ ولا ملكٌ ولا غيرُهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كانَ القرآنُ في إهابٍ . . ما مسَّتْهُ النارُ »(٣) .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٤٠٣) ، وأوقفه البيهقي في « الشعب » (٢٣٥٢) علىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً ، وللطبراني ـ في « الكبير » [٩/ ١٣٢] ـ من حديث ابن مسعود : « والقرآن شافع مشفع » ، ولمسلم ـ في « صحيحه » [٨٠٤] ـ من حديث أبي أمامة : « اقرؤوا القرآن ؛ فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه ») « إتحاف » (٤/ ٤٦٣) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٥٥) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ١٧٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ عبادةِ أمَّتي قراءةُ القرآنِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قرأَ (طـٰه) و(يس) قبلَ أنْ يخلقَ الخلْقَ بألفِ عامٍ ، فلمَّا سمعتِ الملائكةُ القرآنَ . . قالتْ : طوبىٰ لأمَّةٍ ينزلُ عليهِمْ هـٰذا ، وطوبىٰ لأجوافٍ تحملُ هـٰذا ، وطوبىٰ لألسنةٍ تنطقُ بهـٰذا »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : مَنْ شغلَهُ قراءةُ القرآنِ عنْ دعائي ومسألتي . . أعطيتُهُ أفضلَ ثوابِ الشاكرينَ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثةٌ يومَ القيامةِ علىٰ كثيبٍ مِنْ مسكٍ أسودَ لا يهولُهُمْ فزعٌ ولا ينالُهُمْ حسابٌ حتَّىٰ يفرغَ ممَّا بينَ الناسِ : رجلٌ قرأَ القرآنَ ابتغاءَ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأمَّ بهِ قوماً وهُمْ بهِ راضونَ . . . »[5] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٨٦٥) .
(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٣٤٥٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٨٧٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٢٢٥) بنحوه .
(٣) رواه البخاري (٥٠٢٧) .
(٤) رواه الترمذي (٢٩٢٦) بنحوه ، ورواه الدارمي في « سننه » (٣٣٩٩) ، وابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (١٥٣) .
(٥) رواه الترمذي (١٩٨٦) بنحوه ، وهو بلفظه عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ١٢٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أهلُ القرآنِ أهلُ اللهِ وخاصَّتُهُ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ هـٰذهِ القلوبَ تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما جلاؤُها ؟ فقالَ : « تلاوةُ القرآنِ ، وذكرُ الموتِ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أشدُّ أَذَناً إلىٰ قارىءِ القرآنِ مِنْ صاحبِ القَينةِ إلىٰ قَينتِهِ »[٣] .

* * *

الآثارُ :

قالَ أبو أمامةَ الباهليُّ : (اقرؤوا القرآنَ ولا تغرنَّكُمْ هـٰذهِ المصاحفُ المعلَّقَةُ ؛ فإنَّ اللهَ لا يعذِّبُ قلباً وعى القرآنَ)[٤] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (إذا أردتُمُ العلمَ . . فأثيروا القرآنَ ؛ فإنَّ فيهِ علمَ الأولينَ والآخرينَ)[٥] .

وقالَ أيضاً : (اقرؤوا القرآنَ ، فإنَّكُمْ تؤجرونَ عليهِ بكلِّ حرفٍ منهُ عشرَ

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٩٧٧) ، وابن ماجه (٢١٥) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٩٧) بغير ذكر الموت ، والبيهقي في « الشعب » (١٨٥٩) .
(٣) رواه ابن ماجه (١٣٤٠) ، وأصله في مسلم (٧٩٢) ، والأَذَن : الاستماع .
(٤) رواه الدارمي في « سننه » (٣٣٦٢) بتمامه ، وهو متوازع في المرفوع . انظر « الإتحاف » (٤/ ٤٦٥) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨١٤) .

حسناتٍ ، أمَا إنِّي لا أقولُ : الحرفُ « ألم » ، ولكنِ الألفُ حرفٌ ، واللامُ حرفٌ ، والميمُ حرفٌ)[1] .

وقالَ أيضاً : (لا يسألُ أحدُكُمْ عنْ نفسِهِ إلا القرآنَ ، فإنْ كانَ يحبُّ القرآنَ ويعجبُهُ . . فهوَ يحبُّ اللهَ سبحانَهُ ورسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإنْ كانَ يبغضُ القرآنَ . . فهوَ يبغضُ اللهَ سبحانَهُ ورسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[2] .

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ : (كلُّ آيةٍ في القرآنِ درجةٌ في الجنَّة ، ومصباحٌ في بيوتِكُمْ)[3] .

وقالَ أيضاً : (مَنْ قرأَ القرآنَ . . فقدْ أدرجتِ النبوَّةُ بينَ جنبيهِ إلا أنَّهُ لا يوحَىٰ إليهِ)[4] .

وقالَ أبو هريرةَ : (إنَّ البيتَ الذي يُتلىٰ فيهِ كتابُ اللهِ اتسعَ بأهلِهِ ، وكَثُرَ خيرُهُ ، وحضرتْهُ الملائكةُ ، وخرجتْ منهُ الشياطينُ ، وإنَّ البيتَ الذي لا يُتلىٰ فيهِ كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ ضاقَ بأهلِهِ ، وقلَّ خيرُهُ ، وخرجتْ منهُ الملائكةُ ، وحضرتْهُ الشياطينُ)[5] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٩١٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، وأشار إلىٰ روايته موقوفاً عليه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٩٧) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٣٢) بنحوه ، وهو في « القوت » (١/ ٥٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨٩) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٩) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٩٠) .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (رأيتُ اللهَ عزَّ وجلَّ في المنامِ ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ ما أفضلُ ما تقرَّبَ بهِ المتقرِّبونَ إليكَ ؟ قالَ : بكلامي يا أحمدُ ، قالَ : قلتُ : يا ربِّ ؛ بفهمٍ أوْ بغيرِ فهمٍ ؟ قالَ : بفهمٍ وبغيرِ فهمٍ)(١) .

وقالَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ : (إذا سمعَ الناسُ القرآنَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ . . فكأنَّهُمْ لمْ يسمعوهُ قطُّ)(٢) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (ينبغي لحاملِ القرآنِ ألا يكونَ لهُ إلىٰ أحدٍ حاجةٌ ، ولا إلى الخلفاءِ فمَنْ دونَهُمْ ، وينبغي أنْ تكونَ حوائجُ الخلقِ إليهِ)(٣) .

وقالَ أيضاً : (حاملُ القرآنِ حاملُ رايةِ الإسلامِ ، فلا ينبغي أنْ يلهوَ معَ مَنْ يلهو ، ولا يسهوَ مع مَنْ يسهو ، ولا يلغوَ معَ مَنْ يلغو ؛ تعظيماً لحقِّ القرآنِ)(٤) .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (إذا قرأَ الرجلُ القرآنَ . . قبَّلَ الملكُ بينَ عينيهِ)(٥) .

وقالَ عمرُ بنُ ميمونٍ : (مَنْ نشرَ مصحفاً حينَ يصلِّي الصبحَ ، فقرأَ

---

(١) رواه ابن الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » (ص٥٢٧) .
(٢) رواه مرفوعاً الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٩٨١) .
(٣) رواه الآجري في « أخلاق حملة القرآن » (ص٥٠) .
(٤) رواه الآجري في « أخلاق حملة القرآن » (ص٥١) ضمن الخبر السابق .
(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٦٩) ، وفيه : (ختم) بدل (قرأ) .

مئةَ آيةٍ . . رفعَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ مثلَ عملِ جميعِ أهلِ الدنيا)[1] .

ويروىٰ أنَّ خالدَ بنَ عقبةَ جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : اقرأْ عليَّ القرآنَ ، فقرأَ عليهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآيةَ ، فقالَ لهُ : أعدْ ؛ فأعادَ ، فقالَ : واللهِ ؛ إنَّ لهُ لحلاوةً ، وإنَّ عليهِ لطلاوةً ، وإنَّ أسفلَهُ لمغدقٌ ، وإنَّ أعلاهُ لمثمرٌ ، وما يقولُ هـٰذا بشرٌ[2] .

وقالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما دونَ القرآنِ مِنْ غنىً ، ولا بعدَهُ مِنْ فاقةٍ) .

وقالَ الفضيلُ : (مَنْ قرأَ خاتمةَ « سورةِ الحشرِ » حينَ يصبحُ ثمَّ ماتَ منْ يومِهِ . . خُتِمَ لهُ بطابعِ الشهداءِ ، ومَنْ قرأَها حينَ يمسي ثمَّ ماتَ مِنْ ليلتِهِ . . خُتِمَ لهُ بطابعِ الشهداءِ)[3] .

وقالَ القاسمُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ : قلتُ لبعضِ النسَّاكِ : ما هـٰهُنا أحدٌ تستأنسُ بهِ ؟ فمدَّ يدَهُ إلى المصحفِ ووضعَهُ علىٰ حجرِهِ وقالَ : هـٰذا[4] .

---

(١) ذكره الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٢/ ٣٥٤) ، وفيه : (عمرو) بدل (عمر) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

(٢) كذا حكىٰ هـٰذا القول عن خالد بن عقبة ابنُ عبد البر في « الاستيعاب » (ص٢٠٠) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (١٣٣) والقائل عنده ـ وهو المشهور في كتب السير ـ هو الوليد بن المغيرة .

(٣) رواه ابن الضريس في « فضائل القرآن » (ص١٧٢) عن الفضيل عن هشام عن الحسن ، وهو عن الحسن بغير طريق الفضيل رواه الدارمي في « سننه » (٣٤٦٦) .

(٤) الخبر في « الرسالة القشيرية » (ص٢٠٠) ، ثم قال : وفي معناه أنشدوا :

وكتْبُكَ حولي لا تفارقُ مضجعي ... وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتمُ

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثٌ يزدْنَ في الحفْظِ ، ويذهبنَ البلغمَ : السواكُ ، والصيامُ ، وقراءةُ القرآنِ)[1] .

* * *

(١) انظر « الإتحاف » (٢/ ٣٤٩) .

في ذمّ تلاوة الغافلين

قالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (رُبَّ تالٍ للقرآنِ والقرآنُ يلعنُهُ)[1] .

وقالَ ميسرةُ : (الغريبُ هوَ القرآنُ في جوفِ الفاجرِ)[2] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (الزبانيةُ أسرعُ إلىٰ حملةِ القرآنِ الذين يعصونَ اللهَ عزَّ وجلَّ منهُمْ إلىٰ عبدةِ الأوثانِ حينَ عصَوُا اللهَ سبحانَهُ بعدَ القرآنِ)[3] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا قرأَ ابنُ آدمَ القرآنَ ثمَّ خلطَ ثمَّ عادَ يقرأُ . . قيلَ لهُ : ما لكَ ولكلامي ؟!)[4] .

وقالَ ابنُ الرمَّاحِ : (ندمتُ على استظهاري القرآنَ ؛ لأنَّهُ بلغني أنَّ

---

(١) كون القرآن علىٰ حالين من قارئه ثابت في صحاح الحديث ، ففي « مسلم » (٢٢٣) مرفوعاً : « والقرآن حجة لك أو عليك » ، وروى ابن الضريس في « فضائل القرآن » (ص١٠٤) مرفوعاً : « يمثل القرآن يوم القيامة رجلاً ، فيؤتىٰ بالرجل قد حمله فخالف أمره ، فيتمثل له خصماً فيقول : يا رب ؛ حملته إياي فبئس حامل ؛ تعدىٰ حدودي ، وضيع فرائضي ، وركب معصيتي ، وترك طاعتي ، فما يزال يقذف عليه بالحجج حتىٰ يقال : فشأنك ، فيأخذ بيده فما يرسله حتىٰ يكبه علىٰ منخره في النار » ، وسيورد المصنف أخباراً في هـٰذا المعنىٰ صريحة .

(٢) بمعناه مرفوعاً عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٣٠١) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٣٨٢) ، ورواه مرفوعاً أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٨٦) .

(٤) هـٰذا العالم هو يحيى بن الجلاء ، روىٰ هـٰذا الخبر البيهقي في « الشعب » (٢٣٨٢) .

أصحابَ القرآنِ يُسألونَ عمَّا يُسألُ عنهُ الأنبياءُ يومَ القيامةِ)(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (ينبغي لحاملِ القرآنِ أنْ يُعرفَ بليلِهِ إذا الناسُ ينامونَ ، وبنهارِهِ إذا الناسُ يفطرونَ ، وبحزنِهِ إذا الناسُ يفرحونَ ، وببكائِهِ إذا الناسُ يضحكونَ ، وبصمتِهِ إذا الناسُ يخوضونَ ، وبخشوعِهِ إذا الناسُ يختالونَ ، وينبغي لحاملِ القرآنِ أنْ يكونَ سكِّيتاً ليِّناً ، ولا ينبغي لهُ أنْ يكونَ جافياً ولا ممارياً ، ولا صيَّاحاً ولا صخَّاباً ولا حديداً)(٢) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ منافقي هـٰذهِ الأمَّةِ قرَّاؤُها »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقرأِ القرآنَ ما نهاكَ ، فإنْ لمْ ينهَكَ . . فلستَ تقرؤُهُ »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما آمنَ بالقرآنِ مَنِ استحلَّ محارمَهُ »(٥) .

وقالَ بعضُ السلفِ : إنَّ العبدَ ليفتتحُ سورةً فتصلِّي عليهِ الملائكةُ حتَّىٰ

---

(١) رواه مرفوعاً من غير طريق ابن الرماح ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٢/ ١٧٤) ، وهو في « الحلية » (٧/ ٢٨١) من كلام سفيان بنحوه .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٨٩٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٣٤) ، **والحديد** : صاحب حدَّة الخلق سريع الغضب .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤) من زيادات نعيم بن حماد ، وأحمد في « المسند » (٢/ ١٧٥) .

(٤) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١٣٤٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٧٧) .

(٥) رواه الترمذي (٢٩١٨) .

يفرغَ منها ، وإنَّ العبدَ ليفتتحُ سورةً فتلعنُهُ حتَّىٰ يفرغَ منها ، فقيلَ لهُ : وكيفَ ذلكَ ؟! فقالَ : إذا أحلَّ حلالَها وحرَّمَ حرامَها.. صلَّتْ عليهِ ، وإلا.. لعنَتْهُ[١] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إنَّ العبدَ ليتلو القرآنَ فيلعنُ نفسَهُ وهوَ لا يعلمُ ؛ يقرأُ : ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهوَ ظالمٌ نفسَهُ ، ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهوَ منهُمْ !)[٢] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّكُمُ اتخذتمْ قراءةَ القرآنِ مراحلَ ، وجعلتُمُ الليلَ جَمَلاً ، فأنتُمْ تركبونَهُ فتقطعونَ بهِ مراحلَهُ ، وإنَّ مَنْ كانَ قبلَكُمْ رأوهُ رسائلَ مِنْ ربِّهِمْ ، فكانوا يتدبرونَها بالليلِ وينفذونَها بالنهارِ)[١] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (أُنزِلَ القرآنُ عليهِمْ ليعملوا بهِ ، فاتخذوا دراستَهُ عملاً ، إنَّ أحدَهُمْ ليقرأُ القرآنَ مِنْ فاتحتِهِ إلىٰ خاتمتِهِ ما يسقطُ منهُ حرفاً وقدْ أسقطَ العملَ بهِ !)[١] .

وفي حديثِ ابنِ عمرَ وحديثِ جُنْدُبٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لقدْ عشْنَا دهراً طويلاً وأحدُنا يُؤْتَى الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، فتنزلُ السورةُ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيتعلَّمُ حلالَها وحرامَها ، وآمرَها وزاجرَها ، وما ينبغي أنْ يقفَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٥٨) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٥٨) ، وفيه وفي كل النسخ : (الكاذبين) بدل (الظالمين) في الموضع الثاني ، وهو خطأ ، والله أعلم .

عندَهُ منها ، ثمَّ لقدْ رأيتُ رجالاً يُؤتَىٰ أحدُهُمُ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، فيقرأُ ما بينَ فاتحةِ الكتابِ إلىٰ خاتمتِهِ لا يدري ما آمرُهُ ولا زاجرُهُ ، ولا ما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ منهُ ، ينثرُهُ نثرَ الدَّقَلِ)[1] .

وقدْ وردَ في التوراةِ : (يا عبدي ؛ أما تستحي منِّي ؟! يأتيكَ كتابٌ مِنْ بعضِ إخوانكَ وأنتَ في الطريقِ تمشي فتعدلُ عنِ الطريقِ وتقعدُ لأجلِهِ وتقرؤُهُ وتتدبَّرُهُ حرفاً حرفاً حتَّىٰ لا يفوتَكَ شيءٌ منهُ ، وهـٰذا كتابي أنزلتُهُ إليكَ ، انظرْ كمْ وصَّلْتُ لكَ فيهِ مِنَ القولِ[2] ، وكمْ كرَّرْتُ عليكَ فيهِ لتتأمَّلَ طولَهُ وعرضَهُ ، ثمَّ أنتَ معرضٌ عنهُ ، أفكنتُ أهونَ عليكَ مِنْ بعضِ إخوانِكَ ؟! يا عبدي ؛ يقعدُ إليكَ بعضُ إخوانِكَ فتقبلُ عليهِ بكلِّ وجهِكَ ، وتصغي إلىٰ حديثِهِ بكلِّ قلبِكَ ، فإنْ تكلَّمَ متكلِّمٌ أَوْ شغلَكَ شاغلٌ عنْ حديثِهِ . . أومأْتَ إليهِ أنْ كفَّ ، وهـٰأنا ذا مقبلٌ عليكَ ومحدِّثٌ لكَ وأنتَ معرضٌ بقلبِكَ عنِّي ، أفجعلتَني أهونَ عندَكَ مِنْ بعضِ إخوانِكَ ؟!)[3] .

* * *

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٥) .
(٢) قوله : (وصَّلت) بتشديد الصاد ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، والمراد بالتوصيل : متابعة الوعظ واتصال المعاني ، أو التنوع فيها وفي الأخبار .
(٣) قوت القلوب (١/ ٥٩) .

الباب الثاني
في ظاهر آداب التلاوة
وهي عشرة

الأوَّلُ : في حالِ القارئِ :

وهوَ أنْ يكونَ على الوضوءِ ، واقفاً علىٰ هيئةِ الأدبِ والسكونِ ؛ إمَّا قائماً ، وإمَّا جالساً ، مستقبلَ القبلةِ ، مطرقاً رأسَهُ ، غيرَ متربِّعٍ ولا متكئٍ ولا جالسٍ علىٰ هيئةِ التكبُّرِ[1] ، ويكونُ جلوسُهُ وحدَهُ كجلوسِهِ بينَ يدي أستاذِهِ .

وأفضلُ الأحوالِ أنْ يقرأَهُ في الصلاةِ قائماً ، وأنْ يكونَ في المسجدِ ؛ فذلكَ مِنْ أفضلِ الأعمالِ .

فإنْ قرأَ علىٰ غيرِ وضوءٍ وكانَ مضطجعاً في الفراشِ . . فلهُ أيضاً فضلٌ ، ولكنَّهُ دونَ ذلكَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

---

(١) بأن يجعل إحدىٰ رجليه على الأخرىٰ أو غير ذلك ، ويحسن به أن يتطيَّبَ ويتبخَّر بأطيب ما يجد عنده إن أمكنه ذلك ، وأن يستاك ، فقد روى ابن ماجه عن سيدنا علي أنه قال : (أفواهكم طرق القرآن ، فطيبوها بالسواك) ، فإن كان متطيلساً . . فهو الأحسن ؛ إذ هو الخلوة الصغرىٰ . انظر « الإتحاف » (٤/ ٤٧٠) .

جُنُوبِهِمْ﴾ ، فأثنىٰ على الكلِّ ، ولكنْ قدَّمَ القيامَ في الذكرِ ، ثمَّ القعودَ ، ثمَّ الذكرَ مضطجعاً .

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ قرأَ القرآنَ وهوَ قائمٌ في الصلاةِ . . كانَ لهُ بكلِّ حرفٍ مئةُ حسنةٍ ، ومَنْ قرأَهُ وهوَ جالسٌ في الصلاةِ فلهُ بكلِّ حرفٍ خمسونَ حسنةً ، ومَنْ قرأَهُ في غيرِ صلاةٍ وهوَ علىٰ وضوءٍ . . فخمسٌ وعشرونَ حسنةً ، ومَنْ قرأَهُ علىٰ غيرِ وضوءٍ . . فعشرُ حسناتٍ)[1] .

وما كانَ مِنَ القيامِ بالليلِ فهوَ أفضلُ ؛ لأنَّهُ أفرغُ للقلبِ ، قالَ أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ كثرةَ السجودِ بالنهارِ ، وإنَّ طولَ القيامِ بالليلِ)[2] .

* * *

الثاني : في مقدارِ القراءةِ :

وللقرَّاءِ عاداتٌ مختلفةٌ في الاستكثارِ والاقتصارِ ؛ فمنهُمْ مَنْ يختمُ في اليومِ والليلةِ مرَّةً ، وبعضُهُمْ مرَّتينِ ، وانتهىٰ بعضُهُمْ إلىٰ ثلاثٍ[3] ، ومنهُمْ مَنْ يختمُ في الشهرِ مرَّةً .

وأَوْلىٰ ما يرجعُ إليهِ في التقديراتِ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) بنحوه رواه تمام في « فوائده » (١٣٠٤) مرفوعاً من رواية البراء بن عازب .

(٢) قوت القلوب (١/ ٤٦) .

(٣) قال الإمام النووي في « الأذكار » (ص١٨٩) : (وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمان ختمات ؛ أربعاً في الليل ، وأربعاً في النهار ، وممن ختم أربعاً في الليل وأربعاً في النهار السيد الجليل ابن الكاتب الصوفي رضي الله عنه ، وهـٰذا أكثر ما بلغنا في اليوم والليلة) .

« مَنْ قرأَ القرآنَ في أقلَّ مِنْ ثلاثٍ . . لمْ يفقهْهُ »[1] ، وذلكَ لأنَّ الزيادةَ عليهِ تمنعُهُ الترتيلَ[2] ، وقدْ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها لمَّا سمعتْ رجلاً يهُذُّ القرآنَ هذّاً : (إنَّ هـٰذا ما قرأَ القرآنَ ولا سكتَ)[3] .

وأمرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عبدَ اللهِ بنَ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما أنْ يختمَ القرآنَ في سبعٍ[4] ، وكذلكَ كانَ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ يختمونَ القرآنَ في كلِّ جمعةٍ ؛ كعثمانَ ، وزيدِ بنِ ثابتٍ ، وابنِ مسعودٍ ، وأُبيِّ بنِ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ[5] .

ففي الختمِ أربعُ درجاتٍ :

الختمُ في يومٍ وليلةٍ وقدْ كرهَهُ جماعةٌ .

---

(١) رواه بهـٰذا اللفظ أحمد في « المسند » (٢/ ١٦٤) ، وهو بنحوه عند أبي داوود (١٣٩٠) ، والترمذي (٢٩٤٩) ، وابن ماجه (١٣٤٧) .

(٢) قال الإمام الترمذي (٢٩٤٦) : (وقال بعض أهل العلم : لا يقرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث ؛ للحديث الذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ورخص فيه بعض أهل العلم ، وروي عن عثمان بن عفان أنه كان يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها ، وروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ القرآن في ركعة في الكعبة ، والترتيل في القراءة أحب إلىٰ أهل العلم) ، فالمسألة بالاعتبار بالشخص وحاله كما ذكر ذلك الإمام النووي في « الأذكار » (ص١٩٠) ، و« التبيان » (ص٨٠) ، وكما سيأتي كذلك تفصيل المصنف فيه .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٩٧) ، **ويهذُّ** : يسرع ويتابع في قراءته .

(٤) رواه البخاري (٥٠٥٤) ، ومسلم (١١٥٩) حيث قال له صلى الله عليه وسلم : « فاقرأْهُ في سبع ولا تزد علىٰ ذلك » .

(٥) رواه أبو طالب في « القوت » (١/ ٤٥) .

والختمُ في كلِّ شهرٍ كلَّ يومٍ جزءٌ مِنْ ثلاثينَ جزءاً ، وكأنَّهُ مبالغةٌ في الاقتصارِ كما أنَّ الأولَ مبالغةٌ في الاستكثارِ ، وبينَهُما درجتانِ معتدلتانِ :

إحداهما : في الأسبوعِ مرَّةً .

والثانيةُ : في الأسبوعِ مرتينِ تقريباً مِنَ الثلاثِ .

والأحبُّ : أنْ يختمَ ختمةً بالليلِ وختمةً بالنهارِ ، ويجعلَ ختمةَ النهارِ يومَ الاثنينِ في ركعتي الفجرِ أوْ بعدَهُما ، ويجعلَ ختمةَ الليلِ ليلةَ الجمعةِ في ركعتي المغربِ ، أوْ بعدَهُما ؛ ليستقبلَ بختمتيهِ أوَّلَ النهارِ وأوَّلَ الليلِ ؛ فإنَّ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ تصلِّي عليهِ إنْ كانَ ختمُهُ ليلاً حتَّىٰ يصبحَ ، وإنْ كانَ نهاراً حتَّىٰ يمسيَ ، فتشملُ بركتُهُما جميعَ الليلِ والنهارِ[1] .

والتفصيلُ في مقدارِ القراءةِ : أنَّهُ إنْ كانَ مِنَ العابدينَ السالكينَ بطريقِ العملِ . . فلا ينبغي أنْ ينقصَ عنْ ختمتينِ في الأسبوعِ ، وإنْ كانَ مِنَ السالكينَ بأعمالِ القلبِ وضروبِ الفكرِ ، أوْ مِنَ المشتغلينَ بنشرِ العلمِ . . فلا بأسَ أنْ يقتصرَ في الأسبوعِ علىٰ مرَّةٍ ، وإنْ كانَ نافذَ الفكرِ في معاني القرآنِ . . فقدْ يكتفي في الشهرِ بمرَّةٍ ؛ لكثرةِ حاجتِهِ إلىٰ كثرةِ الترديدِ والتأمُّلِ .

* * *

---

(١) فقد روى الدارمي في « سننه » (٣٥١٨) عن عبدة بن أبي لبابة : (إذا ختم الرجل القرآن بنهار . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يمسي ، وإن فرغ منه ليلاً . . صلت عليه الملائكة حتىٰ يصبح) .

الثالثُ : في وجهِ القسمةِ :

أمَّا مَنْ ختمَ في الأسبوعِ مرَّةً . . فيقسمُ القرآنَ سبعةَ أحزابٍ ، فقدْ حزَّبَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمُ القرآنَ أحزاباً[1] ، فرُوِيَ أنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يفتتحُ ليلةَ الجمعةِ بـ(البقرةِ) إلى (المائدةِ) ، وليلةَ السبتِ بـ(الأنعامِ) إلىٰ (هودٍ) ، وليلةَ الأحدِ بـ(يوسفَ) إلىٰ (مريمَ) ، وليلةَ الاثنينِ بـ(طه) إلىٰ (طسم موسىٰ وفرعونَ) ، وليلةَ الثلاثاءِ بـ(العنكبوتِ) إلىٰ (ص) ، وليلةَ الأربعاءِ بـ(تنزيلُ) إلى (الرحمنِ) ، ويختمُ ليلةَ الخميسِ[2] .

وابنُ مسعودٍ كانَ يقسمُهُ سبعةَ أقسامٍ لا علىٰ هٰذا الترتيبِ[3] .

وقيلَ : أحزابُ القرآنِ سبعةٌ : فالحزبُ الأوَّلُ : ثلاثُ سورٍ ، والحزبُ الثاني : خمسُ سورٍ ، والحزبُ الثالثُ : سبعُ سورٍ ، والرابعُ : تسعُ سورٍ ، والخامسُ : إحدىٰ عشرةَ سورةً ، والسادسُ : ثلاثَ عشرةَ سورةً ، والسابعُ : المفصَّلُ مِنْ (سورةِ ق) إلىٰ آخرِهِ . فهكذا حزَّبَهُ الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهِم ، وكانوا يقرؤونَهُ كذلكَ ، وفيهِ خبرٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[4] ،

---

(١) روىٰ ذلك أبو طالب في « القوت » (١/ ٤٥) .
(٢) رواه أحمد في « فضائل الصحابة » (١/ ٥١٧) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٤٥) .
(٤) وهو ما رواه أبو داوود (١٣٩٣) ، وابن ماجه (١٣٤٥) عن أوس بن حذيفة قال : (سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يُحزِّبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، =

وهـٰذا قبلَ أنْ تعملَ الأخماسُ والعواشرُ والأجزاءُ[١] ، فما سوىٰ هـٰذا محدَثٌ .

* * *

الرابعُ : في الكِتبةِ[٢] :

يستحبُّ تحسينُ كتابةِ القرآنِ وتبيينُهُ ، ولا بأسَ بالنقْطِ والعلاماتِ بالحمرةِ وغيرِها ؛ فإنَّ ذلكَ تزيينٌ وتبيينٌ وصدٌّ عنِ اللحنِ والخطأِ لِمَنْ يقرؤُهُ .

وقدْ كانَ الحسنُ وابنُ سيرينَ ينكرانِ الأخماسَ والعواشرَ والأجزاءَ[٣] ، ورُوِيَ عنِ الشعبيِّ وإبراهيمَ كراهيةُ النقطِ بالحمرةِ وأخذِ الأجرةِ علىٰ ذلكَ ، وكانوا يقولونَ : (جرِّدوا القرآنَ)[٤] ، والظنُّ بهؤلاءِ أنَّهُمْ كرهوا فتحَ هـٰذا البابِ خوفاً مِنْ أنْ يؤديَ إلىٰ إحداثِ زياداتٍ ، وحسماً للبابِ ، وشوقاً إلىٰ

= وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدىٰ عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده) .

(١) **الأخماس** : جمع خُمُس ، وهو جزء من خمسة أجزاء ، **والعواشر** : جمع عَشِير ، لغة في العُشْر ، جزء من عشرة أجزاء ، وسيأتي أنها تطلق كذلك على العلامات الدالة علىٰ معانيها في القرآن .

(٢) **الكِتبة** ـ بكسر الكاف ـ : هيئة الكتابة وحالتها .

(٣) أي : العلامات الدالة علىٰ تخميس وتعشير وتجزيء القرآن الكريم ، والخبر عند صاحب « القوت » (١/ ٤٥) .

(٤) روي هـٰذا بطرق عديدة ، وعن الشعبي وإبراهيم النخعي وغيرهما الكثير ، رواها ابن أبي داوود في « المصاحف » (٢/ ٥١١ـ٥٢٨) .

حراسةِ القرآنِ عمَّا يُطَرِّقُ إليهِ تغييراً[١] ، وإذا لمْ يؤدِّ إلىٰ محذورٍ واستقرَّ أمرُ الأمَّةِ فيهِ علىٰ ما يحصلُ بهِ مزيدُ معرفةٍ . . فلا بأسَ بهِ ، ولا يمنعُ مِنْ ذلكَ كونُهُ محدثاً ، فكمْ مِنْ محدثٍ حسنٌ ؛ كما قيلَ في إقامةِ الجماعاتِ في التراويحِ : إنَّها مِن محدثاتِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، وإنَّها بدعةٌ حسنةٌ ، وإنَّما البدعةُ المذمومةُ ما يصادمُ السنةَ القديمةَ أَوْ يكادُ يفضي إلىٰ تغييرِها[٢] .

وبعضُهُمْ كانَ يقولُ : أقرأُ في المصحفِ المنقوطِ ولا أنقُطُهُ بنفسي[٣] .

وقالَ الأوزاعيُّ عنْ يحيىٰ بنِ أبي كثيرٍ : (كانَ القرآنُ مجرَّداً في المصاحفِ ، فأوَّلُ ما أحدثوا فيهِ النقطُ على الباءِ والتاءِ ، وقالوا : لا بأسَ بهِ ؛ فإنَّهُ نورٌ لهُ ، ثمَّ أحدثوا بعدَهُ نُقَطاً كِباراً عندَ منتهى الآيِ ، فقالوا : لا بأسَ بهِ ؛ يعرفُ بهِ رأسُ الآيةِ ، ثمَّ أحدثوا بعدَ ذلكَ الخواتيمَ والفواتحَ)[٤] .

قالَ أبو بكرٍ الهذليُّ : سألتُ الحسنَ عنْ تنقيطِ المصاحفِ بالأحمرِ فقالَ :

---

(١) يُطَرِّق : يدخل عليه ؛ أي : يكون سبباً وطريقاً للتغيير .

(٢) وقد قالوا : إن البدعة المباحة هو ما شهد بحسنه أصل الشرع أو اقتضته مصلحة تندفع بها مفسدة ، وفيما نحن فيه حصول مزيد المعرفة ، والتبيين مصلحة شرعية ، فلا يكون النقط والعلامات من البدع المذمومة . « إتحاف » (٤/ ٤٧٧) .

(٣) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٧١٧٨) عن الشعبي أنه قال لرجل سأله عن مصحف منقوط : (اقرأ عليه ولا تنقطه بيدك) .

(٤) الخبر في « القوت » (١/ ٤٥) ، وروى ابن أبي داوود في « المصاحف » (٤٤٥) عن هارون بن موسىٰ قال : (أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر) .

وما تنقيطُها ؟ قلتُ : يعربونَ الكلمةَ بالعربيةِ ، قالَ : أمَّا إعرابُ القرآنِ . . فلا بأسَ بهِ[1] .

وقالَ خالدٌ الحذَّاءُ : (دخلتُ على ابنِ سيرينَ ، فرأيتُهُ يقرأُ في مصحفٍ منقوطٍ وقدْ كانَ يكرهُ النقْطَ)[2] .

وقيلَ : إنَّ الحجَّاجَ هوَ الذي أحدثَ ذلكَ ، وأحضرَ القرَّاءَ حتَّىٰ عدُّوا كلماتِ القرآنِ وحروفَهُ وسوَّوْا أجزاءَهُ وقسَّمُوهُ إلىٰ ثلاثينَ جزءاً وإلىٰ أقسامٍ أُخَرَ[3] .

* * *

الخامسُ : الترتيلُ :

هوَ المستحبُّ في هيئةِ القرآنِ ؛ لأنَّا سنبيِّنُ أنَّ المقصودَ مِنَ القراءةِ التفكُّرُ ، والترتيلُ معينٌ عليهِ ، ولذلكَ نعتتْ أمُّ سلمةَ قراءةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإذا هيَ تنعتُ قراءةً مفسَّرةً حرفاً حرفاً[4] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أقرأَ « البقرةَ » و« آلَ عمرانَ »

---

(١) رواه عن الهذلي مختزلاً ابنُ أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٩٤٣) ، والخبر في « القوت » (١/ ١٧١) .
(٢) رواه ابن أبي داوود في « المصاحف » (٤٦٥) ، وكراهته لنقطه (٤٥١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٧١) .
(٤) رواه أبو داوود (١٤٦٦) ، والترمذي (٢٩٢٧) ، والنسائي (٢/ ١٨١) .

أرتِّلُهُما وأتدبَّرُهُما . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أقرأَ القرآنَ كلَّهُ هذرمةً)[1] .

وقالَ أيضاً : (لأنْ أقرأَ : « إذا زلزلت » و« القارعةَ » أتدبَّرُهُما . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أقرأَ « البقرةَ » و« آلَ عمرانَ » تهذيراً)[2] .

وسئلَ مجاهدٌ عنْ رجلينِ دخلا في الصلاةِ ، فكانَ قيامُهُما واحداً إلا أنَّ أحدَهُما قرأَ (البقرةَ) فقطْ وقرأَ الآخرُ القرآنَ كلَّهُ . . فقالَ : هما في الأجرِ سواءٌ[3] .

واعلمْ : أنَّ الترتيلَ مستحبٌّ لا لمجرَّدِ التدبُّرِ ؛ فإنَّ العجميَّ الذي لا يفهمُ معنى القرآنِ يستحبُّ لهُ أيضاً في القراءةِ الترتيلُ والتؤدةُ ؛ لأنَّ ذلكَ أقربُ إلى التوقيرِ والاحترامِ ، وأشدُّ تأثيراً في القلبِ مِنَ الهذرمةِ والاستعجالِ .

السادسُ : البكاءُ :

البكاءُ مستحبٌّ معَ القراءةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٥٤) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٨٢٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢١٤) عن محمد بن كعب القرظي ، ونسبته إلى ابن عباس رضي الله عنهما في « القوت » (١/ ٤٦) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٤٦) .

« اتلُوا القرآنَ وابكُوا ، فإنْ لمْ تبكُوا . . فتباكَوا »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ منَّا مَنْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ »[2] .

وقال صالحٌ المريُّ : (قرأتُ القرآنَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ لي : يا صالحُ ؛ هـٰذهِ القراءةُ ، فأينَ البكاءُ ؟!)[3] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إذا قرأتُمْ سجدةَ « سبحانَ » . . فلا تعجلوا بالسجودِ حتَّىٰ تبكُوا ، فإنْ لمْ تبكِ عينُ أحدِكُمْ . . فليبكِ قلبُهُ)[4] .

وإنَّما طريقُ تكلُّفِ البكاءِ : أنْ يحضرَ قلبَهُ الحزْنَ ، فمِنَ الحزْنِ ينشأُ البكاءُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ القرآنَ نزلَ بحزْنٍ ، فإذا قرأتمُوهُ فتحازَنُوا »[5] .

ووجهُ إحضارِ الحزنِ : أنْ يتأمَّلَ ما فيهِ مِنَ التهديدِ والوعيدِ ، والمواثيقِ والعهودِ ، ثمَّ يتأمَّلَ تقصيرَهُ في أوامرِهِ وزواجرِهِ ، فيحزنَ لذلكَ ـ لا محالةَ ـ

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٧) .

(٢) رواه البخاري (٧٥٢٧) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٥/٨٣) عن يزيد الرقاشي ، والخبر في « القوت » (١/٤٧) عن ثابت البناني .

(٤) قوت القلوب (١/٤٧) .

(٥) قوله : « إن القرآن نزل بحزن » هو قطعة من حديث ابن ماجه المتقدم وهو بمعناه عموماً ، وبلفظ الحزن روى الآجري في « فضائل القرآن » (ص٨٠) مرفوعاً : « اقرؤوا القرآن بحزْنٍ ؛ فإنه نزل بحزن » .

ويبكيَ ، فإنْ لمْ يحضرْهُ حزْنٌ وبكاءٌ كما يحضرُ أربابَ القلوبِ الصافيةِ . . فليبكِ علىٰ فقْدِ الحزْنِ والبكاءِ ؛ فإنَّ ذلكَ أعظمُ المصائبِ .

* * *

السابعُ : أنْ يراعيَ حقَّ الآياتِ :

فإذا مرَّ بآيةِ سجدةٍ . . سجدَ ، وكذلكَ إذا سمعَ مِنْ غيرِهِ سجدةً . . سجدَ إذا سجدَ التالي ، ولا يسجدُ إلا إذا كانَ علىٰ طهارةٍ ، وفي القرآنِ أربعَ عشرةَ سجدةً ، وفي (الحجِّ) سجدتانِ ، وليسَ في (ص) سجدةٌ[1] ، وأقلُّهُ : أنْ يسجدَ بوضْعِ جبهتِهِ على الأرضِ ، وأكملُهُ : أنْ يكبِّرَ فيسجدَ ويدعوَ في سجودِهِ بما يليقُ بالآيةِ التي قرأَها ، مثلَ أنْ يقرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، فيقولَ : (اللهمَّ ؛ اجعلني مِنَ الساجدينَ لوجهِكَ ، المسبِّحينَ بحمدِكَ ، وأعوذُ بكَ أنْ أكونَ مِنَ المستكبرينَ عنْ أمرِكَ أوْ علىٰ أوليائِكَ) ، وإذا قرأَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ . . فليقلْ : (اللهمَّ ؛ اجعلني مِنَ الباكينَ إليكَ ، الخاشعينَ لكَ) ، وكذلكَ في كلِّ سجدةٍ .

ويشترطُ في هٰذهِ السجدةِ شروطُ الصلاةِ ؛ مِنْ سترِ العورةِ ، واستقبالِ القبلةِ ، وطهارةِ الثوبِ والبدنِ مِنَ الحدثِ والخبثِ ، ومَنْ لمْ يكنْ علىٰ طهارةٍ عندَ السماعِ للسجدةِ ؛ فإذا تطهَّرَ . . سجدَ ، وقدْ قيلَ في كمالِها : إنَّهُ

---

(١) أي : ليست سجدة (ص) من عزائم السجود ؛ أي : متأكداته ، وإنما هي مستحبة . « إتحاف » (٤/ ٤٨٠) .

يكبِّرُ رافعاً يديه للتحريمِ ، ثمَّ يكبِّرُ للسجودِ ، ثمَّ يكبِّرُ للارتفاعِ ، ثمَّ يسلِّمُ ، وزادَ زائدونَ التشهُّدَ ، ولا أصلَ لهـٰذا إلا القياسُ علىٰ سجودِ الصلاةِ ، وهوَ بعيدٌ ؛ فإنَّهُ وردَ الأمرُ بالسجودِ ، فليتبعْ فيهِ الأمرَ(1) ، وتكبيرةُ الهويِّ أقربُ للبدايةِ ، وما عدا ذلكَ ففيهِ بُعْدٌ .

ثمَّ المأمومُ ينبغي أنْ يسجدَ عندَ سجودِ الإمامِ ، ولا يسجدُ لتلاوةِ نفسِهِ إذا كانَ مأموماً .

* * *

الثامنُ : أنْ يقولَ في مبتدأِ قراءتِهِ :

(أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، ربِّ ؛ أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشياطينِ ، وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يَحْضُرُونِ) ، وليقرأْ : (قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ) وسورةَ (الحمدُ للهِ)(2) .

وليقلْ عندَ فراغِهِ مِنْ كلِّ سورةٍ : (صدقَ اللهُ تعالىٰ ، وبلَّغَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، اللهمَّ ؛ انفعْنا بهِ ، وباركْ لنا فيهِ ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأستغفرُ اللهَ الحيَّ القيومَ)(3) .

وفي أثناءِ القراءةِ إذا مرَّ بآيةِ تسبيحٍ . . سبَّحَ وكبَّرَ ، وإنْ مرَّ بآيةِ

---

(1) في غير (ب) : (الاسم) .
(2) قوت القلوب (1/ 60) .
(3) قوت القلوب (1/ 60) .

دعاءٍ واستغفارٍ . . دعا واستغفرَ ، وإنْ مرَّ بمرجوٍّ . . سألَ ، وإنْ مرَّ بمَخُوفٍ . . استعاذَ ، يفعلُ ذلكَ بلسانهِ أوْ بقلبهِ ؛ فيقولُ : سبحانَ اللهِ ، نعوذُ باللهِ ، اللهمَّ ارزقنا ، اللهمَّ ارحمنا ، قالَ حذيفةُ : (صلَّيْتُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فابتدأَ « سورةَ البقرةِ » ، فكانَ لا يمرُّ بآيةِ عذابٍ إلا استعاذَ ، ولا بآيةِ رحمةٍ إلا سألَ ، ولا بآيةِ تنزيهٍ إلا سبَّحَ)(١) .

وإذا فرغَ . . قالَ ما كانَ يقولُهُ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ عندَ ختْمِ القرآنِ : « اللهمَّ ؛ ارحمني بالقرآنِ العظيمِ ، واجعلْهُ لي إماماً ونوراً ، وهدىً ورحمةً ، اللهمَّ ؛ ذكِّرْني منهُ ما نسيتُ ، وعلِّمني منهُ ما جهلتُ ، وارزقني تلاوتَهُ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، واجعلْهُ حجةً لي يا ربَّ العالمينَ »(٢) .

(١) رواه مسلم (٧٧٢) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٦٨٤) بنحوه .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجاني في « فضائل القرآن » ، وأبو بكر بن الضحاك في « الشمائل » كلاهما من طريق أبي ذر الهروي من رواية داوود بن قيس معضلاً) . « إتحاف » (٤/ ٤٩٢) . قال في هـٰذا الحديث الحافظ الإمام ابن الجزري في « النشر في القراءات العشر » (٢/ ٤٦٤) : (وهـٰذا الحديث لا أعلم ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ختم القرآن غيره) أي : تخصيص هـٰذا الدعاء ، وإلا . . فقد أورد هو نفسه مرفوعات في دعائه صلى الله عليه وسلم عند الختم عقب هـٰذا القول .

التاسعُ : في الجهرِ بالقراءةِ :

ولا شكَّ في أنَّهُ لا بدَّ أنْ يجهرَ بها إلىٰ حدٍّ يُسْمِعُ نفسَهُ ؛ إذِ القراءةُ عبارةٌ عنْ تقطيعِ الصوتِ بالحروفِ ، ولا بدَّ مِنْ صوتٍ ، وأقلُّهُ ما يُسْمِعُ نفسَهُ ، فإنْ لمْ يسمعْ نفسَهُ . . لمْ تصحَّ صلاتُهُ ، فأمَّا الجهرُ بحيثُ يسمعُ غيرَهُ . . فهوَ محبوبٌ علىٰ وجهٍ ، ومكروهٌ علىٰ وجهٍ آخرَ .

ويدلُّ على استحبابِ الإسرارِ ما رُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « فضلُ قراءةِ السرِّ علىٰ قراءةِ العلانيةِ كفضْلِ صدقةِ السرِّ علىٰ صدقةِ العلانيةِ » ، وفي لفظٍ آخرَ : « الجاهرُ بالقرآنِ كالجاهرِ بالصدقةِ ، والمسرُّ بهِ كالمسرِّ بالصدقةِ »(١) .

وفي الخبرِ العامِّ : « يفضلُ عملُ السرِّ علىٰ عملِ العلانيةِ سبعينَ ضعفاً »(٢) ، وكذلكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ الرزْقِ ما يكفي ، وخيرُ الذكْرِ الخفيُّ »(٣) .

وفي الخبرِ : « لا يجهرْ بعضُكُمْ علىٰ بعضٍ في القراءةِ بينَ المغربِ والعشاءِ »(٤) .

---

(١) رواه أبو داوود (١٣٣٣) ، والترمذي (٢٩١٩) ، والنسائي (٣/ ٢٢٥) ، واللفظ الأول للحديث في « القوت » (١/ ٥٩) ، وهو بنحوه كذلك موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٦٧) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٥٥١) ، وبنحوه كذلك عن أبي الدرداء (٦٣٩٤) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (١/ ١٧٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٤٨) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٩٦) .

وسمعَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ ذاتَ ليلةٍ في مسجدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ يجهرُ بالقراءةِ في صلاتِهِ وكانَ حسنَ الصوتِ ، فقالَ لغلامِهِ : اذهبْ إلىٰ هـٰذا المصلِّي فمرْهُ أنْ يخفضَ مِنْ صوتِهِ ، فقالَ الغلامُ : إنَّ المسجدَ ليسَ لنا وللرجلِ فيه نصيبٌ ، فرفعَ سعيدٌ صوتَهُ وقالَ : يا أيُّها المصلِّي ؛ إنْ كنتَ تريدُ اللهَ عزَّ وجلَّ بصلاتِكَ . . فاخفضْ صوتَكَ ، وإنْ كنتَ تريدُ الناسَ . . فإنَّهم لنْ يُغنوا عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً ، فسكتَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وخفَّفَ ركعتَهُ ، فلمَّا سلَّمَ . . أخذَ نعليهِ وانصرفَ ، وهوَ يومئذٍ أميرُ المدينةِ[1] .

ويدلُّ على استحبابِ الجهرِ ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سمعَ جماعةً مِنْ أصحابِهِ يجهرونَ في صلاةِ الليلِ ، فصوَّبَ ذلكَ[2] ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قامَ أحدُكُمْ مِنَ الليلِ يصلِّي . . فليجهرْ بقراءتِهِ ؛ فإنَّ الملائكةَ وعمَّارَ الدارِ يستمعونَ إلىٰ قراءتِهِ ويصلُّونَ بصلاتِهِ »[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/٥٩) ، وقد روى القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص١٦٩) : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة يقرأ في المسجد يجهر بقراءته في صلاة النهار فقال : « يا بن حذافة ؛ سمِّع الله ولا تسمِّعنا » .

(٢) حيث روى البخاري (٥٠٤٢) ، ومسلم (٧٨٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمع النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً يقرأ من الليل في المسجد ، فقال : « يرحمه الله ؛ لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتها من سورة كذا وكذا » .
وروى البخاري (٤٢٣٢) ، ومسلم (٢٤٩٩) مرفوعاً : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل . . . » الحديث .

(٣) رواه البزار كما في « مختصر زوائد مسند البزار » (٥٠١ ، ١٥٦٢) ، وقد رواه ابن =

ومرَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بثلاثةٍ مِنْ أصحابهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مختلفي الأحوالِ ، فمرَّ علىٰ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يخافتُ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ؛ فقالَ : (إنَّ الذي أناجيهِ هوَ يسمعني) ، ومرَّ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يجهرُ ، فسألهُ عنْ ذلكَ ؛ فقالَ : (أوقظُ الوَسْنانَ وأزجُرُ الشيطانَ) ، ومرَّ علىٰ بلالٍ وهوَ يقرأُ آياً مِنْ هـٰذهِ السورةِ وآياً مِنْ هـٰذهِ السورةِ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ؛ فقالَ : (أخلطُ الطيِّبَ بالطيِّبِ) ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّكُمْ قدْ أحسنَ وأصابَ »[(١)] .

فالوجهُ في الجمعِ بينَ هـٰذهِ الأحاديثِ : أَنَّ الإسرارَ أبعدُ عنِ الرياءِ والتصنُّعِ ، فهوَ أفضلُ في حقِّ مَنْ يخافُ ذلكَ علىٰ نفسِهِ ، فإنْ لمْ يخفْ ، ولمْ يكنْ في الجهرِ ما يشوِّشُ الوقتَ علىٰ مصلٍّ آخرَ . فالجهرُ أفضلُ ؛ لأنَّ العملَ فيهِ أكثرُ ، ولأنَّ فائدتَهُ أيضاً تتعلَّقُ بغيرِهِ ، فالخيرُ المتعدِّي أفضلُ مِنَ اللازمِ ، ولأنَّهُ يوقِظُ قلبَ القارئِ ، ويجمعُ همَّهُ إلى الفكرِ فيهِ ، ويصرفُ إليهِ سمعَهُ ، ولأنَّهُ يطردُ النومَ برفعِ الصوتِ ، ولأنَّهُ يزيدُ في نشاطِهِ للقراءةِ ، ويقلِّلُ مِنْ كسلِهِ ، ولأنَّهُ يرجو بجهرِهِ تيقُّظَ نائمٍ ، فيكونُ هوَ سببَ إحيائِهِ ، ولأنَّهُ قدْ يراهُ بطَّالٌ غافلٌ فينشَطُ بسببِ نشاطِهِ ، ويشتاقُ إلى الخدمةِ .

= أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٣١) ، وابن الضريس في « فضائل القرآن » (ص١١٦) موقوفاً علىٰ عبادة بن الصامت ، ضمن حديث طويل عند الجميع .

(١) رواه أبو داوود (١٣٣٠) ، وهو في « القوت » (١/٥٩) .

فمهما حضرَهُ شيءٌ مِنْ هـٰذهِ النيَّاتِ . . فالجهرُ أفضلُ ، وإنِ اجتمعتْ هـٰذهِ النيَّاتُ . . تضاعفَ الأجرُ ، وبكثرةِ النيَّاتِ تزكو أعمالُ الأبرارِ وتتضاعفُ أجورُهُمْ ، فإنْ كانَ في العملِ الواحدِ عشرُ نيَّاتٍ . . كانَ فيهِ عشرةُ أجورٍ .

ولهـٰذا نقولُ : قراءةُ القرآنِ في المصحفِ أفضلُ ؛ إذْ يزيدُ في العملِ النظرَ وتأمُّلَ المصحفِ وحَمْلَهُ ، فيزيدُ الأجرُ بسببِهِ ، وقدْ قيلَ : الختمةُ في المصحفِ بسبعٍ ؛ لأنَّ النظرَ في المصحفِ أيضاً عبادةٌ[1] .

وخرقَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ مصحفينِ لكثرةِ قراءتِهِ منهما ، وكانَ كثيرٌ مِنَ الصحابةِ يقرؤونَ مِنَ المصحفِ ويكرهونَ أن يخرجَ يومٌ ولمْ ينظروا في المصحفِ[2] .

ودخلَ بعضُ فقهاءِ مصرَ على الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ في السحَرِ وبينَ يديهِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٦١) ، وقد قال كذلك الإمام النووي في « الأذكار » (ص١٩٨) : (قراءة القرآن في المصحف أفضل من القراءة من حفظه ، هـٰكذا قاله أصحابنا ، وهو مشهور عن السلف رضي الله عنهم ، وهـٰذا ليس علىٰ إطلاقه ، بل إن كان القارىء من حفظه يحصل له من التدبر والفكر وجمع القلب والبصر أكثر مما يحصل له من المصحف . . فالقراءة من الحفظ أفضل ، وإن استويا . . فمن المصحف أفضل ، هـٰذا مراد السلف) .
وقد روى القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص١٠٤) : « فضل قراءة القرآن نظراً علىٰ من يقرؤه ظاهراً كفضل الفريضة على النافلة » .

(٢) قوت القلوب (١/ ٦١) .

المصحفُ ، فقالَ له الشافعيُّ : (شغلَكُمُ الفقهُ عنِ القرآنِ ، إنِّي لأصلِّي العتمةَ وأضعُ المصحفَ بينَ يديَّ فما أطبقُهُ حتَّىٰ أصبحَ)(١) .

العاشرُ : تحسينُ القراءةِ وتزيينُها بترديدِ الصوتِ مِنْ غيرِ تمطيطٍ مفرطٍ يغيِّرُ النظْمَ :

فذلكَ سنَّةٌ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زيِّنُوا القرآنَ بأصواتِكُمْ »(٢) ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أذنَ اللهُ لشيءٍ أَذَنَهُ لحسنِ الصوتِ بالقرآنِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ منَّا مَنْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ »(٤) ، فقيلَ : أرادَ بهِ الاستغناءَ ، وقيلَ : أرادَ بهِ الترنُّمَ وترديدَ الألحانِ بهِ ، وهوَ أقربُ عندَ أهلِ اللغةِ(٥) .

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٦٠) .

(٢) رواه أبو داوود (١٤٦٨) ، والنسائي (٢/ ١٧٩) ، وابن ماجه (١٣٤٢) .

(٣) رواه البخاري (٥٠٢٣) ، ومسلم (٧٩٢) ولفظه : « ما أذن الله لشيء كأَذَنِهِ لنبي يتغنىٰ بالقرآن يجهر به » .

(٤) رواه البخاري (٧٥٢٧) .

(٥) أما معنى الاستغناء . . فقد رواه البيهقي في « السنن الصغرىٰ » (١/ ٣٥٢) عن سفيان بن عيينة ، وأعقبه بقول الإمام الشافعي : (نحن أعلم بهـٰذا ، لو أراد النبي صلى الله عليه وسلم الاستغناء به . . لقال : ليس منا من لم يستغنِ بالقرآن ، فلما قال : « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن » . . علمنا أنه التغني به) ، ومع ذلك فقد نقل الأزهري في « تهذيبه » (غنىٰ) عن أبي عبيد في تأييد هـٰذا حيث قال : (قال أبو عبيد : وهـٰذا =

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ ليلةً ينتظرُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا ، فأبطأتْ عليهِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حَبَسَكِ ؟ » قالتْ : يا رسولَ اللهِ ؛ كنتُ أستمعُ قراءةَ رجلٍ ما سمعتُ أحسنَ صوتاً منهُ ، فقامَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّى استمعَ إليهِ طويلاً ، ثمَّ رجعَ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هٰذا سالمٌ مولَىٰ أبي حذيفةَ ، الحمدُ للهِ الذي جعلَ في أمَّتِي مثلَهُ »(١) .

واستمعَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً ذاتَ ليلةٍ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ومعَهُ أبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهُما ، فوقفوا طويلاً ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أرادَ أنْ يقرأَ القرآنَ غضّاً كما أنزلَ .. فليقرأْهُ علىٰ قراءةِ ابنِ أُمِّ عبدٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ مسعودٍ : « اقرأْ عليَّ » فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزلَ ؟! فقالَ : « إنِّي أُحبُّ أنْ أسمعَهُ مِنْ غيري » ، فكانَ يقرأُ وعينا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تفيضانِ(٣) .

= كلام جائز فاشٍ في كلام العرب ، يقولون : تغنيت تغنياً وتغانيت تغانياً بمعنى استغنيت) ، وقد روى البيهقي في « السنن الصغرىٰ » (١/ ٣٥٢) كذلك عن الشافعي قال : (معناه : يقرؤه حدراً وتحزيناً) .

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٨) .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٢٠٠) ، وهو عند أحمد في « المسند » (١/ ٢٥) ، والمرفوع دون القصة عند ابن ماجه (١٣٨) .

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٢) ، ومسلم (٨٠٠) .

واستمعَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ قراءةِ أبي موسىٰ فقالَ : « لقدْ أوتيَ هـٰذا مزماراً مِنْ مزاميرِ آلِ داوودَ » ، فبلغَ ذلكَ أبا موسىٰ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ لوْ علمتُ أنَّكَ تستمعُ . . لحبَّرْتُهُ لكَ تحبيراً[١] .

ورأىٰ هيثمٌ القارىءُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في منامِهِ ، قالَ : فقالَ لي : أنتَ الهيثمُ الذي تزيِّنُ القرآنَ بصوتِكَ ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَ : جزاكَ اللهُ خيراً[٢] .

وفي الخبرِ : كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا اجتمعوا . . أمروا أحدَهُمْ أنْ يقرأَ سورةً مِنَ القرآنِ[٣] .

وقدْ كانَ عمرُ يقولُ لأبي موسىٰ رضيَ اللهُ عنهُما : ذكِّرْنا ربَّنا ، فيقرأُ عندَهُ حتَّىٰ يكادُ وقتُ الصلاةِ أنْ يتوسَّطَ ، فيقالُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ الصلاةَ الصلاةَ ، فيقولُ : أوَلَسْنا في صلاةٍ ؟! إشارةً إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استمعَ إلىٰ آيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ

---

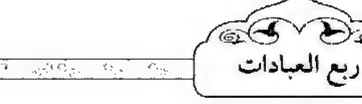
(١) رواه البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) ، وقول أبي موسىٰ من زيادة البرقاني كما في « الجمع بين الصحيحين » (١/ ٣١٥) ، **والتحبير** : التحسين .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢١٦) ، وهو الهيثم بن اليمان الرازي .
(٣) قوت القلوب (١/ ٦٠) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٦٠) .

وجلَّ . . كانتْ لهُ نوراً يومَ القيامةِ »[(١)] ، وفي الخبرِ : « كتبَ لهُ عشْرُ حسناتٍ »[(٢)] .

ومهما عظُمَ أجرُ الاستماعِ وكانَ التالي هوَ السببَ فيهِ . . كانَ شريكاً في الأجرِ ، إلا أنْ يكونَ قصدُهُ الرياءَ والتصنعَ .

* * *

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٤١) ، والدارمي في « سننه » (٣٤١٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٦٠) ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ٥٠٠) .



البَابُ الثَّالِثُ
في أعمال الباطن في التلاوة
وهي عشرة

فهمُ أصْلِ الكلامِ ، ثمَّ التعظيمُ ، ثمَّ حضورُ القلبِ ، ثمَّ التدبُّرُ ، ثمَّ التفهُّمُ ، ثمَّ التخلِّي عنْ موانعِ الفهْمِ ، ثمَّ التخصيصُ ، ثمَّ التأثُّرُ ، ثمَّ الترقي ، ثمَّ التبرِّي .

الأوَّلُ : فهْمُ عظمةِ الكلامِ وعلوِّهِ ، وفضلِ اللهِ سبحانَهُ ولطفِهِ بخلقِهِ في نزولِهِ عنْ عرشِ جلالِهِ إلىٰ درجةِ أفهامِ خلقِهِ :

فلينظرْ كيفَ لطفَ بخلقِهِ في إيصالِ معاني كلامِهِ الذي هوَ صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذاتِهِ إلىٰ أفهامِ خلقِهِ ، وكيفَ تجلَّتْ لهمْ تلكَ الصفةُ في طيِّ حروفٍ وأصواتٍ هي صفاتُ البشرِ ، إذْ يعجزُ البشرُ عنِ الوصولِ إلىٰ فهْمِ صفاتِ اللهِ تعالىٰ إلا بوسيلةِ صفاتِ نفسِهِ ، ولولا استتارُ كُنْهِ جلالةِ كلامِهِ بكُسوةِ الحروفِ . . لما ثبتَ لسماعِ الكلامِ عرشٌ ولا ثرىً ، ولتلاشىٰ ما بينَهما مِنْ عظمةِ سلطانِهِ وسُبُحاتِ نورِهِ ، ولولا تثبيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ لموسىٰ عليهِ السلامُ . . لما أطاقَ سماعَ كلامِهِ ؛ كما لمْ يطقِ الجبلُ مباديَ تجلِّيهِ ، حيثُ صارَ دكّاً .

ولا يمكنُ تفهيمُ عظمةِ الكلامِ إلا بأمثلةٍ علىٰ حدِّ فهْمِ الخلْقِ ، ولهٰذا عبَّرَ بعضُ العارفينَ عنهُ فقالَ : (إنَّ كلَّ حرفٍ مِنْ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ في اللوحِ أعظمُ مِنْ جبلِ قافٍ[1] ، وإنَّ الملائكةَ عليهِمُ السلامُ لوِ اجتمعتْ على الحرفِ الواحدِ أنْ يُقلُّوهُ.. ما أطاقوهُ حتَّىٰ يأتيَ إسرافيلُ عليهِ السلامُ وهوَ ملكُ اللوحِ فيرفعَهُ فيقلَّهُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورحمتِهِ ، لا بقوتِهِ وطاقتِهِ ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ طوَّقَهُ ذلكَ واستعملَهُ بهِ)[2] .

ولقدْ تأنَّقَ بعضُ الحكماءِ في التعبيرِ عنْ وجهِ اللطْفِ في إيصالِ معاني الكلامِ معَ علوِّ درجتِهِ إلىٰ فهْمِ الإنسانِ معَ قصورِ رتبتِهِ ، وضربَ لهُ مثلاً لمْ يقصِّرْ فيهِ ، وذلكَ أنَّهُ دعا بعضَ الملوكِ إلىٰ شريعةِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، فسألَهُ الملكُ عنْ أمورٍ ، فأجابَ بما يحتملُهُ فهمُهُ .

فقالَ الملكُ : أرأيتَ ما يأتي بهِ الأنبياءُ إذا ادعيتَ أنَّهُ ليسَ بكلامِ الناسِ ، وأنَّهُ كلامُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فكيفَ يُطِيقُ الناسُ حملَهُ ؟

فقالَ الحكيمُ : إنَّا رأينا الناسَ لمَّا أرادوا أنْ يُفهِموا بعضَ الدوابِّ والطيرِ ما يريدونَ مِنْ تقديمِها وتأخيرِها وإقبالِها وإدبارِها ، ورأَوُا الدوابَّ يقصرُ تمييزُها عنْ فهمِ كلامِهِمُ الصادرِ عنْ أنوارِ عقولِهِمْ معَ حسنِهِ وترتيبِهِ وبديعِ

---

(١) يراد بجبل قاف : العظمة والسعة ، وهو جبل محيط بالأرضين السبع عندهم ، روىٰ في ذكره وبيانه آثاراً عن السلف أبو الشيخ في « العظمة » (٤/ ١٤٨٤ـ١٤٩١) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٤٧) .

نظمِهِ . . فنزلوا إلىٰ درجةِ تمييزِ البهائمِ ، وأوصلوا مقاصدَهُمْ إلىٰ بواطنِ البهائمِ بأصواتٍ يضعونَها لائقةً بها ؛ منَ النقْرِ والصفيرِ والأصواتِ القريبةِ مِنْ أصواتِها التي تُطِيقُ حملَها .

وكذلكَ الناسُ يعجِزونَ عنْ حملِ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ بكُنْهِهِ وكمالِ صفاتِهِ ، فصاروا بما تواضعوا بينَهُمْ مِنَ الأصواتِ التي سمعوا بها الحكمةَ كصوتِ النقرِ والصفيرِ الذي سمعَتْ بهِ الدوابُّ مِنَ الناسِ ، ولمْ يمنعْ ذلكَ معانيَ الحكمةِ المخبوءَةِ في تلكَ الصفاتِ مِنْ أنْ شَرُفَ الكلامُ ـ أي : الأصواتُ ـ لشرفِها ، وعظمَ لتعظيمِها .

فكانَ الصوتُ للحكمةِ جسداً ومسكناً ، والحكمةُ للصوتِ نفساً وروحاً .

فكما أنَّ أجسادَ البشرِ تكرمُ وتعزُّ لمكانِ الروحِ فكذلكَ أصواتُ الكلامِ تشرفُ للحكمةِ التي فيها ، والكلامُ عالي المنزلةِ ، رفيعُ الدرجةِ ، قاهرُ السلطانِ ، نافذُ الحكمِ في الحقِّ والباطلِ ، وهوَ القاضي العدلُ ، والشاهدُ المرتضىٰ ، يأمرُ وينهىٰ ، ولا طاقةَ للباطلِ أنْ يقومَ قدَّامَ كلامِ الحكمةِ ؛ كما لا يستطيعُ الظلُّ أنْ يقومَ قدَّامَ شعاعِ الشمسِ ، ولا طاقةَ للبشرِ أنْ ينفذوا غورَ الحكمةِ ؛ كما لا طاقةَ لهمْ أنْ ينفذوا بأبصارِهِمْ ضوءَ عينِ الشمسِ ، ولكنَّهُمْ ينالونَ مِنْ ضوءِ عينِ الشمسِ ما تحيا بهِ أبصارُهُمْ ، ويستدلُّونَ بهِ علىٰ حوائجِهِمْ فقطْ ، فالكلامُ كالملكِ المحجوبِ الغائبِ وجهُهُ الشاهدِ أمرُهُ ، وكالشمسِ العزيزةِ الظاهرةِ وعنصرُها مكنونٌ ، وكالنجومِ الزاهرةِ التي قدْ يهتدي بها مَنْ

لا يقفُ علىٰ سيرِها ، فهوَ مفتاحُ الخزائنِ النفيسةِ ، وشرابُ الحياةِ الذي مَنْ شربَ منهُ . . لمْ يمتْ ، ودواءُ الأسقامِ الذي مَنْ سُقِيَ منهُ . . لمْ يسقمْ[1] .

فهـٰذا الذي ذكرَهُ الحكيمُ نبذةٌ مِنْ تفهيمِ معنى الكلامِ ، والزيادةُ عليهِ لا تليقُ بعلْمِ المعاملةِ ، فينبغي أنْ يقتصرَ عليهِ .

الثاني : التعظيمُ للمتكلِّمِ :

فالقارئُ عندَ البدايةِ بتلاوةِ القرآنِ ينبغي أنْ يحضرَ في قلبِهِ عظمةَ المتكلِّمِ ، ويعلمَ أنَّ ما يقرؤُهُ ليسَ مِنْ كلامِ البشرِ ، وأنَّ في تلاوةِ كلامِ اللهِ تعالىٰ غايةَ الخطرِ ، فإنَّهُ تعالىٰ قالَ : ﴿ لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[2] ، وكما أنَّ ظاهرَ جلْدِ المصحفِ وورقَهُ محروسٌ عنْ ظاهرِ بشرةِ اللامسِ إلا إذا كانَ متطهِّراً . . فباطنُ معناهُ أيضاً بحكْمِ عزِّهِ وجلالِهِ محجوبٌ عنْ باطنِ القلبِ إلا إذا كانَ متطهِّراً عنْ كلِّ رجْسٍ ، ومستنيراً بنورِ التعظيمِ والتوقيرِ ، وكما لا يصلحُ لمسِّ جلدِ المصحفِ كلُّ يدٍ . . فلا يصلحُ لتلاوةِ حروفِهِ كلُّ لسانٍ ، ولا لنيلِ معانيهِ كلُّ قلبٍ ، ولمثلِ هـٰذا التعظيمِ كانَ عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ إذا

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٧) ، وقال بعد هـٰذه الحكاية : (نقلت هـٰذا نقلاً من كلام الصديق الحكيم الذي خاطب به الملك فاستجاب له بإذن الله عز وجل) ، ثم أشار إلىٰ فضل الله تعالىٰ وإلهامه لهـٰذا الحكيم بما فتح عليه من حسن التشبيه .

(٢) وهو إخبار في معنى الإنشاء ، والتطهير أعم من تطهير الظاهر والباطن . « إتحاف » (٤/ ٥٠٣) .

نشرَ المصحفَ . . غُشِيَ عليهِ ويقولُ : (هوَ كلامُ ربِّي ، هوَ كلامُ ربِّي)[1] .

فتعظيمُ الكلامِ بتعظيمِ المتكلِّمِ ، ولنْ تحضرَهُ عظمةُ المتكلِّمِ ما لمْ يتفكَّرْ في صفاتِهِ وجلالِهِ وأفعالِهِ ، فإذا خطرَ ببالِهِ العرشُ والكرسيُّ والسماواتُ والأرضونَ وما بينَهُما مِنَ الجنِّ والإنسِ والدوابِّ والأشجارِ ، وعلمَ أنَّ الخالقَ لجميعِها والقادرَ عليها والرازقَ لها واحدٌ ، وأنَّ الكلَّ في قبضةِ قدرتِهِ مردَّدونَ بينَ فضلِهِ ورحمتِهِ ، وبينَ نقمتِهِ وسطوتِهِ ، إنْ أنعمَ . . فبفضلِهِ ، وإنْ عاقبَ . . فبعدلِهِ ، وأنَّهُ الذي يقولُ : « هؤلاءِ في الجنةِ ولا أبالي ، وهؤلاءِ في النارِ ولا أبالي »[2] ، وهـٰذا غايةُ العظمةِ والتعالي . . فبالتفكرِ في أمثالِ هـٰذا يحضرُ تعظيمُ المتكلِّمِ ثمَّ تعظيمُ الكلامِ .

* * *

الثالثُ : حضورُ القلبِ وتركُ حديثِ النفْسِ :

قيلَ في تفسيرِ : ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي : بجدٍّ واجتهادٍ ، وأخذُهُ بالجدِّ أنْ يكونَ متجرِّداً لهُ عندَ قراءتِهِ ، منصرفَ الهمَّةِ إليهِ عنْ غيرِهِ .

وقيلَ لبعضِهِمْ : إذا قرأتَ القرآنَ تحدِّثُ نفسَكَ بشيءٍ ؟ فقالَ : أَوَشيءٌ أحبُّ إليَّ مِنَ القرآنِ أحدِّثُ بهِ نفسي ؟ ![3] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٧/ ٣٧١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٤٣) .
(٢) حديث القبضتين رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٢٢) عن أنس مرفوعاً .
(٣) قوت القلوب (١/ ٤٦) .

وكانَ بعضُ السلفِ إذا قرأ سورةً لمْ يكنْ قلبُهُ فيها . . أعادَها ثانيةً .

وهٰذِهِ الصفةُ تتولَّدُ عمَّا قبلَها منَ التعظيمِ ، فإنَّ المعظِّمَ للكلامِ الذي يتلوهُ يستبشرُ بهِ ويستأنسُ ولا يغفُلُ عنهُ ، ففي القرآنِ ما يستأنسُ بهِ القلبُ إنْ كانَ التالي أهلاً لهُ ، فكيفَ يطلبُ الأنسَ بالفكرِ في غيرِهِ وهوَ في متنزَّهٍ ومتفرَّجٍ[1] ، والذي يتفرَّجُ في المتنزَّهاتِ لا يتفكَّرُ في غيرِها ؛ فقدْ قيلَ : إنَّ في القرآنِ ميادينَ وبساتينَ ومقاصيرَ وعرائسَ ودبابيجَ ورياضاً وخاناتٍ[2] ، فالميماتُ ميادينُ القرآنِ ، والراءاتُ بساتينُ القرآنِ ، والحاءاتُ مقاصيرُهُ ، والمسبِّحاتُ عرائسُ القرآنِ ، والحاميماتُ دبابيجُ القرآنِ ، والمفصَّلُ رياضُهُ ، والخاناتُ ما سوىٰ ذلكَ ، فإذا دخلَ القارىءُ في الميادينِ ، وقطفَ مِنَ البساتينِ ، ودخلَ المقاصيرَ ، وشهدَ العرائسَ ، ولبسَ الديباجَ ، وتنزَّهَ في الرياضِ ، وسكنَ غرفَ الخاناتِ . . استغرقَهُ ذلكَ وشغلَهُ عمَّا سواهُ ، فلمْ يعزُبْ قلبُهُ ، ولمْ يتفرَّقْ فكرُهُ .

* * *

الرابعُ : التدبُّرُ :

وهوَ وراءَ حضورِ القلبِ ، فإنَّهُ قدْ لا يتفكَّرُ في غيرِ القرآنِ ، ولكنَّهُ يقتصرُ علىٰ سماعِ القرآنِ مِنْ نفسِهِ وهوَ لا يتدبَّرُهُ ، والمقصودُ مِنَ القراءةِ

---

(١) **المتنزه** ـ علىٰ صيغة اسم المفعول ـ : البساتين والمواضع البعيدة عن المساكن ، والمتفرج علىٰ وزنه : أعم من ذلك . « إتحاف » (٤/ ٥٠٤) .

(٢) **الدبابيج** : جمع ديباج ، ثوب فاخر من الإبريسم .

التدبُّرُ ، ولذلكَ سُنَّ فيهِ الترتيلُ ، لأنَّ الترتيلَ في الظاهرِ ليتمكَّنَ مِنَ التدبُّرِ بالباطنِ ، قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لا خيرَ في عبادةٍ لا فقهَ فيها ، ولا في قراءةٍ لا تدبُّرَ فيها)[١] .

وإذا لمْ يتمكَّنْ مِنَ التدبُّرِ إلا بترديدٍ . . فليردِّدْ إلا أنْ يكونَ خلفَ إمامٍ ، فإنَّهُ لوْ بقيَ في تدبُّرِ آيةٍ وقدِ اشتغلَ الإمامُ بآيةٍ أخرىٰ . . كانَ مسيئاً ؛ مثلَ مَنْ يشتغلُ بالتعجُّبِ مِنْ كلمةٍ واحدةٍ ممَّنْ يناجيهِ عنْ فهْمِ بقيةِ كلامِهِ ، وكذلكَ إذا كانَ في تسبيحِ الركوعِ وهوَ متفكِّرٌ في آيةٍ قرأَها إمامُهُ ، فهٰذا وسواسٌ ، فقدْ رُوِيَ عنْ عامرِ بنِ عبدِ قيسٍ أنَّهُ قالَ : الوسواسُ يعتريني في الصلاةِ ، فقيلَ : في أمرِ الدنيا ؟ فقالَ : لأَنْ تختلفَ فيَّ الأسنَّةُ أحبُّ إليَّ مِنْ ذلكَ ، ولكنْ يشتغلُ قلبي بموقفي بينَ يدي ربِّي عزَّ وجلَّ وأنِّي كيفَ أنصرفُ[٢] .

فعدَّ ذلكَ وسواساً ، وهوَ كذلكَ ؛ فإنَّهُ يشغلُهُ عنْ فهْمِ ما هوَ فيهِ ، والشيطانُ لا يقدرُ علىٰ مثلِهِ إلا بأنْ يشغلَهُ بمهمٍّ دينيٍّ ولكنْ يمنعُهُ بهِ عنِ الأفضلِ ، ولمَّا ذُكرَ ذلكَ للحسنِ . . قالَ : إنْ كنتُم صادقينَ عنهُ . . فما اصطنعَ اللهُ ذلكَ عندَنا .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قرأَ (بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ) فردَّدَها عشرينَ مرَّةً[٣] ، وإنَّما ردَّدَها لتدبرِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في معانيها .

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » (٣٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٧) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٦١) بنحوه .
(٣) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٥٥١) .

وعنْ أبي ذرٍّ قالَ : قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنا ليلةً ، فقامَ بآيةٍ يردِّدُها ، وهيَ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١) .

وقامَ تميمٌ الداريُّ ليلةً بهٰذهِ الآيةِ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . ﴾ الآيةَ(٢) .

وقامَ سعيدُ بنُ جبيرٍ ليلةً يردِّدُ هٰذهِ الآيةَ : ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(٣) .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي لأفتتحُ السورةَ فيوقفني بعضُ ما أشهدُ فيها عنِ الفراغِ منها حتَّىٰ يطلعَ الفجرُ)(٤) .

وكانَ بعضُهُمْ يقولُ : (كلُّ آيةٍ لا أتفهَّمُها ولا يكونُ قلبي فيها . . لا أعدُّ لها ثواباً)(٥) .

وحُكِيَ عنْ أبي سليمانَ الدارانيِّ أنَّهُ قالَ : (إنِّي لأتلو الآيةَ فأقيمُ فيها أربعَ

---

(١) رواه النسائي (٢/ ١٧٧) ، وابن ماجه (١٣٥٠) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٥٠) .
(٣) رواه القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص١٤٨) ، وفيه قراءة ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وفي رواية : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ بدل ما ذكر المصنف ، وحكىٰ تكرير الآي عن ابن مسعود ، وعمر بن الخطاب ، وعامر بن عبد قيس ، وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم .
(٤) قوت القلوب (١/ ٤٦) .
(٥) قوت القلوب (١/ ٤٦) .

ليالٍ أوْ خمسَ ليالٍ ، ولولا أنّي أقطعُ الفكْرَ فيها . . ما جاوزتُها إلىٰ غيرِها)[1] .

وعنْ بعضِ السلفِ أنَّهُ بقيَ في سورةِ هودٍ ستَّةَ أشهرٍ يكرِّرُها ولا يفرغُ مِنَ التدبُّرِ فيها[2] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (لي في كلِّ جمعةٍ ختمةٌ ، وفي كلِّ شهرٍ ختمةٌ ، وفي كلِّ سنةٍ ختمةٌ ، ولي ختمةٌ منذُ ثلاثينَ سنةً ما فرغتُ منها بعدُ)[3] ، وذلكَ بحسَبِ درجاتِ تدبُّرِهِ وتفتيشِهِ ، وكانَ هٰذا أيضاً يقولُ : (أقمتُ نفسي مقامَ الأُجرَاءِ ، فأنا أعملُ مياومَةً ومسابعةً ومشاهرَةً ومسانهَةً)[4] .

* * *

الخامسُ : التفهُّمُ :

وهوَ أنْ يستوضحَ مِنْ كلِّ آيةٍ ما يليقُ بها ، إذِ القرآنُ يشتملُ علىٰ ذكرِ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وذكرِ أفعالِهِ ، وذكرِ أحوالِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، وذكرِ أحوالِ المكذِّبينَ لهمْ ، وأنَّهُمْ كيفَ أُهلكوا ، وذكرِ أوامرِهِ وزواجرِهِ ، وذكرِ الجنةِ والنارِ .

ـ **أمَّا صفاتُ اللهِ عزَّ وجلَّ** : فكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٥٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٥٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٥٠) ، والخبر المذيّل له الآتي . . فيه كذلك .
(٤) **والمياومة** : معاملة يوم بيوم ، **والمسابعة** : معاملة الأسبوع إلى الأسبوع ، **والمشاهرة** : معاملة الشهر إلى الشهر ، **والمسانهة** : معاملة السنة إلى السنة .

ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ ، فليتأملْ معانيَ هٰذهِ الأسماءِ والصفاتِ لينكشفَ لهُ أسرارُها ، فتحتَها معانٍ مدفونةٌ لا تنكشفُ إلا للموفقينَ ، وإليهِ أشارَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ بقولِهِ : (ما أسرَّ إليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شيئاً كتمَهُ عنِ الناسِ إلا أنْ يؤتيَ اللهُ عزَّ وجلَّ عبداً فهماً في كتابِهِ)[1] ، فليكنْ حريصاً علىٰ طلبِ ذلكَ الفهمِ .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ أرادَ علمَ الأوَّلينَ والآخرينَ . . فليُثوِّرِ القرآنَ)[2] ، وأعظمُ علومِ القرآنِ تحتَ أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِهِ ؛ إذْ لمْ يدركْ أكثرُ الخلقِ منها إلا أموراً لائقةً بأفهامِهِمْ ، ولمْ يعثروا علىٰ أغوارِها[3] .

ـ **وأمَّا أفعالُهُ تعالىٰ** : فكذكرِهِ خلْقَ السماواتِ والأرضِ وغيرِها ، فليفهمِ التالي منها صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ وجلالَهُ ؛ إذِ الفعلُ يدلُّ على الفاعلِ ، فتدلُّ عظمتُهُ علىٰ عظمتِهِ ، فينبغي أنْ يشهدَ في الفعْلِ الفاعلَ دونَ الفعْلِ ، فمَنْ عرفَ الحقَّ . . رآهُ في كلِّ شيءٍ ؛ إذْ كلُّ شيءٍ فهوَ منهُ وإليهِ ، وبهِ ولهُ ، فهوَ الكلُّ على التحقيقِ[4] ، ومَنْ لا يراهُ في كلِّ ما يراهُ . . فكأنَّهُ ما عرفَهُ ، ومَنْ عرفَهُ . . عرفَ أنَّ كلَّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ ، وأنَّ كلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ،

---

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٣) بنحوه .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨١٤) .
(٣) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٣) .
(٤) انظر « المقصد الأسنىٰ » (ص ٤٢) .

لا أنَّهُ سيبطلُ في ثاني الحالِ ، بلْ هوَ الآنَ باطلٌ إنِ اعتُبرَ ذاتُهُ مِنْ حيثُ هوَ ، إلا أنْ يُعتبرَ وجودُهُ مِنْ حيثُ إنَّهُ موجودٌ باللهِ عزَّ وجلَّ وبقدرتِهِ ، فيكونُ لهُ بطريقِ التبعيَّةِ ثباتٌ ، وبطريقِ الاستقلالِ بطلانٌ محْضٌ ، وهـٰذا مبدأٌ مِنْ مبادىءِ علمِ المكاشفةِ[1] .

ولهـٰذا ينبغي إذا قرأَ التالي قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ . . ألاَّ يقصرَ نظرَهُ على الماءِ والنارِ والحرثِ والمنيِّ ، بلْ يتأمَّلُ في المنيِّ وهوَ نطفةٌ متشابهةُ الأجزاءِ ، ثمَّ ينظرُ في كيفيةِ انقسامِها إلى اللحمِ والعظمِ والعروقِ والعصبِ ، وكيفيةِ تشكُّلِ أعضائِها بالأشكالِ المختلفةِ منَ الرأسِ واليدِ والرجْلِ والكبدِ والقلبِ وغيرِها ، ثمَّ إلىٰ ما ظهرَ فيها مِنَ الصفاتِ الشريفةِ مِنَ السمعِ والبصرِ والعقلِ وغيرِها ، ثمَّ إلىٰ ما ظهرَ فيها مِنَ الصفاتِ المذمومةِ مِنَ الغضبِ والشهوةِ والكبرِ والجهلِ والتكذيبِ والمجادلةِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، فيتأمَّلُ هـٰذهِ العجائبَ ليرقىٰ منها إلىٰ أعجبِ العجائبِ ، وهوَ الصنعةُ[2] التي منها صدرَتْ هـٰذهِ الأعاجيبُ ، فلا يزالُ ينظرُ إلى الصنعةِ ويرى الصانعَ[3] .

---

(١) ألمع بشيء من البسط المصنفُ رحمه الله تعالىٰ في الحديث عن هـٰذا المبدأِ في « مشكاة الأنوار » (ص٤٥) .

(٢) في جميع النسخ : (الصفة) ، والمثبت من « الإتحاف » (٤/ ٥١٠) ، ولعله الصواب ، والله أعلم .

(٣) وعبارة المصنف في « مشكاة الأنوار » (ص٤٥) : (ثم ترتقي جملتها إلىٰ نور الأنوار =

ـ **وأمَّا أحوالُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ** : فإذا سمعَ منها أنَّهُمْ كيفَ كُذِّبوا وضُربوا وقُتِلَ بعضُهُمْ . . فليفهمْ منهُ صفةَ الاستغناءِ للهِ عزَّ وجلَّ عنِ الرسلِ والمرسَلِ إليهِمْ ، وأنَّهُ لوْ أهلكَ جميعَهُمْ . . لمْ يؤثِّرْ في ملكِهِ شيئاً ، وإذا سمعَ نصرتَهُمْ في آخرِ الأمرِ . . فليفْهَمْ قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ وإرادتَهُ لنصرةِ الحقِّ .

ـ **وأمَّا أحوالُ المكذِّبينَ** : كعادٍ وثمودَ وما جرىٰ عليهِمْ ، فليكنْ فهمُهُ منهُ استشعارَ الخوفِ مِنْ سطوتِهِ ونقمتِهِ ، وليكنْ حظُّهُ منهُ الاعتبارَ في نفسِهِ ، وأنَّهُ إنْ غفَلَ وأساءَ الأدبَ واغترَّ بما أمهلَ . . فربما تدركُهُ النقمةُ وتنفذُ فيهِ القضيةُ .

وكذلكَ إذا سمعَ وصفَ **الجنَّةِ والنارِ وسائرَ ما في القرآنِ** ، فلا يمكنُ استقصاءُ ما يفهمُ منها ؛ لأنَّ ذلكَ لا نهايةَ لهُ ، وإنَّما لكلِّ عبدٍ منهُ بقدْرِ رزقِهِ ، فلا رطْبَ ولا يابسَ إلا في كتابٍ مبينٍ ، ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ .

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ شئتُ . . لأوقرْتُ سبعينَ بعيراً مِنْ تفسيرِ فاتحةِ الكتابِ)[1] .

فالغرضُ ممَّا ذكرناهُ التنبيهُ علىٰ طريقِ التفهُّمِ لينفتحَ بابُهُ ، فأمَّا الاستقصاءُ . . فلا مطمعَ فيهِ ، ومَنْ لمْ يكنْ لهُ فهْمٌ ما في القرآنِ ولوْ في أدنى

= ومعدنها الأول ، وأن ذلك هو الله عز وجل وحده لا شريك له ، وأن سائر الأنوار مستعارة ، وإنما الحقيقي نوره فقط) .

(١) قوت القلوب (١/ ٥٠) .

الدرجاتِ . . دخلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، والطابعُ : هيَ الموانعُ التي سنذكرُها في موانعِ الفهْمِ ، وقدْ قيلَ : (لا يكونُ المريدُ مريداً حتَّىٰ يجدَ في القرآنِ كلَّ ما يريدُ ، ويعرفَ منهُ النقصانَ مِنَ المزيدِ ، ويستغنيَ بالمولىٰ عَنِ العبيدِ)[1] .

* * *

السادسُ : التخلِّي عنْ موانعِ الفهْمِ :

فإنَّ أكثرَ الناسِ مُنعوا عنْ فهمِ معاني القرآنِ لأسبابٍ وحُجُبٍ أسدلَها الشيطانُ علىٰ قلوبِهِمْ ، فعميَتْ عليهِمْ عجائبُ أسرارِ القرآنِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لولا أنَّ الشياطينَ يحومونَ علىٰ قلوبِ بني آدمَ . . لنظروا إلى الملكوتِ »[2] ، ومعاني القرآنِ مِنْ جملةِ الملكوتِ ، وكلُّ ما غابَ عنِ الحواسِّ ولمْ يُدركْ إلا بنورِ البصيرةِ . . فهوَ مِنَ الملكوتِ .

وحُجُبُ الفهْمِ أربعةٌ :

ـ **أوَّلُها** : أنْ يكونَ الهمُّ منصرفاً إلىٰ تحقيقِ الحروفِ بإخراجِها مِنْ مخارجِها ، وهـٰذا يتولَّىٰ حفظَهُ شيطانٌ وُكِّلَ بالقرَّاءِ ليصرفَهُمْ عنْ فهمِ معاني كلامِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يزالُ يحملُهُمْ علىٰ ترديدِ الحرْفِ يخيِّلُ إليهِمْ أنَّهُ لمْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٥٧) عن بعض العارفين .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٥٣) في قصة الإسراء مرفوعاً .

يخرجُ مِنْ مخرجِهِ[١] ، فهـٰذا يكونُ تأمُّلُهُ مقصوراً علىٰ مخارجِ الحروفِ ، فأنَّىٰ تنكشفُ لهُ المعاني ؟! وأعظَمُ ضُحْكَةٍ للشيطانِ مَنْ كانَ مطيعاً لمثْلِ هـٰذا التلبيسِ .

ـ **ثانيها** : أنْ يكونَ مقلِّداً لمذهبٍ سمعَهُ بالتقليدِ وجمدَ عليهِ ، وثبتَ في نفسِهِ التعصُّبُ لهُ بمجرَّدِ الاتباعِ للمسموعِ ، مِنْ غيرِ وصولٍ إليهِ ببصيرةٍ ومشاهدةٍ ، فهـٰذا شخصٌ قيَّدَهُ معتقَدُهُ عنْ أنْ يجاوزَهُ ، فلا يمكِّنُهُ أنْ يخطرَ ببالِهِ غيرَ معتقدِهِ ، فصارَ نظرُهُ موقوفاً علىٰ مسموعِهِ ، فإنْ لمعَ برقٌ علىٰ بعْدٍ ، وبدا لهُ معنىً مِنَ المعاني التي تباينُ مسموعَهُ . . حملَ عليهِ شيطانُ التقليدِ حملةً وقالَ : كيفَ يخطرُ هـٰذا ببالِكَ وهوَ خلافُ معتقدِ آبائِكَ ؟! فيرىٰ أنَّ ذلكَ غرورٌ مِنَ الشيطانِ ، فيتباعدُ منهُ ، ويحترزُ عنْ مثلِهِ .

ولمثْلِ هـٰذا قالتِ الصوفيَّةُ : (إنَّ العلمَ حجابٌ)[٢] ، وأرادوا بالعلمِ : العقائدَ التي استمرَّ عليها أكثرُ الناسِ بمجرَّدِ التقليدِ ، أوْ بمجرَّدِ كلماتٍ جدليَّةٍ حرَّرَها المتعصِّبونَ للمذاهبِ وألقَوْها إليهِمْ ، فأمَّا العلمُ الحقيقيُّ

---

(١) ويوهم عليهم أنهم كما تُعُبِّدوا بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده . . متعبَّدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه المتلقاة من أئمة القراءة ، ويزيد عليهم شيئاً آخر أجلىٰ مما سبق ؛ بأن يخطر علىٰ بالهم بأن القراءة بغير تجويد لحنٌ ، ولولا أنكم تجوِّدون الألفاظ . . لا تصلون إلىٰ فهم المعاني منها ، ولعمري ؛ هـٰذا الذي يخيل إليهم به حق وصدق ، لكنه يريد بإلقاء مثل ذلك إليهم تثبيطهم عن المهم . « إتحاف » (٤/ ٥١٢) .

(٢) أي : بين العبد والوصول إلى الله ، وربما زادوا فقالوا : (حجاب الله الأكبر) . انظر « الإتحاف » (٤/ ٥١٣) .

الذي هوَ الكشْفُ والمشاهدةُ بنورِ البصيرةِ . . فكيفَ يكونُ حجاباً وهوَ منتهى المطلبِ ، وهـٰذا التقليدُ قدْ يكونُ باطلاً ، فيكونُ مانعاً ؛ كمَنْ يعتقدُ مِنَ الاستواءِ على العرشِ التمكُّنَ والاستقرارَ ، فإنْ خطرَ لهُ مثلاً في القدوسِ أنَّهُ المقدَّسُ عَنْ كلِّ ما يجوزُ علىٰ خلقِهِ . . لمْ يمكِّنْهُ تقليدُهُ منْ أنْ يستقرَّ ذلكَ في نفسِهِ ، ولوِ استقرَّ في نفسِهِ . . لانجرَّ إلىٰ كشفٍ ثانٍ وثالثٍ ، ولتواصلَ ، ولكنْ يتسارعُ إلىٰ دفعِ ذلكَ عنْ خاطرِهِ ؛ لمناقضتِهِ تقليدَهُ الباطلَ .

وقدْ يكونُ حقّاً ويكونُ أيضاً مانعاً مِنَ الفهْمِ والكشفِ ؛ لأنَّ الحقَّ الذي كُلِّفَ الخلقُ اعتقادَهُ لهُ مراتبُ ودرجاتٌ ، ولهُ مبدأٌ ظاهرٌ وغورٌ باطنٌ ، وجمودُ الطبعِ على الظاهرِ يمنعُ مِنَ الوصولِ إلى الغورِ الباطنِ كما ذكرناهُ في الفرْقِ بينَ العلمِ الظاهرِ والباطنِ في كتابِ قواعدِ العقائدِ .

ـ **ثالثُها** : أنْ يكونَ مصرّاً علىٰ ذنبٍ أوْ متصفاً بكبْرٍ أوْ مبتلىً في الجملةِ بهوىً في الدنيا مطاعٍ ؛ فإنَّ ذلكَ سببُ ظلمةِ القلبِ وصدئِهِ ، وهوَ كالخبثِ على المرآةِ ، فيمنعُ جليَّةَ الحقِّ مِنْ أنْ تتجلَّىٰ فيهِ ، وهوَ أعظَمُ حجابٍ للقلْبِ ، وبهِ حُجِبَ الأكثرونَ ، وكلَّما كانتِ الشهواتُ أشدَّ تراكماً . . كانتْ معاني الكلامِ أشدَّ احتجاباً ، وكلَّما خفَّ عَنِ القلبِ أثقالُ الدنيا . . قَرُبَ تجلِّي المعنىٰ فيهِ .

فالقلبُ مثلُ المرآةِ، والشهواتُ مثلُ الصدأِ، ومعاني القرآنِ مثلُ الصورِ التي تتراءىٰ في المرآةِ، والرياضةُ للقلْبِ بإماطةِ الشهواتِ مثلُ تصقيلِ الجلاَّءِ للمرآةِ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «إذا عظَّمَتْ أُمَّتي الدينارَ والدرهمَ . . نُزِعَ

منها هيبةُ الإسلامِ ، وإذا تركوا الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ . . حُرموا بركةَ الوحيِ »[١] ، قالَ الفضيلُ : (يعني : حُرموا فهْمَ القرآنِ)[٢] .

وقدْ شرطَ اللهُ تعالى الإنابةَ في الفهمِ والتذكُّرِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ ، وقالَ سبحانهُ وتعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ، فالذي آثرَ غرورَ الدنيا علىٰ نعيمِ الآخرةِ . . فليسَ مِنْ ذوي الألبابِ ، ولذلكَ لا تنكشفُ لهُ أسرارُ الكتابِ .

ـ رابعُها : أنْ يكونَ قدْ قرأَ تفسيراً ظاهراً واعتقدَ أنَّهُ لا معنىٰ لكلماتِ القرآنِ إلا ما تناولَهُ النقلُ عنِ ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ وغيرِهما ، وأنَّ ما وراءَ ذلكَ تفسيرٌ بالرأيِ ، و« أنَّ مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ . . فقدْ تبوَّأَ مقعدَهُ مِنَ النارِ »[٣] ، فهٰذا أيضاً مِنَ الحُجُبِ العظيمةِ ، وسنبيِّنُ معنى التفسيرِ بالرأيِ في البابِ الرابعِ ، وأنَّ ذلكَ يناقضُ[٤] قولَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إلا أنْ يُؤتيَ اللهُ عبداً فهماً في القرآنِ) ، وأنَّهُ لوْ كانَ المعنىٰ هوَ الظاهرَ المنقولَ . . لما اختلفَ الناسُ فيهِ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٣٧) عن الفضيل معضلاً ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢١٦) ، وقد أورد سند الحكيم الحافظُ الزيلعي في « تخريج الأحاديث والآثار » (١/ ٤٧٢) عن أبي هريرة مرفوعاً .
(٢) قوت القلوب (١/ ٥٨) .
(٣) رواه الترمذي (٢٩٥١) .
(٤) في النسخ : (لا يناقض) ، والمثبت من (ق) ، ولعله الصواب ، والله أعلم . وانظر « الإتحاف » (٤/ ٥١٦) .

السابعُ : التخصيصُ :

وهوَ أنْ يقدِّرَ أنَّهُ المقصودُ بكلِّ خطابٍ في القرآنِ ، فإنْ سمعَ أمراً أوْ نهياً . . قدَّرَ أنَّهُ المنهيُّ والمأمورُ ، وإنْ سمعَ وعْداً أوْ وعيداً . . فكمثلِ ذلكَ ، وإنْ سمعَ قصصَ الأولينَ والأنبياءِ . . علمَ أنَّ السمَرَ غيرُ مقصودٍ ، وإنَّما المقصودُ ليعتبرَ بهِ ، وليأخذَ مِنْ تضاعيفِهِ ما يحتاجُ إليهِ ، فما مِنْ قصَّةٍ في القرآنِ إلا وسياقُها لفائدةٍ في حقِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأمَّتِهِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ ، فليقدِّرِ العبدُ أنَّ اللهَ يثبِّتُ فؤادَهُ بما يقصُّهُ عليهِ مِنْ أحوالِ الأنبياءِ ، وصبرِهِمْ على الإيذاءِ ، وثباتِهِمْ في الدينِ لانتظارِ نصرِ اللهِ تعالىٰ .

وكيفَ لا يقدِّرُ هٰذا والقرآنُ ما أنزلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرسولِ اللهِ خاصةً ، بلْ شفاءً وهدىً ورحمةً ونوراً للعالمينَ ، ولذلكَ أمرَ اللهُ تعالى الكافَّةَ بشكرِ نعمةِ الكتابِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ ، ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ ، ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ، ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وإذا قصدَ بالخطابِ جميعَ الناسِ . . فقدْ قصدَ الآحادَ ، فهٰذا الواحدُ

القارىءُ مقصودٌ ، فما لهُ ولسائرِ الناسِ ؟! فليقدِّرْ أنَّهُ المقصودُ ، قالَ تعالىٰ : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ ، قالَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ : (مَنْ بلغَهُ القرآنُ . . فكأنَّما كلَّمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ)(١) .

وإذا قدَّرَ ذلكَ . . لمْ يتخذْ دراسةَ القرآنِ عملَهُ ، بلْ يقرؤُهُ كما يقرأُ العبدُ كتابَ مولاهُ الذي كتبَهُ إليهِ ليتأمَّلَهُ ويعملَ بمقتضاهُ ، ولذلكَ قالَ بعضُ العلماءِ : (هٰذا القرآنُ رسائلُ أتتنا مِنْ قبلِ ربِّنا عزَّ وجلَّ بعهودِهِ ، نتدبَّرُها في الصلواتِ ، ونقفُ عليها في الخلواتِ ، وننفذُها في الطاعاتِ بالسننِ المتبعاتِ)(٢) .

وكانَ مالكُ بنُ دينارٍ يقولُ : (ما زرعَ القرآنُ في قلوبِكُمْ يا أهلَ القرآنِ ؟ إنَّ القرآنَ ربيعُ المؤمنِ ؛ كما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرضِ)(٣) .

وقالَ قتادةُ : (لمْ يجالسْ أحدٌ هٰذا القرآنَ إلا قامَ بزيادةٍ أوْ نقصانٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾)(٤) .

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠٦/٧/٥) ، وفيه : (فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم) .
(٢) أورده في « قوت القلوب » (١/ ٥٨) عن الحسن بنحوه .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٨) ، وتمامه : (فإن الله ينزل الغيث من السماء إلى الأرض ، فيصيب الحشَّ ، فتكون فيه الحبة ، فلا يمنعها نتنُ موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن ، فيا حملة القرآن ؛ ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ أين أصحاب سورة ؟ أين أصحاب سورتين ؟ ماذا عملتم فيهما ؟) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٧٨٨) ، والفريابي في « فضائل القرآن » (٧٨) من طريقه .

الثامنُ : التأثُّرُ :

وهوَ أنْ يتأثَّرَ قلبُهُ بآثارٍ مختلفةٍ بحسَبِ اختلافِ الآياتِ ، فيكونَ لهُ بحسَبِ كلِّ فهْمٍ حالٌ ووجْدٌ يتصفُ بهِ قلبُهُ ؛ مِنَ الحزْنِ والخوفِ والرجاءِ وغيرِهِ ، ومهما تمَّتْ معرفتُهُ . . كانتِ الخشيةُ أغلبَ الأحوالِ علىٰ قلبِهِ ، فإنَّ التضييقَ غالبٌ علىٰ آياتِ القرآنِ ؛ فلا يُرىٰ ذكرُ المغفرةِ والرحمةِ إلا مقروناً بشروطٍ يقصُرُ العارفُ عنْ نيلِها ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ ، ثمَّ أتبعَ ذلكَ بأربعةِ شروطٍ : ﴿ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ذكرَ أربعةَ شروطٍ ، وحيثُ اقتصرَ . . ذكرَ شرطاً جامعاً فقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فالإحسانُ يجمعُ الكلَّ ، وهٰكذا مَنْ يتصفَّحُ القرآنَ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ .

ومَنْ فهمَ ذلكَ . . فجديرٌ بأنْ يكونَ حالُهُ الخشيةَ والحزنَ ، ولذلكَ قالَ الحسنُ : (واللهِ ؛ ما أصبحَ اليومَ عبدٌ يتلو هٰذا القرآنَ يؤمنُ بهِ . . إلا كثُرَ حزنُهُ وقلَّ فرحُهُ ، وكثُرَ بكاؤُهُ وقلَّ ضحكُهُ ، وكثرَ نصبُهُ وشغلُهُ وقلَّتْ راحتُهُ وبطالتُهُ)[1] .

وقالَ وُهيبُ بنُ الوردِ : (نظرنا في هٰذهِ الأحاديثِ والمواعظِ ، فلمْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٧) .

نجدْ شيئاً أرقَّ للقلوبِ ولا أشدَّ استجلاباً للحزْنِ مِنْ قراءةِ القرآنِ وتفهُّمِهِ وتدبُّرِه)[١] .

فتأثُّرُ العبدِ بالتلاوةِ : أنْ يصيرَ بصفةِ الآيةِ المتلوةِ ؛ فعندَ الوعيدِ وتقييدِ المغفرةِ بالشروطِ يتضاءلُ مِنْ خيفتِهِ كأنَّهُ يكادُ يموتُ ، وعندَ التوسُّعِ ووعدِ المغفرةِ يستبشرُ كأنَّهُ يطيرُ مِنَ الفرحِ ، وعندَ ذكْرِ اللهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ يتطأطأُ خضوعاً لجلالِهِ واستشعاراً لعظمتِهِ ، وعندَ ذكرِ الكفارِ ما يستحيلُ على اللهِ تعالىٰ كذكرِهِمْ للهِ سبحانه ولداً وصاحبةً . . يغضُّ صوتَهُ وينكسرُ في باطنِهِ حياءً مِنْ قبْحِ مقالتِهِمْ ، وعندَ وصْفِ الجنَّةِ ينبعثُ بباطنِهِ شوقاً إليها ، وعندَ وصْفِ النارِ ترتعدُ فرائصُهُ خوفاً منها .

ولمَّا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ مسعودٍ : « اقرأْ عليَّ » . . قالَ : فافتتحتُ (سورةَ النساءِ) ، فلمَّا بلغتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ . . رأيتُ عينيهِ تذرفانِ بالدمعِ ، فقالَ لي : « حسْبُكَ الآنَ »[٢] ، وهٰذا لأنَّ مشاهدةَ تلكَ الحالةِ استغرقتْ قلبَهُ بالكليَّةِ .

ولقدْ كانَ في الخائفينَ مَنْ خرَّ مغشياً عليهِ عندَ آياتِ الوعيدِ ، ومنهم مَنْ ماتَ في سماعِ الآياتِ[٣] ، فمثلُ هٰذهِ الأحوالِ يخرجُهُ عنْ أنْ يكونَ حاكياً

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٤٢) .
(٢) رواه البخاري (٤٥٨٢) ، ومسلم (٨٠٠) .
(٣) وقد ألَّف الثعلبي في ذلك كتاباً سماه : « قتلى القرآن » ، وروى الترمذي (٤٤٥) عن =

في كلامِهِ ، فإذا قالَ : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإذا لمْ يكنْ خائفاً . . كانَ حاكياً .

وإذا قالَ : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ولمْ يكنْ حالُهُ التوكُّلَ والإنابةَ . . كانَ حاكياً .

وإذا قالَ : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ . . فليكنْ حالُهُ الصبرَ أوِ العزيمةَ عليهِ ؛ حتَّىٰ يجدَ حلاوةَ التلاوةِ .

فإنْ لمْ يكنْ بهـٰذهِ الصفاتِ ولمْ يتردَّدْ قلبُهُ بينَ هـٰذهِ الحالاتِ . . كانَ حظُّهُ مِنَ التلاوةِ حركةَ اللسانِ معَ صريحِ اللعنِ علىٰ نفسِهِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ .

وكانَ داخلاً في معنىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ يعني : إلا التلاوةَ المجرَّدَةَ ، وفي قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ، لأنَّ القرآنَ هوَ المبيِّنُ لتلكَ الآياتِ في السماواتِ والأرضِ ، ومهما تجاوزَها ولمْ يتأثَّرْ

= بهز بن حكيم قال : (كان زرارة بن أوفىٰ قاضي البصرة ، وكان يؤم في بني قشير ، فقرأ يوماً في صلاة الصبح : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ... فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ خرَّ ميتاً ، فكنت فيمن احتمله إلىٰ داره) ، وقد تقدم ، وانظر « الإتحاف » (٤/ ٥١٩).

بها.. كانَ معرضاً عنها ، ولذلكَ قيلَ : (إنَّ مَنْ لمْ يكنْ متصفاً بأخلاقِ القرآنِ ؛ فإذا قرأَ القرآنَ.. ناداهُ اللهُ تعالىٰ : ما لكَ ولكلامي وأنتَ معرضٌ عنِّي ؟! دعْ عنكَ كلامي إنْ لمْ تُتِبْ إليَّ)[1] .

ومثالُ العاصي إذا قرأَ القرآنَ وكرَّرَهُ مثالُ مَنْ يكرِّرُ كتابَ الملكِ في كلِّ يومٍ مرَّاتٍ وقدْ كتبَ إليهِ في عمارةِ مملكتِهِ وهوَ مشغولٌ بتخريبِها ومقتصرٌ علىٰ دراسةِ كتابِهِ ، فلعلَّهُ لوْ تركَ الدراسةَ عندَ المخالفةِ.. لكانَ أبعدَ عنِ الاستهزاءِ واستحقاقِ المقْتِ ، ولذلكَ قالَ يوسفُ بنُ أسباطٍ : (إنِّي لأهمُّ بقراءةِ القرآنِ ، فإذا ذكرتُ ما فيهِ.. خشيتُ المقْتَ ، فأعدلُ إلى التسبيحِ والاستغفارِ)[2] .

والمعرضُ عنِ العملِ بهِ أريدَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقرؤوا القرآنَ ما ائتلفتْ عليهِ قلوبُكُمْ ، ولانتْ لهُ جلودُكُمْ ، فإذا اختلفتُمْ.. فلستُمْ تقرؤونَهُ » ، وفي بعضِها : « فإذا اختلفتُمْ.. فقوموا عنهُ »[3] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٣٨٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٢٤٣) بنحوه ، وهو بلفظه في « القوت » (١/٥٨) .

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٠) ، ومسلم (٢٦٦٧) ، دون قوله : « ولانت له جلودكم » ، واللفظ لصاحب « القوت » (١/٥٨) ، ولين الجلود كناية عن الخشية ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحسنَ الناسِ صوتاً بالقرآنِ الذي إذا سمعتَهُ يقرأُ . . رأيتَ أنَّهُ يخشى اللهَ عزَّ وجلَّ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يُسمعُ القرآنُ مِنْ أحدٍ أشهىٰ منهُ ممَّنْ يخشى اللهَ عزَّ وجلَّ »(٢) .

فالقرآنُ يرادُ لاستجلابِ هٰذهِ الأحوالِ إلى القلبِ والعملِ بهِ ، وإلا . . فالمؤنةُ في تحريكِ اللسانِ بحروفهِ خفيفةٌ ، ولذلكَ قالَ بعضُ القرَّاءِ : قرأتُ القرآنَ علىٰ شيخٍ لي ثمَّ رجعتُ لأقرأَ ثانياً ، فانتهرني وقالَ : جعلتَ القراءةَ عليَّ عملاً ؟! اذهبْ فاقرأْ على اللهِ عزَّ وجلَّ فانظرْ بماذا يأمرُكَ وماذا يفهمُكَ(٣) .

وبهٰذا كانَ شغلُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم في الأحوالِ والأعمالِ ، حتَّىٰ ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ عشرينَ ألفاً مِنَ الصحابةِ(٤) ، لمْ

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٩) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٣) مرسلاً عن طاووس .
(٣) قوت القلوب (١/٥٨) ، ولفظه : (فانظر ماذا يُسمعك منه ، ويُفهمك عنه) .
(٤) قال الحافظ العراقي : (لعله أراد بالمدينة ، وإلا . . فقد روينا عن أبي زرعة الرازي أنه قال : قبض عن مئة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روىٰ عنه وسمع منه) . « إتحاف » (٤/٥٢٢) .

يحفظِ القرآنَ منهم إلا ستةٌ ، اختلفَ منهُمْ في اثنينِ[١] ، وكانَ أكثرُهُمْ يحفظُ السورةَ والسورتينِ[٢] ، وكانَ الذي يحفظُ (البقرةَ) و(الأنعامَ) مِنْ علمائِهِمْ[٣] ، ولمَّا جاءَ واحدٌ ليتعلمَ القرآنَ ، فانتهىٰ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ . فقالَ : يكفيني هٰذا ، وانصرفَ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « انصرفَ الرجلُ وهوَ فقيهٌ »[٤] .

---

(١) روى البخاري (٣٧٥٨) ، ومسلم (٢٤٦٤) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : « استقرئوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ـ فبدأ به ـ وسالم مولىٰ أبي حذيفة ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل » .
وروى البخاري (٣٨١٠) ، ومسلم (٢٤٦٥) عن أنس رضي الله عنه قال : (جمع القرآن علىٰ عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة ، كلهم من الأنصار : أبيّ ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد بن ثابت ، قال قتادة : من أبو زيد ؟ قال أنس : أحد عمومتي) ، وبالروايتين يظهر الخلاف في الاثنين المختلف فيهما .

(٢) روى ابن الأنباري في « المصاحف » ـ ذكر سنده القرطبي في « تفسيره » (١ / ٤٠) ـ عن ابن عمر قال : (كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هٰذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، ورزقوا العمل بالقرآن ، وإن آخر هٰذه الأمة يقرؤون القرآن منهم الصبي والأعمىٰ ولا يرزقون العمل به) .

(٣) روى الترمذي (٢٨٧٦) عن أبي هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً وهم ذو عدد ، فاستقرأهم ، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن ، فأتىٰ علىٰ رجل منهم من أحدثهم سناً ، فقال : « ما معك يا فلان ؟ » قال : معي كذا وكذا و(سورة البقرة) ، قال : « أمعك (سورة البقرة ؟) » فقال : نعم ، قال : « فاذهب فأنت أميرهم » الحديث .

(٤) رواه أبو داوود (١٣٩٩) ، ولفظه عن عبد الله بن عمرو قال : أتىٰ رجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : أقرئني يا رسول الله ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات =

وإنَّما العزيزُ مثلُ تلكَ الحالةِ التي يمنُّ اللهُ تعالىٰ بها علىٰ قلبِ العبدِ عَقيبَ فهْمِ الآيةِ ، فأمَّا مجرَّدُ حركةِ اللسانِ . . فقليلُ الجدوىٰ ، بلِ التالي باللسانِ المعرضُ عنِ العملِ جديرٌ بأنْ يكونَ هوَ المرادَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ ؛ أيْ : تركتَها ولمْ تنظرْ إليها ولمْ تعبأْ بها ، فإنَّ المقصِّرَ في الأمرِ يقالُ : إنَّهُ نسيَ الأمرَ .

وتلاوةُ القرآنِ حقَّ تلاوتِهِ : أنْ يشتركَ فيهِ اللسانُ والعقلُ والقلبُ ، فحظُّ اللسانِ تصحيحُ الحروفِ بالترتيلِ ، وحظُّ العقلِ تفسيرُ المعاني ، وحظُّ القلبِ الاتعاظُ والتأثُّرُ بالانزجارِ والائتمارِ ، فاللسانُ يرتِّلُ ، والعقلُ يترجمُ ، والقلبُ يتعظُ .

* * *

التاسعُ : الترقِّي :

وأعني بهِ : أنْ يترقَّىٰ إلىٰ أنْ يسمعَ الكلامَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، لا مِنْ نفسِهِ ، فدرجاتُ القراءةِ ثلاثٌ :

= (الر) » ، فقال : كبرت سني واشتد قلبي وغلظ لساني ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات (حم) » فقال مثل قالته ، فقال : « اقرأ ثلاثاً من المسبحات » ، فقال مثل قالته ، فقال الرجل : يا رسول الله ؛ أقرئني سورة جامعة ، فأقرأه النبي صلى الله عليه وسلم (إذا زلزلت الأرض) حتىٰ فرغ منها ، فقال الرجل : والذي بعثك بالحق ؛ لا أزيد عليها أبداً ، ثم أدبر الرجل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفلح الرويجلُ » مرتين .

أدناها : أنْ يقدِّرَ العبدُ كأَنَّهُ يقرؤُهُ على اللهِ تعالىٰ واقفاً بينَ يديهِ وهوَ ناظرٌ إليهِ ومستمعٌ منهُ ، فيكونُ حالُهُ عندَ هـٰذا التقديرِ السؤالَ والتملُّقَ والتضرُّعَ والابتهالَ .

الثانيةُ : أنْ يشهدَ بقلبِهِ كأَنَّ ربَّهُ عزَّ وجلَّ يراهُ ويخاطبُهُ بألطافِهِ ، ويناجيهِ بإنعامِهِ وإحسانِهِ ، فمقامُهُ الحياءُ والتعظيمُ والإصغاءُ والفهْمُ .

الثالثةُ : أنْ يرىٰ في الكلامِ المتكلِّمَ ، وفي الكلماتِ الصفاتِ ، فلا ينظرُ إلىٰ نفسِهِ ولا إلىٰ قراءتِهِ ولا إلىٰ تعلُّقِ الإنعامِ بهِ منْ حيثُ إنَّهُ منعَمٌ عليهِ ، بلْ يكونُ مقصورَ الهمِّ على المتكلِّمِ ، موقوفَ الفكرِ عليهِ ؛ كأَنَّهُ مستغرقٌ بمشاهدةِ المتكلِّمِ عنْ غيرِهِ ، وهـٰذهِ درجةُ المقرَّبينَ ، وما قبلَها درجةُ أصحابِ اليمينِ ، وما خرجَ عنْ هـٰذا فهوَ درجاتُ الغافلينَ .

وعنِ الدرجةِ العليا أخبرَ جعفرُ بنُ محمدٍ الصادقُ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : (واللهِ ؛ لقدْ تجلَّى اللهُ عزَّ وجلَّ لخلقِهِ في كلامِهِ ، ولكنَّهُمْ لا يبصرونَ)(١) ، وقالَ أيضاً وقدْ سألوهُ عنْ حالةٍ لحقتْهُ في الصلاةِ حتَّىٰ خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فلمَّا سُرِّيَ عنهُ . قيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : (ما زلتُ أردِّدُ الآيةَ علىٰ قلبي حتَّىٰ سمعتُها منَ المتكلِّمِ بها ، فلمْ يثبتْ جسمي لمعاينةِ قدرتِهِ)(٢) .

وفي مثلِ هـٰذهِ الدرجةِ تعظُمُ الحلاوةُ ولذَّةُ المناجاةِ ، ولذلكَ قالَ بعضُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٧) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٤٧) .

الحكماءِ : (كنتُ أقرأُ القرآنَ فلا أجدُ لهُ حلاوةً حتَّىٰ تلوتُهُ كأنِّي أسمعُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتلوهُ علىٰ أصحابِهِ ، ثمَّ رُفعتُ إلىٰ مقامٍ فوقَهُ ، فكنتُ أتلوهُ كأنِّي أسمعُهُ مِنْ جبريلَ عليهِ السلامُ يلقيهِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ جاءَ اللهُ بمنزلةٍ أخرىٰ ، فأنا الآنَ أسمعُهُ منَ المتكلِّمِ بهِ ، فعندَها وجدْتُ لهُ لذَّةً ونعيماً لا أصبرُ عنهُ)[1] .

وقالَ عثمانُ وحذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُما : (لوْ طهرتِ القلوبُ . . لمْ تشبعْ مِنْ قراءةِ القرآنِ)[2] ، وإنَّما قالا ذلكَ لأنَّها بالطهارةِ تترقَّىٰ إلىٰ مشاهدةِ المتكلِّمِ في الكلامِ ، ولذلكَ قالَ ثابتٌ البنانيُّ : (كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنةً ، وتنعمتُ بهِ عشرينَ سنةً)[3] .

وبمشاهدةِ المتكلِّمِ دونَ ما سواهُ يكونُ العبدُ ممتثلاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ، فمَنْ لمْ يرَهُ في كلِّ شيءٍ . . فقدْ رأىٰ غيرَهُ ، وكلُّ ما التفتَ إليهِ العبدُ سوى اللهِ تعالىٰ تضمَّنَ التفاتُهُ شيئاً مِنَ الشرْكِ الخفيِّ ، بلِ التوحيدُ الخالصُ ألا يرىٰ في كلِّ شيءٍ إلا اللهَ عزَّ وجلَّ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٠٠) ، وهو في « القوت » (١/ ٥٠) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٠) ولفظه : (الصلاة) بدل (القرآن) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (١/ ٥٠) .

العاشرُ : التبرِّي :

وأعني بهِ : أنْ يتبرَّأَ مِنْ حولِهِ وقوتِهِ والالتفاتِ إلىٰ نفسِهِ بعينِ الرضا والتزكيةِ ، فإذا تلا آياتِ الوعدِ والمدْحِ للصالحينَ . . فلا يشهدُ نفسَهُ عندَ ذلكَ ، بلْ يشهدُ الموقنينَ والصديقينَ فيها ، ويتشوَّفُ إلىٰ أنْ يلحقَهُ اللهُ تعالىٰ بهِمْ .

وإذا تلا آياتِ المقْتِ وذمِّ العصاةِ والمقصرينَ . . شهدَ نفسَهُ هناكَ ، وقدَّرَ أنَّهُ المخاطبُ خوفاً وإشفاقاً ، ولذلكَ كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أستغفرُكَ لظلمي وكفْري ، فقيلَ لهُ : هٰذا الظلْمُ فما بالُ الكفرِ ؟ فتلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[1] .

وقيلَ ليوسفَ بنِ أسباطٍ : إذا قرأتَ القرآنَ بماذا تدعو ؟ فقالَ : بماذا أدعو ! أستغفرُ اللهَ عزَّ وجلَّ مِنْ تقصيري سبعينَ مرَّةً[2] .

فإذا رأىٰ نفسَهُ بصورةِ التقصيرِ في القراءةِ كانَ رؤيتُهُ سببَ قربِهِ ، فإنَّ مَنْ أُشهدَ البعدَ في القربِ . . لُطِفَ بهِ في الخوفِ حتَّىٰ يسوقَهُ الخوفُ إلىٰ درجةٍ أخرىٰ في القربِ وراءَها ، ومَنْ أُشهدَ القربَ في البعدِ . . مُكِرَ بهِ بالأمنِ الذي يفضيهِ إلىٰ درجةٍ أخرىٰ في البعدِ أسفلَ ممَّا هوَ فيهِ ، ومهما كانَ مشاهداً

---

(١) ذكر السيوطي في « الدر المنثور » (٥/ ٤٥) أنه من رواية ابن أبي حاتم ، وهو في « القوت » (١/ ٤٩) .

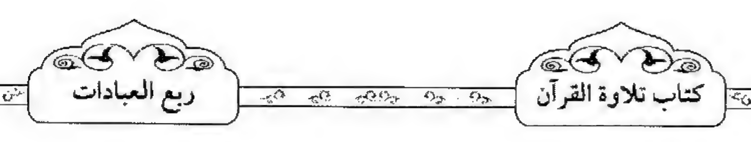
(٢) قوت القلوب (١/ ٥٨) .

نفسَهُ بعينِ الرضا . . صارَ محجوباً بنفسِهِ ، فإذا جاوزَ حدَّ الالتفاتِ إلىٰ نفسِهِ ولمْ يشاهدْ إلا اللهَ تعالىٰ في قراءتِهِ . . انكشفَ لهُ الملكوتُ .

قالَ سليمانُ بنُ أبي سليمانَ الدارانيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : وعدَ ابنُ ثوبانَ أخاً لهُ أنْ يفطرَ عندَهُ ، فأبطأَ عليهِ حتَّىٰ طلعَ الفجرُ ، فلقيَه أخوهُ مِنَ الغدِ ، فقالَ لهُ : وعدتَني أنْ تفطرَ عندي فأخلفتَ ! فقالَ : لولا ميعادُكَ ما أخبرتُكَ بالذي حبسني عنكَ ؛ إنِّي لمَّا صليتُ العتمةَ . . قلتُ : أوترُ قبلَ أنْ أجيئَكَ ؛ لأنِّي لا آمنُ ما يحدثُ مِنَ الموتِ ، فلمَّا كنتُ في الدعاءِ مِنَ الوترِ . . رفعتْ لي روضةٌ خضراءُ فيها أنواعُ الزهرِ مِنَ الجنةِ ، فما زلتُ أنظرُ إليها حتَّىٰ أصبحتُ[1] .

وهـٰذهِ المكاشفاتُ لا تكونُ إلا بعدَ التبرِّي عنِ النفسِ ، وعدمِ الالتفاتِ إليها وإلىٰ هواها ، ثمَّ تخصَّصُ هـٰذهِ المكاشفاتُ بحسَبِ أحوالِ المكاشفِ ، فحيثُ يتلو آياتِ الرجاءِ ويغلبُ علىٰ حالهِ الاستبشارُ . . تنكشفُ لهُ صورةُ الجنَّةِ فيشاهدُها كأنَّهُ يراها عِياناً ، وإنْ غلبَ عليهِ الخوفُ . . كوشفَ بالنارِ حتَّىٰ يرىٰ أنواعَ عذابِها ، وذلكَ لأنَّ كلامَ اللهِ تعالىٰ يشتملُ على السهْلِ اللطيفِ ، والشديدِ العسوفِ ، والمرجوِّ والمَخُوفِ ، وذلكَ بحسَبِ أوصافِهِ ؛ إذْ منها الرحمةُ واللطفُ والانتقامُ والبطشُ ، فبحسَبِ مشاهدةِ الكلماتِ والصفاتِ يتقلَّبُ القلْبُ في اختلافِ الحالاتِ ، وبحسَبِ كلِّ حالةٍ

(١) قوت القلوب (١/ ٤٦) .



منها يستعدُّ للمكاشفةِ بأمرٍ يناسبُ تلكَ الحالةَ ويقاربُها ؛ إذْ يستحيلُ أنْ يكونَ حالُ المستمعِ واحداً والمسموعُ مختلفاً ، إذْ فيهِ كلامُ راضٍ وكلامُ غضبانَ ، وكلامُ منعِمٍ وكلامُ منتقمٍ ، وكلامُ جبَّارٍ متكبِّرٍ لا يبالي ، وكلامُ حنَّانٍ متعطِّفٍ لا يهملُ .

* * *

البَابُ الرَّابِعُ
في فهم القرآن وتفسيره بالرّأي من غير نقل

لعلكَ تقولُ : عظَّمْتَ الأمرَ فيما سبقَ في فهْمِ أسرارِ القرآنِ وما ينكشفُ لأربابِ القلوبِ الزكيَّةِ مِنْ معانيهِ ، فكيفَ يستحبُّ ذلكَ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيهِ . فليتبوأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ » ؟![1] وعنْ هـٰذا شنَّعَ أهلُ العلمِ بظاهرِ التفسيرِ علىٰ أهلِ التصرُّفِ[2] منَ المفسرينَ المنسوبينَ إلى التصوُّفِ في تأويلِ كلماتِ القرآنِ علىٰ خلافِ ما نُقِلَ عنِ ابنِ عباسٍ وسائرِ المفسرينَ ، وذهبوا إلىٰ أنَّهُ كفرٌ ، فإنْ صحَّ ما قالَهُ أهلُ التفسيرِ . فما معنىٰ فهمِ القرآنِ سوىٰ حفْظِ تفسيرِهِ ؟ وإنْ لمْ يصحَّ ذلكَ . . فما معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيهِ . فليتبوأْ مقعدَهُ مِنَ النارِ » ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ زعمَ أنْ لا معنىٰ للقرآنِ إلا ما يترجمُهُ ظاهرُ التفسيرِ . . فهوَ مخبرٌ عنْ حدِّ نفسِهِ ، وهوَ مصيبٌ في الإخبارِ عنْ نفسِهِ ، ولكنَّهُ مخطىءٌ في الحكمِ بردِّ الخلقِ كافَّةً إلىٰ درجتِهِ التي هيَ حدُّهُ ومحطُّهُ[3] ، بلِ الأخبارُ

(١) رواه الترمذي (٢٩٥١) .

(٢) أي : في معاني الألفاظ . « إتحاف » (٤/ ٥٢٦) .

(٣) وقد ذكر المصنف فيما سبق : أن هـٰذا الاعتقاد مانع من موانع الفهم كذلك .

والآثارُ تدلُّ علىٰ أنَّ في معاني القرآنِ متسعاً لأربابِ الفهمِ .

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إلا أنْ يُؤتيَ اللهُ عبداً فهماً في القرآنِ)(١) ، فإنْ لمْ يكنْ سوى الترجمةِ المنقولةِ . . فما ذلكَ الفهمُ ؟!

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للقرآنِ ظهراً وبطناً ، وحدّاً ومطلعاً »(٢) ، ويُروىٰ أيضاً عنِ ابنِ مسعودٍ موقوفاً عليهِ وهوَ مِنْ علماءِ التفسيرِ(٣) ، فما معنى الظهْرِ والبطنِ والحدِّ والمطلعِ ؟!

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (لوْ شئتُ . . لأوقرتُ سبعينَ بعيراً مِنْ تفسيرِ فاتحةِ الكتابِ)(٤) ، فما معناهُ وتفسيرُ ظاهرِها في غايةِ الاختصارِ ؟!

وقالَ أبو الدرداءِ : (لا يفقهُ الرجلُ حتَّىٰ يجعلَ للقرآنِ وجوهاً)(٥) .

وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ : (لكلِّ آيةٍ ستونَ ألفَ فهْمٍ وما بقيَ مِنْ فهمِها أكثرُ)(٦) .

---

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٣) بنحوه .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٥) بلفظ : « أنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف ، لكل آية منها ظهر وبطن » ، وهو عند عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٣٥٨) بلفظ : (والذي نفسي بيده ؛ ما منه آية إلا ولها ظهر وبطن ، وما فيه حرف إلا وله حد ، ولكل حد مطلع) من قول الحسن ، ولفظ المصنف هنا عند صاحب « القوت » (١/ ٥١) .

(٣) انظر « قوت القلوب » (١/ ٥١) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٥٠) .

(٥) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢١١).

(٦) رواه أبو طالب في « القوت » (١/ ٥٠) .

وقالَ بعضُهُمْ : (القرآنُ يحوي سبعةً وسبعينَ ألفَ علمٍ ومئتي علمٍ ؛ إذْ لكلِّ كلمةٍ علمٌ ، ثمَّ يتضاعفُ ذلكَ أربعةَ أضعافٍ ؛ إذْ لكلِّ كلمةٍ ظاهرٌ وباطنٌ وحدٌّ ومطلعٌ)[1] .

وترديدُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ) عشرينَ مرَّةً لا يكونُ إلا لتدبُّرِهِ باطنَ معانيها ، وإلا . . فترجمتُها وتفسيرُها ظاهرٌ لا يحتاجُ مثلُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ تكريرٍ[2] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ أرادَ علمَ الأولينَ والآخرينَ . . فليُثَوِّرِ القرآنَ)[3] ، وذلكَ لا يحصلُ بمجردِ تفسيرِهِ الظاهرِ .

وبالجملةِ : فالعلومُ كلُّها داخلةٌ في أفعالِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ ، وفي القرآنِ شرحُ ذاتِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ ، وهـٰذهِ العلومُ لا نهايةَ لها ، وفي القرآنِ إشارةٌ إلىٰ مجامعِها .

* * *

والمقاماتُ في التعمُّقِ في تفصيلِهِ راجعةٌ إلىٰ فهْمِ القرآنِ ، ومجرَّدُ ظاهرِ التفسيرِ لا يشيرُ إلىٰ ذلكَ ، بلْ كلُّ ما أشكلَ على النظَّارِ واختلفَ فيهِ الخلائقُ في النظرياتِ والمعقولاتِ ففي القرآنِ رموزٌ إليهِ ودلالاتٌ عليهِ يختصُّ أهلُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٥٧) .
(٢) رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي » (٥٥١) .
(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٨٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٣٥) .

الفهمِ بدرْكِها ، فكيفَ يفي بذلكَ ترجمةُ ظاهرِهِ وتفسيرُهُ ؟!(١) .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اقرؤوا القرآنَ والتمسوا غرائبَهُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « والذي بعثني بالحقِّ نبياً ؛ لتفترقنَّ أمتي عنْ أصلِ دينِها وجماعتِها على اثنتينِ وسبعينَ فرقةً ، كلُّها ضالَّةٌ مضلَّةٌ يُدعونَ إلى النارِ ، فإذا كانَ ذلكَ . . فعليكُمْ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ فيهِ نبأَ ما كانَ قبلَكُمْ ، ونبأَ ما يأتي بعدَكُمْ ، وحكمَ ما بينَكُمْ ، مَنْ خالفَهُ مِنَ الجبابرةِ . . قصمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، ومَنِ ابتغى العلمَ في غيرِهِ . . أضلَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وهوَ حبْلُ اللهِ المتينُ ، ونورُهُ المبينُ ، وشفاؤُهُ النافعُ ، عصمةٌ لمَنْ تمسَّكَ بهِ ، ونجاةٌ لمَنِ اتبعَهُ ، لا يعوجُّ فيقوَّمَ ، ولا يزيغُ فيستقيمَ ، ولا تنقضي عجائبُهُ ، ولا يخلِقُهُ كثرةُ الردِّ » الحديثَ(٣) .

وفي حديثِ حذيفةَ لمَّا أخبرَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالاختلافِ والفرقةِ بعدَهُ . . قالَ : فقلتُ يا رسولَ اللهِ ؛ فما تأمرني إنْ أدركتُ ذلكَ ؟ فقالَ : « تعلَّمْ كتابَ اللهِ واعملْ بما فيهِ ، فهوَ المخرجُ مِنْ ذلكَ » قالَ :

---

(١) حتىٰ قال الإمام الشافعي في « الرسالة » (ص٢٠) : (فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل علىٰ سبيل الهدىٰ فيها) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٥٣٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٥٦٠) ، وفيهما : (أعربوا) بدل (اقرؤوا) .

(٣) رواه الترمذي (٢٩٠٦) دون ذكر الافتراق ، بل قال : « ألا إنها ستكون فتنة » ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/ ٤٨) .

فأعدتُ عليهِ ذلكَ ثلاثاً ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثاً : « تعلَّمْ كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ واعملْ بما فيهِ ، ففيهِ النجاةُ »[١] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (مَنْ فهِمَ القرآنَ . . فسَّر جملَ العلمِ)[٢] ، أشارَ بهِ إلىٰ أنَّ القرآنَ يشيرُ إلىٰ مجامعِ العلومِ كلِّها .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ يعني : الفهمَ في القرآنِ[٣] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ سمَّىٰ ما آتاهما علماً وحُكْماً ، وخصَّصَ ما انفردَ بهِ سليمانُ بالتفطُّنِ لهُ باسمِ الفهْمِ ، وجعلَهُ مقدَّماً على العلمِ والحكمِ[٤] .

فهـٰذهِ الأمورُ تدلُّ علىٰ أنَّ في فهْمِ معاني القرآنِ مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً ، وأنَّ المنقولَ مِنْ ظاهرِ التفسيرِ ليسَ منتهى الإدراكِ فيهِ .

فأمَّا قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ » ، ونهيُهُ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقولُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أيُّ أرضٍ تقلُّني ، وأيُّ سماءٍ تظلُّني إذا قلتُ في القرآنِ برأيي)[٥] إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا وردَ في

---

(١) رواه أبو داوود (٤٢٤٤) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٧٩٧٨) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٤٩) .
(٣) رواه عنه الطبري في « تفسيره » (٣/ ٣/ ١١٧) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٤٩) .
(٥) رواه القاسم بن سلام في « فضائل القرآن » (ص٣٧٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٦١) .

الأخبارِ والأوتارِ في النهيِ عنْ تفسيرِ القرآنِ بالرأيِ . . فلا يخلو : إمَّا أنْ يكونَ المرادُ بهِ الاقتصارَ على النقلِ والمسموعِ وتركَ الاستنباطِ والاستقلالِ بالفهمِ ، أوِ المرادُ بهِ أمراً آخرَ .

* * *

وباطلٌ قطعاً أنْ يكونَ المرادُ بهِ ألا يتكلَّمَ أحدٌ في القرآنِ إلا بما سمعَهُ لوجوهٍ :

أحدُها : أنَّهُ يشترطُ أنْ يكونَ ذلكَ مسموعاً مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومسنداً إليهِ ، وذلكَ ممَّا لا يُصادَفُ إلا في بعضِ القرآنِ ، فأمَّا ما يقولُهُ ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ مِنْ أنفسِهِمْ . فينبغي ألا يقبلَ ، ويقالَ : هوَ تفسيرٌ بالرأيِ ؛ لأنَّهُمْ لمْ يسمعوهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وكذا غيرُهُمْ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

والثاني : أنَّ الصحابةَ والمفسرينَ اختلفوا في تفسيرِ بعضِ الآياتِ ، فقالوا فيها أقاويلَ مختلفةً لا يمكنُ الجمعُ بينها ، وسماعُ جميعِها مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ محالٌ ، ولوْ كانَ الواحدُ مسموعاً . . لتُرِكَ الباقي ، فتبيَّنَ على القطعِ أنَّ كلَّ مفسِّرٍ قالَ في المعنىٰ بما ظهرَ لهُ باستنباطِهِ ، حتَّىٰ قالوا في الحروفِ التي هيَ أوائلَ السورِ سبعةَ أقاويلَ مختلفةٍ لا يمكنُ الجمعُ بينَها ، فقيلَ : إنَّ ﴿الٓر﴾ هيَ حروفٌ مِنَ الرحمـٰنِ ، وقيلَ : إنَّ الألفَ اللهُ ، واللامَ لطيفٌ ، والراءَ رحيمٌ ،

وقيلَ غيرُ ذلكَ ، والجمعُ بينَ الكلِّ غيرُ ممكنٍ ، فكيفَ يكونُ الكلُّ مسموعاً ؟!

والثالثُ : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دعا لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ وقالَ : « اللهمَّ ، فقهْهُ في الدينِ وعلِّمْهُ التأويلَ »[1] ، فإنْ كانَ التأويلُ مسموعاً كالتنزيلِ ومحفوظاً مثلَهُ . . فما معنىٰ تخصيصهِ بذلكَ ؟!

والرابعُ : أنَّهُ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ ، فأثبتَ لأهلِ العلمِ استنباطاً ، ومعلومٌ أنَّهُ وراءَ السماعِ ، وجملةُ ما نقلناهُ مِنَ الآثارِ في فهمِ القرآنِ يناقضُ هـٰذا الخيالَ ، فبطلَ أنْ يُشترطَ السماعُ في التأويلِ ، وجازَ لكلِّ واحدٍ أنْ يستنبطَ مِنَ القرآنِ بقدْرِ فهمِهِ وحدِّ عقلِهِ[2] .

* * *

وأمَّا النهيُ . . فإنَّهُ ينزَّلُ علىٰ أحدِ وجهينِ :

أحدُهما : أنْ يكونَ لهُ في الشيءِ رأيٌ ، وإليهِ ميْلٌ مِنْ طبعِهِ وهواهُ ، فيتأوَّلُ القرآنَ علىٰ وَفْقِ رأيِهِ وهواهُ ؛ ليحتجَّ علىٰ تصحيحِ غرضِهِ ، ولوْ لمْ يكنْ لهُ ذلكَ الرأيُ والهوىٰ . . لكانَ لا يلوحُ لهُ مِنَ القرآنِ ذلكَ المعنىٰ .

وهـٰذا تارةً يكونُ معَ العلمِ ؛ كالذي يحتجُّ ببعضِ آياتِ القرآنِ علىٰ

---

(١) رواه البخاري (١٤٣) ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (١/ ٢٦٦) .
(٢) لا مطلقاً ، بل مع مراعاة الشروط التي ذكرها العلماء لمريد التفسير والاستنباط ، والتي أشار إلىٰ شيء منها المصنف فيما يأتي .

تصحيحِ بدعتِهِ وهوَ يعلمُ أنَّهُ ليسَ المرادُ بالآيةِ ذلكَ ، ولكنْ يلبِّسُ بهِ علىٰ خصمِهِ .

وتارةً يكونُ معَ الجهلِ ، ولكنْ إذا كانتِ الآيةُ محتمِلةً . . فيميلُ فهمُهُ إلى الوجهِ الذي يوافقُ غرضَهُ ، ويرجِّحُ ذلكَ الجانبَ برأيِهِ وهواهُ ، فيكونُ قدْ فسَّرَ برأيِهِ ؛ أيْ : رأيُهُ هوَ الذي حملَهُ علىٰ ذلكَ التفسيرِ ، ولولا رأيُهُ . . لما كانَ يترجَّحُ عندَهُ ذلكَ الوجهُ .

وتارةً قدْ يكونُ لهُ غرضٌ صحيحٌ ، فيطلبُ لهُ دليلاً مِنَ القرآنِ ، ويستدلُّ عليهِ بما يعلمُ أنَّهُ ما أُريدَ بهِ ؛ كمَنْ يدعو إلى الاستغفارِ بالأسحارِ ، فيستدلُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تسحَّروا فإنَّ في السحورِ بركةً »[1] ، ويزعمُ أنَّ المرادَ بهِ التسحُّرُ بالذكرِ وهوَ يعلمُ أنَّ المرادَ بهِ الأكلُ ، وكالذي يدعو إلىٰ مجاهدةِ القلْبِ القاسي ، فيقولُ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ ويشيرُ إلىٰ قلبِهِ ويومىءُ إلىٰ أنَّهُ المرادُ بفرعونَ .

وهٰذا الجنسُ قدْ يستعملُهُ بعضُ الوعَّاظِ في المقاصدِ الصحيحةِ تحسيناً للكلامِ وترغيباً للمستمعِ ، وهوَ ممنوعٌ ، وقدْ تستعملُهُ الباطنيةُ في المقاصدِ الفاسدةِ لتغريرِ الناسِ ودعوتِهِمْ إلىٰ مذهبِهِمُ الباطلِ ، فينزِّلونَ القرآنَ علىٰ وَفقِ رأيِهِمْ ومذهبِهِمْ علىٰ أمورٍ يعلمونَ قطعاً أنَّها غيرُ مرادةٍ بهِ .

---

(١) رواه البخاري (١٩٢٣) ، ومسلم (١٠٩٥) .

فهـٰذهِ الفنونُ أحدُ وجهي المنعِ مِنَ التفسيرِ بالرأيِ ، ويكونُ المرادُ بالرأيِ الرأيَ الفاسدَ الموافقَ للهوىٰ دونَ الاجتهادِ الصحيحِ ، والرأيُ يتناولُ الصحيحَ والفاسدَ ، والموافقُ للهوىٰ قدْ يخصَّصُ باسمِ الرأيِ .

والوجهُ الثاني : أَنْ يتسارعَ إلىٰ تفسيرِ القرآنِ بظاهرِ العربيةِ مِنْ غيرِ استظهارٍ بالسماعِ والنقلِ فيما يتعلَّقُ بغرائبِ القرآنِ وما فيهِ مِنَ الألفاظِ المبهمةِ والمبدَّلَةِ ، وما فيهِ مِنَ الاختصارِ والحذْفِ والإضمارِ والتقديمِ والتأخيرِ ، فمَنْ لمْ يحكِمْ ظاهرَ التفسيرِ وبادرَ إلى استنباطِ المعاني بمجرَّدِ فهْمِ العربيةِ . . كثرَ غلطُهُ ، ودخلَ في زمرةِ مَنْ يفسِّرُ بالرأيِ ؛ فالنقلُ والسماعُ لا بدَّ منهُ في ظاهرِ التفسيرِ أوَّلاً ، ليتقيَ بهِ مواضعَ الغلطِ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يتسعُ التفهُّمُ والاستنباطُ .

والغرائبُ التي لا تفهمُ إلا بالسماعِ كثيرةٌ ، ونحنُ نرمزُ إلىٰ جملٍ منها ليُستدَلَّ بها علىٰ أمثالِها ، ويُعلمَ أنَّهُ لا يجوزُ التهاونُ بحفْظِ التفسيرِ الظاهرِ أوَّلاً ، ولا مطمعَ في الوصولِ إلى الباطنِ قبلَ إحكامِ الظاهرِ ، ومَنِ ادعىٰ فهمَ أسرارِ القرآنِ ولمْ يحكمِ التفسيرَ الظاهرَ . . فهوَ كمَنْ يدَّعي البلوغَ إلىٰ صدْرِ البيتِ قبلَ مجاوزةِ البابِ ، أوْ يدَّعي فهْمَ مقاصدِ الأتراكِ مِنْ كلامِهِمْ وهوَ لا يفهمُ لغةَ الترْكِ ، فإنَّ ظاهرَ التفسيرِ يجري مَجرىٰ تعليمِ اللغةِ التي لا بدَّ منها للفهمِ .

وما لا بدَّ فيهِ مِنَ السماعِ فنونٌ كثيرةٌ(١) :

منها الإيجازُ بالحذفِ والإضمارِ : كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ معناهُ : آيةً مبصرةً فظلموا أنفسَهُمْ بقتلِها ، فالناظرُ إلىٰ ظاهرِ العربيةِ يظنُّ أنَّ المرادَ بهِ أنَّ الناقةَ كانتْ مبصرةً ولمْ تكنْ عمياءَ ، ولا يدري أنَّهُمْ بماذا ظلموا ، وأنَّهُمْ ظلموا غيرَهُمْ أوْ أنفسَهُمْ(٢) .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أيْ : حبَّ العجلِ ، فحذفَ الحبَّ .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ أيْ : ضعفَ عذابِ الأحياءِ وضعفَ عذابِ الموتىٰ ، فحذفَ العذابَ ، وأبدلَ الأحياءَ والموتىٰ بذكرِ الحياةِ والموتِ ، وكلُّ ذلكَ جائزٌ في فصيحِ اللغةِ .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أيْ : أهلَ القريةِ وأهلَ العيرِ ، فالأهلُ فيهما محذوفٌ مضمرٌ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معناهُ : خفيتْ علىٰ أهلِ

---

(١) عقد لهٰذا البحث الإمام أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٥١) فصلاً سماه : (ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام ، وفيه مدح العالمين وذم الغافلين ، وتفسير الغريب والمشكل) .

(٢) ويجوز نعتها بالمبصرة باعتبارها سبب الإبصار ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ، وانظر « تفسير الطبري » (٩/ ١٥/ ١٣٥) ، و« الدر المصون » (٧/ ٣٧٦) .

السماواتِ والأرضِ ، والشيءُ إذا خفيَ . . ثقلَ ، فأُبدِلَ اللفظُ بهِ وأُقيمَ (في) مقامَ (على) ، وأُضمرَ الأهلُ وحُذفَ[1] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ؛ أيْ : شكرَ رزقِكُمْ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ ؛ أيْ : علىٰ ألسنةِ رسلِكَ ، فحذفَ الألسنةَ[2] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ أرادَ القرآنَ وما سبقَ لهُ ذكرٌ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ أرادَ الشمسَ وما سبقَ لها ذكرٌ[3] .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ؛ أيْ : يقولونَ : ما نعبدُهُمْ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ معناهُ : لا يفقهونَ حديثاً يقولونَ : ما أصابَكَ مِنْ حسنةٍ . . فمنَ اللهِ ، فإنْ لمْ يردْ هٰذا . . كانَ مناقضاً لقولِهِ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وسبقَ إلى الفهمِ منهُ مذهبُ القدريةِ[4] .

---

(١) أي : أهل السماوات وأهل الأرض . « إتحاف » (٤/ ٥٤٥) .
(٢) وهٰذه الآيات التي أوردها المصنف من الأول إلىٰ هنا كلها أمثلة لإيجاز الحذف بأقسامه علىٰ طريق الإجمال . « إتحاف » (٤/ ٥٤٥) .
(٣) وهٰذا من أمثلة المكنى المضمر .
(٤) وهٰذان المثالان من أمثلة المضمر المختصر ، وعلى التحديد حذف القول ، والإلماع إلى القدرية ـ وهم المعتزلة هنا ـ عند صاحب « القوت » (١/ ٥٣) .

ومنها المنقولُ المنقلبُ : كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ؛ أيْ : طورِ سيناءَ[1] ، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ ؛ أيْ : علىٰ إلياسَ ، وقيلَ : إدريسَ ؛ لأنَّ في حرفِ ابنِ مسعودٍ : (سلامٌ علىٰ إدراسينَ)[2] .

* * *

ومنها المكرَّرُ القاطعُ لوصْلِ الكلامِ في الظاهرِ : كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ معناهُ : وما يتبعُ الذينَ يدعونَ مِنْ دونِ اللهِ شركاءَ إلا الظنَّ[3] ، وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ ﴾ معناهُ : الذينَ استكبروا لمنْ آمنَ مِنَ الذينِ استضعفوا[4] .

ومنها المقدَّمُ والمؤخَّرُ : وهوَ مَظِنَّةُ الغلطِ ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴾ معناهُ : **لولا كلمةٌ وأجلٌ مسمًّى . . لكانَ لزاماً** ، ولولاهُ . . لكانَ نَصباً كاللزامِ .

---

(١) وهو مما قلب اسمه لازدواج الكلم كما في « قوت القلوب » (١ / ٥٢) .

(٢) قوت القلوب (١ / ٥٢) ، وهي قراءة ابن مسعود ويحيىٰ والأعمش والمنهال بن عمرو والحكم بن عتيبة ، وقبلها : (وإن إدريس) ، وهو ما يعبر عنه بتخليط العرب بالاسم الأعجمي ، كذا في « المحتسب » (٢ / ٢٢٤) .

(٣) قوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ مردود ـ مكرر ـ ردّه للتوكيد والإفهام ، كأنه لما طال الكلام . . أعيد ليقرب من الفهم . « قوت القلوب » (١ / ٥٣) .

(٤) فلما قدم الذين استضعفوا وكان المراد بعضهم . . كرَّرَ المراد بإعادة ذكر ﴿ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ ﴾ للبيان . « قوت القلوب » (١ / ٥٣) .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أيْ : يسألونكَ عنها كأنَّكَ حفيٌّ .

وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فهٰذا الكلامُ غيرُ متصلٍ ، وإنَّما هوَ عائدٌ إلىٰ قولِهِ السابقِ : ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أيْ : فصارتْ أنفالُ الغنائمِ لكَ إذْ أنتَ راضٍ بخروجِكَ وهمْ كارهونَ ، فاعترضَ بينَ الكلامِ الأمرُ بالتقوىٰ وغيرُهُ .

ومِنْ هٰذا النوعِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآيةَ(١) .

* * *

ومنها المبهمُ : وهوَ اللفظُ المشتركُ بينَ معانٍ مِنْ كلمةٍ أوْ حرفٍ :

ـ أمَّا الكلمةُ : فكالشيءِ ، والقرينِ ، والأمَّةِ ، والروحِ ، ونظائرِها ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أرادَ بهِ النفقةَ ممَّا رُزِقَ .

---

(١) قوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ إنما هو موصول بقوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ ؛ لأنها نزلت في قولهم : فقد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك عند قوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ﴾ فقالوا : فهلا نستغفر لآبائنا المشركين ؟ فنزلت هٰذه الآية ليستثني القدوة في إبراهيم في هٰذا ، ثم نزلت الآية الأخرىٰ معذرة له . « قوت القلوب » (١ / ٥٦) .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ؛ أي : الأمرِ بالعدلِ والاستقامةِ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ ﴾ أرادَ بهِ مِنْ صفاتِ الربوبيةِ ، وهيَ العلومُ التي لا يحلُّ السؤالُ عنها حتَّىٰ يبتدىءَ بها العارفُ في أوانِ الاستحقاقِ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أي : منْ غيرِ خالقٍ ، فربما يتوهَّمُ بهِ أنَّهُ يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يُخلَقُ شيءٌ إلا مِنْ شيءٍ(١) .

وأمَّا القرينُ : فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ أرادَ بهِ الملكَ الموكَّلَ بهِ .

وقولُهُ : ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾ أرادَ بهِ الشيطانَ .

وأمَّا الأمَّةُ : فتطلقُ علىٰ ثمانيةِ أوجهٍ :

الأمةُ : الجماعةُ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ .

وأتباعُ الأنبياءِ ؛ كقولِكَ : نحنُ مِنْ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

والأمةُ : الرجلُ الجامعُ للخيرِ يُقتدىٰ بهِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ .

---

(١) قال صاحب « القوت » (١/ ٥٤) : (روينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن علي رضي الله عنهما قالا : أي : من غير رب ، كيف يكون خلق من غير خالق ؟!) .

والأمةُ : الدِّينُ ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ .

والأمةُ : الحينُ والزمانُ ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ ، وقولِهِ : ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ .

والأمةُ : القامةُ ؛ يقالُ : فلانٌ حسنُ الأمَّةِ ؛ أي : القامةِ .

وأمَّةٌ : رجلٌ منفردٌ بدينٍ لا يشركُهُ فيهِ أحدٌ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُبعَثُ زيدُ بنُ عمرِو بنِ نفيلٍ أمَّةً وحدَهُ »[1] .

والأمةُ : الأمُّ ؛ يقالُ : هٰذهِ أُمَّةُ زيدٍ ؛ أيْ : أمُّ زيدٍ .

والروحُ أيضاً وردَ في القرآنِ بمعانٍ كثيرةٍ ، فلا نطوِّلُ بإيرادِها[2] .

ـ وكذلكَ قدْ يقعُ الإبهامُ في الحروفِ : مثلَ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ فالهاءُ الأولىٰ : كنايةٌ عنِ الحوافرِ ، وهيَ المورياتُ أثرنَ بالحوافرِ نقعاً ، والثانيةُ : كنايةٌ عنِ الإغارةِ ، وهيَ المغيراتُ صبحاً ، فوسطنَ بهِ جمعاً : جمعَ المشركينَ ، فأغاروا بجمعِهِمْ .

وقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾ يعني : بالسحابِ ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يعني : بالماءِ ، وأمثالُ هٰذا في القرآنِ لا ينحصرُ .

* * *

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨١٣١) .
(٢) انظر تفصيلاً فيها في « الإتحاف » (٤/ ٥٥٠) .

ومنها التدريجُ في البيانِ : كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ ، إذْ لمْ يظهرْ بهِ أنَّهُ ليلٌ أَوْ نهارٌ ، وبانَ بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ ، ولمْ يظهرْ أنَّهُ في أيِّ ليلةٍ ، فظهرَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ، وربما يظنُّ في الظاهرِ الاختلافُ بينَ هٰذهِ الآياتِ ، فهٰذا وأمثالُهُ لا يغني فيهِ إلا النقلُ والسماعُ .

والقرآنُ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ غيرُ خالٍ عنْ هٰذا الجنسِ ؛ لأنَّهُ أُنزلَ بلغةِ العربِ ، فكانَ مشتملاً علىٰ أصنافِ كلامِهِمْ ؛ مِنْ إيجازٍ ، وتطويلٍ ، وإضمارٍ ، وحذفٍ ، وإبدالٍ ، وتقديمٍ ، وتأخيرٍ ؛ ليكونَ ذلكَ مفحماً لهُمْ ومعجزاً في حقِّهِمْ .

فكلُّ مَنِ اكتفىٰ بفهْمِ ظاهرِ العربيةِ ، وبادرَ إلىٰ تفسيرِ القرآنِ ولمْ يستظهرْ بالسماعِ والنقلِ في هٰذهِ الأمورِ . . فهوَ داخلٌ فيمَنْ فسَّرَ القرآنَ برأيِهِ ؛ مثلَ أنْ يفهمَ مِنْ لفظِ الأمَّةِ المعنى الأشهرَ منهُ ، فيميلَ طبعُهُ ورأيُهُ إليهِ ، فإذا سمعَهُ في موضعٍ آخرَ . . مالَ رأيُهُ إلىٰ ما سمعَهُ مِنْ مشهورِ معناهُ وتركَ تتبُّعَ النقلِ في كثرةِ معانيهِ ، فهٰذا ما يمكنُ أنْ يكونَ منهيّاً عنهُ دونَ التفهُّمِ لأسرارِ المعاني كما سبقَ ، فإذا حصلَ السماعُ بأمثالِ هٰذهِ الأمورِ . . علمَ ظاهرَ التفسيرِ ، وهوَ ترجمةُ الألفاظِ ، ولا يكفي ذلكَ في فهْمِ حقائقِ المعاني .

ويُدرَكُ الفرقُ بينَ حقائقِ المعاني وظاهرِ التفسيرِ بمثالٍ ، وهوَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ فظاهرُ تفسيرِهِ واضحٌ ،

وحقيقةُ معناهُ غامضٌ ؛ فإنَّهُ إثباتٌ للرمي ونفيٌ لهُ ، وهما متضادانِ في الظاهرِ ما لمْ يفهمْ أنَّهُ رمىٰ مِنْ وجهٍ ولمْ يرمِ مِنْ وجهٍ ، ومِنَ الوجهِ الذي لمْ يرمِ . . رماهُ اللهُ تعالىٰ .

وكذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ فإذا كانوا هم المقاتلينَ . . كيفَ يكونُ اللهُ هوَ المعذِّبَ ؟ وإنْ كانَ اللهُ تعالىٰ هوَ المعذِّبَ بتحريكِ أيديهِمْ . . فما معنىٰ أمرِهِمْ بالقتالِ ؟

فحقيقةُ هـٰذا يستمدُّ مِنْ بحرٍ عظيمٍ مِنْ علومِ المكاشفاتِ ، لا يغني عنهُ ظاهرُ التفسيرِ ، وهوَ أنْ يعلمَ وجهَ ارتباطِ الأفعالِ بالقدرةِ الحادثةِ ، ويفهمَ وجهَ ارتباطِ القدرةِ بقدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّىٰ ينكشفَ بعدَ إيضاحِ أمورٍ كثيرةٍ غامضةٍ صدقُ قولهِ تعالىٰ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ، ولعلَّ العمرَ لوْ أنفقَ في استكشافِ أسرارِ هـٰذا المعنىٰ وما يرتبطُ بمقدماتِهِ ولواحقِهِ[1] . . لانقضى العمرُ قبلَ استيفاءِ جميعِ لواحقِهِ ، وما مِنْ كلمةٍ مِنَ القرآنِ إلا وتحقيقُها محوجٌ إلىٰ مثلِ ذلكَ ، وإنَّما ينكشفُ للراسخينَ في العلمِ مِنْ أسرارِهِ بقدْرِ غزارةِ علومِهِمْ وصفاءِ قلوبِهِمْ ، وتوفُّرِ دواعيهِمْ على التدبُّرِ ، وتجرُّدِهِمْ للطلبِ ، ويكونُ لكلِّ واحدٍ حدٌّ في الترقي إلىٰ أعلىٰ درجةٍ منهُ .

---

(١) التي منها معرفة درجات الكمال ، ثم معرفة الرغبة في طلبه كيف يكون ، ومعرفة تماثل الضدين ، ومعرفة أن واجب الوجود هل يرجع معناه إلىٰ سلب السبب عنه ، أو إلىٰ إضافة الأفعال إليه ، وما نهاية معرفة العارفين ، وكيف تفاوت درجاتهم ، وهل معرفته بالصفات معرفة تامة حقيقية أم لا ؟ وغير ذلك من العلوم التي تتعلق به . « إتحاف » (٤/ ٥٥٣) .

فأمَّا الاستيفاءُ.. فلا مطمعَ فيهِ ، ولوْ كانَ البحرُ مداداً والأشجارُ أقلاماً.. فأسرارُ كلماتِ اللهِ لا نهايةَ لها ، فتنفدُ الأبحرُ قبلَ أنْ تنفدَ كلماتُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فمِنْ هٰذا الوجهِ يتفاوتُ الخلْقُ في الفهْمِ بعدَ الاشتراكِ في معرفةِ ظاهرِ التفسيرِ ، وظاهرُ التفسيرِ لا يغني عنهُ .

ومثالُهُ : فهمُ بعضِ أربابِ القلوبِ مِنْ قولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سجودِهِ : « أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وأعوذُ بمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ ، وأعوذُ بكَ منكَ لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »(١) أنَّهُ قيلَ لهُ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ، فوجدَ القربَ في السجودِ ، فنظرَ إلى الصفاتِ ، فاستعاذَ ببعضِها مِنْ بعضٍ ، فإنَّ الرضا والسخْطَ وصفانِ ، ثمَّ زادَ قربُهُ فاندرجَ القربُ الأوَّلُ فيهِ ، فرقيَ إلى الذاتِ وقالَ : « أعوذُ بكَ منْكَ »(٢) ، ثمَّ زادَ قربُهُ بما استحيا بهِ مِنَ الاستعاذةِ علىٰ بساطِ القرْبِ ، فالتجأَ إلى الثناءِ ، فأثنىٰ بقولِهِ : « لا أحصي ثناءً عليكَ » ، ثمَّ علمَ أنَّ ذلكَ قصورٌ فقالَ : « أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ »(٣) .

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦) .

(٢) وهٰذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ، بل رأىٰ نفسه فارّاً منه إليه ، ففني عن مشاهدة نفسه . « إتحاف » (٤/ ٥٥٤) .

(٣) فأخبر أنه المثني والمثنىٰ عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وكل شيء هالك إلا وجهه . « إتحاف » (٤/ ٥٥٤) .

فهٰذهِ خواطرُ تنفتحُ لأربابِ القلوبِ ، ثمَّ لها أغوارٌ وراءَ هٰذا ، وهوَ فهْمُ معنى القربِ واختصاصِهِ بالسجودِ ، ومعنى الاستعاذةِ مِنْ صفةٍ بصفةٍ ومنهُ بهِ ، وأسرارُ ذلكَ كثيرةٌ ، ولا يدلُّ تفسيرُ ظاهرِ اللفظِ عليها ، وليسَ هوَ مناقضاً لظاهرِ التفسيرِ ، بلْ هوَ استكمالٌ لهُ ، ووصولٌ إلىٰ لُبابِهِ عنْ ظاهرِهِ .

فهٰذا ما نريدُهُ بفهْمِ المعاني الباطنةِ ، لا ما يناقضُ الظاهرَ ، واللهُ أعلمُ [1] .

* * *

تمّ كتاب آداب تلاوة القرآن

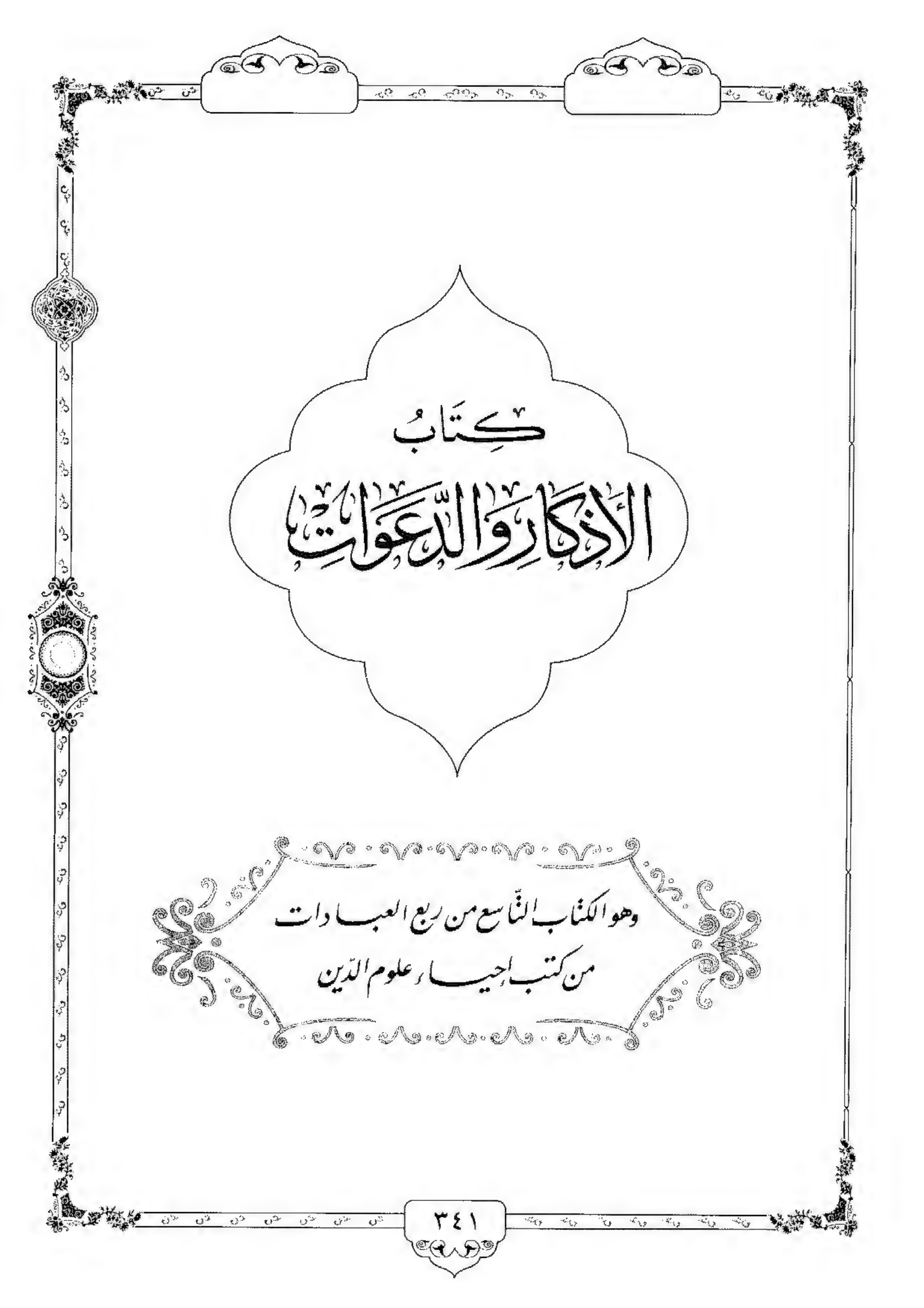
وهو الكتاب الثّامن من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

والحمد لله حقّ حمده ، وصلاته على خير خلقه سيّدنا محمّد النّبيّ وعلىٰ آله الطّاهرين وصحبه الأكرمين

يتلوه كتاب الأذكار والدّعوات

---

(١) جاء في خاتمة (ز) : (قوبل بأصله وصحح) .



كتاب
الأذكار والدعوات

وهو الكتاب التاسع من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب الأذكار والدّعوات

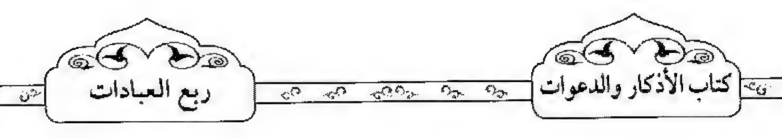
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الشاملةِ رأفتُهُ ، العامَّةِ رحمتُهُ ، الذي جازىٰ عبادَهُ عنْ ذكرِهِمْ بذكرِهِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، ورغَّبَهُمْ في السؤالِ والدعاءِ بأمرِهِ ، فقالَ : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، وأطمعَ المطيعَ والعاصيَ والدانيَ والقاصيَ في الانبساطِ إلىٰ حضرةِ جلالِهِ برفْعِ الحاجاتِ والأماني بقولِهِ : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ أنبيائِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ خيرةِ أصفيائِهِ ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فليسَ بعدَ تلاوةِ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ عبادةٌ تؤدَّىٰ باللسانِ أفضلَ مِنْ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ ، ورفْعِ الحاجاتِ بالأدعيةِ الخالصةِ إلى اللهِ سبحانَهُ ، فلا بدَّ مِنْ شرْحِ فضيلةِ الذكْرِ على الجملةِ ، ثمَّ على التفصيلِ في أعيانِ الأذكارِ ، وشرحِ فضيلةِ الدعاءِ ، وشروطِهِ ، وآدابِهِ ، ونقْلِ المأثورِ مِنَ الدعواتِ الجامعةِ لمقاصدِ الدينِ والدنيا ، والدعواتِ الخاصَّةِ لسؤالِ المغفرةِ أوِ الاستعاذةِ أوْ غيرِها ، ويتحرَّرُ المقصودُ مِنْ ذلكَ بذكْرِ أبوابٍ خمسةٍ :



البابُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الذكرِ وفائدتِهِ جملةً وتفصيلاً .

البابُ الثاني : في فضيلةِ الدعاءِ وآدابِهِ وفضيلةِ الاستغفارِ والصلاةِ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

البابُ الثالثُ : في أدعيةٍ مأثورةٍ ومعزيةٍ إلىٰ أصحابِها وأسبابِها .

البابُ الرابعُ : في أدعيةٍ منتخبةٍ محذوفةِ الإسنادِ مِنَ الأدعيةِ المأثورةِ .

البابُ الخامسُ : في الأدعيةِ المأثورةِ عندَ حدوثِ الحوادثِ .

* * *

البَابُ الأوّلُ
في فضيلة الذكر على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار

ويدلُّ علىٰ فضيلةِ الذكرِ على الجملةِ :

مِنَ الآياتِ :

قولُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، قالَ ثابتٌ البنانيُّ رحمهُ اللهُ : إنِّي أعلمُ متىٰ يذكرُني ربِّي عزَّ وجلَّ ، ففزعوا منهُ وقالوا : كيفَ تعلمُ ذلكَ ؟! فقالَ : إذا ذكرتُهُ . . ذكرَني[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ . . . ﴾ الآيةَ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٢٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٤).

جُنُوبِكُمْ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (أيْ : بالليلِ والنهارِ ، في البرِّ والبحرِ ، والسفرِ والحضرِ ، والغنىٰ والفقرِ ، والمرضِ والصحَّةِ ، والسرِّ والعلانيةِ)[1] .

وقالَ تعالىٰ في ذمِّ المنافقينَ : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (لهُ وجهانِ : أحدُهما : أنَّ ذكرَ اللهِ تعالىٰ لكُمْ أكبرُ مِنْ ذكرِكُمْ إيَّاهُ ، والآخرُ : أنَّ ذكْرَ اللهِ أكبرُ مِنْ كُلِّ عبادةٍ سواهُ)[2] .

إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ .

وأمَّا الأخبارُ :

فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكِرُ اللهِ في الغافلينَ كالشجرةِ الخضراءِ في وَسَطِ الهشيمِ »[3] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٤/ ٤/ ٣٣٥) .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (١١/ ٢٠/ ١٩٣) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٦١) وفيهما : (مثل الشجرة الخضراء في وسط الشجر) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكرُ اللهِ في الغافلينَ كالمقاتلِ بينَ الفارِّينَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ذاكرُ اللهِ في الغافلينَ كالحيِّ بينَ الأمواتِ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : أنا معَ عبدي ما ذكرَني وتحرَّكَتْ بي شفتاهُ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما عملَ ابنُ آدمَ مِنْ عملٍ أنجىٰ لهُ مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ ذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ ؟ قالَ : « ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ إلا أنْ تضربَ بسيفِكَ حتَّىٰ ينقطعَ ، ثمَّ تضربَ بهِ حتَّىٰ ينقطعَ ، ثمَّ تضربَ بهِ حتَّىٰ ينقطعَ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ أنْ يرتعَ في رياضِ الجنَّةِ . . فليكثِرْ ذكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ »[5] .

---

(١) هو القطعة الأولىٰ من الحديث الذي سبق آنفاً .

(٢) قوت القلوب (٢/ ٢٦٥) .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٧٩٢) ، وهو من معلقات البخاري (كتاب التوحيد باب قوله تعالىٰ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٣١٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٥) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٧٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٥٧) .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ : « أنْ تموتَ ولسانُكَ رطبٌ منْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أصبحْ وأمسِ ولسانُكَ رطبٌ بذكرِ اللهِ تصبحْ وتمسي وليسَ عليكَ خطيئةٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ بالغداةِ والعشيِّ أفضلُ مِنْ حطمِ السيوفِ في سبيلِ اللهِ ، ومِنْ إعطاءِ المالِ سحّاً »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إذا ذكرني عبدي في نفسِهِ . . ذكرتُهُ في نفسي ، وإذا ذكرني في ملأٍ . . ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ مِنْ ملئِهِ ، وإذا تقرَّبَ منِّي شبراً . . تقرَّبْتُ منهُ ذراعاً ، وإذا تقرَّبَ منِّي ذراعاً . . تقرَّبْتُ منهُ باعاً ، وإذا مشىٰ إليَّ . . هرولتُ إليهِ »(٤) ، يعني بالهرولةِ : سرعةَ الإجابةِ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١٤١) عن الحسن مرسلاً ، ورواه مرفوعاً ابن حبان في « صحيحه » (٨١٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٥١٣) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو القاسم الأصبهاني في « الترغيب والترهيب » من حديث أنس : « من أصبح وأمسىٰ ولسانه رطب من ذكر الله يمسي ويصبح وليس عليه خطيئة » ، وفيه من لا يعرف) . « إتحاف » (٥/٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١١١٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٩) موقوفاً علىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورواه مرفوعاً بتمامه ابن شاهين في « الترغيب في الذكر » كما في « الإتحاف » (٥/٦) .

(٤) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ » منْ جملتِهِمْ : « رجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَتْ عيناهُ مِنْ خشيةِ اللهِ »(١)

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أنبئُكُمْ بخيرِ أعمالِكُمْ ، وأزكاها عندَ مليكِكُمْ ، وأرفعِها في درجاتِكُمْ ، وخيرٍ لكُمْ مِنْ إعطاءِ الوَرِقِ والذهبِ ، وخيرٍ لكُمْ مِنْ أنْ تلقَوا عدوَّكُمْ فتضربوا أعناقَهُمْ ويضربوا أعناقَكُمْ ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : مَنْ شغلَهُ ذكري عنْ مسألتي . . أعطيتُهُ أفضلَ ما أعطي السائلينَ »(٣) .

＊　＊　＊

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ الفضيلُ : (بلغَنا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : يا بنَ آدمَ ؛ اذكرني بعدَ الصبحِ ساعةً ، وبعدَ العصرِ ساعةً . . أكفِكَ ما بينَهُما)(٤) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : أيُّما عبدٍ اطلعتُ علىٰ

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٧٩٠) ، ووقع في بعض النسخ زيادة كلمة (دائماً) آخره .

(٣) رواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٢/ ١٠٠) ، والبزار في « مسنده » (١٣٧) .

(٤) رواه مرفوعاً أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢١٣) .

قلبِهِ ، فرأيتُ الغالبَ عليهِ التمسُّكَ بذكري . . توليتُ سياستَهُ ، وكنتُ جليسَهُ ومحادثَهُ وأنيسَهُ .

وقالَ الحسنُ : (الذكرُ ذكرانِ : ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ بينَ نفسِكَ وبينَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ما أحسنَهُ وأعظمَ أجرَهُ ! وأفضلُ مِنْ ذلكَ ذكرُ اللهِ سبحانَهُ عندَ ما حرمَ اللهُ عزَّ وجلَّ)(١) .

ويروىٰ أنَّ كلَّ نفسٍ تخرجُ مِنَ الدنيا عطشىٰ إلا ذاكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ يتحسَّرُ أهلُ الجنَّةِ علىٰ شيءٍ إلا علىٰ ساعةٍ مرَّتْ بهِمْ لمْ يذكروا اللهَ تعالىٰ فيها)(٢) ، واللهُ تعالىٰ أعلمُ .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٨٧) عن ميمون بن مهران ، ورواه كذلك في « الحلية » (٥/ ٢٢٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٤) عن بلال بن سعد .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٩٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً .

فضيلة مجالس الذكر

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما جلسَ قومٌ مجلساً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . إلا حفَّتْ بهمُ الملائكةُ ، وغشيتْهُمُ الرحمةُ ، وذكرَهُمُ اللهُ تعالىٰ فيمَنْ عندَهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ قومٍ اجتمعوا يذكرونَ اللهَ تعالىٰ لا يريدونَ بذلكَ إلا وجهَهُ . . إلا ناداهُمْ منادٍ مِنَ السماءِ : قوموا مغفوراً لكُمْ ، قدْ بُدِّلَتْ لكُمْ سيئاتُكُمْ حسناتٍ »(٢) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما قعدَ قومٌ مقعداً لَمْ يذكروا اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ فيهِ ، ولمْ يصلُّوا على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . إلا كانَ عليهِمْ حسرةً يومَ القيامةِ »(٣) .

وقالَ داوودُ عليهِ السلامُ : (إلـٰهي ؛ إذا رأيتني أجاوِزُ مجالسَ الذاكرينَ إلىٰ مجالسِ الغافلينَ . . فاكسرْ رجْلي دونَهُمْ ؛ فإنَّها نعمةٌ تنعِمُ بها عليَّ)(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠) ، وهو بلفظ المصنف عند أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩) كذلك .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٤٢) ، والطبراني في « الأوسط » (١٥٧٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠٨) .

(٣) رواه الترمذي (٣٣٨٠) ، وفيه : (تِرَةً) بدل (حسرة) وهما بمعنىً .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » (٤٥٣) ، وابن أبي الدنيا في « العلم » (١٣٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المجلسُ الصالحُ يكفِّرُ عنِ المؤمنِ ألفي ألفِ مجلسٍ مِنْ مجالسِ السوءِ »(١) .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ أهلَ السماءِ ليتراءونَ بيوتَ أهلِ الأرضِ التي يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ تعالىٰ كما تُراءى النجومُ)(٢) .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ رحمَهُ اللهُ : (إذا اجتمعَ قومٌ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ . . اعتزلَ الشيطانُ والدنيا ، فيقولُ الشيطانُ للدنيا : ألا ترينَ ما يصنعونَ ؟ فتقولُ الدنيا : دعْهُمْ فإنَّهُمْ إذا تفرَّقوا . . أخذتُ بأعناقِهِمْ إليكَ) .

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ دخلَ السوقَ وقالَ : أراكُمْ هٰهنا وميراثُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقسمُ في المسجدِ ! فذهبَ الناسُ إلى المسجدِ وتركوا السوقَ ، فلم يرَوا ميراثاً ، فقالوا : يا أبا هريرةَ ؛ ما رأينا ميراثاً يقسمُ في المسجدِ ، فقالَ : فماذا رأيتُمْ ؟ قالوا : رأينا قوماً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ ويقرؤونَ القرآنَ ، قالَ : فذلكَ ميراثُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ(٣) .

وروى الأعمشُ عنْ أبي صالحٍ ، عنْ أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ الخدريِّ ، عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملائكةً سياحينَ في

---

(١) قال الحافظ العراقي : (ذكره صاحب « الفردوس » [٥٨٣] من حديث أسد بن وداعة ، وهو مرسل ، ولم يخرجه ولده ، وكذلك لم أجد له إسناداً) . « إتحاف » (٥/ ٩) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٦٣) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٤٥١) .

الأرضِ فضلاً عَنْ كتَّابِ الناسِ ، فإذا وجدوا قوماً يذكرونَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . تنادَوا : هلمُّوا إلىٰ بغيتِكُمْ ، فيجيئونَ ، فيَحُفُّونَ بهِمْ إلى السماءِ الدنيا ، فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : أيَّ شيءٍ تركتُمْ عبادي يصنعونَ ؟ فيقولونَ : تركناهُمْ يحمدونَكَ ويمجِّدُونَكَ ويسبِّحونَكَ ، فيقولُ تعالىٰ : وهلْ رأوني ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولُ جلَّ جلالُهُ : كيفَ لوْ رأوني ؟ فيقولونَ : لوْ رأوكَ . . لكانوا أشدَّ تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً ، فيقولُ لهُمْ : مِنْ أيِّ شيءٍ يتعوَّذونَ ؟ فيقولونَ : مِنَ النارِ ، فيقولُ تعالىٰ : وهلْ رأوها ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : فكيفَ لوْ رأوها ؟ فيقولونَ : لوْ رأوها . . لكانوا أشدَّ هرباً منها وأشدَّ نفوراً ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : وأيَّ شيء يطلبونَ ؟ فيقولونَ : الجنَّةَ ، فيقولُ تعالىٰ : وهلْ رأوها ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولُ تعالىٰ : فكيفَ لوْ رأوها ؟ فيقولونَ : لوْ رأوها . . لكانوا أشدَّ عليها حرصاً ، فيقولُ جلَّ جلالُهُ : فإنِّي أشهدُكُمْ أنِّي قدْ غفرتُ لهُمْ ، فيقولونَ : كانَ فيهِمْ فلانٌ لمْ يردْهُمْ ، إنَّما جاءَ لحاجةٍ ! فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : هُمُ القومُ لا يشقىٰ بهِمْ جليسُهُمْ »(١) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٠) عنهما ، وهو عن أبي هريرة في « البخاري » (٦٤٠٨) ، و« مسلم » (٢٦٨٩) بنحوه .

فضيلة التهليل

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ ما قلتُهُ أنا والنبيونَ مِنْ قبلي : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ في يومٍ مئةَ مرَّةٍ . . كانتْ لهُ عدْلَ عشرِ رقابٍ ، وكتبت لهُ مئةُ حسنةٍ ، ومحيتْ عنهُ مئةُ سيئةٍ ، وكانتْ لهُ حرزاً مِنَ الشيطانِ يومَهُ ذلكَ حتىٰ يمسيَ ، ولمْ يأتِ أحدٌ بأفضلَ ممَّا جاءَ بهِ إلا أحدٌ عملَ أكثرَ مِنْ ذلكَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما منْ عبدٍ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ، ثمَّ رفعَ طرفَهُ إلى السماءِ فقالَ : أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ . . إلاَّ فتحتْ لهُ أبوابُ الجنَّةِ يدخلُ مِنْ أيِّها شاءَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ علىٰ أهلِ لا إلـهَ إلا اللهُ وحشةٌ في قبورِهِمْ ولا في نشورِهِمْ ، كأنِّي أنظرُ إليهِمْ عندَ الصيحةِ ينفضونَ رؤوسَهُمْ مِنَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥) .
(٢) رواه البخاري (٣٢٩٣) ، ومسلم (٢٦٩١) .
(٣) رواه أبو داوود (١٦٩) ، وهو عند مسلم (٢٣٤) بنحوه .

الترابِ ويقولونَ : الحمدُ للهِ الذي أذهبَ عنَّا الحزنَ إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً لأبي هريرةَ : « يا أبا هريرةَ ؛ إنَّ كلَّ حسنةٍ تعملُها توزنُ يومَ القيامةِ إلا شهادةَ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، فإنَّها لا توضعُ في ميزانٍ ؛ لأنَّها لوْ وضعتْ في ميزانِ مَنْ قالَها صادقاً ووضعتِ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ وما فيهنَّ . . كانَ لا إلـٰهَ إلا اللهُ أرجحَ مِنْ ذلكَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ جاءَ قائلُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ صادقاً بِقُرابِ الأرضِ ذنوباً . . لغفرَ اللهُ لهُ ذلكَ »(٣) .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٩٤٧٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩) .

(٢) تقدم الكلام تعليقاً علىٰ وصية أبي هريرة ، وروى الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢٥٤) مرفوعاً : « والذي نفسي بيده ؛ لو جيء بالسماوات والأرضين ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن ، فوضعت في كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إلـٰه إلا الله في الكفة الأخرىٰ . . لرجحت بهن » ، ونحوه عند النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦٠٢) ، وهو حديث سيدنا موسىٰ عليه السلام المشهور .

(٣) الذي رواه مسلم (٢٦٨٧) مرفوعاً حديثاً قدسياً : « ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركُ بي شيئاً . . لقيته بمثلها مغفرة » ، ومعنى التهليل في قوله : « لا يشرك بي شيئاً » ، وعند الترمذي (٣٥٤٠) : « يا بن آدم ؛ إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً . . لأتيتك بقرابها مغفرة » .
وروى ابن عدي في « الكامل » (٥/ ٦٤) : أن رجلاً جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما لي إن شهدت أن لا إلـٰه إلا الله وكبرته وحمدته وسبحته ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبراهيم سأل ربه عز وجل فقال : يا رب ؛ ما جزاء من هلل =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ لقِّنِ الموتىٰ شهادةَ أنْ لا إلـٰهَ إلا اللهُ ؛ فإنَّها تهدِمُ الذنوبَ هدْماً » ، قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا للموتىٰ فكيفَ للأحياءِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هيَ أهدمُ وأهدمُ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ لا إلـٰهَ إلا اللهُ مخلصاً . . دخلَ الجنَّةَ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لتدخلُنَّ الجنَّةَ كلُّكُمْ إلا مَنْ أبىٰ وشردَ على اللهِ عزَّ وجلَّ شرادَ البعيرِ علىٰ أهلهِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنِ الذي يأبى ؟ قالَ : « مَنْ لمْ يقلْ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ »[3] ، فأكثروا مِنْ قولِ : لا إلـٰهَ

= مخلصاً من قلبه ؟ فقال : يا إبراهيم ؛ جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب . . . » الحديث .

(١) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ٢١٨٩) مرفوعاً ، ورواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٣٨٧) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٥٤) ، وتمامه عند الطبراني : قيل : وما إخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن محارم الله عز وجل » .

(٣) إلىٰ هنا في « البخاري » (٧٢٨٠) مرفوعاً : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ » ، قالوا : يا رسول الله ؛ ومن يأبى ؟ قال : « من أطاعني . . دخل الجنة ، ومن عصاني . . فقد أبىٰ » ، وعند الطبراني في « الأوسط » (٨١٢) مرفوعاً : « والذي نفسي بيده ؛ لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبىٰ وشرد على الله شراد البعير » الحديث .

إلا اللهُ قبلَ أنْ يحالَ بينَكُمْ وبينَها[١] ، فإنَّها كلمةُ التوحيدِ[٢] ، وهيَ كلمةُ الإخلاصِ ، وهيَ كلمةُ التقوىٰ[٣] ، وهيَ الكلمةُ الطيبةُ[٤] ، وهيَ دعوةُ الحقِّ[٥] ، وهيَ العروةُ الوثقىٰ[٦] ، وهيَ ثمنُ الجنَّةِ »[٧] .

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ، فقيلَ : الإحسانُ في الدنيا : قولُ لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، وفي الآخرةِ : الجنَّةُ[٨] ، وكذا قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[٩] .

وروى البراءُ بنُ عازبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ

---

(١) هـٰذه القطعة رواها أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٤٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٤/ ١٠٤) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/ ٢٤٨) .

(٢) روىٰ أبو الشيخ في « الثواب » من حديث الحكم بن عمير مرسلاً : « إذا قلت : لا إلـٰه إلا الله . . فهي كلمة التوحيد » الحديث . « إتحاف » (٥/ ١١) .

(٣) كونها كلمة الإخلاص وكلمة التقوىٰ عند أحمد في « المسند » (١/ ٦٣) ، وسماها النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة الإخلاص كذلك عند الطبراني في « الدعاء » (٤٧٧) .

(٤) روىٰ ذلك الطبراني في « الدعاء » (١٥٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) روىٰ ذلك الطبراني في « الدعاء » (١٥٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٦) روىٰ ذلك الطبراني في « الدعاء » (١٥٦٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٧) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٣٤٨) .

(٨) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٥٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٩) رواه الطبري في « تفسيره » (٧/ ١١/ ١٣٧) .

عشرَ مراتٍ . . كانتْ لهُ عدْلَ رقبةٍ أوْ نسمةٍ »[١] .

وروىٰ عمرُو بنُ شعيبٍ ، عنْ أبيهِ ، عنْ جدِّهِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ قالَ في يومٍ مئتي مرَّةٍ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . . لمْ يسبقْهُ أحدٌ كانَ قبلَهُ ، ولا يدركُهُ أحدٌ كانَ بعدَهُ إلا مَنْ عملَ بأفضلَ مِنْ عملِهِ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ في سوقٍ مِنَ الأسواقِ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . . كتبَتْ لهُ ألفُ ألفِ حسنةٍ ومُحيتْ عنهُ ألفُ ألفِ سيئةٍ ، وبُنيَ لهُ بيتٌ في الجنَّةِ »[٣] .

ويُروىٰ : « أن العبدَ إذا قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ . . أتتْ علىٰ صحيفتِهِ فلا تمرُّ علىٰ خطيئةٍ إلا محتْها ، حتَّىٰ تجدَ حسنةً مثلَها فتجلسَ إلىٰ جنبِها »[٤] .

---

(١) رواه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (٧٤٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٠٦٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١٨٥ ، ٢١٤) .

(٣) رواه الترمذي (٣٤٢٨) ، وابن ماجه (٢٢٣٥) عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً ، وأشار الدارقطني في « علله » (٢/ ٤٩) إلىٰ رواية وقفه عليه ، وهو بزيادة المصنف : « وبني له . . . » عند ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٨٢) .

(٤) روىٰ أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٦١١) مرفوعاً : « ما قال عبد : لا إلـه إلا الله في ساعة من ليل أو نهار . . إلا طمستْ ما في صحيفته من السيئات حتىٰ يسكن إلىٰ مثلها من الحسنات » .

وفي الصحيحِ عنْ أبي أيوبَ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ عشرَ مراتٍ . . كانَ كمَنْ أعتقَ أربعةَ أنفسٍ مِنْ ولدِ إسماعيلَ عليهِ السلامُ »[1] .

وفي الصحيحِ أيضاً عنْ عبادةَ بنِ الصامتِ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ تعارَّ مِنَ الليلِ ، فقالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، الحمدُ للهِ ، وسبحانَ اللهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي أَوْ دعا . . استجيبَ لهُ ، فإنْ توضَّأَ وصلَّىٰ . . قبلَتْ صلاتُهُ »[2] .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) .
(٢) رواه البخاري (١١٥٤) ، **والتعارُّ** : السهر والتقلب على الفراش ليلاً .

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سبَّحَ اللهَ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ ، وحمدَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ ، وكبَّرَ اللهَ ثلاثاً وثلاثينَ ، وختمَ المئةَ بلا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ . . غفرَتْ ذنوبُهُ ولوْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ في يومٍ مئةَ مرَّةٍ . . حُطتْ خطاياهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ »(٢) .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً جاءَ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : تولَّتْ عنِّيَ الدنيا ، وقلَّتْ ذاتُ يدي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فأينَ أنتَ منْ صلاةِ الملائكةِ وتسبيحِ الخلائقِ وبها يرزقونَ ؟ » قالَ : فقلتُ : وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « قلْ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ ، أستغفرُ اللهَ مئةَ مرَّةٍ ما بينَ طلوعِ الفجرِ إلىٰ أنْ تصلِّيَ الصبحَ . . تأتيكَ الدنيا راغمةً صاغرةً ، ويخلقُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ كلِّ كلمةٍ ملكاً يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ إلىٰ يومِ القيامةِ لكَ ثوابُهُ »(٣) .

---

(١) رواه مسلم (٥٩٧) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٩١) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه المستغفري في « الدعوات » من حديث ابن عمر وقال : غريب من حديث مالك ، ولا أعرف له أصلاً في حديث مالك ، ولأحمد من حديث =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا قالَ العبدُ : الحمدُ للهِ . . ملأتْ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، فإذا قالَ : الحمدُ للهِ الثانيةَ . . ملأتْ ما بينَ السماءِ السابعةِ إلى الأرضِ السفلىٰ ، فإذا قالَ : الحمدُ للهِ الثالثةَ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : سلْ تعطَ »(١) .

وقالَ رفاعةُ الزُّرَقيُّ : كنَّا يوماً نصلِّي وراءَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا رفعَ رأسَهُ مِنَ الركوعِ وقالَ : « سمعَ اللهُ لمَنْ حمدَهْ » . . قالَ رجلٌ وراءَهُ : ربَّنا ولكَ الحمدُ حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيهِ ، فلمَّا انصرفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ صلاتِهِ . . قالَ : «مَنِ المتكلِّمُ آنفاً؟» قال : أنا يا رسولَ اللهِ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقدْ رأيتُ بضعةً وثلاثينَ ملكاً يبتدرونَها أيُّهُمْ يكتبُها أوَّلاً »(٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الباقياتُ الصالحاتُ هُنَّ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، وسبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ »(٣) .

= عبد الله بن عمر [٢/ ١٧٠] : أن نوحاً قال لابنه : آمرك بلا إلـٰه إلا الله ، الحديث ، ثم قال : سبحان الله وبحمده ؛ فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق ، وإسناده صحيح) . « إتحاف » (٥/ ١٣) .

(١) قال الحافظ العراقي : (غريب بهـٰذا اللفظ لم أجده) . « إتحاف » (٥/ ١٤) ، إذ المشهور هو حديث مسلم (٢٢٣) وفيه : « والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض » .

(٢) رواه البخاري (٧٩٩) ، وفيه : فلما انصرف . . قال : « من المتكلم ؟ » قال : أنا ، قال : « رأيت بضعة . . . » .

(٣) رواه بلفظ المصنف الضياء في « الأحاديث المختارة » (٣٢٣) موقوفاً علىٰ عثمان =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما على الأرضِ رجلٌ يقولُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، وسبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ . . إلا غفرَتْ ذنوبُهُ ولوْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ » ، رواهُ ابنُ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما[1] .

وروى النعمانُ بنُ بشيرٍ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « الذي تذكرونَ مِنْ جلالِ اللهِ وتسبيحِهِ وتهليلِهِ وتحميدِهِ ينعطفْنَ حولَ العرشِ لهُنَّ دويٌّ كدويِّ النحْلِ يُذَكِّرُ بصاحبِهِ ، أوَلا يحبُّ أحدُكُمْ ألا يزالَ عندَ اللهِ تعالىٰ مَنْ يُذَكِّرُ بهِ ؟ »[2] .

وروىٰ أبو هريرةَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لأَنْ أقولَ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ . . أحبُّ إليَّ ممَّا طلعَتْ عليهِ الشمسُ »[3] ، وفي روايةٍ أخرىٰ زادَ : « ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ » وقالَ : « هي خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّ الكلامِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أربعٌ :

= رضي الله عنه ، وهو بنحوه عند النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٥٤) مرفوعاً ، بغير زيادة : « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٠) ، وجاء في النسخ : (عمر) بدل (عمرو) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٠٩) .

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٥) .

(٤) قال الحافظ العراقي : (رواها المستغفري في « الدعوات » من رواية مالك بن دينار : أن أبا أمامة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : قلت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر . . خير من الدنيا وما فيها ، قال : « أنت أغنم القوم » ، وهو مرسل جيد الإسناد) . « إتحاف » (٥/ ١٤) .

سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، لا يضرُّكَ بأيِّهِنَّ بدأتَ » . رواهُ سَمُرَةُ بنُ جُندُبٍ[(١)] .

ورَوىٰ أبو مالكٍ الأشعريُّ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يقولُ : « الطُّهورُ شطْرُ الإيمانِ ، والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ ، وسبحانَ اللهِ واللهُ أكبرُ تملأُ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، والصلاةُ نورٌ ، والصدقةُ برهانٌ ، والصبرُ ضياءٌ ، والقرآنُ حجَّةٌ لكَ أوْ عليكَ ، كلُّ الناسِ يغدو ؛ فبائعٌ نفسَهُ فمعتقُها أوْ موبقُها »[(٢)] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ ، ثقيلتانِ في الميزانِ ، حبيبتانِ إلى الرحمـٰنِ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ »[(٣)] .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الكلامِ أحبُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اصطفى اللهُ عزَّ وجلَّ لملائكتِهِ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ »[(٤)] .

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٧) .
(٢) رواه مسلم (٢٢٣) بنحوه ، وهو بلفظ المصنف هنا : « وسبحان الله والله أكبر . . . » رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٨٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٤٢) .
(٣) رواه البخاري (٦٦٨٢) ، ومسلم (٢٦٩٤) .
(٤) رواه مسلم (٢٧٣١) بنحوه ودون زيادة : « سبحان الله العظيم » ، وعند الترمذي (٣٥٩٣) بلفظ المصنف ، ولفظ المرفوع فيه : « ما اصطفى الله لملائكته : سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده » ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ١٥) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالى اصطفىٰ مِنَ الكلامِ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، فإذا قالَ العبدُ : سبحانَ اللهِ . . كُتِبَ لهُ عشرونَ حسنةً ، وحُطَّ عنهُ عشرونَ سيئةً ، وإذا قالَ : اللهُ أكبرُ . . فمثلُ ذلك » ، وذكرَ إلىٰ آخرِ الكلماتِ[١] .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ . . غرستْ لهُ نخلةٌ في الجنَّةِ »[٢] .

وعنْ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : قالَ الفقراءُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ذهبَ أهلُ الدثورِ بالأجورِ ؛ يصلُّونَ كما نصلِّي ، ويصومونَ كما نصومُ ، ويتصدَّقونَ بفضولِ أموالِهِمْ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَليسَ قدْ جعلَ اللهُ لكُمْ ما تصدَّقونَ بهِ ؟! إنَّ لكمْ بكلِّ تسبيحةٍ صدقةً ، وتحميدةٍ صدقةً ، وتهليلةٍ صدقةً ، وتكبيرةٍ صدقةً ، وأمرٌ بمعروفٍ صدقةٌ ، ونهيٌ عنْ منكرٍ صدقةٌ ، ويضعُ أحدُكُمْ اللقمةَ في في أهلِهِ فهيَ لهُ صدقةٌ ، وفي بُضْعِ أحدِكُمْ صدقةٌ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ يأتي أحدُنا شهوتَهُ ويكونُ لهُ فيها أجرٌ ؟! قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرأيتُمْ لوْ وضعَها في حرامٍ . . أكانَ عليهِ فيها وزرٌ ؟ قالُوا : نعمْ ، قالَ : كذلكَ إنْ وضعَها في الحلالِ . . كانَ لهُ فيها أجرٌ »[٣] .

---

(١) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٤٦) ، وفي ثواب : « الحمد لله » قال : « كتب له ثلاثون حسنة ، وحطت عنه ثلاثون سيئة » .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٦٤) .

(٣) رواه مسلم (١٠٠٦) .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : قلتُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : سبقَ أهلُ الأموالِ بالأجرِ ؛ يقولونَ ما نقولُ ، وينفقونَ ولا ننفقُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفلا أدلُّكَ علىٰ عملٍ إذا أنتَ فعلتَهُ . . أدركتَ مَنْ قبلَكَ ، وفُتَّ مَنْ بعدَكَ إلا منْ قالَ مثلَ قولِكَ ؟ تسبِّحُ اللهَ بعدَ كلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ ، وتحمدُ ثلاثاً وثلاثينَ ، وتكبِّرُ أربعاً وثلاثينَ »[1] .

وروتْ يُسَيْرَةُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « عليكنَّ بالتسبيحِ والتهليلِ والتقديسِ ، فلا تغفلْنَ ، واعقدْنَ بالأناملِ ؛ فإنَّها مستنطَقاتٌ »[2] ، يعني : بالشهادةِ في القيامةِ .

وقالَ ابنُ عمرٍو : (رأيتُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعقدُ التسبيحَ)[3] .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما شهدَ عليهِ أبو هريرةَ وأبو سعيدٍ الخدريُّ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إذا قالَ العبدُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ . . قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : صدقَ عبدي ، لا إلـٰهَ إلا أنا ، وأنا أكبرُ ، وإذا قالَ العبدُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ . . قالَ اللهُ تعالىٰ : صدقَ عبدي ، لا إلـٰهَ إلا أنا وحدِي لا شريكَ لي ، وإذا قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ،

---

(١) رواه ابن ماجه (٩٢٧) ، والمرفوع بصيغة الجمع ، وفيه قول ابن عيينة : (لا أدري أيتهن أربع) ، وهو بلفظ المصنف عند النسائي في « عمل اليوم والليلة » (١٤٧) عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داوود (١٥٠١) ، والترمذي (٣٥٨٣) .

(٣) رواه أبو داوود (١٥٠٢) ، والترمذي (٣٤١١) ، والنسائي (٣/ ٧٩) ، ووقع في النسخ : (عمر) بدل (عمرو) .

ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ . . يقولُ اللهُ تعالىٰ : صدقَ عبدي ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بي ، ومَنْ قالَهُنَّ عندَ الموتِ . . لمْ تمسَّهُ النارُ »(١) .

وروىٰ مصعبُ بنُ سعدٍ عنْ أبيهِ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أيعجِزُ أحدُكُمْ أنْ يكسبَ كلَّ يومٍ ألفَ حسنةٍ ؟ فقيلَ : كيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ مئةَ تسبيحةٍ ، فيُكتبُ لهُ ألفُ حسنةٍ ، ويُحطُّ عنهُ ألفُ سيئةٍ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ اللهِ بنَ قيسٍ ، أَوْ يا أبا موسىٰ ؛ ألا أدلُّكَ علىٰ كنزٍ مِنْ كنوزِ الجنَّةِ ؟ » قالَ : بلىٰ ، قالَ : « قل : لا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ »(٣) .

وفي روايةٍ أخرىٰ : « ألا أعلِّمكَ كلمةً مِنْ تحتِ العرشِ : لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ »(٤) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أدلُّكَ علىٰ عملٍ مِنْ كنزِ الجنَّةِ مِنْ تحتِ العرشِ ، قولُ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ ، يقولُ اللهُ تعالىٰ : أسلَمَ عبدي واستسلمَ »(٥) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٣٠) ، وابن ماجه (٣٧٩٤) بنحوه .
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٨) والعطف فيه بـ « أو » ، وبرواية المصنف عند الترمذي (٣٤٦٣).
(٣) رواه البخاري (٤٢٠٥) ، ومسلم (٢٧٠٤) ، وعبد الله بن قيس هو سيدنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه .
(٤) رواه النسائي في « السنن الكبرى » (٩٧٥٧) .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٩٨) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ حينَ يصبحُ : رضيتُ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبالقرآنِ إماماً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيّاً ورسولاً . . كانَ حقّاً على اللهِ سبحانَهُ أنْ يرضيَهُ يومَ القيامةِ » ، وفي روايةٍ : « مَنْ قالَ ذلك . . رضيَ اللهُ عنهُ »[1] .

وقالَ مجاهدٌ : (إذا خرجَ الرجلُ مِنْ بيتِهِ فقالَ : باسمِ اللهِ . . قالَ الملكُ : هديتَ ، فإذا قالَ : توكلتُ على اللهِ . . قالَ الملكُ : كفيتَ ، وإذا قالَ : لا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ . . قالَ الملكُ : وقيتَ ، فتتفرَّقُ عنهُ الشياطينُ ، فيقولونَ : ما تريدونَ مِنْ رجلٍ قدْ هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ ؟ لا سبيلَ لكمْ إليهِ)[2] .

* * *

فإنْ قلتَ : فما بالُ ذكرِ اللهِ سبحانَهُ معَ خفَّتِهِ على اللسانِ وقلَّةِ التعبِ فيهِ . . صارَ أفضلَ وأنفعَ مِنْ جملةِ العباداتِ معَ كثرةِ المشقَّاتِ فيها ؟

فاعلمْ : أنَّ تحقيقَ هٰذا لا يليقُ إلا بعلمِ المكاشفةِ ، والقدْرُ الذي يُسمحُ بذكرِهِ في علمِ المعاملةِ أنَّ المؤثِّرَ النافعَ هوَ الذكرُ على الدوامِ معَ حضورِ القلبِ ، فأمَّا الذكرُ باللسانِ والقلبُ لاهٍ . . فهوَ قليلُ الجدوىٰ ، وفي الأخبارِ

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠٧٢) ، والترمذي (٣٣٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٧٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٩٥) عن مجاهد ، وهو عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٩٨١٤) عنه ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب الأحبار ، ونحوه عند ابن ماجه (٣٨٨٦) مرفوعاً من غير طريق مجاهد .

ما يدلُّ علىٰ ذلكَ أيضاً[١] ، وحضورُ القلبِ في لحظةٍ بالذكرِ والذهولُ عنِ اللهِ تعالىٰ معَ الاشتغالِ بالدنيا أيضاً قليلُ الجدوىٰ ، بلْ حضورُ القلبِ معَ اللهِ تعالىٰ على الدوامِ أوْ في أكثرِ الأوقاتِ هوَ المقدَّمُ على العباداتِ ، بلْ بهِ تَشْرُفُ سائرُ العباداتِ ، وذلكَ هوَ غايةُ ثمرةِ العباداتِ العمليَّةِ .

* * *

وللذكرِ أوَّلٌ وآخرٌ ، فأوَّلُهُ يوجبُ الأُنسَ والحبَّ ، وآخرُهُ يوجبُهُ الأُنسُ والحبُّ ويصدرُ عنهُ ، والمطلوبُ هوَ ذلكَ الأنسُ والحبُّ ، فإنَّ المريدَ في بدايةِ الأمرِ قدْ يكونُ متكلِّفاً بصرْفِ قلبهِ ولسانِهِ عنِ الوسواسِ إلىٰ ذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنْ وُفِّقَ للمداومةِ . . أنسَ بهِ ، وانغرسَ في قلبهِ حبُّ المذكورِ .

ولا ينبغي أنْ يُتعجَّبَ مِنْ هـٰذا ، فإنَّ مِنَ المشاهَدِ في العاداتِ أنْ يُذكرَ غائبٌ غيرُ مشاهدٍ بينَ يدي شخصٍ ويكرَّرَ ذكرُ خصالِهِ عندَهُ فيحبَّهُ ، وقدْ يعشقُ بالوصْفِ وكثرةِ الذكرِ ، ثمَّ إذا عشقَ بكثرةِ الذكرِ المتكلَّفِ أوّلاً . . صارَ مضطراً إلىٰ كثرةِ الذكرِ آخراً ، بحيثُ لا يصبرُ عنهُ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ مِنْ ذكرِهِ ، ومَن أكثرَ ذكرَ شيءٍ وإنْ كانَ تكلُّفاً . . أحبَّهُ ؛ فكذلكَ أوَّلُ الذكرِ متكلَّفٌ إلىٰ أنْ يثمرَ الأُنسَ بالمذكورِ والحبَّ لهُ ، ثمَّ يمتنعُ الصبرُ عنهُ آخراً ، فيصيرُ الموجَبُ موجِباً والثمرةُ مثمراً .

---

(١) قال تعالىٰ : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ، وروى الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة مرفوعاً : « ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ » .

وهـٰذا معنىٰ قولِ بعضِهِمْ : (كابدتُ القرآنَ عشرينَ سنةً ، ثمَّ تنعمتُ بهِ عشرينَ سنةً)[1] ، ولا يصدرُ التنعُّمُ إلا مِنَ الأُنسِ والحبِّ ، ولا يصدرُ الأنسُ إلا مِنَ المداومةِ على المكابدةِ والتكلُّفِ مدَّةً طويلةً ، حتَّىٰ يصيرَ المتكلَّفُ طبعاً .

وكيفَ يُستبعدُ هـٰذا وقدْ يتكلَّفُ الإنسانُ تناولَ طعامٍ يستبشعُهُ أوَّلاً ، ويكابدُ أكلَهُ ، ويواظبُ عليهِ ، فيصيرُ موافقاً لطبعِهِ ، حتَّىٰ لا يصبرُ عنهُ ! فالنفسُ معتادةٌ متحمِّلةٌ لما تتكلَّفُ ، وقدْ قيلَ[2] : [من الطويل]

هيَ النَّفْسُ ما عوَّدْتَها تَتَعَوَّدُ ....

أيْ : ما كلفْتَها أوَّلاً يصيرُ لها طبعاً آخراً .

ثمَّ إذا حصلَ الأنسُ بذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ .. انقطعَ عنْ غيرِ ذكْرِ اللهِ سبحانَهُ ، وما سوى اللهِ سبحانَهُ هوَ الذي يفارقُهُ عندَ الموتِ ، فلا يبقىٰ معَهُ في القبرِ أهلٌ ولا مالٌ ولا ولدٌ ولا ولايةٌ ، ولا يبقىٰ إلا ذكرُ اللهِ سبحانَهُ[3] ،

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٠) ، ولفظه : (الصلاة) بدل (القرآن) ، وهو بلفظ المصنف في « القوت » (١/ ٥٠) .

(2) أصل هـٰذا الشعر لعلي بن الجهم في «ديوانه» (ص١٧٢)، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٢١).

(3) أي : يبقىٰ ذكر الله تعالىٰ عملاً للذاكر بعد الموت ولا ينقطع ، لا أن أجره فقط هو الذي يبقىٰ ؛ إذ كل الأعمال الصالحات أجرها باقٍ بعد الموت ، قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥/ ٢٢) : (وما ورد في الخبر : « إذا مات ابن آدم .. انقطع عمله إلا من ثلاث » الحديث .. فإن المراد عمله الدنيوي ، وهو في عالم الملك ، وأما ذكر الله .. فهو في عالم الملكوت ، فهو كالمستثنىٰ في الأعمال) . وسيفصل المصنف ذلك .

فإنْ كانَ قدْ أنسَ بهِ . . تمتَّعَ بهِ ، وتلذَّذَ بانقطاعِ العوائقِ الصارفةِ عنهُ ؛ إذْ ضروراتُ الحاجاتِ في الحياةِ الدنيا تصدُّ عنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا يبقىٰ بعدَ الموتِ عائقٌ ، فكأنَّهُ خُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ ، فعظمَتْ غبطتُهُ ، وتخلَّصَ مِنَ السجنِ الذي كانَ ممنوعاً فيهِ عمَّا بهِ أنسُهُ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القُدُسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ ما أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ » ، أرادَ بهِ كلَّ ما يتعلَّقُ بالدنيا ، فإنَّ ذلكَ يفنىٰ في حقِّهِ بالموتِ ، فكلُّ مَنْ عليها فانٍ ، ويبقىٰ وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرامِ .

وإنَّما تفنى الدنيا بالموتِ في حقِّهِ إلىٰ أنْ تفنىٰ في نفسِهَا عندَ بلوغِ الكتابِ أجلَهُ ، وهـٰذا الأنسُ يتلذَّذُ بهِ العبدُ بعدَ موتِهِ إلىٰ أنْ ينزلَ في جوارِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويترقَّىٰ مِنَ الذكرِ إلى اللقاءِ ، وذلكَ بعدَ أنْ يُبعثَرَ ما في القبورِ ، ويحصَّلَ ما في الصدورِ .

ولا ينكرنَّ بقاءَ ذكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ معهُ بعدَ الموتِ فيقولَ : إنَّهُ أعدمَ ، فكيفَ يبقىٰ معهُ ذكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

فإنَّهُ لمْ يُعدمْ عدماً يمنعُ الذكرَ ، بل عدماً مِنَ الدنيا وعالمِ الملكِ والشهادةِ ، لا مِنْ عالمِ الملكوتِ ، وإلىٰ ما ذكرناهُ الإشارةُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القبرُ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النارِ ، أوْ روضةٌ مِنْ رياضِ الجنَّةِ»[1] ، وبقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرواحُ الشهداءِ في حواصلِ طيرٍ

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٠) .

خضْرٍ »(١) ، وبقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لقتلىٰ بدرٍ مِنَ المشركينَ : « يا فلانُ يا فلانُ ـ وقدْ سمَّاهُمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ : هلْ وجدتُمْ ما وعدَكُمْ ربُّكُمْ حقّاً ؟ فإنِّي قدْ وجدتُ ما وعدَني ربِّي حقّاً » ، فسمعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ يسمعونَ ، وأنَّىٰ يجيبونَ وقدْ جَيَّفُوا ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما أنتمْ بأسمعَ لكلامي منهُمْ ، ولكنَّهُمْ لا يقدرونَ أنْ يجيبوا » ، والحديثُ في « الصحيحِ »(٢) ، هٰذا قولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في المشركينَ .

وأمَّا المؤمنونَ والشهداءُ . . فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أرواحُهُمْ في حواصلِ طيرٍ خُضْرٍ معلَّقةٍ تحتَ العرشِ »(٣) ، وهٰذهِ الحالةُ وما أشيرَ بهٰذهِ الألفاظِ إليهِ لا ينافي ذكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآيةَ ، ولأجلِ شرفِ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ عظمَتْ رتبةُ الشهادةِ ؛ لأنَّ المطلوبَ الخاتمةُ ، ونعني بالخاتمةِ : وداعَ الدنيا والقدومَ على اللهِ عزَّ وجلَّ والقلبُ مستغرقٌ باللهِ تباركَ وتعالىٰ منقطعُ العلائقِ عنْ غيرِهِ ، فإنْ قدرَ عبدٌ

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٧) ، وعند أبي داوود (٢٥٢٠) بنحوه مصرحاً برفعه في شهداء أحد .

(٢) أي : في « صحيح مسلم » (٢٨٧٥) ، وجَيَّفوا : أنتنوا .

(٣) رواه ابن ماجه (١٤٤٩) في أرواح المؤمنين خاصة ، والذي سبق في أرواح الشهداء .

علىٰ أنْ يجعلَ همَّهُ مستغرقاً باللهِ عزَّ وجلَّ. . فلا يقدرُ علىٰ أنْ يموتَ علىٰ تلكَ الحالةِ إلاَّ في صفِّ القتالِ ؛ فإنَّهُ قطعَ الطمعَ عنْ مهجتِهِ وأهلِهِ ومالِهِ وولدِهِ ، بلْ مِنَ الدنيا كلِّها ، فإنَّهُ يريدُ ذلكَ لحياتِهِ ، وقدْ هوَّنَ علىٰ قلبِهِ حياتَهُ في حبِّ اللهِ عزَّ وجلَّ وطلبِ مرضاتِهِ ، فلا تجرُّدَ للهِ تعالىٰ أعظمُ مِنْ ذلكَ ، ولذلكَ عظُمَ أمرُ الشهادةِ ، ووردَ فيهِ مِنَ الفضائلِ ما لا يحصىٰ ، فمِنْ ذلكَ : أنَّهُ لمَّا استشهدَ عبدُ اللهِ بن عمرٍو الأنصاريُّ يومَ أحدٍ. . قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لجابرٍ ابنِهِ : « ألا أبشِّرُكَ يا جابرُ ؟ » قالَ : بلىٰ بشَّرَكَ اللهُ بالخيرِ ، قالَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أحيا أباكَ ، فأقعدَهُ بينَ يديهِ وليسَ بينَهُ وبينَهُ سترٌ ، فقالَ تعالىٰ : تمنَّ عليَّ يا عبدي ما شئتَ أعطيكَهُ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ أن تردَّني إلى الدنيا حتَّىٰ أقتلَ فيكَ وفي نبيِّكَ مرَّةً أخرىٰ ، فقالَ تعالىٰ : سبقَ القضاءُ منِّي بأنَّهُمْ إليها لا يرجعونَ »(١) .

ثمَّ القتلُ سببُ الخاتمةِ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ ، فإنَّهُ لوْ لمْ يقتلْ وبقيَ مدَّةً. . ربما عادَتْ شهواتُ الدنيا وغلبَتْ ما استولىٰ علىٰ قلبِهِ مِنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ولهـٰذا عظُمَ خوفُ أهلِ المعرفةِ مِنَ الخاتمةِ ، فإنَّ القلْبَ وإنْ ألزمَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ. . فهوَ متقلِّبٌ ، لا يخلو عنِ الالتفاتِ إلىٰ شهواتِ الدنيا ، ولا ينفكُّ عنْ فترةٍ تعتريهِ ، فإذا تمثَّلَ في آخرِ الحالِ في قلبِهِ أمرٌ مِنَ الدنيا واستولىٰ عليهِ وارتحلَ عنِ الدنيا والحالةُ هـٰذهِ. . فيوشكُ أنْ يبقى استيلاؤُهُ

(١) رواه الترمذي (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) ، وقوله : « وفي نبيك » عند ابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٣) .

عليهِ ، فيحيا بعدَ الموتِ علىٰ ذلكَ ، ويتمنَّى الرجوعَ إلى الدنيا ، وذلكَ لقلَّةِ حظِّهِ في الآخرةِ ؛ إذْ يموتُ المرءُ علىٰ ما عاشَ عليهِ ، ويحشرُ علىٰ ما ماتَ عليهِ .

وأسلمُ الأحوالِ عنْ هـٰذا الخطرِ خاتمةُ الشهادةِ إذا لمْ يكنْ قصدُ الشهيدِ نيلَ مالٍ ، أوْ أنْ يقالَ : شجاعٌ ، أوْ غيرَ ذلكَ ؛ كما وردَ بهِ الخبرُ[1] ، بلْ حبَّ اللهِ عزَّ وجلَّ وإعلاءَ كلمتِهِ ، فهـٰذهِ الحالةُ هيَ التي عبَّرَ عنها بأنَّ اللهَ اشترىٰ مِنَ المؤمنينَ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهُمُ الجنَّةَ ، ومثلُ هـٰذا الشخصِ هوَ البائعُ للدنيا بالآخرةِ .

وحالةُ الشهيدِ توافقُ معنىٰ قولِكَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ؛ فإنَّهُ لا مقصودَ لهُ سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ولا معبودَ لهُ سواهُ ، وكلُّ مقصودٍ معبودٌ ، وكلُّ معبودٍ إلـٰهٌ ، فهـٰذا الشهيدُ قائلٌ بلسانِ حالِهِ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ؛ إذْ لا مقصودَ لهُ سواه ، ومَنْ يقولُ ذلكَ بلسانِهِ ولمْ يساعدْهُ حالُهُ . . فأمرُهُ في مشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولا يُؤمنُ في حقِّهِ الخطرُ .

---

(١) ففي « البخاري » (٢٨١٠) ، و« مسلم » (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجلُ يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرىٰ مكانُهُ ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في سبيل الله » .
وفي « مسلم » (١٩٠٥) : « إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتي به ، فعرَّفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار » الحديث .

ولذلكَ فضَّلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَ : (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) علىٰ سائرِ الأذكارِ[1] ، وذكرَ ذلكَ مطلقاً في مواضعِ الترغيبِ ، ثمَّ ذكرَ في بعضِ المواضعِ الصدقَ والإخلاصَ ، فقالَ مرَّةً : « مَنْ قالَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ مخلصاً »[2] ومعنى الإخلاصِ : مساعدةُ الحالِ للمقالِ .

فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا في الخاتمةِ مِنْ أهلِ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) حالاً ومقالاً ، وظاهراً وباطناً ، حتَّىٰ نودِّعَ الدنيا غيرَ ملتفتينَ إليها ، بلْ متبرِّمينَ بها ، ومحبِّينَ للقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ تعالىٰ . . أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، ومَنْ كرهَ لقاءَ اللهِ . . كرهَ اللهُ لقاءَهُ[3] .

فهـٰذهِ مرامزُ إلىٰ معاني الذكرِ ، لا يمكنُ الزيادةُ عليها في علْمِ المعاملةِ .

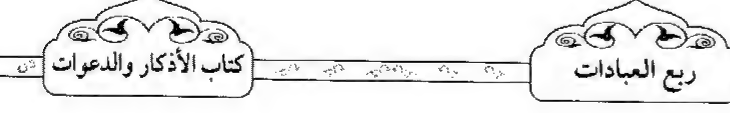
* * *

---

(١) كما روى ذلك الترمذي (٣٣٨٣) ، وابن ماجه (٣٨٠٠) .

(٢) فقيّدها هـٰهنا بالإخلاص ، وهو مروي عند الطبراني في « الأوسط » (١٢٥٧) ، وأبي نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٥٤) .

(٣) كما روىٰ ذلك البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) ، وسيأتي للمصنف في آخر الكتاب .



الباب الثاني

في آداب الدعاء، وفضله، وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفضيلة الاستغفار

فضيلة الدعاء

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وروى النعمانُ بنُ بشيرٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ الدعاءَ هوَ العبادةُ ، ثمَّ قرأَ : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدعاءُ مخُّ العبادةِ »[2] .

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٧٩) ، والترمذي (٢٩٦٩) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٤٠٠) ، وابن ماجه (٣٨٢٨) .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧١) ، وإنما كان مخّاً لها لأن الداعي إنما يدعو الله عند انقطاع أمله =

وروىٰ أبو هريرة أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ليسَ شيءٌ أكرمَ علىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الدعاءِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ لا يخطئُهُ مِنَ الدعاءِ إحدىٰ ثلاثٍ : إمَّا ذنبٌ يُغفرُ لهُ ، وإمَّا خيرٌ يُعجَّلُ لهُ ، وإمَّا خيرٌ يُدَّخرُ لهُ »[2] .

وقالَ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (يكفي مِنَ الدعاءِ معَ البرِّ ما يكفي معَ الطعامِ مِنَ الملحِ)[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سلوا اللهَ تعالىٰ مِنْ فضلِهِ ، فإنَّهُ تعالىٰ يُحِبُّ أنْ يُسألَ ، وأفضلُ العبادةِ انتظارُ الفرجِ »[4] .

* * *

= مما سواه ، وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص ، ولا عبادة فوقهما ، أو لما فيه من إظهار الافتقار والتبري من الحول والقوة ، وهو سمة العبودية واستشعار البشرية . « إتحاف » (٥/ ٢٩) .

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٠) ، وابن ماجه (٣٨٢٩) .

(٢) هو بلفظ المصنف عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٤٩) ، وبنحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٤) ، وهو عند أحمد في « المسند » (٣/ ١٨) بلفظ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم . . إلا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاثٍ : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » ، قالوا : إذاً نكثر ، قال : « الله أكثر » .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣١٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٤) .

(٤) رواه الترمذي (٣٥٧١) .

آداب الدعاء وهي عشرة

الأوّلُ : أنْ يترصَّدَ لدعائِهِ الأوقاتَ الشريفةَ :

كيومِ عرفةَ مِنَ السنةِ ، ورمضانَ مِنَ الشهورِ ، ويومِ الجمعةِ مِنَ الأسبوعِ ، ووقتِ السحرِ مِنْ ساعاتِ الليلِ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينزلُ اللهُ عزَّ وجلَّ كلَّ ليلةٍ إلىٰ سماءِ الدنيا حينَ يبقىٰ ثلثُ الليلِ الأخيرُ ، فيقولُ عزَّ وجلَّ : مَنْ يدعوني فأستجيبَ لهُ ؟ مَنْ يسألني فأعطيَهُ ؟ مَنْ يستغفرُني فأغفرَ لهُ ؟ »(١) .

وقيلَ : إنَّ يعقوبَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ السلامُ إنَّما قالَ لبنيهِ : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ ليدعوَ في وقتِ السحرِ ، فقيلَ : إنَّهُ قامَ وقتَ السحرِ يدعو وأولادُهُ يؤمِّنونَ خلفَهُ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : أنِّي قدْ غفرتُ لهُمْ وجعلتُهُمْ أنبياءَ(٢) .

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

(٢) تأخيره الدعاء عليه السلام إلىٰ وقت السحر عند الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ٨٣) ، وتأخيره الدعاء إلىٰ ليلة الجمعة جاء في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٣٥٧٠) ، وانظر « الدر المنثور » (٤/ ٥٨٥) .

الثاني : أنْ يغتنمَ الأحوالَ الشريفةَ :

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ أبوابَ السماءِ تُفتَّحُ عندَ زحْفِ الصفوفِ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، وعندَ نزولِ الغيثِ ، وعندَ إقامةِ الصلواتِ المكتوبةِ ؛ فاغتنموا الدعاءَ فيها)(١) .

وقالَ مجاهدٌ : (إنَّ الصلاةَ جُعلَتْ في خيرِ الساعاتِ ، فعليكُمْ بالدعاءِ خلفَ الصلواتِ)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدعاءُ بينَ الأذانِ والإقامةِ لا يردُّ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « الصائمُ لا تردُّ دعوتُهُ »(٤) .

وبالحقيقةِ : يرجعُ شرفُ الأوقاتِ إلىٰ شرفِ الحالاتِ أيضاً ؛ إذْ وقتُ السحرِ وقتُ صفاءِ القلبِ وإخلاصِهِ ، وفراغِهِ مِنَ المشوشاتِ ، ويومُ عرفةَ ويومُ الجمعةِ وقتُ اجتماعِ الهمَمِ وتعاونِ القلوبِ على استدرارِ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فهٰذا أحدُ أسبابِ شرفِ الأوقاتِ سوىٰ ما فيها مِنْ أسرارٍ لا يطلعُ البشرُ عليها .

---

(١) بنحوه عند الطبراني في « الكبير » (٨/ ١٧١) مرفوعاً من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) روى النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٨١٧) عن أنس رضي الله عنه : (إذا أقيمت الصلاة . . فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء) .

(٣) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٨١٢) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٧٧) .

وحالةُ السجودِ أيضاً جديرةٌ بالإجابةِ ، قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وهوَ ساجِدٌ ، فأكثروا مِنَ الدعاءِ »(١) .

وروى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنِّي نهيتُ أنْ أقرأَ القرآنَ راكعاً أَوْ ساجداً ، فأمَّا الركوعُ . . فعظِّموا فيهِ الربَّ تباركَ وتعالىٰ ، وأمَّا السجودُ . . فاجتهدُوا فيهِ بالدعاءِ ؛ فإنَّهُ قمنٌ أنْ يستجابَ لكُمْ »(٢) .

* * *

الثالثُ : أنْ يدعوَ مستقبلَ القبلةِ ، ويرفعَ يديهِ بحيثُ يُرىٰ بياضُ إبْطيهِ :

روىٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أتى الموقفَ بعرفةَ واستقبلَ القبلةَ ، ولمْ يزلْ يدعو حتَّىٰ غربتِ الشمسُ)(٣) .

وقالَ سلمانُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ ربَّكُمْ حييٌّ كريمٌ يستحيي مِنْ عبدِهِ إذا رفعَ يديهِ إليهِ أنْ يردَّهُما صفراً »(٤) .

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢) .
(٢) رواه مسلم (٤٧٩) .
(٣) قطعة من حديث طويل رواه مسلم (١٢١٨) ، وفيه : (فلم يزل واقفاً حتىٰ غربت الشمس) ، وعند النسائي من حديث أسامة رضي الله عنه (٥/ ٢٥٤) : (فرفع يديه يدعو) .
(٤) رواه أبو داوود (١٤٨٨) ، والترمذي (٣٥٥٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٥) .

وروىٰ أنسٌ : (أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يرفعُ يديهِ حتَّىٰ يُرىٰ بياضُ إبْطيهِ في الدعاءِ ، ولا يشيرُ بإصبعيهِ)[١] .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مرَّ علىٰ إنسانٍ يدعو ويشير بإصبعيه السبابتينِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحِّدْ أحِّدْ »[٢] ؛ أيِ : اقتصرْ على الواحدةِ .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ارفعوا هـٰذهِ الأيديَ قبلَ أنْ تُغلَّ بالأغلالِ)[٣] .

ثمَّ ينبغي أنْ يمسحَ بهما وجهَهُ في آخرِ الدعاءِ ، قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا مدَّ يديهِ في الدعاءِ . . لمْ يردُّهُما حتَّىٰ يمسحَ بهما وجهَهُ)[٤] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا دعا . . ضمَّ كفيهِ وجعلَ بطونَهُما ممَّا يلي وجهَهُ)[٥] .

---

(١) رواه البخاري (١٠٣١) في الاستسقاء ، ومسلم (٨٩٥) عاماً .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٧) ، والنسائي (٣/٣٨) .

(٣) رواه الفريابي في « الذكر » . « إتحاف » (٥/ ٣٤) .

(٤) رواه الترمذي (٣٣٨٦) .

(٥) بنحوه عند الحاكم في « المستدرك » (١/٥٣٦) عن ابن عباس مرفوعاً : « إذا سألتم الله . . فاسألوه ببطون أكفكم ، ولا تسألوه بظهورهما ، وامسحوا بها وجوهكم » ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢١٣) من حديث أنس قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو رافعاً يديه باطنهما مما يلي وجهه) .

فهـٰذهِ هيئاتُ اليدِ .

ولا يرفعُ بصرَهُ إلى السماءِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لينتهينَّ أقوامٌ عنْ رفعِ أبصارِهِمْ إلى السماءِ عندَ الدعاءِ أَوْ لتخطفنَّ أبصارُهُمْ »(١) .

* * *

الرابعُ : خفضُ الصوتِ بينَ المخافتةِ والجهرِ :

لما رُوِيَ أنَّ أبا موسى الأشعريَّ قالَ : قدمْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا دنونا مِنَ المدينةِ . . كبَّرَ وكبَّرَ الناسُ ورفعوا أصواتَهُمْ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أيُّها الناسُ ؛ إنَّ الذي تدعونَ ليسَ بأصمَّ ولا غائبٍ ، إنَّ الذي تدعونَ بينَكُمْ وبينَ أعناقِ ركابِكُمْ »(٢) .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أيْ : بدعائِكَ(٣) .

وقدْ أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ نبيِّهِ زكريا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٤٢٩) وقال : « عند الدعاء في الصلاة » . انظر « الإتحاف » (٥/ ٣٤) .
(٢) رواه أبو داوود (١٥٢٦) ، والترمذي (٣٣٧٤) ، وأصله في « الصحيحين » .
(٣) رواه البخاري (٦٣٢٧) ، ومسلم (٤٤٧) .

الخامسُ : ألاَّ يتكلَّفَ السجعَ في الدعاءِ :

فإنَّ حالَ الداعي ينبغي أنْ يكونَ حالَ متضرعٍ ، والتكلُّفُ لا يناسبُهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ قومٌ يعتدونَ في الدعاءِ »(١) .

وقدْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ قيلَ : معناهُ : التكلُّفُ للأَسجاعِ(٢) ، والأَولىٰ : ألاَّ يجاوزَ الدعواتِ المأثورةَ ؛ فإنَّهُ إذا جاوزَها . . ربما اعتدىٰ في دعائِهِ ، فيسألُ ما لا تقتضيهِ مصلحتُهُ ، فما كلُّ أحدٍ يحسنُ الدعاءَ ؛ ولذلكَ وردَ في الخبرِ والأثرِ : أنَّ العلماءَ يُحتاجُ إليهِمْ في الجنَّةِ ؛ إذ يقالُ لأهلِ الجنَّةِ : تمنَّوْا ، فلا يدرونَ كيفَ يتمنَّونَ حتَّىٰ يتعلَّموا مِنَ العلماءِ(٣) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إيَّاكمْ والسجعَ في الدعاءِ ، بحسْبِ أحدِكُمْ أنْ يقولَ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ ،

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٨٠) .

(٢) السَّجع : ائتلاف أواخر الكلم علىٰ نسق كائتلاف القوافي ، والجمع : أسجاع ، وتقدم الحديث الذي رواه البخاري (٦٣٣٧) عن ابن عباس حيث قال : (فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ؛ فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك) يعني : إلا ذلك الاجتناب .

(٣) كذا رُوي مرفوعاً من حديث جابر رضي الله عنه ، رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٥٠) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٨٨٠) ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٣٧) .

وأعوذُ بكَ مِنَ النارِ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ »[1] .

وفي الخبرِ : « سيأتي قومٌ يعتدونَ في الدعاءِ والطهورِ »[2] .

ومرَّ بعضُ السلفِ بقاصٍّ يدعو بسجعٍ ، فقالَ لهُ : أعلى اللهِ تبالغُ ؟! أشهدُ لقدْ رأيتُ حبيباً العجميَّ يدعو وما يزيدُ علىٰ قوله : اللهمَّ ؛ اجعلنا جيِّدينَ ، اللهمَّ ؛ لا تفضحْنا يومَ القيامةِ ، اللهمَّ ؛ وفقنا للخيرِ ، والناسُ يدعون مِنْ كلِّ ناحيةٍ وراءَهُ ، وكانَ يُتعرَّفُ بركةُ دعائِهِ[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (ادعُ بلسانِ الذلَّةِ والافتقارِ ، لا بلسانِ الفصاحةِ والانطلاقِ)[4] .

ويقالُ : إنَّ العلماءَ والأبدالَ لا يزيدُ أحدُهُمْ في الدعاءِ علىٰ سبعِ كلماتٍ فما دونَها ، ويشهدُ لهُ آخرُ (سورةِ البقرةِ) ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ لمْ يخبرْ في موضعٍ مِنْ أدعيةِ عبادِهِ أكثرَ مِنْ ذلكَ[5] .

واعلمْ : أَنَّ المرادَ بالسجعِ هوَ المتكلَّفُ مِنَ الكلامِ ، فإنَّ ذلكَ لا يلائمُ

---

(١) كذا أورده صاحب « القوت » (١/ ١٦٥) ، وتقدم بمعناه تعليقاً قبيل ؛ أعني حديث ابن عباس السالف الذكر ، وقد روىٰ بشأن الدعاء المذكور أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (ص٢١٩) ، وابن ماجه (٣٨٤٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٢١) واللفظ له مرفوعاً .

(٢) رواه أبو داوود (٩٦) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٦٥) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٦٥) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٦٥) ، وهو المستنبط للدليل .

الضراعةَ والذلَّةَ ؛ وإلا . . ففي الأدعيةِ المأثورةِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلماتٌ متوازنةٌ ، لكنَّها غيرُ متكلِّفةٍ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسألُكَ الأمنَ يومَ الوعيدِ ، والجنَّةَ يومَ الخلودِ ، معَ المقرَّبينَ الشهودِ ، والركَّعِ السجودِ ، المُوفِينَ بالعهودِ ، إنَّكَ رحيمٌ ودودٌ ، وأنتَ تفعلُ ما تريدُ »[1] ، وأمثالِ ذلكَ .

فليقتصرْ على المأثورِ مِنَ الدعواتِ ، أوْ ليلتمسْ بلسانِ التضرُّعِ والخشوعِ مِنْ غيرِ سجْعٍ وتكلُّفٍ ، فالتضرُّعُ هوَ المحبوبُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

السادسُ : التضرُّعُ والخشوعُ والرغبةُ والرهبةُ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ .

وقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً . . ابتلاهُ حتَّىٰ يسمعَ تضرُّعَهُ »[2] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٤١٩) ضمن حديث طويل من دعائه صلى الله عليه وسلم .

(٢) رواه هناد في « الزهد » (٤٠٥) ، والشاشي في « مسنده » (٦١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٣٣١) ، وفي « البخاري » (٥٦٤٥) مرفوعاً : « من يرد الله به خيراً . . يصب منه » .

السابعُ : أنْ يجزمَ الدعاءَ ، ويوقنَ بالإجابةِ ، ويصدقَ رجاؤُهُ فيهِ :

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يقلْ أحدُكُمْ إذا دعا : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي إنْ شئتَ ، اللهمَّ ؛ ارحمني إنْ شئتَ ، ليعزمِ المسألةَ ؛ فإنَّهُ لا مُكرهَ لهُ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا دعا أحدُكُمْ .. فليعظمِ الرغبةَ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يتعاظمُهُ شيءٌ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ادعوا اللهَ وأنتمْ موقنونَ بالإجابةِ ، واعلموا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يستجيبُ دعاءً مِنْ قلبٍ غافلٍ »(٣) .

وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ : (لا يمنعنَّ أحدَكُمْ مِنَ الدعاءِ ما يعلمُ مِنْ نفسِهِ ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أجابَ دعاءَ شرِّ الخلقِ إبليسَ إذْ قالَ : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾)(٤) .

* * *

الثامنُ : أنْ يلحَّ في الدعاءِ ، ويكرِّرَهُ ثلاثاً :

قالَ ابنُ مسعودٍ : (كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إذا دعا .. دعا ثلاثاً ، وإذا سألَ .. سألَ ثلاثاً)(٥) .

---

(١) رواه البخاري (٦٣٣٩) ، ومسلم (٢٦٧٩) .
(٢) رواه مسلم (٢٦٧٩) .
(٣) رواه الترمذي (٣٤٧٩) .
(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (١١٠٧) .
(٥) رواه مسلم (١٧٩٤) .

وينبغي ألاَّ يستبطىءَ الإجابةَ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يستجابُ لأحدِكُمْ ما لمْ يعجلْ فيقولَ : دعوتُ فلمْ يستجبْ لي »(١) .

فإذا دعوتَ . . فاسْألِ اللهَ كثيراً ؛ فإنَّكَ تدعو كريماً .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنِّي أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ منذُ عشرينَ سنةً حاجةً وما أجابني ، وأنا أرجو الإجابةَ ، سألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يوفقَني لترْكِ ما لا يعنيني)(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا سألَ أحدُكُمْ ربَّهُ مسألةً ، فتعرَّفَ الإجابةَ . . فليقلْ : الحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحاتُ ، ومَنْ أبطأَ عنهُ مِنْ ذلكَ شيءٌ . . فليقلْ : الحمدُ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ »(٣) .

التاسعُ : أنْ يفتتحَ الدعاءَ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ :

فلا يبدأُ بالسؤالِ ، قالَ سلمةُ بنُ الأكوعِ : ما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) .

(٢) هو مؤرق العجلي رحمه الله تعالىٰ ، روىٰ هـٰذا الخبر أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٣٥) .

(٣) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص١٧١) ، وكان هـٰذا حال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ابن ماجه (٣٨٠٣) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأىٰ ما يحبُّ . . قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » ، وإذا رأىٰ ما يكره . . قال : « الحمد لله علىٰ كل حال » .

عليهِ وسلَّمَ يستفتحُ الدعاءَ إلا استفتحَهُ فقالَ : « سبحانَ ربِّيَ العليِّ الأعلى الوهَّابِ »[1] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ أرادَ أنْ يسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ حاجةً . . فليبدأْ بالصلاةِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ يسألُهُ حاجتَهُ ، ثمَّ يختمُ بالصلاةِ عليهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقبلُ الصلاتينِ ، وهوَ أكرمُ مِنْ أنْ يدعَ ما بينَهما)[2] .

ورُوِيَ في الخبرِ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا سألتمُ اللهَ عزَّ وجلَّ حاجةً . . فابدؤوا بالصلاةِ عليَّ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ أكرمُ مِنْ أنْ يُسألَ حاجتينِ فيقضيَ إحداهُما ويردَّ الأخرىٰ » ، رواهُ أبو طالبٍ المكِّيُّ رحمهُ اللهُ[3] .

* * *

---

(1) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٥٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٨) .

(2) انظر « مطالع المسرات » (ص٣٦) ، وزاد تمام كلامه حيث قال : (وكل الأعمال فيها المقبول والمردود إلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها مقبولة غير مردودة) .

(3) أورده في « القوت » (١/ ٦) ، قال الحافظ العراقي : (لم أجده مرفوعاً ، وإنما هو موقوف علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه) ، وروىٰ أبو داوود (١٤٨١) ، والترمذي (٣٤٧٧) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه يقول : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو في صلاته ، فلم يصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عَجِلَ هـٰذا » ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلىٰ أحدكم . . فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ، ثم ليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ليدع بما شاء » . انظر « الإتحاف » (٥/ ٤١) .

وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٢/ ٢١٥) مرفوعاً : « لا تجعلوني كقدح الراكب ، =

العاشرُ ـ وهوَ الأدبُ الباطنُ ، وهوَ الأصلُ في الإجابةِ ـ : التوبةُ وردُّ المظالمِ والإقبالُ على اللهِ عزَّ وجلَّ بكنهِ الهمَّةِ :

فذلكَ هوَ السببُ القريبُ في الإجابةِ . يروىٰ عنْ كعبِ الأحبارِ رحمهُ اللهُ أنَّهُ قالَ : أصابَ الناسَ قحطٌ شديدٌ علىٰ عهدِ موسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ السلامُ ، فخرجَ موسىٰ ببني إسرائيلَ ليستسقيَ بهِمْ فلمْ يسقوا ، حتَّىٰ خرجَ ثلاثَ مرَّاتٍ ولمْ يسقَوا ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : أنِّي لا أستجيبُ لكَ ولا لمَنْ معكَ وفيكُمْ نمَّام ، فقالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : يا ربِّ ؛ ومَنْ هوَ حتَّىٰ نخرجَهُ مِنْ بينِنا ؟ فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : يا موسىٰ ؛ أنهاكُمْ عنِ النميمةِ وأكونُ نماماً ؟! فقالَ موسىٰ لبني إسرائيلَ : توبوا إلىٰ ربِّكُمْ بأجمعِكُمْ منَ النميمةِ ، فتابوا ، فأرسلَ اللهُ تعالىٰ عليهِمُ الغيثَ .

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ : قحطَ الناسُ في زمنِ ملكٍ مِنْ ملوكِ بني إسرائيلَ ، فاستسقَوا ، فقالَ الملكُ لبني إسرائيلَ : ليرسلنَّ اللهُ تعالىٰ علينا السماءَ أوْ لنؤذينَّهُ ، فقيلَ لهُ : وكيفَ تقدرُ أنْ تؤذيَهُ وهوَ في السماءِ ؟ فقالَ : أقتلُ أولياءَهُ وأهلَ طاعتِهِ ، فيكونُ ذلكَ أذىً لهُ ، فأرسلَ اللهُ تعالىٰ عليهِمُ السماءَ[1] .

= فإن الراكب إذا أراد أن ينطلق .. علق معالقه ، وملأ قدحاً ماءً ، فإن كانت له حاجة في أن يتوضأ .. توضأ ، وأن يشرب .. شرب ، وإلا .. أهراق ، فاجعلوني في وسط الدعاء ، وفي أوله ، وفي آخره » .

(١) دلَّ ذلك علىٰ أن الإقبال على الله بكنه الهمة مما يوجب الإجابة، فإن هـٰؤلاء الخاصة لما =

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : بلغني أنَّ بني إسرائيلَ قُحطوا سبعَ سنينَ حتَّىٰ أكلوا الميتةَ مِنَ المزابلِ ، وأكلوا الأطفالَ ، وكانوا كذلكَ يخرجونَ إلى الجبالِ يبكونَ ويتضرَّعونَ ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ أنبيائِهِمْ عليهمُ السلامُ : لوْ مشيتُمْ إليَّ بأقدامِكُمْ حتَّىٰ تحفىٰ ركبُكُمْ وتبلغَ أيديكُمْ عنانَ السماءِ ، وتكلَّ ألسنتُكُمْ عنِ الدعاءِ . . فإنِّي لا أجيبُ لكمْ داعياً ، ولا أرحمُ منكمْ باكياً ؛ حتَّىٰ تردُّوا المظالمَ إلىٰ أهلِها ، ففعلوا ، فمطروا منْ يومِهِمْ .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : أصابَ الناسَ في بني إسرائيلَ قحطٌ ، فخرجوا مراراً ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ نبيِّهِمْ : أنْ أخبرْهُمْ أنَّكُمْ تخرجونَ إليَّ بأبدانٍ نجسةٍ ، وترفعونَ إليَّ أكفاً قدْ سفكتُمْ بها الدماءَ ، وملأتُمْ بطونَكُمْ مِنَ الحرامِ ، الآنَ قدِ اشتدَّ غضبي عليكُمْ ، ولنْ تزدادوا منِّي إلا بعداً[1] .

وقالَ أبو الصدِّيق الناجي : خرجَ سليمانُ عليهِ السلامُ يستسقي ، فمرَّ بنملةٍ ملقاةٍ علىٰ ظهرِها رافعةٍ قوائمَها إلى السماءِ وهيَ تقولُ : اللهمَّ ؛ إنَّا خلقٌ مِنْ خلقِكَ ، ولا غنىٰ بنا عنْ رزقِكَ ، فلا تهلكْنا بذنوبِ غيرِنا ، فقالَ سليمانُ عليهِ السلامُ : ارجعوا ، فقدْ سقيتُمْ بدعوةِ غيرِكُمْ[2] .

وقالَ الأوزاعيُّ : خرجَ الناسُ يستسقونَ ، فقامَ فيهِمْ بلالُ بنُ سعدٍ ،

= سمعوا ذلك . . أقبلوا على الله بكليتهم ، فاستجيب لهم ، والخبر رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٨٢) .

(١) رواه أبو داوود في « الزهد » (١٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠١٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠١).

فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ، ثمَّ قالَ : يا معشرَ مَنْ حضرَ ؛ ألستُمْ مقرِّينَ بالإساءةِ ، فقالوا : اللهمَّ نعمْ ، فقالَ : اللهمَّ ؛ إنَّا قدْ سمعناكَ تقولُ : ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ ، وقدْ أقررْنا بالإساءةِ ، فهلْ تكونُ مغفرتُكَ إلا لمثلِنا ، اللهمَّ ؛ فاغفرْ لنا ، وارحمْنا ، واسقِنا ، فرفعَ يديهِ ورفعوا أيديَهُمْ ، فسقوا[1] .

وقيلَ لمالكِ بنِ دينارٍ : ادعُ لنا ربَّكَ ، فقالَ : إنَّكُمْ تستبطئُونَ المطرَ وأنا أستبطىءُ الحجارةَ[2] .

ويُروىٰ أنَّ عيسىٰ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ خرجَ يستسقي ، فلمَّا أصحروا . . قالَ لهُمْ عيسى عليهِ السلامُ : مَنْ أصابَ منكُمْ ذنباً . . فليرجعْ ، فرجعوا كلُّهُمْ ولمْ يبقَ معهُ في المفازةِ إلا رجلٌ واحدٌ ، فقالَ لهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ : أما لكَ مِنْ ذنبٍ ؟ فقالَ : واللهِ ما أعلمُ مِنْ شيءٍ غيرَ أنِّي كنتُ ذاتَ يومٍ أصلِّي ، فمرَّتْ بيَ امرأةٌ ، فنظرتُ إليها بعيني هٰذهِ ، فلمَّا جاوزتْ . . أدخلتُ إصبعي في عيني فانتزعتُها ، وأتبعتُ المرأةَ بها ، فقالَ لهُ عيسىٰ عليهِ السلامُ : فادعُ حتَّىٰ أؤمِّنَ علىٰ دعائِكَ ، قالَ : فدعا ، فتجلَّلَتِ السماءُ سحاباً ، ثمَّ صبَّتْ فسُقُوا[3] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٠٧٠١) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٩٨) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٢٥) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٩٤) ، والطبراني في « الدعاء » (٩٦٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤١١) .

وقالَ يحيى الغسَّانيُّ : أصابَ الناسَ قحطٌ علىٰ عهْدِ داوودَ عليهِ السلامُ ، فاختاروا ثلاثةً مِنْ علمائِهِمْ ، فخرجوا يستسقونَ بهِمْ ، فقالَ أحدُهُمْ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ أنزلتَ في توراتِكَ أنْ نعفوَ عمَّنْ ظلمَنا ، اللهمَّ ؛ إنَّا قدْ ظلمْنا أنفسَنا فاعفُ عنَّا ، وقالَ الثاني : اللهمَّ ؛ إنَّكَ أنزلتَ في توراتِكَ أنْ نعتقَ أرقَّاءَنا ، اللهمَّ ؛ إنَّا أرقاؤُكَ فأعتقْنا ، وقالَ الثالثُ : اللهمَّ ؛ إنَّكَ أنزلتَ في توراتِكَ ألاَّ نردَّ المساكينَ إذا وقفوا بأبوابِنا ، اللهمَّ ؛ إنَّا مساكينُكَ وقفْنا ببابِكَ فلا تردَّ دعاءَنا ، فسقوا(١) .

وقالَ عطاءٌ السَّليميُّ : مُنِعنا الغيثَ ، فخرجْنا نستسقي ، فإذا نحنُ بسَعدونٍ المجنونِ في المقابرِ ، فنظرَ إليَّ وقالَ : يا عطاءُ ؛ أهـٰذا يومُ النشورِ ؟ أوَبعثرَ ما في القبورِ ؟! فقلتُ : لا ، ولكنَّا مُنعْنا الغيثَ ، فخرجْنا نستسقي ، فقالَ : يا عطاءُ ؛ بقلوبٍ أرضيَّةٍ أوْ بقلوبٍ سماويَّةٍ ؟ فقلتُ : بلْ بقلوبٍ سماويَّةٍ ، فقالَ : هيهاتَ يا عطاءُ ! قلْ للمتبهرجينَ : لا تتبهرجوا ؛ فإنَّ الناقدَ بصيرٌ ، ثمَّ رمقَ السماءَ بطرفِهِ وقالَ : إلـٰهي وسيِّدي ومولايَ ؛ لا تهلكْ بلادَكَ بذنوبِ عبادِكَ ، ولكنْ بالسرِّ المكنونِ مِنْ أسمائِكَ وما وارتِ الحجبُ مِنْ آلائِكَ إلا ما سقيتَنا ماءً غدقاً فراتاً تحيي بهِ العبادَ ، وترْوي بهِ البلادَ ، يا مَنْ هوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، قالَ عطاءٌ : فما استتمَّ الكلامَ حتَّىٰ أرعدتِ السماءُ وأبرقَتْ ، وجاءَتْ بمطرٍ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (ص ١٣٩) عن سعيد بن سنان الحمصي .

كأفواهِ القِرَبِ ، فولَّىٰ وهوَ يقولُ[(١)] : [من الخفيف]

نَعِـمَ ٱلـزَّاهِـدُونَ وَٱلْعَـابِـدُونـا إِذْ لِمَـوْلاهُـمُ أَجاعُـوا ٱلْبُطُـونـا
أَسْهَـرُوا ٱلأَعْيُـنَ ٱلْعَلِيلَـةَ حبّـاً فَٱنْقَضَىٰ لَيْلُهُمْ وَهُمْ ساهِرُونا
شَغَلَتْهُـمْ عِبـادَةُ ٱللهِ حَتَّـىٰ حسِبَ النَّاسُ أَنَّ فِيهِمْ جُنُونـا

وقالَ ابنُ المباركِ : قدمتُ المدينةَ في عامٍ شديدِ القحْطِ ، فخرجَ الناسُ يستسقونَ وخرجتُ معَهُمْ ، إذْ أقبلَ غلامٌ أسودُ عليهِ قطعتا خَيْشٍ ، قدِ اتزرَ بإحداهُما وألقى الأخرىٰ علىٰ عاتقِهِ ، فجلسَ إلىٰ جنبي ، فسمعتُهُ يقولُ : إلٰهي ؛ أخلقتِ الوجوهَ عندَكَ كثرةُ الذنوبِ ومساوىءُ الأعمالِ ، وقدْ حبستَ عنَّا غيثَ السماءِ لتؤدِّبَ عبادَكَ بذلكَ ، فأسألُكَ يا حليماً ذا أناةٍ ، يا مَنْ لا يعرفُ عبادُهُ منهُ إلا الجميلَ ؛ أنْ تسقيَهُمُ الساعةَ الساعةَ ، فلمْ يزلْ يقولُ : الساعةَ الساعةَ حتَّى اكتستِ السماءُ بالغمامِ ، وأقبلَ المطرُ مِنْ كلِّ مكانٍ ، قالَ ابنُ المباركِ : فجئتُ إلى الفضيلِ ، فقالَ : ما لي أراكَ كئيباً !

---

(١) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص١١٤) ، والأبيات عنده :

أيـا مَـنْ كُلَّمـا نـودي أجـابـا ومَـنْ بجـلالِـهِ ينشي السحـابـا
ويـا مَـنْ كلَّـمَ الصـديـقَ مـوسـى كـلامـاً ثـم ألهمَـهُ جـوابـا
ويـا مَـنْ ردَّ يـوسـفَ بعـد ضـرٍّ علىٰ مَـنْ كـانَ ينتحـبُ انتحـابـا
ويـا مَـنْ خـصَّ أحمـدَ بـاصطفـاءٍ وأعطـاهُ الـرسـالـةَ والكتـابـا

ثم قال : اسقنا .

والأبيات أعلاه رواها لواحد من عقلاء مجانينه وهو عليّان (ص١٧٠) بنحوها أيضاً .

فقلتُ : سبقنا إليهِ غيرُنا ، فتولاهُ دونَنا ، وقصصتُ عليهِ القصَّةَ ، فصاحَ الفضيلُ وخرَّ مغشيّاً عليهِ(١) .

ويُروىٰ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ استسقىٰ بالعبَّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ عمِّ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فلمَّا فرغَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ دعائِهِ . . قالَ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ : اللهمَّ ؛ إنَّهُ لمْ ينزلْ بلاءٌ مِنَ السماءِ إلا بذنبٍ ، ولمْ يكشفْ إلا بتوبةٍ ، وقد توجَّهَ بيَ القومُ إليكَ لمكاني مِنْ نبيِّكَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهٰذهِ أيدينا إليكَ بالذنوبِ ونواصينا بالتوبةِ وأنتَ الراعي لا تهملُ الضالَّةَ ، ولا تدعُ الكسيرَ بدارِ مَضيعَةٍ ، فقدْ ضرعَ الصغيرُ ، ورقَّ الكبيرُ ، وارتفعتِ الأصواتُ بالشكوىٰ ، وأنتَ تعلمُ السرَّ وأخفىٰ ، اللهمَّ ؛ فأغثْهُمْ بغياثِكَ قبلَ أنْ يقنطوا فيهلِكوا ، فإنَّهُ لا ييئسُ مِنْ روحِ اللهِ إلا القومُ الكافرونَ ، قالَ : فما تمَّ كلامُهُ حتىٰ أرختِ السماءُ مثلَ الجبالِ(٢) .

* * *

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣٩٢) ، وابن الجوزي في « المنتظم » (٥/ ٢٧٠) ضمن خبر طويل .

(٢) رواه بلفظه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص١٢٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/ ٣٥٨) ، وكان ذلك في عام الرمادة ، وأصل القصة عند البخاري (١٠١٠) عن أنس : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا . . استسقىٰ بالعباس بن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال : فيسقون .

فضيلة الصلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفضله صلّى الله عليه وسلّم

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جاءَ ذاتَ يومٍ والبشرىٰ تُرىٰ في وجهِهِ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ جاءَني جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ : أما ترضىٰ يا محمدُ ألاَّ يصليَ عليكَ أحدٌ مِنْ أمتِكَ صلاةً واحدةً إلا صليتُ عليهِ عشراً ، ولا يسلِّمَ عليكَ أحدٌ مِنْ أمتِكَ إلا سلمتُ عليهِ عشراً »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ . . صلَّتْ عليهِ الملائكةُ ما صلَّىٰ عليَّ ، فليقلَّ عبدٌ مِنْ ذلكَ أوْ ليكثرْ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أولى الناسِ بي أكثرُهُمْ عليَّ صلاةً »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بحسْبِ المؤمنِ مِنَ البخلِ أنْ أُذكرَ عندَهُ فلا يصلِّي عليَّ »[4] .

---

(١) رواه النسائي (٣/ ٤٤) بنحوه.
(٢) رواه ابن ماجه (٩٠٧) .
(٣) رواه الترمذي (٤٨٤) ، ولفظه : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة » .
(٤) رواه الجهضمي في « فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٣٦) ، وهو عند =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنَ الصلاةِ عليَّ يومَ الجمعةِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ مِنْ أمَّتي . كُتِبَتْ لهُ عشرُ حسناتٍ ، ومُحيَتْ عنهُ عشرُ سيئاتٍ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ حينَ يسمعُ الأذانَ والإقامةَ : اللهمَّ ، ربَّ هـٰذهِ الدعوةِ التامَّةِ والصلاةِ القائمةِ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدكَ ورسولِكَ ، وأعطِهِ الوسيلةَ والفضيلةَ والدرجةَ الرفيعةَ والشفاعةَ يومَ القيامةِ . . حلَّتْ لهُ شفاعتي »[٣] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ عليَّ في كتابٍ . . لمْ تزلِ الملائكةُ تستغفرُ لهُ ما دامَ اسمي في ذلكَ الكتابِ »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الأرضِ ملائكةً سياحينَ يبلِّغوني عنْ أمَّتي السلامَ »[٥] .

= الترمذي (٣٥٤٦) بلفظ : « البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ » .

(١) رواه أبو داوود (١٠٤٧) ، والنسائي (٣/ ٩١) ، وابن ماجه (١٦٣٧) .

(٢) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٩٨٠٩) وفيه زيادة .

(٣) رواه البخاري (٦١٤) دون ذكر الإقامة ، وللطبراني في « الأوسط » (١٩٦) : « من قال حين ينادي المنادي بالصلاة : اللهم رب هـٰذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ؛ صلِّ علىٰ محمد وارضَ عني رضاء لا سخط بعده . . استجاب الله عز وجل له » .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » (١٨٥٦) ، والخطيب في « شرف أصحاب الحديث » (ص٣٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٨٠) .

(٥) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٩١٤) ، والنسائي (٣/ ٤٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ أحدٌ يسلِّمُ عليَّ إلا ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتَّىٰ أردَّ عليهِ السلامَ »[1] .

وقيلَ لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيفَ نصلِّي عليكَ ؟ فقالَ : « قولوا : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ وعلىٰ آلِهِ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ كما صلَّيتَ علىٰ إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ ، وباركْ علىٰ محمدٍ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ كما باركتَ علىٰ إبراهيمَ وآلِ إبراهيمَ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ »[2] .

ورُويَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ سُمِعَ بعدَ موتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يبكي ويقولُ :

(بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ كانَ جِذْعٌ تخطبُ الناسَ عليهِ ، فلمَّا كثرَ الناسُ . اتخذتَ منبراً لتسمعَهُمْ ، فحنَّ الجذعُ لفراقِكَ حتَّىٰ جعلتَ يدكَ عليهِ فسكنَ ، فأمَّتُكَ كانتْ أولىٰ بالحنينِ إليكَ لمَّا فارقتَهُمْ[3] .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِكَ عندَهُ أنْ جعلَ طاعتَكَ طاعتَهُ ، فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِكَ عندَهُ أنْ أخبرَكَ

---

(١) رواه أبو داوود (٢٠٤١) .
(٢) رواه البخاري (٣٣٦٩) ، ومسلم (٤٠٧) ، ولفظه : « اللهمَّ ؛ صل علىٰ محمد وأزواجه وذريته كما صليت علىٰ آل إبراهيم ، وبارك علىٰ محمد وأزواجه وذريته كما باركت علىٰ آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .
(٣) حديث حنين الجذع عند البخاري (٩١٨ ، ٣٥٨٣) .

بالعفوِ عنكَ قبلَ أنْ يخبرَكَ بالذنبِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِك عندَهُ أنْ بعثَكَ آخرَ الأنبياءِ وذكرَكَ في أوَّلِهِمْ ، فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ . . . ﴾ الآيةَ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ بلغَ مِنْ فضيلتِكَ عندَهُ أنَّ أهلَ النارِ يودُّونَ أنَّهُمْ قدْ أطاعوكَ وهمْ بينَ أطباقِها يعذَّبونَ ، ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لئنْ كانَ موسىٰ بنُ عمرانَ أعطاهُ اللهُ حجراً تتفجَّرُ منهُ الأنهارُ . فما ذلكَ بأعجبَ مِنْ أصابعِكَ حينَ نبعَ منها الماءُ صلَّى اللهُ عليكَ[(١)] .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لئنْ كانَ سليمانُ بنُ داوودَ أعطاهُ اللهُ الريحَ غدوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ . فما ذلكَ بأعجبَ مِنَ البراقِ حينَ سريتَ عليهِ إلى السماءِ السابعةِ ، ثمَّ صليتَ الصبحَ مِنْ ليلتِكَ بالأبطحِ صلَّى اللهُ عليكَ[(٢)] .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لئنْ كانَ عيسى ابنُ مريمَ أعطاهُ اللهُ إحياءَ

---

(١) حديث نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم عند البخاري (١٦٩) ، ومسلم (٢٢٧٩) .

(٢) حديث الإسراء والمعراج عند البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) دون ذكر الصلاة بالأبطح .

الموتىٰ . . فما ذلكَ بأعجبَ مِنَ الشاةِ المسمومةِ حينَ كلَّمَتْكَ وهيَ مشويَّةٌ فقالتْ لكَ الذراعُ : لا تأكلني ؛ فإنِّي مسمومةٌ[1] .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ دعا نوحٌ علىٰ قومِهِ فقالَ : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ، ولوْ دعوتَ علينا مثلَها . . لهلكْنا كلُّنا ، فلقدْ وُطِىءَ ظهرُكَ وأُدميَ وجهُكَ وكُسِرَتْ رَباعيتُكَ[2] ، فأبيتَ أنْ تقولَ إلا خيراً ، فقلتَ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لقومي فإنَّهُمْ لا يعلمونَ »[3] .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ؛ لقدِ اتبعَكَ في قلَّةِ سنِّكَ وقصرِ عمرِكَ ما لمْ يتبعْ نوحاً في كثرةِ سنِّهِ وطولِ عمرِهِ ، ولقدْ آمنَ بكَ الكثيرُ وما آمنَ معهُ إلا قليلٌ .

بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ؛ لوْ لمْ تجالسْ إلا كفؤاً لكَ . . ما جالستَنا، ولوْ لمْ تنكحْ إلا كفؤاً لكَ . . ما نكحتَ إلينا، ولوْ لمْ تؤاكلْ إلا كفؤاً لكَ . . ما واكلتنا، فلقدْ ـ واللهِ ـ جالستَنا، ونكحتَ إلينا، وواكلتنا، ولبستَ الصوفَ[4]،

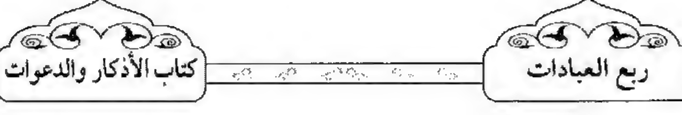
---

(١) حديث الشاة المسمومة عند البخاري (٢٦١٧) ، ومسلم (٢١٩٠) .

(٢) وكان ذلك في غزوة أحد كما في « البخاري » (٢٩٠٣) ، ومسلم (١٧٩٠) .

(٣) كنىٰ عن نفسه صلى الله عليه وسلم بذلك كما في «البخاري» (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(٤) لبسه صلى الله عليه وسلم الصوف عند البخاري (٥٧٩٩) ، ومسلم (٢٧٤) ، وروى الترمذي (٢٤٧٩) عن أبي موسى الأشعري قال : (يا بنيَّ ؛ لو رأيتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصابتنا السماء . . لحسبت أن ريحنا ريح الضأن) ، قال الترمذي : ومعنىٰ هـٰذا الحديث : أنه كان ثيابهم الصوف ، فإذا أصابهم المطر . . يجيء من ثيابهم ريح لضأن .



وركبتَ الحمارَ ، وأردفتَ خلفَكَ[1] ، ووضعتَ طعامَكَ على الأرضِ[2] ، ولعقتَ أصابعَكَ تواضعاً منكَ[3] ، صلَّى اللهُ عليكَ)[4] .

وقالَ بعضُهُمْ : كنتُ أكتبُ الحديثَ وأصلِّي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ ولا أسلِّمُ ، فرأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقالَ : أمَا تتمُّ الصلاةَ عليَّ في كتابِكَ ؟ فما كتبتُ بعدَ ذلكَ إلا صلَّيتُ وسلَّمْتُ عليهِ[5] .

ورُوِيَ عنْ أبي الحسنِ الشافعيِّ قالَ : رأيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ بمَ جُزِي الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ عنكَ حيثُ يقولُ في كتابِهِ « الرسالةِ » : (وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ كلَّما ذكرَهُ الذاكرونَ وغفلَ عنْ ذكرِهِ الغافلونَ) ؟[6] فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : جُزِيَ عنِّي أنَّهُ لا يوقفُ للحسابِ[7] .

* * *

---

(١) كما في « البخاري » (٢٩٨٧) ، و« مسلم » (١٧٩٨) .
(٢) فقد روى البخاري (٥٣٨٦) أنه صلى الله عليه وسلم ما أكل علىٰ خوان قط .
(٣) كما في « مسلم » (٢٠٣٤) .
(٤) قال الحافظ العراقي : (هو غريب بطوله من حديث عمر ، وهو معروف من أوجه) ، وحكىٰ تخريج قطعه . « إتحاف » (٥/٥٣) .
(٥) رواه الحافظ السلفي في « الوجيز في ذكر المجاز والمجيز » (٢٨) .
(٦) الرسالة (ص١٦) .
(٧) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/٤٣٦) .

فضيلة الاستغفار

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ .

وقالَ علقمةُ والأسودُ : قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ آيتانِ ما أذنبَ عبدٌ ذنباً فقرأهما ، واستغفرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . إلا غفرَ اللهُ لهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآيةَ ، وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾)[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ أنْ يقولَ : « سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أكثرَ الاستغفارَ . . جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ مِنْ كلِّ همٍّ فرجاً ، ومِنْ كلِّ ضيقٍ مخرجاً ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ »[3] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠١٣٧) من طريق علقمة والأسود النخعيين .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤١٠) ، وهو في « الصحيحين » في أذكار الركوع والسجود دون قوله : « إنك أنت التواب الرحيم » .

(٣) رواه أبو داوود (١٥١٨)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (١٠٢١٧)، وابن ماجه (٣٨١٩).

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأستغفرُ اللهَ سبحانَهُ وأتوبُ إليهِ في اليومِ سبعينَ مرَّةً »[1] ، هـٰذا معَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهُ ليغانُ علىٰ قلبي ، حتَّىٰ إنِّي لأستغفرُ اللهَ تعالىٰ في كلِّ يومٍ مئةَ مرَّةٍ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ حينَ يأوي إلىٰ فراشِهِ : أستغفرُ اللهَ العظيمَ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيومَ وأتوبُ إليهِ ثلاثَ مرَّاتٍ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنوبَهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ أوْ عددَ رملِ عالجٍ أوْ عددَ ورقِ الشجرِ أوْ عددَ أيامِ الدنيا »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ آخرَ : « مَنْ قالَ ذلكَ . . غُفِرَتْ ذنوبُهُ وإنْ كانَ فارّاً مِنَ الزحفِ »[5] .

وقالَ حذيفةُ : كنتُ ذربَ اللسانِ علىٰ أهلي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لقدْ خشيتُ أنْ يُدخلَني لساني النارَ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧) بزيادة : (أكثر) ، وبلفظ المصنف هو عند الترمذي (٣٢٥٩) ، وابن ماجه (٣٨١٦) .

(٢) فهو من باب الترقي ، أو الاعتراف بما عسىٰ حصل له من التقصير في رؤية الأعمال والالتفات . « إتحاف » (٥/ ٥٧) .

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٢) ، **والغين** : التغطية .

(٤) رواه الترمذي (٣٣٩٧) .

(٥) رواه أبو داوود (١٥١٧) ، والترمذي (٣٥٧٧) .

« فأينَ أنتَ مِنَ الاستغفارِ ، فإنِّي لأستغفرُ اللهَ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ »[١] .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ . . فاستغفري اللهَ وتوبي إليهِ ؛ فإنَّ التوبةَ مِنَ الذنبِ الندمُ والاستغفارُ »[٢] .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في الاستغفارِ : « اللهمَّ ؛ اغفرْ لي خطيئتي وجهْلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي جدِّي وهزلي ، وخطئي وعمدي ، وكلُّ ذلكَ عندي ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، أنتَ المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ ، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ »[٣] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : كنتُ رجلاً إذا سمعتُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حديثاً . . نفعَني اللهُ عزَّ وجلَّ بما شاءَ أنْ ينفعَني منهُ ، وإذا حدَّثني أحدٌ مِنْ أصحابِهِ . . استحلفتُهُ ، فإذا حلفَ . . صدقتُهُ ، قالَ : وحدَّثني أبو بكرٍ وصدقَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما مِنْ عبدٍ يذنبُ ذنباً ، فيحسنُ الطهورَ ، ثمَّ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١٠) .

(٢) هو قطعة من حديث براءتها رضي الله تعالىٰ عنها ، وهو عند البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) ، والحديث بتمامه وبلفظ المصنف رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٦٤) .

(٣) رواه البخاري (٦٣٩٨) ، ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له .

يقومُ فيصلِّي ركعتينِ ، ثمَّ يستغفرُ اللهَ عزَّ وجلَّ . . إلا غفرَ اللهُ لهُ » ثمَّ تلا قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ المؤمنَ إذا أذنبَ ذنباً . . كانتْ نكتةٌ سوداءُ في قلبِهِ ، فإنْ تابَ ونزعَ واستغفرَ . . صُقِلَ قلبُهُ منها ، فإنْ زادَ . . زادَتْ حتَّىٰ تعلوَ قلبَهُ ، فذلكَ الرانُ الذي ذكرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابِهِ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ »[2] .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ اللهَ سبحانَهُ ليرفعُ الدرجةَ للعبدِ في الجنَّةِ ، فيقولُ : يا ربِّ ؛ أنَّىٰ لي هٰذهِ ؟ فيقولُ عزَّ وجلَّ : باستغفارِ ولدِكَ لكَ »[3] .

وروتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « اللهمَّ ؛ اجعلني مِنَ الذين إذا أحسنوا . . استبشروا ، وإذا أساؤوا . . استغفروا »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا أذنبَ العبدُ ذنباً فقالَ : اللَّهمَّ ؛ اغفرْ لي . . فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أذنبَ عبدي ذنباً ، فعلمَ أنَّ لهُ ربّاً يأخذُ بالذنبِ ويغفرُ الذنبَ ، عبدي ؛ اعملْ ما شئتَ ، فقدْ غفرتُ لكَ »[5] .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥٢١) ، والترمذي (٤٠٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠١٧٥) ، وابن ماجه (١٣٩٥) .
(٢) رواه الترمذي (٣٣٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) .
(٣) رواه ابن ماجه (٣٦٦٠) ، وأحمد في « المسند » (٢/ ٥٠٩) .
(٤) رواه ابن ماجه (٣٨٢٠) .
(٥) رواه البخاري (٧٥٠٧) ، ومسلم (٢٧٥٨) ويكون ذلك بعد ثلاث مرار .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أصرَّ مَنِ استغفرَ وإنْ عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً لمْ يعملْ خيراً قطُّ نظرَ إلى السماءِ فقالَ : إنَّ لي ربّاً ، يا ربِّ ؛ اغفرْ لي ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : قدْ غفرتُ لكَ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أذنبَ ذنباً ، فعلمَ أنَّ اللهَ قدِ اطلعَ عليهِ . . غفرَ لهُ وإنْ لمْ يستغفرْ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا عبادي ؛ كلُّكُمْ مذنبٌ إلا مَنْ عافيتُهُ ، فاستغفروني أغفرْ لكمْ ، ومَنْ علمَ أنِّي ذو قدرةٍ على أنْ أغفرَ لهُ . . غفرتُ لهُ ولا أبالي »(٤) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ قالَ : سبحانَكَ ، ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءاً فاغفرْ لي ، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ . . غُفِرَتْ لهُ ذنوبُهُ ولوْ كانتْ كمدبِّ النملِ »(٥) .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥١٤) ، والترمذي (٣٥٥٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١٠٧) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٤٦٩) .

(٤) رواه الترمذي (٢٤٩٥) ، وابن ماجه (٤٢٥٧) ، وأصله عند مسلم (٢٥٧٧) .

(٥) رواه البيهقي في « الدعوات الكبير » (١٩٠) ، ولفظه : عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده يوماً فقال : « ألا أعلمك كلمات تقولهن : لو كانت عليك كعدد النمل أو كعدد الذر ذنوباً . . غفرها الله لك على أنه غفور لك؟ لا إلـه =

ويروىٰ أنَّ أفضلَ الاستغفارِ : اللَّهمَّ ؛ أنتَ ربِّي وأنا عبدُكَ خلقتَني ، وأنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعتُ ، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ ، وأبوءُ علىٰ نفسي بذنبي ، فقدْ ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي ، فاغفرْ لي ذنوبي ما قدَّمتُ منها وما أخَّرْتُ ؛ فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ جميعاً إلا أنتَ(١) .

الآثار :

قالَ خالدُ بنُ معدانَ : (قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : إنَّ أحبَّ عبادي إليَّ المتحابُّونَ بحبِّي ، والمتعلقةُ قلوبُهُمْ بالمساجدِ ، والمستغفرونَ بالأسحارِ ، أولئكَ الذين إذا أردْتُ أهلَ الأرضِ بعقوبةٍ .. ذكرتُهُمْ ، فتركتُهُمْ وصرفتُ العقوبةَ عنهُمْ)(٢) .

وقالَ قتادةُ رحمهُ اللهُ : (القرآنُ يدلُّكُمْ علىٰ دائِكُمْ ودوائِكُمْ ، أمَّا داؤُكُمْ .. فالذنوبُ ، وأمَّا دواؤُكُمْ .. فالاستغفارُ)(٣) .

= إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملت سوءاً وظلمت نفسي ، فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

(١) رواه بنحوه البخاري (٦٣٠٦) وهو حديث سيد الاستغفار .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢١٢) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٢٦٨٥) مرفوعاً : « يقول الله عز وجل : إني لأهم بأهل الأرض عذاباً ، فإذا نظرت إلىٰ عمار بيوتي المتحابين فيَّ ، وإلى المستغفرين بالأسحار .. صرفت عنهم » .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٤٥) .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (العجبُ ممَّنْ يهلِكُ ومعهُ النجاةُ ! قيلَ : وما هيَ ؟ قالَ : الاستغفارُ) .

وكانَ يُقالُ : (ما ألهمَ اللهُ سبحانهُ عبداً الاستغفارَ وهوَ يريدُ أنْ يعذِّبَهُ) .

وقالَ الفضيلُ : (قولُ العبدِ : أستغفرُ اللهَ . . تفسيرُها : أقلني)[١] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (العبدُ بينَ ذنبٍ ونعمةٍ ، لا يصلحُهُما إلا الحمدُ والاستغفارُ)[٢] .

وقالَ الربيعُ بنُ خُثيمٍ رحمهُ اللهُ : (لا يقولنَّ أحدُكُمْ : أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ ، فيكونَ ذنباً وكذباً إنْ لمْ يفعلْ ، ولكنْ ليقلْ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي وتبْ عليَّ)[٣] .

وقالَ الفضيلُ رحمهُ اللهُ : (الاستغفارُ بلا إقلاعٍ توبةُ الكذابينَ)[٤] .

وقالتْ رابعةُ العدويَّةُ رحمَها اللهُ: (استغفارُنا يحتاجُ إلى استغفارٍ كثيرٍ)[٥] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (مَنْ قدَّمَ الاستغفارَ على الندمِ . . كانَ مستهزئاً باللهِ عزَّ وجلَّ وهوَ لا يعلمُ)[٦] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٨٩٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الشكر » (١٥٠) .

(٣) أورده الرافعي في « تاريخ قزوين » (١/ ١٠٠) ، وانظر « الأذكار » (ص٦٥٠) ، و« الإتحاف » (٥/ ٦١) .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٧٧٧) عن ذي النون المصري .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٨٩) .

(٦) روى الخبر البيهقي في « الشعب » (٦٧٧٨) .

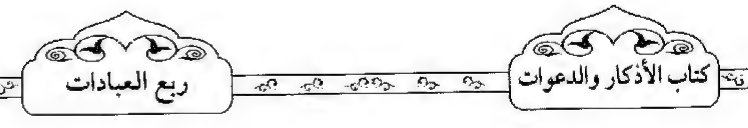
وسُمعَ أعرابيٌّ وهوَ متعلِّقٌ بأستارِ الكعبةِ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنَّ استغفاري معَ إصراري للؤمٌ ، وإنَّ تركيَ استغفارَكَ معَ علمي بسعةِ عفوِكَ لعجْزٌ ، فكمْ تتحبَّبُ إليَّ بالنعمِ معَ غناكَ عنِّي ، وكمْ أتبغَّضُ إليكَ بالمعاصي معَ فقري إليكَ ؟! يا مَنْ إذا وعدَ . . وفىٰ ، وإذا أوعدَ . . عفا ، أدخلْ عظيمَ جُرمي في عظيمِ عفوِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ)(١) .

وقالَ أبو عبدِ اللهِ الورَّاقُ : لوْ كانَ عليكَ مثلُ عددِ القطرِ وزبدِ البحرِ ذنوباً . . لمُحيَتْ عنكَ إذا دعوتَ ربَّكَ بهٰذا الدعاءِ مخلصاً إنْ شاءَ اللهُ العزيزُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أستغفرُكَ مِنْ كلِّ ذنبٍ تبتُ إليكَ منهُ ثمَّ عدتُ فيهِ ، وأستغفرُكَ مِنْ كلِّ ما وعدتُكَ بهِ مِنْ نفسي ثمَّ لمْ أوفِ لكَ بهِ، وأستغفرُكَ مِنْ كلِّ عملٍ أردتُ بهِ وجهَكَ فخالطَهُ غيرُكَ، وأستغفرُكَ منْ كلِّ نعمةٍ أنعمتَ بها عليَّ فاستعنتُ بها علىٰ معصيتِكَ ، وأستغفرُكَ يا عالمَ الغيبِ والشهادةِ مِنْ كلِّ ذنبٍ أتيتُهُ في ضياءِ النهارِ وسوادِ الليلِ ، في ملأٍ أو خلاءٍ ، وسرٍّ وعلانيةٍ ، يا حليمُ) ويقالُ : إنَّهُ استغفارُ آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، وقيل : الخضرِ عليهِ الصلاةُ السلامُ(٢) .

---

(١) رواه اللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٣/ ١١٥٢) بنحوه ، ونقل نحوه الجاحظ في « البيان والتبيين » (٣/ ١٧١) عن شيخ من أعراب طيء .

(٢) قوت القلوب (١/ ٩) بنحوه ، قال الحافظ الزبيدي : (وقد وقع إلينا مسنداً) . « إتحاف » (٥/ ٦٢) .



البَابُ الثَّالِثُ
في أدعيةٍ مأثورةٍ ومَعْزيّةٍ إلى أسبابها وأربابها مما يُستحبّ أن يدعو بها المريد صباحًا ومساءً وبعقب كلّ صلاة

فمنها : دعاءُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ ركعتيِ الفجرِ :

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : بعثني العباسُ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأتيتُهُ ممسياً وهوَ في بيتِ خالتي ميمونةَ ، فقامَ يصلِّي مِنَ الليلِ ، فلمَّا صلَّى الركعتينِ قبلَ صلاةِ الفجرِ . قالَ : « اللَّهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ رحمةً مِنْ عندِكَ تهدي بها قلبي ، وتجمعُ بها شملي ، وتلمُّ بها شَعَثي ، وتردُّ بها أُلفتي ، وتصلحُ بها ديني ، وتحفظُ بها غائبي ، وترفعُ بها شاهدي ، وتزكِّي بها عملي ، وتبيِّضُ بها وجهي ، وتلهمُني بها رشدي ، وتعصمُني بها مِنْ كلِّ سوءٍ .

اللهمَّ ؛ أعطني إيماناً صادقاً ، ويقيناً ليسَ بعدَهُ كفرٌ ، ورحمةً أنالُ بها شرفَ كرامتِكَ في الدنيا والآخرةِ .

اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الفوزَ عندَ القضاءِ ، ومنازلَ الشهداءِ ، وعيشَ السعداءِ ، والنصرَ على الأعداءِ ، ومرافقةَ الأنبياءِ .

اللهمَّ ؛ إنِّي أُنزلُ بكَ حاجتي وإنْ ضَعُفَ رأيي ، وقَصُرَ عملي ،

وافتقرتُ إلىٰ رحمتِكَ ، فأسألُكَ يا قاضيَ الأمورِ ، ويا شافيَ الصدورِ ، كما تجيرُ بينَ البحورِ : أنْ تجيرني مِنْ عذابِ السعيرِ ، ومنْ دعوةِ الثبورِ ، ومِنْ فتنةِ القبورِ .

اللهمَّ ؛ ما قَصُرَ عنهُ رأيي ، وضَعُفَ عنهُ عملي ، ولمْ تبلغْهُ نيَّتي وأمنيتي مِنْ خيرٍ وعدْتَهُ أحداً مِنْ عبادِكَ ، أوْ خيرٍ أنتَ معطيهِ أحداً مِنْ خلقِكَ ؛ فإنِّي أرغبُ إليكَ فيهِ ، وأسألُكَهُ يا ربَّ العالمينَ .

اللهمَّ ؛ اجعلْنا هادينَ مهتدينَ ، غيرَ ضالِّينَ ولا مضلِّينَ ، حرباً لأعدائِكَ وسلْماً لأوليائِكَ ، نحبُّ بحبِّكَ مَنْ أطاعَكَ مِنْ خلقِكَ ، ونعادي بعداوتِكَ مَنْ خالفَكَ مِنْ خلقِكَ .

اللهمَّ ؛ هٰذا الدعاءُ وعليكَ الإجابةُ ، وهٰذا الجُهْدُ وعليكَ التكلانُ ، وإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

ذا الحبلِ الشديدِ والأمرِ الرشيدِ ؛ أسألُكَ الأمنَ يومَ الوعيدِ ، والجنَّةَ يومَ الخلودِ ، معَ المقرَّبينَ الشهودِ ، والركَّعِ السجودِ ، المُوفينَ بالعهودِ ، إنَّكَ رحيمٌ ودودٌ ، وأنتَ تفعلُ ما تريدُ .

سبحانَ الذي تعطَّفَ بالعزِّ وقالَ بهِ ، سبحانَ الذي لبسَ المجدَ وتكرَّمَ بهِ ، سبحانَ الذي لا ينبغي التسبيحُ إلا لهُ ، سبحانَ ذي الفضلِ والنعمِ ، سبحانَ ذي القدرةِ والكرمِ ، سبحانَ الذي أحصىٰ كلَّ شيءٍ بعلمِهِ .

اللَّهمَّ ؛ اجعلْ لي نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً في سمعي ،

ونوراً في بصري ، ونوراً في شَعَري ، ونوراً في بشري ، ونوراً في لحمي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في عظامي ، ونوراً مِنْ بينِ يديَّ ، ونوراً مِنْ خلفي ، ونوراً عَنْ يميني ، ونوراً عَنْ شمالي ، ونوراً مِنْ فوقي ، ونوراً مِنْ تحتي .

اللَّهمَّ ؛ زدني نوراً ، وأعطني نوراً ، واجعلْ لي نوراً »[1] .

دعاءُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا[2] :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « عليكِ بالجوامعِ الكواملِ ؛ قُولي : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ مِنَ الخيرِ كلِّهِ ، عاجلِهِ وآجلِهِ ، ما علمتُ منهُ وما لمْ أعلمْ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الشرِّ كلِّهِ ، عاجلِهِ وآجلِهِ ، ما علمتُ منهُ وما لمْ أعلمْ ، وأسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ ، وأعوذُ بكَ مِنَ النارِ وما قرَّبَ إليها مِنْ قولٍ وعملٍ ، وأسألُكَ مِنَ الخيرِ ما سألَكَ عبدُكَ ورسولُكَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأستعيذُكَ ممَّا استعاذَكَ منهُ عبدُكَ ورسولُكَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأسألُكَ ما قضيتَ لي مِنْ أمرٍ أنْ تجعلَ عاقبتَهُ رشداً ، برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ »[3] .

---

(١) الحديث بلفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/٥) ، ورواه كذلك الطبراني في « الكبير » (١٠/٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٩) ، وهو عند الترمذي (٣٤١٩) من غير ذكر بعث ابن عباس إلىٰ بيت خالته ميمونة رضي الله عنهم .

(٢) وإنما نسب إليها لكون النبي صلى الله عليه وسلم علَّمها إياه . « إتحاف » (٥/٦٦) .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٤٦) ، وهو في « القوت » (١/٨) .

دعاءُ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا فاطمةُ ؛ ما يمنعُكِ أنْ تسمعي ما أوصيكِ بهِ ؟ أنْ تقولي : يا حيُّ ، يا قيُّومُ ؛ برحمتِكَ أستغيثُ ، لا تكلني إلىٰ نفسي طرفةَ عينٍ ، وأصلحْ لي شأني كلَّهُ »[1] .

***

دعاءُ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ :

علَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أبا بكرٍ الصديقَ رضيَ اللهُ عنهُ أنْ يقولَ : « اللَّهمَّ ؛ إنِّي أسأَلُكَ بمحمَّدٍ نبيِّكَ ، وإبراهيمَ خليلِكَ ، وموسىٰ نجيِّكَ ، وعيسىٰ كلمتِكَ وروحِكَ ، وبتوراةِ موسىٰ ، وإنجيلِ عيسىٰ ، وزبورِ داودَ ، وفرقانِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعليهِمْ أجمعينَ ، وبكلِّ وحيٍ أوحيتَهُ ، أوْ قضاءٍ قضيتَهُ ، أوْ سائلٍ أعطيتَهُ ، أوْ غنيٍّ أفقرتَهُ ، أوْ فقيرٍ أغنيتَهُ ، أوْ ضالٍّ هديتَهُ ، وأسأَلُكَ باسمِكَ الذي أنزلتَهُ علىٰ موسىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأسأَلُكَ باسمِكَ الذي بثثتَ بهِ أرزاقَ العبادِ ، وأسأَلُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على الأرضِ فاستقرَّتْ ، وأسأَلُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على السماواتِ فاستقلَّتْ ، وأسأَلُكَ باسمِكَ الذي وضعتَهُ على الجبالِ فرسَتْ ، وأسأَلُكَ باسمِكَ الذي استقلَّ بهِ عرشُكَ ، وأسأَلُكَ باسمكَ الطهرِ الطاهرِ الأحدِ الصمدِ الوترِ المنزَّلِ في كتابِكَ مِنْ لدنْكَ مِنَ النورِ المبينِ ، وأسأَلُكَ

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٣٣٠) ، وهو في « القوت » (١/ ٨) .

باسمِكَ الذي وضعتَهُ على النهارِ فاستنارَ ، وعلى الليْلِ فأظلمَ ، وبعظمتِكَ وكبريائِكَ ، وبنورِ وجهِكَ الكريمِ : أنْ ترزقني القرآنَ والعلمَ بهِ وتخلطَهُ بلحمي ودمي ، وسمعي وبصري ، وتستعملَ بهِ جسدي بحولِكَ وقوَّتِكَ ، فإنَّهُ لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ »[1] .

* * *

دعاءُ بريدةَ الأسلميِّ رضيَ اللهُ عنهُ :

رُوِيَ أنَّهُ قالَ لهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا بريدةُ ؛ ألا أعلِّمُكَ كلماتٍ مَنْ أرادَ اللهُ بهِ خيراً علَّمَهُنَّ إيَّاهُ ثمَّ لمْ يُنسِهنَّ إياهُ أبداً ؟ » قالَ : قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليكَ ؛ قالَ : « قلْ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي ضعيفٌ فقوِّ في رضاكَ ضعفي ، وخذْ إلى الخيرِ بناصيتي ، واجعلِ الإسلامَ منتهىٰ رضايَ ، اللَّهمَّ ، إنِّي ضعيفٌ فقوِّني ، وإنِّي ذليلٌ فأعزَّني ، وإنِّي فقيرٌ فأغنني ، يا أرحمَ الراحمينَ »[2] .

* * *

---

(١) كذا في « القوت » (١/٨) ، والحديث بهذه القصة عزاه الحافظ العراقي لأبي الشيخ في « الثواب » ، ومن رواية ابن عباس رواه الطبراني في « الدعاء » (١٣٣٤) ، ومن رواية ابن مسعود رواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٣٩٢).
وروىٰ أبو داوود (٥٠٦٧) ، والترمذي (٣٣٩٢) من تعليم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر دعاء ، قال : « قل : اللهم ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إلـه إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه » .

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢٩٩٦٥) ، والرامهرمزي (ص٣٤٣) ، والحاكم (١/ ٥٢٧) .

دعاءُ قبيصةَ بنِ المخارقِ :

إذْ قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : علِّمني كلماتٍ ينفعُني اللهُ عزَّ وجلَّ بها ؛ فقدْ كبرَ سنِّي ، وعجزتُ عنْ أشياءَ كثيرةٍ كنتُ أعملُها ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمَّا لدنياكَ : فإذا صلَّيتَ الغداةَ . . فقلْ ثلاثَ مرَّاتٍ : سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، فإنَّكَ إذا قلتَهُنَّ . . أمنتَ مِنَ عمىً وجذامٍ وبرصٍ وفالجٍ ، وأمَّا لآخرتِكَ : فقلْ : اللهمَّ ؛ اهدني مِنْ عندِكَ ، وأفضْ عليَّ مِنْ فضلِكَ ، وانشرْ عليَّ مِنْ رحمتِكَ ، وأنزلْ عليَّ مِنْ بركاتِكَ » ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أما إنَّهُ إذا وافىٰ بهنَّ عبدٌ يومَ القيامةِ لمْ يدعْهُنَّ . . فُتِحَ لهُ أربعةُ أبوابٍ مِنَ الجنَّةِ ، يدخلُ مِنْ أيِّها شاءَ »(١) .

دعاءُ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ :

قيلَ لأبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ ذاتَ يومٍ : قدِ احترقَتْ دارُكَ ، وكانتِ النارُ قدْ وقعَتْ في محلَّتِهِ ، فقالَ : ما كانَ اللهُ ليفعلَ ذلكَ ، فقيلَ لهُ ذلكَ ثلاثاً وهوَ يقولُ : ما كانَ اللهُ ليفعلَ ذلكَ ، ثمَّ أتاهُ آتٍ فقالَ : يا أبا الدرداءِ ؛ إنَّ النارَ حيثُ دنَتْ مِنْ دارِكَ . . طفئَتْ ، قالَ : قدْ علمتُ ذلكَ ، فقيلَ لهُ :

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٨/٣٦٨) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٣٣ ، ١٣٤) بنحوه ، ولفظه عند صاحب « القوت » (١/٦) .

ما ندري أيُّ قوليكَ أعجبُ ، قالَ : إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَن قالَ هؤلاءِ الكلماتِ في ليلٍ أَوْ نهارٍ . . لمْ يضرُّهُ شيءٌ » وقدْ قلتُهُنَّ ، وهيَ : « اللهمَّ ؛ أنتَ ربِّي لا إلـٰهَ إلاَّ أنتَ ، عليكَ توكَّلْتُ وأنتَ ربُّ العرشِ العظيمِ ، لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لمْ يشأْ لمْ يكنْ ، أعلمُ أنَّ اللهَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وأنَّ اللهَ قدْ أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً وأحصىٰ كلَّ شيءٍ عدداً ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ نفسي ، ومِنْ شرِّ كلِّ دابَّةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِها ، إنَّ ربِّي علىٰ صراطٍ مستقيمٍ »(١) .

* * *

دعاءُ الخليلِ إبراهيمَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ :

كانَ يقولُ إذا أصبحَ : (اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا خلقٌ جديدٌ ، فافتحْهُ عليَّ بطاعتِكَ ، واختمْهُ لي بمغفرتِكَ ورضوانِكَ ، وارزقني فيهِ حسنةً تقبلُها منِّي ، وزكِّها وضعِّفْها لي ، وما عملتُ فيهِ مِنْ سيئةٍ فاغفرْها لي ، إنَّكَ غفورٌ رحيمٌ ، ودودٌ كريمٌ) ، قالَ : ومَنْ دعا بهـٰذا الدعاءِ إذا أصبحَ . . فقدْ أدَّىٰ شكرَ يومِهِ(٢) .

* * *

(١) كذا في « القوت » (١/ ٩) ، ورواه الطبراني في « الدعاء » (٣٤٣) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٨) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٩) .

دعاءُ عيسىٰ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ :

كانَ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أصبحتُ لا أستطيعُ دفعَ ما أكرهُ ، ولا أملكُ نفعَ ما أرجو ، وأصبحَ الأمرُ بيدِ غيري ، وأصبحتُ مرتهناً بعملي ، فلا فقيرَ أفقرُ منِّي ، اللهمَّ ؛ لا تُشْمِتْ بي عدُوِّي ، ولا تَسُؤْ بي صديقي ، ولا تجعلْ مصيبتي في ديني ، ولا تجعلِ الدنيا أكبرَ همِّي ، ولا تسلِّطْ عليَّ مَنْ لا يرحمني يا حيُّ يا قيومُ)(١) .

دعاءُ الخضرِ عليهِ السلامُ :

يقالُ : إنَّ الخضرَ وإلياسَ عليهما السلامُ إذا التقيا في كلِّ موسمٍ . لمْ يفترقا إلا عنْ هـٰذهِ الكلماتِ : (باسمِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا قوَّةَ إلا باللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، كلُّ نعمةٍ مِنَ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، الخيرُ كلُّهُ بيدِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ) ، فمَنْ قالَها ثلاثَ مراتٍ إذا أصبحَ . . أمنَ مِنَ الحرْقِ والغرَقِ والسرَقِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ(٢) .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/٣٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٣٧) .

(٢) كذا في « القوت » (١/٩) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٢/٣٢٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/٤٢٧) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٨٨٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (٥/٦٩) .

دعاءُ معروفٍ الكرخيِّ رحمهُ اللهُ :

قالَ محمدُ بنُ حسانَ : قالَ لي معروفٌ الكرخيُّ رحمهُ اللهُ : ألا أعلِّمُكَ عشرَ كلماتٍ ؛ خمسٌ للدنيا وخمسٌ للآخرةِ ، مَنْ دعا اللهَ عزَّ وجلَّ بهنَّ . . وجدَ اللهَ تعالىٰ عندَهُنَّ ؟ قلتُ : اكتبْها لي ، قالَ : لا ، ولكنْ أردِّدُها عليكَ كما ردَّدَها عليَّ بكرُ بنُ خُنَيسٍ رحمهُ اللهُ : حسبيَ اللهُ لديني ، حسبيَ اللهُ لدنيايَ ، حسبيَ اللهُ الكريمُ لما أهمَّنِي ، حسبيَ اللهُ الحليمُ القويُّ لمَنْ بغىٰ عليَّ ، حسبيَ اللهُ الشديدُ لمَنْ كادني بسوءٍ ، حسبيَ اللهُ الرحيمُ عندَ الموتِ ، حسبيَ اللهُ الرؤوفُ عندَ المساءَلَةِ في القبرِ ، حسبيَ اللهُ الكريمُ عندَ الحسابِ ، حسبيَ اللهُ اللطيفُ عندَ الميزانِ ، حسبيَ اللهُ القديرُ عندَ الصراطِ ، حسبيَ اللهُ لا إلـٰهَ إلا هوَ ، عليهِ توكَّلْتُ وهوَ ربُّ العرشِ العظيمِ)[1] .

وقدْ رُوِيَ عنْ أبي الدرداءِ أنَّهُ قالَ : (مَنْ قالَ في كلِّ يومٍ سبعَ مرَّاتٍ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . . كفاهُ الله عزَّ وجلَّ ما أهمَّهُ مِنْ أمرِ آخرتِهِ ، صادقاً كانَ بها أوْ كاذباً)[2] .

(١) قوت القلوب (١/ ٩) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص٢١٧) عن بريدة مرفوعاً بنحوه .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٠) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٨) .

دعاءُ عتبةَ الغلامِ رحمهُ اللهُ :

وقدْ رُئِيَ في المنامِ بعدَ موتِهِ ، فقالَ : دخلتُ الجنَّةَ بهٰذهِ الكلماتِ : (اللهمَّ ، يا هاديَ المضلِّينَ ، وراحمَ المذنبينَ ، ومقيلَ عثراتِ العاثرينَ ؛ ارحمْ عبدَكَ ذا الخطرِ العظيمِ ، والمسلمينَ كلَّهُمْ أجمعينَ ، واجعلْنا معَ الأخيارِ المرزوقينَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ مِنَ النبيِّينَ والصدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، آمينَ يا ربَّ العالمينَ)(١) .

دعاءُ آدمَ علىٰ نبيِّنا وعليهِ الصلاةُ والسلامُ :

قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا : لمَّا أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يتوبَ علىٰ آدمَ عليهِ السلامُ . طافَ سبعاً بالبيتِ وهوَ يومئذٍ ليسَ بمبنيٍّ ربوةٌ حمراءُ ، ثمَّ قامَ فصلَّىٰ ركعتينِ ، ثمَّ قالَ : (اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ سرِّي وعلانيتي فاقبلْ معذرتي ، وتعلمُ حاجتي فأعطني سؤلي ، وتعلمُ ما في نفسي فاغفرْ لي ذنوبي ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً يباشرُ قلبي ، ويقيناً صادقاً حتَّىٰ أعلمَ أنَّهُ لنْ يصيبَني إلا ما كتبتَهُ عليَّ فأرضني بما قسمتَهُ لي يا ذا الجلالِ والإكرامِ) ، فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ أنِّي قدْ غفرتُ لكَ ، ولنْ يأتيَني أحدٌ مِنْ ذريَّتِكَ فيدعوَني بمثلِ الذي دعوتني بهِ . إلا غفرتُ لهُ ، وكشفتُ غمومَهُ وهمومَهُ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٠) ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٨) .

ونزعتُ الفقرَ مِنْ بينِ عينيهِ ، واتجرتُ لهُ مِنْ وراءِ كلِّ تاجرٍ ، وجاءَتْهُ الدنيا وهيَ راغمةٌ وإنْ كانَ لا يريدُها[١] .

دعاءُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ :

رواهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يمجِّدُ نفسَهُ كلَّ يومٍ ويقولُ : إنِّي أنا اللهُ ربُّ العالمينَ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الحيُّ القيومُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العليُّ العظيمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا لمْ ألدْ ولمْ أولدْ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العفوُّ الغفورُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا مبدئُ كلِّ شيءٍ وإليَّ يعودُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العزيزُ الحكيمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الرحمـٰنُ الرحيمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا مالكُ يومِ الدينِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا خالقُ الخيرِ والشرِّ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا خالقُ الجنَّةِ والنارِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰه إلا أنا الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي لمْ يتخذْ صاحبةً ولا ولداً ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الفردُ الوترُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الملكُ القدوسُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا السلامُ المؤمنُ المهيمنُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا العزيزُ الجبارُ المتكبِّرُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الخالقُ البارئُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الأحدُ المصوِّرُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا

---

(١) رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٢٠) عن عبد الله بن أبي سليمان، وهو من رواية السيدة عائشة مرفوعاً رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٧١)، وهو في « القوت » (١/ ١٠).

الكبيرُ المتعالِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا المقتدرُ القهارُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا الحليمُ الكريمُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا أهلُ الثناءِ والمجدِ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا أعلمُ السرَّ وأخفىٰ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا القادرُ الرزَّاقُ ، إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا فوقَ الخلقِ والخليقةِ » .

وذكرَ قبلَ كلِّ كلمةٍ : إنِّي أنا اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنا ، كما أوردناهُ في الأوَّلِ(١) ، فمَنْ دعا بهـٰذهِ الأسماءِ . . فليقلْ : (إنَّكَ أنتَ اللهُ لا إلـٰهَ إلا أنتَ كذا وكذا) ، فمَنْ دعا بهنَّ . . كُتبَ مِنَ الساجدينَ المخبتينَ الذينَ يجاورونَ محمداً وإبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ والنبيِّينَ صلواتُ اللهِ عليهِمْ في دارِ الجلالِ ، ولهُ ثوابُ العابدينَ في السماواتِ والأرضينَ(٢) .

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمدٍ وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

* * *

دعاءُ أبي المعتمرِ ـ وهوَ سليمانُ التيميُّ ـ وتسبيحاتُهُ رضيَ اللهُ عنهُ :

رُوِيَ أنَّ يونسَ بنَ عبيدٍ رحمهُ اللهُ رأىٰ رجلاً في المنامِ ممَّن قُتلَ شهيداً ببلادِ الرومِ ، فقالَ لهُ : ما أفضلُ ما رأيتَ ثَمَّ مِنَ الأعمالِ ؟ قالَ : رأيتُ

---

(١) أي : كما تمَّ إثباته من النسخة (أ) ، وهو موافق للأصل المنقول عنه وهو « القوت » (١/ ١٣) بتقديم وتأخير للبعض يسير ، وموافق لنسخة الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ٧١) كذلك .

(٢) روىٰ هـٰذا الحديث عن علي رضي الله عنه مرفوعاً الديلميُّ كما في « مسند الفردوس » (٨١١٢) ، وهو في « القوت » (١/ ١٣) كذلك .

تسبيحاتِ أبي المعتمرِ رحمهُ اللهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ بمكانٍ[1] .

وهيَ هٰذهِ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ عددَ ما خلقَ ، وعددَ ما هوَ خالقٌ ، وزنةَ ما خلقَ ، وزنةَ ما هو خالقٌ ، وملءَ ما خلقَ ، وملءَ ما هو خالقٌ ، وملءَ سماواتِهِ ، وملءَ أرضيهِ ، ومثلَ ذلكَ وأضعافَ ذلكَ ، وعددَ خلقِهِ ، وزنةَ عرشِهِ ، ومنتهىٰ رحمتِهِ ، ومدادَ كلماتِهِ ، ومبلغَ رضاهُ ، وحتَّىٰ يرضىٰ ، وإذا رضيَ ، وعددَ ما ذكرَهُ بهِ خلقُهُ في جميعِ ما مضىٰ ، وعددَ ما همْ ذاكروهُ فيما بقيَ ، في كلِّ سنةٍ وشهرٍ وجمعةٍ ويومٍ وليلةٍ وساعةٍ مِنَ الساعاتِ ، ونسمةٍ ونفسٍ مِنَ الأنفاسِ ، وأبدٍ منَ الآبادِ منَ أبدٍ إلى أبدٍ ، أبدَ الدنيا وأبدَ الآخرةِ ، وأكثرَ مِنْ ذلكَ ، لا ينقطعُ أولُهُ ، ولا ينفدُ آخرُهُ)[2] .

***

دعاءُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمهُ اللهُ :

روىٰ إبراهيمُ بنُ بشارٍ خادمُهُ أنَّهُ كانَ يقولُ هٰذا الدعاءَ في يومِ الجمعةِ إذا أصبحَ وإذا أمسىٰ : (مرحباً بيومِ المزيدِ ، والصبحِ الجديدِ ، والكاتبِ والشهيدِ ، يومُنا هٰذا يومُ عيدٍ ، اكتبْ لنا ما نقولُ : باسمِ اللهِ الحميدِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٨٢) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٦٥٣) من طريقه .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٠) ، وقد روىٰ صيغته عنه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٦٥٢) .

المجيدِ ، الرفيعِ الودودِ ، الفعَّالِ في خلقهِ ما يريدُ ، أصبحتُ باللهِ مؤمناً ، وبلقائِهِ مصدِّقاً ، وبحجتِهِ معترفاً ، ومِنْ ذنبي مستغفراً ، ولربوبيّةِ اللهِ خاضعاً ، ولسوى اللهِ في الإلهيةِ جاحداً ، وإلى اللهِ فقيراً ، وعلى اللهِ متوكِّلاً ، وإلى اللهِ منيباً ، أُشهِدُ اللهَ وأُشهِدُ ملائكتَهُ وأنبياءَهُ ورسلَهُ وحملةَ عرشِهِ ومَنْ خلقَهُ ومَنْ هوَ خالقُهُ . . بأنَّهُ هوَ اللهُ ، الذي لا إلـهَ إلا هوَ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تسليماً ، وأنَّ الجنةَ حقٌّ ، وأنَّ النارَ حقٌّ ، والحوضَ حقٌّ والشفاعةَ حقٌّ ، ومنكراً ونكيراً حقٌّ ، ووعدَكَ حقٌّ ووعيدَكَ حقٌّ ولقاءَكَ حقٌّ ، والساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأنَّ اللهَ يبعثُ مَنْ في القبورِ ، علىٰ ذلكَ أحيا ، وعليهِ أموتُ ، وعليهِ أبعثُ إنْ شاءَ اللهُ .

اللهمَّ ؛ أنتَ ربِّي لا إلـهَ إلا أنتَ ، خلقتني وأنا عبدُكَ ، وأنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ من شرِّ ما صنعتُ ، أعوذُ بكَ إلـهي مِنْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ .

اللهمَّ ؛ إنِّي ظلمتُ نفسي ، فاغفرْ لي ذنوبي ، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ ، واهدني لأحسنِ الأخلاقِ فإنَّهُ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها فإنَّهُ لا يصرفُ سيِّئَها إلا أنتَ .

لبيكَ وسعديكَ ، والخيرُ كلُّهُ بيديكَ ، أنا لكَ وإليكَ ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ ، آمنتُ اللهمَّ بما أرسلتَ مِنْ رسولٍ ، وآمنتُ اللهمَّ بما أنزلتَ مِنْ كتابٍ ، وصلَّى اللهُ علىٰ محمَّدٍ النبيِّ الأميِّ وعلىٰ آلِهِ وسلَّم تسليماً كثيراً ،

خاتمِ كلامي ومفتاحِهِ ، وعلىٰ أنبيائِهِ ورسلِهِ أجمعينَ ، آمينَ ربَّ العالمينَ .

اللهمَّ ؛ أوردْنا حوضَهُ ، واسقنا بكأسِهِ مشرباً رويّاً ، سائغاً هنيّاً ، لا نظمأُ بعدَهُ أبداً ، واحشرْنا في زمرتِهِ غيرَ خزايا ولا ناكثينَ للعهدِ ، ولا مرتابينَ ولا مفتونينَ ، ولا مغضوباً علينا ولا ضالِّينَ .

اللهمَّ ؛ اعصمْني مِنْ فتنِ الدنيا ، ووفقْني لما تحبُّ وترضىٰ ، وأصلحْ لي شأني كلَّهُ ، وثبتني بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ، ولا تضلَّني وإنْ كنتُ ظالماً .

سبحانَكَ سبحانَكَ يا عليُّ يا عظيمُ ، يا بارُّ يا رحيمُ ، يا عزيزُ يا جبَّارُ ، سبحانَ مَنْ سبَّحتْ لهُ السماواتُ بأكنافِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ الجبالُ بأصدائِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ البحارُ بأمواجِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ الحيتانُ بلغاتِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ النجومُ في السماءِ بإبراقِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ الشجرُ بأصولِها ونضارتِها ، وسبحانَ مَنْ سبَّحَتْ لهُ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ ، ومَنْ فيهنَّ ومَنْ عليهنَّ ، سبحانَ منْ سبَّحَ لهُ كلُّ شيءٍ منْ مخلوقاتِهِ ، تباركتَ وتعاليتَ ، سبحانَكَ سبحانَكَ يا حيُّ يا قيومُ يا عليمُ يا حليمُ ، سبحانَكَ لا إلـهَ إلا أنتَ وحدكَ لا شريكَ لكَ ، تحيي وتميتُ وأنتَ حيٌّ لا تموتُ ، بيدِكَ الخيرُ وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ)[1] .

* * *

(١) كذا رواه أبو طالب في « القوت » (١/٧٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٨) ، وقد جاء بعضه مرفوعاً .

البَابُ الرَّابِعُ

في أدعيةٍ مأثورةٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكيّ وابن خزيمة وابن المنذر رحمهم الله[(١)]

يستحبُّ للمريدِ إذا أصبحَ أنْ يكونَ أحدَ أورادِهِ الدعاءُ كما سيأتي ذكرُهُ في كتابِ الأورادِ ، فإنْ كنتَ مِنَ المريدينَ لحرثِ الآخرةِ ، المقتدينَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما دعا بهِ . . **فقلْ في مفتتحِ دعواتِكَ أعقابَ صلواتِكَ** : سبحانَ ربِّي العليِّ الأعلى الوهابِ[(٢)] ، لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ[(٣)] .

وقلْ : رضيتُ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيّاً ، ثلاثَ مرَّاتٍ[(٤)] .

وقلِ : اللهمَّ ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ ، ربَّ

---

(١) حيث قال أبو طالب رحمه الله تعالىٰ في « القوت » (١/ ١٤) : (وحذفنا ذكر فضائل ذلك وما جاء من الروايات إيجازاً) .
(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٥٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٩٨) .
(٣) رواه البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٥٩٣) .
(٤) رواه أبو داوود (٥٠٧٢) ، والترمذي (٢٣٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٧٠) .

كلِّ شيءٍ ومليكَهُ ؛ أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا أنتَ ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ نفسي ، وشرِّ الشيطانِ وشركِهِ(١) .

وقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ ، وأهلي ومالي ، اللهمَّ ؛ استرْ عوراتي ، وآمنْ روعاتي ، وأقلْ عثراتي ، واحفظني مِنْ بينِ يديَّ ومِنْ خلفي ، وعنْ يميني وعنْ شمالي ، ومِنْ فوقي ، وأعوذُ بكَ أنْ أُغتالَ مِنْ تحتي(٢) .

اللهمَّ ؛ لا تؤمنِّي مكرَكَ ، ولا تولِّني غيرَكَ ، ولا ترفعْ عنِّي سترَكَ ، ولا تُنسِني ذكرَكَ ، ولا تجعلْني مِنَ الغافلينَ(٣) .

وقلِ : اللهمَّ ؛ أنتَ ربِّي لا إلـهَ إلا أنتَ ، خلقْتَني وأنا عبدُكَ ، وأنا علىٰ عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ ، أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما صنعتُ ، أبوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي ، فاغفرْ لي فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ(٤) ثلاثَ مراتٍ .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠٦٧) ، والترمذي (٣٥٢٩) ، وهو من دعاء سيدنا أبي بكر المتقدم تعليقاً .

(٢) رواه أبو داوود (٥٠٧٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٣٢٥) ، وابن ماجه (٣٨٧١) ، وليس في الحديث : « أقل عثراتي » ، بل هو من سياق « القوت » (٨/١) .

(٣) رواه الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٢٠١٧) ، وابن النجار في « ذيله علىٰ تاريخ بغداد » (٢٢٨/١٦) ، وليس فيه : « ولا تولني غيرك » ، وهي في « القوت » (٣٢/١) .

(٤) رواه البخاري (٦٣٠٦) وهو حديث سيد الاستغفار .

وقلِ : اللهمَّ ، عافني في بدني ، وعافني في سمعي ، وعافني في بصري ، لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، ثلاثَ مرَّاتٍ[1] .

وقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الرضا بعدَ القضاءِ ، وبردَ العيشِ بعد الموتِ ، ولذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِكَ الكريمِ وشوقاً إلىٰ لقائِكَ ، مِنْ غيرِ ضرَّاءَ مضرَّةٍ ، ولا فتنةٍ مضلَّةٍ ، وأعوذُ بكَ أنْ أظلِمَ أوْ أُظلَمَ ، أوْ أعتديَ أوْ يُعتدَىٰ عليَّ ، أوْ أكسبَ خطيئةً أوْ ذنباً لا تغفرُهُ[2] .

اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ الثباتَ في الأمرِ ، والعزيمةَ على الرشدِ ، وأسألُكَ شكرَ نعمتِكَ ، وحسنَ عبادتِكَ ، وأسألُكَ قلباً خاشعاً سليماً ، وخُلقاً مستقيماً ، ولساناً صادقاً ، وعملاً متقبَّلاً ، وأسألُكَ مِنْ خيرِ ما تعلمُ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما تعلمُ ، وأستغفرُكَ لما تعلمُ ، فإنَّكَ تعلمُ ولا أعلمُ ، وأنتَ علاَّمُ الغيوبِ[3] .

اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ما قدمْتُ وما أخرتُ ، وما أسررْتُ وما أعلنْتُ ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي ، فإنَّكَ أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ ، وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، وعلىٰ كلِّ غيبٍ شهيدٌ[4] .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠٩٠) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٣٣٢) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٩١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١٦) .

(٣) رواه الترمذي (٣٤٠٧) ، والنسائي (٣/ ٥٤) .

(٤) رواه البخاري (١١٢٠) ، ومسلم (٢٧١٩) ، دون : « وعلىٰ كل غيب شهيد » ، وهي في سياق « القوت » (١/ ١١) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ إيماناً لا يرتدُّ ، ونعيماً لا ينفدُ ، وقرَّةَ عينِ الأبدِ[1] ، ومرافقةَ نبيِّكَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في أعلىٰ جنَّةِ الخلدِ[2] .

اللهمَّ ؛ إني أسألُكَ الطيباتِ ، وفعلَ الخيراتِ ، وتركَ المنكراتِ ، وحبَّ المساكينِ ، أسألُكَ حبَّكَ وحبَّ مَنْ أحبَّكَ ، وحبَّ كلِّ عملٍ يقرِّبُ إلىٰ حبِّكَ ، وأنْ تتوبَ عليَّ وتغفرَ لي وترحمَني ، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً . . فاقبضْني إليكَ غيرَ مفتونٍ[3] .

اللهمَّ ؛ بعلمِكَ الغيبَ ، وقدرتِكَ على الخلقِ ؛ أحيني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي ، وتوفَّني ما كانتِ الوفاةُ خيراً لي ، أسألُكَ خشيتَكَ في الغيبِ والشهادةِ ، وكلمةَ العدلِ في الرضا والغضبِ ، والقصدَ في الغنىٰ والفقرِ ، ولذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهِكَ ، والشوقَ إلىٰ لقائِكَ ، وأعوذُ بكَ مِنْ ضرَّاءَ مضرَّةٍ وفتنةٍ مضلَّةٍ ، اللهمَّ ؛ زيِّنَّا بزينةِ الإيمانِ ، واجعلْنا هداةً مهتدينَ[4] .

اللهمَّ ؛ اقسمْ لنا مِنْ خشيتِكَ ما تحولُ بهِ بينَنا وبينَ معاصيكَ ، ومِنْ

---

(١) بدوام ذكره وكمال محبته والأنس به ، قال بعضهم : من قرت عينه بالله تعالىٰ . . قرت به كل عين . « إتحاف » (٥/ ٧٧) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٤٤٥) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٦٨) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٢٣) ، من دعاء سيدنا ابن مسعود عندما قال له المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم : « سلْ تعطه » .

(٣) رواه الترمذي (٣٢٣٥) .

(٤) رواه النسائي (٣/ ٥٤) .

طاعتِكَ ما تبلِّغُنا بهِ جنَّتَكَ ، ومِنَ اليقينِ ما تهوِّنُ بهِ علينا مصائبَ الدنيا[١] .

اللهمَّ ؛ ألبسْ وجوهَنا منكَ حياءً ، وقلوبَنا بكَ فرحاً ، وأسكنْ في نفوسِنا مِنْ عظمتِكَ ، وذلِّلْ جوارحَنا لخدمتِكَ ، واجعلْكَ اللهمَّ أحبَّ إلينا ممَّا سواكَ ، واجعلْنا أخشىٰ لكَ ممَّا سواكَ[٢] .

اللهمَّ؛ اجعلْ أوَّلَ يومِنا هـٰذا صلاحاً ، وأوسطَهُ فلاحاً ، وآخِرَهُ نجاحاً، اللهمَّ ؛ اجعلْ أوَّلَهُ رحمةً ، وأوسطَهُ نعمةً ، وآخرَهُ تكرمةً ومغفرةً[٣] .

الحمدُ للهِ الذي تواضعَ كلُّ شيءٍ لعظمتِهِ ، وذلَّ كلُّ شيءٍ لعزَّتِهِ ، وخضعَ كلُّ شيءٍ لملكِهِ ، واستسلمَ كلُّ شيءٍ لقدرتِهِ ، والحمدُ للهِ الذي سكنَ كلُّ شيءٍ لهيبتِهِ ، وأظهرَ كلَّ شيءٍ بحكمتِهِ ، وتصاغرَ كلُّ شيءٍ لكبريائِهِ[٤] .

اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِهِ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ ، وباركْ علىٰ محمدٍ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٢) ، وتمامه : « ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا ، وانصرنا علىٰ من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » .

(٢) قوت القلوب (١/ ١١) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٨٥) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٨) إلىٰ قوله : « وآخره نجاحاً » ، وتمامه عند صاحب « القوت » (١/ ١١) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٢٤) إلىٰ قوله : « الحمد لله الذي سكن. . . » ، وهو بتمامه في « القوت » (١/ ١٢) .

وعلىٰ آلِهِ وأزواجِهِ وذريَّتِهِ ؛ كما باركتَ علىٰ إبراهيمَ وعلىٰ آلِ إبراهيمَ في العالمينَ ، إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ[(١)] .

اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ النبيِّ الأميِّ رسولِ الأميِّينَ ، وأعطِهِ المقامَ المحمودَ الذي وعدتَهُ يومَ الدينِ[(٢)] .

اللهمَّ ؛ اجعلْنا مِنْ أوليائِكَ المتقينَ ، وحزبِكَ المفلحينَ ، وعبادِكَ الصالحينَ ، واستعملْنا لمرضاتِكَ عنَّا ، ووفقْنا لمحابِّكَ منَّا ، وصرِّفْنا بحسنِ اختيارِكَ لنا ، نسألُكَ جوامعَ الخيرِ وفواتحَهُ وخواتمَهُ ، ونعوذُ بكَ مِنْ جوامعِ الشرِّ وفواتحِهِ وخواتمِهِ[(٣)] .

اللهمَّ ؛ بقدرتِكَ عليَّ تبْ عليَّ ، إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ ، وبحلمِكَ عنِّي اعفُ عنِّي إنَّكَ أنتَ الغفَّارُ الحليمُ ، وبعلمِكَ بي ارفقْ بي ، إنَّكَ أنتَ أرحمُ الراحمينَ ، وبملكِكَ لي ملِّكْني نفسي ولا تسلطْها عليَّ ، إنَّكَ أنتَ الملكُ الجبَّارُ ، سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفرْ لي ذنبي ، إنَّكَ أنتَ ربِّي ، إنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[(٤)] .

---

(١) رواه البخاري (٣٣٦٩) ، ومسلم (٤٠٧) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٢) دون : (رسول الأميين) ، وسؤال المقام المحمود له صلى الله عليه وسلم في « البخاري » (٦١٤) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٢) ، وقوله : (نسألك جوامع الخير . . .) بنحوه عند الطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٣١٦) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٢) ، وقوله : (سبحانك وبحمدك . . .) رواه مرفوعاً النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٤٣٠) .

اللهمَّ ؛ ألهمني رشدي ، وقني شرَّ نفسي [(١)] .

اللهمَّ ؛ ارزقني حلالاً لا تعاقبُني عليهِ ، وقنعني بما رزقتني ، واستعملني بهِ صالحاً تقبلُهُ منِّي [(٢)] .

أسألُكَ العفوَ والعافيةَ وحسنَ اليقينِ ، والمعافاةَ في الدنيا والآخرةِ [(٣)] .

يا مَنْ لا تضرُّهُ الذنوبُ ، ولا تنقصُهُ المغفرةُ ؛ هبْ لي ما لا يضرُّكَ ، وأعطني ما لا ينقصُكَ [(٤)] .

﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ .

﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ۝ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ .

﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٣) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٢) ، وبنحوه عند الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٢) ، وبنحوه عند أبي داوود (٥٠٧٤) .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٤١٢) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (١٩١٣) عن سيدنا علي رضي الله عنه ، وهو في « القوت » (١/ ١٢) .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

ربِّ اغفرْ لي ولوالديَّ وارحمْهما كما ربياني صغيراً ، واغفرْ للمؤمنينَ والمؤمناتِ والمسلمينَ والمسلماتِ الأحياءِ منهُمْ والأمواتِ .

ربِّ اغفرْ وارحمْ ، وتجاوزْ عمَّا تعلمُ وأنتَ الأعزُّ الأكرمُ ، وأنتَ خيرُ الراحمينَ ، وأنتَ خيرُ الغافرينَ(١) .

---

(١) روىٰ بعضه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٥٨٠٩) موقوفاً علىٰ سيدنا عمر ، وهو =

وإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ .

وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ خاتمِ النبيينَ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

* * *

= قوله : (رب اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم) ، والسياق في « القوت » (١/ ١٣) ، ثم قال : (فهٰذا جامع ما جاء من فضائل ما يقال من الدعاء عن المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وعن أئمة الهدىٰ) .

أنواع الاستعاذة المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ البخلِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الجبنِ ، وأعوذُ بِكَ مِنْ أنْ أردَّ إلىٰ أرذلِ العمرِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ فتنةِ الدنيا ، وأعوذُ بكَ مِنْ عذابِ القبرِ(١) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ طمَعٍ يهدي إلىٰ طَبَعٍ ، ومِنْ طمعٍ في غيرِ مطمعٍ ، ومِنْ طمعٍ حيثُ لا مطمعَ(٢) .

اللهمَّ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ علمٍ لا ينفعُ ، وقلبٍ لا يخشعُ ، ودعاءٍ لا يُسْمَعُ، ونفسٍ لا تشبعُ، وأعوذُ بكَ مِنَ الجوعِ ؛ فإنَّهُ بئسَ الضجيعُ ، ومِنَ الخيانةِ؛ فإنَّها بئستِ البطانةُ ، ومِنَ الكسلِ والبخلِ والجبنِ ومنَ الهرمِ ، ومِنْ أنْ أردَّ إلىٰ أرذلِ العمرِ، ومِنْ فتنةِ الدجالِ وعذابِ القبرِ، ومِنْ فتنةِ المحيا والمماتِ .

اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ قلوباً أوَّاهةً مخبتةً منيبةً في سبيلِكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ عزائمَ مغفرتِكَ ، وموجباتِ رحمتِكَ ، والسلامةَ مِنْ كلِّ إثمٍ ، والغنيمةَ مِنْ كل برٍّ ، والفوزَ بالجنَّةِ والنجاةَ مِنَ النارِ(٣) .

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٥) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٤٧) ، والطَّبَع : الدنس .

(٣) الدعاء إلىٰ هنا رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣٣) ، والتعوذ من الأربع الأول عند مسلم (٢٧٢٢) ، والاستعاذة من الكسل والجبن والبخل والهرم وفتنة المحيا والممات عند البخاري (٦٣٦٧) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ التردِّي ، وأعوذُ بكَ مِنَ الغمِّ والغَرَقِ والهَدْمِ ، وأعوذُ بِكَ أنْ أموتَ في سبيلِكَ مدبراً ، وأعوذُ بِكَ مِنْ أنْ أموتَ في طلبِ دنيا(١) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ ما علمتُ ، ومِن شرِّ ما لمْ أعلمْ(٢) .

اللهمَّ ؛ جنبني منكراتِ الأخلاقِ والأعمالِ ، والأدواءِ والأهواءِ(٣) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ جهدِ البلاءِ ، ودَرْكِ الشقاءِ ، وسوءِ القضاءِ ، وشماتةِ الأعداءِ(٤) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ الكفرِ والدَّيْنِ والفقرِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ عذابِ جهنَّمَ ، وأعوذُ بكَ مِنْ فتنةِ الدجالِ(٥) .

---

(١) رواه أبو داوود (١٥٥٢) ، والنسائي (٨/ ٢٨٢) ، وفيهما : « وأعوذ بك أن أموت لديغاً » بدل « أن أموت في طلب دنيا » .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٤٦) ، ولفظه : « وأعوذ بك من الشر كله ، عاجله وآجله ، ما علمت منه وما لم أعلم » ، وهو عند مسلم (٢٧١٦) بلفظ : « من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل » .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٩١) .

(٤) رواه البخاري (٦٣٤٧) ، ومسلم (٢٧٠٧) .

(٥) التعوذ من الكفر والدين عند النسائي (٨/ ٢٦٤) ، ومن الفقر مع الكفر عنده كذلك (٣/ ٧٣) ، والتعوذ من عذاب جهنم وفتنة الدجال في « البخاري » (١٣٧٧) ، ومسلم (٥٨٨) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ سمعي وبصري ، وشرِّ لساني وقلبي ، وشرِّ منيِّي (١) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ جارِ السوءِ في دارِ المُقامةِ ، فإنَّ جارَ البادِيةِ يتحوَّلُ (٢) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ القسوةِ والغفلةِ ، والعيلَةِ والذلَّةِ والمسكنةِ ، وأعوذُ بِكَ مِنَ الفقرِ والكفرِ ، والفسوقِ والشقاقِ والنفاقِ وسوءِ الأخلاقِ وضيقِ الأرزاقِ ، والسمعةِ والرياءِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ الصممِ والبكمِ والعمىٰ والجنونِ والجذامِ والبرصِ وسيِّءِ الأسقامِ (٣) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ زوالِ نعمتِكَ ، ومن تحوُّلِ عافيتِكَ ، ومن فجأةِ نقمتِكَ ، ومنْ جميعِ سخطِكَ (٤) .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عذابِ النارِ وفتنةِ النارِ ، وعذابِ القبرِ وفتنةِ

---

(١) رواه أبو داوود (١٥٥١) ، والترمذي (٣٤٩٢) ، والنسائي (٨/ ٢٥٥) من دعاء علمه النبي صلى الله عليه وسلم شَكَل بن حميد رضي الله عنه ، وقوله : « من شر منيي » أي : من شر شدة الغلمة وسطوة الشهوة إلى الجماع الذي إذا أفرط . . ربما أوقع في الزنا أو مقدماته لا محالة ، فهو حقيق بالاستعاذة من شره . « إتحاف » (٥/ ٨٥) .

(٢) رواه النسائي (٨/ ٢٧٤) ، و« الكبرىٰ » (٧٨٨٦) .

(٣) رواه الطبراني في « الصغير (١/ ١١٤) ، والاستعاذة من الأربع الأخيرة عند أبي داوود (١٥٥٤) .

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٩) .

القبرِ ، وشرِّ فتنةِ الغنىٰ ، وشرِّ فتنةِ الفقرِ ، وشرِّ فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ ، وأعوذُ بكَ مِنَ المغرمِ والمأثمِ[1] .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ نفسٍ لا تشبعُ ، وقلبٍ لا يخشعُ ، وصلاةٍ لا تنفعُ ، ودعوةٍ لا تستجابُ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ العمرِ وفتنةِ الصدرِ[2] .

اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ غلبةِ الدَّينِ ، وغلبةِ العدوِّ ، وشماتةِ الأعداءِ[3] .

وصلَّى اللهُ علىٰ محمدٍ وعلىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً مِنْ كلِّ العالمينَ ، آمينَ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٣٧٥) ، ومسلم (٢٧٣٩) بنحوه .

(٢) الثلاث الأول عند مسلم (٢٧٢٢) ، وما بعدها عند أبي داوود (١٥٢٩) ، والنسائي (٨/ ٢٥٥) ، **وفتنة الصدر** : عدم انفساحه لقبول الإيمان .

(٣) رواه النسائي (٨/ ٢٦٥) .

البَابُ الخَامِسُ
في الأدعية المأثورة عند كلّ حادثٍ من الحوادث

إذا أصبحتَ وسمعتَ الأذانَ . . فيستحبُّ لكَ جوابُ المؤذِّنِ ، وقدْ ذكرناهُ ، وذكرنا أدعيةَ دخولِ الخلاءِ والخروجِ منهُ ، وأدعيةَ الوضوءِ في كتابِ الطهارةِ .

* * *

فإذا خرجتَ إلى المسجدِ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي لساني نوراً ، واجعلْ في سمعي نوراً ، واجعلْ في بصري نوراً ، واجعلْ خلفي نوراً ، وأمامي نوراً ، واجعلْ مِنْ فوقي نوراً ، اللهمَّ ؛ أعطني نوراً[1] .

وقلْ أيضاً : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ بحقِّ السائلينَ عليكَ ، وبحقِّ ممشايَ هـٰذا إليكَ ، فإنِّي لمْ أخرجْ أشراً ولا بطراً ، ولا رياءً ولا سمعةً ، خرجتُ اتقاءَ سخطِكَ وابتغاءَ مرضاتِكَ ؛ فأسألُكَ أنْ تنقذَني مِنَ النارِ ، وأنْ تغفرَ لي ذنوبي ، إنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ[2] .

* * *

(١) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) .
(٢) رواه ابن ماجه (٧٧٨) .

وإنْ خرجتَ مِنَ المنزلِ لحاجةٍ . . فقلْ : باسمِ اللهِ ، ربِّ أعوذُ بكَ أنْ أظلمَ أوْ أُظلمَ ، أوْ أجهلَ أوْ يُجهلَ عليَّ[١] ، بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ ، باسمِ اللهِ ، التكلانُ على اللهِ[٢] .

* * *

فإذا انتهيتَ إلى المسجدِ تريدُ دخولَهُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ وسلِّمْ ، اللهمَّ ؛ اغفرْ لي جميعَ ذنوبي ، وافتحْ لي أبوابَ رحمتِكَ[٣] ، وقدِّمْ رِجْلَكَ اليمنىٰ في الدخولِ .

* * *

فإذا رأيتَ في المسجدِ مَنْ يبيعُ أوْ يبتاعُ . . فقلْ : لا أربحَ اللهُ تجارتَكَ[٤] .

* * *

وإذا رأيتَ مَنْ ينشدُ ضالةً في المسجدِ . . فقلْ : لا ردَّها اللهُ عليكَ[٥] ، أمرَ بذلكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠٩٤) ، والترمذي (٣٤٢٧) ، والنسائي (٨/ ٢٦٨) ، وابن ماجه (٣٨٨٤) .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٨٥) بنحوه .

(٣) رواه الترمذي (٣١٤) ، وابن ماجه (٧٧١) ، والجملة الأخيرة عند مسلم (٧١٣) .

(٤) رواه الترمذي (١٣٢١) .

(٥) رواه مسلم (٥٦٨) .

فإذا صلَّيتَ ركعتيِ الصبحِ . . فقلْ : باسمِ اللهِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ رحمةً مِنْ عندِكَ تهدي بها قلبي . . . الدعاءَ إلىٰ آخرِهِ كما أوردناهُ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

* * *

فإذا ركعتَ . . فقلْ في ركوعِكَ : اللهمَّ ؛ لكَ ركعتُ ، ولكَ خشعتُ ، وبكَ آمنتُ ، ولكَ أسلمتُ ، وعليكَ توكلتُ ، أنتَ ربِّي ، خشعَ سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلَّتْ بهِ قدمي للهِ ربِّ العالمينَ[2] .

وإن أحببتَ . . فقلْ : (سبحانَ ربيَ العظيمِ) ثلاثَ مرَّاتٍ[3] ، أوْ (سبُّوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكةِ والروحِ)[4] .

* * *

فإذا رفعتَ رأسَكَ مِنَ الركوعِ . . فقلْ : سمعَ اللهُ لِمَنْ حمدَهُ ، ربَّنا لكَ الحمدُ ، ملءَ السماواتِ وملءَ الأرضِ ، وملءَ ما شئتَ مِنْ شيءٍ بعدُ ، أهلَ

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٤١٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٠ / ٢٨٣) .

(٢) رواه مسلم (٧٧١) ، وأحمد في « المسند » (١ / ١١٩) .

(٣) رواه أبو داوود (٨٨٦) وبزيادة : (وبحمده) عنده (٨٦٩) ، والترمذي (٢٦١) ، وابن ماجه (٨٨٨) .

(٤) رواه مسلم (٤٨٧) .

الثناءِ والمجدِ أحقُّ ما قالَ العبدُ ، وكلُّنا لكَ عبدٌ ، لا مانعَ لما أعطيت ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منكَ الجَدُّ(١) .

* * *

فإذا سجدتَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ لكَ سجدتُ ، وبكَ آمنتُ ، ولكَ أسلمتُ ، سجدَ وجهي للذي خلقَهُ وصوَّرَهُ ، وشقَّ سمعَهُ وبصرَهُ ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ(٢) ، اللهمَّ ؛ سجدَ لكَ سوادي وخيالي ، وبكَ آمنَ فؤادي ، أبوءُ بنعمتِكَ عليَّ وأبوءُ بذنبي وهـٰذا ما جنيتُ علىٰ نفسي ، فاغفرْ لي ؛ فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ(٣) .

أوْ تقولُ : (سبحانَ ربيَ الأعلىٰ) ثلاثَ مرَّاتٍ(٤) .

* * *

فإذا فرغتَ مِنَ الصلاةِ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ(٥) ، وتدعو بسائرِ الأدعيةِ التي ذكرناها .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٤٧١ ، ٤٧٧) ، دون : (سمع الله لمن حمده) ، وهي عند أبي داوود (٨٤٧) ، والنسائي (٢/ ١٩٨) .

(٢) إلىٰ هنا عند مسلم (٧٧١) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣٣) ضمن دعاء قد تقدم .

(٤) رواه أبو داوود (٨٨٦) ، وبزيادة (وبحمده) عنده (٨٦٩) ، والترمذي (٢٦١) ، وابن ماجه (٨٨٨) .

(٥) رواه مسلم (٥٩١) ، وفيه الاستغفار ثلاثاً قبله ، و(٥٩٢) دون ذكر الاستغفار .

فإذا قمتَ مِنَ المجلسِ وأردتَ دعاءً يكفِّرُ لغوَ المجلسِ . . فقلْ : سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ ، أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي ، فاغفرْ لي ، فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ(١) .

* * *

فإذا دخلتَ السوقَ . . فقلْ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ(٢) ، باسمِ اللهِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَ هـٰذهِ السوقِ وخيرَ ما فيها ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شرِّها وشرِّ ما فيها ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أصيبَ فيها يميناً فاجرةً أوْ صفقةً خاسرةً(٣) .

* * *

فإنْ كانَ عليكَ دينٌ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ اكفني بحلالِكَ عنْ حرامِكَ ، وأغنني بفضلِكَ عمَّنْ سواكَ(٤) .

* * *

فإذا لبستَ ثوباً جديداً . . فقلِ : اللهمَّ ؛ كسوتَني هـٰذا الثوبَ فلكَ

---

(١) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠١٨٨) بتمامه .
(٢) رواه الترمذي (٣٤٢٨) ، وابن ماجه (٢٢٣٥) .
(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣٩) .
(٤) رواه الترمذي (٣٥٦٣) .

الحمدُ ، أسألُكَ مِنْ خيرِهِ وخيرِ ما صُنِعَ لهُ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّهِ وشرِّ ما صُنِعَ لهُ[(١)] .

* * *

وإذا رأيتَ شيئاً مِنَ الطيرةِ تكرهُهُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ لا يأتي بالحسناتِ إلا أنتَ ، ولا يذهبُ بالسيئاتِ إلا أنتَ ، لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ[(٢)] .

* * *

وإذا رأيتَ الهلالَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ أهلَّهُ علينا بالأمنِ والإيمانِ ، والبرِّ والسلامةِ والإسلامِ ، والتوفيقِ لما تحبُّ وترضىٰ ، والحفظِ عمَّنْ تسخطُ ، ربِّي وربُّكَ اللهُ[(٣)] ، وتقولُ : هلالُ رشدٍ وخيرٍ ، آمنتُ بخالقِكَ[(٤)] ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَ هـٰذا الشهرِ وخيرَ القدرِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّ يومِ الحشرِ[(٥)] ، وتكبِّرُ قبلَهُ أولاً ثلاثاً[(٦)] .

* * *

---

(١) رواه أبو داوود (٤٠٢٠) ، والترمذي (١٧٦٧) .
(٢) رواه أبو داوود (٣٩١٩) عن عروة بن عامر ، وأما ما اشتهر على الألسنة عند نعيق الغراب : خير خير . . فلا أصل له في السنة . « إتحاف » (٥/١٠١) .
(٣) رواه الترمذي (٣٤٥١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٨٢٧) وفيه : (. . . والحفظ مما تسخط) .
(٤) رواه أبو داوود (٥٠٩٢) عن قتادة مرسلاً ، مكرّراً : (هلال خير ورشد) ثلاثاً .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (٥/٣٢٩) .
(٦) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤/١٦٩) عن قتادة مرسلاً .

وإذا هبَّتِ الريحُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَ هـٰذهِ الريحِ وخيرَ ما فيها ، وخيرَ ما أُرسلتْ بهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّها وشرِّ ما فيها ، وشرِّ ما أُرسلتْ بهِ(١) .

* * *

وإذا بلغَكَ وفاةُ أحدٍ . . فقلْ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ، اللهمَّ ؛ اكتبْهُ في المحسنينَ ، واجعلْ كتابَهُ في عليينَ ، واخلفْهُ علىٰ عقبِهِ في الغابرينَ ، اللهمَّ ؛ لا تحرمْنا أجرَهُ ، ولا تفتنَّا بعدَهُ ، واغفرْ لنا ولهُ(٢) .

* * *

وتقولُ عندَ التصدُّقِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

* * *

وتقولُ عندَ الخسرانِ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ .

* * *

وتقولُ عندَ ابتداءِ الأمورِ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ .

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٥٢) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٥٩) .

وتقـولُ عندَ النظرِ إلى السماءِ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ .

* * *

وإذا سمعتَ صوتَ الرعدِ . . فقلْ : سبحانَ مَنْ يسبِّحُ الرعدُ بحمدِهِ والملائكةُ مِنْ خيفتِهِ[١] .

* * *

وإذا رأيتَ الصواعقَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ لا تقتلْنا بغضبِكَ ، ولا تهلكْنا بعذابِكَ ، وعافنا قبلَ ذلكَ[٢] .

* * *

فإذا أمطرتِ السماءُ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ سيباً هنيئاً ، وصيباً نافعاً[٣] ، اللهمَّ ؛ اجعلْهُ سيبَ رحمةٍ ، ولا تجعلْهُ سيبَ عذابٍ[٤] .

* * *

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٩٢) عن عامر بن عبد الله بن الزبير ، وأوقفه ابن أبي شيبة على عبد الله بن الزبير في « المصنف » (٢٩٨٢٤) ، ورفعه ابن جرير في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ١٥٩) .

(٢) رواه الترمذي (٣٤٥٠) .

(٣) رواه البخاري (١٠٣٢) ، وابن ماجه (٣٨٨٩) مجموعاً .

(٤) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٩٢٢) عن سعيد بن المسيب مرسلاً .

وإذا غضبتَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ اغفرْ لي ذنبي ، وأذهبْ غيظَ قلبي ، وأجِرْني مِنَ الشيطانِ الرجيمِ (١) .

* * *

وإذا خفتَ قوماً . . فقلِ : اللهمَّ ؛ إنَّا نجعلُكَ في نحورِهِمْ ، ونعوذُ بكَ مِنْ شرورِهِمْ (٢) .

* * *

وإذا غزوتَ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ أنتَ عضدي ونصيري ، وبكَ أقاتلُ (٣) .

* * *

وإذا طنَّتْ أذنُكَ . . فصلِّ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقلْ : ذكَرَ اللهُ بخيرٍ مَنْ ذكرَني (٤) .

* * *

---

(١) رواه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٢٢) من حديث علَّمه عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه أبو داوود (١٥٣٧) .

(٣) رواه أبو داوود (٢٦٣٢) ، والترمذي (٣٥٨٤) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٨٥٧٦) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١/ ٣٢١) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٦٦) .

فإذا رأيتَ استجابةَ دعائِكَ . . فقلِ : الحمدُ للهِ الذي بعزَّتِهِ وجلالِهِ تتمُّ الصالحاتُ ، **وإنْ أبطأتْ** . . فقلِ : الحمدُ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ[1] .

* * *

وإذا سمعتَ أذانَ المغربِ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ هـٰذا استقبالُ ليلِكَ وإدبارُ نهارِكَ ، وأصواتُ دعاتِكَ وحضورُ صلواتِكَ ، أسألُكَ أنْ تغفرَ لي[2] .

* * *

وإذا أصابَكَ همٌّ . . فقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي عبدُكَ وابنُ عبدِكَ وابنُ أمتِكَ ، ناصيتي بيدِكَ ، ماضٍ فيَّ حكمُكَ ، عدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ ، أسأَلُكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ سمَّيْتَ بهِ نفسَكَ ، أوْ أنزلتَهُ في كتابِكَ ، أوْ علَّمتَهُ أحداً منْ خلقِكَ ، أوِ استأثرتَ بهِ في علمِ الغيبِ عندَكَ : أنْ تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي ، ونورَ صدري ، وجِلاءَ غمِّي ، وذهابَ حزني وهمِّي .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أصابَ أحداً حزنٌ فقالَ هـٰذا . . إلا أذهبَ اللهُ همَّهُ وأبدلَهُ مكانَهُ فرحاً » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أفلا نتعلَّمُها ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلىٰ ، ينبغي لِمَنْ سمعَها أنْ يتعلَّمَها »[3] .

* * *

---

(١) رواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ١٧١) .
(٢) رواه أبو داوود (٥٣٠) دون : (وحضور صلواتك) ، والترمذي (٣٥٨٩) بتمامه .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (١ / ٣٩١) .

وإذا وجدتَ وجعاً في جسدِكَ أوْ جسدِ غيرِكَ . . فارقِهِ برقيةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ كانَ إذا اشتكى الإنسانُ قَرحةً أوْ جرْحاً . . وضعَ سبَّابتهُ على الأرضِ ثمَّ رفعَها وقالَ : « باسمِ اللهِ ، تربةُ أرضِنا بريقةِ بعضِنا ، يُشفَىٰ سقيمُنا بإذنِ ربِّنا »(١) .

* * *

وإذا وجدتَ وجعاً في جسدِكَ . . فضَعْ يدَكَ على الذي تألمَ مِنْ جسدِكَ وقلْ : (باسمِ اللهِ) ثلاثاً ، وقلْ سبعَ مرَّاتٍ : أعوذُ بعزَّةِ اللهِ وقدرتِهِ مِنْ شرِّ ما أجدُ وأُحاذرُ(٢) .

* * *

وإذا أصابَكَ كربٌ . . فقلْ : لا إلـهَ إلا اللهُ العليُّ الحليمُ ، لا إلـهَ إلا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمِ ، لا إلـهَ إلا اللهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ(٣) .

* * *

وإذا أردتَ النومَ . . فتوضَّأ أوَّلاً ، ثمَّ توسَّدْ على يمينِكَ مستقبلَ القبلةِ ، ثمَّ كبِّرِ اللهَ تعالىٰ أربعاً وثلاثينَ ، وسبِّحْهُ ثلاثاً وثلاثينَ ، واحمدْهُ ثلاثاً

---

(١) رواه البخاري (٥٧٤٥) ، ومسلم (٢١٩٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٢) .

(٣) رواه البخاري (٦٣٤٦) ، ومسلم (٢٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٣٥) وعنده لفظة : « العلي الحليم » ، وفي « الصحيحين » : « العظيم الحليم » .

وثلاثينَ[١] ، ثمَّ قلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ برضاكَ مِنْ سخطِكَ ، وبمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ ، وأعوذُ بِكَ مِنْكَ ، اللهمَّ ؛ لا أستطيعُ أنْ أبلغَ ثناءً عليكَ ولوْ حرصتُ ، ولكنْ أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِكَ[٢] ، اللهمَّ ؛ باسمِكَ أحيا وأموتُ[٣] .

اللهمَّ ، ربَّ السماواتِ وربَّ الأرضِ وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ ، فالقَ الحبِّ والنوىٰ ، ومنزلَ التوراةِ والإنجيلِ والفرقانِ ؛ أعوذُ بكَ مِنْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ ، ومِنْ شرِّ كلِّ دابَّةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتِها ، أنتَ الأوَّلُ فليسَ قبلَكَ شيءٌ ، وأنتَ الآخرُ فليسَ بعدَكَ شيءٌ ، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقَكَ شيءٌ ، وأنتَ الباطنُ فليسَ دونَكَ شيءٌ ، اقضِ عنِّي الدَّيْنَ وأغنني مِنَ الفقرِ[٤] .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقْتَ نفسي وأنتَ تتوفَّاها ، لكَ مماتُها ومحياها ، اللهمَّ ؛ إنْ أمتَّها . . فاغفرْ لها ، وإنْ أحييتَها . . فاحفظْها ، اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ[٥] .

---

(١) كما في « البخاري » (٣١١٣) ، ومسلم (٢٧٢٧) .
(٢) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٩٧) ، وأصل الدعاء في « الصحيح » وقد سبق .
(٣) رواه البخاري (٧٣٩٤) واللفظ له ، ومسلم (٢٧١١) .
(٤) رواه مسلم (٢٧١٣) ، وأبو داوود (٥٠٥١) ، والترمذي (٣٤٨١) ، وقوله : (ومليكه) من دعاء سيدنا الصدِّيق المتقدم .
(٥) رواه مسلم (٢٧١٢) دون قوله : (في الدنيا والآخرة) .

باسمِكَ ربِّي وضعتُ جنبي ، فاغفرْ لي ذنبي[1] ، اللهمَّ ؛ قني عذابَكَ يومَ تجمعُ عبادَكَ[2] .

اللهمَّ ؛ أسلمتُ نفسي إليكَ ، ووجَّهتُ وجهي إليكَ ، وفوضتُ أمري إليكَ ، وألجأتُ ظهري إليكَ ، رغبةً ورهبةً إليكَ ، لا ملجأَ ولا منجا منكَ إلا إليكَ ، آمنتُ بكتابِكَ الذي أنزلْتَ ، وبنبيِّكَ الذي أرسلتَ[3] . ويكونُ هـٰذا آخرَ دعائِكَ ، فقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ[4] .

وليقلْ قبلَ ذلكَ : اللهمَّ ؛ أيقظْني في أحبِّ الساعاتِ إليكَ ، واستعملْني بأحبِّ الأعمالِ إليكَ ، تقرِّبُني إليكَ زُلْفىٰ ، وتبعدُني مِنْ سخطِكَ بُعداً ، أسألُكَ فتعطيني ، وأستغفرُكَ فتغفرُ لي ، وأدعوكَ فتستجيبُ لي[5] .

* * *

فإذا استيقظتَ مِنْ نومِكَ عندَ الصباحِ . . فقلِ : الحمدُ للهِ الذي أحيانا

---

(١) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » (٧٧٥) ، وعند أبي داوود (٥٠٥٤) : « باسم الله وضعت جنبي ، اللهم اغفر لي ذنبي ، وأخسىء شيطاني ، وفك رهاني ، واجعلني في النديِّ الأعلىٰ » ، وأصل الحديث في « الصحيحين » .

(٢) رواه الترمذي (٣٣٩٨) .

(٣) رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) .

(٤) رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) .

(٥) رواه الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٢٠١٧) ، وعند ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٦/ ٢٢٨) مرفوعاً بنحوه كذلك ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ١١٠) .

بعدَما أماتنا وإليهِ النشورُ[(١)] ، أصبحْنا وأصبحَ الملكُ للهِ ، والعظمةُ والسلطانُ للهِ ، والعزَّةُ والقدرةُ للهِ[(٢)] ، أصبحنا علىٰ فطرةِ الإسلامِ ، وكلمةِ الإخلاصِ ، وعلىٰ دينِ نبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وملَّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنَ المشركينَ[(٣)] .

اللهمَّ ؛ بكَ أصبحْنا ، وبكَ أمسينا ، وبك نحيا ، وبكَ نموتُ ، وإليكَ المصيرُ[(٤)] .

اللهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ أنْ تبعثَنا في هٰذا اليومِ إلىٰ كلِّ خيرٍ ، ونعوذُ بكَ أنْ نجترحَ فيهِ سوءاً أوْ نجرَّهُ إلىٰ مسلمٍ ، فإنَّكَ قلتَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[(٥)] .

اللهمَّ ، فالقَ الإصباحِ ، وجاعلَ الليلِ سكناً والشمسِ والقمرِ حسباناً ؛ أسألُكَ خيرَ هٰذا اليومِ وخيرَ ما فيهِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ شرِّهِ وشرِّ ما فيهِ[(٦)] .

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٢) ، ومسلم (٢٧١١) .

(٢) رواه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٩٣٨) ، وقوله : (أصبحنا وأصبح الملك لله) عند مسلم (٢٧٢٣) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٠٧) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (١) .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٦٨) ، والترمذي (٣٣٩١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٥٢) ، وابن ماجه (٣٨٦٨) .

(٥) كذا في « القوت » (١/ ٣٢) ، وبنحوه عند أبي داوود (٥٠٨٣) ، والترمذي (٣٥٢٩) .

(٦) كذا في « القوت » (١/ ٣٢) ، وإلىٰ قوله : (والقمر حسباناً) عند مالك في « الموطأ » (١/ ٢١٢) بلاغاً مرسلاً ، وتمامه عند أبي داوود (٥٠٨٤) بلفظ : « إنِّي أسألك خير =

باسمِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا قوَّةَ إلاَّ باللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، كلُّ نعمةٍ مِنَ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، الخيرُ كلُّهُ بيدِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا يصرفُ السوءَ إلا اللهُ[(١)] .

رضيتُ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبيّاً[(٢)] ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

وإذا أمسيت.. قلتَ ذلك ، إلا أنَّكَ تقولُ : (أمسينا) ، وتقولُ معَ ذلكَ : أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ وأسمائِهِ كلِّها مِنْ شرِّ ما ذرأَ وبرأَ ، ومِنْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ ، ومِنْ شرِّ كلِّ دابَّةٍ ربِّي آخذٌ بناصيتِها ، إنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيمٍ[(٣)] .

= هـٰذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه ، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده » ، وبنحوه عند الطبراني في « الدعاء » (٢٩٥) .

(١) كذا في « القوت » (١/٩) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٢/٣٢٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/٤٢٧) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٨٨٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (٥/٦٩) .

(٢) رواه أبو داوود (٥٠٧٢) ، والترمذي (٣٣٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٧٠) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في « الثواب » من حديث عبد الرحمـٰن بن عوف : « من قال حين يصبح : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذرأ.. اعتصم من شر الثقلين » ، وفيه : « وإن قالهن حين يمسي.. كن له كذلك حتىٰ يصبح » . وعند مسلم (٢٧٠٩) مرفوعاً : « أما لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.. لم تضرك » ، قاله لأبي هريرة رضي الله عنه في عقرب لدغته ، وعند الطبراني في « الدعاء » (٣٤٣) : « اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر كل دابة... » .

وإذا نظرتَ في المرآةِ . . فقلِ : الحمدُ للهِ الذي سوَّىٰ خَلقي فعدَلَهُ ، وكرَّمَ صورةَ وجهي وحسَّنَها ، وجعلَني مِنَ المسلمينَ(١) .

* * *

وإذا اشتريتَ خادماً أوْ غلاماً أوْ دابةً . . فخذْ بناصيتِهِ وقلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ خيرَهُ وخيرَ ما جُبِلَ عليهِ ، وأعوذُ بِكَ مِنْ شرِّهِ وشرِّ ما جُبِلَ عليهِ(٢) .

* * *

وإذا هنَّأْتَ بالنكاحِ . . فقلْ : باركَ اللهُ فيكَ ، وباركَ عليكَ ، وجمعَ بينَكُما في خيرٍ(٣) .

* * *

وإذا قضيتَ الدَّين . . فقلْ للمقضيِّ لهُ : باركَ اللهُ لكَ في أهلِكَ ومالِكَ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما جزاءُ السلفِ الحمدُ والأداءُ »(٤) .

* * *

فهٰذه أدعيةٌ لا يستغني المريدُ عنْ حفظِها ، وما سوىٰ ذلكَ منْ أدعيةِ السفرِ والصلاةِ والوضوءِ ذكرْناها في كتابِ الحجِّ والصلاةِ والطهارةِ .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٩١) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٦٥) .

(٢) رواه أبو داوود (٢١٦٠) ، وابن ماجه (١٩١٨) .

(٣) رواه أبو داوود (٢١٣٠) ، والترمذي (١٠٩١) ، وابن ماجه (١٩٠٥) .

(٤) رواه النسائي (٧/ ٣١٤) .

فإنْ قلتَ : فما فائدةُ الدعاءِ والقضاءُ لا مردَّ لهُ ؟

فاعلمْ : أنَّ مِنَ القضاءِ ردَّ البلاءِ بالدعاءِ[(١)] ، فالدعاءُ سببٌ لردِّ البلاءِ ، واستجلابِ الرحمةِ ؛ كما أنَّ التُّرْسَ سببٌ لردِّ السهمِ ، والماءَ سببٌ لخروجِ النباتِ مِنَ الأرضِ .

فكما أنَّ التُّرْسَ يدفعُ السهمَ فيتدافعانِ . . فكذلكَ الدعاءُ والبلاءُ يتعالجانِ[(٢)] .

وليسَ مِنْ شرطِ الاعترافِ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ ألاَّ يحملَ السلاحَ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ ، وألاَّ يسقيَ الأرضَ بعدَ بثِّ البذرِ ، فيقالُ : إنْ سبقَ القضاءُ بالنباتِ . . نبتَ البذرُ ، وإنْ لمْ يسبقْ . . لم ينبتْ !

بلْ ربطُ الأسبابِ بالمسبَّباتِ هوَ القضاءُ الأوَّلُ الذي هوَ كلمحِ البصرِ أوْ هوَ أقربُ .

وترتُّبُ تفصيلِ المسبَّباتِ علىٰ تفاصيلِ الأسبابِ على التدريجِ والتقديرِ هوَ

---

(١) بمعنىٰ : أن الله تعالىٰ قدَّر علىٰ من يوقع البلاء به عدمَ الدعاء ، وقدر علىٰ من لم يوقع عليه البلاء وجودَ الدعاء ، ويشهد لذلك ما أخرجه الترمذي (٢٠٦٥) : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أرأيت رُقىً نسترقيها ، ودواءً نتداوىٰ به ، وتقاةً نتقيها : هل تردُّ من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هي من قدر الله » . « إتحاف » (١١٥/٥) .

(٢) روى الطبراني في « الأوسط » (٢٥١٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤٩٢/١) مرفوعاً : « لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء ، يعتلجان إلىٰ يوم القيامة » .

القدرُ ، والذي قدَّرَ الخيرَ قدَّرَهُ بسببٍ ، والذي قدَّرَ الشرَّ قدَّرَ لدفعِهِ سبباً ، فلا تناقضَ بينَ هـٰذهِ الأمورِ عندَ مَنِ انفتحتْ بصيرتُهُ .

ثمَّ في الدعاءِ مِنَ الفائدةِ ما ذكرناهُ في الذكرِ ؛ فإنَّهُ يستدعي حضورَ القلبِ معَ اللهِ ، وهوَ منتهى العباداتِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدعاءُ مُخُّ العبادةِ »(١) .

والغالبُ على الخلقِ أنَّهُ لا تنصرفُ قلوبُهُم إلىٰ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا عندَ إلمامِ حاجةٍ وإرهاقِ ملمَّةٍ ، فإنَّ الإنسانَ إذا مسَّهُ الشرُّ . . فذو دعاءٍ عريضٍ ، فالحاجةُ تحوجُ إلى الدعاءِ ، والدعاءُ يردُّ القلبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بالتضرُّعِ والاستكانةِ ، فيحصلُ بهِ الذكرُ الذي هوَ أشرفُ العباداتِ ، ولذلكَ صارَ البلاءُ موكلاً بالأنبياءِ عليهمُ السلامُ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الأمثلِ فالأمثلِ ؛ لأنَّهُ يردُّ القلبَ بالافتقارِ والتضرعِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويمنعُ مِنْ نسيانِهِ ، وأمَّا الغنىٰ . . فسببٌ للبطرِ في غالبِ الأمرِ ، فإنَّ الإنسانَ ليطغىٰ أنْ رآهُ استغنىٰ(٢) .

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧١) .

(٢) ومن فوائد الدعاء : أنه اشتغال بذكر الحق ، وذلك يوجب مقام الهيبة في القلوب ، والإنابة في الطاعة ، والانقلاع عن المعاصي ، ولزوم الباب يستدعي الإذن في الدخول ، ولهـٰذا قيل : من أدمن قرع الباب ولجَّ . . ولج ، وكان يقال : الإذن في الدعاء خير من العطاء ، ومنها : أن ملازمة الدعاء دافعة للبلاء والشقاء ؛ كما قال تعالىٰ حاكياً عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ ، وعن زكريا عليه السلام : ﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ . « إتحاف » (١١٧/٥) .

فهٰذا ما أردْنا أنْ نوردَهُ مِنْ جملةِ الأذكارِ والدعواتِ واللهُ الموفِّقُ للخيرِ ، وأمَّا بقيةُ الدعواتِ في الأكلِ والسفرِ وعيادةِ المرضىٰ وغيرِها . . فستأتي في مواضعِها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، وعلى اللهِ التكلانُ[1] .

* * *

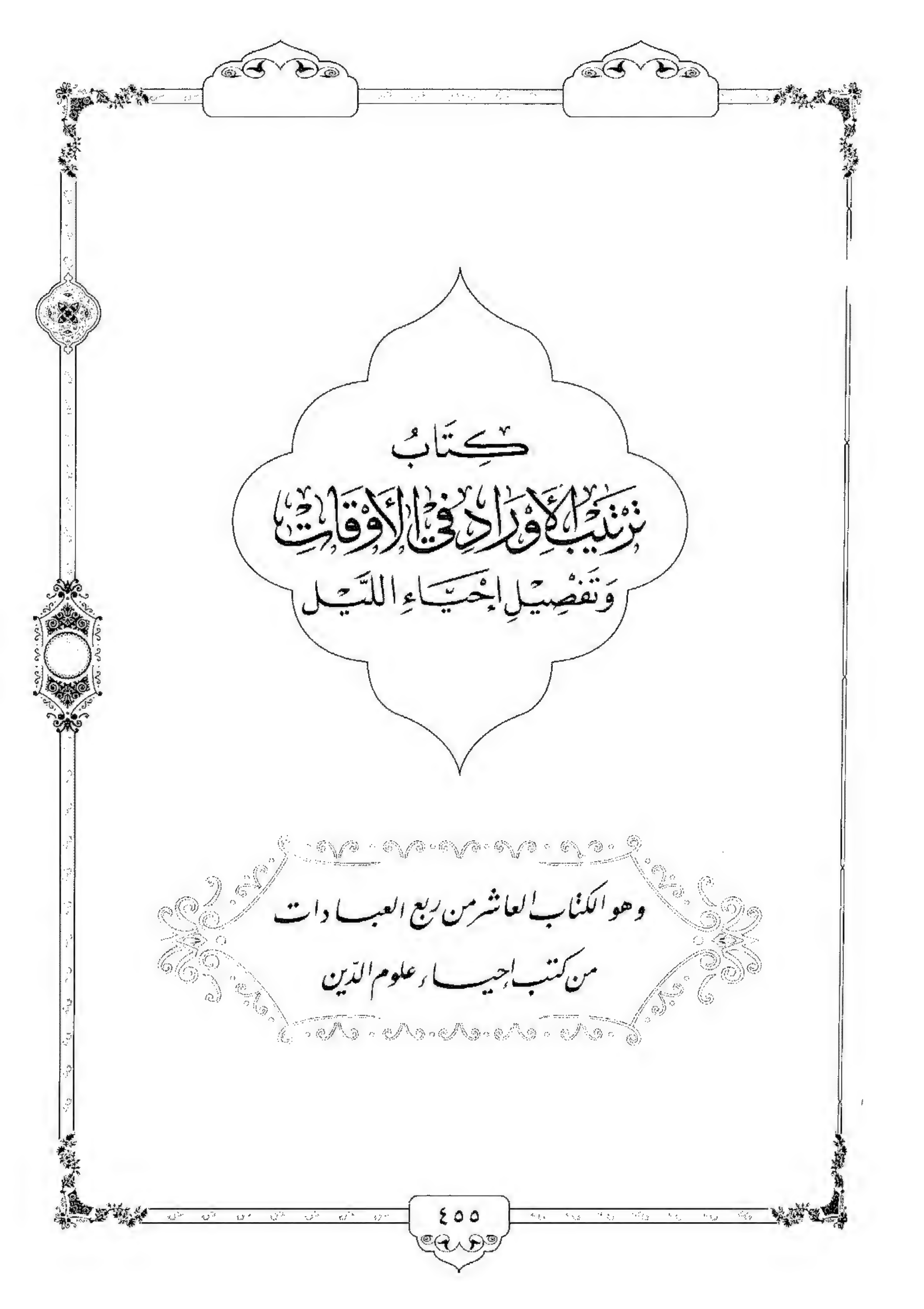
تمّ كتاب الأذكار والدّعوات

وهو الكتاب التّاسع من ربع العبادات من كتب إحياء علوم الدّين

بحمد الله وحسن توفيقه ، والصّلاة على خير خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله وصحبه

ويتلوه كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات ، وتفصيل إحياء الليل

(١) في هامش (د) : (قوبل بأصله وصحح) .



كِتَابُ
تَرْتِيبِ الأَوْرَادِ فِي الأَوْقَاتِ وَتَفْصِيلِ إِحْيَاءِ اللَّيْلِ

وهو الكتاب العاشر من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات وتفصيل إحياء الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدُ اللهَ علىٰ آلائِهِ حمداً كثيراً ، ونذكرُهُ ذكراً لا يغادرُ في القلبِ استكباراً ولا نفوراً(١) ، ونشكرُهُ إذْ جعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفةً لمَنْ أرادَ أنْ يذكَّرَ أوْ أرادَ شُكوراً .

ونصلِّي علىٰ نبيِّهِ الذي بعثَهُ بالحقِّ بشيراً ونذيراً ، وعلىٰ آلِهِ الطاهرينَ وصحبِهِ الأكرمينَ الذينَ اجتهدوا في عبادةِ اللهِ تعالىٰ غدوةً وعشياً وأصيلاً وبكوراً ، حتَّىٰ أصبحَ كلُّ واحدٍ منهُم نجماً في الدينِ هادياً وسراجاً منيراً .

أما بعد :

فإنَّ اللهَ تعالىٰ جعلَ الأرضَ ذَلولاً لعبادِهِ لا ليستقرُّوا في مناكبِها ، بلْ ليتخذوها منزلاً فيتزودوا منها زاداً يحملهُمْ في سفرِهِمْ إلى أوطانِهِمْ ، ويكتنزونَ منها تحفاً لنفوسِهِمْ عملاً وفضلاً ، محترزينَ مِنْ مصايدِها ومعاطبِها ، ويتحقَّقونَ أنَّ العمرَ يسيرُ بهِمْ سيرَ السفينةِ براكبِها .

فالناسُ في هٰذا العالمِ سَفْرٌ ، وأوَّلُ منازلِهِمُ المهدُ ، وآخرُها اللحدُ ، والوطنُ هوَ الجنَّةُ أوِ النارُ ، والعمرُ مسافةُ السفرِ ، فسِنوهُ مراحلُهُ ، وشهورُهُ

---

(١) لا يغادر : لا يترك .

فراسخُهُ ، وأيامُهُ أميالُهُ ، وأنفاسُهُ خطواتُهُ ، وطاعتُهُ بضاعتُهُ ، وأوقاتُهُ رؤوسُ أموالِهِ ، وشهواتُهُ وأغراضُهُ قطّاعُ طريقِهِ ، وربحُهُ الفوزُ بلقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ في دارِ السلامِ معَ المُلْكِ الكبيرِ والنعيمِ المقيمِ ، وخسرانُهُ البعدُ مِنَ اللهِ تعالىٰ معَ الأنكالِ والأغلالِ والعذابِ الأليمِ في دركاتِ الجحيمِ .

فالغافلُ عنْ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِهِ حتَّىٰ ينقضيَ في غيرِ طاعةٍ تقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالىٰ زُلفىٰ . . متعرضٌ في يومِ التغابنِ لغَبينَةٍ وحسرةٍ ما لها منتهىً[1] .

ولهٰذا الخطرِ العظيمِ والخطبِ الهائلِ شمَّرَ الموفَّقونَ عنْ ساقِ الجدِّ ، وودَّعوا بالكلِّيَّةِ ملاذَّ النفسِ ، واغتنموا بقايا العمرِ ، ورتَّبوا بحسبِ تكرُّرِ الأوقاتِ وظائفَ الأورادِ ؛ حرصاً علىٰ إحياءِ الليلِ والنهارِ ، في طلبِ القرْبِ مِنَ الملكِ الجبَّارِ ، والسعيِ إلىٰ دارِ القرارِ .

فصارَ مِنْ مهمَّاتِ علمِ طريقِ الآخرةِ تفصيلُ القولِ في كيفيَّةِ قسمةِ الأورادِ وتوزيعِ العباداتِ التي سبقَ شرحُها علىٰ مقاديرِ الأوقاتِ ، ويتضحُ هٰذا المهمُّ بذكْرِ بابينِ :

البابُ الأوَّلُ : في فضيلةِ الأورادِ ، وترتيبِها في الليلِ والنهارِ .

البابُ الثاني : في كيفيةِ إحياءِ الليلِ ، وفضيلتِهِ وما يتعلَّقُ بهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) **الغبينة** : هي من الغبن كالشتيمة من الشتم ، وأهل الجنة يغبنون أهل النار فيرثون منازلهم في الجنة ، ويورِّثونهم منازلهم من النار . والمثلُ الذي ساقه المصنف بعد فصل الخطاب في تشبيه الإنسان والدنيا بالمسافر والسفر حكاه في كتابه « فضائح الباطنية » (ص ٢٢٥) .

البَابُ الأَوّلُ
في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد ، وبيان أنّ المواظبة عليها هي الطّريق إلى الله عزّ وجلّ

اعلمْ : أنَّ الناظرينَ بنورِ البصيرةِ علموا أنَّهُ لا نجاةَ إلا في لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنَّهُ لا سبيلَ إلى اللقاءِ إلا بأنْ يموتَ العبدُ محباً للهِ تعالىٰ ، وعارفاً باللهِ سبحانَه ، وأنَّ المحبَّةَ والأُنسَ لا تحصلُ إلا مِنْ دوامِ ذكْرِ المحبوبِ والمواظبةِ عليهِ ، وأنَّ المعرفةَ لا تحصلُ إلا بدوامِ الفكْرِ فيهِ وفي صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وليسَ في الوجودِ سوى اللهِ تعالىٰ وأفعالِهِ ، ولنْ يتيسَّرَ دوامُ الذكْرِ والفكْرِ إلا بوداعِ الدنيا وشهواتِها ، والاجتزاءِ منها بقدْرِ البلغةِ والضرورةِ ، وكلُّ ذلكَ لا يتمُّ إلا باستغراقِ أوقاتِ الليلِ والنهارِ في وظائفِ الأذكارِ والإفكارِ .

والنفسُ لمَا جُبلتْ عليهِ مِنَ السآمةِ والمَلالِ لا تصبرُ علىٰ فنٍّ واحدٍ مِنَ الأسبابِ المعينةِ على الذكرِ والفكرِ ، بلْ إذا رُدَّتْ إلىٰ نمطٍ واحدٍ . أظهرتِ المَلالَ والاستثقالَ ، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يملُّ حتَّىٰ تملُّوا ، فمِنْ ضرورةِ اللطفِ بها أنْ تروَّحَ بالتنقُّلِ مِنْ فنٍّ إلىٰ فنٍّ ، ومِنْ نوعٍ إلىٰ نوعٍ ، بحسَبِ كلِّ وقتٍ ؛ لتغزُرَ بالانتقالِ لذَّتُها ، وتعظُمَ باللذَّةِ رغبتُها ، وتدومَ بدوامِ الرغبةِ مواظبتُها ؛ فلذلكَ تُقسَّمُ الأورادُ قسمةً مختلفةً .

والذكرُ والفكرُ ينبغي أنْ يستغرقا جميعَ الأوقاتِ أوْ أكثرَها ، فإنَّ النفسَ بطبعِها مائلةٌ إلىٰ ملاذِّ الدنيا ، فإنْ صرفَ العبدُ شطرَ أوقاتِهِ إلىٰ تدبيراتِ الدنيا وشهواتِها المباحةِ مثلاً ، والشطرَ الآخرَ إلى العباداتِ . . رجحَ جانبُ الميلِ إلى الدنيا ؛ لموافقتِها الطبعَ ، إذْ يكونُ الوقتُ متساوياً ، فأنَّىٰ يتقاومانِ والطبعُ لأحدِهما مرجِّحٌ ؟ إذِ الظاهرُ والباطنُ يتساعدانِ علىٰ أمورِ الدنيا ، ويصفو في طلبِها القلبُ ويتجرَّدُ ، وأمَّا الردُّ إلى العباداتِ . . فمتكلَّفٌ ، ولا يسلمُ إخلاصُ القلبِ فيهِ وحضورُهُ إلا في بعضِ الأوقاتِ .

فمَنْ أرادَ أنْ يدخلَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ . . فليستغرقْ أوقاتَهُ في الطاعةِ ، ومَنْ أرادَ أنْ تترجَّحَ كفَّةُ حسناتِهِ وتثقُلَ موازينُ خيراتِهِ . . فليستوعبْ في الطاعةِ أكثرَ أوقاتِهِ ، فإنْ خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً . . فأمرُهُ مخطرٌ ، ولكنِ الرجاءُ غيرُ منقطعٍ ، والعفوُ مِنْ كرمِ اللهِ عزَّ وجلَّ منتظرٌ ، فعسى اللهُ أنْ يغفرَ لهُ بجودِهِ وكرمِهِ .

فهٰذا ما انكشفَ للناظرينَ بنورِ البصيرةِ ، فإنْ لمْ تكنْ مِنْ أهلِهِ . . فانظرْ إلىٰ خطابِ اللهِ عزَّ وجلَّ لرسولِهِ واقتبسْهُ بنورِ الإيمانِ ، فقدْ قالَ تعالىٰ لأقربِ عبادِهِ إليهِ وأرفعِهِمْ درجةً لديهِ : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ .

ثمَّ انظرْ كيفَ وصفَ الفائزينَ مِنْ عبادِهِ ، وبماذا وصفَهُمْ ؛ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ .

وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ .

وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أيْ : فسبِّحوا اللهَ حينَ تمسونَ وحينَ تصبحون .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ .

فهٰذا كلُّهُ يبيِّنُ لكَ أنَّ الطريقَ إلى اللهِ تعالىٰ مراقبةُ الأوقاتِ ، وعمارتُها بالأورادِ علىٰ سبيلِ الدوامِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ الذينَ يراعونَ الشمسَ والقمرَ والأظلَّةَ لذكرِ اللهِ تعالىٰ »[1] ، وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ .

فلا تظنَّنَّ أنَّ المقصودَ مِنْ سيرِ الشمسِ والقمرِ بحسبانٍ منظومٍ مرتَّبٍ ، ومِنْ خلقِ الظلِّ والنورِ والنجومِ . أنْ يستعانَ بها علىٰ أمورِ الدنيا ، بلْ لتعرفَ بها مقاديرَ الأوقاتِ ، فتشتغلَ فيها بالطاعاتِ والتجارةِ للدارِ الآخرةِ ،

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٠٤) ، والطبراني في « الدعاء » (١٨٧٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٥١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٢٧) .

يدلُّكَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أيْ : يخلفُ أحدُهما الآخرَ ليتداركَ في أحدِهما ما فاتَ في الآخرِ ، وبيَّنَ أنَّ ذلكَ للذكرِ والشكرِ لا لغيرِه .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ ، وإنَّما الفضلُ المبتغىٰ هوَ الثوابُ والمغفرةُ ، ونسألُ اللهَ حسنَ التوفيقِ لما يرضيهِ .

* * *

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

اعلمْ : أنَّ أورادَ النهارِ سبعةٌ : فما بينَ طلوعِ الصبحِ إلىٰ طلوعِ قرْصِ الشمسِ وِردٌ ، وما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ وِردانِ ، وما بينَ الزوالِ إلىٰ وقتِ العصرِ وِردانِ ، وما بينَ العصرِ إلى المغربِ وِردانِ .

والليلُ يقسمُ بأورادٍ أربعةٍ : وردانِ مِنَ المغربِ إلىٰ وقتِ نومِ الناسِ ، ووردانِ مِنَ النصفِ الأخيرِ مِنَ الليلِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ ، ثمَّ وِردٌ خامسٌ وهو وِردُ النومِ ، مختصٌّ بالأذكارِ والأدعيةِ .

* * *

فلنذكرْ وظيفةَ كلِّ وردٍ وفضيلتَهُ وما يتعلَّقُ بهِ :

بيان أوراد النهار (١)

فالوردُ الأوَّلُ ما بينَ طلوعِ الصبحِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ :

وهوَ وقتٌ شريفٌ ، ويدلُّ علىٰ شرفِهِ وفضلِهِ إقسامُ اللهِ تعالىٰ بهِ إذْ قالَ : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ، وتمدُّحُهُ بهِ إذْ قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ ، وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، وإظهارُهُ القدرةَ بقبضِ الظلِّ فيهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ، وهوَ وقتُ قبضِ ظلِّ الليلِ ببسطِ نورِ الشمسِ ، وإرشادُهُ عزَّ وجلَّ الناسَ إلى التسبيحِ فيهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٢) . ١

وأمَّا ترتيبُهُ : فليأخذْ مِنْ وقتِ انتباهِهِ مِنَ النومِ ، فإذا انتبهَ . . فينبغي أنْ

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (١١/٤٧) عن علقمة بن قيس قال : (بلغنا أن الأرض تعج إلى الله من نومة العالم بعد صلاة الصبح) ، وروى البيهقي في « الشعب » (٤٤٠٥) عن السيدة فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها قالت : مرَّ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجعة متصبحة ، فحركني برجله ثم قال : « يا بنيّة ؛ قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين ، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشمس » .

يبتدىءَ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فيقولُ : (الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدَما أماتَنا وإليهِ النشورُ)[1] ، إلىٰ آخرِ الأدعيةِ والآياتِ التي ذكرناها في دعاءِ الاستيقاظِ مِنْ كتابِ الدعواتِ .

وليلبسْ ثوبَهُ وهوَ في الدعاءِ ، وينوي بهِ سترَ عورتِهِ امتثالاً لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ واستعانةً علىٰ عبادتِهِ ، مِنْ غيرِ قصدِ رياءٍ ولا رعونةٍ .

ثمَّ يتوجَّهُ إلىٰ بيتِ الماءِ إنْ كانَ بهِ حاجةٌ ، ويُدخِلُ أولاً رِجْلَهُ اليسرىٰ ، ويدعو بالأدعيةِ التي ذكرناها في كتابِ الطهارةِ عندَ الدخولِ والخروجِ .

ثمَّ يستاكُ على السنةِ كما سبقَ ، ويتوضَّأُ مراعياً لجميعِ السننِ والأدعيةِ التي ذكرناها في الطهارةِ ، فإنَّا إنَّما قدمْنا آحادَ العباداتِ لكي نذكرَ في هـٰذا الكتابِ وجهَ التركيبِ والترتيبِ فقطْ .

فإذا فرغَ مِنَ الوضوءِ . صلَّىٰ ركعتي الصبحِ ؛ أعني : السنَّةَ في منزلِهِ ، كذلكَ كانَ يفعلُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] ، ويقرأُ بعدَ الركعتينِ ـ سواءً أدَّاهُما في البيتِ أوْ في المسجدِ ـ الدعاءَ الذي رواهُ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ويقولُ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أسألُكَ رحمةً مِنْ عندِكَ تهدي بها قلبي) إلىٰ آخرِ الدعاءِ[3] .

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٢) ، ومسلم (٢٧١١) .
(٢) رواه البخاري (١١٧٣) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٩) ، والترمذي (٣٤١٩) .

ثمَّ يخرجُ مِنَ البيتِ متوجِّهاً إلى المسجدِ ، ولا ينسىٰ دعاءَ الخروجِ إلى المسجدِ[1] ، ولا يسعىٰ إلى الصلاةِ ، بلْ يمشي وعليهِ السكينةُ والوقارُ كما وردَ بهِ الخبرُ[2] ، ولا يشبِّكُ بينَ أصابعِهِ ويدخلُ المسجدَ ويقدِّمُ رجلَهُ اليمنىٰ ويدعو بالدعاءِ المأثورِ لدخولِ المسجدِ[3] ، ثمَّ يطلبُ مِنَ المسجدِ الصفَّ الأوَّل إنْ وجدَ متَّسعاً ، ولا يتخطَّىٰ رقابَ الناسِ ولا يزاحمُ ؛ كما سبقَ ذكرُهُ في كتابِ الجمعةِ .

ثمَّ يصلِّي ركعتيِ الفجرِ إنْ لمْ يكنْ صلاَّهما في المنزلِ ، ويشتغلُ بالدعاءِ المذكورِ بعدَهما ، وإنْ كانَ قدْ صلَّىٰ ركعتيِ الفجرِ . صلَّىٰ ركعتيِ التحيَّةِ وجلسَ منتظراً للجماعةِ .

والأحبُّ التغليسُ بالجماعةِ ؛ فقدْ كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يغلِّسُ بالصبحِ[4] ، ولا ينبغي أنْ يدعَ الجماعةَ في الصلاةِ عامةً وفي الصبحِ والعشاءِ خاصةً ؛ فلهُما زيادةُ فضلٍ ، فقدْ روىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ في صلاةِ الصبحِ : « مَنْ توضَّأَ ثمَّ توجَّهَ إلىٰ مسجدٍ يصلِّي فيهِ الصلاةَ . . كانَ لهُ بكلِّ خطوةٍ حسنةٌ ، ومُحِيَ عنهُ

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) .
(٢) فيما رواه البخاري (٦٣٦) ، ومسلم (٦٠٢) مرفوعاً : « إذا ثوِّب للصلاة . . فلا يسعَ إليها أحدكم ، ولكن ليمشِ وعليه السكينة والوقار ، صلِّ ما أدركت ، واقضِ ما سبقك » .
(٣) رواه الترمذي (٣١٤) ، وابن ماجه (٧٧١) .
(٤) كما في « البخاري » (٥٦٠) ، و« مسلم » (٦٤٦) .

سيئةٌ ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها ، فإذا صلَّىٰ ثمَّ انصرفَ عندَ طلوعِ الشمسِ . . كُتِبَ لهُ بكلِّ شعرةٍ في جسدِهِ حسنةٌ ، وانقلبَ بحجَّةٍ مبرورةٍ ، فإنْ جلسَ حتَّىٰ يركعَ . . كُتِبَ لهُ بكلِّ ركعةٍ ألفا ألفِ حسنةٍ ، ومَنْ صلَّى العتمةَ . . فلهُ مثلُ ذلكَ ، وانقلبَ بعمرةٍ مبرورةٍ »[1] .

وكانَ مِنْ عادةِ السلفِ دخولُ المسجدِ قبلَ طلوعِ الفجرِ ، قالَ رجلٌ مِنَ التابعينَ : دخلتُ المسجدَ قبلَ طلوعِ الفجرِ ، فلقيتُ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قدْ سبقَني ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ لأيِّ شيءٍ خرجتَ مِنْ منزلِكَ في هٰذهِ الساعةِ ؟ فقلتُ : لصلاةِ الغداةِ ، فقالَ : أبشرْ ؛ فإنَّا كنَّا نعدُّ خروجَنا وقعودَنا في المسجدِ في هٰذهِ الساعةِ بمنزلةِ غزوةٍ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، أوْ قالَ : معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

وعنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ طرقَهُ وفاطمةَ رضيَ اللهُ عنهُما وهما نائمانِ ، فقالَ : « ألا تصلُّونَ ؟ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّما أنفسُنا بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإذا شاءَ أنْ يبعثَنا . . بعثَنا ، فانصرفَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسمعتُهُ وهوَ مدبرٌ يضربُ فخذَهُ ويقولُ : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ »[3] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/٢١) بنحوه ، وانظر « قوت القلوب » (٢٧/١) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٤٣) .

(٣) رواه البخاري (١١٢٧ ، ٧٣٤٧) ، ومسلم (٧٧٥) .

ثمَّ ينبغي أنْ يشتغلَ بعدَ ركعتي الفجرِ ودعائِهِ بالاستغفارِ والتسبيحِ إلىٰ أنْ تقامَ الصلاةُ ، فيقولَ : (أستغفرُ اللهَ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيُّومَ وأتوبُ إليهِ) سبعينَ مرَّةً ، و(سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) مئةَ مرَّةٍ .

ثمَّ يصلي الفريضةَ مراعياً جميعَ ما ذكرناهُ مِنَ الآدابِ الباطنةِ والظاهرةِ في الصلاةِ والقدوةِ ، فإذا فرغَ منها . . قعدَ في المسجدِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ مشتغلاً في ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ كما سنرتبُهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأنْ أقعدَ في مجلسٍ أذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ فيهِ مِنْ صلاةِ الغداةِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ . . أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعْتقَ أرْبعَ رقابٍ »[١] .

ورُوي أنَّهُ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا صلَّى الغداةَ . . قعدَ في مصلَّاهُ حتَّىٰ تطلعَ الشمسُ[٢] ، وفي بعضِها : ويصلِّي ركعتينِ[٣] ؛ أي : بعدَ الطلوعِ ، وقدْ وردَ في فضلِ ذلكَ ما لا يحصىٰ .

وروى الحسنُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ فيما يذكرُ مِنْ رحمةِ ربِّهِ يقولُ : « إنَّهُ تعالىٰ قالَ : يا بنَ آدمَ ؛ اذكرني بعدَ صلاةِ الفجرِ

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٦٧) .

(٢) رواه مسلم (٦٧٠) .

(٣) روى الترمذي (٥٨٦) مرفوعاً : « من صلى الغداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتىٰ تطلع الشمس ، ثم صلىٰ ركعتين . . كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة » .

ساعةً وبعدَ صلاةِ العصرِ ساعةً . . أكفِكَ ما بينَهُما »[١] .

وإذا ظهرَ فضْلُ ذلكَ . . فليقعدْ ولا يتكلَّمْ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ، بلْ ينبغي أنْ تكونَ وظيفتُهُ إلى الطلوعِ أربعةَ أنواعٍ : أدعيةٌ ، وأذكارٌ يكرِّرُها في سبْحَةٍ ، وقراءةُ قرآنٍ ، وتفكرٌ .

* * *

أمَّا الأدعيةُ : فكما يفرغُ مِنْ صلاتِهِ فليبدأْ وليقلْ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، اللهمَّ ؛ أنتَ السلامُ ، ومنكَ السلامُ ، وإليكَ يعودُ السلامُ ، حيِّنا ربَّنا بالسلامِ ، وأدخلْنا دارَ السلامِ ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرامِ .

ثمَّ يفتتحُ الدعاءَ بما كانَ يفتتحُ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهوَ قولُهُ : سبحانَ ربِّي العليِّ الأعلى الوهَّابِ[٢] ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ أهلُ النعمةِ والفضلِ ، والثناءِ الحسنِ ، لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، ولا نعبدُ إلا إيَّاهُ ، مخلصينَ لهُ الدينَ ولوْ كرِهَ الكافرونَ .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٢٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٢١٣) عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً ، وذكر الحافظ العراقي أن ابن المبارك رواه في « الزهد » عن الحسن مرسلاً . انظر « الإتحاف » (٥/١٢٨) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٤/٥٤) ، والحاكم في « المستدرك » (١/٤٩٨) .

ثمَّ يبتدىءُ بالأدعيةِ التي أوردْناها في البابِ الثالثِ والرابعِ مِنْ كتابِ الأدعيةِ ، فيدعو بجميعِها إنْ قدرَ عليهِ ، أوْ يحفظُ مِنْ جملتِها ما يراهُ أوفقَ لحالِهِ ، وأرقَّ لقلبِهِ ، وأخفَّ على لسانِهِ .

* * *

وأمَّا الأذكارُ المكررةُ : فهيَ كلماتٌ وردَ في تكرارِها فضائلُ لمْ نطولْ بإيرادِها ، وأقلُّ ما ينبغي أنْ يكرِّرَ كلَّ واحدٍ منها ثلاثاً أوْ سبعاً ، وأكثرُهُ مئةٌ أوْ سبعونَ ، وأوسطُهُ عشرٌ ، فليكرزْ ذلكَ بقدْرِ فراغِهِ وسَعةِ وقتِهِ ، وفضلُ الأكثرِ أكثرُ ، والأوسطُ الأقصدُ أنْ يكرِّرَها عشرَ مراتٍ ، فهوَ أجدرُ بأنْ يدومَ عليهِ ، وخيرُ الأمورِ أدومُها وإنْ قلَّ ، وكلُّ وظيفةٍ لا يمكنُ المواظبةُ على كثيرِها فقليلُها معَ المداومةِ أفضلُ وأشدُّ تأثيراً في القلبِ مِنْ كثيرِها مِنْ غيرِ مداومةٍ .

ومثالُ القليلِ الدائمِ مثالُ قطراتِ ماءٍ تتقاطرُ على الأرضِ على التوالي ، فتحدثُ فيها حُفيرةً ولوْ وقعَتْ على الحجرِ ، ومثالُ الكثيرِ المتفرِّقِ مثالُ ما يصبُّ دفعةً أوْ دفعاتٍ متفرقةً متباعدةَ الأوقاتِ ، فلا يبينُ لها أثرٌ ظاهرٌ .

* * *

وهاذهِ الكلماتُ عشرٌ :

الأولى : قولُهُ : لا إلـهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، لهُ الملكُ ، ولهُ

الحمدُ ، يحيي ويميتُ ، وهوَ حيٌّ لا يموتُ ، بيدِهِ الخيرُ ، وهوَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ(١) .

الثانيةُ : قولُهُ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ(٢) .

الثالثةُ : قولُهُ : سبُّوحٌ قدُّوسٌ ربُّ الملائكةِ والروحِ(٣) .

الرابعةُ : قولُهُ : سبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ(٤) .

الخامسةُ : قولُهُ : أستغفرُ اللهَ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيُّومَ وأسألُهُ التوبةَ(٥) .

السادسةُ : قولُهُ : اللهمَّ ، لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجدُّ(٦) .

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) ، والحديث عن فضل التكرار هنا وفيما سيأتي مطلق .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٧٥) بمطلق الاستكثار ، ولفظة : (العلي العظيم) عند ابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٥) .

(٣) رواه مسلم (٤٨٧) ، وورد تكرارها عند ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٣٩) ولفظه مرفوعاً : « أكثر من أن تقول : سبحان الملك القدوس ، ربِّ الملائكة والروح » الحديث ، وهو في ذهاب الوحشة .

(٤) رواه البخاري (٦٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٩١) .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه المستغفري في « الدعوات » من حديث معاذ ، أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات . . كفرت ذنوبه وإن كانت أكثر من زبد البحر ، ولفظه : « وأتوب إليه ») ، ونحوه عند الترمذي (٣٣٩٧) كذلك .

(٦) رواها البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٤٧١ ، ٥٩٣) عقب الصلاة وبعد الركوع مطلقاً .

السادسةُ : قولُهُ : اللهمَّ ، لا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجدُّ(١) .

السابعةُ : قولُهُ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ الملكُ الحقُّ المبينُ(٢) .

الثامنةُ : قولُهُ : باسمِ اللهِ الذي لا يضرُّ معَ اسمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ وهوَ السميعُ العليمُ(٣) .

التاسعةُ : اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ عبدِكَ ونبيِّكَ ورسولِكَ النبيِّ الأميِّ وعلىٰ آلِ محمدٍ(٤) .

العاشرةُ : قولُهُ : أعوذُ باللهِ السميعِ العليمِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشياطينِ ، وأعوذُ بكَ ربِّ أنْ يَحْضُرونِ(٥) .

---

(١) رواها البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٤٧١ ، ٥٩٣) عقب الصلاة وبعد الركوع مطلقاً .

(٢) هو عند الدارقطني في « العلل » (٣/١٠٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٨٠) ، والخطيب في « الرحلة في طلب الحديث » (ص٢٠٤) .

(٣) رواه أبو داوود (٥٠٨٨) ، والترمذي (٣٣٨٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٥٩) ، وابن ماجه (٣٨٦٩) .

(٤) صيغة مركبة من حديثين ، ففي « البخاري » (٤٧٩٨) : « قولوا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد عبدك ورسولك . . . » الحديث ، وعند أبي داوود (٩٧٩) : « قولوا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد النبي الأمي وعلىٰ آل محمد » ، والإكثار من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم مستفيض في دواوين السنة .

(٥) رواه الترمذي (٢٩٢٢) مرفوعاً : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آياتٍ من آخر سورة الحشر . . وكَّلَ اللهُ به سبعين =

فهٰذهِ العشرُ كلماتٍ إذا كرَّرَ كلَّ واحدةٍ عشرَ مرَّاتٍ . . حصلَ لهُ مئةُ مرَّةٍ ، فهوَ أفضلُ مِنْ أنْ يكرِّرَ ذكراً واحداً مئةَ مرَّةٍ ؛ لأنَّ لكلِّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ الكلماتِ فضلاً علىٰ حيالِها ، وللقلبِ بكلِّ واحدةٍ نوعُ تنبيهٍ وتلذُّذٍ ، وللنفسِ في الانتقالِ مِنْ كلمةٍ إلىٰ كلمةٍ نوعُ استراحةٍ وأمنٍ مِنَ المَلالِ[1] .

* * *

فأمَّا القراءةُ : فيستحبُّ لهُ قراءةُ جملةٍ مِنَ الآياتِ وردتِ الأخبارُ بفضلِها ، وهوَ أنْ يقرأَ : (سورةَ الحمد)[2] ، وآيةَ الكرسيِّ[3] ، وخاتمةَ (البقرةِ)[4] ؛ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ ﴾ ، و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ ، و﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ الآيتينِ[5] ، وقولَهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

= ألف ملك يصلون عليه حتىٰ يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم . . مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي . . كان بتلك المنزلة » .

(١) قوت القلوب (١/ ٦) .

(٢) فهي أعظم سورة في القرآن كما في « البخاري » (٤٤٧٤) .

(٣) وهي أعظم آية في القرآن كما في « مسلم » (٨١٠) .

(٤) أتىٰ فضلها في « البخاري » (٤٠٠٨) ، ومسلم (٨٠٧) .

(٥) روىٰ في فضلها ابن السني في « عمل اليوم والليلة » مرفوعاً : « إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، والآيتين من (آل عمران) ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، و﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ ﴾ ، معلقات ما بينهن وبين الله عز وجل حجاب ، لما أراد الله أن ينزلهن . . تعلقن بالعرش ، قلن : ربنا تهبطنا إلىٰ أرضك وإلىٰ من =

أَنفُسِكُمْ﴾ إلىٰ آخرِها(١) ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ إلىٰ آخرِها(٢) ، وقولُهُ سبحانَهُ : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآيةَ(٣) ، وخمسَ آياتٍ مِنْ أوَّلِ (الحديدِ)(٤) ، وثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ (سورةِ الحشرِ)(٥) .

= يعصيك ؟ فقال الله عز وجل : بي حلفت ؛ لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه علىٰ ما كان منه ، وإلا أسكنته حظيرة القدس . . . » الحديث .

(١) روىٰ في فضل الآية الخاتمة منها الطبراني في « الدعاء » (١٠٥٩) ، ونقل الحافظ عن أبي القاسم الغافقي في « فضائل القرآن » لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لزم قراءة : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ . . لم يمت هدماً ولا غرقاً ولا حرقاً ولا ضرباً بحديدة » . انظر « الإتحاف » (٥/ ١٣٣) .

(٢) روى البخاري (٤١٧٧) في فضل السورة عموماً قولَه صلى الله عليه وسلم : « لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ » ، وروى الثعلبي في « تفسيره » (٩/ ٤٠) عن يزيد بن هارون يقول : سمعت المسعودي يذكر قال : بلغني أن من قرأ في أول ليلة من رمضان ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ في التطوع . . حفظ ذلك العام .

(٣) روىٰ أحمد في « المسند » (٣/ ٤٣٩) مرفوعاً : « آية العز : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ » الآيةَ كلَّها .

(٤) ذكر أبو القاسم الغافقي في « فضائل القرآن » من حديث علي رضي الله عنه : (إذا أردت أن تسأل الله حاجة . . فاقرأ خمس آيات من أول « سورة الحديد » إلىٰ قوله : ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ، ومن آخر « سورة الحشر » من قوله : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلىٰ آخر السورة ، ثم تقول : يا من هو كذا ؛ افعل بي كذا ، ثم تدعو بما تريد) . « إتحاف » (٥/ ١٣٤) ، وانظر « الدر المنثور » (٨/ ١٢٢) .

(٥) تقدم الحديث في ذكر فضلها تعليقاً ، وروى البيهقي في « الشعب » (٢٢٧١) مرفوعاً : =

وإنْ قرأَ المسبَّعاتِ العشرَ التي أهداها الخضرُ عليهِ السلامُ إلىٰ إبراهيمَ التيميِّ رحمَهُ اللهُ ووصَّاهُ أنْ يقولَها غدوةً وعشيةً . . فقدِ استكملَ الفضلَ ، وجمعَ لهُ ذلكَ فضيلةَ جملةِ الأدعيةِ المذكورةِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ كرزِ بنِ وبرةَ وكانَ مِنَ الأبدالِ رحمهُ اللهُ قالَ : أتاني أخٌ لي مِن أهلِ الشامِ ، فأهدىٰ لي هديةً وقالَ : يا كرزُ ؛ اقبلْ منِّي هـٰذهِ الهديةَ ؛ فإنَّها نعمتِ الهديةُ ، فقلتُ : يا أخي ؛ ومَنْ أهدىٰ لكَ هـٰذهِ الهديةَ ؟ قالَ : أعطانيها إبراهيمُ التيميُّ ، قلتُ : أفلمْ تسألْ إبراهيمَ التيميَّ مَنْ أعطاهُ إيَّاها ؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : كنتُ جالساً في فِناءِ الكعبةِ وأنا في التهليلِ والتسبيحِ والتحميدِ والتمجيدِ ، فجاءني رجلٌ ، فسلَّمَ عليَّ وجلسَ عنْ يميني ، فلمْ أرَ في زماني أحسنَ منهُ وجهاً ، ولا أحسنَ منهُ ثياباً ، ولا أشدَّ بياضاً ، ولا أطيبَ ريحاً منهُ ، فقلتُ : يا عبدَ اللهِ ؛ مَنْ أنتَ ، ومِنْ أينَ جئتَ ، فقالَ : أنَا الخضِرُ ، فقلتُ : في أيِّ شيءٍ جئتني ؟ فقالَ : جئتُكَ للسلامِ عليكَ وحبّاً لكَ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، وعندي هديةٌ أريدُ أنْ أهديَها إليكَ ، فقلتُ : ما هيَ ؟ قالَ : أنْ تقرأَ قبلَ طلوعِ الشمسِ وانبساطِها على الأرضِ وقبلَ الغروبِ (سورةَ الحمدِ) ، و(قلْ أعوذُ بربِّ الناسِ) و(قلْ أعوذُ بربِّ الفلقِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ، وآيةَ الكرسيِّ ، كلَّ واحدةٍ سبعَ مرَّاتٍ ، وتقولَ :

= « من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته . . فقد أوجب الجنة » .

(سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) سبعاً ، وتصلِّيَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سبعاً ، وتستغفرَ لنفسِكَ ولوالديكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ سبعاً ، وتقولَ : اللهمَّ ؛ افعلْ بي وبهِمْ عاجلاً وآجلاً في الدينِ والدنيا والآخرةِ ما أنتَ لهُ أهلٌ ، ولا تفعلْ بنا يا مولانا ما نحنُ لهُ أهلٌ ، إنَّكَ غفورٌ حليمٌ[1] جوادٌ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ سبعَ مرَّاتٍ ، وانظرْ ألاَّ تدعَ ذلكَ غدوةً وعشيةً .

فقلتُ : أحبُّ أنْ تخبرَني مَنْ أعطاكَ هـٰذهِ العطيةَ العظيمةَ ؟ فقالَ : أعطانيها محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ : أخبرْني بثوابِ ذلكَ ، فقالَ : إذا لقيتَ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فسَلْهُ عنْ ثوابِهِ ، فإنَّهُ يخبرُكَ بذلكَ .

فذكرَ إبراهيمُ التيميُّ أنَّهُ رأىٰ ذاتَ ليلةٍ في منامِهِ كأنَّ الملائكةَ جاءتْهُ فاحتملتْهُ حتَّىٰ أدخلوهُ الجنةَ ، فرأىٰ ما فيها ، ووصفَ أموراً عظيمةً ممَّا رآهُ في الجنةِ ، قالَ : فسألتُ الملائكةَ فقلتُ : لمَنْ هـٰذا كلُّهُ ؟ فقالوا : للذي يعملُ مثلَ عملِكَ ، وذكرَ أنَّهُ أكلَ مِنْ ثمرِها وسقوهُ مِنْ شرابِها ، قالَ : فأتاني النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعهُ سبعونَ نبيّاً وسبعونَ صفّاً مِنَ الملائكةِ ، كلُّ صفٍّ مثلُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ ، فسلَّمَ عليَّ ، وأخذَ

---

(١) الذي في النسخ : (رحيم) بدل (حليم) ، والمثبت من « القوت » (١/٧) ، ونسخة الحافظ الزبيدي ، والله أعلم .

بيدي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الخضرَ أخبرَني أنَّهُ سمعَ منكَ هٰذا الحديثَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : صدقَ الخضرُ ، صدقَ الخضرُ ، وكلُّ ما يحكيهِ فهوَ حقٌّ ، وهوَ عالمُ أهلِ الأرضِ ، وهوَ رئيسُ الأبدالِ ، وهوَ مِنْ جنودِ اللهِ عزَّ وجلَّ في الأرضِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ فمَنْ فعلَ هٰذا أو عملَهُ ولمْ يرَ مثلَ الذي رأيتُ في منامي . . هلْ يُعطىٰ شيئاً ممَّا أُعطيتُهُ ؟ فقالَ : والذي بعثني بالحقِّ نبياً ؛ إنَّهُ ليعطى العاملُ بهٰذا وإنْ لمْ يرني ولمْ يرَ الجنَّةَ ، إنَّهُ ليغفرُ لهُ جميعُ الكبائرِ التي عملَها ويرفعُ اللهُ سبحانَهُ عنهُ غضبَهُ ومقتَهُ ، ويأمرُ صاحبَ الشمالِ ألا يكتبَ عليهِ خطيئةً مِنَ السيئاتِ إلىٰ سنةٍ ، والذي بعثني بالحقِّ نبياً ؛ ما يعملُ بهٰذا إلا مَنْ خلقَهُ اللهُ سعيداً ، ولا يتركُهُ إلا مَنْ خلقَهُ اللهُ شقياً(١) .

---

(١) القصة رواها ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/٤٢٩) إلىٰ قوله : (وهو من جنود الله عز وجل في الأرض) ، وتمامها عند صاحب « القوت » (١/٧) ، قال الحافظ الزبيدي بعد أن حدَّث عن ضعف سندها : (ولكن مثل هٰذا يغتفر في فضائل الأعمال ، لا سيما وقد تلقته الأمة بالقبول ، والله أعلم) .
وقد حكى الحافظ العراقي عبارة علمية دقيقة في شأن حياة الخضر عليه السلام واجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : (ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ، ولا حياته ولا موته) . « إتحاف » (٥/ ١٣٥) ، فنفى الحافظ الصحة عن الخبر ، وهٰذا لا يمنع ما دونه ، ثم سوّىٰ في الأخبار الواردة فلا ترجيح ، فكما أنه لم يصح شيء في حياته فكذلك القول في موته ، وكما أنه لم يصح شيء في اجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم فكذلك لم يصح شيء في عدم اجتماعه به ، فعاد الأمر إلىٰ أذواق خاصة في الاستدلال .

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ يمكثُ أربعةَ أشهرٍ لمْ يطعمْ ولمْ يشربْ ، فلعلَّهُ كانَ بعدَ هـٰذهِ الرؤيا[1] .

فهـٰذهِ وظيفةُ القراءةِ ، فإنْ أضافَ إليها شيئاً ممَّا انتهىٰ إليهِ وِردُهُ مِنَ القرآنِ أوِ اقتصرَ عليهِ . . فهو حسنٌ ؛ فإنَّ القرآنَ جامعٌ لفضلِ الذكرِ والفكرِ والدعاءِ مهما كانَ بتدبُّرٍ كما ذكرنا فضلَهُ وآدابَهُ في كتابِ التلاوةِ .

* * *

= وممن قال بحياته عليه السلام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح في « فتاويه » (١/ ١٨٥) حيث قال : (وأما الخضر عليه السلام . . فهو من الأحياء عند جماهير الخاصة من العلماء والصالحين ، والعامة معهم في ذلك ، وإنما شذَّ بإنكار ذلك بعض أهل الحديث) ، وقال الإمام النووي في « المجموع » (٥/ ٢٦٩) وهو يحكي عن الخضر عليه السلام : (وإنما ذكره أصحابنا ، وفيه دليل منهم لاختيارهم ما هو المختار ، وترجيح ما هو الصواب ، وهو أن الخضر عليه السلام حي باق ، وهـٰذا قول أكثر العلماء) ، وقد قال الإمام المفسر القرطبي في « تفسيره » (١١/ ٤١) وهو يحكي الخلاف : (والصحيح القول الثاني ، وهو أنه حي) .
وهـٰذا لا يمنع وجود أقوال معارضة لذلك ، ووجود من فوَّض الأمر فيه عليه السلام إلى الله تعالىٰ ؛ كما فعل ذلك الحافظ ابن حجر في ترجمته الطويلة في « الإصابة » (١/ ٤٢٨) وقد ذكره في القسم الأول وقال : (فهو داخل في تعريف الصحابي علىٰ أحد الأقوال ، ولم أر من ذكره فيهم من القدماء مع ذهاب الأكثر إلى الأخذ بما ورد من أخباره في تعميره وبقائه) ، ثم أفرده في كتاب « الزهر النضر في نبأ الخضر » .

(١) قوت القلوب (١/ ٧) .

وأمَّا الإفكارُ : فليكنْ ذلكَ أحدَ وظائفِهِ ، وسيأتي تفصيلُ ما يتفكرُ فيهِ وكيفيتُهُ في كتابِ التفكُّرِ مِنْ ربعِ المنجياتِ إنْ شاءَ اللهُ ، ولكنْ مجامعُهُ ترجعُ إلىٰ فنَّيْنِ :

أحدُهما : أنْ يتفكَّرَ فيما ينفعُهُ في المعاملةِ ؛ بأنْ يحاسبَ نفسَهُ فيما سبقَ مِنْ تقصيرِهِ[1] ، ويرتِّبَ وظائفَهُ في يومِهِ الذي بينَ يديهِ ، ويدبِّرَ في دفعِ الصوارفِ والعوائقِ الشاغلةِ لهُ عنِ الخيرِ ، ويتذكَّرَ تقصيرَهُ وما يتطرَّقُ إليهِ الخللُ مِنْ أعمالِهِ ليصلحَهُ ، ويحضرَ في قلبِهِ النيّاتِ الصالحةَ في أعمالِهِ في نفسِهِ وفي معاملتِهِ للمسلمينَ[2] .

الفنُّ الثاني : فيما ينفعُهُ في علمِ المكاشفةِ ، وذلكَ بأنْ يتفكَّرَ مرَّةً في نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتواترِ آلائِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، لتزيدَ معرفتُهُ بها ، ويكثرَ

---

(١) عن الشكر في ظواهر النعم وبواطنها ، وعجزه عن القيام بما أمر به من حسن الطاعة ودوام الشكر على النعمة . « إتحاف » (٥/ ١٣٥) .

(٢) أي : يعقد طريقه علىٰ حسن المعاملة بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين الخلق ، ويدخل في ذلك التفكر فيما عليه من الأوامر والنوادب ، وفي كثيف ستر الله تعالىٰ ولطيف صنعه به ، ويستغفر الله تعالىٰ ويجدد التوبة لما مضىٰ من عمره ، ولما يأتنف من مستقبله ، ويخلص الدعاء بتمسكن وتضرع ووجل وإخبات أن يعصمه من جميع النهي ، وأن يوفقه لصالح الأعمال ، ويتفضل عليه برغائب الأفضال ، وهو في ذلك فارغ القلب مجرَّد الهم ، موقن بالإجابة راض بالقسم ، ويتكلم بمعروف وخير ، ويدعو به إلى الله عز وجل ، وينفع به أخاه المسلم ، ويعلم من دونه في العلم . « إتحاف » (٥/ ١٣٦) .

شكرُهُ عليها، أوْ في عقوباتِهِ ونقماتِهِ؛ لتزيدَ معرفتُهُ بقدرةِ اللهِ تعالىٰ واستغنائِهِ، ويزيدَ خوفُهُ منها ، ولكلِّ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأمورِ شعبٌ كثيرةٌ يتسعُ التفكُّرُ فيها علىٰ بعضِ الخلقِ دونَ البعضِ ، وإنَّما نستقصي ذلكَ في كتابِ التفكُّرِ .

* * *

ومهما تيسَّرَ الفكرُ . . فهوَ أشرفُ العباداتِ ؛ إذْ فيهِ معنى الذكرِ للهِ سبحانَهُ وزيادةُ أمرينِ :

أحدُهما : زيادةُ المعرفةِ ؛ إذِ الفكرُ مفتاحُ المعرفةِ والكشفِ(١) .

والثاني : زيادةُ المحبَّةِ ؛ إذْ لا يحبُّ القلبُ إلا مَنِ اعتقدَ تعظيمَهُ ، ولا تنكشفُ عظمةُ اللهِ سبحانَهُ وجلالُهُ إلا بمعرفةِ صفاتِهِ ، ومعرفةِ قدرتِهِ ، وعجائبِ أفعالِهِ ، فيحصلُ مِنَ الفكرِ المعرفةُ ، ومِنَ المعرفةِ التعظيمُ ، ومِنَ التعظيمِ المحبَّةُ .

والذكرُ أيضاً يورثُ الأنسَ ، وهوَ نوعٌ مِنَ المحبَّةِ ، ولكنِ المحبَّةُ التي سببُها المعرفةُ أقوىٰ وأثبتُ وأعظمُ ، ونسبةُ محبةِ العارفِ إلىٰ أنسِ الذاكرِ مِنْ غيرِ تمامِ الاستبصارِ كنسبةِ عشقِ مَنْ شاهدَ جمالَ شخصٍ بالعينِ واطلعَ علىٰ

---

(١) لأنه إدارة فكر وتصرف قلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب ، فالفكر يد النفس التي تنال بها المعلومات كما تنال بيد الجسم المحسوسات ، وبهٰذا التصرف القلبي يتدرج إلىٰ فتوح باب المعرفة والكشف الإلهي . « إتحاف » (٥/ ١٣٦) .

حسنِ أخلاقِهِ وأفعالِهِ وفضائلِهِ وخصالِهِ الحميدةِ بالتجربةِ إلىٰ أنسِ مَنْ كُرِّرَ علىٰ سمعِهِ وصْفُ شخصٍ غائبٍ عنْ عينهِ بالحسنِ في الخَلْقِ والخُلقِ مطلقاً مِنْ غيرِ تفصيلِ وجوهِ الحسنِ فيهما ، فليسَ محبَّتُهُ لهُ كمحبةِ المشاهدِ ، وليسَ الخبرُ كالمعاينةِ .

والعبادُ المواظبونَ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ بالقلبِ واللسانِ ، الذينَ صدَّقوا بما جاءتْ بهِ الرسلُ بالإيمانِ التقليديِّ . . ليسَ معهُمْ مِنْ محاسنِ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ إلا أمورٌ جُمْليَّةٌ اعتقدوها بتصديقِ مَنْ وصفَها لهُمْ ، والعارفونَ هُمُ الذينَ شاهدوا ذلكَ الجلالَ والجمالَ بعينِ البصيرةِ الباطنةِ التي هيَ أقوىٰ مِنَ البصرِ الظاهرِ لا أنَّ أحداً أحاطَ بكنْهِ جلالِهِ وجمالِهِ ، فإنَّ ذلكَ غيرُ مقدورٍ لأحدٍ مِنَ الخلقِ(١) ، ولكنْ كلُّ واحدٍ شاهدَ بقدْرِ ما رفعَ لهُ مِنَ الحجابِ .

ولا نهايةَ لجمالِ حضرةِ الربوبيةِ ولا لحُجُبِها ، وإنَّما عددُ حُجُبِها التي استحقتْ أنْ تسمَّىٰ نوراً ـ وكادَ أنْ يظنَّ الواصلُ إليها أنَّهُ قدْ تمَّ وصولُهُ إلى الأصلِ ـ سبعونَ حجاباً ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ

---

(١) إذ نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه ، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالىٰ . . . ، وأما اتساع المعرفة إنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته . « إتحاف » (٥/١٣٧) .

سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ ، لوْ كشفَها . . لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ كلَّ ما أدرَكَ بصرُهُ »(1) .

وتلكَ الحجبُ أيضاً مترتبةٌ ، وتلكَ الأنوارُ متفاوتةٌ في الرتبِ تفاوتَ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ ، ويبدو في الأوَّلِ أصغرُها ، ثمَّ ما يليهِ ، وعلىٰ ذلكَ أوَّلَ بعضُ الصوفيةِ درجاتِ ما كانَ يظهرُ لإبراهيمَ الخليلِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ في ترقِّيهِ وقالَ : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ أيْ : أظلمَ عليهِ الأمرُ . ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾ أي : وصلَ إلىٰ حجابٍ مِنْ حُجُبِ النورِ ، فعبَّرَ عنهُ بالكوكبِ(2) ، وما أريدَ بهِ هٰذهِ الأجسامُ المضيئةُ ؛ فإنَّ آحادَ العوامِّ لا يخفىٰ عليهِمْ أنَّ الربوبيَّةَ لا تليقُ بالأجسامِ ، بلْ يدركونَ ذلكَ بأوائلِ نظرِهِمْ ، فما لا يضلِّلُ العوامَّ لا يضلِّلُ الخليلَ عليهِ السلامُ .

والحُجُبُ المسمَّاةُ أنواراً ما أُريدَ بها الضوءُ المحسوسُ بالبصرِ ، بلْ أُريدَ بها ما أُريدَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . . . ﴾ الآيةَ .

---

(1) رواه مسلم (١٧٩) بلفظ : « حجابه النور » ، ولفظ : « سبعين حجاباً » عند الطبراني في « الأوسط » (٦٤٠٣) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٥/٥٥) مرفوعاً : « يا جبريل ؛ هل ترىٰ ربك ؟ قال : إن بيني وبينه لسبعين حجاباً من نار أو من نور ، لو دنوت من أدناها . . لاحترقت » . وانظر إلىٰ ما قاله المصنف رحمه الله تعالىٰ في « مشكاة الأنوار » (ص٧٥) .

(2) انظر إلىٰ ما قاله المصنف رحمه الله تعالىٰ في « مشكاة الأنوار » (ص٥٥) .

ولنتجاوزْ هٰذهِ المعانيَ ؛ فإنَّها خارجةٌ عَنْ علمِ المعاملةِ ، ولا يُوصلُ إلىٰ حقائقِها إلا بالكشْفِ التابعِ للفكرِ الصافي ، وقلَّ مَنْ يفتحُ لهُ بابُهُ ، والمتيسِّرُ علىٰ جماهيرِ الخلائقِ الفكرُ فيما يفيدُ في علومِ المعاملةِ ، وذلكَ أيضاً ممَّا تغزرُ فائدتُهُ ويعظُمُ نفعُهُ .

فهٰذهِ الوظائفُ الأربعةُ ـ أعني : الدعاءَ ، والذكرَ ، والقراءةَ ، والفكرَ ـ ينبغي أنْ تكونَ وظيفةَ المريدِ بعدَ صلاةِ الصبحِ ، بلْ في كلِّ وِردٍ بعدَ الفراغِ مِنْ وظيفةِ الصلاةِ ، فليسَ بعدَ الصلاةِ وظيفةٌ سوىٰ هٰذهِ الأربعِ .

ويقوِّي علىٰ ذلكَ بأنْ يأخذَ سلاحَهُ ومجنَّهُ ، والصومُ هوَ الجُنَّةُ التي تضيِّقُ مجاريَ الشيطانِ المعادي الصارفِ لهُ عنْ سبيلِ الرشادِ .

وليسَ بعدَ طلوعِ الصبحِ صلاةٌ سوىٰ ركعتيِ الفجرِ وفرضِ الصبحِ إلى الطلوعِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابُهُ رضيَ اللهُ عنهُم يشتغلونَ في هٰذا الوقتِ بالأذكارِ[1] ، وهوَ الأولىٰ ، إلا أنْ يغلبَهُ النومُ قبلَ الفرضِ ولمْ يندفعْ إلا بالصلاةِ ، فلو صلَّىٰ لذلكَ . . فلا بأسَ بهِ .

(١) رویٰ ذلك الخبر أبو داوود (٣٦٦٧) .

الوردُ الثاني : ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلىٰ ضحوةِ النهارِ :

وأعني بالضحوةِ منتصفَ ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى الزوالِ ، وذلكَ بمضيِّ ثلاثِ ساعاتٍ مِنَ النهارِ إذا فرضَ النهارُ اثنتي عشرةَ ساعةً ، وهوَ الربعُ ، وفي هـٰذا الربعِ مِنَ النهارِ وظيفتانِ زائدتانِ :

ـ **إحداهُما** : صلاةُ الضحىٰ ، وقدْ ذكرنا في كتابِ الصلاةِ أنَّ الأولىٰ أنْ يصلِّيَ ركعتينِ عندَ الإشراقِ ، وذلكَ إذا انبسطتِ الشمسُ وارتفعتْ قدرَ نصفِ رمحٍ ، ويصلِّيَ أربعاً أوْ ستاً أوْ ثمانياً إذا رَمِضَتِ الفصالُ[1] ، وضحيتِ الأقدامُ بحرِّ الشمسِ .

فوقتُ الركعتينِ هوَ الذي أرادَ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ ، فإنَّهُ وقتُ إشراقِ الشمسِ ، وهوَ ظهورُ تمامِ نورِها بارتفاعِها عنْ مُوازاةِ البخاراتِ والغباراتِ التي علىٰ وجهِ الأرضِ ، فإنَّها تمنعُ إشراقَها التامَّ .

ووقتُ الركعاتِ الأربعِ هوَ الضحى الأعلى الذي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ فقالَ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ ، وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ أصحابِهِ وهمْ يصلُّونَ عندَ الإشراقِ ، فنادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : « ألا إنَّ صلاةَ الأوَّابينَ إذا رمضتِ الفصالُ »[2] .

---

(١) **الفصال** : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة ؛ **والمعنىٰ** : أي نامت في ظل أمّاتها عند حر الشمس ، أو بمعنى احتراق أخفافها من شدة حرِّ الرمل .

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٧٤)، وهو عند مسلم (٧٤٨) دون ذكر وقت الإشراق .

فلذلكَ نقولُ : إذا كانَ يقتصرُ علىٰ مرَّةٍ واحدةٍ في الصلاةِ . . فهـٰذا الوقتُ أفضلُ لصلاةِ الضحىٰ ، وإنْ كانَ أصلُ الفضلِ يحصلُ بالصلاةِ بينَ طرفي وقتي الكراهةِ ، وهوَ ما بينَ ارتفاعِ الشمسِ بطلوعِ نصفِ رمحٍ بالتقريبِ إلىٰ ما قبلَ الزوالِ في ساعةِ الاستواءِ ، فاسمُ الضحىٰ ينطلقُ على الكلِّ ، وكأنَّ ركعتي الإشراقِ تقعُ في مبدأِ وقتِ الإذنِ في الصلاةِ وانقضاءِ الكراهةِ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشمسَ تطلعُ ومعَها قرنُ الشَّيطانِ ، فإذا ارتفعَتْ . . فارقَها »(١) ، فأقلُّ ارتفاعِها أنْ ترتفعَ عنْ بخاراتِ الأرضِ وغبارِها ، وهـٰذا يراعىٰ بالتقريبِ .

ـ **الوظيفةُ الثانيةُ في هـٰذا الوقتِ** : الخيراتُ المتعلِّقةُ بالناسِ التي جرتْ بها العاداتُ بكرةً ؛ مِنْ عيادةِ مريضٍ ، وتشييعِ جَنازةٍ ، ومعاونةٍ علىٰ برٍّ وتقوىٰ ، وحضورِ مجلسِ علمٍ ، وما يجري مجراهُ ؛ مِنْ قضاءِ حاجةٍ لمسلمٍ وغيرِها .

فإنْ لمْ يكنْ شيءٌ مِنْ ذلكَ . . عادَ إلى الوظائفِ الأربعِ التي قدَّمْناها ؛ مِنَ الأدعيةِ ، والذكرِ ، والقراءةِ ، والفكرِ ، أوِ الصلواتِ المتطوَّعِ بها إنْ شاءَ ، فإنَّها مكروهةٌ بعدَ صلاةِ الصبحِ وليستْ مكروهةً الآنَ ، فتصيرُ الصلاةُ قسماً خامساً مِنْ جملةِ وظائفِ هـٰذا الوقتِ لمَنْ أرادَهُ .

---

(١) رواه النسائي (١/ ٢٧٥) ، وابن ماجه (١٢٥٣) .

وأمَّا بعدَ فريضةِ الصبحِ . . فتكرَهُ كلُّ صلاةٍ لا سببَ لها ، وبعدَ الصبحِ الأحبُّ أن يقتصرَ علىٰ ركعتي الفجرِ وتحيَّةِ المسجدِ ، ولا يشتغلَ بالصلاةِ ، بلْ بالأذكارِ والقراءةِ والدعاءِ والفكرِ .

* * *

الوردُ الثالثُ : مِنْ ضحوةِ النهارِ إلى الزوالِ :

ونعني بالضحوةِ المنتصفَ وما قبلَهُ بقليلٍ وكأنَّ بعدَ كلِّ ثلاثِ ساعاتٍ أمرٌ بصلاةٍ ؛ فإذا انقضىٰ ثلاثُ ساعاتٍ بعدَ الطلوعِ . . فعندَها وقبيلَ مضيِّها صلاةُ الضحىٰ ، فإذا مضتْ ثلاثٌ أخرىٰ . . فالظهرُ ، فإذا مضتْ ثلاثٌ أخرىٰ . . فالعصرُ ، فإذا مضتْ ثلاثٌ أخرىٰ . . فالمغربُ(١) .

ومنزلةُ الضحىٰ بينَ الزوالِ والطلوعِ كمنزلةِ العصرِ بينَ الزوالِ والغروبِ ، إلا أنَّ الضحىٰ لمْ تُفترضْ ؛ لأنَّهُ وقتُ إكبابِ الناسِ علىٰ أشغالِهِمْ ، فخُففَ عنهُمْ .

والوظيفةُ في هـٰذا الوقتِ الأقسامُ الأربعةُ ، ويزيدُ أمرانِ :

ـ **أحدُهما** : الاشتغالُ بالكسبِ ، وتدبيرِ المعاشِ ، وحضورِ السوقِ : فإنْ كانَ تاجراً . . فينبغي أنْ يتَّجرَ بصدْقٍ وأمانةٍ ، وإنْ كانَ صاحبَ صناعةٍ . .

---

(١) حينئذٍ ، وبه كملت اثنتا عشرة ساعة من النهار العرفي . « إتحاف » (٥/ ١٤٢) .

فبنصْحٍ وشفقةٍ ، ولا ينسىٰ ذكرَ اللهِ تعالىٰ في جميعِ أشغالِهِ ، ويقتصرُ مِنَ الكسبِ علىٰ قدْرِ حاجتِهِ ليومِهِ مهما قدرَ علىٰ أنْ يكتسبَ في كلِّ يومٍ لقوتِهِ[١] .

فإذا حصلتْ كفايةُ يومِهِ . . فليرجعْ إلىٰ بيتِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ ، وليتزودْ لآخرتِهِ ؛ فإنَّ الحاجةَ إلىٰ زادِ الآخرةِ أشدُّ ، والتمتُّعَ بهِ أدومُ ، فالاشتغالُ بكسبِهِ أهمُّ مِنْ طلبِ الزيادةِ علىٰ حاجةِ الوقتِ ؛ فقدْ قيلَ : (لا يوجدُ المؤمنُ إلا في ثلاثِ مواطنَ : مسجدٌ يعمُرُهُ ، أوْ بيتٌ يسترُهُ ، أوْ حاجةٌ لا بدَّ لهُ منها)[٢] ، وقلَّ مَنْ يعرفُ القدرَ فيما لا بدَّ منهُ ، بلْ أكثرُ الناسِ يقدِّرونَ فيما عنهُ بدٌّ أنَّهُ لا بدَّ لهُمْ منهُ ، وذلكَ لأنَّ الشيطانَ يعدُهُمُ الفقرَ ويأمُرُهُمْ بالفحشاءِ ، فيصغونَ إليهِ ، ويجمعونَ ما لا يأكلونَ ؛ خيفةَ الفقرِ ، واللهُ يعدُهُمْ مغفرةً منهُ وفضلاً ، فيعرضونَ عنهُ ، ولا يرغبونَ فيهِ .

ـ **الأمرُ الثاني** : القيلولةُ : وهيَ سنَّةٌ ليستعينَ بها علىٰ قيامِ الليلِ ، كما أنَّ التسحُّرَ سنَّةٌ ليستعينَ بهِ علىٰ صيامِ النهارِ[٣] ، فإنْ كانَ لا يقومُ بالليلِ ولكنْ

---

(١) وقوت عياله ، وإن أمكن أن يكتسب قوت يومين أو ثلاثة أو أكثر ، فيجعل بقية أيامه للذكر والعبادة . . فلا بأس . « إتحاف » (٥/ ١٤٢) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤١) عن قتادة ، وروى الترمذي (٢٣٤١) مرفوعاً : « ليس لابن آدم حق في سوىٰ هـٰذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يواري عورته ، وجلف الخبز والماء » .

(٣) روى ابن ماجه (١٦٩٣) مرفوعاً : « استعينوا بطعام السحر علىٰ صيام النهار ، =

لو لمْ ينمْ لمْ يشتغلْ بخيرٍ وربما خالطَ أهلَ الغفلةِ وتحدَّثَ معهُمْ . . فالنومُ أحبُّ لهُ إذا كانَ لا ينبعثُ نشاطُهُ للرجوعِ إلى الأذكارِ والوظائفِ المذكورةِ ؛ إذْ في النومِ الصمتُ والسلامةُ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (يأتي على الناسِ زمانٌ الصمتُ والنومُ فيهِ أفضلُ أعمالِهِمْ)(١) .

وكمْ مِنْ عابدٍ أحسنُ أحوالِهِ النومُ ، وذلكَ إذا كانَ يرائي بعبادتِهِ ولا يخلصُ فيها ، فكيفَ بالغافلِ الفاسقِ ؟!

قالَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ : (كانَ يعجبُهُمْ إذا تفرَّغوا أنْ يناموا طلباً للسلامةِ)(٢) .

فإذاً ؛ نومُهُ علىٰ قصْدِ طلبِ السلامةِ ونيَّةِ قيامِ الليلِ قربةٌ ، ولكنْ ينبغي أنْ يتنبَّهَ قبلَ الزوالِ بقدْرِ الاستعدادِ للصلاةِ بالوضوءِ وحضورِ المسجدِ قبلَ دخولِ وقتِ الصلاةِ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ فضائلِ الأعمالِ ، وإنْ لمْ ينمْ ولمْ يشتغلْ بالكسبِ واشتغلَ بالصلاةِ والذكرِ . . فهوَ أفضلُ أعمالِ النهارِ ؛ لأنَّهُ وقتُ غفلةِ الناسِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ واشتغالِهِمْ بهمومِ الدنيا ، فالقلبُ المتفرِّغُ لخدمةِ ربِّهِ عندَ إعراضِ العبيدِ عنْ بابِهِ جديرٌ بأنْ

= وبالقيلولة علىٰ قيام الليل » ، **والقيلولة** : النوم أو الاستراحة وقت الظهيرة .

(١) قوت القلوب (١/ ٩٦) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٦) .

يزكِّيَهُ اللهُ تعالىٰ ويصطفيَهُ لقربِهِ ومعرفتِهِ .

وفضلُ ذلكَ كفضلِ إحياءِ الليلِ ، فإنَّ الليلَ وقتُ الغفلةِ بالنومِ ، وهٰذا وقتُ الغفلةِ باتباعِ الهوىٰ والاشتغالِ بهمومِ الدنيا ، وأحدُ معنيي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ أيْ : يخلفُ أحدُهُما الآخرَ في الفضلِ ، والثاني : أنَّهُ يخلفُهُ فيتداركُ فيهِ ما فاتَ في أحدِهِما[1] .

* * *

الوردُ الرابعُ : ما بينَ الزوالِ إلى الفراغِ مِنْ صلاةِ الظهرِ وراتبتِهِ :

وهوَ أقصرُ أورادِ النهارِ وأفضلُها ، فإذا كانَ قدْ توضَّأَ قبلَ الزوالِ ، وحضرَ المسجدَ فمهما زالتِ الشمسُ ، وابتدأَ المؤذِّنُ الأذانَ . . فليصبرْ إلى الفراغِ مِنْ جوابِ أذانِهِ ، ثمَّ ليقمْ إلىٰ إحياءِ ما بينَ الأذانِ والإقامةِ ، فهوَ وقتُ الإظهارِ الذي أرادَهُ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[2] ، وليصلِّ في هٰذا الوقتِ أربعَ ركعاتٍ لا يفصلُ بينهُنَّ بتسليمٍ ، وهٰذهِ الصلاةُ وحدَها مِنْ بينِ سائرِ صلواتِ النهارِ نُقِلَ أنَّهُ يصلِّيها بتسليمةٍ واحدةٍ[3] ، ولكنْ طُعِنَ في

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١١/١٩/٣٩) عن عمر وابن عباس والحسن رضي الله عنهم .

(٢) قوت القلوب (١/١٦ ، ١٧) .

(٣) روىٰ ذلك أبو داوود (١٢٧٠) ، والترمذي (٤٧٨) تعليقاً ، وابن ماجه (١١٥٧) .

تلكَ الروايةِ ، هٰكذا قالَهُ بعضُ العلماءِ[١] ، ومذهبُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ يصلِّي مثنىٰ مثنىٰ كسائرِ النوافلِ ، ويفصلُ بتسليمةٍ ، وهوَ الذي صحَّتْ بهِ الأخبارُ[٢] .

وليطوِّلْ هٰذهِ الركعاتِ ، إذْ فيها تفتحُ أبوابُ السماءِ كما أوردنا الخبرَ فيهِ في بابِ صلاةِ التطوعِ[٣] ، وليقرأْ فيها (سورةَ البقرةِ) أوْ سورتينِ مِنَ المئينَ ، أوْ أربعاً مِنَ المثاني[٤] ، فهٰذهِ ساعةٌ يُستجابُ فيها الدعاءُ ، وأحبَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يُرفعَ لهُ فيها عملٌ[٥] .

ثمَّ يصلِّي الظهرَ بجماعةٍ بعدَ أربعِ ركعاتٍ طويلةٍ كما سبقَ أوْ قصيرةٍ ، ولا ينبغي أنْ يدعَها .

---

(١) الضمير في قوله : (قاله) عائد إلىٰ أنه يصليها متصلة بتسليمة واحدة ، « قوت القلوب » (١/ ١٦) .

(٢) إشارة إلىٰ حديث أبي داوود (١٢٩٥) ، والترمذي (٥٩٧) ، والنسائي (٣/ ٢٢٧) ، وابن ماجه (١٣٢٢) مرفوعاً : « صلاة الليل والنهار مثنىٰ مثنىٰ » ، أو مطلق الخبر الذي رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) مرفوعاً : « صلاة الليل مثنىٰ مثنىٰ » .

(٣) رواه الترمذي (٤٧٨) عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، وقال : (وفي الباب عن علي وأبي أيوب) ، وهو عن أبي أيوب عند أحمد في « مسنده » (٥/ ٤١٦) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٦) .

(٥) رواه الترمذي (٤٧٨) عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، وقال : (وفي الباب عن علي وأبي أيوب) ، وهو عن أبي أيوب عند أحمد في « مسنده » (٥/ ٤١٦) .

ثمَّ ليصلِّ بعدَ الظهرِ ركعتينِ ثمَّ أربعاً ، إذْ كرهَ ابنُ مسعودٍ أنْ تتبعَ الفريضةُ بمثلِها مِنْ غيرِ فاصلٍ (١) .

ويُستحبُّ أنْ يقرأَ في هـٰذهِ النافلةِ آيةَ الكرسيِّ ، وآخرَ (سورةِ البقرةِ) ، والآياتِ التي أوردناها في الوردِ الأوَّلِ ؛ ليكونَ ذلكَ جامعاً لهُ بينَ الدعاءِ والذكرِ والقراءةِ والصلاةِ والتحميدِ والتسبيحِ معَ شرفِ الوقتِ .

* * *

الوِردُ الخامسُ : ما بعدَ ذلكَ إلى العصرِ :

ويستحبُّ فيهِ العكوفُ في المسجدِ مشتغلاً بالذكرِ والصلاةِ وفنونِ الخيرِ ، ويكونُ في انتظارِ الصلاةِ معتكفاً ، فمِنْ فضائلِ الأعمالِ انتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ ، وكانَ ذلكَ سنَّةَ السلفِ ، كانَ الداخلُ يدخلُ المسجدَ بينَ الظهرِ والعصرِ ، فيسمعُ للمصلِّينَ دويّاً كدويِّ النحلِ مِنَ التلاوةِ ، فإنْ كانَ بيتُهُ أسلمَ لدينِهِ وأجمعَ لهمِّهِ . . فالبيتُ أفضلُ في حقِّهِ .

وإحياءُ هـٰذا الوِردِ ـ وهوَ أيضاً وقتُ غفلةِ الناسِ ـ كإحياءِ الوِردِ الثالثِ في الفضلِ ، وفي هـٰذا الوقتِ يُكرهُ النومُ لمَنْ نامَ قبلَ الزوالِ ، إذْ يُكرهُ نومتانِ بالنهارِ ، قالَ بعضُ العلماءِ : (ثلاثٌ يمقتُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليها : الضحكُ بغيرِ عجبٍ ، والأكلُ مِنْ غيرِ جوعٍ ، ونومٌ بالنهارِ مِنْ غيرِ سهرٍ بالليلِ)(٢) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٧) وبمعناه روى الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣١٨) .

والحدُّ في النومِ : أنَّ الليلَ والنهارَ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، فالاعتدالُ في نومِهِ ثماني ساعاتٍ في الليلِ والنهارِ جميعاً ، فإنْ نامَ هـٰذا القدْرَ بالليلِ . . فلا معنىٰ للنومِ بالنهارِ ، وإنْ نقصَ منهُ مقداراً . . استوفاهُ بالنهارِ ، فحسْبُ ابنِ آدمَ إنْ عاشَ ستينَ سنةً أنْ ينقصَ مِنْ عمرِهِ عشرونَ سنةً ، ومهما نامَ ثمانيَ ساعاتٍ وهوَ الثلثُ . . فقدْ نقصَ مِنْ عمرِهِ الثلثُ ، ولكنْ لمَّا كانَ النومُ غذاءً للروحِ كما أنَّ الطعامَ غذاءٌ للبدنِ ، وكما أنَّ العلمَ والذكرَ غذاءٌ للقلبِ . . لمْ يمكنْ قطعُهُ عنهُ[1] ، وقدرُ الاعتدالِ هـٰذا ، والنقصانُ منهُ ربَّما يفضي إلى اضطرابِ البدنِ ، إلاَّ مَنْ يتعوَّدُ السهرَ تدريجاً ، فقدْ يمرِّنُ نفسَهُ عليهِ مِنْ غيرِ اضطرابٍ[2] .

وهـٰذا الورِدُ هوَ مِنْ أطولِ الأورادِ ، وأمتعِها للعُبَّادِ ، وهوَ أحدُ الآصالِ التي ذكرَها اللهُ تعالىٰ إذْ قالَ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ ، وإذا سجدَ للهِ عزَّ وجلَّ الجماداتُ . . فكيفَ يجوزُ أنْ يغفُلَ العبدُ العاقلُ عنْ أنواعِ العباداتِ ؟!

* * *

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٠٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٧) من قول معاذ رضي الله عنه .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٧) .

الوِردُ السادسُ : إذا دخلَ وقتُ العصرِ . دخلَ وقتُ الوِردِ السادسِ :

وهوَ الذي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ هـٰذا أحدُ معنيي الآيةِ ، وهوَ المرادُ بالآصالِ في أحدِ التفسيرينِ ، وهوَ العشيُّ المذكورُ في قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿وَعَشِيًّا﴾ ، وفي قولِهِ : ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ .

وليسَ في هـٰذا الوردِ صلاةٌ إلا أربعُ ركعاتٍ بينَ الأذانينِ[1] كما سبقَ في الظهرِ ، ثمَّ يصلِّي الفرضَ ويشتغلُ بالأقسامِ الأربعةِ المذكورةِ في الوِردِ الأوَّلِ إلىٰ أنْ ترتفعَ الشمسُ إلىٰ رؤوسِ الحيطانِ وتصفرَّ .

والأفضلُ فيهِ إذْ منعَ عنِ الصلاةِ تلاوةُ القرآنِ بتدبُّرٍ وتفهُّمٍ ؛ إذْ يجمعُ ذلكَ معنى الذكرِ والدعاءِ والفكرِ ، فيندرجُ في هـٰذا القسمِ أكثرُ مقاصدِ الأقسامِ الثلاثةِ .

الوِردُ السابعُ : إذا اصفرَّتِ الشمسُ :

بأنْ تقربَ مِنَ الأرضِ بحيثُ يغطِّي نورَها الغباراتُ والبخاراتُ التي علىٰ وجهِ الأرضِ ، ويُرىٰ صفرةٌ في ضوئِها . . دخلَ هـٰذا الوِردُ ، وهوَ مثلُ الوِردِ الأوَّلِ مِنْ طلوعِ الفجرِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ؛ لأنَّهُ قبلَ الغروبِ ، كما أنَّ

---

(١) أي : بين الأذان والإقامة لصلاة العصر كما في نسخة الحافظ الزبيدي .

ذلكَ قبلَ الطلوعِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ، وهوَ الطرفُ الثاني المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ .

قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (كانوا أشدَّ تعظيماً للعشيِّ منهُمْ لأوَّلِ النهارِ)[1] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (كانوا يجعلونَ أوَّلَ النهارِ للدنيا وآخرَهُ للآخرةِ)[2] .

فيُستحبُّ في هـٰذا الوقتِ التسبيحُ والاستغفارُ خاصَّةً وسائرُ ما ذكرناهُ في الوردِ الأوَّلِ ، مثلَ أنْ يقولَ : (أستغفرُ اللهَ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ الحيَّ القيُّومَ وأسألُهُ التوبةَ ، وسبحانَ اللهِ العظيمِ وبحمدِهِ) مأخوذٌ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾ ، والاستغفارُ على الأسماءِ التي في القرآنِ أحبُّ ؛ كقولِهِ : أستغفرُ اللهَ إنَّهُ كانَ غفَّاراً ، أستغفرُ اللهَ إنَّهُ كانَ توَّاباً ، ربِّ اغفرْ وارحمْ وأنتَ خيرُ الراحمينَ ، فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنتَ خيرُ الراحمينَ ، فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنتَ خيرُ الغافرينَ[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٨) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٨) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٨) .

ويُستحبُّ أنْ يقرأَ قبلَ غروبِ الشمسِ (والشمسِ وضحاها) ، (والليلِ إذا يغشىٰ) ، والمعوِّذتينِ ، ولتغربِ الشمسُ عليهِ وهوَ في الاستغفارِ .

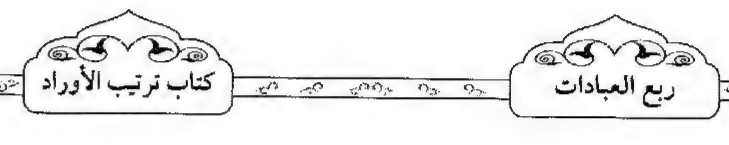
فإذا سمعَ الأذانَ . . قالَ : اللهمَّ ؛ هٰذا إقبالُ ليلكَ ، وإدبارُ نهاركَ ، وأصواتُ دعاتِكَ . . . الدعاءَ كما سبقَ ، ثمَّ يجيبُ المؤذِّنَ ، ويشتغلُ بصلاةِ المغربِ .

* * *

وبالغروبِ قدِ انتهتْ أورادُ النهارِ ، فينبغي أنْ يلاحظَ العبدُ أحوالَهُ ويحاسبَ نفسَهُ ، فقدِ انقضىٰ منْ طريقِهِ مرحلةٌ ، فهلْ ساوىٰ يومُهُ أمسَهُ فيكونَ مغبوناً ، أوْ كانَ شرّاً منهُ فيكونَ ملعوناً ؟ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا بوركَ لي في يومٍ لا أزدادُ فيهِ خيراً »[1] .

فإنْ رأىٰ نفسَهُ متوفِّراً على الخيرِ جميعَ نهارِهِ ، مرفهاً عنِ التجشُّمِ . . كانتْ بشارةً ، فليشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ توفيقِهِ وتسديدِهِ إيَّاهُ لطريقِهِ ، وإنْ تكنِ الأخرىٰ . . فالليلُ خلفةٌ للنهارِ ، فليعزمْ علىٰ تلافي ما سبقَ مِنْ تفريطِهِ ؛ فإنَّ الحسناتِ يذهبنَ السيئاتِ ، فليشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ صحَّةِ جسمِهِ وبقاءِ بقيَّةِ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٨٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٠٨) واللفظ له ، ولفظه هناك : (علماً) بدل (خيراً) ، ولفظه هنا رواه الأزدي في « أوهام الحاكم » (ص٥١) .



عمرِهِ إلىٰ أوَّلِ ليلِهِ ليشتغلَ بتداركِ تقصيرِهِ .

وليحضرْ في قلبِهِ أنَّ نهارَ العمرِ لهُ آخرٌ تغربُ فيهِ شمسُ الحياةِ ، فلا يكونُ لها بعدَهُ طلوعٌ ، وعندَ ذلكَ يُغلقُ بابُ التداركِ والاعتذارِ ، فليسَ العمرُ إلا أياماً معدودةً تنقضي ـ لا محالةَ ـ جملتُها بانقضاءِ آحادِها .

* * *

بيان أوراد الليل
وهي خمسة

الأَوَّلُ : إذا غربتِ الشمسُ . صلَّى المغربَ ، واشتغلَ بإحياءِ ما بينَ العشاءينِ :

فآخرُ هٰذا الوِردِ عندَ غيبوبةِ الشفقِ ؛ أعني : الحمرةَ التي بغيبوبتِها يدخلُ وقتُ العشاءِ الآخرةِ ، وقدْ أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ فقالَ : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ ، والصلاةُ فيهِ هيَ ناشئةُ الليلِ ، لأنَّهُ أوَّلُ نشوءِ ساعاتِهِ ، وهوَ إنْيٌ مِنَ الآناءِ المذكورةِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ ﴾ ، وهيَ صلاةُ الأوَّابينَ ، وهيَ المرادُ بقولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ ، رُوِيَ ذلكَ عنِ الحسنِ رحمهُ اللهُ ، وأسندَهُ ابنُ أبي زيادٍ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ سئلَ عنْ هٰذهِ الآيةِ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الصلاةُ بينَ العشاءينِ » ، ثمَّ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالصلاةِ بينَ العشاءَينِ ؛ فإنَّها تذهبُ بملاغاتِ النهارِ وتهذِّبُ آخرَهُ »(١) ، والملاغاتُ : جمعُ ملغاةٍ ، مِنَ اللغوِ .

---

(١) رواية الحسن وابن أبي زياد نصَّ عليهما أبو طالب في « القوت » (١/ ١٩) ، والحديث رواه الديلمي كما في « الفردوس » (٤٠٢٩) ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ١٥١) ، و« فيض القدير » (٤/ ٣٤٤) ، وروى الترمذي (٣١٩٦) : عن أنس رضي الله عنه قال : (نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة) .

وسئلَ أنسٌ رحمهُ اللهُ عمَّنْ ينامُ بينَ العشاءينِ فقالَ : لا تفعلْ ؛ فإنَّها الساعةُ المعنيَّةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[1] .

وسيأتي فضْلُ إحياءِ ما بينَ العشاءينِ في البابِ الثاني .

وترتيبُ هٰذا الورِدِ :

أنْ يصلِّيَ بعدَ المغربِ ركعتينِ أوَّلاً ، يقرأُ فيهما : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ، ويصلِّيهما عَقيبَ المغربِ ، مِنْ غيرِ تخلُّلِ كلامٍ ولا شغلٍ ، ثمَّ يصلِّي أربعاً يطيلُها ، ثمَّ يصلِّي إلىٰ غيبوبةِ الشفقِ ما تيسَّرَ لهُ .

وإنْ كانَ المسجدُ قريباً مِنَ المنزلِ . . فلا بأسَ أنْ يصلِّيَها في بيتِهِ إنْ لمْ يكنْ عزمُهُ العكوفَ في المسجدِ ، وإنْ عزمَ على العكوفِ في انتظارِ العتمةِ . . فهوَ الأفضلُ إذا كانَ آمناً مِنَ التصنُّعِ والرياءِ .

* * *

الورِدُ الثاني : يدخلُ بدخولِ وقتِ العشاءِ الآخرةِ إلىٰ حدِّ نومةِ الناسِ :

وهوَ أوَّلُ استحكامِ الظلامِ ، وقدْ أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ إذْ قالَ : ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أيْ : وما جمعَ مِنْ ظلمتِهِ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ ، فهناكَ يغسقُ الليلُ وتُستوسقُ ظلمتُهُ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٩) بنحوه ، وقريب منه ما روي عنه في التعليق السابق .

وترتيبُ هٰذا الوردِ بمراعاةِ ثلاثةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : أنْ يصلِّيَ سوىٰ فرضِ العشاءِ عشرَ ركعاتٍ : أربعاً قبلَ الفرضِ ؛ إحياءً لما بينَ الأذانينِ(١) ، وستّاً بعْدَ الفرضِ ؛ ركعتينِ ، ثمَّ أربعاً ، ويقرأُ فيها مِنَ القرآنِ الآياتِ المخصوصةَ ؛ كآخرِ (البقرةِ) وآيةِ الكرسيِّ وأوَّلِ (الحديدِ) وآخرِ (الحشرِ) وغيرِها .

والثاني : أنْ يصلِّيَ ثلاثَ عشرةَ ركعةً آخرُهُنَّ الوترُ ، فإنَّهُ أكثرُ ما رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّىٰ بها منَ الليلِ(٢) .

والأكياسُ يأخذونَ أوقاتَهُمْ مِنْ أوَّلِ الليلِ ، والأقوياءُ مِنْ آخرِهِ ، والحزمُ التقديمُ ، فإنَّهُ ربما لا يستيقظُ أوْ يثقلُ عليهِ القيامُ ، إلا إذا صارَ ذلكَ عادةً لهُ ، فآخرُ الليلِ أفضلُ(٣) .

ثمَّ ليقرأْ في هٰذهِ الصلاةِ قدْرَ ثلاثِ مئةِ آيةٍ مِنَ السورِ المخصوصةِ التي كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يكثرُ قراءتَها ؛ مثلَ (يس) ، و(سجدةِ لقمانَ)(٤) ، و(سورةِ الدخانِ) ، و(تبَارَكَ الملكَ) ، و(الزمرِ) ، و(الواقعةِ) .

---

(١) أي : الأذان والإقامة لصلاة العشاء .

(٢) روىٰ أبو داوود (١٣٦٢) عن عائشة رضي الله عنها : (ولم يكن يوتر بأنقص من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة) .

(٣) روىٰ أبو داوود (١٤٣٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : « متىٰ توتر ؟ » قال : أوتر من أول الليل ، وقال لعمر : « متىٰ توتر ؟ » قال : آخر الليل ، فقال لأبي بكر : « أخذ هٰذا بالحزم » ، وقال لعمر : « أخذ هٰذا بالقوة » .

(٤) أي : سورة السجدة . انظر « بصائر ذوي التمييز » (١/ ٣٧٣) .

فإنْ لمْ يصلِّ . . فلا يدعْ قراءةَ هٰذهِ السورِ أوْ بعضِها قبلَ النومِ ، فقد رُوي في ثلاثةِ أحاديثَ ما كانَ يقرؤُهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في كلِّ ليلةٍ، أشهرُها: (السجدةُ)، و(تباركَ الملكَ)[١]، و(الزمرُ) و(الواقعةُ)، وفي روايةٍ : (الزمرُ) و(بني إسرائيلَ)[٢] ، وفي أُخرىٰ : أنَّهُ كانَ يقرأُ المسبِّحاتِ[٣] في كلِّ ليلةٍ ويقولُ : « فيها آيةٌ أفضلُ مِنْ ألفِ آيةٍ »[٤] ، وكانَ العلماءُ يجعلونَها ستّاً فيزيدونَ (سبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلىٰ) ؛ إذْ في الخبرِ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يحبُّ (سبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلىٰ)[٥] ، وكانَ يقرأُ في ثلاثِ ركعاتِ الوترِ ثلاثَ سورٍ : (سبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلىٰ) و(قلْ يا أيُّها الكافرونَ) و(الإخلاصَ) ، فإذا فرغَ . . قالَ : « سبحانَ الملكِ القدوسِ » ثلاثَ مرّاتٍ[٦] .

---

(١) روى الترمذي (٣٤٠٤) عن جابر رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتىٰ يقرأ بـ« تنزيل السجدة » و« تبارك ») .

(٢) روى الترمذي (٣٤٠٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتىٰ يقرأ « الزمر » و« بني إسرائيل ») ، و(سورة بني إسرائيل) هي (سورة الإسراء) .

(٣) وهي خمس سور : الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن .

(٤) رواه أبو داوود (٥٠٥٧) ، والترمذي (٢٩٢١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٧٩٧٢) .

(٥) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٩٦) .

(٦) رواه أبو داوود (١٤٢٣) ، والنسائي (٣/ ٢٤٤) واللفظ عنده ، وابن ماجه (١١٧١) .

الثالثُ : الوترُ ، وليوترْ قبلَ النومِ إنْ لمْ يكنْ عادتَهُ القيامَ ، قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (أوصاني خليلي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألاَّ أنامَ إلا علىٰ وترٍ)[١] .

وإنْ كانَ معتاداً صلاةَ الليلِ . . فالتأخيرُ أفضلُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةُ الليلِ مثنىٰ مثنىٰ ، فإذا خفتَ الصبحَ . . فأوترْ بركعةٍ »[٢] .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (أوترَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوَّلَ الليلِ وأوسطَهُ وآخرَهُ ، وانتهىٰ وترُهُ إلى السحرِ)[٣] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الوترُ علىٰ ثلاثةِ أنحاءٍ : إنْ شئتَ . . أوترتَ أوَّلَ الليلِ ثمَّ صلَّيتَ ركعتينِ ركعتينِ ـ يعني : أنَّهُ يصيرُ وتراً بما مضىٰ ـ وإنْ شئتَ . . أوترتَ بركعةٍ ، فإذا استيقظتَ . . شفعتَ إليها أخرىٰ ثمَّ أوترتَ مِنْ آخرِ الليلِ ، وإنْ شئتَ أخَّرتَ الوترَ ليكونَ آخرَ صلاتِكَ)[٤] ، هـٰذا ما رُوي عنهُ ، والطريقُ الأوَّلُ والثالثُ لا بأسَ بهِ .

وأمَّا نقضُ الوترِ[٥] . . فقدْ صحَّ فيهِ نهيٌ ، فلا ينبغي أنْ ينقضَ[٦] ،

---

(١) رواه البخاري (١٩٨١) ، ومسلم (٧٢١) .
(٢) رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) .
(٣) رواه البخاري (٩٩٦) ، ومسلم (٧٤٥) واللفظ له .
(٤) قوت القلوب (١/ ٣١) .
(٥) وهو الطريق الثاني ؛ كمن أوتر بأول الليل ، ثم شفع ، ثم أوتر من آخره .
(٦) والنهي رواه البخاري (٤١٧٦) عن عائذ بن عمرو رضي الله عنه وقد سئل عن نقض الوتر فقال : (إذا أوترت من أوله . . فلا توتر من آخره) .

ورُوِيَ مطلقاً أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لا وترانِ في ليلةٍ »[١] .

ولِمَنْ يتردَّدُ في استيقاظِهِ تلطفٌ استحسنَهُ بعضُ العلماءِ ، وهوَ أنْ يصلِّيَ بعدَ الوترِ ركعتينِ جالساً علىٰ فراشِهِ عندَ النومِ ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزحفُ إلىٰ فراشِهِ ويصلِّيهما ، ويقرأُ فيهما : (إذا زلزلت) ، و(ألهاكم) ؛ لما فيهما مِنَ التحذيرِ والوعيدِ ، وفي روايةٍ : (قلْ يا أيُّها الكافرونَ) ؛ لما فيها مِنَ التبرئةِ وإفرادِ العبادةِ للهِ عزَّ وجلَّ[٢] ، فقيلَ : إنِ استيقظَ . . قامتا مقامَ ركعةٍ واحدةٍ ، وكانَ لهُ أنْ يوترَ بواحدةٍ في آخرِ صلاةِ الليلِ ، وكأنَّهُ صارَ ما مضىٰ شفعاً بهما وحسنَ استئنافُ الوترِ ، واستحسنَ هٰذا أبو طالبٍ المكيُّ رحمهُ اللهُ وقالَ : (فيهِ ثلاثةُ أعمالٍ : قصرُ الأملِ ، وتحصيلُ الوترِ ، والوترُ مِنْ آخرِ الليلِ)[٣] .

وهوَ كما ذكرَهُ ، لكنْ ربما يخطرُ أنَّهما لوْ شَفعَتا ما مضىٰ . . لكانَ كذلكَ وإنْ لمْ يستيقظْ[٤] ، ولبطلَ وترُهُ الأوَّلُ ، فكونُهُ مُشفعاً إنِ استيقظَ غيرَ مُشفعٍ إنْ نامَ . . فيهِ نظرٌ ، إلا أنْ يصحَّ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إيتارُهُ قبلَهُما وإعادتُهُ الوترَ ، فيفهمُ منهُ أنَّ الركعتينِ شفعٌ بصورتهما وترٌ بمعناهُما ،

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٣٩) ، والترمذي (٤٧٠) ، والنسائي (٣/ ٢٢٩) .

(٢) ورد قراءة السور الثلاث المذكورة معاً في الوتر عند أحمد في « المسند » (١/ ٨٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣٣) ، ولم يذكرا الزحف إلى الفراش ، والسياق لصاحب « القوت » (١/ ٢٠) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٢٠) .

(٤) أي : إنهما تشفعان صلاته الماضية استيقظ أم لم يستيقظ .

فيحسَبُ وتراً إنِ استيقظَ وشفعاً إنْ لمْ يستيقظْ .

ثمَّ يُستحبُّ بعدَ التسليمِ مِنَ الوترِ أنْ يقولَ : (سبحانَ الملكِ القدوسِ ، ربِّ الملائكةِ والروحِ ، جلَّلتَ السماواتِ والأرضَ بالعظمةِ والجبروتِ ، وتعزَّزتَ بالقدرةِ ، وقهرتَ العبادَ بالموتِ)[١] .

ورُوي أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما ماتَ حتَّىٰ كانَ أكثرُ صلاتِهِ جالساً إلا المكتوبةَ[٢] ، وقدْ قالَ : « للقاعدِ نصفُ أجرِ القائمِ ، وللنائمِ نصفُ أجرِ القاعدِ »[٣] ، وذلكَ يدلُّ علىٰ صحةِ النافلةِ نائماً[٤] .

* * *

الوردُ الثالثُ : النومُ :

ولا بأسَ أنْ يعدَّ ذلكَ في الأورادِ ؛ فإنَّهُ إذا روعيتْ آدابُهُ . . احتسبَ عبادةً ، فقدْ نُقلَ أنَّهُ إذا نامَ العبدُ علىٰ طهارةٍ ذاكراً للهِ تعالىٰ . . يكتبُ مصلِّياً حتَّىٰ يستيقظَ ، ويدخُلُ في شعارِهِ ملكٌ[٥] ، فإنْ تحرَّكَ في نومِهِ فذكرَ اللهَ عزَّ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٠) ، والجملة الأولىٰ منه رواها أبو داوود (١٤٣٠) ، والنسائي (٣/ ٢٤٤) .

(٢) رواه البخاري (٥٩٠) ، ومسلم (٧٣٢) ، ولفظه عن عائشة رضي الله عنها : (لمَّا بَدَّنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقل . . كان أكثر صلاته جالساً) ، وبَدَّن : أَسَنَّ .

(٣) رواه البخاري (١١١٥) .

(٤) أي : مضطجعاً على الفراش كهيئة النائم . « إتحاف » (٥/ ١٥٧) .

(٥) **شعاره** : لباسه المتصل ببدنه .

وجلَّ . . دعا لهُ الملكُ واستغفرَ لهُ الله[1] .

وفي الخبرِ أنَّهُ إذا نامَ العبدُ على طهارةٍ . . رُفِعَ روحُهُ إلى العرشِ[2] .

هـٰذا في العوامِّ ، فكيفَ بالخواصِّ والعلماءِ وأربابِ القلوبِ الصافيةِ ؟ فإنَّهُمْ يكاشَفونَ بالأسرارِ في النومِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نومُ العالمِ عبادةٌ ، ونفسُهُ تسبيحٌ »[3] .

وقالَ معاذٌ لأبي موسىٰ رضيَ اللهُ عنهُما : كيفَ تصنعُ في قيامِ الليلِ ؟ فقالَ : أقومُ الليلَ أجمعَ ، لا أنامُ منهُ شيئاً ، وأتفوَّقُ القرآنَ فيهِ تفوُّقاً[4] ، قالَ معاذٌ : لكنِّي أنامُ ثمَّ أقومُ ، وأحتسبُ في نومتي ما أحتسبُ في قومتي ، فذكرَا ذلكَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « معاذٌ أفقهُ منكَ »[5] .

* * *

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٠٥١) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٤٥) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ، ولفظه : (إذا نام الإنسان . . عرج بروحه حتىٰ يؤتىٰ بها إلى العرش ، فإن كان طاهراً . . أذن لها بالسجود ، وإن كان جنباً . . لم يؤذن لها بالسجود) .

(٣) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٧٣١) ، ويشهد للجملة الأولىٰ منه ما رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٨٥) مرفوعاً : « نوم علىٰ علم خير من صلاة علىٰ جهل » .

(٤) أي : ألازم قراءته ليلاً ونهاراً شيئاً بعد شيء ، وحيناً بعد حين . « فتح الباري » (٨/ ٦٢) .

(٥) رواه البخاري (٤٣٤٢) ، ومسلم (١٨٢٤) ، دون قوله : « معاذ أفقه منك » ، وروىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٣٥٧) : (فكأن معاذ بن جبل فضل عليه) ، وروىٰ أبو إسماعيل الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٤٣٤) : (فكان معاذ أفضل منه) .

وآدابُ النومِ عشرةٌ :

الأوَّلُ : الطهارةُ والسواكُ : قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا نامَ العبدُ علىٰ طهارةٍ . . عُرِجَ بروحِهِ إلى العرشِ ، فكانتْ رؤياهُ صادقةً ، وإنْ لمْ ينمْ علىٰ طهارةٍ . . قصرتْ روحُهُ عنِ البلوغِ ، فتلكَ المناماتُ أضغاثُ أحلامٍ لا تصدقُ »[1] ، وهٰذا أُريدَ بهِ طهارةُ الظاهرِ والباطنِ جميعاً ، وطهارةُ الباطنِ هيَ المؤثرةُ في انكشافِ حُجُبِ الغيبِ .

* * *

الثاني : أنْ يعدَّ عندَ رأسِهِ سواكهُ وطهورَهُ ، وينويَ القيامَ للعبادةِ عندَ التيقُّظِ : وكلَّما انتبهَ . . استاكَ ، كذلكَ كانَ يفعلُ بعضُ السلفِ[2] ، ورُوي عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ كانَ يستاكُ في كلِّ ليلةٍ مراراً عندَ كلِّ نومةٍ ، وعندَ التنبُّهِ منها[3] .

وإنْ لمْ تتيسَّرْ لهُ الطهارةُ . . يستحبُّ لهُ مسحُ الأعضاءِ بالماءِ[4] ، فإنْ لمْ

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٢١٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٩٦) بنحوه ، ولفظه عند صاحب « القوت » (١/ ٣٤) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٣٣) .
(٣) رواه مسلم (٧٦٣) .
(٤) أي : إن لم تتيسر له الطهارة بسبب الكسل والفتور . . فليمسح أعضاءه بالماء في تقلُّبه وانتباهاته ، ففي ذلك فضل كبير لمن ثقل نومه وقلَّ قيامه . « إتحاف » (٥/ ١٥٨) ، وسبقت الإشارة إلىٰ ذلك عند صاحب « القوت » (١/ ٣٣) .

يجدْ . . فليقعدْ ، وليستقبلِ القبلةَ ، وليشتغلْ بالذكرِ والدعاءِ والتفكُّرِ في آلاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ وقدرتِهِ ، فذلكَ يقومُ مقامَ قيامِ الليلِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أتىٰ فراشَهُ وهوَ ينوي أنْ يقومَ يصلِّي مِنَ الليلِ فغلبتْهُ عيناهُ حتَّىٰ يصبحَ . . كُتِبَ لهُ ما نوىٰ ، وكانَ نومُهُ صدقةً عليهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ »[1] .

***

الثالثُ : ألاَّ يبيتَ مَنْ لهُ وصيةٌ إلا ووصيتُهُ مكتوبةٌ عندَ رأسِهِ : فإنَّهُ لا يأمنُ القبضَ في النومِ ، يُقالُ : إنَّ مَنْ ماتَ مِنْ غيرِ وصيةٍ . . لمْ يؤذنْ لهُ في الكلامِ بالبرزخِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، يتزاورُهُ الأمواتُ ويتحدَّثونَ وهوَ لا يتكلَّمُ ، فيقولُ بعضُهُمْ لبعضٍ : هـٰذا المسكينُ ماتَ مِنْ غيرِ وصيةٍ[2] .

وذلكَ مستحبٌّ خوفاً مِنْ موتِ الفجأةِ ، وموتُ الفجأةِ تخفيفٌ إلا لمَنْ ليسَ مستعدّاً للموتِ بكونِهِ مثقلَ الظهرِ بالمظالمِ[3] .

***

(١) رواه النسائي (٣/٢٥٨) ، وابن ماجه (١٣٤٤) .
(٢) كذا في « القوت » (١/٣٣) ، وروى الديلمي كما في « مسند الفردوس » (٥٩٤٥) مرفوعاً : « من لم يوصِ . . لم يؤذن له في الكلام مع الموتىٰ » ، قيل : يا رسول الله ؛ ويتكلمون ؟ قال : « نعم ، ويتزاورون » . انظر « الإتحاف » (٥/١٥٨) .
(٣) قوت القلوب (١/٣٣) .

الرابعُ : أنْ ينامَ تائباً مِنْ كلِّ ذنبٍ ، سليمَ القلبِ لجميعِ المسلمينَ ، لا يحدِّثُ نفسَهُ بظلْمِ أحدٍ ، ولا يعزمُ علىٰ معصيةٍ إنِ استيقظ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أوىٰ إلىٰ فراشِهِ لا ينوي ظلْمَ أحدٍ ، ولا يحقدُ علىٰ أحدٍ . . غُفرَ لهُ ما اجترمَ »[١] .

* * *

الخامسُ : ألاَّ يتنعَّمَ بتمهيدِ الفُرُشِ الناعمةِ : بلْ يتركُ ذلكَ أوْ يقتصدُ فيهِ ، كانَ بعضُ السلفِ يكرهُ التمهيدَ للنومِ ويرىٰ ذلكَ تكلُّفاً ، وكانَ أهلُ الصفَّةِ لا يجعلونَ بينَهُمْ وبينَ الترابِ حاجزاً ، ويقولونَ : (منها خُلقْنا وإليها نردُّ) ، وكانوا يرونَ ذلكَ أرقَّ لقلوبِهِمْ وأجدرَ بتواضعِ نفوسِهِم[٢] ، فمَنْ لا تسمحُ بذلكَ نفسُهُ . . فليقتصدْ .

* * *

السادسُ : ألاَّ ينامَ ما لمْ يغلبْهُ النومُ ، ولا يتكلَّفَ استجلابَهُ إلا إذا قصدَ بهِ الاستعانةَ على القيامِ في آخرِ الليلِ : فقدْ كانَ نومُهُمْ غلبةً ، وأكلُهُمْ فاقةً ، وكلامُهُمْ ضرورةً ، ولذلكَ وُصفوا بأنَّهُمْ كانوا قليلاً مِنَ الليلِ ما يهجعونَ .

وإنْ غلبَهُ النومُ عنِ الصلاةِ والذكرِ ، وصارَ لا يدري ما يقولُ . . فلينمْ

---

(١) كذا لفظه في « القوت » (١/ ٣٣) ، وقد روى الشهاب في « مسنده » (٤٢٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ٩٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ٢٧٣) مرفوعاً : « من أصبح لا يهم بظلم أحد . . غفر له ما اجترم » .

(٢) قوت القلوب (١/ ٣٣) .

حتَّىٰ يعقلَ ما يقولُ ، كانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يكرهُ النومَ قاعداً[1] .

وفي الخبرِ : « لا تكابدوا الليلَ »[2] .

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلانةَ تصلِّي بالليلِ ، فإذا غلبَها النومُ . . تعلَّقَتْ بحبلٍ ، فنهىٰ عن ذلكَ وقالَ : « ليصلِّ أحدُكُمْ مِنَ الليلِ ما تيسَّرَ لهُ ، فإذا غلبَهُ النومُ . . فليرقُدْ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تكلَّفوا مِنَ العملِ ما تطيقونَ ، فإنَّ اللهَ لا يملُّ حتَّىٰ تملُّوا »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ هٰذا الدينِ أيسرُهُ »[5] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢١) .

(٢) رواه الخطيب في « موضح أوهام الجمع والتفريق » (٢/ ٣٨٢) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٧٤٦٠) مرفوعاً : « لا تكابدوا هٰذا الليل ؛ فإنكم لا تطيقونه ، وإذا نعس أحدكم . . فلينم علىٰ فراشه فإنه أسلم له » ، وعند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٦) موقوفاً على ابن مسعود : (لا تغالبوا هٰذا الليل . . .) الحديث .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٢١) ، ورواه البخاري (١١٥٠) ، ومسلم (٧٨٤) ، وهي أم المؤمنين زينب بنت جحش ، وفيهما : (فليقعد) بدل (فليرقد) أي : يتمُّها قاعداً ، وجاء لفظ : (فليرقد) عند البخاري (٢١٢) ، ومسلم (٧٨٦) مرفوعاً : « إذا نعس أحدكم وهو يصلي . . فليرقد حتىٰ يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلىٰ وهو ناعس لا يدري : لعله يستغفر فيسبُّ نفسه » .

(٤) رواه البخاري (٤٣ ، ٦٤٦٥) ، ومسلم (٧٨٢) .

(٥) رواه الطيالسي في « مسنده » (١٢٩٦) ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ٤٧٩) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٤١) ولفظه : « خير دينكم أيسره » .

وقيلَ لهُ : إنَّ فلاناً يصلِّي فلا ينامُ ، ويصومُ فلا يفطرُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكنِّي أصلِّي وأنامُ ، وأصومُ وأُفطرُ ، هٰذهِ سنَّتِي ، فمَنْ رغبَ عنها . . فليسَ منِّي »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تشادوا هٰذا الدينَ ، فإنَّهُ متينٌ ، فمَنْ يشادُّهُ . . يغلبْهُ ، فلا تبغِّضْ إلىٰ نفسِكَ عبادةَ اللهِ »(٢) .

* * *

السابعُ : أنْ ينامَ مستقبلَ القبلةِ : والاستقبالُ علىٰ ضربين :

ـ **أحدُهما** : استقبالُ المحتضرِ ، وهوَ المستلقي علىٰ قفاهُ ، فاستقبالُهُ : أنْ يكونَ وجهُهُ وأخمصاهُ إلى القبلةِ .

ـ **والثاني** : استقبالُ اللحدِ ، وهوَ أنْ ينامَ علىٰ جنبٍ ، بأنْ يكونَ وجهُهُ إليها معَ قبالةِ بدنِهِ إذا نامَ على الشقِّ الأيمنِ .

* * *

الثامنُ : الدعاءُ عندَ النومِ : فيقولُ : (باسمِكَ اللهمَّ ربِّي وضعتُ جنبِي ،

---

(١) رواه النسائي (٤/ ٢١٠) دون ذكر الجملة الأخيرة منه ، وهو مجملاً في حكاية الرهط الثلاثة الذين سألوا عن عبادته صلى الله عليه وسلم وكأنهم تقالُّوها عند البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) ، ولفظ المصنف في « القوت » (١/ ٢١) .

(٢) هو عند البخاري (٣٩) بنحوه ، ولفظه : « إن الدين يسر ، ولن يشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه . . . » الحديث ، وروى ابن المبارك في « الزهد » (١١٧٨) : « إن هٰذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، ولا تبغِّض إلىٰ نفسك عبادة الله تعالىٰ ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقىٰ » ، ولفظ المصنف في « القوت » (١/ ٢١) .

وباسمِكَ أرفعُهُ) إلىٰ آخرِ الدعواتِ المأثورةِ التي أوردناها في كتابِ الدعواتِ .

ويُستحبُّ أنْ يقرأَ الآياتِ المخصوصةَ ؛ مثلَ آيةِ الكرسيِّ ، وآخرِ (البقرةِ) ، وغيرِهما .

ويقرأُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، يقالُ : إنَّ مَنْ قرأَها عندَ المنامِ . حفِظَ اللهُ عليهِ القرآنَ فلمْ ينسَهُ[1] .

ويقرأُ مِنْ (سورةِ الأعرافِ) هٰذهِ الآيةَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ إلى قولِهِ : ﴿ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وآخرَ (بني إسرائيلَ) : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ﴾ الآيتينِ ؛ فإنَّهُ يدخلُ في شعارِهِ ملكٌ يوكلُ بحفظِهِ فيستغفرُ لهُ[2] .

ويقرأُ المعوِّذتينِ وينفثُ بهنَّ في يديهِ ويمسحُ بهما وجهَهُ وسائرَ جَسدِهِ ، كذلك رُوِيَ مِنْ فعلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[3] .

وليقرأْ عشراً مِنْ أوّلِ الكهفِ ، وعشراً مِنْ آخرِها ، وهٰذهِ الآيُ للاستيقاظِ لقيامِ الليلِ[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٢) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٤٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (١٠٥١) .
(٣) رواه البخاري (٥٠١٨) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٣٢) .

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (ما أرىٰ أنَّ رجلاً مستكمَلاً عقلُهُ ينامُ قبلَ أنْ يقرأَ الآيتينِ مِنْ آخرِ « سورةِ البقرةِ »)[1] .

وليقلْ خمساً وعشرينَ مرَّةً : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ) ليكونَ مجموعُ هٰذهِ الكلماتِ الأربعِ مئةَ مرَّةٍ .

* * *

التاسعُ : أنْ يتذكَّرَ عندَ النومِ أنَّ النومَ نوعُ وفاةٍ ، والتيقُّظَ نوعُ بعثٍ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ فسمَّاه توفِّياً ، وكما أنَّ المستيقظَ تنكشفُ لهُ مشاهداتٌ لا تناسبُ أحوالَهُ في النومِ . فكذلكَ المبعوثُ يرىٰ ما لمْ يخطرْ قطُّ ببالِهِ ولا شاهدَهُ حسُّهُ ، ومثلُ النومِ بينَ الحياةِ والموتِ مثلُ البرزخِ بينَ الدنيا والآخرةِ[2] .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ إنْ كنتَ تشكُّ في الموتِ . . فلا تنمْ ؛ فكما أنَّكَ تنامُ . . كذلكَ تموتُ ، وإنْ كنتَ تشكُّ في البعثِ . . فلا تنتبهْ ؛ فكما أنَّكَ تنتبهُ بعدَ نومِكَ . . فكذلكَ تبعثُ بعدَ موتِكَ)[3] .

وقالَ كعبُ الأحبارِ رحمَهُ اللهُ : (إذا نمتَ . . فاضطجعْ علىٰ شقِّكَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٢) ، وقد سبق بيان فضلها وأخواتها مما ذكره المصنف هنا .
(٢) قوت القلوب (١/ ٣٤) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٣٤) .

الأيمنِ ، واستقبلِ القبلةَ بوجهِكَ ؛ فإنَّهَا وفاةٌ)[١] .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ آخرُ ما يقولُ حينَ ينامُ وهوَ واضعٌ خدَّهُ علىٰ يدِهِ اليمنىٰ وهوَ يرىٰ أنَّهُ ميتٌ في ليلتِهِ تلكَ : « اللهمَّ ، ربَّ السماواتِ السبعِ وربَّ العرشِ العظيمِ ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَهُ . . . » الدعاءَ إلىٰ آخرِهِ كما ذكرناهُ في كتابِ الدعواتِ[٢] .

فحقٌّ على العبدِ أنْ يفتِّشَ عنْ قلبِهِ عندَ نومِهِ أنَّهُ علىٰ ماذا ينامُ ؟ وما الغالبُ عليهِ : حبُّ اللهِ تعالىٰ وحبُّ لقائِهِ أوْ حبُّ الدنيا ؟ وليتحقَّقْ أنَّهُ يُتوفَّىٰ علىٰ ما هوَ الغالبُ عليهِ ، ويحشرُ علىٰ ما يُتوفَّىٰ عليهِ ؛ فإنَّ المرءَ معَ مَنْ أحبَّ ، ومعَ ما أحبَّ .

* * *

العاشرُ : **الدعاءُ عندَ التنبُّهِ** : فليقلْ في تيقظاتِهِ وتقلُّباتِهِ مهما تنبَّهَ ما كانَ يقولُهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا إلـٰهَ إلا اللهُ الواحدُ القهَّارُ ، ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهُما العزيزُ الغفَّارُ »[٣] .

* * *

وليجتهدْ أنْ يكونَ آخرُ ما يجري علىٰ قلبِهِ عندَ النومِ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٤) .

(٢) الحديث رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٥٥٧) .

(٣) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٦٣٤) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٧٥٧) .

وأوَّلُ ما يردُ علىٰ قلبِهِ عندَ التيقُّظِ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، فهوَ علامةُ الحبِّ ، ولا يلازمُ القلبَ في هاتينِ الحالتينِ إلا ما هوَ الغالبُ عليهِ ، فليجرِّبْ قلبَهُ بهِ ؛ فإنَّها علامةٌ تنكشفُ عنْ باطنِ القلبِ ، وإنما استُحبَّتْ هٰذهِ الأذكارُ ليُستجرَّ القلبُ إلىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ .

فإذا استيقظَ ليقومَ . . قالَ : (الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدَما أماتنا وإليهِ النشورُ) إلىٰ آخرِ ما أوردناهُ مِنْ أدعيةِ التيقُّظِ .

* * *

الوِردُ الرابعُ : يدخلُ بمضيِّ النصفِ الأوَّلِ مِنَ الليلِ إلىٰ أنْ يبقىٰ مِنَ الليلِ سدسُهُ :

وعندَ ذلكَ يقومُ العبدُ للتهجُّدِ ، فاسمُ التهجُّدِ يختصُّ بما بعدَ الهجودِ والهجوعِ وهوَ النومُ .

وهٰذا وسْطُ الليلِ ، ويشبهُ الوِردَ الذي بعدَ الزوالِ ، وهوَ وسْطُ النهارِ ، وبهِ أقسمَ اللهُ تعالىٰ فقالَ : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ أي : إذا سكنَ[1] ، وسكونُهُ : هدوءُهُ في هٰذا الوقتِ ، فلا تبقىٰ عينٌ إلاَّ نائمةٌ سوى الحيِّ القيُّومِ الذي لا تأخذُهُ سنةٌ ولا نومٌ ، وقيلَ : ﴿ إِذَا سَجَىٰ ﴾ إذا امتدَّ وطالَ ، وقيلَ : إذا أظلمَ[2] .

---

(١) رویٰ ذلك ابن جرير في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٢٨٩) عن قتادة والضحاك .

(٢) رواه ابن جرير في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٢٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والأقوال في « القوت » (١/ ٢١) .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الليلِ أسمعُ ؟ فقالَ : « جوفُ الليلِ »[(١)] .

وقالَ داوودُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إلٰهي ؛ إنِّي أحبُّ أنْ أتعبَّدَ لكَ ، فأيُّ وقتٍ أفضلُ ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا داوودُ ؛ لا تقمْ أوَّلَ الليلِ ولا آخرَهُ ، فإنَّهُ منْ قامَ أوَّلَهُ . . نامَ آخرَهُ ، ومَنْ قامَ آخرَهُ . . لمْ يقمْ أوَّلَهُ ، ولكنْ قمْ وسْطَ الليلِ حتَّىٰ تخلوَ بي وأخلوَ بكَ ، وارفعْ إليَّ حوائجَكَ[(٢)] .

وسئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أيُّ الليلِ أفضلُ ؟ فقالَ : « نصفُ الليلِ الغابرِ »[(٣)] ؛ يعني : الباقيَ .

وفي آخرِ الليلِ وردتِ الأخبارُ باهتزازِ العرشِ[(٤)] ، وانتشارِ الرياحِ مِنْ جنَّاتِ عدنٍ[(٥)] ، ومِنْ نزولِ الجبارِ تعالىٰ إلىٰ سماءِ الدنيا[(٦)] ، وغيرِ ذلكَ مِنَ الأخبارِ .

---

(١) رواه أبو داوود (١٢٧٧) ، والترمذي (٣٤٩٩) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٢١) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ١٧٩) ولفظه : « جوف الليل الغابر » ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٥٦٤) ولفظه : « نصف الليل أو جوف الليل » دون لفظ : (الغابر) ، **والغابر** : ضدٌّ ، يطلق على الماضي والباقي .
(٤) روى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٩٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٠٣) عن سعيد الجريري : أن داوود قال : يا جبرائيل ؛ أي الليل أفضل ؟ قال : ما أدري ، غير أني أعلم أن العرش يهتز من السحر .
(٥) قوت القلوب (١/ ٢١) ، والسياق عنده .
(٦) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

وترتيبُ هـٰذا الوِردِ :

أنَّهُ بعدَ الفراغِ مِنَ الأدعيةِ التي للاستيقاظِ يتوضَّأُ وضوءاً كما سبقَ بسننِهِ وآدابِهِ وأدعيتِهِ ، ثمَّ يتوجَّهُ إلىٰ مصلاَّهُ ، ويقومُ مستقبلاً القبلةَ ، ويقولُ : (اللهُ أكبرُ كبيراً ، والحمدُ للهِ كثيراً ، وسبحانَ اللهِ بكرةً وأصيلاً) ، ثمَّ ليسبِّحْ عشراً ، وليحمدْ عشراً ، وليهللْ عشراً ، وليقلِ : (اللهُ أكبرُ ذو الملكوتِ والجبروتِ ، والكبرياءِ والعظمةِ ، والجلالِ والقدرةِ)[1] .

وليقلْ هـٰذهِ الكلماتِ ؛ فإنَّها مأثورةٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قيامِهِ للتهجُّدِ : اللهمَّ ؛ لكَ الحمدُ أنتَ نورُ السماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ بهاءُ السَّماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ ربُّ السماواتِ والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ قيُّومُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ ، ومَنْ عليهِنَّ ، أنتَ الحقُّ ، ومنكَ الحقُّ ، ولقاؤُكَ حقٌّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، والنشورُ حقٌّ ، والنبيُّونَ حقٌّ ، ومحمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حقٌّ .

اللهمَّ ؛ لكَ أسلمتُ ، وبكَ آمنتُ ، وعليكَ توكلْتُ ، وإليكَ أنبتُ ، وبكَ خاصمْتُ ، وإليكَ حاكمْتُ ، فاغفرْ لي ما قدمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ وما أسرفتُ ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ ، لا إلـٰهَ إلا أنتَ[2] .

---

(١) رواه الطيالسي في « مسنده » (٤١٦) مصرحاً بصلاة الليل ، وأبو داوود (٨٧٤) ، والنسائي (٢/ ٢٣١) .

(٢) إلىٰ هنا رواه البخاري (١١٢٠) ، ومسلم (٧٦٩) بألفاظ متقاربة .

اللهمَّ ؛ آتِ نفسي تقواها ، وزكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكَّاها ، أنتَ وليُّها ومولاها[1] .

اللهمَّ ؛ اهدني لأحسنِ الأعمالِ لا يهدي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصرفْ عنِّي سيِّئَها لا يصْرِفُ عنِّي سيِّئَها إلا أنتَ[2] .

أسأَلُكَ مسألةَ البائسِ المسكينِ ، وأدعوكَ دعاءَ المفتقرِ الذليلِ ، فلا تجعلني بدعائِكَ ربِّ شقيّاً ، وكنْ بي رؤوفاً رحيماً ، يا خيرَ المسؤولينَ ، وأكرمَ المعطينَ[3] .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا قامَ مِنَ الليلِ . . افتتحَ صلاتَهُ قالَ : « اللهمَّ ، ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ، فاطرَ السماواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ ، أنتَ تحكُمُ بينَ عبادِكَ فيما كانوا فيهِ يختلفونَ ؛ اهدني لما اختُلِفَ فيهِ مِنَ الحقِّ بإذنِكَ ، إنَّكَ تهدي مَنْ تشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ »[4] .

ثمَّ يفتتحُ الصلاةَ ويصلِّي ركعتينِ خفيفتينِ ، ثمَّ يصلِّي مثنىٰ مثنىٰ ما تيسَّرَ

---

(1) رواه أحمد في « المسند » (٦/٢٠٩) في قيام الليل ، وهو عند مسلم (٢٧٢٢) من دعائه صلى الله عليه وسلم .

(2) رواه النسائي (٢/١٢٩) بلفظ : (لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق) ، وهو عند مسلم (٧٧١) بلفظ : (الأخلاق) بدل (الأعمال) وفيه زيادة من أوله .

(3) رواه الطبراني في « الصغير » (١/٢٤٧) .

(4) رواه مسلم (٧٧٠) .

لهُ ، ويختمُ بالوترِ إنْ لمْ يكنْ قدْ صلَّى الوترَ ، ويستحبُّ أنْ يفصلَ بينَ الصلاتينِ عندَ تسليمِهِ بمئةِ تسبيحةٍ ؛ ليستريحَ ويزيدَ نشاطُهُ للصلاةِ .

وقدْ صحَّ في صلاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالليلِ أنَّهُ صلَّىٰ أولاً ركعتينِ خفيفتينِ ، ثمَّ ركعتينِ طويلتينِ ، ثمَّ صلَّىٰ ركعتينِ دونَ اللتينِ قبلَهُما ، ثمَّ لمْ يزلْ يقصرُ بالتدريجِ إلىٰ ثلاثَ عشرةَ ركعةً[(١)] .

وسئلتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أكانَ يجهرُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قيامِ الليلِ أمْ يسرُّ ؟ فقالَت : (ربما جهرَ ، وربما أسرَّ)[(٢)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صلاةُ الليلِ مثنىٰ مثنىٰ ، فإذا خفتَ الصبحَ . . فأوترْ بركعةٍ »[(٣)] .

وقالَ عليهِ السلامُ : « صلاةُ المغربِ أوترتْ صلاةَ النهارِ ، فأوترُوا صلاةَ الليلِ »[(٤)] .

وأكثرُ ما صحَّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قيامِ الليلِ ثلاثَ عشرةَ ركعةً[(٥)] .

---

(١) رواه مسلم (٧٦٥) .
(٢) رواه أبو داوود (٢٢٦) ، والترمذي (٤٤٩) ، والنسائي (٣/ ٢٢٤) ، وابن ماجه (١٣٥٤) .
(٣) رواه البخاري (٤٧٢) ، ومسلم (٧٤٩) .
(٤) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٢٨) ، وأحمد في « المسند » (٢/ ٣٠) .
(٥) رواه مسلم (٧٦٥) ، والنسائي (٣/ ٢٣٧) .

ويقرأُ في هٰذهِ الركعاتِ مِنْ وردِهِ مِنَ القرآنِ أوْ مِنَ السورِ المخصوصةِ ما خفَّ عليهِ ، وهوَ في حكْمِ هٰذا الوِردِ إلىٰ قريبٍ مِنَ السدسِ الأخيرِ مِنَ الليلِ .

* * *

الوِردُ الخامسُ : السُّدُسُ الأخيرُ مِنَ الليلِ :

وهوَ وقتُ السحرِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قيلَ : يصلُّونَ ؛ لما فيها مِنَ الاستغفارِ[1] ، وهوَ مقاربٌ للفجرِ الذي هوَ وقتُ انصرافِ ملائكةِ الليلِ وإقبالِ ملائكةِ النهارِ .

وقدْ أمرَ بهٰذا الوِردِ سلمانُ أخاه أبا الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُما ليلةَ زارَهُ في حديثٍ طويلٍ قالَ في آخرِهِ : فلمَّا كانَ الليلُ . . ذهبَ أبو الدرداءِ ليقومَ ، فقالَ لهُ سلمانُ : نمْ ، فنامَ ، ثمَّ ذهبَ ليقومَ ، فقالَ لهُ : نمْ ، فنامَ ، فلمَّا كانَ عندَ الصبحِ . . قالَ لهُ سلمانُ : قمِ الآنَ ، فقاما ، فصلَّيا ، فقالَ : إنَّ لنفسِكَ عليكَ حقّاً ، وإنَّ لضيفِكَ عليكَ حقّاً ، وإنَّ لأهلِكَ عليكَ حقّاً ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ . وذلكَ أنَّ امرأةَ أبي الدرداءِ أخبرتْ سلمانَ أنَّهُ

---

(١) روىٰ ذلك الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٦/ ٢٤٥) عن ابن عمر والضحاك ومجاهد ، قال أبو طالب المكي في « القوت » (١/ ٢١) : (وكذلك قوله عز وجل : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ يعني به الصلاة ، فكنىٰ بذلك القرآن والاستغفار عن الصلاة ؛ لأنهما وصفان منها . . . ، وكذلك يقال للصلاة استغفار ؛ لأنه يطلب بها المغفرة) .

لا ينامُ الليلَ ، قالَ : فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذكرَ ذلكَ لهُ ، فقالَ : « صدقَ سلمانُ »[1] .

وهـٰذا هوَ الوِردُ الخامسُ ، وفيهِ يستحبُّ السحورُ ، وذلكَ عندَ خوفِ طلوعِ الفجرِ[2] .

والوظيفةُ في هـٰذينِ الوردينِ : الصلاةُ ، فإذا طلعَ الفجرُ . . انقضتْ أورادُ الليلِ ودخلتْ أورادُ النهارِ ، فيقومُ ويصلِّي ركعتيِ الفجرِ ، وهوَ المرادُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ ، ثمَّ يقرأُ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلىٰ آخرِها ، ثمَّ يقولُ : (وأنا أشهدُ بما شهدَ اللهُ بهِ لنفسهِ ، وشهدتْ بهِ ملائكتُهُ وأولو العلمِ مِنْ خلقِهِ ، وأستودعُ اللهَ هـٰذهِ الشهادةَ وهيَ لي عندَ اللهِ تعالىٰ وديعةٌ ، وأسألُهُ حفظَها حتَّىٰ يتوفاني عليها ، اللهمَّ ؛ احططْ بها عنِّي وزراً ، واجعلْ لي بها عندَكَ ذخراً ، واحفظْها عليَّ ، وتوفَّني عليها حتَّىٰ ألقاكَ بها غيرَ مبدِّلٍ تبديلاً)[3] .

فهـٰذا ترتيبُ الأورادِ للعُبَّادِ ، وقدْ كانوا يستحبونَ أنْ يجمعوا معَ ذلكَ في كلِّ يومٍ بينَ أربعةِ أمورٍ : صومٍ ، وصدقةٍ وإنْ قلَّتْ ، وعيادةِ مريضٍ ،

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٨) ، ولفظ المصنف في « القوت » (١ / ٢١) .
(٢) قوت القلوب (١ / ٢١) وقال : (فمن لم يتسحَّر في أوله . . بغته الفجر) .
(٣) قوت القلوب (١ / ٢٢) ، والدعاء الأخير منه رواه الترمذي (٥٧٩) ، وابن ماجه (١٠٥٣) .

وشهودِ جنازةٍ ؛ ففي الخبرِ : « مَنْ جمعَ بينَ هاذهِ الأربعِ في يومٍ . . غُفِرَ لهُ » ، وفي روايةٍ : « دخلَ الجنَّةَ »[١] ، فإنِ اتفقَ بعضُها وعجزَ عنِ الآخرِ . . كانَ لهُ أجرُ الجميعِ بحسَبِ نيَّتِهِ .

وكانوا يكرهونَ أنْ ينقضيَ اليومُ ولمْ يتصدَّقوا فيهِ بصدقةٍ ولوْ بتمرةٍ أوْ بَصَلَةٍ أوْ كسرةِ خبزٍ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرجلُ في ظلِّ صدقتِهِ حتَّىٰ يُقضىٰ بينَ الناسِ »[٢] ، ولقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اتقوا النارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ »[٣] .

ودفعتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها إلىٰ سائلٍ عنبةً واحدةً فأخذَها ، فنظرَ مَنْ كانَ عندَها بعضُ الحاضرينَ إلىٰ بعضٍ فقالتْ : (ما لكمْ ! إنَّ فيها لمثاقيلَ ذرٍّ كثيرٍ)[٤] .

وكانوا لا يستحبُّونَ ردَّ السائلِ ؛ إذْ كانَ منْ أخلاقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

(١) رواه مسلم (١٠٢٨) ، ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال : « فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال : « فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ » قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعن في امرىءٍ إلا دخل الجنة » . ورواية : « غفر له » أوردها صاحب « القوت » (١/ ٤٢) .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣١٠) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤١٦) .

(٣) رواه البخاري (١٤١٣) ، ومسلم (١٠١٦) .

(٤) قوت القلوب (١/ ٤٢) .

عليهِ وسلَّمَ ذلكَ ، ما سألَهُ أحدٌ شيئاً فقالَ : لا ، ولكنَّهُ إنْ لمْ يقدرْ عليهِ . . سكتَ[1] ، وفي الخبرِ : « يصبحُ ابنُ آدمَ وعلىٰ كلِّ سُلامىٰ مِنْ جسدِهِ صدقةٌ ـ يعني : كلَّ مفصلٍ ، وفي جسدِهِ ثلاثُ مئةٍ وستونَ مفصلاً ـ فأمرُكَ بالمعروفِ صدقةٌ ، ونهيُكَ عَنِ المنكرِ صدقةٌ ، وحملُكَ عنِ الضعيفِ صدقةٌ ، وهدايتُكَ إلى الطريقِ صدقةٌ ، وإماطتُكَ الأذىٰ صدقةٌ » ، حتَّىٰ ذكرَ التسبيحَ والتهليلَ ثمَّ قالَ : « وركعتا الضحىٰ تأتي علىٰ ذلكَ كلِّهِ ، أوْ تجمعُ ذلكَ كلَّهُ »[2] .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٣١١) ، والبزار (٦٤٣٩) .

(٢) رواه البخاري (٢٩٨٩) ، ومسلم (٧٢٠) واللفظ له .

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلمْ : أنَّ المريدَ لحرثِ الآخرةِ السالكَ لطريقِها لا يخلو عَنْ ستَّةِ أحوالٍ ؛ فإنَّهُ إما عابدٌ ، وإمَّا عالمٌ ، وإمَّا متعلِّمٌ ، وإمَّا والٍ ، وإمَّا محترفٌ ، وإمَّا موحِّدٌ مستغرقٌ بالواحدِ الصمدِ عَنْ غيرِهِ .

الأوَّلُ : العابدُ :

وهوَ المتجرِّدُ لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، الذي لا شغلَ لهُ غيرُها أصلاً ، ولوْ تركَ العبادةَ . . لجلسَ بطَّالاً ، فترتيبُ أورادِهِ ما ذكرناهُ .

نعمْ ، لا يبعدُ أنْ تختلفَ وظائفُهُ ؛ بأنْ يستغرقَ أكثرَ أوقاتِهِ إمَّا في الصلاةِ ، أوْ في القراءةِ ، أوْ في التسبيحاتِ ، فقدْ كانَ في الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ مَنْ وِردُهُ في اليومِ اثنا عشرَ ألفَ تسبيحةٍ[1] ، وكانَ فيهِمْ مَنْ وِردُهُ ثلاثونَ ألفاً ، وكانَ فيهِمْ مَنْ وِردُهُ ثلاثُ مئةِ ركعةٍ إلىٰ ستِّ مئةٍ ، وإلىٰ ألفِ ركعةٍ ، وأقلُّ ما نُقِلَ في أورادِهِمْ مِنَ الصلاةِ مئةُ ركعةٍ في اليومِ والليلةِ[2] .

وكانَ بعضُهُم أكثرُ وردِهِ القرآنُ ، فكانَ يختمُ الواحدُ منهُمْ فِي اليومِ مرَّةً ،

---

(١) كأبي هريرة رضي الله عنه ، روىٰ ذلك عنه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٢٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ٣٦٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٤٠ـ٤١) .

ورُوِيَ : مرتينِ عَنْ بعضِهِمْ ، وكانَ بعضُهُمْ يقضي اليومَ أوِ الليلةَ في التفكُّرِ في آيةٍ واحدةٍ يرددُها .

وكانَ كُرْزُ بنُ وبرةَ مقيماً بمكَّةَ ، فكانَ يطوفُ في كلِّ يومٍ سبعينَ أسبوعاً ، وفي كلِّ ليلةٍ سبعينَ أسبوعاً ، وكانَ معَ ذلكَ يختمُ القرآنَ في اليومِ والليلةِ مرَّتينِ ، فحُسِبَ ذلكَ فكانَ عشرةَ فراسخَ ، ويكونُ معَ كلِّ أسبوعٍ ركعتانِ ، فهوَ مئتانِ وثمانونَ ركعةً ، وختمتانِ ، وعشرةُ فراسخَ(١) .

❊ ❊ ❊

فإنْ قلتَ : فما الأولىٰ أنْ يصرفَ إليهِ أكثرَ الأوقاتِ مِنْ هٰذهِ الأورادِ ؟

فاعلمْ : أنَّ قراءةَ القرآنِ في الصلاةِ قائماً معَ التدبُّرِ يجمعُ الجميعَ ، ولكنْ ربما تعسرُ المواظبةُ عليهِ ، فالأفضلُ يختلفُ باختلافِ حالِ الشخصِ ، ومقصودُ الأورادِ تزكيةُ القلبِ وتطهيرُهُ ، وتحليتُهُ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإيناسُهُ

---

(١) كذا في «القوت» (١/ ٤١)، وروىٰ أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٨١) عن ابن شُبرمة يقول :

لو شئتُ كنت ككرز في تعبُّدِهِ ... أو كابنِ طارق حول البيتِ في الحرمِ
قد حال دون لذيذِ العيشِ خوفهما ... وسارعا في طِلاب الفوز والكرمِ

وكان محمد بن طارق يطوف في كل يوم وليلة سبعين أسبوعاً ، وكان كرز يختم القرآن في كل يوم وليلة ثلاث ختمات .

بِهِ ، فلينظرِ المريدُ إلىٰ قلبِهِ ، فما يراهُ أشدَّ تأثيراً فيهِ . . فليواظبْ عليهِ ، فإذا أحسَّ بملالةٍ منهُ . . فلينتقلْ إلىٰ غيرِهِ .

ولذلكَ نرى الأصوبَ لأكثرِ الخلقِ توزيعَ هـٰذهِ الخيراتِ المختلفةِ على الأوقاتِ كما سبقَ ، والانتقالَ فيها مِنْ نوعٍ إلىٰ نوعٍ ؛ لأنَّ المَلالَ هوَ الغالبُ على الطبعِ ، وأحوالُ الشخصِ الواحدِ أيضاً في ذلكَ تختلفُ ، ولكنْ إذا فهمَ فقهَ الأورادِ وسرَّها . . فليتبعِ المعنىٰ ، فإنْ سمعَ تسبيحةً مثلاً وأحسَّ لها بوقعٍ في قلبِهِ . . فليواظبْ علىٰ تكرارِها ما دامَ يجدُ لها وقعاً .

وقد رُوي عنْ إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمهُ اللهُ عنْ بعضِ الأبدالِ : أنَّهُ قامَ ذاتَ ليلةٍ يصلِّي علىٰ شاطئِ البحرِ ، فسمعَ صوتاً عالياً بالتسبيحِ ولمْ يرَ أحداً ، فقالَ : مَنْ أنتَ أسمعُ صوتَكَ ولا أرىٰ شخصَكَ ؟ فقالَ : أنا مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ موكَّلٌ بهـٰذا البحرِ ، أسبِّحُ اللهَ تعالىٰ بهـٰذا التسبيحِ منذُ خُلقتُ ، قلتُ : فما اسمُكَ ؟ قالَ : مهلهيائيل ، قلتُ : فما ثوابُ مَنْ قالَهُ ؟ قالَ : مَنْ قالَهُ مئةَ مرَّةٍ . . لمْ يمتْ حتَّىٰ يرىٰ مقعدَهُ مِنَ الجنَّةِ أوْ يُرىٰ لهُ[1] .

والتسبيحُ : هوَ قولُهُ : (سبحانَ اللهِ العليِّ الديَّانِ ، سبحانَ اللهِ الشديدِ الأركانِ ، سبحانَ مَنْ يذهبُ بالليلِ ويأتي بالنهارِ ، سبحانَ مَنْ لا يشغلُهُ شانٌ عَنْ شانٍ ، سبحانَ اللهِ الحنَّانِ المنَّانِ ، سبحانَ اللهِ المسبَّحِ في كلِّ مكانٍ) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٠) .

فهـٰذا وأمثالُهُ إذا سمعَهُ المريدُ ووجدَ لهُ في قلبِهِ وقْعاً . . فيلازِمُهُ ، وأيّاً ما وجدَ القلبَ عندَهُ وفُتحَ لهُ فيهِ خيرٌ . . فليواظبْ عليهِ .

❊ ❊ ❊

الثاني : العالمُ الذي ينفعُ الناسَ بعلمِهِ في فتوىٰ ، أوْ تدريسٍ ، أوْ تصنيفٍ :

فترتيبُهُ الأورادَ يخالفُ ترتيبَ العابدِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلى المطالعةِ للكتبِ ، وإلى التصنيفِ والإفادةِ ، ويحتاجُ إلىٰ مدَّةٍ لها لا محالةَ ، فإنْ أمكنَهُ استغراقُ الأوقاتِ فيهِ . . فهو أفضلُ ما يشتغلُ بِهِ بعدَ المكتوباتِ ورواتبِها .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ جميعُ ما ذكرناهُ في فضيلةِ التعليمِ والتعلُّمِ في كتابِ العلمِ ، وكيفَ لا يكونُ كذلكَ وفي العلمِ المواظبةُ علىٰ ذكرِ اللهِ تعالىٰ وتأمُّلِ ما قالَ اللهُ سبحانَهُ وقالَ رسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وفيهِ منفعةُ الخلقِ وهدايتُهُمْ إلىٰ طريقِ الآخرةِ ؟! وربَّ مسألةٍ واحدةٍ يتعلَّمُها المتعلِّمُ فيصلحُ بها عبادةَ عمرِهِ ، ولوْ لمْ يتعلَّمْها . . لكانَ سعيُهُ ضائعاً .

وإنَّما نعني بالعلمِ المقدَّمِ على العبادةِ : العلمَ الذي يرغِّبُ الناسَ في الآخرةِ ويزهِّدُهم في الدنيا ، أوِ العلمَ الذي يعينُهُمْ علىٰ سلوكِ طريقِ الآخرةِ إذا تعلَّمُوهُ علىٰ قصدِ الاستعانةِ بِهِ على السلوكِ ، دونَ العلومِ التي تزيدُ بها الرغبةُ في المالِ والجاهِ وقبولِ الخلقِ .

والأولىٰ بالعالمِ أنْ يقسمَ أوقاتَهُ أيضاً ؛ فإنَّ استغراقَ الأوقاتِ في ترتيبِ

العلمِ لا يحتملُهُ الطبعُ ، فينبغي أن يخصِّصَ ما بعدَ الصبحِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ بالأذكارِ والأورادِ ، كما ذكرناه في الوِردِ الأوَّلِ .

وبعدَ الطلوعِ إلى ضحوةِ النهارِ في الإفادةِ والتعليمِ إنْ كانَ عندَهُ مَنْ يستفيدُ علماً لأجلِ الآخرةِ ، وإنْ لمْ يكنْ . . فيصرفُهُ إلى الفِكْرِ ، ويتفكَّرُ فيما يشكلُ عليهِ مِنْ علومِ الدينِ ، فإنَّ صفاءَ القلبِ بعدَ الفراغِ مِنَ الذكرِ وقبلَ الاشتغالِ بهمومِ الدنيا يعينُ على التفطُّنِ للمشكلاتِ .

ومِنْ ضحوةِ النهارِ إلى العصرِ للتصنيفِ والمطالعةِ ، لا يتركُهما إلا في وقتِ أكلٍ وطهارةٍ ومكتوبةٍ وقيلولةٍ خفيفةٍ إنْ طالَ النهارُ .

ومِنَ العصرِ إلى الاصفرارِ يشتغلُ بسماعِ ما يُقرأُ بينَ يديهِ ؛ مِنْ تفسيرٍ أوْ حديثٍ أوْ علمٍ نافعٍ .

ومِنَ الاصفرارِ إلى الغروبِ يشتغلُ بالذكرِ والاستغفارِ والتسبيحِ .

فيكونُ وِردُهُ الأوَّلُ قبلَ طلوعِ الشمسِ في عملِ اللسانِ ، ووِردُهُ الثاني في عملِ القلبِ بالفكرِ إلى الضحوةِ ، ووِردُهُ الثالثُ إلى العصرِ في عملِ العينِ واليدِ بالمطالعةِ والكتابةِ ، ووِردُهُ الرابعُ بعدَ العصرِ في عملِ السمعِ ؛ ليروِّحَ فيهِ العينَ واليدَ ، فإنَّ المطالعةَ والكتابةَ بعدَ العصرِ ربما أضرَّا بالعينِ ، وعندَ الاصفرارِ يعودُ إلىٰ ذكرِ اللسانِ ، فلا يخلو جزءٌ مِنَ النهارِ عنْ عملٍ لهُ بالجوارحِ معَ حضورِ القلبِ في الجميعِ .

وأمَّا الليلُ . . فأحسنُ قسمةٍ فيهِ قسمةُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ ؛ إذْ كانَ

يقسمُ الليلَ ثلاثةَ أجزاءٍ : ثلثٌ للمطالعةِ وترتيبِ العلمِ وهوَ الأوَّلُ ، وثلثٌ للصلاةِ وهوَ الوسطُ ، وثلثٌ للنومِ وهوَ الأخيرُ ، وهـٰذا يتيسَّرُ في ليالي الشتاءِ ، وأمَّا الصيفُ . . ربما لا يحتملُ ذلكَ إلا إذا كانَ أكثرَ النومَ بالنهارِ ، فهـٰذا ما نستحبُّهُ مِنْ ترتيبِ أورادِ العالمِ[١] .

❊ ❊ ❊

الثالثُ : المتعلِّمُ :

والاشتغالُ بالتعلُّمِ أفضلُ مِنَ الاشتغالِ بالأذكارِ والنوافلِ[٢] ، فحكمُهُ حكمُ العالمِ في ترتيبِ الأورادِ ، ولكنْ يشتغلُ بالاستفادةِ حيثُ يشتغلُ العالمُ بالإفادةِ ، وبالتعليقِ والنسخِ حيثُ يشتغلُ العالمُ بالتصنيفِ .

ويرتِّبُ أوقاتَهُ كما ذكرناهُ .

وكلُّ ما ذكرناهُ في فضيلةِ التعلُّمِ والعلمِ مِنْ كتابِ العلمِ يدلُّ علىٰ أنَّ ذلكَ أفضلُ ، بلْ إنْ لمْ يكنْ متعلِّماً علىٰ معنىٰ أنَّهُ يعلِّقُ ويحصِّلُ ليصيرَ عالماً بلْ

---

(١) ومن اختار هـٰذا الترتيب في النهار والليل من العلماء . . بورك له في علمه وتصنيفه ، وذكر بعض العلماء في ترجمة المصنِّف قدِّس سرُّه أنه صنَّف هـٰذا الكتاب في مئة يوم ، ومع ذلك كان يختم القرآن في اليوم والليلة مرة ، فهـٰذا وأمثاله مما وقع لغيره من المصنفين من بركة الوقت وحسن إخلاصهم رحمهم الله تعالىٰ ونفعنا بهم آمين . « إتحاف » (٥/ ١٧٣) .

(٢) بل الاشتغال بالعلم اشتغال بالذكر ؛ إذ العلم الذي يشتغل به يذكر فيه الله ورسوله ، فهو في ذكر . « إتحاف » (٥/ ١٧٣) .

كانَ مِنَ العوامِّ . . فحضورُهُ مجالسَ الذكرِ والوعظِ والعلمِ أفضلُ مِنِ اشتغالِهِ بالأورادِ التي ذكرناها بعدَ الصبحِ وبعدَ الطلوعِ وفي سائرِ الأوقاتِ ، ففي حديثِ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ حضورَ مجلسِ ذكرٍ أفضلُ مِنْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ ، وشهودِ ألفِ جنازةٍ ، وعيادةِ ألفِ مريضٍ)[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا رأيتُمْ رياضَ الجنَّةِ . . فارتعوا فيها » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما رياضُ الجنَّةِ ؟ قالَ : « حِلقُ الذكْرِ »[2] .

وقالَ كعبُ الأحبارِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لوْ أنَّ ثوابَ مجالسِ العلماءِ بدا للناسِ . . لاقتتلوا عليهِ حتَّىٰ يتركَ كلُّ ذي إمارةٍ إمارتهُ ، وكلُّ ذي سوقٍ سوقَهُ)[3] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الرجلَ ليخرجُ مِنْ منزلِهِ وعليهِ مِنَ الذنوبِ مثلُ جبالِ تهامةَ ، فإذا سمعَ العالمَ . . خافَ واسترجعَ عنْ ذنوبِهِ ، وانصرفَ إلىٰ منزلِهِ وليسَ عليهِ ذنبٌ ، فلا تفارقوا مجالسَ العلماءِ ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمْ يخلقْ علىٰ وجهِ الأرضِ تربةً أكرمَ مِنْ مجالسِ العلماءِ) .

وقالَ رجلٌ للحسنِ رحمهُ اللهُ : أشكو إليكَ قساوةَ قلبي ، فقالَ : أدْنِهِ مِنْ مجالسِ الذكرِ[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٦٧) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٩٩) .
(٢) رواه الترمذي (٣٥١٠) .
(٣) نسبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ١٧٤) لأبي نعيم في « الحلية » .
(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٩١) .

ورأىٰ عمارٌ الراهبُ مسكينةَ الطفاوية في المنامِ وكانتْ مِنَ المواظباتِ علىٰ حِلَقِ الذكرِ ، فقالَ : مرحباً يا مسكينةُ ، فقالتْ : هيهاتَ هيهاتَ ، ذهبتِ المسكنةُ وجاءَ الغنىٰ ، فقالَ : هيهِ ، فقالتْ : ما تسألُ عمَّنْ أبيحَ لها الجنةُ بحذافيرِها ، قالَ : وبمَ ذلكَ ؟ قالتْ : بمجالسةِ أهلِ الذكرِ[١] .

وعلى الجملةِ : فما ينحلُّ عنِ القلبِ مِنْ عقدةٍ مِنْ عُقدِ حبِّ الدنيا بقولِ واعظٍ حسنِ الكلامِ زكيِّ السيرةِ . . أشرفُ وأنفعُ مِنْ ركعاتٍ كثيرةٍ معَ اشتمالِ القلبِ علىٰ حبِّ الدنيا .

* * *

الرابعُ : المحترفُ الذي يحتاجُ إلى الكسبِ لعيالِهِ :

فليسَ لهُ أنْ يضيعَ العيالَ ويستغرقَ الأوقاتَ في العباداتِ، بلْ وِردُهُ في وقتِ الصناعةِ حضورُ السوقِ ، والاشتغالُ بالكسبِ ، ولكنْ ينبغي ألاَّ ينسىٰ ذكرَ اللهِ تعالىٰ في صناعتِهِ ، بلْ يواظبُ على التسبيحاتِ والأذكارِ وقراءةِ القرآنِ ، فإنَّ ذلكَ يمكنُ أنْ يُجمَعَ إلى العملِ ، وإنَّما الذي لا يتيسَّرُ معَ العملِ الصلاةُ ، إلا أنْ يكونَ ناظوراً[٢] ، فإنَّهُ لا يعجَزُ عنْ إقامةِ أورادِ الصلاةِ معهُ .

---

(١) رواها ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٤٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٩٥) .
(٢) الناظور : هو الناطور ، حافظ البستان ونحوه .

ثمَّ مهما فرغَ مِنْ كفايتِهِ . . ينبغي أنْ يعودَ إلىٰ ترتيبِ الأورادِ ، وإنْ داومَ على الكسبِ وتصدَّقَ بما فضلَ عنْ حاجتِهِ . . فهوَ أفضلُ مِنْ سائرِ الأورادِ التي ذكرناها ؛ لأنَّ العبادةَ المتعديةَ فائدتُها أنفعُ مِنَ اللازمةِ ، والصدقةُ والكسبُ علىٰ هـٰذهِ النيَّةِ عبادةٌ لهُ في نفسِهِ تقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ يحصلُ بهِ فائدةٌ للغيرِ ، وتنجذبُ إليهِ بركاتُ دعواتِ المسلمينَ ، فيتضاعفُ بهِ الأجرُ .

* * *

الخامسُ : الوالي :

مثلُ الإمامِ والقاضي والمتولِّي لينظرَ في أمورِ المسلمينَ ، فقيامُهُ بحاجاتِ المسلمينَ وأغراضِهِمْ علىٰ وَفْقِ الشرعِ وقصْدِ الإخلاصِ أفضلُ مِنَ الأورادِ المذكورةِ ، فحقُّهُ أنْ يشتغلَ بحقوقِ الناسِ نهاراً ، ويقتصرَ على المكتوبةِ ، ويقيمَ الأورادَ المذكورةَ بالليلِ ؛ كما كانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يفعلُهُ ؛ إذْ قالَ : (ما لي وللنومِ ، لوْ نمتُ بالنهارِ . . ضيَّعْتُ المسلمينَ ، ولوْ نمتُ بالليلِ . . ضيعتُ نفسي)[1] .

وقدْ فهمتَ ممَّا ذكرناهُ أنَّهُ يقدَّمُ على العباداتِ البدنيةِ أمرانِ : **أحدُهما** :

---

(1) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٦٠٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٢٧٣) ، وكان ذلك جواباً لعمرو بن العاص حين كتب له فسأله : بلغني يا أمير المؤمنين أنك لا تنام بالليل ولا بالنهار إلا مغلباً .

العلمُ ، والآخرُ : الرفقُ بالمسلمينَ ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ العلمِ وفعلِ المعروفِ عملٌ في نفسِهِ ، وعبادةٌ تفضلُ سائرَ العباداتِ بتعدي فائدتِهِ وانتشارِ جدواهُ ، فكانا مقدَّمينِ عليهِ .

* * *

السادسُ : الموحِّدُ المستغرقُ بالواحدِ الصمدِ :

الذي أصبحَ وهمومُهُ همٌّ واحدٌ[1] ، فلا يحبُّ إلا اللهَ عزَّ وجلَّ ، ولا يخافُ إلا منهُ ، ولا يتوقَّعُ الرزقَ منْ غيرِهِ ، ولا ينظرُ في شيءٍ إلا ويرى اللهَ عزَّ وجلَّ فيهِ .

فمَنِ ارتفعتْ رتبتُهُ إلىٰ هـٰذهِ الدرجةِ . . لمْ يفتقرْ إلىٰ تنويعِ الأورادِ واختلافِها ، بلْ كانَ وردُهُ بعدَ المكتوباتِ وِرداً واحداً ، وهوَ حضورُ القلبِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ حالٍ ، فلا يخطرُ بقلوبِهِمْ أمرٌ ، ولا يقرعُ سمعَهُمْ قارعٌ ، ولا يلوحُ لأبصارِهِمْ لائحٌ . . إلا كانَ لهُمْ فيهِ عِبرةٌ وفكرٌ ومزيدٌ ، فلا محرِّكَ لهُمْ ولا مسكِّنَ إلا اللهُ عزَّ وجلَّ .

* * *

(١) روى الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٤٣) مرفوعاً : « من جعل الهموم همّاً واحداً . . كفاه الله همَّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم . . لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك » .
وروى ابن المبارك في « الزهد » (٨٥٨) عن الحسن قال : قال عامر بن عبد قيس لقوم ذكروا الدنيا : وإنكم لتهتمون ؟ ! والله لئن استطعت . . لأجعلنهما همّاً واحداً ، قال الحسن : ففعل والله ذلك حتىٰ لحق بالله .

فهؤلاءِ جميعُ أحوالِهِمْ تصلحُ أنْ تكونَ سبباً لازديادِهِمْ ، فلا تتميَّزُ عندَهُمْ عبادةٌ عنْ عبادةٍ ، وهُمُ الذينَ فرُّوا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وتحقَّقَ فيهِمْ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾[1] ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[2] .

وهـٰذهِ منتهىٰ درجاتِ الصدِّيقينَ ، ولا وصولَ إليها إلا بعدَ ترتيبِ الأورادِ والمواظبةِ عليها دهراً طويلاً ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ المريدُ بما يسمعُهُ مِنْ ذلكَ فيدعيَهُ لنفسِهِ ، ويفترَ عنْ وظائفِ عباداتِهِ ، فذلكَ علامتُهُ ألاَّ يهجسَ في قلبِهِ وسواسٌ ، ولا يخطرَ في قلبِهِ معصيةٌ ، ولا تزعجَهُ هواجمُ الأهوالِ ، ولا تستفزَّهُ عظائمُ الأشغالِ ، وأنَّىٰ تُرزقُ هـٰذهِ الرتبةُ لكلِّ أحدٍ ؟!

فيتعيَّنُ على الكافَّةِ ترتيبُ الأورادِ كما ذكرناهُ ، وجميعُ ما ذكرناهُ طرقٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ ، فكلُّهُمْ مهتدونَ وبعضُهُمْ أهدىٰ منْ بعضٍ .

وفي الخبرِ : « الإيمانُ ثلاثٌ وثلاثونَ وثلاثُ مئةِ طريقةٍ ، مَنْ لقيَ اللهَ

---

(١) والإشارة في قوله : ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ، فهـٰؤلاء نفوا عن قلوبهم عبادة غيره تعالىٰ ، فلم يحلَّ فيها خاطر للسوىٰ قط . « إتحاف » (٥/ ١٧٦) .

(٢) فالذهاب إلى الله هو الغنىٰ في الله ، بحيث لا يبقىٰ له خبر عما سوى الله . « إتحاف » (٥/ ١٧٦) .

تعالىٰ بالشَّهَادةِ علىٰ طريقةٍ منها . . دخلَ الجنَّةَ »(١) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : الإيمانُ ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ خلقاً بعددِ الرسلِ ، كلُّ مؤمنٍ علىٰ خلقٍ منها ، فهوَ سالكٌ للطريقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإذاً الناسُ وإنِ اختلفتْ طرقُهُمْ في العبادةِ . . فكلُّهُمْ على الصوابِ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ ، وإنَّما يتفاوتونَ في درجاتِ القرْبِ لا في أصلِهِ ، وأقربُهُمْ إلى اللهِ تعالىٰ أعرفُهُمْ بهِ ، وأعرفُهُمْ بهِ لا بدَّ وأنْ يكونَ أعبدَهُمْ لهُ ، فمَنْ عرفَهُ . . لمْ يعبدْ غيرَهُ .

* * *

والأصلُ في الأورادِ في حقِّ كلِّ صنفٍ مِنَ الناسِ المداومةُ : فإنَّ المرادَ منهُ تغييرُ صفاتِ الباطنِ ، وآحادُ الأعمالِ يقِلُّ آثارُها ، بلْ لا يُحَسُّ بآثارِها ، وإنَّما يترتَّبُ الأثرُ على المجموعِ ، فإذا لمْ يعقبِ العملُ الواحدُ أثراً محسوساً ، ولمْ يُردَفْ بثانٍ وثالثٍ على القربِ . . امَّحىٰ أثرُ الأوَّلِ ، وذلكَ كالفقيهِ الذي يريدُ أنْ يكونَ فقيهَ النفسِ ، فإنَّهُ لا يكونُ فقيهَ النفسِ إلا بتكرارٍ كثيرٍ ، فلوْ بالغَ ليلةً في التكرارِ وتركَ شهراً أوْ أسبوعاً ثمَّ عادَ وبالغَ ليلةً . . لمْ

---

(١) كذا لفظه في « القوت » (١/ ٨٣) ، وقد رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٣٠٦) ، واللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٥/ ٩٧٩) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ١٩٠٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٨١٩٠) بلفظ : « الإيمان ثلاث مئة وثلاث وثلاثون شريعة ، من وافى الله منها بشريعة . . دخل الجنة » .

يؤثِّرْ هٰذا فيهِ ، ولوْ وزَّعَ ذلكَ القدْرَ على الليالي المتواصلةِ . . لأثَّرَ فيهِ ، ولهٰذا السرِّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالىٰ أدومُها وإنْ قلَّ »(١) .

وسُئلتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها عَنْ عملِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالتْ : (كانَ عملُهُ ديمةً ، وكانَ إذا عملَ عملاً . . أثبتَهُ)(٢) .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عوَّدَهُ اللهُ تعالىٰ عبادةً فتركَها مَلالةً . . مقتَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ »(٣) .

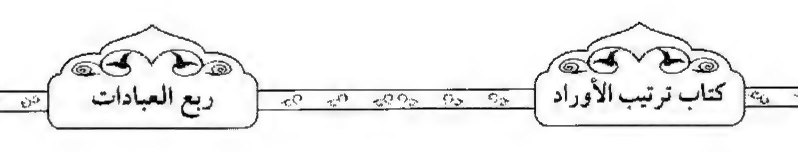
وهٰذا هوَ السببُ في صلاتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بعدَ العصرِ تداركاً لما فاتَهُ مِنْ ركعتينِ شغلَهُ عنهُما الوفدُ ، ثمَّ لمْ يزلْ بعدَ ذلك يصلِّيهما بعدَ العصرِ ، ولكنْ في منزلِهِ لا في المسجدِ ؛ كي لا يُقتدىٰ بهِ ، روتْ ذلكَ عائشةُ وأمُّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنهُما(٤) .

* * *

فإنْ قلتَ : فهلْ لغيرِهِ أنْ يقتديَ بهِ في ذلكَ معَ أنَّ الوقتَ وقتُ كراهيةٍ ؟

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٤) ، ومسلم (٧٨٣) .
(٢) رواه البخاري (١٩٨٧) ، ومسلم (٧٤٦ ، ٧٨٣) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٨٤) .
(٤) رواه البخاري (٥٩٠ ، ١٢٣٣) ، ومسلم (٨٣٤ ، ٨٣٥) ، وهاتان الركعتان كانتا بعد الظهر كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها ، وقد سبق الحديث عن ذلك .



فاعلمْ : أنَّ المعانيَ الثلاثةَ التي ذكرناها في الكراهيةِ ؛ مِنَ الاحترازِ عنِ التشبُّهِ بعبدةِ الشمسِ ، أوِ السجودِ وقتَ ظهورِ قرْنِ الشيطانِ ، أوِ الاستراحةِ عنِ العبادةِ حذراً مِنَ الملالِ . . لا يتحقَّقُ في حقِّهِ ، فلا يقاسُ عليهِ عليهِ السلامُ في ذلكَ غيرُهُ ، ويشهدُ لذلكَ فعلُهُ في المنزلِ حتَّىٰ لا يُقتدىٰ بهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

* * *

البَابُ الثَّاني
في الأسباب الميسِّرة لقيام الليل ، وفي الليالي التي يُستحبّ إحياؤها وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين ، وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما رَوَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : « إنَّ أفضلَ الصلواتِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ صلاةُ المغربِ ، لمْ يحطَّها عنْ مسافرٍ ولا عنْ مقيمٍ ، فتحَ بها صلاةَ الليلِ ، وختمَ بها صلاةَ النهارِ ، فمَنْ صلَّى المغربَ وصلَّىٰ بعدَها ركعتينِ . . بنى اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ قصرينِ في الجنَّةِ ـ قالَ الراوي : لا أدري مِنْ ذهبٍ أوْ فضَّةٍ ـ ومَنْ صلَّىٰ بعدَها أربعَ ركعاتٍ . . غفرَ اللهُ لهُ ذنبَ عشرينَ سنةً ، أوْ قالَ : أربعينَ سنةً »(١) .

وروتْ أمُّ سلمةَ عنْ أبي هريرة رَضيَ اللهُ عنهُمَا(٢) ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ

---

(١) كذا الحديث في « القوت » (١/ ٢٩) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، وقد رواه مختصراً الطبراني في « الأوسط » (٦٤٤٥) ، ورواه ابن شاهين في « الترغيب » وقد ساق سنده الحافظ الزيلعي في « تخريج الأحاديث والآثار » (٣/ ٣٦٠) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه أبو الوليد يونس بن عبد الله الصفار في « كتاب الصلاة ») . « إتحاف » (٥/ ١٧٩) .

(٢) الذي في « القوت » (١/ ٣٠) : (أبو سلمة عن أبي هريرة) وأبو سلمة : هو =

عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَن صلَّىٰ ستَّ ركعاتٍ بعدَ المغربِ . . عدلَتْ لهُ عبادةَ سنةٍ كاملةٍ ، أوْ كأنَّهُ صلَّىٰ ليلةَ القدرِ »(١) .

وعنْ سعيدِ بن جبيرٍ ، عنْ ثوبانَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عكفَ نفسَهُ ما بينَ المغربِ والعشاءِ في مسجدِ جماعةٍ لمْ يتكلَّمْ إلاَّ بصلاةٍ أوْ قرآنٍ . . كانَ حقّاً على اللهِ تعالىٰ أنْ يبنيَ لهُ قصرينِ في الجنَّةِ ، مسيرةُ كلِّ قصرٍ منهما مئةُ عامٍ ، ويغرسَ لهُ بينَهُما غراساً لوْ طافَهُ أهلُ الدنيا . . لوسعَهُمْ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ركعَ عشرَ ركعاتٍ ما بينَ المغربِ والعشاءِ . . بنى اللهُ لهُ قصراً في الجنَّةِ » ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : إذاً تكثرَ

= عبد الله بن رافع الحضرمي المصري التابعي ، وهو ما صوَّبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ١٧٩) .

(١) رواه الترمذي (٤٣٥) ، وابن ماجه (١٣٧٤) بلفظ : « من صلىٰ بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن . . عدلن له عبادة ثنتي عشرة سنة » ، وزاد الحافظ العراقي : (وأما قوله : « كأنه صلىٰ ليلة القدر » . . فهو من قول كعب الأحبار ، رواه أبو الوليد الصفار والديلمي في « مسند الفردوس » من حديث ابن عباس : « من صلىٰ أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلِّم أحداً . . رفعت له في عليين ، وكان كمن أدرك ليلة القدر بالمسجد الأقصىٰ » وسنده ضعيف) . « إتحاف » (٥/ ١٧٩) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٣٠) ، ورواه أبو الفضل الزهري في « جزء يضمُّ حديثه » (٥٠٢) ، وقال ابن الملقن في « البدر المنير » (٥/ ٧٧٠) : (رواه الحاكم أبو أحمد في « كناه ») ، وقال الحافظ الزبيدي : (وبخط الحافظ ابن حجر : أسنده الديلمي من حديث ثوبان) . « إتحاف » (٥/ ١٧٩) .

قصورُنا يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « اللهُ أكثرُ وأفضلُ » أوْ قالَ : « أطيبُ »[1] .

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّى المغربَ في جماعةٍ ، ثمَّ صلَّىٰ بعدَها ركعتينِ لا يتكلَّمُ بشيءٍ فيما بينَ ذلكَ مِنْ أمرِ الدنيا ، ويقرأُ في الركعةِ الأولىٰ بـ(فاتحةِ الكتابِ) وعشرِ آياتٍ مِنْ أوَّلِ (سورةِ البقرةِ) وآيتينِ مِنْ وسطِها : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلىٰ آخرِ الآيةِ ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسَ عشرةَ مرَّةً ، ثمَّ يركعُ ويسجدُ ، فإذا قامَ في الرَّكعةِ الثانيةِ . . قرأَ (فاتحةَ الكتابِ) وآيةَ الكرسيِّ وآيتينِ بعدَها إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ، وثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ (سورةِ البقرةِ) ، من قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إلىٰ آخرِها ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) خمسَ عشرةَ مرَّةً » ووصفَ مِنْ ثوابِهِ في الحديثِ ما يخرجُ عنِ الحصرِ[2] .

وقالَ كُرْزُ بنُ وبرةَ وهوَ مِنَ الأبدالِ : قلتُ للخضرِ عليهِ السلامُ : علِّمني شيئاً أعملُهُ في كلِّ ليلةٍ ، فقالَ : إذا صليتَ المغربَ . . فقمْ إلىٰ وقتِ صلاةِ العشاءِ مصلِّياً مِنْ غيرِ أنْ تكلِّمَ أحداً ، وأقْبِلْ علىٰ صلاتِكَ التي أنتَ فيها ،

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٦٤) ، وهو في « القوت » (١/ ٣٠) .
(٢) كذا في « القوت » (١/ ٣٠) ، وسرد ما له من الجزاء طويلاً ، قال الحافظ العراقي : (رواه أبو الشيخ في « الثواب » من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير ، وهو ضعيف) . « إتحاف » (٥/ ١٨٠) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٢/ ١٢٣) .

وسلِّم منْ كلِّ ركعتينِ ، واقرأْ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) مرَّةً و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) ثلاثاً ، فإذا فرغتَ مِنْ صلاتِكَ . . انصرفْ إلىٰ منزلِكَ ولا تكلِّمْ أحداً ، وصلِّ ركعتينِ ، واقرأْ (فاتحةَ الكتابِ) ، و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) سبعَ مرَّاتٍ في كلِّ ركعةٍ ، ثمَّ اسجدْ بعدَ تسليمِكَ واستغفرِ اللهَ تعالىٰ سبعَ مرَّاتٍ ، وقلْ : (سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ) سبعَ مرَّاتٍ ، ثمَّ ارفعْ رأسَكَ مِنَ السجودِ واستوِ جالساً ، وارفعْ يديكَ وقلْ : (يا حيُّ يا قيُّومُ ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ ، يا إلـٰهَ الأوَّلينَ والآخرينَ ، يا رحمانَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما ، يا ربُّ يا ربُّ يا ربُّ ، يا أللهُ يا أللهُ يا أللهُ) ، ثمَّ قمْ وأنتَ رافعٌ يديكَ وادعُ بهـٰذا الدعاءِ ، ثمَّ نمْ حيثُ شئتَ مستقبلَ القبلةِ علىٰ يمينِكَ ، وصلِّ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأدمِ الصلاةَ عليهِ حتَّىٰ يذهبَ بكَ النومُ ، فقلتُ لهُ : أحبُّ أنْ تعلمَني ممَّنْ سمعتَ هـٰذا ، فقالَ : إنِّي حضرتُ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ عُلِّمَ هـٰذا الدعاءَ وأُوحيَ إليهِ بهِ ، فكنتُ عندَهُ ، وكانَ ذلكَ بمحضرٍ منِّي ، فتعلَّمتُهُ ممَّنْ علَّمَهُ إيَّاهُ[1] .

ويُقالُ : إنَّ هـٰذا الدعاءَ وهـٰذهِ الصلاةَ مَنْ داومَ عليهما بحسْنِ يقينٍ وصدْقِ نيَّةٍ . . رأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في منامِهِ قبلَ أنْ يخرجَ مِنَ الدنيا ، وقدْ فعلَ ذلكَ بعضُ الناسِ ، فرأىٰ أنَّهُ أُدخلَ الجنَّةَ ، ورأىٰ فيها

(١) قوت القلوب (١/ ٣٠) .

الأنبياءَ ، ورأىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكلَّمَهُ وعلَّمَهُ[1] .

وعلى الجملةِ : ما وردَ في فضْلِ إحياءِ ما بينَ العشاءينِ كثيرٌ ، حتَّىٰ قيلَ لعُبيدٍ مولىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : هلْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يأمرُ بصلاةٍ غيرِ المكتوبةِ ؟ قالَ : ما بينَ المغربِ والعشاءِ[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صلَّىٰ ما بينَ المغربِ والعشاءِ . . فذلكَ صلاةُ الأوَّابينَ »[3] .

وقالَ الأسودُ : ما أتيتُ ابنَ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ في هٰذا الوقتِ إلا ورأيتُهُ يصلِّي ، فسألتُهُ ، فقالَ : نعمْ ، هيَ ساعةُ الغفلةِ[4] .

وكانَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ يواظبُ عليها ويقولُ : هيَ ناشئةُ الليلِ[5] ، ويقولُ : فيها نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[6] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣١) .

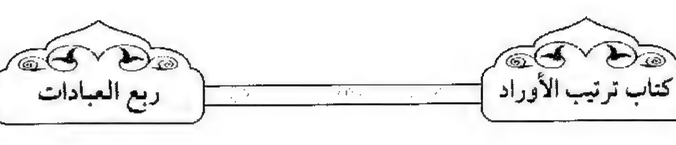
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٤٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ٢٧٤) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٥٩) عن ابن المنكدر مرسلاً .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٦١) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٣/ ٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٢٨٨) ، والأسود هو ابن يزيد النخعي ، والد عبد الرحمٰن .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٩٧٧) .

(٦) رواه أبو داوود (١٣٢١) ، والترمذي (٣١٩٦) .



وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري : قلتُ لأبي سليمانَ الدارانيِّ : أصومُ النهارَ وأتعشَّىٰ بينَ المغربِ والعشاءِ أحبُّ إليكَ أوْ أفطرُ بالنهارِ وأحيي ما بينَهما ؟ فقالَ : اجمعْ بينَهُما ، فقلتُ : إنْ لمْ يتيسَّرْ ؟ قال : أفطرْ وصلِّ ما بينَهُما[1] .

* * *

(١) قوت القلوب (١/ ٢٩) .

فضيلة قيام الليل

أمَّا مِنَ الآياتِ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ .

وقولُهُ سبحانَهُ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ . . . ﴾ الآيةَ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ، قيلَ : هيَ قيامُ الليلِ يستعانُ بالصبرِ عليهِ علىٰ مجاهدةِ النفسِ .

* * *

ومِنَ الأخبارِ :

قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يعقدُ الشيطانُ علىٰ قافيةِ أحدِكُمْ إذا هوَ نامَ ثلاثَ عقدٍ ، يضرِبُ مكانَ كلِّ عقدةٍ : عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقُدْ ، فإنِ استيقظَ

---

(١) فقد قرن الله سبحانه وتعالىٰ قوّام الليل برسوله صلى الله عليه وسلم وجمعهم معه في شكر المعاملة وحسن الجزاء فقال : ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ . « إتحاف » (٥/١٨٢) .

وذكرَ اللهَ عزَّ وجلَّ . . انحلَّتْ عقدةٌ ، فإنْ توضَّأَ . . انحلَّتْ عقدةٌ ، فإنْ صلَّىٰ . . انحلَّتْ عقدةٌ ، فأصبحَ نشيطاً طيِّبَ النَّفسِ ، وإلاَّ . . أصبحَ خبيثَ النفسِ كسلانَ »[١] .

وفي خبرٍ آخرَ : أنَّهُ ذُكِرَ عندَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ نامَ الليلَ كلَّهُ حتَّىٰ أصبحَ ، فقالَ : « ذاكَ رجلٌ بالَ الشيطانُ في أُذنِهِ »[٢] .

وفي الخبرِ : « إنَّ للشيطانِ سَعُوطاً ولَعُوقاً وذَرُوراً ، فإذا أسعطَ العبدَ . . ساءَ خلقُهُ ، وإذا ألعقَهُ . . ذَرِبَ لسانُهُ بالشرِّ ، وإذا ذرَّهُ . . نامَ الليلَ كلَّهُ حتَّىٰ يصبحَ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ركعتانِ يركعُهُما العبدُ في جوفِ الليلِ الآخرِ خيرٌ لهُ مِنَ الدنيا وما فيها ، ولولا أنْ أشقَّ علىٰ أمتي لفرضتُهما عليهِمْ »[٤] .

---

(١) رواه البخاري (١١٤٢) ، ومسلم (٧٧٦) .

(٢) رواه البخاري (١١٤٤) ، ومسلم (٧٧٤) .

(٣) كذا في « القوت » (١/ ٤٠) ، وقد رواه الطبراني في « الكبير » (٧/ ٢٠٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٣/ ٣٧٤) ، ولفظه : « إن للشيطان كحلاً ولعوقاً ، فإذا كحل الإنسان من كحله . . نامت عيناه عن الذكر ، وإذا لعَّقه من لعوقه . . ذرب لسانه بالشرِّ » ، ونحوه عند البيهقي في « الشعب » (٢٨٣٧) ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ١٨٥) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٨٩) ، وابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٩٤) عن حسان بن عطية مرسلاً ، ورفعه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٤٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وفي الصحيحِ عنْ جابرٍ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ مِنَ الليلِ ساعةً لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ تعالىٰ خيراً إلاَّ أعطاهُ إيَّاهُ » ، وفي روايةٍ : « يسألُ اللهَ تعالىٰ خيراً مِنَ الدنيا والآخرةِ وذلكَ كلَّ ليلةٍ »(١) .

وقالَ المغيرةُ بنُ شعبةَ : قامَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ تفطرَتْ قدماهُ ، فقيلَ لهُ : أما قدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ منْ ذنبكَ وما تأخَّرَ ؟ فقالَ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً »(٢) ، ويظهرُ مِنْ معناهُ : أنَّ ذلكَ كنايةٌ عنْ زيادةِ الرتبةِ ؛ فإنَّ الشكرَ سببُ المزيدِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أبا هريرةَ ؛ أتريدُ أنْ تكونَ رحمةُ اللهِ عليكَ حيّاً وميتاً ومقبوراً ومبعوثاً ؟ قمْ مِنَ الليلِ فصلِّ وأنتَ تريدُ رضا ربِّكَ ، يا أبا هريرةَ ؛ صلِّ في زوايا بيتِكَ . يكنْ نورُ بيتِكَ في السماءِ كنورِ الكواكبِ والنجمِ عندَ أهلِ الدنيا »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بقيامِ الليلِ ؛ فإنَّهُ دأبُ الصالحينَ

---

(١) رواه مسلم (٧٥٧) ، وأحمد في « المسند » (٣/٣١٣) ، وسقط الحديث من (أ) .

(٢) رواه البخاري (١١٣٠) ، ومسلم (٢٨١٩) .

(٣) هـٰذا قطعة مما يسمىٰ بوصية أبي هريرة .

قبلَكُمْ ، وإنَّ قيامَ الليلِ قربةٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتكفيرٌ للذنوبِ ، ومطردةٌ للداءِ عنِ الجسدِ ، ومنهاةٌ عنِ الإثمِ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ امرئٍ تكونُ لهُ صلاةٌ بالليلِ فغلبَهُ عليها النومُ . . إلا كُتبَ لهُ أجرُ صلاتِهِ ، وكانَ نومُهُ صدقةً عليهِ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي ذرٍّ : « لوْ أردتَ سفراً . . أعددتَ لهُ عدَّةً ، فكيفَ سفرُ طريقِ القيامةِ ؟! ألا أنبئُكَ يا أبا ذرٍّ بما ينفعُكَ ذلكَ اليومَ ؟ » قالَ : بلىٰ بأبي أنتَ وأمِّي ، قالَ : « صمْ يوماً شديدَ الحرِّ ليومِ النشورِ ، وصلِّ ركعتينِ في ظلمةِ الليلِ لوحشةِ القبورِ ، وحجَّ حجَّةً لعظائمِ الأمورِ ، وتصدَّقْ بصدقةٍ علىٰ مسكينٍ ، أوْ كلمةَ حقٍّ تقولُها ، أوْ كلمةَ شرٍّ تسكتُ عنها »[٣] .

ورُوي أنَّهُ كانَ علىٰ عهدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ إذا أخذَ الناسُ مضاجعَهُمْ وهدأتِ العيونُ . . قامَ يصلِّي ويقرأُ القرآنَ ويقولُ : يا ربَّ النارِ ؛ أجرني منها ، فذُكِرَ ذلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « إذا كانَ ذلكَ . . فآذنوني » فأتاهُ ، فاستمعَ ، فلما أصبحَ . . قالَ : « يا فلانُ ؛ هلاَّ

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٩) .
(٢) رواه أبو داوود (١٣١٤) ، والنسائي (٣/ ٢٥٧) ، ونحوه ابن ماجه (١٣٤٤) .
(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٨٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٥) من طريقه موقوفاً علىٰ أبي ذر ، ورفعه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٠) .

سألتَ الجنَّةَ » ، قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنِّي لستُ هناكَ ، ولا يبلغُ عملي ذلكَ ، فلمْ يلبَثْ إلا يسيراً حتَّىٰ نزلَ جبريلُ عليهِ السلامُ وقالَ : أخبرْ فلاناً أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدْ أجارَهُ مِنَ النارِ وأدخلَهُ الجنَّةَ[١] .

ويُروىٰ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ قالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمَ الرجلُ ابنُ عمرَ لوْ كانَ يصلِّي مِنَ الليلِ » ، فأخبرَهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ ، فكانَ يداومُ بعدَهُ علىٰ قيامِ الليلِ[٢] ، قالَ نافعٌ : كانَ يصلِّي بالليلِ ثمَّ يقولُ : يا نافعُ ؛ أَسْحَرْنا ؟ فأقولُ : لا ، فيقومُ لصلاتِهِ ، ثمَّ يقولُ : يا نافعُ ؛ أسحرْنا ؟ فأقولُ : نعمْ ، فيقعدُ ، فيستغفرُ اللهَ تعالىٰ حتَّىٰ يطلعَ الفجرُ[٣] .

وقالَ عليُّ بنُ أبي الحرِّ : شبعَ يحيىٰ بنُ زكريا عليهما السلامُ مِنْ خبزِ شعيرٍ ، فنامَ عنْ وِردِهِ حتَّىٰ أصبحَ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا يحيىٰ ؛ أوجدتَ داراً خيراً لكَ مِنْ داري أمْ وجدتَ جواراً خيراً لكَ مِنْ جواري ؟! فوعزَّتي وجلالي يا يحيىٰ ؛ لوِ اطلعتَ إلى الفردوسِ اطلاعةً . . لذابَ جسمُكَ ، ولزهقتْ نفسُكَ اشتياقاً ، ولوِ اطلعتَ إلىٰ جهنَّمَ اطلاعةً . . لذابَ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أقف له علىٰ أصل) . « إتحاف » (٥/ ١٨٧) .
(٢) رواه البخاري (١١٢٢) ، ومسلم (٢٤٧٩) وليس فيه ذكر جبريل عليه السلام .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٠٣) ، وأبو الحسين الطيوري في « الطيوريات » (٦٩٣) .

شحمُكَ ، ولبكيتَ الصديدَ بعدَ الدموعِ ، ولبستَ الحديدَ بعدَ المسوحِ[1] .

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلاناً يصلِّي بالليلِ ، فإذا أصبحَ . . سرقَ ، فقالَ : « سينهاهُ ما تقولُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : رحمَ اللهُ رجلاً قامَ مِنَ الليلِ فصلَّىٰ ، ثم أيقظ امرأتَهُ فصلَّتْ ، فإنْ أبتْ . . نضحَ في وجهِها الماءَ ، ورحمَ اللهُ امرأةً قامتْ مِنَ الليلِ فصلَّتْ ، ثمَّ أيقظتْ زوجَها فصلَّىٰ ، فإنْ أبىٰ . . نضحَتْ في وجهِهِ الماءَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ استيقظَ مِنَ الليلِ وأيقظَ امرأتَهُ فصلَّيا ركعتينِ . . كُتِبا مِنَ الذاكرينَ اللهَ كثيراً والذاكراتِ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أفضلُ الصلاةِ بعدَ المكتوبةِ صلاةُ الليلِ »[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٣٤) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٤٤٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٥٦٠) .

(٣) رواه أبو داوود (١٣٠٨) ، والنسائي (٣/ ٢٠٥) ، وابن ماجه (١٣٢٦) .

(٤) رواه أبو داوود (١٤٥١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٣١٢) ، وابن ماجه (١٣٣٥) .

(٥) رواه مسلم (١١٦٣) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ نامَ عنْ حزبِهِ أوْ عنْ شيءٍ منهُ بالليلِ فقرأَهُ بينَ صلاةِ الفجرِ والظهرِ . . كُتِبَ لهُ كأنَّما قرأَهُ مِنَ الليلِ »(١) .

* * *

الآثارُ :

يُروىٰ أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يمرُّ بالآيةِ في وِردِهِ بالليلِ فيسقطُ ، حتَّىٰ يُعادُ منها أياماً كثيرةً كما يُعادُ المريضُ(٢) .

وكانَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذا هدأتِ العيونُ . . قامَ ، فيُسمعُ لهُ دويٌّ كدويِّ النحلِ حتَّىٰ يصبحَ(٣) .

ويقالُ : إنَّ سفيانَ الثوريَّ رحمَهُ اللهُ شبعَ ليلةً فقالَ : (إنَّ الحمارَ إذا زيدَ في علفِهِ . . زيدَ في عملِهِ) ، فقامَ تلكَ الليلةَ حتَّىٰ أصبحَ(٤) .

وكانَ طاووسٌ رحمهُ اللهُ إذا اضطجعَ علىٰ فراشِهِ . . يتقلَّىٰ عليهِ كما تتقلَّى

---

(١) رواه مسلم (٧٤٧) .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٩١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/٣٠٩) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/٣١٥) .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٦١) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٦٤) .

الحبَّةُ في المقلاةِ ، ثمَّ يثبُ ويصلِّي إلى الصباحِ ، ثمَّ يقولُ : (طَيَّرَ ذكرُ جهنَّمَ نومَ العابدينَ)[١] .

وقالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ : ما نعلمُ عملاً أشدَّ مِنْ مكابدةِ الليلِ ونفقةِ هـٰذا المالِ[٢] ، فقيلَ لهُ : ما بالُ المتهجِّدينَ مِنْ أحسنِ الناسِ وجوهاً ؟ فقالَ : إنَّهُمْ خلَوا بالرحمـٰنِ ، فألبسَهُمْ نوراً مِنْ نورِهِ[٣] .

وقدِمَ بعضُ الصالحينَ مِنْ سفرٍ ، فمُهِّدَ لهُ فراشٌ ، فنامَ عليهِ حتَّىٰ فاتَهُ وِردُهُ ، فحلفَ ألاَّ ينامَ بَعدَها علىٰ فراشٍ أبداً[٤] .

وكانَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ رحمَهُ اللهُ إذا جَنَّ الليلُ . . يأتي فراشَهُ ، فيمرُّ يدَهُ عليهِ ويقولُ : إنَّكَ لليِّنٌ ، وواللهِ ؛ إنَّ فِي الجنَّةِ لألينَ منكَ ، ولا يزالُ يصلِّي الليلَ كلَّهُ[٥] .

وقالَ الفضيلُ رحمَهُ اللهُ : (إنِّي لأستقبلُ الليلَ مِنْ أوَّلِهِ ، فيهوِّلني طولُهُ ، فأفتتحُ القرآنَ ، فأصبحُ وما قضيتُ نهمتي)[٦] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٧) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٣٧) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧٩) .
(٥) وقد روى ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١١٨) صبره علىٰ قيام الليل .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٨٨) عن محمد بن المنكدر قاله لأمه .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ الرجلَ ليذنبُ الذنبَ فيحرمُ بهِ قيامَ الليلِ)[١] .

وقالَ الفضيلُ : (إذا لمْ تقدرْ على قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ . . فاعلمْ أنَّكَ محرومٌ وقدْ كثرَتْ خطيئتُكَ)[٢] .

وكانَ صلةُ بنُ أشيمَ رحمهُ اللهُ يصلِّي الليلَ كلَّهُ ، فإذا كانَ في السحرِ . . قالَ : (إلـٰهي ؛ ليسَ مثلي يطلبُ الجنَّةَ ، ولكنْ أجرني برحمتِكَ مِنَ النارِ)[٣] .

وقالَ رجلٌ لبعضِ الحكماءِ : إنِّي لأضعفُ عَنْ قيامِ الليلِ ، فقالَ لهُ : يا أخي ؛ لا تعصِ اللهَ تعالىٰ بالنهارِ ولا تقمْ بالليلِ[٤] .

وكانَ للحسنِ بنِ صالحٍ رحمهُ اللهُ جاريةٌ ، فباعَها مِنْ قومٍ ، فلمَّا كانَ في جوفِ الليلِ . . قامتِ الجاريةُ فقالَت : يا أهلَ الدارِ ؛ الصلاةَ الصلاةَ ، فقالوا : أصبحنا ، أطلع الفجرُ ؟! فقالتْ : وما تصلونَ إلا المكتوبةَ ؟! فقالوا : لا ، فرجعتْ إلى الحسنِ فقالَت : يا مولايَ ؛ بعتني مِنْ قومٍ لا يصلُّونَ بالليلِ ، ردَّني ، فردَّها[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٣٦٣) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٩٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٤٠) .
(٤) أورد نحوه المروزي في « قيام الليل » (١/ ٦) .
(٥) أوردها العجلي في « الثقات » (١/ ٢٩٥) .

وقالَ الربيعُ : (بتُّ في منزلِ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ لياليَ كثيرةً ، فلمْ يكنْ ينامُ منَ الليلِ إلا أيسرَهُ)(١) .

وقالَ أبو الجويريةِ : (لقدْ صحبتُ أبا حنيفةَ رحمَهُ اللهُ ستَّةَ أشهرٍ ، فما فيها ليلةٌ وضعَ جنبَهُ على الأرضِ)(٢) .

وكانَ أبو حنيفةَ يحيي نصفَ الليلِ ، فمرَّ بقومٍ ، فقالوا : إنَّ هـٰذا يحيي الليلَ كلَّهُ ، فقالَ : إنِّي أستحيي أنْ أُوصفَ بما لا أفعلُ ، فكانَ بعدَ ذلكَ يحيي الليلَ كلَّهُ(٣) ، ويُروىٰ أنَّهُ ما كانَ لهُ فراشٌ بالليلِ(٤) .

ويقالُ : إنَّ مالكَ بنَ دينارٍ رضيَ اللهُ عنهُ قامَ يردِّدُ هـٰذهِ الآيةَ ليلتَهُ حتَّىٰ أصبحَ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ . . . ﴾ الآيةَ(٥) .

وقالَ المغيرةُ بنُ حبيبٍ : رمقتُ مالكَ بنَ دينارٍ ، فتوضَّأَ بعدَ العشاءِ ، ثمَّ قامَ إلىٰ مصلاَّهُ ، فقبضَ علىٰ لحيتِهِ ، فخنقتْهُ العبرةُ ، فجعلَ يقولُ : اللهمَّ ؛ حرِّمْ شيبةَ مالكٍ على النارِ ، إلـٰهي ؛ قدْ علمتَ ساكنَ الجنةِ مِنْ

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٧) .
(٢) رواه أبو نعيم في « مسند أبي حنيفة » (ص٢١) .
(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٣٥٣) .
(٤) أورده الذهبي في « مناقب أبي حنيفة وصاحبيه » (ص ٢١) .
(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٥٠) عن تميم الداري رضي الله عنه .

ساكنِ النارِ ، فأيُّ الرجلينِ مالكٌ ؟ وأيُّ الدارينِ دارُ مالكٍ ؟ فلمْ يزلْ ذلكَ قولَهُ حتَّىٰ طلعَ الفجرُ[1] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : سهوتُ ليلةً عنْ وِردي ونمتُ ، فإذا أنا في المنامِ بجاريةٍ كأحسنِ ما يكونُ ، وفي يدِها رقعةٌ ، فقالتْ لي : أتحسنُ أنْ تقرأَ ؟ فقلتُ : نعمْ ، فدفعتْ إليَّ الرقعةَ ، فإذا فيها[2] : [من الوافر]

أَأَلْهَتْكَ ٱللَّذائِذُ وَٱلأَماني	عَنِ ٱلْبِيضِ ٱلأَوانِسِ فِي ٱلْجِنانِ
تَعِيشُ مُخَلَّداً لا مَوْتَ فِيها	وَتَلْهُو فِي ٱلْجِنَانِ مَعَ ٱلْحِسانِ
تنَبَّهْ مِنْ مَنامِكَ إنَّ خَيْراً	مِنَ ٱلنَّوْمِ ٱلتَّهَجُّدُ بِٱلْقُرانِ

وقيلَ : حَجَّ مسروقٌ ، فما باتَ ليلةً إلا ساجداً[3] .

ويُروىٰ عنْ أزهرَ بنِ مغيثٍ وكانَ مِنَ القوَّامينَ أنَّهُ قالَ : رأيتُ في المنامِ امرأةً لا تشبهُ نساءَ أهلِ الدنيا ، فقلْتُ لها : مَنْ أنتِ ؟ فقالتْ : حوراءُ ،

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٨٧٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦١) بنحوه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٥١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٢٤) عن بعض العابدين ، والخبر في « الحلية » (١٠/ ١٥) عن أبي سليمان الداراني ، وهي عند الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٤/ ٩٩) عن الحسن البصري .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧٥) ، وابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩٥) .

فقلتُ : زوجيني نفسَكِ ، فقالتِ : اخطبْني إلىٰ سيِّدي وأمهرْني ، فقلتُ : وما مهرُكِ ؟ فقالتْ : طولُ التهجُّدِ[1] .

وقالَ يوسفُ بنُ مهرانَ : بلغني أنَّ تحتَ العرشِ ملكاً في صورةِ ديكٍ ، براثنُهُ مِنْ لؤلؤٍ وصِئْصِئتُهُ مِنْ زبرجدٍ أخضرَ ، فإذا مضىٰ ثلثُ الليلِ الأوَّلُ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقمِ القائمونَ ، فإذا مضىٰ نصفُ الليلِ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقمِ المتهجِّدونَ ، فإذا مضىٰ ثلثا الليلِ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقم المصلُّونَ ، فإذا طلعَ الفجرُ . . ضربَ بجناحيهِ وزقا وقالَ : ليقمِ الغافلونَ وعليهِمْ أوزارُهُمْ[2] .

ويُقالُ : إنَّ وهبَ بنَ منبِّهٍ اليمانيَّ رحمهُ اللهُ ما وضعَ جنبَهُ إلى الأرضِ ثلاثينَ سنةً ، وكانَ يقولُ : لأنْ أرىٰ في بيتي شيطاناً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أرىٰ وسادةً ؛ لأنَّها تدعو إلى النومِ ، وكانتْ لهُ مسورةٌ مِنْ أدمٍ إذا غلبَهُ النومُ . . وضعَ صدرَهُ عليها وخفقَ خفقاتٍ ، ثمَّ يفزعُ إلى القيامِ[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ ربَّ العزَّةِ جلَّ جلالُهُ في النومِ ، فسمعتُهُ يقولُ : وعزَّتي وجلالي ؛ لأكرمَنَّ مثوىٰ سليمانَ التيميِّ ؛ فإنَّهُ صلَّىٰ لي الغداةَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٥٥) .

(٢) رواه أبو الشيخ في « العظمة » (٣/ ١٠١٠) ، وأورده صاحب « القوت » (١/ ٣٦) ، **والصِّئصِئة** : أعلى القفا ، أو قرن يكون في رجله ، وقد روى الحافظ الزبيدي حديث الديك الذي تحت العرش مسلسلاً في « إتحافه » (٥/ ١٩١) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٣٧) .

بوضوءِ العشاءِ الآخرةِ أربعينَ سنةً[1] ، ويُقالُ : كانَ مذهبُهُ أنَّ النومَ إذا خامرَ القلبَ . . بطلَ الوضوءُ .

ورُوي في بعضِ الكتبِ القديمةِ عنِ اللهِ تعالىٰ أنَّهُ قالَ : إنَّ عبدي الذي هوَ عبدي حقاً الذي لا ينتظرُ بقيامِهِ صياحَ الديكِ[2] .

* * *

(١) القائل هو رقبة بن مصقلة ، رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٥٢) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٣٨) .

بيان الأسباب التي بها يتيسّر قيام الليل

اعلمْ : أنَّ قيامَ الليلِ عسيرٌ على الخلقِ إلاَّ علىٰ مَنْ وُفِّقَ للقيامِ بشروطِهِ الميسِّرةِ لهُ ظاهراً وباطناً .

فأمَّا الظاهرةُ . . فأربعةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : ألاَّ يكثرَ الأكلَ ، فيكثرَ الشربَ ، فيغلبَهُ النومُ ويثقلَ عليهِ القيامُ .

كانَ بعضُ الشيوخِ يقفُ على المائدةِ كلَّ ليلةٍ ويقولُ : (معاشرَ المريدينَ ؛ لا تأكلوا كثيراً ، فتشربوا كثيراً ؛ فترقُدوا كثيراً ، فتتحسَّروا عندَ الموتِ كثيراً)[1] ، وهٰذا هوَ الأصلُ الكبيرُ ، وهوَ تخفيفُ المعدةِ عنْ ثقلِ الطعامِ[2] .

الثاني : ألاَّ يتعبَ نفسَهُ بالنهارِ في الأعمالِ التي تعيا بها الجوارحُ ، وتضعفُ بها الأعصابُ ، فإنَّ ذلكَ أيضاً مجلبةٌ للنومِ .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٥٢٨) في نفر من بني إسرائيل ، وهو في « القوت » (١/ ٩٨) ، وفيه : (فتخسروا) .

(٢) ويتبع هٰذا السبب الظاهر سبب آخر باطن ، وهو أن يتناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن ، فإنه يعين علىٰ قيام الليل ؛ لأن بالذكر يذهب داؤه ، فإن وجد للطعام ثقلاً في المعدة . . فينبغي أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر ، فلا ينام حتىٰ يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار . « إتحاف » (٥/ ١٩٢) .

الثالثُ : ألاَّ يتركَ القيلولةَ بالنهارِ ؛ فإنَّها سنَّةٌ للاستعانةِ علىٰ قيامِ الليلِ .

الرابعُ : ألاَّ يحتقبَ الأوزارَ بالنهارِ ، فإنَّ ذلكَ يقسِّي القلبَ ويحولُ بينَهُ وبينَ أسبابِ الرحمةِ .

قالَ رجلٌ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ إنِّي أبيتُ معافىً وأحبُّ قيامَ الليلِ ، وأعدُّ طهوري ، فما بالي لا أقومُ ؟ فقالَ : ذنوبُكَ قيَّدَتْكَ[1] .

وكانَ الحسنُ رحمهُ اللهُ إذا دخلَ السوقَ فسمعَ لغطَهُمْ ولغوَهُمْ . . يقولُ : أظنُّ أنَّ ليلَ هؤلاءِ ليلُ سوءٍ ؛ فإنَّهُمْ لا يقيلونَ[2] .

وقالَ الثوريُّ : حرمتُ قيامَ الليلِ خمسةَ أشهرٍ بذنبٍ أذنبتُهُ ، قيلَ : وما ذلكَ الذنبُ ؟ قالَ : رأيتُ رجلاً بكىٰ ، فقلتُ في نفسي : هـٰذا مراءٍ[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : دخلتُ علىٰ كرزِ بنِ وبرةَ وهوَ يبكي ، فقلتُ : أتاكَ نعيُ بعضِ أهلِكَ ؟ فقالَ : أشدُّ ، فقلتُ : وجعٌ يؤلمُكَ ؟ قالَ : أشدُّ ، قلتُ : فما ذاكَ ؟ قالَ : بابي مغلقٌ ، وستري مسبلٌ ، ولمْ أقرأْ حِزبيَ البارحةَ ، وما ذاكَ إلاَّ بذنبٍ أحدثتُهُ[4] .

وهـٰذا لأنَّ الخيرَ يدعو إلى الخيرِ ، والشرَّ يدعو إلى الشرِّ ، والقليلُ منْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٩) ، وسبق نحوه عنه قريباً .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٥٣٥) ، وهو في « القوت » (١/ ٣٩) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٧) ، وهو في « القوت » (١/ ٣٩) بتمامه .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٧٩) ، وهو في « القوت » (١/ ٣٩) .

كلِّ واحدٍ منهما يجرُّ إلى الكثيرِ ؛ ولذلكَ قالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ : (لا تفوتُ أحداً صلاةُ جماعةٍ إلا بذنبٍ)(١) .

وكانَ يقولُ : (الاحتلامُ بالليلِ عقوبةٌ ، والجنابةُ البعدُ)(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (إذا صمتَ يا مسكينُ . . فانظرْ عندَ مَنْ تفطرُ ، وعلىٰ أيِّ شيءٍ تفطرُ ؛ فإنَّ العبدَ ليأكلُ الأكلةَ فينقلبُ قلبُهُ عمَّا كانَ عليهِ ، ولا يعودُ إلىٰ حالِهِ الأوَّلِ)(٣) .

فالذنوبُ كلُّها تورثُ قساوةَ القلبِ ، وتمنعُ مِنْ قيامِ الليلِ ، وأخصُّها بالتأثيرِ تناولُ الحرامِ ، وتؤثِّرُ اللقمةُ الحلالُ في تصفيةِ القلبِ وتحريكِهِ إلى الخيرِ ما لا يؤثِّرُ غيرُها ، ويعرفُ ذلكَ أهلُ المراقبةِ للقلوبِ بالتجربةِ بعدَ شهادةِ الشرعِ لهُ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (كمْ مِنْ أكلةٍ منعَتْ قيامَ ليلةٍ ، وكمْ مِنْ نظرةٍ منعَتْ قراءةَ سورةٍ ، وإنَّ العبدَ ليأكُلُ أكلةً أوْ يفعلُ فعلةً . . فيحرمُ بها قيامَ سنةٍ)(٤) .

وكما أنَّ الصلاةَ تنهىٰ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ . . فكذلكَ الفحشاءُ تنهىٰ عنِ الصلاةِ وسائرِ الخيراتِ .

وقالَ بعضُ السجَّانينَ بدِينَوَرَ : بقيتُ سجَّاناً نيفاً وثلاثينَ سنةً أسألُ عنْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٠) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٤٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٤٠) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٤٠) .

كلِّ مأخوذٍ بالليلِ أنَّهُ هلْ صلَّى العشاءَ في جماعةٍ ؟ فكانوا يقولونَ : لا[١] .

وهـٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ بركةَ الجماعةِ تنهىٰ عنْ تعاطي الفحشاءِ والمنكرِ[٢] .

* * *

وأمَّا الميسراتُ الباطنةُ . . فأربعةُ أمورٍ :

الأوَّلُ : سلامةُ القلبِ عنِ الحقدِ علىٰ أحدٍ مِنَ المسلمينَ ، وعنِ البدعِ ، وعنْ فضولِ همومِ الدنيا ، فالمستغرقُ الهمِّ بتدبيرِ الدنيا لا يتيسَّرُ لهُ القيامُ ، وإنْ قامَ . . فلا يتفكَّرُ في صلاتِهِ إلا في مهمَّاتِهِ ، ولا يجولُ إلا في وساوسِهِ ، وفي مثلِ ذلكَ يُقالُ[٣] : [من الطويل]

يخبِّرُني البوابُ أنَّكَ نائِمٌ ... وَأَنْتَ إذا ٱسْتَيْقَظْتَ أَيْضاً فَنائِمُ

الثاني : خوفٌ غالبٌ يلزمُ القلبَ معَ قصرِ الأملِ ؛ فإنَّهُ إذا تفكَّرَ في أهوالِ الآخرةِ ودركاتِ جهنَّمَ . . طارَ نومُهُ ، وعظمَ حذرُهُ ؛ كما قالَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٤٠) .

(٢) وذكر الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٥/ ١٩٤) زيادة مُيسِّرات ، تتلخص في الوضوء قبل المغرب واستقبال الليل علىٰ طهارة مستقبل القبلة وهو يذكر الله تعالىٰ ، وإحياء ما بين العشاءين ، وترك الحديث بعد العشاء ، وتجديد الوضوء والطهارة بعده كذلك ، وذكر الله تعالىٰ والصلاة إلىٰ أن ينام ، وتغيير العادة بهيئة النوم .

(٣) البيت لمحمد بن عمرو الحربي (ت٢٤٠هـ) . انظر « معجم الشعراء » للمرزباني (ص ٤٦٦) .

طاووسٌ : (إنَّ ذكرَ جهنَّمَ طيَّرَ نومَ العابدينَ)[١] ، وكما حُكِيَ أنَّ غلاماً بالبصرةِ اسمُهُ صهيبٌ ، كانَ يقومُ الليلَ كلَّهُ ، فقالتْ لهُ سيِّدتُهُ : إنَّ قيامَكَ بالليلِ يضرُّ بعملِكَ بالنهارِ ، فقالَ : إنَّ صهيباً إذا ذكرَ النارَ . . لا يأتيهِ النومُ .

وقيلَ لغلامٍ آخرَ وهوَ يقومُ كلَّ الليلِ مثلَ ذلكَ ، فقالَ : إذا ذكرتُ النارَ . . اشتدَّ خوفي ، وإذا ذكرتُ الجنَّةَ . . اشتدَّ شوقي ، فلا أقدرُ أنْ أنامَ[٢] .

ولذي النونِ المصريِّ رحمهُ اللهُ[٣] : [من الكامل]

مَنَعَ ٱلْقُرَانُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ … مُقَلَ ٱلْعُيُونِ بِلَيْلِها أَنْ تَهْجَعا
فَهِمُوا عَنِ ٱلْمَلِكِ ٱلْجَلِيلِ كَلامَهُ … فَرِقابُهُمْ ذَلَّتْ إِلَيْهِ تَخَضُّعا

وأنشدوا أيضاً : [من الخفيف]

يا طَوِيلَ ٱلرُّقادِ وَٱلْغَفَلاتِ … كَثْرَةُ ٱلنَّوْمِ تُورِثُ ٱلْحَسَراتِ
إِنَّ فِي ٱلْقَبْرِ إِنْ نَزَلْتَ إِلَيْهِ … لَرُقاداً يَطُولُ بَعْدَ ٱلْمَماتِ
وَمِهاداً مُمَهَّداً لَكَ فِيهِ … بِذُنُوبٍ عَمِلْتَ أَوْ حَسَناتِ
أَأَمِنْتَ ٱلْبَياتَ مِنْ مَلَكِ ٱلْمَوْ … تِ وكَمْ نالَ آمِناً بِبَياتِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٩١) .
(٢) وهذا الغلام كان لرباح القيسي ، وقد أورد الخبر أبو حيان التوحيدي في « البصائر والذخائر » (٨/٨٨) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/١٣) .

وقالَ ابنُ المباركِ رحمةُ اللهِ عليهِ[1] : [من الوافر]

إِذا مـا ٱللَّيْـلُ أَظْلَـمَ كـابَـدُوهُ　　فَيُسْفِـرُ عَنْهُـمْ وَهُـمْ رُكُـوعُ
أَطـارَ ٱلْخَـوْفُ نَـوْمَهُـمْ فَقـامُـوا　　وَأَهْلُ ٱلأَمْنِ فِي ٱلدُّنْيا هُجُوعُ

الثالثُ : أنْ يعرفَ فضلَ قيامِ الليلِ بسماعِ هـٰذهِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ التي أوردناها ؛ حتَّىٰ يستحكمَ بذلكَ رجاؤُهُ وشوقُهُ إلىٰ ثوابِهِ ، فيهيِّجهُ الشوقُ لطلبِ المزيدِ والرغبةِ في درجاتِ الجنانِ ؛ كما حُكِيَ أنَّ بعضَ الصالحينَ رجعَ مِنْ غزاةٍ غزاها ، فلمَّا كانَ الليلُ . . مهدَتِ امرأتُهُ فراشَها وجلستْ تنتظرُهُ ، فدخلَ المسجدَ ولمْ يزلْ يصلِّي حتَّىٰ أصبحَ ، فقالَتْ زوجتُهُ : كنَّا ننتظرُكَ مدَّةً ، فلمَّا قدمتَ . . صلَّيْتَ إلى الصبحِ ! قالَ : واللهِ ؛ إنِّي كنتُ أتفكَّرُ في حوراءَ مِنْ حورِ الجنَّةِ طولَ الليلِ ، فنسيتُ الزوجةَ والمنزلَ ، فقمتُ طولَ ليلتي شوقاً إليها .

الرابعُ : وهوَ أشرفُ البواعثِ ، الحبُّ للهِ تعالىٰ ، وقوَّةُ الإيمانِ بأنَّهُ في قيامِهِ لا يتكلَّمُ بحرفٍ إلا وهوَ مناجٍ بهِ ربَّهُ ، وهوَ مطَّلعٌ عليهِ معَ مشاهدةِ ما يخطرُ بقلبِهِ ، وأنَّ تلكَ الخطراتِ مِنَ اللهِ تعالىٰ خطابٌ معهُ ، فإذا أحبَّ اللهَ تعالىٰ . . أحبَّ ـ لا محالةَ ـ الخلوةَ بهِ ، وتلذَّذَ بالمناجاةِ ، فتحملُهُ لذَّةُ المناجاةِ بالحبيبِ علىٰ طولِ القيامِ .

* * *

---

(١) ديوان عبد الله بن المبارك (ص٥٤) .

ولا ينبغي أنْ يستبعدَ هـٰذهِ اللذَّةَ ؛ إذْ يشهدُ لها العقلُ والنقلُ :

فأمَّا العقلُ : فليعتبرْ حالَ المحبِّ لشخصٍ بسببِ جمالِهِ ، أوْ لمَلِكٍ بسببِ إنعامِهِ وأموالِهِ . . أنَّهُ كيفَ يتلذَّذُ بالخلوةِ بهِ ومناجاتِهِ حتَّىٰ لا يأتيهِ النومُ طولَ ليلِهِ ؟!

* * *

فإنْ قلتَ : إنَّ الجميلَ يُتلذَّذُ بالنظرِ إليهِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يُرى ؟

فاعلمْ : أنَّهُ لو كانَ الجميلُ المحبوبُ وراءَ سترٍ ، أوْ كانَ في بيتٍ مظلمٍ . . لكانَ المحبُّ يتلذَّذُ بمجاورتِهِ المجرَّدَةِ دونَ النظرِ ودونَ الطمعِ في أمرٍ آخرَ سواهُ ، وكانَ يتنعَّمُ بإظهارِ حبِّهِ إليهِ وذكرِهِ بلسانِهِ بمسمعٍ منهُ ، وإنْ كانَ ذلكَ أيضاً معلوماً عندَهُ .

* * *

فإنْ قلتَ : إنَّهُ ينتظرُ جوابَهُ ، فيتلذَّذُ بسماعِ جوابِهِ ، وليسَ يسمعُ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟

فاعلمْ : أنَّهُ وإنْ كانَ يعلمُ أنَّهُ لا يجيبُهُ ويسكتُ عنهُ . . فقدْ بقيتْ لهُ أيضاً لذَّةٌ في عرْضِ أحوالِهِ عليهِ ، ورفعِ سريرتِهِ إليهِ ، كيفَ والموقنُ يسمعُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كلَّ ما يردُ علىٰ خاطرِهِ في أثناءِ مناجاتِهِ ، فيتلذَّذُ بهِ ، وكذا الذي يخلو بالمَلِكِ ويعرضُ عليهِ حاجاتِهِ في جنحِ الليلِ يتلذَّذُ بهِ في رجاءِ إنعامِهِ ،

والرجاءُ في حقِّ اللهِ تعالىٰ أصدقُ ، وما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقىٰ وأنفعُ ممَّا عندَ غيرِهِ ، فكيفَ لا يُتلذَّذُ بعرْضِ الحاجاتِ عليهِ في الخلواتِ ؟!

* * *

وأمَّا النقلُ : فيشهدُ لهُ أحوالُ قُوَّامِ الليلِ في تلذُّذِهِمْ بقيامِ الليلِ ، واستقصارِهِمْ لهُ كما يستقصِرُ المحبُّ ليلةَ وصالِ الحبيبِ ، حتَّىٰ قيلَ لبعضِهِمْ : كيفَ أنتَ والليلُ ؟ قال : **ما راعيتُهُ قطُّ ، يريني وجهَهُ ثمَّ ينصرفُ ، وما تأمَّلْتُهُ بعدُ**[1] .

وقالَ آخرُ : (أنا والليلُ فرسا رهانٍ ، مرَّةً يسبقني إلى الفجرِ ، ومرَّةً يقطعني عنِ الفكرِ)[2] .

وقيلَ لبعضِهِمْ : كيفَ الليلُ عليكَ ؟ فقالَ : ساعةٌ أنا فيها بينَ حالينِ : أفرحُ بظلمتِهِ إذا جاءَ ، وأغتمُّ بفجرِهِ إذا طلعَ ، ما تمَّ فرحي بهِ قطُّ[3] .

وقالَ عليُّ بنُ بكَّارٍ : (منذُ أربعينَ سنةً ما أحزنَني شيءٌ سوىٰ طلوعِ الفجرِ)[4] .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ : (إذا غربَتِ الشمسُ . . فرحتُ بالظلامِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٣٦) .

لخلوتي بربِّي ، وإذا طلعَتْ . . حزنتُ لدخولِ الناسِ عليَّ)(١) .

وقالَ أبو سليمانَ : (أهلُ الليلِ في ليلِهِمْ أَلَذُّ مِنْ أهلِ اللهوِ في لهوِهِمْ ، ولولا الليلُ . . ما أحببتُ البقاءَ في الدنيا)(٢) .

وقالَ أيضاً : (لوْ عوَّضَ اللهُ سبحانَهُ أهلَ الليلِ مِنْ ثوابِ أعمالِهِمْ ما يجدونَهُ مِنَ اللذَّةِ . . لكانَ ذلكَ أكثرَ مِنْ ثوابِ أعمالِهِمْ)(٣) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ليسَ في الدنيا وقتٌ يشبهُ نعيمَ أهلِ الجنَّةِ إلا ما يجدُهُ أهلُ التملُّقِ في قلوبِهِمْ بالليلِ مِنْ حلاوةِ المناجاةِ)(٤) .

وقالَ بعضُهُمْ : (لذَّةُ المناجاةِ ليستْ منَ الدنيا ، إنَّما هيَ مِنَ الجنَّةِ أظهرَها اللهُ تعالىٰ لأوليائِهِ ، لا يجدُها سواهُمْ)(٥) .

وقالَ ابنُ المنكدرِ : (ما بقيَ مِنْ لذَّاتِ الدنيا إلا ثلاثٌ : قيامُ الليلِ ، ولقاءُ الإخوانِ ، والصلاةُ في الجماعةِ)(٦) .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ ينظرُ بالأسحارِ إلىٰ قلوبِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٥) .
(٣) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٤) قوت القلوب (١/ ٣٦) .
(٥) قوت القلوب (١/ ٣٦) بنحوه .
(٦) قوت القلوب (١/ ٣٧) .

المتيقِّظينَ فيملؤُها أنواراً ، فترِدُ الفوائدُ علىٰ قلوبِهِمْ فتستنيرُ ، ثمَّ تنتشرُ مِنْ قلوبِهِمْ العوافي إلىٰ قلوبِ الغافلينَ) .

وقالَ بعضُ العلماءِ مِنَ القدماءِ : (إنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعضِ الصديقينَ أنَّ لي عباداً مِنْ عبادي يحبونَنِي وأحبُّهُمْ ، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهم ، ويذكروني وأذكرُهُمْ ، وينظرونَ إليَّ وأنظرُ إليهِمْ ، فإنْ حذوتَ طريقَهُمْ . . أحببتُكَ ، وإنْ عدلْتَ عنهُمْ . . مقتُّكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ وما علامتُهُمْ ؟ قالَ : يراعونَ الظلالَ بالنهارِ كما يراعي الراعي غنمَهُ ، ويحنُّونَ إلىٰ غروبِ الشمسِ كما تحنُّ الطيرُ إلىٰ أوكارِها ، فإذا جنَّهُمُ الليلُ ، واختلطَ الظلامُ ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ . . نصبوا لي أقدامَهُمْ ، وافترشوا لي وجوهَهُمْ ، وناجَوْني بكلامي ، وتملَّقوا إليَّ بإنعامي ، فبينَ صارخٍ وباكٍ ، وبينَ متأوِّهٍ وشاكٍ ، بعيني ما يتحمَّلونَ مِنْ أجلي ، وبسمعي ما يشتكونَ مِنْ حبِّي ، أوَّلُ ما أعطيهِمْ أقذفُ مِنْ نوري في قلوبِهِمْ ، فيخبرونَ عنِّي كما أخبرُ عنهُمْ ، والثانيةُ : لوْ كانتِ السماواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ وما فيهما في موازينِهِمْ . . لاستقلَلْتُها لهُمْ ، والثالثةُ : أقبلُ بوجهي عليهِمْ ، فترىٰ مَنْ أقبلتُ بوجهي عليهِ أيعلمُ أحدٌ ما أريدُ أنْ أعطيَهُ ؟!)[1] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمَهُ اللهُ : (إذا قامَ العبدُ يتهجَّدُ مِنَ الليلِ . . قربَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٧) ، ومعنى (افترشوا وجوههم) أي : بالسجود .

منهُ الجبَّارُ عزَّ وجلَّ ، وكانوا يرونَ ما يجدونَ في قلوبِهِمْ مِنَ الرقَّةِ والحلاوةِ والأنوارِ مِنْ قربِ الربِّ عزَّ وجلَّ مِنَ القلبِ)[١] .

وهـٰذا لهُ سرٌّ وتحقيقٌ ، وستأتي الإشارةُ إليهِ في كتابِ المحبَّةِ .

وفي الأخبارِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ : (أيْ عبدي ؛ أنا اللهُ الذي اقتربتُ لقلبِكَ ، وبالغيبِ رأيتَ نوري)[٢] .

وشكا بعضُ المريدينَ إلىٰ أستاذِهِ طولَ سهرِ الليلِ ، وطلبَ حيلةً يجتلبُ بها النومَ ، فقالَ أستاذُهُ : يا بنيَّ ؛ إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ نفحاتٍ في الليلِ والنهارِ تصيبُ القلوبَ المتيقِّظةَ ، وتخطىءُ القلوبَ النائمةَ ، فتعرَّضْ لتلكَ النفحاتِ ، فقالَ : يا أستاذُ ؛ تركتني لا أنامُ بالليلِ ولا بالنهارِ[٣] .

واعلمْ : أنَّ هـٰذهِ النفحاتِ بالليلِ أرجىٰ ؛ لما في قيامِ الليلِ مِنْ صفاءِ القلبِ واندفاعِ الشواغلِ ، وفي الخبرِ الصحيحِ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ مِنَ الليلِ ساعةً لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ خيراً إلا أعطاهُ إيَّاهُ » ، وفي روايةٍ أخرىٰ :

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٥٩) عن مالك بن دينار قال : قرأت في التوراة : ابنَ آدم ؛ لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكياً ؛ فإني أنا الله الذي اقتربت لقلبك ، وبالغيب رأيت نوري ، قال مالك : يعني : تلك الرقة وتلك الفتوح الذي يفتح الله لك منه .

(٣) قوت القلوب (١/ ٣٦) .

« يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ خيراً مِنْ أمرِ الدنيا والآخرةِ إلا أعطاهُ إيَّاهُ ، وذلكَ كلَّ ليلةٍ »[1] .

ومطلوبُ القائمينَ تلكَ الساعةُ ، وهيَ مبهمةٌ في جملةِ الليلِ ؛ كليلةِ القدْرِ في شهرِ رمضانَ ، وكساعةِ يومِ الجمعةِ ، وهيَ ساعةُ النفحاتِ المذكورةِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) رواه مسلم (٧٥٧) .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلمْ : أنَّ إحياءَ الليلِ مِنْ حيثُ المقدارُ لهُ سبعُ مراتبَ :

المرتبةُ الأولىٰ : إحياءُ كلِّ الليلِ : وهٰذا شأنُ الأقوياءِ الذين تجرَّدوا لعبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتلذَّذُوا بمناجاتِهِ ، وصارَ ذلكَ غذاءً لهمْ وحياةً لقلوبِهِمْ ، فلمْ يتعبوا بطولِ القيامِ ، وردُّوا المنامَ إلى النهارِ في وقتِ اشتغالِ الناسِ .

وقدْ كانَ ذلكَ طريقَ جماعةٍ مِنَ السلفِ ، كانوا يصلُّونَ الصبحَ بوضوءِ العشاءِ ، حكىٰ أبو طالبٍ المكيُّ أنَّ ذلكَ حُكِيَ علىٰ سبيلِ الاشتهارِ عنْ أربعينَ مِنَ التابعينَ ، وكانَ فيهِمْ مَنْ واظبَ عليهِ أربعينَ سنةً ، قالَ : (منهُمْ سعيدُ بنُ المسيَّبِ وصفوانُ بنُ سليمٍ المدنيانِ ، وفضيلُ بنُ عياضٍ ووهيبُ بنُ الوردِ المكِّيَّانِ ، وطاووسٌ ووهبُ بنُ منبِّهٍ اليمانيانِ ، والربيعُ بنُ خُثَيمٍ والحكمُ الكوفيانِ ، وأبو سليمانَ الدارانيُّ وعليُّ بنُ بكَّارٍ الشاميَّانِ ، وأبو عبدِ اللهِ الخوَّاصُ وأبو عاصمٍ العَبَّادِيَّانِ ، وحبيبٌ أبو محمدٍ وأبو جابرٍ السلمانيُّ الفارسيانِ ، ومالكُ بنُ دينارٍ وسليمانُ التيميُّ ويزيدُ الرَّقاشيُّ وحبيبُ بنُ أبي ثابتٍ ويحيى البكَّاءُ البصريونَ ، وكَهْمَسُ بنُ المِنْهالِ وكانَ يختمُ في الشهرِ تسعينَ ختمةً ، وما لمْ يفهمْهُ . . رجعَ وقرأَهُ مرَّةً أخرىٰ ، وأيضاً مِنْ أهلِ المدينةِ

أبو حازمٍ ومحمدُ بنُ المنكدرِ في جماعةٍ يكثرُ عددُهُمْ)[1] .

***

المرتبةُ الثانيةُ : أنْ يقومَ نصفَ الليلِ : وهـٰذا لا ينحصرُ عددُ المواظبينَ عليهِ مِنْ السلفِ ، وأحسنُ طريقٍ فيهِ : أنْ ينامَ الثلثَ الأوَّلَ مِنَ الليلِ والسدسَ الأخيرَ منهُ ؛ حتَّىٰ يقعَ قيامُهُ في جوفِ **الليلِ** ووسطِهِ ، فهوَ الأفضلُ .

***

المرتبةُ الثالثةُ : أنْ يقومَ ثلثَ الليلِ : فينبغي أنْ ينامَ النصفَ الأوَّلَ والسدسَ الأخيرَ .

وبالجملةِ : نومُ آخرِ الليلِ محبوبٌ ؛ لأنَّهُ يذهبُ النعاسَ بالغداةِ ، وكانوا يكرهونَ ذلكَ[2] ، ويقلِّلُ صفرةَ الوجهِ والشهرةَ بهِ ، فلوْ قامَ أكثرَ الليلِ ونام سَحراً .. قلَّتْ صفرةُ وجههِ وقلَّ نعاسُهُ .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا أوترَ مِنْ آخرِ الليلِ ؛ فإنْ كانتْ لهُ حاجةٌ إلىٰ أهلِهِ .. دنا منهنَّ ، وإلاَّ ..

---

(١) قوت القلوب (١/ ٣٧ـ ٣٨) ثم قال : (هـٰؤلاء المشهورون منهم) ، وممن كان يحيي الليل كلَّه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وقد تقدم ذلك للمصنف قريباً ، وكان ينبغي عداده في الكوفيين ، فهو أفضلهم وأورعهم . « إتحاف » (٥/ ٢٠٠) .

(٢) أي : يكرهون النعاس بالغداة . « إتحاف » (٥/ ٢٠١) .

اضطجعَ في مصلاَّهُ حتَّىٰ يأتيَهُ بلالٌ فيؤذنَهُ للصلاةِ)[1] .

وقالتْ أيضاً رضيَ اللهُ عنها : (ما ألفيتُهُ السحرَ الأعلىٰ إلا نائماً)[2] ، حتَّىٰ قالَ بعضُ السلفِ : هـٰذهِ الضجعةُ قبلَ الصبحِ سنةٌ ، منهُمْ أبو هريرة رضيَ اللهُ عنهُ[3] .

وكانَ نومُ هـٰذا الوقتِ سبباً للمكاشفةِ والمشاهدةِ مِنْ وراءِ حجبِ الغيبِ وذلكَ لأربابِ القلوبِ ، وفيهِ استراحةٌ تعينُ على الوِردِ الأوَّلِ مِنْ أورادِ النهارِ .

وقيامُ ثلثِ الليلِ مِنَ النصفِ الأخيرِ ونومُ السدسِ الأخيرِ قيامُ داوودَ عليهِ السلامُ[4] .

* * *

المرتبةُ الرابعةُ : أنْ يقومَ سدسَ الليلِ أوْ خمسَهُ : وأفضلُهُ : أنْ يكونَ في النصفِ الأخيرِ وقبلَ السدسِ الأخيرِ منهُ .

* * *

---

(١) رواه البخاري (١١٤٦) ، ومسلم (٧٣٩) بنحوه .
(٢) رواه البخاري (١١٣٣) ، ومسلم (٧٤٢) .
(٣) هـٰذه الضجعة تكون قبل سنة الصبح ، وهي مستحبة لمن يقوم الليل لما ورد ، واستحباب أبي هريرة في « القوت » (١/ ٣٨) .
(٤) كما في « البخاري » (١١٣١) ، ومسلم (١١٥٩) .

المرتبةُ الخامسةُ : **ألاَّ يُراعيَ التقديرَ** : فإنَّ ذلكَ إنَّما يتيسَّرُ لنبيٍّ يُوحىٰ إليهِ ، أوْ لمَنْ يعرفُ منازلَ القمرِ ويوكِّلُ بهِ مَنْ يراقبُهُ ويواظبُهُ ويوقظُهُ ، ثمَّ ربما يضطربُ في ليالي الغيمِ ، ولكنَّهُ يقومُ مِنْ أوَّلِ الليلِ إلىٰ أنْ يغلبَهُ النومُ ، فإذا انتبهَ . . قامَ ، فإذا غلبَهُ النومُ . . عادَ إلى النومِ ، فيكونُ لهُ في الليلِ نومتانِ وقومتانِ ، وهوَ مِنْ مكابدةِ الليلِ ، وأشدِّ الأعمالِ وأفضلِها .

وقدْ كانَ هـٰذا مِنْ أخلاقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[(١)] ، وهوَ طريقةُ ابنِ عمرَ ، وأولي العزمِ مِنَ الصحابةِ ، وجماعةٍ مِنَ التابعينَ رضيَ اللهُ عنهُم[(٢)] .

وكانَ بعضُ السلفِ يقولُ : (هيَ أوَّلُ نومةٍ ، فإذا انتبهتُ ثمَّ عدتُ إلى النومِ . . فلا أنامَ اللهُ عيني)[(٣)] .

فأمَّا قيامُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ حيثُ المقدارُ . . فلمْ يكنْ علىٰ ترتيبٍ واحدٍ ، بلْ ربما كانَ عليهِ السلامُ يقومُ نصفَ الليلِ أوْ ثلثَهُ أوْ ثلثيهِ أوْ سدسَهُ ، يختلفُ ذلكَ في الليالي ، ودلَّ عليهِ قولُهُ تعالىٰ في الموضعينِ

---

(١) رواه أبو داوود (١٤٦٦) واللفظ له ، والترمذي (٢٩٢٣) ، والنسائي (٣/ ٢١٤) عن أم سلمة رضي الله عنها : (كان يصلي وينام قدر ما صلىٰ ، ثم يصلي قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلىٰ حتىٰ يصبح) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٣٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٠) .

مِنْ (سورةِ المزمِّلِ) : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ ، فأدنىٰ مِنْ ثلثي الليل كأنَّهُ نصفُهُ ، ونصفُ سدسِهِ ، فإنْ كُسِرَ قولُهُ : ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ . . كانَ نصفَ الثلثينِ وثلثَهُ ، فيقربُ مِنَ الثلثِ والربعِ ، وإنْ نُصِبَ . . كانَ نصفَ الليلِ وثلثَهُ[1] .

وقدْ قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (كانَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقومُ إذا سمعَ الصارخَ) يعني : الديكَ[2] ، وهـٰذا يكونُ السدسَ فما دونَهُ .

ورُوِيَ عنْ بعضِ الصحابةِ أنَّهُ قالَ : راعيتُ صلاةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في السفرِ ليلاً ، فنامَ بعدَ العشاءِ زماناً ، ثُمَّ استيقظَ ، فنظرَ في الأفقِ فقالَ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾ حتَّىٰ بلغَ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ ، ثُمَّ استلَّ مِنْ فراشِهِ سواكاً فاستاكَ بهِ ، وتوضَّأَ ، وصلَّىٰ حتَّىٰ قلتُ : قدْ صلَّىٰ مثلَ الذي نامَ ، ثُمَّ اضطجعَ حتَّىٰ قلتُ : قدْ نامَ مثلَ ما صلَّىٰ ، ثُمَّ استيقظَ ، فقالَ ما قالَ أوَّلَ مرَّةٍ ، وفعلَ ما فعلَ أوَّلَ مرَّةٍ[3] .

---

(١) قال أبو علي الفارسي في « الحجة » (٦/ ٣٣٦) : (قرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر : ﴿ وَنِصْفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ ﴾ كسراً ، وقرأ الباقون : ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ نصباً ، من نصب فقال : ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ . . حمله علىٰ ﴿ أَدْنَىٰ ﴾ ، وأدنىٰ في موضع نصب ، قال أبو عبيدة : أدنىٰ : أقرب ، فكأنه : إن ربك يعلم أنك تقوم أدنىٰ من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه ، وأما من جرَّ فقال : ﴿ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ ﴾ . . فإنه يحمله على الحال) ، وانظر « القوت » (١/ ٣٩) .

(٢) رواه البخاري (١١٣٢) ، ومسلم (٧٤١) ، و(إذا) في الحديث لمجرد الظرفية ، لا للشرط .

(٣) رواه النسائي (٣/ ٢١٣) بنحوه .

المرتبةُ السادسةُ : وهي الأقلُّ ، أنْ يقومَ مقدارَ أربعِ ركعاتٍ أوْ ركعتينِ ، أوْ تتعذَّرُ عليهِ الطهارةُ فيجلسُ مستقبلَ القبلةِ ساعةً مشتغلاً بالذكرِ والدعاءِ : فيُكتبُ في جملةِ قوَّامِ الليلِ برحمةِ اللهِ وفضلِهِ .

وقدْ جاءَ في الأثرِ : « صلِّ مِنَ الليلِ ولو قدْرَ حلبِ شاةٍ »[1] .

* * *

فهـٰذهِ طرقُ القسمةِ ، فليتخيَّرِ المريدُ لنفسِهِ ما يراهُ أيسرَ عليهِ .

وحيثُ يتعذَّرُ عليهِ القيامُ في وسَطِ الليلِ .. فلا ينبغي أنْ يهملَ إحياءَ ما بينَ العشاءينِ والوِردَ الذي بعدَ العشاءِ ، ثمَّ يقومُ قبلَ الصبحِ وقتَ السحرِ ، فلا يدركُهُ الصبحُ نائماً ، ويقومُ بطرفي الليلِ ، **وهـٰذهِ هيَ الرتبةُ السابعةُ .**

* * *

ومهما كانَ النظرُ إلى المقدارِ فترتيبُ هـٰذهِ المراتبِ بحسَبِ طولِ الوقتِ

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٦٧٧) ، ولفظه عن ابن عباس رضي الله عنهما : فذكرت صلاة الليل ، فقال بعضهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نصفه ، ثلثه ، ربعه ، فُواقَ حلب ناقة ، فواق حلب شاةٍ » ، وأورده في « القوت » (٣٩/١) وقال : (فهـٰذا قد يكون أربع ركعات ، وقد يكون ركعتين) ، وروى ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٨) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢٩١/١) مرسلاً : « لا بد من قيام الليل ولو حلب ناقة ، ولو حلب شاة ، وما كان بعد العشاء الآخرة فهو من الليل » .

وقصرِهِ[1] ، وأمَّا في الرتبةِ الخامسةِ والسابعةِ . . لمْ ينظرْ فيهما إلى المقدارِ ، فليسَ يجري أمرُهُما في التقدُّمِ والتأخُّرِ على الترتيبِ المذكورِ ؛ إذِ السابعةُ ليستْ دونَ ما ذكرناهُ في السادسةِ ، ولا الخامسةُ دونَ الرابعةِ .

* * *

(١) في مراعاة النصف والثلث والسدس ونحو ذلك ، وهو مختلف بين الشتاء والصيف .

بيان الليالي والأيام الفاضلة

اعلمْ : أنَّ الليالي المخصوصةَ بمزيدِ الفضلِ التي يتأكَّدُ فيها استحبابُ الإحياءِ في السنةِ خمسَ عشرةَ ليلةً .

لا ينبغي أنْ يغفُلَ المريدُ عنها ؛ فإنَّها مواسمُ الخيراتِ ، ومظانُّ التجاراتِ .

ومتىٰ غفَلَ التاجرُ عنِ المواسمِ . . لمْ يربحْ .

ومتىٰ غفَلَ المريدُ عنْ فضائلِ الأوقاتِ . . لمْ ينجحْ .

* * *

فستٌّ مِنْ هٰذهِ الليالي في شهرِ رمضانَ :

خمسٌ في أوتارِ العشرِ الأخيرِ ، إذْ فيها تطلبُ ليلةُ القدْرِ .

وليلةُ سبعَ عشرةَ مِنْ رمضانَ ، فهيَ ليلةٌ صبيحتُها يومُ الفرقانِ يومَ التقى الجمعانِ ، فيهِ كانتْ وقعةُ بدرٍ .

وقالَ ابنُ الزبيرِ رحمهُ اللهُ : هيَ ليلةُ القدْرِ(١) .

* * *

(١) كذا في « القوت » (١/ ٦٢) ، وروىٰ أنها ليلة القدر كذلك الطبراني في « الكبير » (١٩٨/٥) عن زيد بن الأرقم رضي الله عنه ، (٢٢١/٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وأمَّا التسعُ الأُخَرُ :

فأوَّلُ ليلةٍ مِنَ المحرَّمِ[(١)] ، وليلةُ عاشوراءَ[(٢)] ، وأوَّلُ ليلةٍ مِنْ رجبٍ[(٣)] ، وليلةُ النصفِ منهُ ، وليلةُ سبعٍ وعشرينَ منهُ وهيَ ليلةُ المعراجِ ، وفيها صلاةٌ مأثورةٌ .

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للعاملِ في هٰذهِ الليلةِ حسناتُ مئةِ سنةٍ ، فمَنْ صلَّىٰ فيها اثنتي عشرةَ ركعةً ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ (فاتحةَ الكتابِ) وسورةً مِنَ القرآنِ ، يتشهَّدُ في كلِّ ركعتينِ ويسلِّمُ في آخرهنَّ ، ثمَّ يقولُ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ مئةَ مرَّةٍ ، ثمَّ

---

(١) ونقل الإمام القرطبي في « تفسيره » (٢٠/ ٣٨) عن ابن عباس وقتادة أن فجر هٰذه الليلة هو الذي أقسم الله تعالىٰ به مطلع (سورة الفجر) .
قال : (هو فجر أول يوم من المحرم ، منه تنفجر السنة) ، وهو مطلع سنة جديدة .
وفي الحديث الذي رواه الترمذي (٩٨١) : « ما من حافظين رفعا إلى الله ما حفظا من ليل أو نهار ، فيجد الله من أول الصحيفة وفي آخر الصحيفة خيراً . إلا قال الله تعالىٰ : أشهدكم أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » .

(٢) وفضل هٰذا اليوم ورد في الصحيح ، ونقل الحافظ ابن رجب في « لطائف المعارف » (ص١١٤) عن أبي موسى المديني مرفوعاً : « هٰذا يوم تاب الله فيه علىٰ قوم ، فاجعلوه صلاة وصوماً » يعني يوم عاشوراء .

(٣) روىٰ عبد الرزاق في « المصنف » (٤/ ٣١٧) والبيهقي في « الشعب » (٣٤٤٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما : (خمس ليال لا يرد فيهن الدعاء : ليلة الجمعة ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلتي العيد) .
ورواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٣١٩) عن الشافعي بلاغاً .

يستغفرُ اللهَ مئةَ مرَّةٍ ، ويصلِّي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مئةَ مرَّةٍ ، ويدعو لنفسِهِ بما شاءَ مِنْ أمرِ دنياهُ وآخرتِهِ ، ويصبحُ صائماً . فإنَّ اللهَ تعالىٰ يستجيبُ دعاءَهُ كلَّهُ إلا أنْ يدعوَ في معصيةٍ »[1] .

وأمَّا ليلةُ النصفِ مِن شعبانَ : ففيها مئةُ ركعةٍ ، يقرأُ في كلِّ ركعةٍ بعدَ (الفاتحةِ) (سورةَ الإخلاصِ) عشرَ مرَّاتٍ ، كانوا لا يتركونَها كما أوردناهُ في صلاةِ التطوُّعِ .

وليلةُ عرفةَ ، وليلتا العيدينِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحيا ليلتيِ العيدِ . لمْ يمتْ قلبُهُ يومَ تموتُ القلوبُ »[2] .

* * *

وأمَّا الأيامُ الفاضلةُ :

فهيَ تسعةَ عشرَ ، يُستحبُّ مواصلةُ الأورادِ فيها :

يومُ عرفةَ ، ويومُ عاشوراءَ ، ويومُ سبعةٍ وعشرينَ مِنْ رجبٍ ، لهُ شرفٌ عظيمٌ ، روىٰ أبو هريرةَ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ صامَ يومَ سبعةٍ وعشرينَ مِنْ رجبٍ . كتبَ اللهُ لهُ صيامَ ستينَ شهراً ، وهوَ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (ذكر أبو موسى المديني في كتاب « فضائل الأيام والليالي » : أن أبا محمد الخبازي رواه من طريق الحاكم أبي عبد الله من رواية محمد بن الفضل ، عن أبان ، عن أنس ، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان) . « إتحاف » (٥/ ٢٠٥) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٧٨٢) بلفظ : « من قام ليلتي . . . » .

اليومُ الذي هبطَ فيهِ جبريلُ عليهِ السلامُ علىٰ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالرسالةِ »(١) .

ويومُ سبعةَ عشرَ مِنْ شهرِ رمضانَ ، وهوَ يومُ وقعةِ بدرٍ .

ويومُ النصفِ مِن شعبانَ ، ويومُ الجمعةِ ، ويوما العيدينِ .

والأيامُ المعلوماتُ ؛ وهي عشْرُ ذي الحجَّةِ .

والأيامُ المعدوداتُ ؛ وهيَ أيامُ التشريقِ .

وقدْ روىٰ أنسٌ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إذا سلمَ يومُ الجمعةِ . . سلمتِ الأيامُ ، وإذا سلمَ شهرُ رمضانَ . . سلمتِ السنةُ »(٢) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (مَنْ أخذَ مهناهُ في الأيامِ الخمسةِ في الدنيا . . لمْ ينلْ مهناهُ في الآخرةِ)(٣) .

وأرادَ بهِ : العيدينِ ، والجمعةَ ، وعرفةَ ، وعاشوراءَ .

* * *

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٢٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٢٣٤) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٦٢) عن أنس ، وقد رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٤٣٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .
ويشهد لمعناه حديث طرفي الصحيفة المتقدم قريباً ، وانظر « الإتحاف » (٥/ ٢٠٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ٦٢) .

ومِنْ فواضلِ الأيامِ في الأسبوعِ :

يومُ الخميسِ والاثنينِ ، ترفعُ فيهما الأعمالُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وقدْ ذكرنا فضائلَ الأشهرِ والأيامِ للصيامِ في كتابِ الصومِ ، فلا حاجةَ إلى الإعادةِ ، واللهُ أعلمُ .

وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً مِنْ كلِّ العالمينَ .

* * *

تمَّ كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات ، وتفصيل إحياء الليل

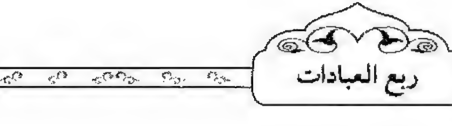
وهو آخر ربع العبادات من كتاب إحياء علوم الدين

بحمد الله وعونه وتأييده ونصره

وصلاته على خيرته من خلقه سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

يتلوه ربع العادات

وهو الرّبع الثاني من كتاب إحياء علوم الدين



محتوى الكتاب

ربعُ العِبادَاتِ / القِسمُ الثّاني